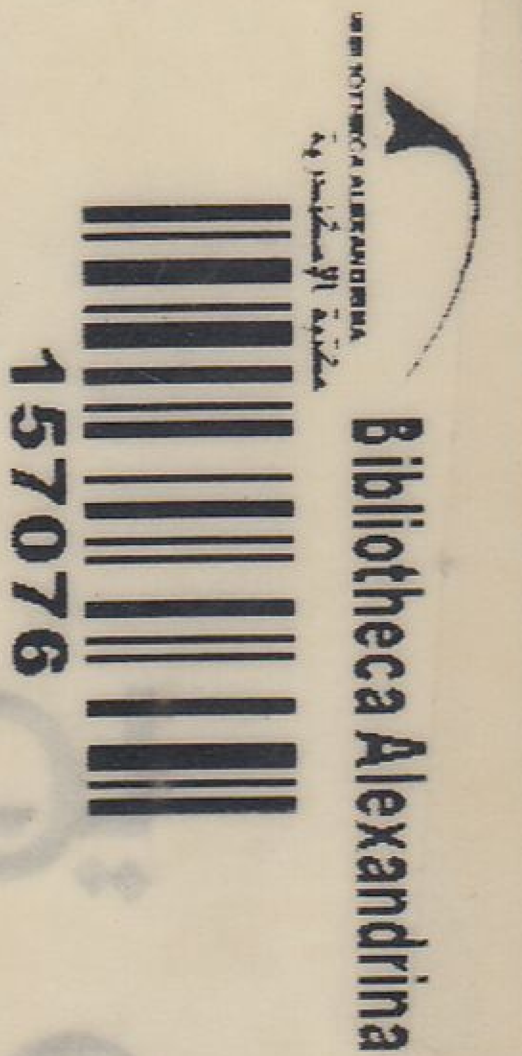
المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

أمراء الموساد

سي ميلمان
ان رافيف

ترجمة:
محمود برهوم / حزامة حبايب




أمراء
الموساد

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر

المركز الرئيسي:
بيروت، ساقية الجنزير، بناية
برج الكارلتون، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي، هـ ٨٠٧٩٠٠/١
تلكس: LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧

دار الفارس للنشر والتوزيع: عمّان
ص.ب: ٩١٥٧، هاتف: ٦٠٥٤٣٢، فاكس
٦٨٥٥٠١ - تلكس ٢١٤٩٧

الطبعة الثّانية
١٩٩٢

أمراء الموساد

يوسي ميلمان
دان رافيف

ترجمة :
محمود برهوم / حزامة حبايب

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر

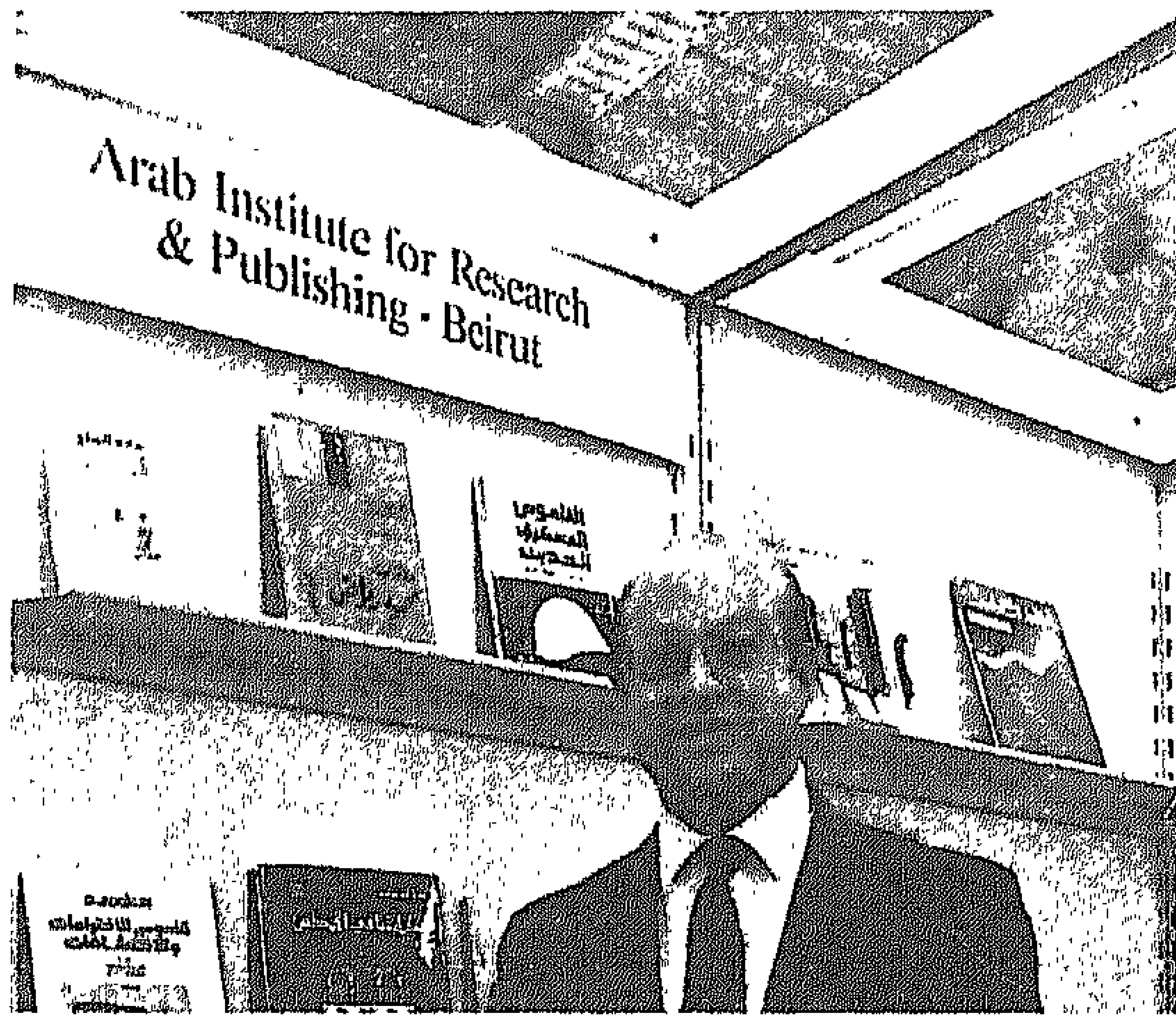
EVERY SPY A PRINCE

The Complete History of Israel's Intelligence Community

Dan Raviv *and*
Yossi Melman

A Marc Jaffe Book

HOUGHTON MIFFLIN COMPANY/BOSTON



مقدمة الناشر

يسرد هذا الكتاب التاريخ الشامل لنشاطات اجهزة الاستخبارات الاسرائيلية بفروعها المتعددة وعلى رأسها جهاز الموساد الذي يتولى العمليات الخارجية، وجهاز آمان وهو الذراع المخابراتي للاجهزة العسكرية، والشين بيت وهو الجهاز المسؤول عن الأمن الداخلي وهو يماثل جهاز التحقيقات الفدرالية الامريكي (FBI).

وهذا الكتاب «امراء الموساد» يكشف وربما لأول مرة عن وجود اجهزة اخرى للتجسس الى جانب الاجهزة السابقة الذكر وكذلك يكشف عن تطوير اسرائيل وانظمة تسلح جديدة. كذلك يتناول الكتاب مسألة التهديدات المستقبلية لاستخدام الاسلحة الكيميائية والبيولوجية والنووية في الشرق الاوسط. ويسلط الكتاب اضواء جديدة على العمليات الشهيرة للموساد ومنها عملية عنتيبي، وعملية ضرب المفاعل النووي العراقي عام ١٩٨١، كذلك قضية الجاسوس الامريكي بولارد بتشعباتها السياسية المعقدة، وكذلك القمع الوحشي للانتفاضة الفلسطينية في الضفة الغربية وغزة. وحين نختار اي كتاب صادر عن اسرائيلي او موال لاسرائيل فان اختيارنا يجيء من ايماننا بضرورة الاطلاع على ما يكتبون وكيف يعيدون رواية الاحداث التي جرت حتى نعرف كيف نتصرف وكيف ننظر الى اسرائيل من خلال ما يقوله رجالها والمطبلون لها ولانجازاتها وبطولاتها التي يحاول الاسرائيليون بها ان يزرعوا في قلوبنا الخوف من قدرتهم على التسلل الى كل مكان في العالم.

هذا الكتاب الذي صدر بعنوان «امراء الموساد» عبارة عن تأريخ للتجسس الاسرائيلي قبل قيام اسرائيل في عام ١٩٤٨، أي أيام العصابات السيئة الصيت التي كانت تعتمد الارهاب والترويع اسلوبا لها.. ويسرد الكتاب البطولات الزائفة لرجال الجاسوسية الاسرائيلية بعد قيام الدولة وحتى نهاية عام ١٩٨٩.

نعود ونقول ان الهدف من ترجمة مثل هذا الكتاب الذي يصور قدرة المخابرات الاسرائيلية المزعومة في كل مكان على الارض، هو تنوير القارىء بالقاعدة الذهبية التي استندت اليها وهي شراء الذمم والقتل والارهاب في اغلب الاحيان والتفريط بالشرف الاسرائيلي من خلال توظيف النساء في عمليات الاغراء والاغواء.

«كل جاسوس امير» هي النظرية التي اعتمدها مجتمع اسرائيل الاستخباري منذ بدىء بتأسيسه لذلك تم الباس الجواسيس عباءة أضفت عليهم هالة الاشخاص المخيفين والآسرين والقادرين على كل شيء.

الناشر

الفصل الأول

الخطوات الاولى

وصل نصف دزينة من الرجال بلباس الكاكي ـ في سيارات منفصلة ـ الى شارع ٨٥ بن يهودا في يوم صيفي مثالي في تل ابيب: ٣٠ حزيران ١٩٤٨، يوم حار ورطب. واختفوا، بشكل فردي، في البناية الشققية المطروشة التي كانت مماثلة للمباني الاخرى في الضاحية السكنية المألوفة، وعلى اية حال فانه بعد صعود بعض الدرجات ووراء باب عليه اشارة «خدمات استشارية» كان مقرّ شاي.

كانت كلمة شاي عبارة عن الحروف الأولى من عبارة «شيروت يديوت»، وهي عبارة عبرية تعني «خدمة الاعلام»، ذراع المخابرات لجيش يهود فلسطين السري قبل عام ١٩٤٨، الذي كان يعرف باسم الهاغاناه، وهو يعني «الدفاع». وقد تم ابتلاع الهاغاناه على يد الجيش الاسرائيلي مع مولده في ١٥ ايار. وبعد ستة اسابيع كانت نهاية شاي وبداية مجتمع المخابرات الاسرائيلية.

كانت مجموعة فريدة في موضع فريد. وفي غمرة حربها الأولى كان على اسرائيل الحديثة المولد ان تجد طريقة لتلبية حاجاتها الامنية والدفاعية بينما تقيم ديمقراطية دائمة. وكان الرجال الذين تجمعوا في تل ابيب في ذلك اليوم الاخير من حزيران الآباء المؤسسين للوكالات السرية التي اصبحت مجتمع المخابرات الاسرائيلية.

كانوا ذوي خبرة واسعة في العمليات السرية: التجسس، والتهريب وجمع المعلومات بكل الوسائل مهما كانت قاسية ـ كل ذلك باسم الكفاح من اجل الاستقلال الصهيوني. لكن عندما اصبح الامر يتعلق بالديمقراطية فلم يكونوا سوى مراقبين ولم يكونوا مشاركين بشكل كـامل. وكانوا شاهدوا البريطانيين وهم يعملون، كرجال مخابرات يتصدون للحركات السرية اليهودية في فلسطين وكسياسيين في «ام الديمقراطية» في لندن، وقد احبّوا الناحيتين.

ومع هذا فقد كانت مشكلتهم كيف يقلّدون ما رأوا، فلم يكن هنالك أية وصفة فورية للدفاع عن بلد في حالة حرب دون الدوس على قيمه الديمقراطية، وبخاصة في الشرق الاوسط حيث لم يكن للافكار الغربية أي أتباع طبيعيين.

قائد شاي البالغ من العمر سبعة واربعين عاما، العقيد ايسر بيري، ترأس الجلسة الاخيرة لفرقته البالغة الفعالية، وكانت عيناه الصغيرتان تنتقلان بسرعة من رجل الى آخر بينما كانوا يتخذون مقاعدهم حول طاولة طعام خشبية قديمة. وكان المخضرمون السريون يتحدثون بينما كانوا ينظرون الى عناوين صحف ذلك اليوم - المليئة كالمعتاد، بتقارير من الجبهات المختلفة «لحرب استقلال» اسرائيل. وكانت المعركة من اجل وجود اسرائيل قد بدأت في يوم مولدها، عندما هجمت جيوش كل الاقطار العربية المحيطة بها!

تنحنح بيري ليجلب الانتباه وقال: لقد عدت توّاً من اجتماع مع ها - زاكن (الرجل العجوز) وهي اشارة الى دافيد بن غوريون، اول رئيس وزراء لاسرائيل، والذي كان ايضا يوجه الحرب كوزير دفاع لنفسه!

انتصب ضباط شاي في جلستهم حيث بدا ان هنالك اعلانا قادما من حكيم اسرائيل ذي الشعر الابيض، فقد كان بن غوريون، ابن الثانية والستين، اكبر رجال الحكم سنا في اسرائيل والنور المرشد.

تريث بيري فيما رجاله ينتظرون، ثم قال: «قبل ان نبدأ في جدول الاعمال الذي جاء بكم الى هنا، سوف اخبركم بآخر المعلومات عن الحرب». قال لزملائه انه بينما اوقف جيش اسرائيل العدو الاكبر عددا فقد واصل المصريون حشودهم على بعد عشرين ميلا فقط من تل ابيب، بينما يهدد السوريون مزارع الكيبوتز قرب بحيرة طبرية. كما ان الصورة اكثر قتامة في القدس التي يحاصرها الجيش العربي الاردني.

واضاف بيري: «على اية حال فان رئيس الوزراء ينظر الى ما هو ابعد من الوضع الراهن» فعلى المدى البعيد كان بن غوريون قد اخبر رئيس شاي، بان دفاع اسرائيل لا بد ان يشمل المخابرات، وليست مخابرات جيدة بل مخابرات عظيمة.

كما قال بيري فان «جدول الاعمال» الفوري يتمثل في كيفية تنفيذ تعليمات رئيس الوزراء حلّ شاي واستخدام رجالها كأساس لمجتمع منظم حديثا».

لم يكن الامر مجرد اطلاق اسم جديد على «شاي»، فذراع مخابرات الهاغاناه يمكن ان يهضم نفسه مع جماعات سرية صهيونية اخرى كانت قائمة قبل الدولة لتنتج اربع وكالات في مجموعة:

المخابرات العسكرية: اعلن بيري انه سيرأس من الآن فصاعدا الوكالة المهيمنة في المجموعة الجديدة، التي اسميت في ذلك الحين دائرة مخابرات الجيش. اما «جناح المخابرات» الذي عرف فيما بعد باسم امان، وهو عبارة عن الحروف الاولى من عبارة اغاف هار موداعين، فقد كلفت الوحدة بمهمات واسعة الانتشار تتراوح بين جمع المعلومات عن الجيوش العربية، وتمرّ عبر مراقبة الصحف الاسرائيلية، الى الحفاظ على الأمن داخل جيش اسرائيل، مع قدر من

التجسس المعتاد. كان بيري معروفا بحاجبيه الداكنين، وذقنه ذي الفلع العميق وشعره الابيض الذي كان يحيط بجانبي رأسه الاصلع، وفوق ذلك فقد كان طويلا جدا حتى انه كان يعرف بكنيته: ايسر ها غادول، اي ايسر الضخم. وكان اسمه عندما ولد في عام ١٩٠١ ايسر بيرنيتزويغ، لكنه اختار، كما فعل معظم روّاد اسرائيل، اسم اسرة يهودية، وقد اثبت نفسه في الهاغاناه وشاي منذ عام ١٩٣٨ كمتعصب ازاء موضوع واحد وهو الفساد، فهو لم يكن يرضى عنه، فقد رأى ان اسرائيل لا بدّ ان تكون مجتمعا مثاليا.

جهاز سري داخلي: قال بيري لرجل شاي المخضرم، ايسر هاريل، بانه سيصبح مدير الوكالة التي تعرف الآن باسم شين بيت ـ وهي كلمة تحمل الحرفين العبريين الاوليين من عبارة شيروت هابيتاشون هـا كلالي او «جهاز الامن العام». كان هاريل يقوم بتغيير اسمه من ايسر ها لبرين، وهو اسمه عندما ولد في روسيا في عام ١٩١٢ وكان تخصصه في شاي مراقبة اليهود اليمينيين الذين رفضوا سلطة بن غوريون والهاغاناه، وقد ناسبه المنصب الجديد كثيرا لان وجهة نظره ان الاعداء داخل حدود اسرائيل يمكن ان يكونوا في مثل خطورة الاعداء خارجها، وقد آمن في معيار صارم للسلوك بالنسبة للمدافعين عن اسرائيل، وكان يشبه بيري الا في شعره ولون بشرته الاكثر سمرة واذنيه الاكبر وقامته القصيرة، وهي صفات ادت الى اطلاق كنية مناقضة لكنية ايسر: ايسرها كاتان «ايسر الصغير».

جهازمخابرات خارجي: قام بيري باعلام بوريس غوريل انه كرئيس جديد للدائرة السياسية في وزارة الخارجية سيكون جزءا من مجتمع المخابرات تكون مسؤوليته جمع المعلومات خارج اسرائيل.

وكرجل ولد في لاتفيا قبل حوالي خمسين سنة باسم بوريس غورفيتش، فقد كان له خبرةكبيرة بالاجانب، فكجندي بريطاني في الحرب العالمية الثانية، أسره الالمان وبعد اجتيازه تلك المحنة اصبحت وظيفته في شاي ان يتجسس على سلطات الانتداب البريطاني في فلسطين.

معهد آليه ب: اضاف بيري ان ها موساد لي الية بيت ـ معهد آليه ب سيستمر في القيام بعمله السري بتوجيه شاؤول افيغور، مع ان مهمته الاصلية المتمثلة في تهريب اليهود الى فلسطين يمكن تعديلها الآن بعد ان اصبحت الهجرة الى اسرائيل قانونية وعندما تم تشكيل الهاغاناه في عام ١٩٣٧، فقد ميّزها اسمها عن «الآليه» المشروعة او «الهجرة»، من قبل اليهود القلائل المحظوظين الذين حصلوا على تصاريح دخول من البريطانيين.

كان رئيس اليه ب ـ الذي ولد في عام ١٨٩٩ في لاتفيا باسم شاؤول مايروف، قد ساعد في تأسيس «شاي» في عام ١٩٣٤، وكان في عام ١٩٤٨ مشغولا، بصفته وزير دفاع بن غوريون، بشراء الاسلحة من الخارج «لحرب الاستقلال»، وحمل اسم افيغور ـ أي ابو غور ـ احياء لابنه

غور ما يروف الذي مات في اول حرب لاسرائيل.

لم يحضر افيغور مولد مجموعة المخابرات في تل ابيب، كما لم يحضره المؤسس الآخر لشاي، روفن شيلوه. لكن كمستشار خاص لرئيس الوزراء حول الشؤون الخارجية واستراتيجية الخارج فقد كان شيلوه هو الذي تصوّر اعادة التنظيم. لم يجد اسم شيلوه طريقه الى قائمة الابطال الوطنيين الذين يجلّهم الطلاب اليهود في كل انحاء العالم ـ من المحاربين التوراتيين الى جنود اسرائيل الحديثة. فالرجال والنساء الذين يعملون في العالم السري للجاسوسية نادرا ما يلقون التقدير الذي يستحقون، وعلى هذا فانه لا بدّ من تذكرّ شيلوه على انه «السيد مخابرات».

كان زملاءشيلوه يلاحظون الندبة على خده الايمن، وهي تذكير دائم بالشظية الحارة التي اصابته عندما انفجرت سيارة عربية ملغومة في اذار ١٩٤٧، قرب مكاتب الوكالة اليهودية في القدس، والتي كانت الحكومة غير الرسمية ليهود فلسطين قبل الاستقلال.

كان شيلوه يجيد طرح الاسئلة لكنه كان يتطوع باعطاء القليل جدا من المعلومات، كان ذئبا منعزلا مع نفسه يعمل كل ما في وسعه وراء الكواليس، ومخططا منهجيا ومفكرا تحليليا يصدر توصياته بلا تلوين عاطفي او اضافات، ومع انه كان في حياته العملية واقعيا الا انه كان في حياته الشخصية يفضل الغموض.

هاجاي ايشيد، كاتب سيرة حياته، يقول: لقد اعتاد شيلوه على اعطاء تفاصيل مختلفة ومتناقضة في المقابلات والاستبيانات التي عبأها حول حياته، حيثما كانت الحقائق بلا اهمية خاصة، كما لو انه كان يريد ان يحيط نفسه بالسرية المطلقة.

ابا ايبان ـ صديقه الدبلوماسي الاسرائيلي البارز قال عنه: عندما كان روفن شيلوه يركب سيارة اجرة لم يكن يخبر السائق عن اتجاهه، وكان كل ما يصدر عنه امرا قصيرا موجزاً: تحرّك.. وعندما كان السائق يفقد صبره يسأله: الى اين؟ عندها يحملق شيلوه بنظرته الفاحصة غير الواثقة كما لو كان يواجه جاسوسا خطرا.

لقد ولد عميلا سريا، مع انه لم يكن هنالك اي مؤشر على ذلك في كانون اول ١٩٠٩، عندما جاء الى العالم باسم روفن زاسلانسكي، كانت الاسرة تعيش في حي يهودي ارثوذكسي في القدس التي كانت في ذلك الوقت تحت الحكم العثماني، وكان والد روفن، اسحاق زاسلانسكي حاخاما هيأ لاولاده الاربعة ـ بنتين وولدين ـ ارضية للمعرفة العامة، ولم يتوقف بهم عند التعليم الديني الذي سيطر على حياة المجتمع.

لقد اشار معلمو روفن انه كان طالبا جاداً وموهوبا ونادرا ما كان يتحدث لكنه كان بين الحيَن والاخر يظهر قدرا من خفة الروح. وكان ممتازا في الدراما، حيث اظهر مهارة في التمثيل اخذ يوظفها فيما بعد في عمله المخابراتي. كما كان مستقلا في التفكير ومع وصوله الى المدرسة العليا

كان قد تخلّى عن طعام الكوشير وعن سائر نمط الحياة الدينية لأسرته.

كان يستطيع ان يكون ساحرا عندما يريد، وحين كان يعلم العبرية لمهاجرين جدد من اميركا بدا يغازل بيتي بوردن، وهي عاملة اجتماعية من نيويورك، وقد تزوجا في عام ١٩٣٦.

انصب حبه الكبير الآخر نحو الهاغاناه، حيث لاحظ بن غوريون والقادة الآخرون مواهبه بسرعة، فدفعوا به على سلّم القيادة وردّ لهم بالاخلاص الشديد.

وكجزء من انخراطه في صفوف كبار الناشطين الصهاينة فقد قلّص اسمه من زاسلانسكي الى زاسلاني ثم تبنّى فيما بعد كنيته السرية «شيلوه»، ولم يكن اي اسم آخر يناسبه اكثر، لانه مشتق من الكلمة العبرية «شاليه»، التي تعني المبعوث، وقد تم استخدامه في مرات كثيرة كمبعوث رفيع المستوى في عدة مهمات سرية مندوبا عن بن غوريون.

لم يكن هذا العمل حتى الآن عمل مخابرات حقيقيا لكن سفرات شيلوه السرية شملت البذور الاولى التي نمت فيما بعد في وجهة نظره للمخابرات، والمعرفة الواضحة للاعداء والجمع الشامل للمعلومات عنهم، والسعي الشخصي الى الحلفاء. وكان على اليهود في الشرق الاوسط ان يميزوا بين الاصدقاء والاعداء.

كانت اول مهمة خارجية لشيلوه في اب ١٩٣١، قبل ان يبلغ عيد ميلاده الثاني والعشرين، فقد زرعته الوكالة اليهودية في عمق العالم العربي: في بغداد، عاصمة العراق. وكان غطاؤه وظيفة معلّم كما قدّم نفسه كصحفي غير متفرغ، الامر الذي جعل رحلاته في العراق تبدو طبيعية، وخلال ثلاث سنوات من المقابلات المفترضة لمقالاته الصحفية، جمع شيلوه شبكة مثيرة من مصادر المعلومات.

كان ابرز درس تعلمه شيلوه حين كان يشق طريقه في جبال كردستان في شمال العراق، حيث اقام علاقات مع سكان الجبال غير العرب الذين لم يكن لهم دولة. وهو لم ينس الاكراد وحين كان يرسم رؤيته الشخصية لمجتمع التجسس الاسرائيلي المستقبلي فانه كان يركز على الحاجة الى تحالفات سرية مع كل الاقليات غير العربية في الشرق الاوسط. فقد شعر بان اليهود يستطيعون ان يكون لهم اصدقاء في كل انحاء العالم العربي، وقد اصبحت «الفلسفة المحيطية» لشيلوه عقيدة دائمة للمخابرات الاسرائيلية.

عندما عاد الى القدس في عام ١٩٣٤، عينته الهاغاناه لمهمة اقامة دائرة مخابرات محترفة لحماية المصالح البعيدة المدى للمجتمع اليهودي في فلسطين، وعمل شيلوه في المشروع مع ميروف / افيغور، وبعد فترة وجيزة اسسا «شاي»، وكانت وظيفة شيلوه المدونة ضابط ارتباط بين الوكالة اليهودية برئاسة بن غوريون والحكام البريطانيين لفلسطين.

حين نشبت الحرب العالمية الثانية في اوروبا، اغتنم شيلوه الفرصة لتعميق العلاقة، فقد

كانت المانيا النازية العدو المشترك لليهود والبريطانيين، وساعد شيلوه في تشكيل لواء يهودي داخل القوات المسلحة البريطانية، وهو تصرف اظهر بعد نظر، لأن اللواء اصبح فيما بعد جزءا من مؤسسة الجيش الاسرائيلي.

كانت الحرب محبطة لليهود الفلسطينيين الذين لم يستطيعوا ان ينقذوا سوى عدد ضئيل من اخوتهم الاوروبيين من معسكرات الابادة النازية، لكنها ايضاكانت خبرةجيدة لشيلوه ورجاله، فقد حصلوا من خلال القتال بكل الطرق المتاحة على مهارات لا تقدر بثمن: التسلّل، الاستطلاع والمراقبة والتنكّر لدى ارسال العملاء اليهود وراء خطوط العدو: ارسال ذوي المظهر الآري الى الاراضي التي يحتلها الالمان في اوروبا، وارسال الذين يبدون كالعرب ويتحدثون العربية الى سوريا ولبنان اللتين كانت فرنسا فيشي الموالي للنازية تحكمهما.

تم انزال ٢٦ مظليا يهودياً، جندهم شيلوه للمخابرات البريطانية، خلف الخطوط النازية في بلدان البلقان وقد اسر بعضهم ـ مثل هافا سينيش وأنزيو سيريني ـ واعدموا كجواسيس، بينما نجا آخرون مثل ييشاياهو (شبايكي) تراتشنبرغ ـ دان، ليقوموا بمهمات اخرى في المخابرات الاسرائيلية.

لم يكن شيلوه خلال الحرب يتعلم فقط، بل كان يعقد صداقات قوية استطاعت فيما بعد ان تساعد اليهود في توسيع صراعهم ضد العرب للسيطرة على فلسطين. فقد اتيحت له الفرصة لعقد صداقات قوية مع ضباط مخابرات الجيش البريطاني في القدس والقاهرة، وبطريقة مماثلة واكثر اهمية، شهدت الحرب العالمية الثانية بداية العلاقات بين الحركة الصهيونية والمخابرات الاميركية. فقد اشترك شيلوه في المشارب والافكار مع عملاء مكتب الخدمات الاستراتيجية والذي اصبح في عام ١٩٤٧ نواة وكالة المخابرات الاميركية ـ السي آي ايه.

قويت هذه العلاقات بعد الحرب واصبحت المنبر لاقامة علاقات حيوية بين السي آي ايه والمخابرات الاسرائيلية، وقد اثبتت نشاطات شيلوه ايام الحرب حكمته وقدرته على حمل وجهة نظر استراتيجية بعيدة المدى لأهمية المخابرات في الازمنة الحديثة.

في احاديثه مع زملائه مؤسسي الدولة اليهودية الذين كانوا يعلمون انفسهم كيف يديرون بلدا في وطنهم القديم، وصف شيلوه المخابرات بانها «أهم اداة سياسية»، وفي عالم تندر فيه التصريحات العلنية او الاعلان عن النوايا، فقد كان شيلوه هو الذي حدد الجانب السري للدبلوماسية الاسرائيلية والسياسة الخارجية:

«كان العدو الأول للمجتمع اليهودي هو الشعب العربي، وكان يجب تغلغل العملاء المحترفين داخل المجتمع العربي».

«كان على المخابرات الاسرائيلية ان تفكر فيما هو ابعد من فلسطين، كحامية «يهودية ـ

صهيونية» لليهود في كل انحاء العالم».

«ينبغي ان يستند العمل السري الى التكنولوجيا الحديثة ويتمشى مع احدث طرق التجسس بالحفاظ على الروابط مع الوكالات الصديقة في اوروبا والولايات المتحدة».

مع انه لم يحضر اجتماع شارع بن يهودا، الذي حلّ شاي، وادخل هيكل المخابرات للدولة الجديدة ـ معتبرا اياه جلسة فنية صرفة ـ فقد راقب شيلوه المجتمع الناشىء كملاك حارس، ووجد ما يقلقه كثيرا في ايسر بيري.

بعد ظهر ٣٠ حزيران ١٩٤٨، وبعد ساعات قليلة فقط من ارتدائه لعباءة مدير المخابرات العسكرية، قام بيري بواجبه بتطرف لم يسبق له مثيل في تاريخ اسرائيل، فقد انشأ محكمة ارتجالية (لا تراعى فيها مبادىء القانون والعدالة) ادان فيه، على عجل، ضابطا اسرائيليا بالخيانة، وامر باعدامه على الفور.

كان المتهم الكابتن مائير توبيانسكي الذي كان عمل في الهاغاناه، وكان بعد الاستقلال مسؤولا عن اقامة اول قاعدة دائمة للجيش الاسرائيلي في القدس، كما تولى وظيفة مدنية مع شركة كهرباء القدس، وكان زملاء توبيانسكي الاسرائيليون يشكون في علاقاته مع مديري الشركة البريطانيين.

في اوائل حرب ١٩٤٨ كانت المدفعية الاردنية تحقق اصابات مدمرة في القواعد الاسرائيلية وكان قائد شاي في القدس، الرائد بنيامين غيبلي قد استنتج انه لا بد ان هنالك جاسوسا في صفوف الاسرائيليين، وبدا منطقيا ان يكون توبيانسكي هو الذي ينقل المعلومات الى رؤسائه في شركة الكهرباء، وهم بدورهم ينقلون المعلومات الى الضباط البريطانيين الذين يقودون الجيش الاردني وكان توبيانسكي رائدا في سلاح الهندسة الملكي البريطاني خلال الحرب العالمية الثانية وكان يعرف عنه بانه محبّ للانجليز.

وكانت الأدلة العرضية كافية للحكم عليه بالموت، وكان القضاة الذين اجتمعوا في بيت مهجور قرب طريق القدس ـ تل ابيب الرئيسي هم بيري، غيبلي وضابطين آخرين من شاي.

لم يتم تدوين أية ملاحظات مفصّلة عن المحاكمة القصيرة، وقد زعم كل القضاة، فيما عدا بيري، فيما بعد انهم كانوا يستجوبون المشتبه به، وانهم لم يعرفوا بانهم سيفرضون حكما للتنفيذ، لكن بعد ظهر ذلك اليوم نفسه، تم اطلاق النار على توبيانسكي على يد فرقة مسلحة كونت على عجل، وشاهدها جنود آخرون لم يصدقوا ان الاسرائيليين يقتلون واحدا منهم.

يروي احد الشهود سماع صرخات الزملاء المشاة: «خائن! انهم سيعدمون خائنا». جلسنا على التلة الوعرة واخذنا نتفرّج، حيث تم جلب شاب يرتدي الكاكي على يد مجموعة من سبعة

جنود شبان، كانوا صغارا، يرتدون ملابس مترهلة، اجلسوه على كرسي، لم يغطوا وجهه بمنديل، ثم ابتعدوا عنه قليلا، وسمعنا صوت زنود البنادق التشيكية استعدادا لاطلاق النار، كان كل شيء هادئا، والشمس ساطعة، لم يحرّك صفوها سوى زخة من الرصاص وسقط الرجل عن كرسيه».

بعد بضع ساعات قام بيري باعلام رئيس الوزراء بانه تم قتل خائن بعد عقد جلسة محكمة عسكرية ميدانية. وقد قام بن غوريون باعادة فتح القضية بعد ان تلقى رسالة مثيرة من ارملة توبيانسكي، وكلف باجراء تحقيق رسمي برّأ الكابتن ودفع تعويضات لاسرته.

في نفس ذلك اليوم الاخير من حزيران ١٩٤٨ كان رجال بيري، من شاي، في حيفا، التي كان سكانها عربا ويهودا، يعذبون صديقا لرئيس البلدية اليهودي، الذي اعتبر ليبراليا جدا، وكان عملاء شاي يبحثون عن دليل بان رئيس البلدية ابا كوشي قد تجاوز كونه «ليّنا» مع العرب ـ ان كوشي كان خائنا للقضية الصهيونية.

كان الضحية جولسن (يهودا) آمستر، وكان بيري قد امر باعتقاله يوم ١٥ أيار ١٩٤٨، كان آمستر صاحب تاكسي وكان، من وراء الكواليس، اليد اليمنى لرئيس البلدية كوشي. وقد اتهم آمستر بالتجسس، واستمر كابوسه شهرين ونصف الشهر في معسكر اعتقال سري، وصودرت ممتلكاته، وعذبه مستجوبوه بلا رحمة ـ وكان المستجوبون في البداية من شاي، ثم من وكالة المخابرات العسكرية بقيادة بيري، صوّبوا المسدسات اليه كما لو كانوا يريدون نسف دماغه، ضربوه وسكبوا الماء على رأسه، خلعوا اسنانه، وحرقوا باطن قدميه، وحقنوا دمه بالمخدرات، وفي الأول من أب أفرجوا عنه دون الصاق اي اتهام له!

ظل الاعتقال بلا ترخيص، وما تلاه من تعذيب، سرّا لسنوات كثيرة. وفي عام ١٩٦٤ فقط وافق وزير الدفاع على دفع تعويضات مالية لآمستر، وكان واضحا، منذ البداية، ان بيري كان يحاول انتزاع اعتراف من آمستر، يورّط صديقه كوشي، فقد لفّق بيري الدليل على ان رئيس البلدية كان يتجسس على الهاغاناه لصالح البريطانيين، وعلم بن غوريون بالتلفيق، وتمت تنحية بيري.

كانت القشة الاخيرة مقتل عربي ثري في صيف ١٩٤٨، وكان الضحية علي قاسم، وهو عميل مزدوج وظفته المخابرات العسكرية لاختراق الميليشيات العربية الفلسطينية، ونتيجة لعدة عثرات، ولدى الاشتباه بأن قاسم كان في واقع الامر عميلاً ثلاثياً، يعمل لصالح العرب، فقد قتله عملاء بيري.

وفي ضوء صلاحياته كوزير للدفاع ورئيس للوزراء أمر بن غوريون بتحقيق شامل في قضية قاسم. وتم وقف بيري من الجيش في تشرين الثاني، ثم ادانته محكمة عسكرية بتهمة الجزّار. فتم

انزال رتبته الى رتبة جندي، وقدم للمحاكمة مرة أخرى للقتل غير المشروع لتوبيانسكي وتعذيب آستر. ومع ان بيري أنكر الاتهامات، إلا انه ثبت جرمه وحكم عليه بسجن رمزي لمدة يوم واحد!

ان الرجل الذي كان أول قائد للمخابرات العسكرية وأنشط قوة، في مجتمع الجاسوسية الجديد، لم يستمر في ذلك المنصب سوى ستة شهور، وقد سقط بيري بسبب نظرته الضيقة للامن الوطني، لم يكن لديه اي وقت للعب السياسية، او حقوق الانسان!

لقد تعلم درساً قاسياً وكان سقوط بيري صدمة من النوع الذي شل مجتمع المخابرات لسنوات كثيرة، وقام بن غوريون باختيار العقيد حاييم هيرزوغ كرئيس جديد للمخابرات العسكرية. وكان نائباً لبيري مما وفر له استمرارية حيوية، وبالاضافة الى ذلك، فان صداقة هيرزوغ مع روفن شيلوه ـ الذي تجنب كل الاساءات المحلية وركز على التخطيط الاستراتيجي للشؤون الخارجية ـ ساعدت في شفاء كل الجراح التي أصابت جسد المجتمع اليافع.

خلال فترة هيرزوغ في المخابرات العسكرية، ادخل اجهزة الكمبيوتر، التي كانت مجموعة من الحاسبات الضخمة لكنها كانت تعمل بشكل جيد وساعدت اسرائيل في معرفة الرموز البسيطة المستخدمة لدى جيوش مصر وسوريا والاقطار العربية الاخرى المجاورة. وقد جعل هيرزوغ وفريقه من اسرائيل احد اوائل الاقطار التي تدخل مزايا التكنولوجيات الجديدة المتطورة الى عالم الجاسوسية وقد أصبح هيرزوغ رئيس دولة اسرائيل في عام ١٩٨٣.

أقام شيلوه هيئة تنسيق ترأسها هو نفسه، وقد أسماها «لجنة رؤساء الاجهزة»، وعقدت اول اجتماع لها في نيسان ١٩٤٩، وانضم الى شيلوه وهيرزوغ، كل من ايسر هاريل من الشين بيت، وبريس غوريل من الدائرة السياسية لوزارة الخارجية، ويشير رؤساء المخابرات الاسرائيلية الى اللجنة بحروفها العبرية الاولى، فاراش، مع ان هذا ظل طيّ الكتمان.

تعتبر نشاطات فاراش: جدول الاعمال وتوقيت اجتماعاتها ومكانه أمرا بالغ السرية، ومع هذا فإن هدفها واضح: جعل التعاون بين مختلف الوكالات الامنية سهلاً وفوريا، وتقليص امكانيات الخطأ الذي يسببه سوء الفهم أو ازدواجية الجهود.

عندما اجتمعت اللجنة اول مرة وصفها شيلوه بلجنة التنسيق، وقد دعي يهيزكل ساهار، رئيس الشرطة الوطنية، للمشاركة، لأنه مع ان الشرطة لم تكن على اطلاع على كل اسرار الدولة فانها كانت تشكل اكبر قوة امنية.

لم يشارك شاؤول افيغور من آليه ب، المختصة بتجميع المهاجرين وليس المخابرات. وقد واجه رؤساء الاجهزة الاخرى، المشكّلة حديثا والتي كانت تجتمع بين الحين والآخر مثل فاراش، تحديا غير مألوف يذكرونه باسم «ثورة الجواسيس».

كان قائد الثورة اشير بن ناثان، الذي كان يعرف باسم آرثر وهو اسمه الحركي في الحركة السرية قبل قيام الدولة، وقد ادت ملامحهالجذابـة الى وصفه «بآرثر الوسيم» واشتهر بنجاحه مع النساء، كما عرف في اوساط المخابرات الاسرائيلية بايمانه بالاستمتاع بالحياة.

ولد في النمسا في عام ١٩٢١، وفرّ من النازيين بالانتقال الى اسرائيل في عام ١٩٣٨، ولمساعدة المزيد من اليهود بالمجيء الى فلسطين، انضم الى آليه ب وعمل كمنسق مخابرات في فينا بعد الحرب تحت رداء صحفي باسم آرثر بير، ثم انضم فيها بعـد الى وزارة الخارجيـة كرئيس عمليات في الدائرة السياسية برئاسة غوريل. وكانت هذه الدائرة ذراع المخابرات الاسرائيلية في الخارج، وكان رجال غوريل مسؤولين عن زرع العملاء في الاقطار العربية واقامة العلاقات مع اجهزة الامن الاجنبية. ويمكن العثور على سجل لعمل بن ناثان في فرنسا وايطاليا واقطار اخرى في تقرير ارسله الى رئيس الوزراء بن غوريون: «اننا نجمـع المعلومات عن الممتلكـات العربيـة والعلاقات الاقتصادية بين اوروبا والعرب». كان هذا في الأيام الأولى من حياة الدولة، حين بدا أن تفاصيل قليلة أمر جديد ومثير لأوائل جواسيس اسرائيل.

كان لموظفي الدائرة السياسية غطاء دبلوماسي في القنصليات والسفارات الاسرائيلية في لندن وروما وباريس وفيينا وبون وجنيف ـ وهو امر يحمل المزايا لأن الـدبلوماسيـين يتمتعون بالحصانة ضد المقاضاة لكنه أقل فائدة من ناحية عملية لأن العميل مرتبط علانيـة بحكومتـه، كما ان كثيرا من الأقطار المضيفة تتصرف على افتراض ان الدبلوماسيين الاجانب جواسيس.

حتى عام ١٩٥٠، كان عملاء اسرائيل في اوروبا مرتبطين بمقر بن ناثان في باريس، الذي كان مستقلا عن غوريل، واصبح بن ناثان فيها بعد في تل ابيب، يتلقى التقارير ويصدر الأوامر بالعمليات، وكان لكل فرع في مختلف العواصم الاوروبية شبكاته الخاصة من العملاء ـ وكانوا في الاغلب غير اسرائيليين يبيعون المعلومات وكانت بعض الخيوط التي يقدمونها تساعد الاسرائيليين في اوروبا على تخريب الشحنات العسكرية في طريقها الى الاقطار العربية.

وكان هنالك ايضا بعض التهريب من قبل الاسرائيليين في «ساعات اجـازاتهم»: ليس للكسب الشخصي وانما لتمويل عدة نشاطات سرية بعد ان ترفض وزارة الخارجية دفع جميع الفواتير والنفقات التي يطالب بها فريق بن ناثان.

كان اكبر انجاز للدائرة السياسية الحصول على امر المعركـة ـ الخطط الحـربية ـ للجيش السوري، من عميل زرع في دمشق، وكان مثل هذه المعلومات يعتبر حيويا للدولة اليهودية، التي كانت ما تزال تواجه تهديدا قويا من جيرانها.

لم تلق المادة التي حصل عليها بن ناثان ورجاله تقديرا كبيرا من رؤسائهم السياسيين وربما

كان ذلك بسبب نهج بن ناثان. فقد كان وكبار موظفيه، بمن فيهم غيرشون بيريز - شقيق رئيس الوزراء في المستقبل - يتصرفون كما تصوروا تصرف الجواسيس. فكانوا يأكلون في المطاعم الفاخرة في باريس وجنيف، ويشربون في ارقى المطاعم، ويستخدمون ارقى فنادق أوروبا لاجتماعاتهم. وكان بذخهم يتعارض مع الروح السائدة في اسرائيل آنذاك، فأثاروا كثيرا من الغضب، خاصة لدى افيغور وشيلوه، مؤسسي المخابرات الاسرائيلية.

ومع هذا، لم يقلق غوريل، وتجاهل الاتهامات بأن رجاله في اوروبا يسرفون في النفقات غير المسموح بها، كما انطلقت شائعات بأن موظفي الدائرة السياسية وضعوا ايديهم على حسابات سرية في البنوك السويسرية تعود الى اليهود الذين قتلوا في المحرقة!

والى جانب الشكاوى حول طريقة التصرف والاموال، فقد تضايق باقي رجال مجتمع المخابرات حول اداء عمل الدائرة السياسية. فقد صب منافسوها - في امان، والشين بيت وآليه ب - لعناتهم على رجال غوريل ووصفوهم بأنهم مجرد هواة يتصرفون كمحترفين ونادرا ما يساهمون في الدفاع الحيوي عن اسرائيل.

كان شيلوه، كرئيس للجنة فاراش، يتعرض لضغط شديد من بن غوريون وقادته العسكريين لتقديم معلومات محددة عن قدرات الجيوش العربية، وكان هنالك خوف متزايد في سنة ١٩٥٠ من انه مع اشتعال الحرب الكورية وعلاقات الحرب الباردة المتوترة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، قد تشعر الدول العربية باغراء التوتر الدولي لها بأن تشن جولتها الثانية ضد اسرائيل لقلب الهزيمة التي عانت منها في ٤٨/١٩٤٩.

كان زعماء الدولة اليهودية أقل اهتماما بتخصص غوريل وبن ناثان: الخطط السياسية للعرب، ومشروعاتهم الاقتصادية وما كان يجري في غرف نوم زعمائهم.

كان بينيامين غيلي، الذي رقّي الى رتبة عقيد، اعدى اعداء الدائرة السياسية، كان ضابط مخابرات عسكرية شابا ومتحمسا خدم كنائب لحاييم هيرزوغ، ثم استبدله كمدير امان عندما انتقل هيرزوغ الى واشنطن كملحق عسكري في نيسان ١٩٥٠.

النقطة الرئيسية التي كانت ضد غيبلي تتمثل في حقيقة انه كان واحدا من القضاة الذين حكموا على مائير توبيانسكي بالموت، وقد قام بن غوريون بتعيين غيبلي في المنصب الرفيع في المخابرات العسكرية لضمان الاستمرارية التي كانت ما تزال مطلوبة بعد سقوط بيري، وكان رئيس الوزراء يرسل اشارة خطرة بأنه يرغب في التضحية بالاعتبارات الأخلاقية على مذبح الكفاءة.

وعلى أية حال فقد كانت النتيجة «لا كفاءة» لم يسبق لها مثيل، فقد قرر غيبلي شن حملة

شاملة ضد الدائرة السياسية، ووجد حليفا في رئيس الشين بيت، ايسر هاريل، وكما كان محترفا كان زاهداً فكان يمقت طريقة الدائرة السياسية الباذخة وانتاجيتها المتدنية.

في الفوضى التي تلت، ارسل غيبلي وهاريل رجالهما الى الخارج، وشمّر غوريل عن زنديه استعدادا للقتال بينما اعتدت الدائرة السياسية على منطقة شين بيت بارسال قطاع طرق يقتحمون سفارات الكتلة السوفياتية في تل ابيب، مما أثار حنق هاريل.

اعتبر رجال غوريل الاوروبيون انفسهم اعضاء في ناد مقصور عليهم كعملاء مخابرات في الخارج، وقد هاجموا خشونة وعدم تحضّر «رجال غيبلي العسكريين وشرطة هاريل» و تبجح بن ناتان بأن الوافدين الجدد لا يستطيعون الاندماج في مجتمع اوروبا المثقف والنقي، ناهيك عن القول ان الجواسيس الاسرائيليين المتعددين لم يكونوا يعملون بتنسيق.

ان اجهزة الامن في فرنسا وايطاليا، والتي كانت، بصفة خاصة، ودية نحو اسرائيل، لم تصدق مايجري، فقد اختلط عليها الأمر نتيجة عدد هائل من الطلبات المتضاربة من ضباط الارتباط الاسرائيليين، وكانت هذه حالة كلاسيكية لصراع القوى، ولم يعرف الاصدقاء الاجانب لمجتمع المخابرات كيف يستجيبون، فقد كانوا يعرفون ان اسرائيل، لا تستطيع احتمال كلفة الاقتتال الداخلي.

غضب بن غوريون وامر روفن شيلوه بوضع حد للفوضى، ويمكن اعطاء «السيد مخابرات» فرصة دقّ بعض الرؤوس ببعضها واعادة تنظيم المجتمع، واعلن شيلوه ان الدائرة السياسية ستحلّ وأجبر بوريس غوريل على الاستقالة، وقيل لشبكة غوريل الاوروبية بأن تتوقع اوامر جديدة من القادة الجدد.

ومع هذا فقد رفض بن ناتان الاستسلام، فبعد بضعة أيام من انقلاب شيلوه، جمع كبار موظفيه في ليك جنيف يوم الثاني من آذار ١٩٥١، وقدم «آرثر الوسيم» ورجاله استقالتهم الجماعية، فهم لن يعملوا مع أي وكالة أخرى من وكالات المخابرات وسوف يحزمون اشياءهم ويعودون الى البلاد.

التحق بن ناتان بدورة علاقات دولية في سويسرا، ورفض رجاله تسليم سجلاتهم لشيلوه، فلم يرغبوا في اعطائه توجيها حول العمليات الجارية، حتى انهم قاموا في بعض مراكزهم الاوروبية بحرق الملفات السرية، أي أن جواسيس اسرائيل في اوروبا اعلنوا الاضراب.

لكن الثورة لم يكن أمامها أية فرصة، فقد قام شيلوه، المسلّح بدعم رئيس الوزراء الكامل، باعادة تنظيم كامل لمجتمع المخابرات، متجاوزاً الرجال الذين رفضوا المشاركة في اللعبة، ونقلت كل المسؤولية عن المهمات الخاصة الى آمان، وكالة المخابرات العسكرية، بقيادة غيبلي. وقد أقام

«وحدة ١١٣» السرية جدا لزرع العملاء في الاقطار العربية.

وعلى انقاض الدائرة السياسية ظهر «مركز المخابرات والمهمات الخاصة».. الذي يعرف بالموساد، ولأول وهلة كان للوكالة الجديدة اسماء أخرى: «المركز الرئيسي للتنسيق»، ثم «المركز الرئيسي للمخابرات والامن»، ومع هذا، يعتبر يوم اعادة التنظيم الساحقة التي قام بها شيلوه، في الاول من نيسان ١٩٥١، يوم ميلاد الموساد.

قام بن غوريون بتعيين شيلوه ليكون اول مدير للموساد، التي كانت مسؤولة بشكل مباشر أمام مكتب رئيس الوزراء، وكانت المرة الاولى التي يظهر فيها النفوذ الاميركي في مجتمع المخابرات الاسرائيلية، وتم الغاء النموذج السابق للتجسس في الخارج، الذي كان مسؤولا أمام وزير الخارجية، مثل جهاز المخابرات السرية في بريطانيا (ام آي ٦)، وفي الولايات المتحدة تتبع السي آي ايه مباشرة للمكتب البيضاوي، وفي اسرائيل تتبع الموساد مباشرة لرئيس الوزراء.

لقد كان هنالك فرق واضح حيث كان للسي آي ايه دائرة عمليات، لكن عند تأسيس الموساد لم يكن لها دائرة كهذه، وكان كل ما فعلته الوكالة المشاركة في لجنة مشتركة مع آمان لتشرف على استخدام وحدة الجيش السرية ١٣١، وفيما عدا ذلك كانت مهمة الموساد جمع الحقائق، وعدم عمل أي شيء إزاها.

وانتهى الامر بشيلوه مديراً للموساد لفترة قصيرة جدا، لكن استطاع ان يرسخ المبادىء الاساسية التي توجه الوكالة لعقود قادمة، واستنادا الى تقريره السري للقيادة الصهيونية بعد الحرب العالمية الثانية تأكد شيلوه من اقامة علاقات عمل مع وكالات الامن الاجنبية ـ وبخاصة السي آي ايه، فأقام وحدة مخابرات اقتصادية، كانت تبحث عن الثغرات وتحدث الخروق في المقاطعة العربية للتجارة مع اسرائيل، كما ركّز على حاجة الدولة اليهودية الى علاقة وثيقة وواثقة مع اليهود في كل انحاء العالم.

وقام شيلوه بمراجعة شاملة للعمليات الجارية التي ورثها، وذلك لأن العملاء كانوا ما يزالون يعملون تحت غطاء رغم الاضراب المجهض الذي أعلنه ضباط القضايا في اوروبا، الذين كانوا يديرون تلك العمليات. واحتاج شيلوه الى سنة لكشف «تفاحة» رديئة في برميل الدائرة السياسية، وكان الجاسوس الذي ما كان يجب تجنيده أصلاً يعرف في اسرائيل باسم دافيد ماغن.

كان دافيد ماغن عند ولادته في اوائل العشرينات لأسرة يهودية هنغارية يدعى ثيودور غروس، وقد انتقلت اسرة غروس الى جنوب افريقيا، وبعدها ذهب ثيودور الى ايطاليا لدراسة الموسيقى. وكمطرب ناجح، ظهر في دور الاوبرا في ايطاليا والمكسيك، وجاءت به الحرب العالمية الثانية الى الجيش البريطاني حيث غيّر اسمه الى تيد كروس، واصبح ضابط مخابرات يقوم بمهمات خطرة في ايطاليا والمانيا.

عندما نشبت الحرب في فلسطين في عام ١٩٤٨ شعر غروس /كروس بانه مضطر للذهاب الى اسرائيل ليلتحق بجيشها، وبسبب خبرته ومعرفته باللغات الانجليزية والالمانية والايطالية والاسبانية والفرنسية، تم تجنيده في الدائرة السياسية على يد آرثر بن ناتان، وفي اسرائيل انتحل المتطوع اسم ماغن، وهي كلمة عبرية تعني «الدرع» وارسل الى ايطاليا باسم تيد كروس لادارة شبكة من العملاء العرب الذين كانوا يجمعون المعلومات العسكرية والسياسية لاسرائيل.

وفي عام ١٩٥٠، تم ارسال ماغن/كروس الى مصر حيث ادار شبكة من المخبرين المحليين، وتلقى شيلوه وموساده الجديدة تقارير من عميلهم في القاهرة، لكنهم لم يبقوه طويلا، ففي عام ١٩٥٢ تلقى امرا بمغادرة مصر، وبعد توقف في روما طار الى تل ابيب.

وتحت اسم دافيد ماغن تم اعتقاله على الفور وحوكم وأدين، وحكم عليه بالسجن لمدة خمس عشرة سنة، وكانت التهمة المذهلة: التجسس لمصر. فبلا تخويل أو تفويض أو ابلاغ، كان ماغن/كروس قد اقام علاقة مع موظفي المخابرات المصرية، وقد زعم في دفاعه أن هدفه خداع المصريين ـ للايحاء بانه أصبح عميلا مزدوجا بينما ظل في الحقيقة مخلصا لاسرائيل.

لم يكن دفاع ماغن مقنعا في المحكمة لان الادلة اشارت الى أنه متورط في صفقات المخدرات المحظورة في ايطاليا، وانه كان قد سجن بسبب تجارة المخدرات.

واصل كثير من اعضاء الدائرة السياسية المنحلّة الاعتقاد بان ماغن/كروس لم يخن اسرائيل، وقد شهد بوريس غوريل لصالحه خلال المحاكمة قائلا ان شيلوه والموساد لفّقا قضية كاذبة ضد ماغن لتدمير سمعة الدائرة السياسية، وادت حملة للافراج بشكل مشروط الى إطلاق سراحه في عام ١٩٥٩ . بعد أن قضى سبع سنوات في السجن، وقام غروس/ماغن/كروس بتغيير هوياته مرة اخرى، وتحت اسم آخر تزوج وصار له أسرة وعاش في اسرائيل وهو يشعر بالظلم الى ان توفي في عام ١٩٧٣، كرجل مجهول دون ان يعرف الناس هويته الحقيقية أو قصة حياته.

لقد كان من الصعب تقييم الاضرار التي وقعت على المدى البعيد من قبل ثورة بن ناتان وقضية ماغن، لكن عدم الثقة العميقة بين رؤساء المخابرات في اسرائيل وموظفيها في الخارج جعلت من الصعب على المجموعة ان تقوم بمهامها. فقد انشغل شيلوه، الذي اصبح رسميا رئيس الوكالة ورئيس فاراش ايضا، في الامور الداخلية لترتيب البيت البيروقراطي حتى أنه لم يول انتباها كافيا للاحداث في الخارج.

وكان من المتوقع ان يحدث غلطة كبيره! وكان يمكن توقع فشل مزعج، لكن ذلك لم يحدث حيث جاء الحدث مفاجئا، كما حدث في العراق، مع البدء باعادة التنظيم وميلاد الموساد.

كان رجلان غامضان بعض الشيء، يرتديان القمصان القصيرة الاكمام والمفتوحة

الصدر، يسيران في مصنع تكنو كفيتز، في تل ابيب، وهو مصنع للنوابض، وطلب رجلا الحكومة ـ حيث ان مظهرهما وسلوكهما لم يوحيا بشيء الا أنهما موظفان حكوميان ـ طلبا رؤية مدير الشركة، يافوك فرانك.

قالا للرجل البالغ من العمر ثلاثين سنة: يريد روفن شيلوه ان يتحدث معك. كان ذلك في كانون الثاني ١٩٥١ قبل عشرة اسابيع من ميلاد الموساد، وكان دور شيلوه الرسمي في الحكومة مجهولاً للشعب الاسرائيلي حتى انه لم يخبر بلجنة فاراش. ومع هذا فان فرانك كان قد سمع بشيلوه، ووافق بلا تردد على مقابلة الجاسوس الاسطوري!

كان فرانك عضوا متحمسا في الهاغاناه، وبعد هروبه من البريطانيين في فلسطين عمل مع مركز آليه ب في نيويورك، وعمل مع الحلفاء في الحرب العالمية الثانية كجندي اميركي، قاتل اليابانيين في الباسفيك، وبعد ان اصيب بجروح بليغة في الفلبين في تشرين اول ١٩٤٤ عاد الى اسرائيل في عام ١٩٤٨ بجنسية اميركية وتقاعد شهري من البنتاغون. وحين عادت له صحته، اشترك في حرب الاستقلال، وبلا انذار مسبق اوشك على استدعائه للخدمة الفعالة في عام ١٩٥١.

أخرجه الرجلان الغامضان من مصنع النوابض الى كيريا، وسط البلدة ـ وهو الاسم الذي يطلق على مجمع وزارة الدفاع، وهو كبير جدا حتى انه كان يتكون من ضاحية صغيرة على الطرف الشرقي لوسط تل ابيب. رافقاه الى احدى البنايات حيث لم يكن هنالك اية شاخصة عليها كلمة «مخابرات» واقتاداه الى مكتب شيلوه الخاص.

كان رئيس مجتمع المخابرات الاسرائيلية ينظر الى ملف الرجل الاصغر منه سنا، وقال: انني ارى يا فرانك انك ساعدت اليه ب في احضار اليهود الى اسرائيل، وكنت رائدا في الجيش، انك تملك الخلفية التي نبحث عنها.

ـ «ماذا تريد مني ان افعل؟» قال فرانك الذي كان دائما يوافق على أية مهمة لاسرائيل.

ـ أجاب شيلوه: اريد منك ان تذهب الى العراق. فرجلنا في بغداد على وشك ان ينهي جولة مهماته. ونريد منك ان تتولى محطتنا هناك.

ـ قال فرانك اوافق على شرط. أن تكون لي كامل الصلاحيات هناك.

ـ وافق شيلوه وقال: أكيد، ستكون مسؤولا عن هجرة اليهود من هناك، بالاضافة الى جمع المعلومات.

ـ لكن اليست آليه ب مسؤولة عن اخراج اليهود؟

قال فرانك وهم موظف مخضرم لدى تلك الوكالة لكنه لم يكن يعرف من سيكون رئيسه

التالي.

- قال شيلوه: لا تقلق، فقد تم تنسيق كل شيء.

وبعد ايجاز سريع من طاقم شيلوه، دعي فرانك لحديث مع وزير الخارجية موشي شاريت، الذي اكد على أهمية عملية بغداد وطمأن فرانك بان دولة اسرائيل تقف وراءه، وبعد ان شعر بثقة كاملة، غادر المجند الجديد العراق بعد أيام قليلة - ليقوم بما يمكن اعتباره أول مهمة غير مقصودة لصالح الموساد.

وبعد ثلاثة ايام من التحدث مع فرانك لاول مرة، كان يعقوب فرانك يطير من تل ابيب الى طهران، حاملاً جواز سفر مزوراً باسم اسحق شتاين، وفي العاصمة الايرانية كان باستقبال فرانك / شتاين رئيس محطة اليه ب، زيون كوهين.

تساءل فرانك: قل لي يا زيون، مع من سأعمل؟

هل كان يعمل مع شيلوه؟ وما هي تلك الوكالة؟ آليه ب، او للدائرة السياسية برئاسة غوريل؟ للمخابرات العسكرية برئاسة غيبلي؟ قال كوهين: ليس لدي أية فكرة. فانا لا أعلم أي شيء، لديّ شعور بان تل ابيب مشغولة بامور أخرى.

انتظر فرانك في طهران اكثر من شهرين، لا يعمل اي شيء، لكن عندما اعطاه كوهين جواز سفر مزوراً، في محاولة مساعدته، كأساس لهوية جديدة تغطيه، أثار ذلك الأمر غضب فرانك فجواز السفر يمكن ان يجبره على ان يصبح اسماعيل تاشباكاش، وهو تاجر سجاد من البحرين واعتقد ان قصة تغطيته ستكون كرجل أعمال كندي، فهو يتحدث الانجليزية جيدا، وكان قد زار كندا عددا من المرات واعتقد ان السنوات التي قضاها في الولايات المتحدة ستمكنه من أن يصبح كنديا!

لكن من المفترض الان ان يكون عربيا من الخليج الفارسي وهو يقول: «ان ملامح وجهي اوروبية وليست عربية، صحيح انني كنت اتحدث قليلا من العربية لكن بلهجة فلسطينية، ووجدت من الصعب ان اعتقد بانني في هذه الظروف سأقدر على العمل على النحو المطلوب.. كنت أتفجرّ غيظا، وقلت في نفسي: كيف يفعلون هذا معي؟ هل هذه هي الطريقة التي يعمل بها عميل سري؟

لم يكن هنالك من يشكو له، ففكر في العودة الى اسرائيل لكن وطنيته منعته من ترك مهمته، وبلا أوامر محددة قرر الاستمرار فقام اولاً بحرق كل وثيقة تربطه بالدولة اليهودية ثم قام فرانك / شتاين / تاشباكاش برشوة بعض المهربين لنقله من ايران الى العراق، ولم تكن مهمة سهلة بسبب وجود كثير من نقاط الشرطة، يوم ٢٠ نيسان ١٩٥١، وكان عذابه الحقيقي في بدايته فقط.

كان فرانك يصدق وعد تل ابيب بانها سترسل رسالة بالرموز الى المحطة في بغداد لأشعارها بوصوله، لكن عندما انتهت رحلته الطويلة والمتعبة، ودق على باب اسرة يهودية كان قد تلقى أمرا بالاتصال بها، وجد انه غير متوقع ابدا.

كانت الليلة الاولى من أعياد الغفران، وهي العطلة اليهودية الرئيسية في فصل الربيع، ورفضت الاسرة ان تسمح للوافد الجديد بقضاء الليلة عندها، فقد كانت تخشى من ان يكون عميلا للشرطة العراقية، ولم تلق توسلات فرانك اذنا صاغية حتى ان احد الضيوف الذي كان ينبغي ان يعرف، موردخاي بن بورات بشكل أفضل، رفض الاصغاء.

كان بن بورات الموظف الرئيسي لآليه ب في بغداد، وهو يهودي عراقي المولد هاجر الى فلسطين وخدم في الجيش الاسرائيلي واعيد الى العراق في خريف ١٩٤٩ لتنظيم رحيل اليهود غير القانوني، واستعار هويتي شخصين يهوديين كانا قد غادرا العراق وأصبح بمقدوره ان يتنقل باسمين: زكي هابي، وموشي نسيم، لكن هذا لم يكن يعني ان شخصيته مجهولة تماما حيث ان كثيرا من الناس يعرفون هويته الحقيقية.

في غمرة الفوضى التي اصابت مجتمع المخابرات فيما بعد كان بن بورات مسؤولا ايضا عن عمليات سرية اخرى، حيث ان استخدام اسلوب يعرف في عالم الجاسوسية «بالتقسيم الى فئات مستقلة» يمكن ان يكون اكثر أمنا، لكن، بدلاً من ذلك، فان منظم الهجرة كان ايضا يدير شبكة عملاء، وهم بصفة اساسية من اليهود، وكانوا يزودونه بالانباء السارة، العسكرية والسياسية، وكانوا يرتبطون بالرئاسة في تل ابيب عن طريق الراديو على موجة قصيرة ذات اتجاهين، وقد استخدمت محطة بغداد اشارة النداء الرمزية : «بيرمان».

وراء الباب الداخلي لبيت الاسرة اليهودية، قام فرانك بالمهمة الصعبة: اعلام بن بورات بان مهمته تتمثل في استلام مركز بن بورات، لكن بورات رفض الاذعان، وقال أن فريق عملائه ورؤساء الجالية اليهودية الذين يعرفون بنشاطاته السرية لن يوافقوا على ذلك التغيير.

وزاد غضب فرانك عندما ساق بن بورات السيارة به الى فندق سمير اميس الضخم، وكان فرانك يعرف أن أي اجنبي يجيء الى الفندق فان عليه ان يسجل جواز سفره مع الشرطة ويمكن ان تؤدي المجازفة الى نسف مهمته.

وانطلاقا من العاطفة وليس المنطق العقلاني قرّر فرانك ان يقبل التحدّي، ويظل في بغداد ويحاول ان يقوم بمهمته ـ على الاقل حتى تصبح حياته في خطر. واكتشف خلال ايام انه يتعرض للملاحقة من قبل رجال الامن العراقيين فكان يغيّر سيارات التاكسي عدة مرات لتضليل من يلاحقونه، واتصل برجال بن بورات طالبا المساعدة في الهرب لكنهم رفضوا مساعدته.

ظل فرانك هادئاً وذهب الى وكالة سفريات حيث رشا موظفاً ليرتب له السفر جواً مع تأشيرة خروج، وكان ذكياً في التفكير بالسفر الى بيروت بدلاً من عاصمة اوروبية، حيث كانت الشرطة السرية العراقية أشدّ مراقبة على الرحلات الى اوروبا منها الى جهات عربية.

لم يقض فرانك/ شتاين/ تاشباكاش في بغداد سوى اسبوع، لكن متاعبه لم تنته حتى بعد مغادرته، فبعد وصوله الى بيروت طار الى تركيا وهو ينوي ان يلحق طائرة الى تل ابيب، لكن القنصلية الاسرائيلية في اسطنبول رفضت ان تصدق قصته وان تمنح تأشيرة «لتاجر سجاد من البحرين». فقد كانت هذه الهوية هي الوحيدة التي استطاع فرانك ان يبرزها كوثيقة.

واحتاجت القنصلية الى ثلاثة أيام حتى اعطته تأشيرة الى اسرائيل، ومع هذا كان فرانك يفكر كعميل وطني وحثّ القنصل على عدم ختم التأشيرة على جواز السفر البحراني، الذي سيصبح لاغيا في المستقبل. حيث لا يستطيع أي عميل سري اسرائيلي ان يستخدم وثيقة سفر لها علاقة واضحة باسرائيل، لكن القنصل، وهو بيروقراطي مترفّع، ختم التأشيرة على الجواز.

كانت رحلة فرانك الى تل ابيب هادئة، ووصل الى مطار اللد دون ان يستقبله اي مسؤول مخابرات. وازدادت حيرة فرانك عندما ذهب الى مكتب شيلوه في اليوم التالي، وهي الآن جزء من الموساد الجديدة ـ فقد رفض رئيس الجاسوسية استقباله.

بعد حوالي اربعين سنة، غضب فرانك اكثر من أي وقت مضى، على المسؤولين عنه في المخابرات، واتهمهم بأنهم «هواة كادوا يفقدونه حياته، فاليد اليمنى لم تكن تعرف ما كانت تفعله اليد اليسرى، وكانت الفوضى مفرطة لكننا كنا محظوظين لأن اعداءنا اسوأ منا».

كانَ رجال مكافحة الجاسوسية العراقيون اكفاء حيث استطاعوا خلال شهر من سفر فرانك المتعجل ان يكشفوا الحلقة السرية الاسرائيلية في بغداد.

كان انهيار الحلقة حتمياً، في ضوء عدم تستّر بن بورات واصراره على السيطرة على شؤون التجسس والهجرة، فقبل سنة من شجاره مع فرانك، كان بن بورات على خلاف مع موظف كبير في آليه ب وصل من اوروبا في نيسان ١٩٥٠ في مهمة كبيرة، وكان شلومو هليل ينتحل اسم «رجل الاعمال البريطاني ريشارد ارمسترونغ»، ممثلاً للمؤسسة الاميركية للنقل الجوي في الشرق الادنى، في المحادثات مع الحكومة العراقية.

كانت شركة الخطوط الجوية الاميركية الغامضة تغطي خطوطها بكل حذر حتى تخفي علاقاتها الوثيقة مع الحكومة الاسرائيلية، ولم يكن احد يعرف ان الشركة قامت في عامي ١٩٤٨ و ١٩٤٩ بنقل كل الخمسين الف يهودي من اليمن وعدن الى اسرائيل في عملية سرية اخرى لآليه ب، تحت الاسم الحركي: «عملية السجادة السحرية».

في آذار ١٩٥٠ وافق البرلمان العراقي على قانون يسمح لكل يهودي يرغب في الهجرة بمغادرة البلاد على ان يتخلوا عن جنسيتهم العراقية، وبدا هذا الأمر تساهلاً من نظام كان قد اعلن الحرب على اسرائيل واعتقل مئات اليهود لنشاطاتهم الصهيونية. ويكمن التفسير في الحوافز التي تم تقديمها لرئيس الوزراء العراقي توفيق السويدي، فقد كان ايضا رئيس مجلس ادارة شركة تورز العراقية، ولم تكن مصادفة ان تم تعيينه وكيلاً لشركة النقل الجوي في الشرق الادنى، وبكلمات اخرى، كان رئيس الحكومة العراقية يتلقى الرشاوى من المخابرات الاسرائيلية.

لم يكن رئيس الوزراء وحده، فقد تأكد هليل/ ارمسترونغ وعملاؤه من آليه ب من ان يستفيد خصم السويدي وخليفته، السياسي المخضرم نوري السعيد، الذي أصبح رئيسا للوزراء فيما بعد، فقد اعطت شركة الخطوط الجوية امتياز صيانة للخطوط الجوية العراقية، التي كان يديرها العقيد صباح السعيد، وهو ابن نوري.

لكن كل هذه العملية تعرضت للخطر بسبب بن بورات، فقد نسف تدخله في عدة اتصالات سرية ما كان يسترهم، واضطرت رئاسة آليه ب في تل ابيب للطلب منه بعدم التدخل، واستطاع هليل من أيار ١٩٥٠ الى كانون الثاني ١٩٥٢ ان ينقل الى اسرائيل حوالي ١٥٠ الف يهودي عن طريق الجو. وكانت الرحلات المباشرة تعرف باسم «عملية عزرا وينهيميا» نسبة الى الزعيمين اليهوديين اللذين تزعما اليهود في عودتهم من العراق الذي كان يعرف باسم بلاد ما بين النهرين قبل حوالي ثلاثة قرون. وقد حلت عملية عزرا ونيهيميا الجوية محل عملية بن بورات الاصغر بكثير والتي هربت اليهود من العراق الى ايران عن طريق البر ثم نقلتهم جوا الى اسرائيل.

وعلاوة على ذلك فإن بن بورات نفسه قد خانه الحظ، فقد اعتقلته الشرطة العراقية واستجوبته، واخيرا هرب الى اسرائيل، في احدى الرحلات التي نظمها هليل.

ومع هذا فان اسرائيليا ثانيا اعتقل مع بن بورات لم يستطع ان يحافظ على قصته الملفقة بأنه تاجر فارسي، وهو لم يكن يتحدث الفارسية وقد اعترف للعراقيين بأن اسمه الحقيقي يهودا تاجار، وكان عضوا في بالماخ، القوى الضاربة للهاغاناه، وارسلته الدائرة السياسية ـ قبل حلّها ـ الى بغداد، كضابط قضايا لمجموعة من الشبان اليهود العراقيين والمأجورين العرب الذين كانوا يجمعون المعلومات الاستراتيجية لاسرائيل.

كان يفترض ان يعمل بن بورات وتاجار في خط متواز، لكن ليس معاً، وتجاهلاً لكل قواعد التقسيم الى فئات فقد كانا يلتقيان مرارا ويتحدثان بالعبرية بل كانا يغنيان الاغاني الاسرائيلية عند قيادة السيارة، وقد سببت مثل هذه الاغلاط البسيطة سقوط شبكة الجواسيس كأحجار الشطرنج.

اعتقل العراقيون حوالي مئة يهودي، واحداً بعد الآخر، واستولوا على مخبأ كبير للاسلحة، وادين عشرون يهوديا عراقيا في تشرين الثاني ١٩٥١ وشنق اثنان منهم، وحكم على تاجار بالسجن مدى الحياة، ثم تم ترحيله بعد تسع سنوات، بعد ان أقام عملاء الموساد علاقة مع الحاكم العراقي الجديد، العقيد عبد الكريم قاسم، وأمن الافراج عن تاجار مقابل معلومات عن مؤامرات من المنشقين العراقيين ضد عبد الكريم قاسم.

من بين الجرائم الاخرى، أدين المتهمون بأربع عمليات تخريب، كانت احداها زرع قنبلة ادت الى الحاق اضرار بسيطة بمركز المعلومات في السفارة الاميركية وكان اكبر هجوم، واكثرها اثارة للدهشة، انفجار قنبلة يدوية في كنيس مسودا شيمتوف في بغداد بينما كان مئات اليهود يصلون. وقد قتل اربعة من الحضور بمن فيهم صبي في الثانية عشرة، وجرح حوالى عشرين شخصا.

ان الاتهام المذهل بأن شبكة تجسس اسرائيلية قد نسفت كنيساً، صدم اليهود العراقيين، وانتشرت الشائعات بين المهاجرين العراقيين الى اسرائيل الذين شكّوا بأن رحيلهم قد عجل فيه العملاء الاسرائيليون الذين يشنون الارهاب، وسخط العراقيون في اسرائيل ولاموا الزعامة الاوروبية الموالية لاسرائيل على الزجّ بهم في خيام واكواخ بدائية على امل في الحصول على مساكن لائقة او وظائف. وشعر المهاجرون السفارديم ـ الشرقيون ـ بالاهانة لتعرضهم بالرش بالمبيدات الحشرية دون اعطائهم اي حرية للاختيار. وبدا ان السياسيين الاشكناز، او اليهود الغربيين، مشغولون جدا في تهنئة انفسهم على العمل الجيد الذي فعلوه بانقاذ اليهود العراقيين حتى انهم لم يكونوا ليعملوا اي شيء ينفع هؤلاء المهاجرين.

ونتيجة لانزعاج رئيس الوزراء بن غوريون من الشائعات بأن عملية سرية يمكن ان تزيد من الانقسامات في المجتمع الاسرائيلي، فقد أمر هاريل في عام ١٩٦٠ بالقيام بتحقيق داخلي وقال التقرير السري جداً الذي وضعته اللجنة المكونة من ثلاثة اعضاء: «لم نستطع ان نجد اية ادلة فعلية على تورط اسرائيليين او يهود في إلقاء المتفجرات».

لقد انكر اعضاء مجتمع المخابرات بشدة استخدام اية أساليب ارهابية لكنهم فاخروا بالقول انهم استخدموا وسائل جديدة وأصيلة لنقل اليهود الى اسرائيل وكانت الفوضى في الداخل تستدعي في اغلب الاحيان تحسينا ذكيا من قبل العملاء في الميدان، وكانوا فوق كل ذلك يكافحون من اجل بقاء دولتهم الجديدة. فكانت الهجرة اليهودية حيوية لها في سنواتها الاولى كدولة صغيرة في بحر كبير من الدول العربية، ولم تكن القضية جغرافيا فقط وانما كانت سكانا، وبفضل العملاء السريين لآليه ب تضاعف سكان اسرائيل الى اكثر من مليون يهودي في السنوات الاربع الاولى بعد الاستقلال.

ومع هذا، لم يتلق رجال ونساء آليه ب الثناء المطلوب وقد حلّت وكالتهم في آذار ١٩٥٢، فقد قال روفن شيلوه انها لم تعد لازمة، وكان رجال آليه ب قد اعترضوا مثلما اعترض آرثر بن ناثان واعضاء دائرته السياسية، واتهموا الموساد بقيادة شيلوه بأنها تحاول الاستيلاء على موجودات وكالتهم الكبيرة.

كانت آليه ب امبراطورية اقتصادية رائعة من حيث العمليات، ولم تجد الدولة اليهودية مثيلاً لها؛ منظمة ضخمة تشارك في نقل أهم ثروة لاسرائيل، الناس، وبعد ان بنيت على وكالة سياحية سرية كبيرة كانت آليه ب تمتلك اكثر من ستين سفينة وطائرة وعددا لا يحصى من السيارات والشاحنات، وكانت تحركاتها تنسق بشكل جيد بواسطة شبكة عالمية من أجهزة البثّ الاذاعي شبه القانوني.

ساعدت الوكالة مئات الالاف من اليهود للعودة الى اسرائيل، وكانت الرشوة والدبلوماسية السرية حرفاً لهم تم تعلّمها في وقت مبكّر من قبل أعضاء آليه ب، وقد ركزّ عملاؤها على اقامة علاقات مباشرة مع الزعماء السياسيين، وفي اغلب الأحيان اولئك في الأقطار المعادية اسميا: ليس فقط رئيسي الوزراء العراقيين السويدي ونوري السعيد بل ايضا السياسيون الهنغاريون وشاه ايران للبحث عن ترتيبات محتملة لمرور يهود العراق بسلام الى اسرائيل.

كانت ميزانية آليه ب عشرات الملايين من الدولارات وهو مبلغ كبير جداً له اثر اقتصادي فعلي على بعض المناطق في اوروبا التي دّمرتها الحرب، وكانت هذه الأموال تستخدم لتقديم رشاوى لرجال الشرطة ومسؤولي الموانيء والموظفين الحكوميين وأصحاب السفن، وقد برز عملاء اسرائيل في الأسواق السوداء في فرنسا واليونان وايطاليا والنمسا وأقطار أخرى.

يقول أحد عملاء آليه ب المخضرمين: ان عملياتها قد جعلت منها اكبر عملية من نوعها في سجلات الدولة، ولم تقم أية منظمة اخرى بأعمال ضاهت ما عملناه!!

أصبحت بعض طائراتها أول طائرات العال، وساعدت سفنها في تكوين لبّ شركة الملاحة الوطنية في اسرائيل، زيم، وساعدت التجربة التي احرزها موظفوها على نطاق عالمي البحرية الجديدة لاسرائيل، وكان لآليه ب بعض العملاء الميدانيين وأفضل المزّيفين في اسرائيل الذين استطاعت الموساد ان تستفيد منهم كثيرا.

ولتطبيق ركيزة بيروقراطية للتغيير في الصلاحيات فقد غامر شيلوه ومساعده، اكيفا ليفنسكي بتوقيع مذكرة جعلت الموساد مسؤولة عن الهجرة من الأقطار العربية - وبالتحديد «نشاطات سرية من أجل اقامة اتصالات مع اليهود ونقلهم الى اسرائيل» وقد تعهدت الوكالة اليهودية بتسديد النفقات، واصبح هذا نمط العمليات في المستقبل.

وبدا أن شيلوه قد جمع صلاحيات كبيرة، فحلّ آليه ب والدائرة السياسية بينما أوجد جهاز

مخابرات اكفأ، لكن لم يمض كل شيء على ما يرام بالنسبة لشيلوه، فقد كانت صحته سيئة، بعد ان أصيب بجرح في رأسه نتيجة حادثة سيارة، كما شعر بأنه كان يتعرض للضغط من ايسر هاريل الطموح، وفي الحقيقة فان رئيس الوزراء بن غوريون دوّن في مذكراته يوم ٢٤ آيار ١٩٥٢: «جاءني ايسر، وقال بأن روفن قد فشل في مهمته».

وأصبح هنالك أجماع على ان شيلوه لم يكن جيدا في ادارة وكالة مع انه كان ذكيا جداً.

في ٢٠ أيلول ١٩٥٢ وبعد ١٨ شهرا فقط من عمله كأول مدير للموساد، قدّم شيلوه استقالته لبن غوريون، وعندما طلب منه ان يرشح خليفة له فقد طرح اسماء: ليغنسكي وغيبلي وهاريل.

اختار بن غوريون هاريل وبعد اربع سنوات حافلة بالنشاط داخليا وخارجيا، كان مجتمع المخابرات الفتي مشغولاً جداً عن القيام باعبائه، وبحركته الدائمة لم يكن اتجاهه واضحاً، وكانت كل مهمة عاجلة في الجانب السري من سعي اسرائيل للبقاء، مع وجود حاجة شديدة الى تدفق اليهود من الخارج لتقوية الدولة الجديدة بينما كان يتم ارسال الجواسيس وراء خطوط العدو مع مطاردة الخونة والمخربين، لكن كل ذلك بدا غير متماسك.

كان أول رؤساء المخابرات ما يزالون يبحثون عن الاطار الذي يمكن للأمن الفعلي أن يعيش مع الديمقراطية الفعلية. وكانوا يستوحون من سيدهم السياسي بن غوريون الذي لم يعرف كيف يواجه هذا التحدي بعينه.

كانت مثابرة ايسر هاريل واستقامته قد أثرتا على رئيس الوزراء، ورأى بن غوريون انه الرجل الذي يستطيع القيام بالمهمة التي لم يتم فهمها بعد، وفي ضوء المسؤولية امام شن بيت في الداخل والموساد في الخارج فقد أصبح هاريل الرئيس الأعلى للمخابرات الاسرائيلية.

الفصل الثاني
تطور الطفولة

دان باينز، محرر في صحيفة دافار العُمالية، ذهب لمقابلة ايسر هاريل في أول يوم من عمله كرئيس للموساد، ٢٠ أيلول ١٩٥٢. قال دان أحتاج يا أيسر الى خمسة آلاف دولار.

قال هاريل لماذا تحتاج النقود؟

ماذا؟ الا تعرف؟

هز باينز رأسه دهشة بينما أخذ يروي قصة طويلة معقدة حول شبكة تجسس كان يديرها في الاتحاد السوفيتي.

أصغى هاريل بصبر لكن ميوله المتشككة كانت تطغى عليه، فقال: أمهلني بضعة أيام يا دان حتى أتأقلم مع وظيفتي وسوف أعطيك رداً.

اشتم رئيس الموساد رائحة اختلاس فقد أصبحت له حاسة سادسة عندما كان رئيساً للشين بيت وبدلاً من أن يُعطِيَ دان أية أموال فقد شكل هاريل لجنة تخطيط للنظر في ما بدا عملية منحرفة. ومع هذا فان التحقيق لن يسبب أية فضيحة عامة، لأنه كان امراً مألوفا في السنوات الأولى من قيام اسرائيل، تعيين أعضاء من حزب الماباي الحاكم فقط في اية لجنة وليست لجنة برلمانية مختلطة، وقد ضمنت الممارسة ان يبقى أي شيء مزعج وخاصة اذا مسّ امور المخابرات، ضمن «الأسرة».

ولم تحتج لجنة التحقيق الا الى وقت قصير لكشف الحقيقة: كان باينز يكذب وكان يلهف الأموال من الموساد التي كان يديرها روفن شيلوه، ولم يكن مؤسس الموساد مذنبا في اكثر من الادارة السيئة الممتزجة بالسذاجة، لكنه ووزير الخارجية موشي شاريت كانا مقتنعين في كانون اول ١٩٥١ بأن باينز كان يعمل على تشكيل حركة صهيونية سرية في داخل روسيا.

بعد الغاء وكالة الهجرة السرية، آليه ب، كانت اسرائيل حريصة على عدم فقدان الاتصال مع اليهود السوفيات، مما جعل علاقة باينز مفيدة.

كان الصحفي المحترم قد تحدث عن مسؤول سوفياتي يرغب في مساعدة اسرائيل سرّا، وابرز رسائل ، زعم انها من عملاء محتملين، تلقاها من الخارج. وقد اكتشف المحققون رسائل جاءت من الخارج من اصدقاء باينز. وواصل الجاسوس الهاوي استغلال حاجة شيلوه للسيطرة الادارية طوال تسعة شهور، زاعماً انه عقد اجتماعات سرية مع عملاء روس سريين في باريس ونيويورك وكوبنهاغن، وكان باينز يحصل، في كل مرة يعود فيها الى تل ابيب، على تسديد لنفقاته، من جهاز الموساد.

كان الصحفي المتجول قد طبخ الخطة لأن ابنته كانت مريضة جداً وكانت في حاجة الى علاج طبي باهظ التكاليف لم يكن متوافراً الا في اوروبا ولأن دافعه كان مغفوراً، ولأنهم ارادوا ان يغطوا القضية كلها، فلم يتم توجيه أية اتهامات ضد باينز.

لقد استطاع ان يخدع شيلوه بسهولة نتيجة الفوضى التي كانت تسيطر على مجتمع المخابرات في اسرائيل، فقد انهارت حلقة التجسس في العراق، وبدىء العمل في اعادة تنظيم الوكالات السرية، وكانت المشاريع غير المجرّبة تستنزف آلاف الدولارات التي كانت الدولة اليهودية تدبّرها بشقّ الأنفس.

بعد ان كشف لعبة باينز، اثبت هاريل قيمته في اليوم الأول من رئاسته للموساد، وكان بن غوريون قد اختار هاريل بسبب عقليته المتشككة، من بين مزايا اخرى، وقد تعرّف بن غوريون على هاريل عندما كان رئيساً للشين بيت، ووجد الرجلان ان اهتماماتهما متماثلة ومع استقلال اسرائيل في عام ١٩٤٨ حول بن غوريون انتباهه الى الأمور الداخلية: استيعاب مئات الالاف من المهاجرين الجدد، والتدابير التقشفية الصارمة، والمعارك المريرة بين الفئات الحزبية.

ومع قلة التركيز على السياسة الخارجية كان من الطبيعي ان يكترث بن غوريون بالشين بيت اكثر من اهتمامه بالموساد او المخابرات العسكرية وكرئيس للشين بيت وجد هاريل باب رئيس الوزراء مفتوحا امامه، أوسع مما كان امام شيلوه او مساعديه.

وكما هو حال بن غوريون ومؤسسي اسرائيل الآخرين، كان هاريل من الرجال الأوروبيين الشرقيين ـ ولد في عام ١٩١٢ باسم ايسر هالبيرين، في فايتبسك في منطقة فولوزهين، في روسيا القيصرية، وكان اصغر اربعة اطفال لرجل أعمال ثري كان ايضا باحثا تلموديا، وكان قصير الجسم ونشيطا جداً.

كانت روسيا في بداية مرحلة اضطرابات مثيرة، ويتذكر هاريل زيارة الثوري السوفياتي ليون تروتسكي الى فايتبسك، وكان يمكن ان ينساق ايسر الصغير مع التيار الشيوعي ـ لكن تربيته اليهودية منعته، فقد كان والده يقرأ على مسمع من ايسر واخوانه من الكتب العبرية وشرّبهم الافكار الصهيونية، وليست الشيوعية.

ومع هذا فان ايسر ، المراهق، التحق بمجموعة صهيونية يسارية، هاشومير هاتزاير، الحراس الشبان، التي تطورت فيما بعد وأصبحت حزب مابام اليساري، التي كان هاريل يكرهها كشاب في اسرائيل، وفي كانون الثاني ١٩٣٠ ، وكواحد من المحظوظين القلائل الذين اختارهم هاشومير تم ارسال ايسر هالبرين الى كيبوتس في فلسطين، كان رائداً اشتراكياً، لكن فقد أي حسّ بالاشتراكية، وبعد خمس سنوات في المزرعة الجماعية غادر ايسر وزوجته الجديدة، رفقه، وبدأ عملهما الخاص بهما، تغليف البرتقال.

عندما نشبت الحرب العالمية الثانية، انضم الى الهاغاناه، وفي عام ١٩٤٤ دخل فرع المخابرات فيها، «شاي» وبعد ثماني سنوات في الحركة السرية حقق تدريباً رائعا، وفي غمرة حرب ١٩٤٨ لاحظ بن غوريون مواهب هاريل في المخابرات، وعندما أصبح في السادسة والثلاثين أصبح أول مدير للشين بيت ـ حيث عين في اجتماع شارع بن يهودا في حزيران، والذي أعاد تنظيم المخابرات الاسرائيلية.

وبعد اربع سنوات، عندما سقطت اوراق شيلوه، تم تعيين هاريل رئيساً للموساد، وكان في الاربعين من عمره فقط، مع أنه كان يبدو في الخمسين على الاقل، لكن مظهر هاريل المتعب والاكبر سنّا من سنّه الحقيقي كان يمكن ان يكون خادعاً، لأنه كان يملك الطاقة الجياشة لفتى شاب.

أقام امبراطورية مخابراته بسرعة: فكان مئات من الموظفين في وكالتين مرتبطين مباشرة بهاريل، الذي كان مرتبطا مباشرة برئيس الوزراء، وقد كان للشين بيت رئيس اسمي جديد ايسادور روث، وهو يهودي بولندي سابق كان فيما مضى مساعدا لهاريل. وقد حوّل اسمه الى اسم ذي وقع يهودي اكثر: ايزي دوروث، عندما عاد للانضمام الى الشين بيت بعد مهمة قصيرة لمساعدة شيلوه في الموساد. وفي العقدين الاولين من عمر المخابرات الاسرائيلية، كانت عمليات النقل بين الشين بيت والموساد أمراً شائعا.

تولى دوروث المركز الاول لمدة سنة واحدة فقط وكان يعتبر زعيما لا يثير الاعجاب، وفي ايلول ١٩٥٣ طلب منه أن يستقيل، فعاش في اسرائيل مغمورا حتى وفاته في عام ١٩٧٩، ولا يكاد أحد في المخابرات الاسرائيلية يذكره.

كان اموز مانور، الرئيس التالي للشين بيت، وقد ولد باسم آرثر منديليفيسي، في تراسلفانيا، في الايام الاخيرة من عمر الامبراطورية النمساوية الهنغارية، في تشرين اول ١٩١٨، وكان آرثر في الجيش الهنغاري عندما نشبت الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٣٩، وواصل مع جنود يهود آخرين الخدمة، حتى عندما أجبرت الحكومة الفاشية الموالية للنازيين اليهود على ارتداء نجوم صفراء على ملابسهم. وفي عام ١٩٤٣ فقط طردوا من الجيش، وكان آرثر في واحد من

أول القطارات التي تنقل اليهود الهنغاريين الى معسكر التعذيب في بولندا.

واستطاع آرثر ان يعود الى ترانسيلفانيا التي أصبحت جزءا من رومانيا، وبعد فترة قصيرة من انتهاء الحرب، ايقن انه لا مستقبل ليهودي في اوروبا الشرقية، وطلب من النشطاء الصهاينة أن يساعدوه في الرحيل الى فلسطين التي كان البريطانيون يحكمونها.

وبدلا من مساعدته في مغادرة رومانيا، استعرض موظفو آليه ب طلبه وقرروا أن الأفضل الاستفادة من تدريبه العسكري حيث هو، واقنعوه بالانضمام الى آليه ب، وعمل سرّا في بوخارست لمدة ثلاث سنوات، في مشاريع نقلت آلاف اليهود الى فلسطين.

ظل آرثر يعمل لاسرائيل بعد انشائها في عام ١٩٤٨، مع انه لم يكن فيها، ومع هذا فقد اغتنم فرصته في عام ١٩٤٩ عندما أمرت حكومة رومانيا الشيوعية باغلاق جميع المؤسسات الصهيونية وبعد ان حصل على جواز سفر مزور، وخوفا من اتهامه بنشاط سياسي غير مشروع، أو حتى بالتجسس هرب مع زوجته الى اسرائيل.

بعد ثلاثة ايام من وصولهما الى اسرائيل في حزيران ١٩٤٩، ذهب آرثر لمقابلة وزير الخارجية شاريت، ووافق على اقتراحه باخفاء اسمه اليهودي الاوروبي واختار اسماً يهودياً عصرياً، فاصبح اموز مانور.

كما استقال من آليه ب، وبعد ان عمل في الهجرة السرية لفترة طويلة، وبعد ان سافر على سكة الحديد السرية الصهيونية، فقد توصل مانور الى استنتاج توصل اليه بن غوريون وشيلوه بعد ثلاث سنوات: بان الدولة الشرعية لا تحتاج الى وكالة متخصصة في اللاشرعية.

واستطاع رئيس آليه ب، شاوول افيغور أن يلمس بان مانور ما يزال مناسبا لعمل المخابرات، وان العيش في اسرائيل لا يلغي وطنيته، فارسله افيغور لمقابلة ايسر هاريل في الشين بيت وقد تأثر هاريل ووقع على توظيف مانور، فبدأ من قاع السلم غير الرسمي للشين بيت، لكن المهاجر الجديد شق طريقه بسرعة ليتولى منصب رئيس المخابرات المضادة.

لقد آمن مانور من البداية أن تهديد المخابرات الاجنبية من اقطار الكتلة الشيوعية أقوى من تهديد جيران اسرائيل العرب، فقد هزم العرب في محاولتهم الرامية الى القضاء على اسرائيل الحديثة الولادة، ولم يكن هنالك اي مؤشر على أن الجواسيس العرب كانوا أفضل مما كانت جيوشهم في ٤٨ ـ ١٩٤٩.

عندما حلّ هاريل محلّ شيلوه في الموساد، تمت ترقية مانور ليصبح نائبا لرئيس الشين بيت الجديد، ايزي دوروت، وعندما نحّي دوروت في عام ١٩٥٣، أصبح مانور المدير الجديد للامن الداخلي لاسرائيل.

كان صعود مانور استثنائيا حيث انه كان في الثلاثين من العمر فقط، ولم يمض على وجوده في اسرائيل سوى اربع سنوات، كما أنه لم يكن جزءا من تلك النخبة التي حاربت جنبا الى جنب في حركة الهاغاناه السرية او في قوتها الضاربة بالماخ. وهو لم يخدم في الجيش البريطاني، او فرقته اليهودية المشهورة بل انه لم يشترك في حرب ٤٨ ـ ١٩٤٩، وكان يتحدث العبرية بلكنة هنغارية واضحة ويتصرف كاوروبي اكثر منه «كأسرائيلي جديد» ـ والحقيقة أنها كانت هوية جديدة غير معروفة بسهولة لكنها كانت هوية أوجدها الصفوة التي كان مانور يحاول الانضمام اليها.

بدا في بداية الامر ان الهرم الرسمي يشير الى أن مانور وصل الى مستوى مساو لمستوى هاريل، فكان كل منهما رئيس وكالة، كان مانور رئيس الشين بيت، وكان هاريل رئيس الموساد، لكن اتضح على الفور ان هاريل كان الاول على من حوله، فهو لم يتخلّ عن مقاليد الامن الداخلي، واستطاع بمساعدة رئيس الوزراء بن غوريون ان يدير المخابرات الاسرائيلية بركوب حصانين في وقت واحد: الشين بيت والموساد.

لقد اطلق بن غوريون على هاريل لقبا خاصا به في عام ١٩٥٧، ففي الكنيست اشار رئيس الوزراء الى «ميمونه» أي الرجل المسؤول عن الاجهزة السرية، ومع أن مجلس الوزراء والكنيست لم يوافقا رسميا على اللقب فان بن غوريون لم يتردد في إعلانه، ففي بلد حظي فيه بالاعجاب وشبه العبادة كشخصية ابوية، شعر بحرية التصرف دون ان يتقيد بحيثيات الديمقراطية، فبينما ارست الولايات المتحدة والاقطار الغربية الاخرى اجراءات لوضع أوصاف وظيفية للبيروقراطيين واعلان وضعهم الرسمي، فقد كانت اسرائيل تدار من «الرجل العجوز» بطريقة شخصية، وكان هاريل ايضا رئيس فاراش، وهي اللجنة التي تضم كل مديري الوكالات.

جمع هاريل بين يديه صلاحيات هائلة، اكثر من أي رئيس مخابرات في اي بلد غربي، لكن كان لرجل واحد صلاحيات مساوية لصلاحيات رئيس الاف بي آي، ادجار هوفر، ورئيس السي آي ايه، الان دالاس معاً فقد حظي «ايسر الصغير» بهذه المكانة التي لم يسبق لها مثيل وبالثقة والتقدير غير المحدودين من قبل بن غوريون.

ومقابل ذلك أظهر «الميمونه» ولاء منقطع النظير ووافق على القيام باي شيء من أجل الحكومة، وحينما طلب بن غورويون منه ان يفعل ذلك، قام هاريل بتحويل مجتمع المخابرات الى اداة سياسية لحزب ماباي الحاكم، وكما آمن مؤسسو اسرائيل بالديمقراطية، فانهم ايضا اعتادوا على ربط مصالحهم السياسية بمصالح الدولة.

كان الولاء لحزب بن غوريون طبيعيا جدا، فالتصور الكامل للخيار السياسي لم يتحقق في اسرائيل حتى تلك اللحظة، ولم يكن لأحد اية خبرة في ادارة ديمقراطية عصرية، ولم يكن هنالك الكثير من التقاليد والمعايير التي يسترشد بها، فقد كانت اسرائيل في بداية الطريق بعد العادات

السرية لحركة سرية يهودية تعمل من اجل الاستقلال، ومن بين الاغلبية العظمى للاسرائيليين كان حزب ماباي مرادفا للدولة، وكان ماباي يسيطر على معظم مؤسساتها: المصانع، الاتحادات العمالية، هرم الجيش، ومجتمع المخابرات.

بعث هاريل العملاء، الذين كانوا في أغلب الاحيان مترددين، لما كان يفترض ان تكون واجبات شرطة: مكافحة تجار السوق السوداء، وفتح آلاف الرسائل المرسلة الى الخارج لاصطياد مهرّبي العملة والمخربين.

في عملية البحث عن المخربين انتهج بن غوريون وحزبه الماباي نهجا بسيطا يستند الى الاعتقاد «بأن كل من ليس معنا هو ضدنا»، ووفقا لذلك أصدر هاريل أمراً لرجال الشين بيت بالتغلغل في أحزاب اسرائيل السياسية الاخرى.

وكانت العيون متوجهة في البداية نحو اليمين، وكانعكاس للكراهية الشديدة التي كان بن غوريون يشعر بها تجاه مناحيم بيغن، وهو القائد السابق لحركة الارغون السرية الذي بات يقود حزب حيروت، وضع هاريل بيغن وزملاءه تحت المراقبة. وقد نقل هاريل لرئيس الوزراء ان حيروت ينوي تشكيل «حركة شبه سرية» داخل الجيش، لكن الشكوك لم يكن لها أساس لان بيغن حوّل نفسه الى ديمقراطي برلماني حقيقي. لكن هاريل كما يقول الممثل العبري - كان «يرى ظلال الجبال جبالاً».

في الشهور التالية، كشفت الشين بيت عدة حلقات صغيرة غير خطرة، مرتبطة بالمتعصبين الدينيين واليمين السياسي، وقد أقسمت احداها وكانت تدعى «بريت هاكاناعيم» أي «ميثاق المتحمسين»، أقسمت على تجديد مملكة اسرائيل في ظل حكم ديني صارم، وقام هؤلاء اليهود، الملتحون ذوو الملابس السوداء، بحرق عدد من السيارات ومطعم، وملحمة كانت تبيع اللحوم غير المتقيدة بطريقة الذبح الارثوذكسية.

تسلل رجال الشين بيت في جماعة المتعصبين واعتقلوهم، واتضح انهم هواة سذّج، لكن تقرير هاريل لبن غوريون صورهم بانهم يشكلون خطرا قاتلا على الديمقراطية، واراد «الميمونه» أن يعرف الناس أن رجاله من الشين بيت يكافحون التخريب بكفاءة وطريقة متطورة.

كما كان لهاريل الفضل في افشال محاولة اغتيال وزير المواصلات، بن زيون بينكوس، فقد تم اعتقال شالتيل بن يائير وشابين آخرين من حركة ليهي السرية التي وجدت قبل قيام الدولة، وكانت تعرف باسم عصابة شتيرن، وقد اعتقلوا بتهمة التخطيط لعنف ضد المتدينين، وقد وضعوا قنبلة قرب بيت الوزير، احتجاجا على تطبيق قيود على النقل العام ايام السبت، فكانت الباصات ممنوعة من الحركة ايام العطلة اليهودية، كجزء من اتفاقية سياسية بين حزب ماباي والسياسيين المتدينين اليهود. وحوكم بن يائير لكنه افرج عنه لعدم توفّر الادلة وقد عمل فيما بعد في

مجتمع المخابرات.

بينما كان «الميمونه» يصفّي التخريب اليميني، فقد حول أنظاره بشكل متزايد نحو اليسار، فقام جهاز الشين بيت بمراقبة مكثفة للحزب الشيوعي الصغير في اسرائيل، ولم يكن هذا امراً مثيرا للجدل، لان عامة الناس كانوا يعتبرون الشيوعيين منبوذين مناهضين للصهيونية في مجتمع صهيوني وطني.

ومع هذا فقد تجاوز هاريل أماني معظم الاسرائيليين، عندما حول حملته المناهضة للتخريب نحو المابام، وهو حزب اشتراكي ذو انتماءات صهيونية لا مجال للتساؤل حولها، ومع أن المابام كان يساريا فانه كان واضح التوجه السياسي وكان ملتزما بوجود دولة يهودية مستقلة. وكان الحزب أنشط من أي حزب آخر في بناء المستوطنات والكيبوتسات اليهودية الجديدة كما خدم اعضاؤه في الجيش بكل اخلاص، ووصل العديد منهم الى رتب عسكرية رفيعة.

من ناحية أخرى، عندما توصل زعماء المابام الى أن بن غوريون يريد تحويل اسرائيل عن الاشتراكية، أوقفوا كل تعاون سياسي معه، وعندما مضوا الى ما هو أبعد بتقديس الديكتاتور السوفياتي جوزيف ستالين، لم يكن هاريل في حاجة الى أي دليل أقوى لشنّ الحملة ضدهم.

وقرر «الميمونه» أن مابام يعمل كعميل للكتلة الشيوعية، بل لقد شك في كثرة اعضائه في سلك الضباط في الجيش، الامر الذي تجلى معه ان يكون مابام يخطط لانقلاب عسكري للسيطرة على البلاد.

أصبح هجوم الشين بيت السري على المخربين المزعومين امراً معروفا في ٢٩ كانون الثاني ١٩٥٣ عندما رفع سكرتير حزب مابام، ناتان بيليد، يديه بشكل مثير في مؤتمر صحفي عقده في تل ابيب ليكشف عن جهاز بث لاسلكي صغير حيث قال للصحفيين ان جهاز التصنت قد وجد تحت طاولة زعيم المابام ماثير ياري.

قال بيليد أن الحزب شكّ لفترة طويلة في أن مناقشاته الخاصة كانت تتسرب بشكل ما لتصل الى بن غوريون، وقال انه تم العثور على المايكروفون وجهاز البث كما تم ضبط لصين وهما يحاولان اقتحام مقرّ المابام بمفاتيح خاصة، وقد ضبطهما اعضاء الحزب وسلموهما للشرطة، وقال بيليد أن القاضي كان متساهلا جدا حيث فرض غرامة اسمية وحكما بالسجن لمدة أسبوعين دون ان يأمر باجراء تحقيق في الظروف الغريبة.

قدم بيليد للمراسلين المجتمعين مثالا فقال ان الرجلين من اعضاء الشين بيت وأرسلهما هاريل، بأوامر من بن غوريون وماباي. ومع ان الحزب الحاكم نفى الاتهامات، فان المابام كان له علم حيث كان للحزب جواسيسه الذين يعملون داخل الشين بيت. وهم جزء من دائرة أمن تابعة للمابام زرعت العملاء في احزاب اخرى داخل مجتمع المخابرات.

اكتشف هاريل جاسوسا واحدا يتجسس على جواسيس اسرائيل في كانون الثاني ١٩٥١: تم ترميج عضو الشين بيت غيرشون رابينوفتز، لانه كان ذا ميول قوية مؤيدة للمابام، ومع هذا ظل مدسوسون آخرون من المابام في مواقعهم يزودون الحزب بمعلومات من أجل الدفاع عن نفسه.

كما كشف هاريل مخبراً كان يعمل في قسم الشؤون العربية من دائرة البحوث التابعة لوزارة الخارجية، ومن حسن حظ الامن الاسرائيلي ان الجاسوس لم يكن عربيا أو شخصا يعمل لصالح العرب. كان هذا الشخص هو يعقوب بارام، اسرائيلي وضع في مكان جيد يمكنه من وضع يده على تقارير الموساد والمخابرات العسكرية، وقد ضبط في ايار ١٩٥٥ وهو ينقل وثائق سرية الى دائرة أمن المابام. فقد كان الحزب مصمماً بشكل واضح على تطوير طرقه الخاصة لمعرفة ما يجري في الدولة اليهودية. ولم يشأ هاريل أن يوجه تهماً جنائية ضد بارام، حتى لا يعمّق الهوّة بين المابام وماباي.

ان مراقبة هاريل الشديدة لوزارة الخارجية أفرزت ارباحا اكبر بالقبض على جاسوس كان عميلا للاعداء حتى قبل مجيئه الى اسرائيل. كان اسمه الاصلي وولف غولدشتاين، ولد في سويسرا من ابوين يهوديين كان لهما انتماءات شيوعية قوية حتى انهما آويا فلاديمير ايليش لينين قبل الثورة البلشفية في عام ١٩١٧. واصبح وولف المراهق المحب للبطل مسحوراً بالماركسية ـ اللينينية واستأجره الجواسيس السوفيات كواحد من جواسيسهم وذهب الى موسكو في دورة مخابرات عقدتها الكي جي بي ـ المخابرات السوفياتية ـ وكان الهدف من البداية، زرعه في حكومة اسرائيل.

وصل خلال معارك ١٩٤٨ واستطاع العمل مع وزارة الخارجية بسهولة غير معقولة، وانضم الى دائرة الاقتصاد التي كانت صغيرة جدا حتى انها كانت في حاجة ملحة للموظفين، وكما كانت العادة، غيّر وولف غولد شتاين اسمه لاسم عبري: زيف آفني.

بينما كان آفني موظفا اسرائيليا صغيرا فقد شغل بعض الوظائف الهامة في الخارج، ففي بداية الخمسينات، عيّن في السفارة الاسرائيلية في بروكسل كمستشار اقتصادي، وكانت تجري مفاوضات سرية مع مسؤولي المانيا الغربية حول دفع تعويضات لليهود الاسرائيليين الذين عانوا من المحرقة، وكان آفني يبلغ الكي جي بي، بانتظام، بكل تفاصيل المفاوضات.

ثم عينّ في بلغراد حيث ألحق اكبر ضرر بالامن القومي للدولة اليهودية، وقد شملت مسؤولياته العلاقات التجارية بين اسرائيل ويوغوسلافيا، لكن، بسبب النقص المزمن في القوة العاملة سمح له بالوصول الى غرفة الاتصالات والرموز السرية جدا في السفارة، وتعلّم آفني كيف يدير آلات الرموز التي كانت تستخدم في جميع الرسائل بين وزارة الخارجية في اسرائيل وسفارتها في يوغوسلافيا.

وكان هنالك رضى كامل عن رغبته في العمل بعد ساعات دوامه والعمل بدل كتبة

الاتصالات المتغيبين أو المرضى، وحصل الجاسوس السوفياتي بسرعة على الرموز السرية لوزارة الخارجية الاسرائيلية مما مكّن الكي جي بي من حلّ رموز جميع الرسائل التي كانت تبثّ من والى الدبلوماسيين وموظفي المخابرات الاسرائيليين العاملين تحت غطاء دبلوماسي.

وجد هاريل، الذي كان يستطلع القوائم الدبلوماسية بغريزته المحبة للجاسوسية المضادة، وجد سببا للشك في آفني وحماسه. وبدا سلوكه الغريب بعض الشيء، في بلغراد مرتبطا بمؤشرات على ان العملاء الاسرائيليين قد تم كشفهم، واخترع هاريل سببا لاستدعاء آفني الى تل ابيب، في نيسان ١٩٥٦، وطار آفني الى تل ابيب دون ان يعي بانه كان في ورطة فاعتقلته الشين بيت بقيادة هاريل، وخلال الاستجواب انهار غولد شتاين/آفني واعترف بكل شيء ـ وهو اعتراف وجده الاسرائيليون مفيدا جدا، وكان متعاونا جدا حتى انه بعد الحكم عليه بالسجن لمدة خمس عشرة سنة، زرع في زنزانة السجن كمخبر للشين بيت على خونة آخرين مشتبه بهم.

وبعد عشر سنوات تم الافراج عن غولد شتاين/آفني، وعاد الى موطن طفولته في سويسرا، لكنه عاد الى اسرائيل بعد بضع سنوات، وبموافقة رؤساء المخابرات في لجنة فاراش اختفى زيف آفني الى الابد وانتحل هوية جديدة في مجتمع زراعي شمالي تل ابيب حيث يعمل كطبيب نفساني.

كان هاريل معتادا على الاعتماد على مواهبه بدلاً من الاعتماد على أجهزة الكمبيوتر السريع او الميزانيات السمينة، فقد كانت الشين بيت، طوال سنواتها العشرين الاولى، منظمة صغيرة لا تضم سوى بضع مئات من الموظفين، وتعيش مع كوابح مالية، ومع هذا، فانها كانت مكلفة بمهمات كثيرة جدا.

كانت المنظمة تنقسم الى قسمين: الدعم والعمليات، وكان لشعبة الدعم دوائر ادارة واستجواب ومستشار قانوني وتنسيق وتخطيط وتكنولوجيا، وامدادات لوجيستيكية للعمليات.

وكان لقسم العمليات في الشين بيت ثلاث دوائر:

ـ الامن الوقائي: وهو مسؤول عن سفارات اسرائيل وممثليها الآخرين في الخارج، حماية رئيس الوزراء ومسؤولين آخرين، وضمان الصناعة العسكرية لاسرائيل.

ـ الشؤون العربية وهو مسؤول بشكل رئيسي عن مراقبة التخريب بين الاقلية العربية داخل حدود اسرائيل، الذين كانوا يعيشون تحت الادارة العسكرية حتى عام ١٩٦٥.

ـ الشؤون غير العربية: وهي أهم واكبر الدوائر، مسؤولة عن مكافحة التجسس ومراقبة الدبلوماسيين الاجانب والوفود ومحاربة التخريب من قبل الشيوعيين والمتطرفين السياسيين الآخرين.

لقد تعلمت اسرائيل منذ زمن طويل ان تعمل بالبدائل المؤقتة باقل التكاليف، فمعظم

أجهزة الامن ترى انـه لابقاء شخص تحت المـراقبة عـلى مدى اربـع وعشرين سـاعة فـانها تحتاج الى ثلاثين موظفا للعمل بالتناوب وفي المخابرات الاسرائيلية، ونتيجة لنقص مزمن في القوة العاملة، فان هذه المهمة لا توكل لاكثر من عشرة عملاء، الذين يضطرون للعمل بعد اوقـات عملهم المحددة، وفي أغلب الاحيان، يساعدهم متدرّبون يستفيدون من هذا التدريب في المستقبل عندما يصبحون عملاء رسميين في الاجهزة السرية.

من المفترض، بشكل عام - ان من المحتمل ان يكون اي شخص يتعرض للملاحقة ويبدأ باستخدام اساليب محترفة لتضييع الاثار، عميل تجسس أجنبي، ومع هذا، اكتشفت الشين بيت ان الاقطار الشيوعية قد قامت بذكاء بتدريب كثير من اعضاء الوفود الذين ارسلتهم الى الخارج على التملّص من المراقبة، وبذلك بدا الدبلوماسيون والزوار القادمون بطريقة قانونية ولم يكونوا جواسيس، مثيرين للشبهة، وكان الاسرائيليون يضيعون الوقت في ملاحقتهم وكان يمكن لكثير من الخيوط الزائفة، ان تضيّع آثار عملاء التجسس الحقيقيين.

كانت الشين بيت، منذ بدايتها في عام ١٩٤٨، تقوم بمهمة مراقبة نشاطات الدبلوماسيين - ليس فقط اعضاء الكتلة الشرقية بل ايضا مبعوثي الاقطار الغربية الصديقة.

وبعد بضعة شهور فقط من قيام اسرائيل، اكتشف الملحق العسكري الاميركي في تـل ابيب، العقيد إي بي ارشيبالد ان تلفونه مراقب.

وبعد سنة حاول عميل اسرائيلي ان يبتزّ مسؤولاً في القنصلية الاميركية في القدس، آملاً في إجباره على تسريب وثائق سرية للشين بيت، وكان لكاتب القنصلية عشيقة اسرائيلية، تم الضغط عليها لأخذ معلومات من الدبلوماسي، ولفّقت السلطات قصة بـأن الشابـة تحتاج الى عمليـة إجهاض.

في عام ١٩٥٤ وجد ضباط الامن في السفارة الاميركية، في تل ابيب مايكروفونات مخبأة في مكتب السفير، وفي عام ١٩٥٦ وجدت اجهزة تنصت مركبة على هاتفين في منزل ملحق عسكري اميركي وقامت الشين بيت ايضا بمحاولات مكشوفة باستخدام النساء والامـوال لاغواء مشـاة البحرية الاميركية الذين كانوا يحرسون سفارتهم في تل ابيب.

لم تفرز معظم هذه المحاولات اي شيء ذي قيمة، لكن هاريل واصل استخدام خياله ورفض الارتباط بالاتيكيت او التقاليد. وفوق ذلك، كان يؤمن في تجنيد الافضل، فأمر جميع افراد المجموعة بابقاء عيونهم مفتوحة على الاسرائيليين الذين يظهرون الامكانيات والوطنية والوعد.

أقنع هاريل بن غوريون في عام ١٩٥٥ بتجنيد اكثر افراد حركة ليهي السريـة السابقـة الموهوبـين رغم مقت رئيس الوزراء لهم، وفي هـذا الجو المتوتر والمسيس الـذي كان يسـود اسرائيـل

في تلك الايام، كانت هذه العملية تتصف بجرأة لا مثيل لها، فقد منع الارهابيـون اليمينيون السابقون من تولي وظائف الخدمة المدنية، حتى في التعليم، تخوفا من المجازفات الامنية، وكان هاريل يراقبهم عن كثب، وشعر انهم تم تحييدهم، وانهم لم يكونوا يشكلون اي خطر وانه يتوجب استغلال خبرتهم في الاساليب التآمرية والسرية.

كان من بين رجال الشين بيت والموساد الجديدتين اشخاص مثل اسحق يزيرنيتسكي الذي كان رئيسا لعصابة ليهي أو شتيرن، وقد قام فيما بعد بتغيير اسمه الى اسحق شامير، الذي اصبح فيما بعد رئيساً لوزراء اسرائيل.

وقامت المخابرات بتجنيد أعضاء آخرين من ليهي، فتمّ ارسال يعقوب ايلياف الى اسبانيا أمّا يهوشوا كوهين، الذي شارك في عام ١٩٤٨ في اغتيال وسيط الامم المتحدة السويدي الكونت فولك برنادوت فقد تم تعيينه ضمن الحراس الشخصيين لبن غوريون. وتم ارسال شالتيل بن يائير، الذي اشتبه به قبل اربع سنوات بالتآمر على قتل وزير، الى مصر بهوية مزورة، وكان واحداً من انجح عملاء اسرائيل في الخارج. وتم تعيين ديفيد شومرون في محطة الموساد في باريس، واصبح الياهو بن اليسار ضابط حالات في اوروبا للعملاء في الاراضي العربية، وكان هؤلاء اليمينيون ممتنين جدا لهاريل لأنه حررهم من الحظر واعطاهم الفرصة لاثبات اهميتهم لاسرائيل.

بذل هاريل كل ما في وسعه للايحاء بقدر معين من الفخر بالانتماء لاسرة اخوية، ولم يدخلوا هذا المجال من اجل المال فالرواتب التي كان افراد الشين بيت والموساد يتلقونها كانت مماثلة لموظفي الخدمة المدنية العاديين في اسرائيل ـ متدنية بالمقاييس الغربية ـ وكان العاملون في الخارج يتلقون الضعفين، وكان العمل خطراً وساعاته لا تنتهي، لكن هاريل استطاع ان يضمن ان موظفيه يرون انفسهم نوعيات محميّة.

وكان عملاؤه يعرفون ايضا ان الرحلات للخارج، والتي كانت نادرة في تلك الأيام وغير متاحة للاسرائيليين العاديين، من بين المزايا الهامشية لعملهم، وكان العاملون في قسم المساندة، ليس في الميدان، مؤهلين للتمتع بهذه المزية. وكان يجري، بين الحين والآخر، ارسال الفنيين او الميكانيكيين او السكرتيرين الى الخارج في مهمات لم تكن تستدعي اية مهارة خاصة، مثل العمل كمراسلين أو حراس.

ومقابل ذلك كان هاريل يطالب باخلاص كامل والتزام مطلق بواجباتهم، وقد جعل هاريل من نفسه مثالاً: العمل دون تضييع الوقت. وبدلاً من الاقامة في فنادق باهظة الكلفة أو تناول الوجبات في مطاعم راقية كان يختار ارخص البدائل حتى عندما كان يسافر الى اوروبا والولايات المتحدة واميركا الجنوبية.

عندما كانت هنالك قيود صارمة في الخمسينات على المبلغ الذي يستطيع ان يحمله المواطن العادي في اسرائيل من العملة الصعبة، كان افراد مجتمع المخابرات يحصلون على تصريح خاص بأخذ اكثر من المئة دولار المألوفة في رحلة الى الخارج. وكان مفهوما ان المقصود من المال هو تمويل العمليات الخاصة، والدفع للمخبرين وتغطية النفقات الاخرى غير المعتادة مثل الرشوة. وكان هاريل يعيد أي مبلغ يتبقى معه الى اول بنك يصادفه لدى وصوله الى مطار اللد.

لم يكن العملاء مضطرين لتقديم ايصالات على نفقاتهم، فكانت تكفي التقارير المكتوبة التي يقدمونها بعد عودتهم الى اسرائيل. لكن هذا النظام كان يخفي وراءه يدا قوية تتعلق بالأمور المالية، وكانت أسوأ خطيئة الكذب وقد أوضح عميل كبير في الموساد: انهم يدربوننا على الكذب، والسرقة ونسج الخطط ضد اعدائنا، لكننا قد لا نسمح لهذه الامور ان تفسدنا».

واذا ضبط عميل يكذب، حتى فيما يتعلق ببضعة دولارات أو اذا لم يقدم توضيحا مرضيا عن نفقاته فانه يواجه محاكمة تأديبية، فقد شكلت محكمة داخلية خاصة من مجتمع المخابرات يرأسها قاضي اختير من السلك القضائي المدني، وقد اقسم القاضي على السرية، فكان يتم تغريم وانذار اي عميل يتبين انه مذنب باستغلال وظيفته السرية في تهريب الادوات المنزلية او اجهزة التلفزيون او اجهزة الفيديو الى اسرائيل. وتم ترميج عدد من الفاسدين في احيان كثيرة. وهذا ما حدث مع عميل موساد قام في اوروبا بالاتصال مع اثنين من المخبرين من بلد عربي. فقد أسكرهما وأطعمهما لبضعة أيام، كما اصطحبهما الى المباغي، وعندما عاد الضابط الى تل ابيب قدم تقريرا مفصلا عن نفقاته، وضمنها تكاليف المومسات ولم يسرّ رئيسه في مقر الموساد فقال: انني افهم الحاجة الى انفاق الاموال على عملائك لكن لماذا يجب على اسرائيل ان تدفع بدل عهرك؟

تم تأنيب الضابط رسميا كما قام محاسبو الموساد بالاطلاع على تقارير نفقاته السابقة، وأظهرت نفقات مثيرة للشك، فرمّج دون ان يتلقى اي تعويض على خدمته.

وصلت ذات مرة شكوى عن احد رجال الشين بيت كان له علاقة غرامية وكان يستخدم سيارة الوكالة المعروفة له بالتجول بها مع عشيقته، وحيث ان هنالك امرا بعدم استخدام السيارات الرسمية في الامور الشخصية فقد طلب رؤساءه من الشين بيت ان ينهي علاقته الغرامية والاشاعة الرائجة، ولو وصل امر هذا الشخص الى هاريل لكان ردّه أشد.

بينما كان للميمونة سلطة قضائية على الموساد والشين بيت، فانه لم يستطع ان يحول دون اخفاق كبير ومربك من قبل عملاء المخابرات العسكرية في مصر في اواسط الخمسينات، حيث برزت فضيحة لافون - نسبة الى بنحاس لافون وزير الدفاع الذي فقد وظيفته بسببها.

كانت مساحة مصر الشاسعة ارضا خصبة للتجسس بالنسبة للموساد وامان، وكالة

المخابرات العسكرية، فكانت امان المهيمنة على جمع المعلومات من القوات المسلحة في الاقطار المعادية على حدود اسرائيل بينما كانت مسؤوليات الموساد تشمل العمليات السرية في جميع الاقطار الاجنبية.

كانت مصر، اكبر الاقطار العربية المجاورة، تحظى باهتمام رئيسي واستحقت اهتمام جهازي المخابرات، ومع هذا فان الوحدة ١٣١ التابعة لأمان، واجهت مصاعب خطرة في عملية سيئة التخطيط بدأت بارسال افراهام دار الى القاهرة في ايار ١٩٥١.

تصرّف دار بشكل جيد، في ضوء العقبة التي واجهته في السفر كبريطاني، كان حفيد يهودي ولد في عدن، وقد جعلت بشرته السمراء من الصعب ان يبدو بريطانيا، لكن لغته الانجليزية كانت ممتازة وكان ذا خبرة سرية كعميل هجرة مع آليه ب. كان جديرا بالاعتماد عليه، لكن لم يكن ذا صيت بأنه يتصف بالقيادة او القدرات التحليلية، وفي مصر تصرّف على انه جون دارلنغ، ممثل لشركة كهرباء بريطانية وقد روى دار فيما بعد: لم يتم اختيار اسم دارلنغ بالصدفة، فقد كان اسم أحد ضباط الجيش البريطاني في مصر دارلنغ، وكان يمكن ان تكون العلاقات الاسرية التي كانت لي ظاهريا معه مفيدة له.

بعد ان استقر دار ـ حتى ان دارلنغ الاصلي صدق انهما قريبان ـ بدأ العمل على تحقيق الهدف الذي ذهب من أجله: اقامة شبكة من العملاء «النائمين» الذين يمكن تحريكهم عند الحاجة لتنفيذ مهمات سرية، فشكل دار خليتين من اليهود الشبان المخلصين المؤيدين لاسرائيل، بل ارسلوا الى اسرائيل سراً للتدريب في ١٩٥٢.

لقد كان هؤلاء الصهاينة المصريون هواة وكان محاضرو الوحدة ١٣١ يواجهون متاعب في اعطاء دروسهم في فنون المهنة: الحبر الخفيّ، بث الرموز الاذاعية، وسائل المراقبة، فقد كانت كل هذه امورا غريبة على هؤلاء العملاء من الدرجة الثانية مثل غرابة الفيزياء النووية. ومع هذا لم يحتجّ احد في مجتمع المخابرات الاسرائيلي، مع وجود بعض الاستثناءات، فمن بين اكثر طلاب التجسس موهبة كان هنالك ايلي كوهين، الذي اعتبر بعد عقد من الزمن «أفضل جاسوس» لاسرائيل.

احدى العميلات، مارسيلي نينيو أقامت وكالة سياحية في مصر بتمويل سري اسرائيلي، وكانت معروفة بشخصيتها المرحة وجمالها الأخّاذ، فكانت الحلقة بين الخليتين المصريتين.

في اوائل عام ١٩٥٢ شكل الضباط القوميون في الجيش المصري علاقات سرية مع كيرميت (كيم) روزفلت ومايلز كوبلاند وهما عميلان كبيران للسي آي ايه في الشرق الاوسط، وخططوا للاطاحة بالملك فاروق، ونجحوا في شهر تموز. واعلن قادة الانقلاب جمهورية، وطلبوا من عملاء

السي آي ايه ان يدربوهم، وفي عام ١٩٥٤ ظهر زعيمهم الفعلي، جمال عبد الناصر، كرئيس.

كان العملاء الاسرائيليون قد «ناموا» ثلاث سنوات، لكن في حزيران ١٩٥٤ تم بثّ كلمة السر التي كانت معدة سلفا من تل ابيب الى القاهرة، لتحريك عملية سوزانة، واخيرا بدأت الخلايا السرية للوحدة ١٣١ بالعمل، بهدف تشويه سمعة الحكومة القومية العربية الجديدة، لكن دار لم يعد ضابط الحالات، حيث تم استبداله بأفراهام سيدينورغ.

كان سيدينورغ ابن سياسي يهودي في النمسا مات في العهد النازي، وانتقل سيدينورغ الابن الى فلسطين، وغيّر اسمه الى آفري إل ـ آد وبرز في معركة بالماخ في القدس عام ١٩٤٨، كان برتبة رائد عندما كان في الثانية والعشرين لكن حرفته العسكرية انتهت عندما نهب ثلاجة من قرية عربية تم احتلالها، وحوكم عسكريا.

في نهاية عام ١٩٥١، كان إل ـ آد مطلقا وعاطلا عن العمل، والتقى بأفراهام دار وموردخاي بن زور من الوحدة ١٣١، ورأيا فيه مادة ممتازة لمهمة خطرة في اراضي العدو، لأنه لم يكن لديه ما يخسره وسيكون ممتنا لفرصة اعادة تأهيل نفسه.

استعادت المخابرات العسكرية هوية عضو كيبوتس من أصل الماني اسمه بول فرانك، وخصصتها لمجندها الجديد، وذهب سيدينورغ/ إل ـ آد/ فرانك الى المانيا الغربية لمدة تسعة شهور لسدّ أية ثغرة في قصته الملفقة حتى انه اجريت له عملية مؤلمة جدا لابطال ختانه، حتى لا يعرف بأنه يهودي اذا كشفت عورته. وقال للجراح الالماني بأنه ليس يهوديا ولا يستطيع ان يقنع من يعتقدون انه يهودي. فتعاطف معه الجراح كثيرا.

أبحر الجاسوس الاسرائيلي الى القاهرة كرجل اعمال ثري، بول فرانك، في كانون الاول ١٩٥٣، وتم قبوله بسرعة في الجالية الالمانية المتزايدة في مصر، وكان كثير منهم نازيين يريدون الهروب من ماضيهم.

لقد ارتكب سيدينورغ/ ال ـ آد/ فرانك كل ما يمكن ان يخطر على البال من أخطاء. فقد عرف كل عملائه ـ ليس فقط كبار العملاء القلائل ـ بل زارهم في بيوتهم، فكانوا وأسرهم يعرفونه، مع انهم كانوا يسمونه روبرت.

في ٣٠ حزيران ١٩٥٤ ذهب الى الاسكندرية بكلمة السر التي كان ينتظرها طويلاً، وكانت عملية سوزانة تعني التخريب، غير ان اهداف التفجير لم تكن مرافق عسكرية مصرية، بل كانت دور سينما ومكاتب بريد ومؤسسات اميركية وبريطانية، وكان الهدف اثارة غضب واشنطن ولندن ضد المصريين، وتصوير الحكومة الجديدة في القاهرة بأنها غير مستقرة ولا يمكن الاعتماد عليها.

بدأت المهمة الغريبة بعض الشيء بنسف مكتب بريد في الاسكندرية، حيث قام فيليب

ناتانسون، وكان في التاسعة عشرة أصغر العملاء الصهاينة، وفكتور ليفي بحمـل المتفجرات البدائية في جيوب نظارات عيون، وحدثت أضرار طفيفة، ومنعت الرقابة العسكرية المصرية نشر اي خبر عن الحادث، لذلك لم تهتز صورة مصر أبداً.

بعد اسبوع، صدرت تعليمات اكثر طموحا، بواسطة كلمات السرّ، خلال برنامج اذاعي اسرائيلي، فأمر سيدينورغ/ فرانك فريقه بوضع قنابل في مكتبتي مركز المعلومات الاميركي في القاهرة والاسكندرية، وفي هذه المرة تحدثت الصحف المحلية والعالمية عن الانفجارات، مما أفرح الوحدة ١٣١ في تل ابيب.

في ٢٢ تموز، انفجرت قنبلتان في القاهرة غير ان واحدة منهما كانت ما تزال في جيب فيليب ناتانسون، وساعد ضابط شرطة في تمييز البنطلون المحروق واعتقل ناتانسون فيما بعد، فكانت نهاية عملية سوزانة، التي أثرت على مجتمع المخابرات الاسرائيلي لسنوات قادمة.

كان ناتانسون اول من انهار تحت التحقيق، وكما في العراق، وجدت شرطة الامن المصرية سهولة في تطويق شبكة تجسس غير محترفة مشكلة في معظمها من يهود محليين كان بعضهم يعرف البعض الآخر اجتماعيا ولم يحم احدهم الآخر، وقد اعتقلت نينيو، وكيلة السياحة، على الفور. كما اعتقل عميل اسرائيلي كان يفترض انه يعمل تحت غطاء سري شديد، وهو ماثير (ماكس) بينيت، الذي ولد في هنغاريا في عام ١٩١٧ لأسرة من اليهود الارثوذكس من المانيا، وفي عام ١٩٣٥ وصلت اسرته الى فلسطين كمهاجرين غير قانونيين، واعترافا بجميله اصبح عميلا سريا لآليه ب، حيث جنّده افراهام دار في أمان حيث ان اتقانه لست لغات حمله الى اقطار كثيرة في مهمات مختلفة، وفي الوقت الذي ارسل فيه الى مصر في عام ١٩٥١ كان قد وصل الى رتبة رائد.

وكما حدث مع سيد ينورغ/ ال ـ آد، فقد اعطي بينيت هوية المانية، فالظهور كألماني كان خيارا مفضلا لأسباب بسيطة وهي ان في اسرائيل كثيـرا ممن يتحدثـون الالمانيـة، وان قلة من الناس يتوقعون من الماني ان يعمل للدولة اليهودية. بالاضافة الى سبب اعمق وهو ان جهاز المخابرات الالماني الغربي كان يساعد الاسرائيليين في نسج قصصهم الملفقة، بجوازات السفـر والوثـائق الاخرى.

والمفارقة المضحكة ان مهندس العلاقة الخاصة بين الدولة اليهودية والمانيا «الجديدة» كان متعاطفا سابقا مع النازية، حيث كان الجنرال رينهارد غيهلين رئيس قوة مخابرات المانية خاصة مسؤولة عن الجبهة السوفياتية خلال الحرب العالمية الثانية. وبعد هزيمة الرايخ الثالث ـ اعتقل الاميـركيون غيهلين وبـدلا من ان يتهموه كمجـرم حرب اطلقـوا سراحـه وسـراح رجـالـه. وكـانت المخابرات الاميركية والبريطانية قد علمت «بمخطط» غيهلين للتآمر الالماني الاميركي ضد روسيا السوفياتية، فوضعه الاميركيون مسؤولا عن جهاز المخابرات الالماني الغربي الذي اقيم حديثا،

واقام الجنرال السابق في جيش هتلر علاقة مهنية عميقة مع اسرائيل.

اعتقد بعض عملاء المخابرات الاسرائيلية انهم نجحوا في استغلال شعور الالمان بالذنب بعد ابادة ستة ملايين يهودي في المحرقة، غير ان السي آي ايه نظرت نظرة اخرى في تقييمها لأعمال رجال المخابرات المحترفين مثل غيهلين ومصادره الاسرائيليين، فقدكان الاميركيون يعتقدون ان حرفة تستّر المخابرات تستدعي فصل العواطف عن الحساب المنطقي للمصالح.

استنتجت السي آي ايه ان المخابرات الاسرائيلية تملك مصادر قوة واضحة سلبية وايجابية، في التعامل مع الالمان الغربيين، فحسب تقدير الاميركيين كانت المكافأة سيلا من المعلومات التي حصل عليها الاسرائيليون من آلاف من المهاجرين الذين وصلوا الاتحاد السوفياتي وسائر اقطار اوروبا الشرقية. وكانت الوكالات السرية الاسرائيلية خبيرة في استخدام كل نتفة معلومات، حتى وان بدت ذات قيمة ضئيلة لصراع الشرق الاوسط، وكان الاسرائيليون يعقدون صفقة حين تكون المعلومة لمصلحة الالمان الغربيين ـ كأن تلقي الضوء على المواقف العسكرية والدبلوماسية للكتلة السوفياتية.

كان جواسيس اميركا يعتقدون ايضا ان هنالك عائقاً: لا بدّ ان المخابرات الاسرائيلية جمعت معلومات مثيرة للشبهة حول النشاطات النازية السابقة لكبار السياسيين الالمان الغربيين، وكانت السي آي ايه تعتقد ان اسرائيل اوضحت ان المواد الفاضحة يمكن تسريبها للناس اذا لم يتعاون الالمان تعاونا كاملا. واشار العملاء الاميركيون في تقاريرهم بان مثل هذا الابتزاز يمكن ان ينجح، وبخاصة مع الالمان الغربيين، الذين كانوا يرتعدون من اي فضيحة حتى وان كان الاسرائيليون لم يكونوا يملكون كثيرا من الاسلحة.

استفاد ماكس بينيت، سواء عن وعي او غير وعي، من العلاقة السرية القوية والدوافع المختلطة وراءها، استفاد منها وهو في طريقه الى مصر.

وفقا لقصته الملفقة ـ كان نازيا سابقا يمثل شركة المانية تصنع اجهزة الجراحة الترقيعية، وأصبح فيها بعد رئيس المهندسين لسيارات فورد في مصر. لكن بينيت كان رجل مخابرات ممتازا، وكان اهم زبون لسيارات فورد هو الجيش المصري، مما وفر للجاسوس الاسرائيلي قدرا كبيرا من القدرة على الوصول الى رجال وقواعد الجيش.

لم يكن من المفروض ان تعرف زوجته في اسرائيل مكان وجوده، فكان يبعث برسائله الى عنوان في لندن، وذات مرة اخطأ احد رجاله ونسي ان ينزع الطوابع المصرية، وفجأة عرفت جين بينيت مكان وجود ماكس، وتعتقد ارملته ان عدم النضج قد صبغ القضية باكملها. ومع هذا قام بينيت بمهامه كما هو مطلوب، وكانت احداها قاتلة، حيث قال افراهام دار بعد سنوات: كانت غلطة غبية من رجاله، كانت هنالك فجوة في علاقاتهم بشبكة سيد ينوزغ / فرانك، وقد اختاروا

اسهل طريقة لتحويل الاموال لهم، مع ان قواعد التقسيم الى وحدات في المخابرات تحظر اي إتصال بين شبكتين منفصلتين، وبخاصة اذا كانت مهماتها مختلفة لكن العملاء تصرفوا بغباء، لذلك التقى بينيت مع مارسيلي نينيو ومع فرانك واعطاهما المال».

وعند الاستجواب اعطت نينيو ما كانت تعرفه عن بينيت فاقتحم المصريون بيته وجردوه من ملابسه وعندما وجدوه مختونا ضربوه، وفي ٢١ كانون الاول ١٩٥٤ قطع ماكس بينيت شرايين رسغيه في زنزانة السجن في القاهرة ومات قبل يوم من موعد مثوله للمحاكمة، فلا بدّ أنه ادرك ان مصيرة الموت حيث كان اكبر جاسوس اسرائيلي، ففضل بينيت الموت على الاذلال!

لكن اسرائيل نفت اية علاقة، وتم ارسال جثمان بينيت الى المانيا الغربية لدفنه، لكن في عام ١٩٥٩ تم اخراج الجثمان سرًا من القبر ونقل الى اسرائيل لدفنه مرة اخرى. وكان قبره بلا علامة، ولم تخبر السلطات ارملته باعادة دفنه الا قبل يوم من الدفن، ولم يجب مجتمع المخابرات على كل طلبات اسرته للحصول على تفسير لظروف موته. وفي عام ١٩٨٨ فقط اعترفت اسرائيل ان بينيت كان عميلها، ومنح رتبة عقيد في احتفال اقيم في مكتب وزير الدفاع في تل ابيب.

لم تكن السلطات الاسرائيلية متعاونة مع العملاء الاخرين الذين القي القبض عليهم في قضية لافون، فقد شنق اثنان من اليهود المصريين في عام ١٩٥٥، وحكم على اربعة اخرين بالسجن لمدد طويلة، بل ان اسرائيل رفضت عرضا مصريا بمبادلتهم باسرى مصريين وقعوا في الاسر خلال حملة السويس عام ١٩٥٦، فقد كان رئيس هيئة الاركان، موشي دايان يعارض عقد صفقة خوفا من ان تسبب لاسرائيل حرجا. ولكن في عام ١٩٦٨ تمت مبادلة مارسيلي نينيو، فيليب ناثانسون، روبرت داسا وفكتور ليفي بآلاف الاسرى المصريين. وبعد اكثر من عشرين سنة كان الاربعة ما يزالون يشكون من انهم تعرضوا للاهمال، والتهب الجدل في الصحف الاسرائيلية باتهامات متناقضة وادعاءات مضادة.

وكان العضو الوحيد من الشبكة الذين نجا من الاعتقال بول فرانك الذي تجرأ على البقاء في مصر اسبوعين آخرين، وعندما عاد الى تل ابيب، سيد نيورغ / فرانك اصبح افري ال ـ آد مرة اخرى، وارسلته امان في مهمة استخبارية عسكرية اخرى الى اوروبا، ولم يعترض على هذا سوى ايسر هاريل، حيث اشتبه بان يكون ال ـ آد عميلا مزدوجا ـ مثل دافيد ماغن قبل بضع سنوات. وبدا هروب ال ـ اد السهل من مصر مشؤوما، فبالنسبة للميمونة كانت القدرة على كشف الخيانة حاسّة شم، وقد فاحت بعض الرائحة حول ال ـ آد.

أجبر غيبلي على الاستقالة كرئيس لآمان بسبب فضيحة لافون، لكن بديله، يهوشافات هاركابي، واصل الايمان بإل ـ اد، وتابع هاريل غرائزه، ودون ان يخبر هاركابي ارسل الميمونه رجال الشين بيت الى اوروبا لتعقّب اثار المشبوه.

ذكرت الشين بيت ان ال ـ اد اتصل بضابط في مكتب الملحق العسكري المصري في بون، واعطاه وثائق سرية عن المخابرات الاسرائيلية، فاستنتج هاريل ان رجل آمان كان خائنا. وتم نقل ال آد على الفور الى اسرائيل، واستجوب من قبل الشين بيت لمدة تسعة شهور، ثم قدم للمحاكمة في تموز ١٩٥٩، واتهم بالتجسس لمصر.

آملا في انقاذ عنقه، عاد ال ـ اد إلى تاريخ مجتمع المخابرات، فاعترف بانه ساعد في التغطية حول فضيحة لافون، قائلا بان الضباط في الوحدة ١٣١ قد تآمروا لتحميل وزير الدفاع لافون مسؤولية فشل عملية سوزانه في مصر. لكن براءته حول امور ليست ذات علاقة لم تساعده في المحكمة، فحكم عليه بالسجن عشر سنوات، بعد واحدة من اكثر المحاكمات سرية في التاريخ الاسرائيلي، ومنعت الرقابة العسكرية الصحافة من نشر التفاصيل كما كانت اسماء الاشخاص المعنيين بالفضيحة فاكهة محرّمة. وقد اشارت الصحافة الى القضية كلها بعبارة ايزيك بيش، اي القضية المتعفنة، كما اشير الى غيبلي بعبارة الضابط الكبير، ووصف بن زور بضابط الاحتياط، ووصف ال ـ اد بالرجل الثالث.

وفي الوقت ذاته، لم يستطع محققو الشين بيت ان يوقعوا ال ـ اد وجبروه على الاعتراف بانه ساعد المخابرات المصرية، او الاعتراف بانه خان رفاقه في القاهرة والاسكندرية. وبعد اطلاق سراحه من السجن انتقل ال ـ اد الى كاليفورنيا والف كتابا ادعى ان هاريل زيف الاتهامات ضده.

لقد كان لفضيحة لافون اثار تجاوزت مجرد فشل عملية سرية واحدة او اعتقال خلية تجسس، فقد ادرك سياسيو اسرائيل لأول مرة ان وضع الامن على رأس قائمة الاولويات الوطنية يمكن ان يكون بالغ الخطورة. وبعد ترك الامن والديمقراطية منفصلين، اكتشفوا ان لا قوة طبيعية تستطيع ان تحقق توازنا بينهما دون تدخلهم الفعال.

كانت الفضيحة مؤشرا صارخا على انه تم اعطاء صلاحيات اكثر من اللازم لقادة المخابرات الجريئين غير الخاضعين لمراقبة وبعد عقود كانت المهمة المتعفنة ما تزال اشارة تحذيرية.

لم يتم اخبار الاسرائيليين «بالعفن» الذي كان يضرب مجتمع المخابرات، لكن، بينما كان المجتمع والحكومة في حالة فوضى، صمد ايسر هاريل وازدهر، فقد كان القوة التي يعتدّ بها، اجتثّ التخريب في الداخل، وحمى مصالح اسرائيل في الخارج.

وفي الوقت ذاته، كانت اسرائيل تكبر كقوة اقليمية مخيفة، وبدلا من بلد صغير ناشىء اصبحت الدولة اليهودية لاعبا هاما وفعالا في لعبة السياسةالدولية.

ان محاولة استخدام الاستفزازات الغربية، وبخاصة في مصر، لتحويل القوى الغربية ضد العرب، كان لها اثر عكسي عندما انكشف التورط الاسرائيلي. ومع هذا فان الحقائق السياسية

عبرت عن نفسها فقد اختارت الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا مصادقة اسرائيل لانها اضحت الاولى بين دول الشرق الاوسط فيما يتعلق بالقوة.

ورغم الاهانة التي لحقت بالمخابرات العسكرية في فضيحة لافون، كانت العلاقة مع الفرنسيين ذات طبيعة عسكرية طاغية حتى ان بن غوريون وضع آمان، بقيادة الجنرال هاركابي ووزارة الدفاع مسؤولتين في عام ١٩٥٦. واحتج هاريل قائلا بان الموساد ينبغي ان تكون لها السلطة المطلقة على العلاقات السرية مع الاقطار الاجنبية، غير ان رئيس الوزراء وثق بالجيش لتولّي التعاون مع فرنسا. فاستعان بن غوريون بموشي دايان، كبير مساعدي شمعون بيريز، وحتى بالرجل الذي كان قبل خمس سنوات دبّر «ثورة الجواسيس»، اشر بن ناتان.

الفصل الثالث

النضج النووي ولاكام

«احزم حقائبك على الفور»، هذا ما ذكره مركز القيادة في تل ابيب عبر اللاسلكي. كان ذلك في أيلول عام ١٩٥٦، وقد تسلم الرسالة أشر بن ناتان كما يجب، وهو جاسوس اسرائيلي سابق في أوروبا، ويعمل حالياً مديراً عاماً لشركة تمتلكها حكومته في افريقيا.

هذه الشركة هي «انكودا البحر الاحمر»، ومقرها كان في جيبوتي، وهي مستعمرة فرنسية نائية في القرن الافريقي، لا تبعد عن اليمن الا بمسافة رحلة بحرية في قارب تجديف عبر مضيق باب المندب. ونظراً لموقعها المطل على الجزيرة العربية، فقد كانت جيبوتي مكاناً مثالياً للتصنّت بالنسبة للاستخبارات الاسرائيلية، غير ان الوظيفة الرسمية لبن ناتان كانت شراء لحم أثيوبي وشحنه على طول البحر الأحمر الى ميناء إيلات في جنوب اسرائيل. وكانت انكودا البحر الاحمر قد وظفت جزارين متمسكين بالشعائر الدينية وحاخامات للتأكد من ان البقر والخراف قد ذبحت على الطريقة اليهودية.

كان بن ناتان ـ الذي عُيّن في جيبوتي عام ١٩٥٣ والذي غفر له رئيس الوزراء بن غوريون تمرّده السابق ـ يقوم وعلى نحو سري بتنظيم تحركات الشحن والاتصالات في القرن الاستراتيجي والدول العربية المجاورة. ولقد تغاضت السلطات الفرنسية عن الجانب التجسسي لنشاطات شركة اللحوم.

وأشارت الرسالة اللاسلكية الموجهة الى بن ناتان الى توطد العلاقة بين اسرائيل وفرنسا بصورة اكبر. فطار الى تل ابيب وفقاً للتعليمات، ليتوجه مباشرة الى وزارة الدفاع، حيث رحب به شمعون بيريز، المدير العام الشاب للوزارة آنذاك، وعهد اليه بمهمة جديدة «الرجل العجوز يريدك ان تسافر الى باريس حالاً لتجدّد اتصالاتك التي تعود الى فترة اشتغالك بالقسم السياسي، وكي تعمل كممثل خاص لوزارة الدفاع في كل أوروبا. من الأفضل ألّا تطرح أسئلة كثيرة. وسيتمّ توضيح كل شيء في وقت قريب».

في الثاني والعشرين من تشرين الأول، وعقب مرور شهر، اعتقد بن ناتان أن الضباب قد انقشع أخيراً، وأنه سرعان ما سيعرف سبب وجوده في فرنسا. ففي فيلا خاصة تقع في ضاحية سيفري الباريسية، جلس الى طاولة خشبية كبيرة وفخمة مع مجموعة بلغت من التنوّع حدّاً جعله يقرص نفسه فعلاً كي يصدّق ما يراه.

فلقد جلس حول الطاولة ما يزيد على اثني عشر رجلاً، من بينهم اسرائيليان شهيران هما: بن غوريون، بوظيفته المزدوجة كرئيس لوزراء ووزير للدفاع، ورئيس هيئة اركان الجيش موشيه دايان بعصابة العين السوداء لتذكره دائماً بفقدان عينه اليسرى عام ١٩٤٢ أثناء عملية مع الاستخبارات البريطانية ضد قوات فيشي الفرنسية الموالية للنازية في سوريا.

إلاّ أن بن ناتان ركّز بشكل رئيسي على العديد من الرجال الذين عرفهم فقط كوجوه في أفلام اخبارية قصيرة. إذ كان هنالك رئيس الوزراء الفرنسي غي موليه، ووزير الدفاع موريس بورجيه ـ مونوري ووزير الخارجية كريستيان بينو، والعديد من المساعدين والمستشارين، بعضهم كان يرتدي زي الجيش، والبعض الآخر كان بالملابس المدنية. وجلس في مواجهتهم وزير الخارجية البريطاني، سيلوين لويد محاطاً بمستشاريه!

ولم يكن مؤتمر سيفري مجرّد لغو تافه، فلقد كان هؤلاء الرجال يخططون لحرب ستعرف في اسرائيل باسم حملة سيناء، وسيعرفها العالم ببساطة باسم «السويس».

في التاسع والعشرين من تشرين الأول عام ١٩٥٦، بدأ المظليون الاسرائيليون والقوات البرية بالتحرك الى مصر ـ عبر سيناء ونحو قناة السويس. وتمشياً مع خطة سيفري، أصدرت فرنسا وبريطانيا إنذاراً للجيشين الاسرائيلي والمصري تأمرانهما فيه بتجميد قواتهما في مواقعهما، على بعد عدة أميال من القناة. وكما كان معدّاً سلفاً وافقت اسرائيل على ذلك، لكن مصر رفضت، فتذرّع الفرنسيون والبريطانيون بذلك الرفض لانزال مظليين في منطقه القناة في الخامس من تشرين الثاني، حيث استولوا على الممر المائي الاستراتيجي.

في أثناء ذلك، كان الجيش الاسرائيلي قد أتمّ استيلاءه على سيناء في غضون أربعة أيام فقط. وبدا أن هدف مؤتمر سيفري قد تحقّق، وأن الشهور العديدة من التخطيط من قبل العسكريين والاستخبارات قد أعطت ثمارها.

وكانت اسرائيل تستهدف من الحرب تدمير الجيش المصري المجهّز سوفياتياً، مع كسر الحصار الذي ضربه الرئيس جمال عبد الناصر على طريق البحر الأحمر المؤدي الى إيلات. وكان هنالك أيضاً هدف معلن يتمثل في ايقاف الهجمات الارهابية للفلسطينيين من قطاع غزة التابع لمصر.

وأمل رئيس وزراء بريطانيا أنتوني إيدن، مدفوعاً بحقده الشديد لعبد الناصر باستعادة السيطرة البريطانية على القناة التي كان الزعيم المصري قد أممها. وتوقع إيدن ان يعمل الحقد على إسقاط عبد الناصر الذي كان يركب موجة راديكالية في الشرق الأوسط موجهة ضد المصالح الغربية.

أمّا فرنسا فكانت مهتمة بالدرجة الأولى بإيقاف «الناصرية» لأنها كانت تلهم جبهة التحرير الوطنية في الجزائر والتي كانت تقاتل القوّات الفرنسية.

وحتّى قبل انعقاد مؤتمر سيفري، كانت فرنسا قد بدأت بتسليح اسرائيل للحرب القادمة. فمنذ نيسان عام ١٩٥٦، وصلت طائرات وسفن شحن فرنسية في جنح الليل، وفرغت كميات وفيرة من الاسلحة: من دبابات وطائرات مقاتلة ومدفع وذخيرة.

وتطلّب المشروع تعاوناً استخبارياً وثيقاً. فكان رئيس أمان الجنرال هيركابي يتردد على باريس باستمرار لاجراء محادثات مع نظرائه في الاستخبارات المدنية والعسكرية الفرنسية. ولتأكيد هذه الصلة الوثيقة، تمّ وضع ممثل دائم لأمان في فرنسا. ورغم أن إيسر هاريل حاول ان يصرّ على ان تحتكر الموساد على الاقل الاتصالات مع وكالات الاستخبارات المدنية في الخارج الا ان الميمونه اضطر للبقاء في المقعد الخلفي اثناء التحضير لمخططات الحرب .

وعملت اسرائيل وشركاؤها ايضاً على نشر بعض المعلومات المضللة، إذ أصرّ رجال الاستخبارات قبل أيام قلائل فقط من العدوان على سيناء على نشر معلومات مضلّلة تفيد بأن اسرائيل تخطط للاعتداء على الأردن انتقاماً من هجمات الفدائيين الفلسطينيين من هناك.

كعملية عسكرية، تم تنفيذ حملة سيناء ـ دور اسرائيل على وجه الخصوص ـ بذكاء. إلا انها كمناورة سياسية كانت فاشلة. فلقد اعتقدت الاستخبارات الاسرائيلية والفرنسية والبريطانية بأن عبد الناصر سيرضخ للضغط العالمي المتزايد، وذلك جزئيا لكون تحالفهم الثلاثي سيتسع طبيعياً ليضم الولايات المتحدة. إلا أنه بدلاً من ذلك، أظهرت الولايات المتحدة ازدراءاً تاماً لغزو السويس، وأجبرت المعتدين الثلاثة على الانسحاب لتثبت للجميع قاطبة بأن الولايات التحدة قوة عظمى، بينما لم تعد فرنسا وبريطانيا مؤهلتين حتى للقب «القوى الكبرى» القديم.

وبدأت اسرائيل بسحب قواتها في تشرين الثاني في خضم احتفالاتها بانتصار جيشها في سيناء، وتم تسليم الأجزاء الأخيرة من الأرض التي استولت عليها ـ شرم الشيخ وغزة ـ الى مصر في آذار عام ١٩٥٧. هذا ولحق بصورة اسرائيل كدولة اشتراكية تقدمية تسعى الى السلام أذى بالغ، إذ استنتج العالم أن اسرائيل لعبت دوراً في مؤامرة امبريالية سيئة التقدير.

إلا أن الاسرائيليين عرفوا تماماً ما الذي كانوا يقومون به. فقد اشتركوا في مؤامرة السويس

الثلاثية بسبب تحرّق بن غوريون بالدرجة الأولى للحصول على قوة نووية. ولم تكن للعلاقات العامة أية قيمة، غير أنه كانت هنالك قيمة عظيمة؛ إذ أن الأهداف الاستراتيجية لرئيس الوزراء فيما يتعلق بتعزيز حلف قوي مع فرنسا عملت على مدّ «جسر فوق البحر الأبيض المتوسط». هذا الجسر جلب للاسرائيليين كل ما يحتاجون اليه تقريبا لصنع قنبلة ذرية.

لقد كان الحصول على القوة النووية هدفاً سعى إليه بن غوريون بولع منذ بدء الدولة. فهو يمثل استقلالاً حقيقياً في العالم الحديث. صحيح ان توليد الكهرباء دون الاعتماد على الفحم والنفط المستوردين أمر قيّم، إلا أن تطوير قوة عسكرية نووية كان ذا أهمية أكبر: فهو سيجعل اسرائيل قوة ليس لها منافس في الشرق الأوسط. ومن الممكن أن تكون الضمان النهائي لاستمرار وجود الدولة اليهودية.

بعد سبعة شهور فقط من الاستقلال، استدعى رئيس الوزراء خبيراً من باريس يدعى موريس سوردين، كان بن غوريون قد وصفه في مذكراته التي دونها في العشرين من كانون الأول عام ١٩٤٨ بأنه «صانع الفرن الذري الفرنسي». وهو يهودي ولد في كريميا الروسية عام ١٩١٣، وانتقل الى فلسطين تحت اسم موشيه سوردين. إلا أنه استقر فيما بعد في فرنسا حيث درس الفيزياء. وعقب الحرب العالمية الثانية، عمل مع لجنة الطاقة الذرية في باريس التي كانت تقوم بتطوير القنبلة الذرية الفرنسية.

ويتذكر سوردين قائلاً: «إن بن غوريون كان شديد الاهتمام بموضوع الذرة، كما كان مهتماً للغاية بالتفاصيل». ولم يتمخّض شيء عن الاجتماع، لكن بن غوريون وجماعته من المستشارين الشباب رفضوا التخلّي عن الفكرة، إذ شعروا بأن الحصول على القوة النووية سيعوضهم عن صغر حجم اسرائيل وضآلة مواردها البشرية.

وفيما يتعلق بفكرة قنبلة ذرية اسرائيلية، فلقد كان الجنرال دايان بالطبع متحمساً لها، إذ رأى في وجود ترسانة نووية رادعاً قوياً ضدّ اعتداء عربي شامل دون الحاجة لوضع «دبابة في كل ساحة اسرائيلية». كما أن الابقاء على جيش دائم من شأنه أن يتسبب في إفلاس الدولة، وذلك وفقاً لما يراه رئيس الأركان.

وقال دايان: «نحتاج الى جيش صغير، بحيث يكون فعالاً ورخيصاً ومحترفاً من أجل أمن متطوّر واشتباكات محدودة - مع وجود أسلحة نووية لمواجهة عامة، وإلاّ فسننكفىء الى اختناق اقتصادي».

وفي عام ١٩٥٢، أسس مجلس الوزراء في اسرائيل لجنة الطاقة الذرية الاسرائيلية (إياك). وكان رئيسها ايرنست ديفيد بيرغمان، وهو كيميائي ذكي ولد في المانيا عام ١٩٠٣، حيث انتقل

الى فلسطين في الثلاثينات من هذا القرن، وأسس الفيالق العلمية للجيش الاسرائيلي. وكان بيرغمان مديراً للقسم العلمي في وزارة الدفاع، في نفس الوقت الذي كان يجري فيه ابحاثاً حول السرطان وأشياء أخرى كما كان من أنصار الخيار النووي.

ولم يدع بن غوريون ومستشاروه العلميون والعسكريون والسياسيون أية فرصة تقريباً دون التفكير بإمكانيات شراء مفاعل نووي. وطرحت الفرصة نفسها عام ١٩٥٥ عندما قدّم برنامج الرئيس دوايت دي. آيزنهاور المعروف باسم «ذرات للسلام» مفاعلاً نووياً صغيراً للأبحاث ذا قدرة كهربائية تبلغ ٥ ميجاوات في منطقة ناحال سوريك على بعد عشرة أميال جنوب تل أبيب. وخضع المكان لاجراءات تفتيش أميركية، وعلى أيّة حال كان المفاعل أصغر من أن ينتج أيّ شيء ذا فائدة عسكرية تذكر.

في نفس ذلك العام، أدرك شمعون بيريز فرصة للحصول على شيء أكبر من فرنسا، حيث كانت حكومة غي موليه الاشتراكية قد وصلت الى السلطة في نيسان. ولقد انتهج موليه خطّاً متشدداً فيما يتعلق بالجزائر وبالتالي التقت وجهات نظره الى حدّ كبير مع وجهات نظر اسرائيل المعادية للناصرية. كما أنّ حقيقة وجود إدارة اشتراكية في اسرائيل ساعد على هذا الأمر.

وكلما كان بيريز في فرنسا، وكثيراً ما كان يفعل، كان يثير إمكانية شراء مفاعل نووي. ولقد تصرّف كدبلوماسي وضابط استخبارات ومشتري سلاح في آن واحد. ولم تأبه وزيرة الخارجية غولدا مائير لهذا النشاط المفرط. وكانت شكواها ضدّ بيريز بأنّه كان يحوّل وزارة الدفاع الى وزارة خارجية ثانية مستقلة، لكن احتجاجها كان أكبر من ذلك إذ لم تشأ مائير و «الحرس القديم» لحزب ماباي الحاكم أن تسعى اسرائيل للحصول على القوة النووية.

بيد أن بيريز حصل على دعم بن غوريون المطلق، وهكذا أصبح بإمكان ضابط الدفاع مواصلة جهوده. ومنذ نيسان عام ١٩٥٦ وحتىّ حملة سيناء في تشرين الأول أضحى طلب بيريز للحصول على مفاعل نووي جزءاً أساسياً من التواطؤ السرّي بين البلدين.

حدثت نقطة التحوّل في الحادي والعشرين من أيلول عام ١٩٥٦ في فيلا ريفية تقع على بعد مائة ميل تقريباً الى الجنوب من باريس ومقامة وسط مزارع فرنسية ريفية، إذ التقى بيريز هناك بوزير الدفاع بورجيه ـ مونوري الذي كان مشغولاً بالتخطيط للاعتداء على مصر. ولقد انخدع الفرنسيون بفكرة أن اسرائيل ستلعب دوراً في الحرب، آملين أن تقوم عنهم القوات الاسرائيلية بالجزء القذر من العمليه، وذلك بدفع الجيش المصري بعيداً عن السويس.

في ذلك اليوم الخريفي، سعى بورجيه ـ مونوري الى التأكد من اشتراك اسرائيل بالموافقة أخيراً على طلبات بيريز المتكررة فيما يختصّ بالجبهة النووية. ونيابة عن الحكومة الفرنسية، منح وزير الدفاع للاسرائيلي «ما يتلذّذ به» على شكل مفاعل نووي. وهذه هي المرة الأولى في تاريخ

البشرية التي توافق فيها دولة على تزويد أخرى بالقدرة النووية دون متطلبات تتعلّق باجراءات وقائية وتفتيشية.

واستطاع بن ناتان وحده ان يفهم سبب استدعائه من إفريقيا وإعادة تعيينه في وزارة الدفاع كممثل أوروبي، إذ لم يتم إرساله الى باريس للمساعدة في التحضير لغزو السويس، وإنما للمساعدة في الحصول على مفاعل نووي اسرائيلي ثانٍ. فسعى من خلال تعزيز حجج بيريز الى التأثير على العديد من الوزراء الفرنسيين من أجل الحصول على مفاعل نووي كبير، وليس فقط المفاعل الصغير الذي قد يكون في أذهان الفرنسيين.

غير أنّه حتّى التعاون الوثيق في حملة سيناء/ السوَيس لم يعمل على تسوية مسألة القوة النووية فبحلول خريف عام ١٩٥٧، كان الوقت قد بدأ ينفذ بالنسبة للوبي الاسرائيلي، لأن الجمهورية الرابعة الفرنسية كانت على شفا الانفجار. فلقد ملّ الجمهور حالة اللااستقرار السياسي، كما كان غزو السويس أمراً محرجاً، وكانت هنالك أيضاً أصوات متزايدة تطالب بعودة بطل الحرب العالمية الثانية الجنرال شارل ديغول الى السلطة، ولما كان بيريز وبن ناتان قد حظيا بموافقة الادارة الاشتراكية مبدئياً، فقد خشيا ان يرفض خلفاء الحكومة المتزعزعون طلب اسرائيل بالحصول على القوة النووية.

إلا أنّه لحسن حظّ الاسرائيليين، كان بورجيه - مونوري قد ترقّى الى منصب رئيس الوزراء وكان مصمّماً على الوفاء بتعهده قبل مغادرة مسرح الأحداث، ومع ذلك، لم يكن الأمر سهلاً بالنسبة لبيريز، الذي تردّد بين الوزارات الحكومية في باريس حيث وجد بأن العديد في البيروقراطية الفرنسية لم يكونوا راغبين في إعطاء الاسرائيليين ما يريدون؛ إذ كتب وزير الخارجية بينو الى بيريز قائلاً بأنه لا توجد سابقة في التاريخ للمساعدة التي يطلبها، وانّ الأميركيين سيوقفون المساعدة النووية لفرنسا إذا اكتشفوا الأمر، كما أنّ ردة فعل الروس قد تكون بتزويد مصر بأسلحة ذرية.

ومع انقضاء الوقت على الحكومة الاشتراكية، ناقش بيريز بحماس حاجة اسرائيل للمساعدة وذلك لمواجهة المستقبل والأخطار غير المتوقعة، وطلب بينو من اسرائيل ان تتشاور على الأقل مع فرنسا ثانية عندما يكون المفاعل جاهزاً لبدء التشغيل، ووافق بيريز على ذلك. وهكذا تم إقناع وزير الخارجية.

وكان على بيريز أن يواصل تحطيمه للعقبات البيروقراطية، مواجهاً وزير الطاقة بيير غويلوما الذي أصرّ بعناد على أن الاتفاق المقترح ذو نتائج دبلوماسية خارج حدود سلطته، إلا أنّ رئيس الوزراء بورجيه - مونوري تدخّل ليحسم القضية أخيراً بتصويت مجلس الوزراء عليه في الثاني من تشرين الأول عام ١٩٥٧. وفي آخر يوم له في الحكم، وقبل ساعات قليلة من اقتراح بحجب الثقة

لا علاقة له بالموضوع في الجمعية الوطنية، حقق لاسرائيل رغبتها، ففي الثالث من تشرين الاول، وقع بورجيه ـ مونوري ووزير الخارجية بينو مع بيريز وبن ناتان وثيقتين سريتين للغاية هما: حلف سياسي يحدّد التعاون العلمي بين الدولتين، واتفاقية تقنية لتقديم مفاعل نووي كبير ذي قدرة كهربائية تبلغ ٢٤ ميجاوات، مع توفير التقنية والمهارة اللازمتين.

أبرق بيريز النبأ لبن غوريون في رسالة شيفرة من السفارة الاسرائيلية، فردّ عليه رئيس الوزراء في تلكس أرسله الى باريس قائلاً: «تهانينا على إنجازك المهم».

في نفس الوقت الذي حصلت فيه اسرائيل على المفاعل النووي الكبير، كان هنالك قلق متنام بين العلماء الاسرائيليين وبعض السياسيين الكبار من احتمال أن يتبع ذلك سباق تسلح نووي خطير. وعندما ناقش مجلس وزراء بن غوريون الموضوع أظهر الوزراء ضيقاً بالغاً وحماساً قليلاً جداً، حيث شعروا بأن المشروع سيكون مكلفاً جداً كما ينطوي على مجازفة من الناحية الدبلوماسية. ولقد استقال سبعة أعضاء من أصل ثمانية في لجنة الطاقة الذرية الاسرائيلية احتجاجاً على ذلك في أواخر عام ١٩٥٧، إذ زعموا بأنه كان هنالك تركيز كبير جداً على الجانب العسكري للقوة النووية المتنامية لاسرائيل، فأسسوا لجنة لنزع القوة النووية في صراع الشرق الأوسط. وكانت هنالك مناقشات حامية وراء الأبواب الموصدة، إلا أن الموضوع تمّ حجبه بسرية تامة لدرجة أنّ الخلافات لم تتفجّر على الملأ مطلقاً.

ولم يبدُ أنّ هذا الأمر أزعج بن غوريون وبيريز، إذ ما زال لديهما البروفيسور بيرغمان باعتباره الرجل الوحيد في لجنة الطاقة الذرية الاسرائيلية، فجعلاه مسؤولاً عن مشروع المفاعل. وهما إذا كانا مسرورين لشيء، فلأن قلة من الناس سيكون لديها الآن الامتياز لمعرفة ما الذي كانت تقوم به اسرائيل. لقد كان يُنظر الى المشروع باعتباره السر المطلق للدولة اليهودية، وكان البرنامج النووي خاضعاً لاجراءات أمنية أكثر من أي شيء في تاريخ بلد تكثر فيها السريّة.

ولما كان بيريز يدرك أنّ في المعرفة قوة، فقد أصرّ على إبقاء الأمر بعيداً عن متناول الآخرين، فهذا المشروع كان مشروعه الأثير إلى نفسه. وهكذا لم يطلب من لجنة الاستخبارات الموجودة ـ كما قد يُتوقع ـ الاهتمام بالجانبين الأمني والسري للمفاعل. بل اعتقد بدلاً من ذلك أنّ اسرائيل ذات القوة النووية ستحتاج الى وكالة استخبارات نووية.

وحتى ذلك الحين، تولت الموساد وأمان مسؤولية الحصول على معلومات علمية وتقنية من الخارج. غير أنّ بيريز أسّس وكالة سرية جديدة للشؤون النووية عام ١٩٥٧ وعهد بها الى رجل يدعى بنيامين بلومبيرغ.

كان بلومبيرغ ضابطاً خبيراً بعد أن غادر كيبوتساً في شمال اسرائيل للخدمة في جيش هاغاناه السري قبل الاستقلال. وعقب حرب ١٩٤٨ ـ ٤٩ التحق بالشين بيت التي عينته رئيساً للأمن في

وزارة الدفاع. واقترح عاموس اموز، مدير الشين بيت بعد عام ١٩٥٣، ضرورة أن يتقاضى راتبه من وزارة الدفاع من أجل الدقة الادارية، إلاّ أنّ بلومبيرغ آثر أن يبقى على جدول الرواتب الخاص بالشين بيت، راغباً بالتأكيد ان يستشعر ذلك الإحساس الساحر الذي يخلفه الانتماء للاستخبارات السرية بدلاً من وظيفة وزارية عادية نسبياً.

وعلى أية حال، كان من مهامّه الحفاظ على الأمن داخل وزارة الدفاع وفي المصانع التي تعمل في مشاريع التسلّح. ولقد كان المفاعل الكبير والجديد منشأً دفاعياً. وبدا أنّ بلومبيرغ هو الشخص الملائم للتأكد من الإبقاء على سرية الأمر وأنّ موظفيه جديرون بالثقة. ولّما كان حريصاً دائماً على مراقبة الألسن الثرثارة، فلم يكن بحاجة لأية محاضرات أو إرشادات حول التزام الصمت، إذ كان هو نفسه الكاهن الأعلى للسرية.

وعندما بدأ وظيفته الجديدة بناء على دعوة بيريز، انتقل الى مكتب متواضع في وزارة الدفاع. ولاخفاء طبيعة عمله أطلق على وحدته الجديدة آسم «مكتب المهام الخاصة».

بعد سنوات قليلة تغيّر اسمه ليصبح «مكتب الاتصال العلمي» أو إس إل بي، حيث أطلق عليه المطلعون القلائل الذين كانوا على علم بالوكالة اسم «لاكام» وهو اللفظ المختصر له بالعبرية. وتم نقل لاكام فيما بعد من مجمع وزارة الدفاع الى موقع سري في وسط تل أبيب: وذلك في مبنى مقام في كارلباتش ستريت.

وحاول بلومبيرغ بدعم كامل من بيريز إخفاء وجود الوكالة حتى عن الفروع الأخرى من لجنة الاستخبارات - بل وحتى عن إيسر هاريل، الميمونه، إذ يتذكر هاريل غاضباً: «لقد تمّ تأسيس لاكام من وراء ظهري، ودون علمي. وكان لدي شكوكي. كما كنت أعرف بأن شخصاً ما كان يذرع وزارة الدفاع متعاملاً بأشياء عديدة، وانه عندما كان يرى أي أحد من الموساد كان يصر على عبور الجانب الآخر من الشارع. لقد كانت لاكام هيئة غامضة تمّ تشكيلها على نحو تآمري وخادع. حتى بن غوريون لم يكن يعرف بتأسيس الوحدة التجريبية التي انبثقت عنها لاكام».

ولم يشعر بيريز بأنّ هنالك حاجة للحصول على الإذن من هاريل لتأسيس الوكالة الخاصة للأمن النووي، حتى وإن كان هاريل رئيس مكتب الأمن الذي يحظى بثقة بن غوريون، ففي النهاية، كان المفاعل الجديد من فرنسا من السرية اكثر من اية موضوعات سرية سابقة. وعلى أية حال، من الصعب الاعتقاد بأن رئيس الوزراء لم يكن على علم بأمر لاكام، لأن بن غوريون كان القوة المرشدة وراء المشروع النووي، كما كان لديه اهتمام شخصي بالصناعات الأخرى لاسرائيل والمتعلقة بالدفاع، وتم أخيراً استخدام لاكام لمساندة تلك الصناعات أيضاً.

ولم ينزعج بلومبيرغ من حسد أو شكاوي الآخرين، فقد انصّب جلّ همّه على الحيلولة دون

تسرّب أية معلومات بشأن مشروع المفاعل. إلا أنّ العملية لم تكن سهلة مع وجود المئات من التقنيين الفرنسيين ومستشاري البناء العاملين في اسرائيل لبناء المنشأ الجديد. وقد اختير الموقع في صحراء النقب ـ وسط مكانٍ ما في منتصف المسافة بين البحر الميت وبئر السبع «عاصمة» النقب والمذكورة في التوراة كواحة نعم بها إبراهيم!

وتحدثت عقود العمل الفرنسية عن «مناخ دافىء وظروف صحراوية»، والتي لم تفعل إلاّ الشيء القليل لاخفاءموقع المشروع النووي. هـذا ولم يكن بلومبيرغ وحـده قلقاً، إذ أبـدت الاستخبارات الفرنسية أيضاً قلقها إزاء الأمن في النقب. ولم يثق الفرنسيون تماماً بالاسرائيليين المعروفين بطبيعتهم الثرثارة، فأرسلوا عملاءهم الخاصين بهم للحفاظ على الأمن والبحث عن التسربات، حيث تظاهر جاسوس من باريس بأنّه قسيس وامتحن عمدة بئر السبع بسؤاله عن التطور في الصحراء، فأخبره العمدة فخوراً بالكيفية التي كانت صحراؤه تزدهر بها في أكثر من جانب واحد عن المفاعل النووي الفرنسي الذي كان يتم بناؤه في الجوار. وقـام الجاسـوس ـ القسيس بارسال برقية في منتهى الخطورة الى مركز قيادته . ولإخفاء ثلاث سنوات من العمل الحثيث قرب بلدة ديمونة للمهاجرين، استخدمت اسرائيل القصة التي اقترحها بلومبيرغ كغطاء: وهي أنّه كان يتم بناء «مصنع للنسيج».

وبينما استطاع رئيس لاكام حماية السر على الأرض، هبّت عاصفة شديدة من الجو، ففي عام ١٩٦٠، قامت الطائرة النفاثة يو ـ ٢ الأميركية التي كانت تحلّق على علو شاهق في مهمـة استكشافية بتصوير المنشأ، ولم يجد محللو الاستخبارات الأميركية أي صعوبة في معرفة غرضـه الحقيقي. ومنذ تلك اللحظة، حام الجواسيس الأميـركيون حـول ديمونـه كما أضحى الـزعماء السياسيون الأميركيون قلقين.

وبالاستناد الى معلومـات سريـة من مصادر في واشنـطن، أوردت الصحافـة الأميركيـة والبريطانية تقارير تفيد بأنّ اسرائيل كانت تقوم بتطوير قنبلة ذرية. فطالبت الحكومة الأميركية بالحقيقة كاملة من الاسرائيليين.

وكان هنالك أيضاً ضغط من الرئيس ديغول في فرنسا، إذ كان الموقف الفرنسي إزاء الشرق الأوسط قد بدأ يتغير تماماً عقب توليه الحكم عام ١٩٥٨. وسعى ديغول الى تسوية مع العالم العربي بل ومنح الجزائر استقلالها ـ وهي تحولات في السياسة على حساب اسرائيل. بالاضافة الى ذلك، اشتبه بأن يكون مفاعل ديمونة مخصصاً لاستخدامات عسكرية الأمـر الذي سبب ضيقـاً بالغـاً للرئيس الفرنسي.

وفي أيار عام ١٩٦٠، أمر ديغول وزير خارجيته بإعلام السفير الاسرائيلي في باريس بأن فرنسا ستتوقف عن تزويد ديمونة باليورانيوم. ولم يشأ الرئيس أن تنتج اسرائيل البلوتونيـوم في

مفاعلها لأن هذا سيكون خطوة نحو بناء قنبلة ذرية؛ ومع هذا ظل بيريز متفائلاً رافضاً لأسابيع عديدة الاعتراف بأنّ الجسر الممتد فوق البحر الأبيض المتوسط قد أصبح متداعياً جداً.

وتمّ أخيراً الاعتراف بالخطر الذي قد يلحق بأكثر مشروع دفاعي سرية لاسرائيل، فطار بن غوريون الى باريس دون تحضير، كي يرى ديغول وذلك في الثالث عشر من حزيران عام ١٩٦٠. وفي قصر الإليزيه، سأله الرئيس الفرنسي بفظاظة: «ما حاجة اسرائيل لمفاعل نووي من الأساس؟» فوعد بن غوريون أن يقتصر على الاستخدامات السلمية، وألا يتم إضافة ما من شأنه تحويل الأسلحة المصنفة تحت البلوتونيوم. وبعد عودته الى الوطن واحساسه بتزايد الضغط من فرنسا والولايات المتحدة والصحافة الأجنبية، أعدّ رئيس الوزراء أوّل تأكيد علني بانضمام اسرائيل الى العصر النووي. ففي الحادي والعشرين من كانون الأول عام ١٩٦٠، ومن على منصّة الكنيست، أعلن بأن اسرائيل كانت تقوم ببناء مفاعل نووي ثان للأبحاث ـ وذلك لأغراض سلمية فقط كما أكد للبرلمان الاسرائيلي.

وهذا هو الإعلان الذي كان ديغول يسعى إليه. فلقد أكل الاسرائيليون فطيرة متواضعة، وهكذا وافق الفرنسيون الآن على إرسال الأجزاء الأخيرة المطلوبة لانهاء البناء.

وللحفاظ على العلاقة الهشّة مع فرنسا، كان الاسرائيليون مستعدين للقيام بما يصعب على أية لجنة استخبارات القيام به وهو: «حرق» مصدر سري. ففي السادس عشر من آذار عام ١٩٦١، علم الملحق العسكري في سفارة اسرائيل في باريس، العقيد عوزي ناركيس، بوجود مؤامرة لاغتيال الرئيس ديغول وكان مصدر المعلومات، كلود آرنود، وهو يسوعي وعقيد سابق في المقاومة الفرنسية المعادية للنازية. أصبح بعد الحرب ضابطاً في وكالة الاستخبارات الخارجية لفرنسا، إلا انه أضحى غير راضٍ عن سياسات ديغول في الجزائر، فاستقال آرنود من الأمن السري وانضم الى طائفة كاثوليكية غامضة كانت تقوم بتزويد الفاتيكان بخدمات تجسسية. وكان آرنود يعرف باسم «الرجل ذي الألف وجه»، فصاحب العقيد ماركيس وبدأ بتبادل المعلومات مع الاسرائيليين.

ولم يكن دافع آرنود في إعطاء معلومات سرية لناركيس حول المؤامرة المدبرة ضد ديغول واضحاً بالنسبة للاسرائيليين؛ إذ كان زملاءه في الطائفة الكاثوليكية السرية عندما ذكر بأنهم يسعون الى تجنيد قنّاص عربي لقتل الرئيس. لقد كان آرنود وزملاؤه من الجناح اليميني معارضين لانسحاب القوات الفرنسية من الجزائر، إلا أنه من الواضح انه كان ينظر الى الاغتيال باعتباره أمراً محظوراً. ولعله كان من صالحه تماماً لو أنه تم إلقاء القبض على القاتل المزعوم وذلك لالقاء اللوم على الجزائريين.

وعلى أية حال، تم إحباط المؤامرة في مرحلة مبكرة للغاية، فلم يتمكن آرنود من حماية

شخصيته المجهولة. لقد كان ناركيس سريعاً جداً في نقل المعلومات بواسطة تلكس عاجل ومصاغ بالشيفرة الى وزارة الدفاع في تل أبيب، حيث تضطلع أمان بمهمة تحليل مثل هذه التقارير. وتناقش رؤساء الاستخبارات والسياسيون حول ما يجب القيام به. ويتذكر ايسر هاريل بأن شمعون بيريز ورئيس أركان الجيش الجنرال زيفي زور اتفقا مع رأي ناركيس بألاّ تقوم اسرائيل بتحذير ديغول، إذ لم يكن من المؤكد أن المعلومات صحيحة. وفي تطوّر غريب، أرسل ناركيس رسالة اخرى بالتلكس، حاثّاً زملاءه بألاّ يتصرفوا مثل يهوذا الاسخريوطي الذي خان يسوع المسيح ـ وهو تفكير غريب، اذا أخذنا بالاعتبار انه من الصعب جداً ان يكون القاتل المزعوم صديقاً لاسرائيل.

وكثيراً ما أبدى هاريل استياءه من هيمنة أمان على مجمل العلاقة مع فرنسا، وهذا كان أحد الأسباب الذي جعل الميمونه يتخذ موقفا معارضا لموقف الجيش. فأصرّ هاريل على ضرورة إعلام الفرنسيين بالمؤامرة، وحسم بن غوريون القضية لصالحه.

وتمّ اطلاع ديغول على خطة الاغتيال وان كان ذلك بعد اسبوعين من التأخير، إلا أنه طالب بمعرفة مصدر المعلومات ومن أجل إقامة علاقات جيدة، وافقت اسرائيل على إخباره بكل شيء. فاعتقل الفرنسيون آرنود واستجوبوه، دون التمكن من إثبات أي تهم. لذا أطلقوا سراحه. وكان آرنود غاضباً من الاسرائيليين، ففقدت أمان بذلك بائع معلومات قيماً.

لقد كانت العلاقة السرية بين الحكومتين أهم من ذلك بكثير. فمع حاجتهم للمواد الأخيرة اللازمة لاتمام مفاعل ديمونة كما تعهّد به الفرنسيون بكل تأكيد، كانت المسألة مسألة عمل لاسرائيل على الجبهة النووية كالعادة ـ أو تقريباً كالعادة، إذ سيصبح الأمر أكثر سرية.

هذا ويستطيع مفاعل ديمونة ذو الماء الثقيل والذي يعمل بقدرة كهربائية تبلغ ٢٤ ميجاوات أن ينتج ما يكفي من البلوتونيوم على الأقل لصنع قنبلة تماثل في حجمها قنبلة هيروشيما بوزنها البالغ ٢٠ كيلو طن سنويا، لكن السؤال هو ما إذا كان الفرنسيون قد ساعدوا اسرائيل أيضاً في الحصول على مصنع إعادة معالجة قادر على استخلاص البلوتونيوم من قضبان الوقود المستهلكة في المفاعل وأشار فرانسوا بيرين، ابن أحد الحائزين على جائزة نوبل، والرئيس العلمي لوكالة الطاقة الذرية الفرنسية من عام ١٩٥١ الى عام ١٩٧٠ الى ان إعادة المعالجة كانت جزءاً غير مباشر في اتفاقية ١٩٥٧ الأصلية. ورفضت وكالته تحت سياسة ديغول الجديدة تزويد مصنع لاعادة المعالجة، إلا أنها لم تعترض على مساعي اسرائيل للحصول على واحد من مكان آخر. وأجازت هيئة بيرين أيضاً شركة خاصة تعرف باسم سانت غوبين، والتي زودت هذه المصانع للمفاعلات العسكرية في فرنسا، ببيع تقنيّتها وخططها لمشروع ديمونة .

لقد عنت رئاسة ديغول عموماً بأن اسرائيل واجهت صعوبة اكبر في الحصول على ما تحتاج اليه من أجل التطور النووي، فتصدّت وكالة لاكام التي أسسها بلومبيرغ للتحدي وذلك بتوسيع

نشاطاتها. إذ لم تعد مهتمة فقط بأمن المشروع النووي، وإنما أضحت مشتركة في تحديد وشراء الأجزاء والمواد الخاصة بديمونة. وتطلّبت السرية التي كانت تغلف مثل هذه العمليات تعـاوناً مضاعفاً مع الوكالات السرية الأخرى لاسرائيل، فبدأت الجراح القديمة في لجنة الاستخبارات تلتئم.

وطرح بلومبيرغ أيضاً عادات العمل المتعلقة بالأمن السري المحترف: من حيث التقسيم إلى أجزاء أو وحدات مستقلة، والقدرة على العمل على نحو سريّ في الميدان. ولم يكن عضواً في فاراش، لجنة رؤساء الأمن، لكن لاكام كانت بالتأكيد في اللجنة.

وكان الغطاء الذي اتخذته لاكام بالكاد يكون خيالياً، فقد تمّ إرسال موظفي الوكالة إلى الخارج كملحقين علميين في السفارات الاسرائيلية الكبيرة في اوروبا والولايات المتحدة. وارسل رجال بلومبيرغ تقاريرهم الى مركز القيادة في تل ابيب مباشرة، وليس من خلال وزارة الخارجية كما هو الحال بالنسبة للدبلوماسيين. وكان على المستشارين العلميين شراء كل منشـور في المجال، واقامة علاقات اجتماعية ومهنية مع العلماء في البلدان التي كانوا يقيمون فيها.

وطُلب من الاسرائيليين الذين كانوا يسافرون للخارج في إجـازات أو مشاريـع أبحاث تقديم خدمات للاكام، رغم أنهم لم يكونوا يعرفون في العادة من كان يطلب ذلك بالضبط. إلا انهم من أجل حكومتهم، كانوا يبقون أعينهم مفتوحة على أحدث التطورات في مجالاتهم، الى جـانب الحصول عـلى الكتيّبـات والخـطط والاصـدارات. وتنتمي معـاهـدهم الى الحكـومـة الاسرائيلية، وعلى الجامعات وثيقة الصلة بالمؤسسة الـدفاعيـة أو تتمتع بتمـويل الحكـومة وفي حالات قليلة، كان يُطلب من الاسرائيليين الذين كانوا يجرون أبحاثهم في الخارج سرقة المادة العلمية. وغالباً ما كان يحدث هذا بأسلوب غير متقن، الأمر الذي كان يعرض للخطر العلماء والذين كانوا يعملون ـ ضُباط حالات ـ وهم الملحقون العلميون عموما الذين كانوا يتمتعون بحصانة دبلوماسية.

يروي عالم اسرائيلي كبير، كان يدرس في معهد أوروبي غربي مرموق قيامه بتصوير وثائق عديدة على نحو سري وبصورة منتظمة. وكان يجلب النسخ معه الى البيت، بحيث يأتي الملحق العلمي في السفارة الاسرائيلية مرة واحدة في الاسبوع لأخذها. غير ان الملحق، والذي كان من الواضح انه احد رجال لاكام أظهر حاجة ماسة للمسؤولية. فكثيرا ما كان يأتي الى الاجتماعات متأخراً، وفي بعض الأحيان لم يكن يأتي على الاطلاق. وكان الاسرائيليان محظوظين لأن الدولة المضيفة لم تشتبه بشيء.

لقد كان من المهم ألا يتم اكتشاف هذا المدى الواسع من الجاسوسية، إذ ان اسرائيل كانت تركز جزءاً كبيراً من طاقتها على تكوين أصدقاء في الخارج.

وكانت حملة سيناء عام ١٩٥٦ قد جعلت اسرائيل موضعاً للخوف والاحترام، إذ حتى مع وجود الاسلحة التقليدية وحدها تمكن الاسرائيليون من الانتصار على المصريين بسهولة، والذين كان لديهم أكبر الجيوش العربية.

وبالرغم من أن تبادل الهمس بشأن القدرة النووية وغزو السويس قد حطّما صورة اسرائيل الحسنة وسط الدول النامية، إلا أن حقيقة تحوّل الدولة اليهودية بسرعة الى قوة عظمى اقليمية جعلها قوة يحسب حسابها وشريكاً يُتودّد اليه وصديقاً مرغوباً به في منطقة استراتيجية لكنها تفتقر الى الاستقرار.

سعت اسرائيل الى تكوين صداقات علنية حيثما امكن ذلك، إلا أنه سرعان ما أضحى واضحاً أن الأجانب غالباً ما يفضلون إقامة علاقات سرية. وكان يتمّ مراعاة قدر كبير من الدبلوماسية بدقة بالغة حتى لا يترك الأمر للعمل العلني لوزارة الخارجية. أما لجنة الاستخبارات فقد تولت المهمة الخفية المتعلقة بتشكيل أحلاف للمساعدة في ضمان الأمن القومي.

الفصل الرابع
التحالفات الاستراتيجية

«اننا حريصون جدا على عقد اتفاقية تعاون معكم»، هذا ما قاله ديفيد بن غوريون لمدير السي آي ايه، وكان هذا في ايار ١٩٥١، في المكاتب القديمة للسي آي ايه، مقابل نصب لينكولن التذكاري في واشنطن العاصمة. وقد صادف ان كان رئيس الوزراء في الولايات المتحدة في زيارة خاصة، وهي اول زيارة يقوم بها بعد انشاء اسرائيل. وكان بن غوريون يساعد في جمع التبرعات لبلاده بتبنّيه الشخصي لأول مبيعات من سندات اسرائيل في الولايات المتحدة، وقد استغل الزيارة لأهداف دبلوماسية ايضا.

التقى «الرجل العجوز» بالرئيس هاري ترومان وتم ترتيب غداء سري له مع مدير السي آي ايه الجنرال والتر بيديل سميث، ومساعده الان دالاس. وحتى قبل مغادرة اسرائيل، اقترح روفن شيلوه، وكان ما يزال رئيسا للموساد، ان يقترح رئيس الوزراء تعاونا في مجال المخابرات بين البلدين.

كانت فترة بعيدة المرامي، فقد كانت اسرائيل، التي كانت الاحزاب اليسارية تحكمها، تعتبر دولة اشتراكية، وكان الكيبوتس، التعاونية الزراعية الاسرائيلية الفريدة التي تجسد مبدأ مشاركة الاعضاء في الموجودات حسب حاجاتهم، يعتبر تجسيدا للحلم الشيوعي، وكان اقتصاد اسرائيل يستند ايضا الى مبادىء الجمعية والملكية العامة لمعظم وسائل الانتاج.

كانت الرأسمالية والسوق الحرة تعتبر كلمات قذرة في القاموس الوطني لاسرائيل، لكن الامر المقلق بصفة خاصة، من وجهة نظر اميركية هو الانطباع بان المشاعر الاسرائيلية مؤيدة للسوفيات ـ نتيجة للمساعدات الكبيرة التي قدمتها الكتلة الشرقية في الايام الأولى لقيام الدولة.

لو لم يكن هنالك خطاب مؤيد للدولة اليهودية، القاه اندريه غروميكو، السفير السوفياتي لدى الامم المتحدة لما كان هنالك القرار ١٨١ ـ الذي اجاز تقسيم فلسطين الى دولتين، يهودية وعربية، وبايعاز من موسكو قامت تشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا بتقديم الاسلحة واستضافة

الطيارين الاسرائيليين للتدريب، وعلاوة على ذلك فان استعداد رومانيا وهنغاريا وبولندا للسماح ليهودها بالهجرة قد زاد في قوة اسرائيل البشرية القليلة.

عارض شيلوه اراء باقي اعضاء المؤسسة، بحثّ اسرائيل على التخلي عن توجهها المؤيد للسوفيات، وبناء سياستها الخارجية على روابط قوية مع اميركا، وكان هدفه النهائي ترتيب معاهدة دفاعية مع واشنطن، وجعل اسرائيل تنضم لحلف الناتو، وكخطوة اولى على هذا الطريق اقترح اقامة اتصالات سرية بين السي آي ايه والموساد.

لم ير بن غوريون وكبار المسؤولين الحكوميين ان هنالك فرصة كبيرة لقبول اقتراح شيلوه، لكنهم شعروا بان المحاولة تستحق الاقدام عليها، واندهش بن غوريون عندما رحب بيديل سميث ودالاس بالفكرة مسرورين.

لم يكن هذا الاجتماع الأول بين الجنرال الاميركي والرجل العجوز، فقد كانا التقيا بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة، عندما زار بن غوريون الناجين من المحرقة في مخيمات المشردين في المانيا، وقام بيديل سميث، الذي كان رئيس الاركان مع الجنرال ايزنهاور قائد القوات الحليفة في اوروبا، بمصاحبة الزعيم الصهيوني في جولته التفقدية.

لقد ركز الدبلوماسيون الاسرائيليون، مرة تلو المرة، على ضرورة ان تكون بلادهم قوية حتى لا تقع محرقة اخرى، وكان هذا استغلالا لمخاوف فترة الحرب التي ظلت فريدة في التاريخ الانساني، لكنه نجح، وكان من بين الذين تم اقناعهم بيديل سميث ودالاس، وفي واشنطن توصل بن غوريون الى تفاهم مع رؤساء السي آي ايه لبدء المحادثات فورا حول المضيّ قدما بالتعاون.

بعد شهر، في حزيران ١٩٥١، تم ارسل شيلوه الى واشنطن لوضع التفاصيل النهائية لاتفاقية رسمية ـ لكن سرية، فعقد اجتماعات طويلة مع بيديل سميث، ودالاس، وجيمس جيسوس انجلتون بصفة خاصة.

كان انجلتون قد تأثر جدا بالمحرقة، وكان من ذلك النوع من الرجال الذي يتابع موضوعا يهتم به، فبعد طفولة تعيسة في اريزونا حيث كان يفترض بالطقس ان يساعده في مواجهة السلّ، انتقل انجلتون الى ايطاليا في عام ١٩٣٣، وهو في السادسة عشرة، عندما حصل والده على وظيفة في ميلانو. وبعد بضع سنوات قضاها في الخارج عاد انجلتون الى الولايات المتحدة للدراسة في ييل، حيث بدأ مجلة ادبية مع مجموعة بارزة من المساهمين بمن فيهم عزرا باوند وارشيبالد ماكليش.

في عام ١٩٤٣، قام احد معلميه في ييل بتجنيده لدائرة مكافحة التجسس التابعة لمكتب الخدمات الاستراتيجية، الذي اشتهر بتوظيف الموهوبين وغريبي الاطوار وكانت الوظيفة تتناسب

جدا مع انجلتون، فقد كان ذا عقل متشكك يبحث دائما عن المعاني المبطنة.

عمل انجلتون مع مكتب الخدمات الاستراتيجية، «او، اس، اس»، في بريطانيا وايطاليا حيث جنّد المخبرين وكشف حلقات التجسس النازية والفاشية، وكان من بين افضل مصادره للمعلومات عملاء آليه ب في ايطاليا الذين كانوا يشاركون في تهريب اليهود الى فلسطين.

تأثر انجلتون بقدرة الحركة السرية اليهودية وممثليها في اوروبا وقد صرح احدهم فيما بعد، تيدي كوليك: وجد جيم في اسرائيل حليفا حقيقيا في وقت كان فيه الايمان بتنفيذ مهمة ما مفهوما نادرا. وقد عرف ان بعض المحاولات المبكرة الرامية الى تقوية العلاقات بين الحركة السرية الصهيونية وجواسيس اميركا قداحبطها البريطانيون، الذين كانوا ما يزالون يحكمون فلسطين، وعندما توصل شيلوه والسي آي ايه الى اتفاقية التعاون في عام ١٩٥١ كان انجلتون سعيداً.

لقد ارست الاتفاقية أساساً لتبادل المعلومات الاستراتيجية بين السي آي ايه والموساد، والزمت الطرفين بان يبلغ كل منهما الآخر حول امور ذات اهتمام مشترك. وتعهدت اسرائيل والولايات المتحدة بالا تتجسس احداهما على الاخرى، وتبادل ضباط الارتباط الذين يعينون في سفارات البلدين.

ومن اجل تقوية الاتفاقية كان عليهم التغلب على عقبة كبيرة، فقد كان انجلتون، الذي رقّي ليصبح رئيس مكافحة الجاسوسية في السي آي ايه، خصما عنيدا للشيوعية، ورغم اعجابه بالعملاء السريين اليهود في اوروبا فقد كان يعتقد ان اسرائيل، بقيمها الاشتراكية وروابطها بالكتلة السوفياتية تشكل مجازفة امنية كبيرة.

كان انجلتون قلقا من ان هجرة اليهود من اوروبا الشرقية ستمكن الجواسيس السوفيات من التغلغل في اسرائيل كنقطة انطلاق الى الغرب، ويمكن للسلطات الشيوعية ان تبتزّ اليهود المتوجهين الى اسرائيل بالتهديد بايذاء اقاربهم الذين لم يصطحبوهم. وقد قالت مذكرة لوزارة الخارجية الاميركية تنصح الملحقين العسكريين الاميركيين في اسرائيل بما يجب ان يتقيدوا به: «ان امتزاج الاعراق الاوروبية في فلسطين يوفر فرصة نادرة للتغلغل السوفياتي في منطقة استراتيجية بالغة الاهمية، وعليهم ان يراقبوا النشاطات السوفياتية وان يكونوا على معرفة بالاساليب السوفياتية». كما اعتقدت واشنطن ان الروس اخذوا يتسللون الى جيش اسرائيل.

كان شيلوه يدرك مخاوف الاميركيين فلم يردّ بقطع الوعود فقط، بل اقنعهم بان مخابرات اسرائيل تعمل على نفس الموجة، وقال شيلوه الذي كان ما يزال رئيسا للموساد في اواخر عام ١٩٥١، قال للسي آي ايه ان وكالات الامن الاسرائيلية يقظة، وكانت آليه ب والشين بيت برئاسة ايسر هاريل تقوم بمراقبة دقيقة للوافدين اليهود الجدد من وراء الستار الحديدي.

ان ما اقنع انجلتون والسي اي ايه في آخر المطاف هو قناعة اسرائيل بأن الحلو يأتي من المرّ، وأنه لا ينبغي الخوف من المهاجرين الجدد، بل يجب الاستفادة منهم، وفوق كل ذلك فان اليهود جاءوا من كل مشارب الحياة وان لهم معرفة جيدة بالامور العسكرية والعلمية والاقتصادية والسياسية السوفياتية. وبدأت اسرائيل بتزويد الولايات المتحدة بمثل هذه المعلومات بل وافقت على وضع بعض عملائها في مواقف خطرة في الكتلة السوفياتية بالسماح للسي آي ايه باستخدامهم.

رغم الجهود التي بذلتها اسرائيل لاسترضاء الاميركيين بمزايا مناهضة للشيوعية فان عادات المخابرات الاميركية لم تتغير، وكان اسوأ سيناريو في اذهان صائدي الجواسيس الاميركيين ان المدسوسين السوفيات قد تسللوا الى مواقع رئيسية ذات سلطة ونفوذ في الغرب: رؤساء وزارات، رؤساء جمهوريات ورؤساء اجهزة سرية.

اموز مانور، رئيس الشين بيت، لاءم الصورة المخيفة التي رسمها الاميركيون المتشككون بسبب اصوله الاوروبية الشرقية وبروزه السريع بعد وصوله الى اسرائيل، واعتقدت الأف بي آي انه مدسوس سوفياتي محتمل، وحاولت ان تمنع مانور من زيارة الولايات المتحدة في مهمات رسمية، لكن السي آي ايه التي كانت تعتبر الأف بي اي مجرد شرطة وليس جهاز أمن داخلي هام، نفت الادعاءات وتبنت زيارة مانور لمصلحة العلاقات الجيدة.

ارسلت دائرة مكافحة الجاسوسية، برئاسة انجلتون، خبراءها الى اسرائيل لتقييم خطر التغلغل السوفياتي وكانت كل مهمة تخلق مشكلات ـ وبخاصة لرئيس مركز السي اي ايه في السفارة الاميركية في تل ابيب، فقد وجد رئيس المركز ـ الذي شعرانه خبير حول الاحداث والشخصيات المحلية، ان الزيارات تزرع الارتباك والشكوك والاشاعات في كل الاتجاهات، ففي احدى المناسبات مثلا خلط زائر من السي اي ايه، اراد ان يثير اهتماما حول عميل مخابرات اسرائيلي كبير، خلط بين الموساد والشين بيت وكشف عن شكوكه للوكالة غير المعنية.

ان هذا الامر لم يؤد فقط الى مضايقة مسؤول السي اي ايه المحلي بل اربك واغضب كثيرا من افراد مجتمع المخابرات الاسرائيلية ـ وبخاصة ايسر هاريل المتباهي. فالاميركيون يتدخلون في شؤون مملكته يتساءلون عن فعاليته وينتهجون طريقا ينتهي بهم على بابه!

على أية حال، شعر هاريل ان الاميركيين لم يكونوا فعلا مهتمين بالتعاون الثنائي، فقد كانوا يريدون نقل كل شيء تعرفه المخابرات الاسرائيلية دون ان يقدموا اي شيء بالمقابل. بل ان هاريل شك في ان السي آي ايه قد تدبّر انقلابا في اسرائيل، على غرار العملية السرية للوكالة في عام **١٩٥٣** في غواتيمالا.

نظر شيلوه الى الامور نظرة مختلفة، وحتى بعد تركه للموساد كان مستشـارا خاصّـاً لبن غوريون حول الاستراتيجة الدولية والاقليمية، واقنع رئيس الوزراء ان الامر جدير بدفع الثمن من اجل تحالفٍ مع الولايات المتحدة: استجواب المهاجرين الجدد وتقديم المعلومات للاميركيين - الى ان يتم كسب ثقة السي آي ايه.

قام الاميركيون بتزويد اسرائيل بمعدات تكنولوجية خاصة لحاجاتها الاستخبارية، بما فيها اجهزة تصنّت ووسائل الكترونية لمعرفة الرموز، وتم ارسال ضباط اسرائيليين الى الولايات المتحدة ليتعلموا استخدام المعدات، ومن اجل الاشراف على التعاون تم تعيين اثنين من رجال المخابرات الممتازين، كانا حليفين لشيلوه، في واشنطن: العقيد حاييم هيرتزوغ، الرئيس السـابق لأمان الذي اصبح «مجرد» ملحق عسكري، وصديق شيلوه الحميم تيدي كوليك كمستشار للسفارة الاسرائيلية، وكان لكوليك خبرة، قبل عام ١٩٤٨، في شراء الاسلحة للصهاينة وتنظيم شبكات من المتعاطفين الاميركيين.

تمشّياً مع الجهد الرامي الى ان تصبح حليفة للولايات المتحدة، فقـد كانت المخـابرات الاسرائيلية تخلق تحالفات استراتيجية اقرب الى اسرائيل، فقد تعلّم شيلوه في السنوات الاولى من قيام الدولة الاسرائيلية بان بالامكان اقامة اتصالات سرية مع الاقطار المجاورة التي كانت معادية من ناحية رسمية.

حسني الـزعيم، رئيس هيئة اركـان الجيش في سوريـا، تسلّم السلطة في اذار ١٩٤٩، وعرض السلامِ على اسرائيل، غير ان الاحداث طغت على كرمه السلمي ولم يتم توقيع اية معاهدة وبعد عقود تبيّن ان الزعيم كان مدرجا على جداول رواتب وكالات المخابرات الاميركية والفرنسية وحتى الاسرائيلية. فعملاء السي آي ايه ساعدوه فعلا في تدبير انقلابه، وكان لاسرائيل علاقات اخرى، قائمة في اغلب الاحيان على الرشوة، مع القيادتين المصرية والعراقية.

ومع هذا ايقن شيلوه ان قدرة العملاء الاسرائيليين على تحقيق الوصول الى القادة العرب لا يمكن ان تغيّر الحقائق السياسية والاستـراتيجية الاسـاسية لحيـاة الشرق الاوسط: ان الـدائرة الداخلية للاقطار العربية تظل كارهة لدولة اسرائيل، وتواصل الابقاء على حالة الحرب.

كما ادرك شيلوه ان في الشرق الاوسط عوامل جغرافية وعرقية اخرى، فالدائرة الداخلية محاطة بدائرة خارجية، دائرة الاقطار غير العربية، وكان في الدول العربية نفسها اقليات دينية وعرقية، فبالامكان عقد الصداقات مع الاقطار المحيطة بالعرب والاقليات التي كانت تعاني، مثلما كان حال اسرائيل والغرب، من ظهور القومية العربية والراديكالية. ويمكن تلخيص الفكرة وراء هذه الخطة بالمثل المأثور: اعداء عدوي اصدقائي.

كانت اية قوة تعارض او تحارب القومية العربية تعتبر حليفا محتملا لاسـرائيل: الأقليـة المارونية في لبنان، الدروز في سوريا، الاكراد في العراق، المسيحيون في جنوب لبنان، والشعب الايراني، مع انه مسلم، كان دائما فخورا بالقول بأنهم فرس وليسوا عربا، فكانت فكرة اقامة اتصال معهم جميعا امـرا معروفـا لصانعي القـرارات الاسرائيليـين تحت مصطلح «التحـالف المحيطي» وكان مجتمع المخابرات مسؤولا عن هذا الجانب السري من سياسة اسرائيل الخارجية.

في متابعة العلاقات مع الاقلية الكردية في العراق، كان العملاء الاسرائيليون يسيرون على خطى شيلوه نفسه، الذي كان قد عمل مع الاكراد تحت غطائه الصحفي في الثلاثينات، فقد كان هؤلاء الناس الجبليون يكافحون باستمرار للحصول على الاستقلال من الحكومـة المركـزية في بغداد، وقد تلقوا اهم مساعدة من الموساد واكثرها مباشرة في الستينات عندما قام المستشارون العسكريون الاسرائيليون بتدريب الثوار الاكراد. وقام الوزير الاسرائيلي اريبه (لوفا) ايلياف، وكان عميلا اسطوريا سابقا في آليه ب، بركوب بغل فوق قمم الجبال في عـام ١٩٦٦ لتسليم مستشفى ميداني لاصدقائه الاكراد.

وعبر الحدود شرقا، في ايران، كان زيون كوهين، من آليه ب، يعرف لدى السلطات في طهران بانه الممثل الفعلي للحكومة الاسرائيلية. فشاه ايران، كزعيم لبلد مسلم، لم يقم علاقات دبلوماسية رسمية مع اسرائيل، لكن الشاه كان يحترم صراع اسرائيل مع الاقطار العربية، وقد امر الخطوط الجوية الايرانية بنقل اللاجئين اليهود من العراق مباشرة من طهران الى تل ابيب.

كان هدف اسرائيل الرئيسي من علاقاتها مع ايران تشجيع وجهات النظر المؤيدة لاسرائيل والمناهضة للعرب بين مسؤولي الحكومة الايرانية. وكانت العلاقة عميقة وقوية، وساعدت الموساد والشين بيت في تدريب العسكريين الايرانيين وعملاء السافاك، منظمة المخابرات والامن. وكثيرا ما ذهب رجال السافاك الى اسرائيل كما ساعد الأيرانيون في نقل المساعدات الى الثوار الاكراد ضد العراق.

كانت الموساد في اغلب الاحيان تتلقى المسـاعدة او التنسيق مـع السي آي ايه ووكـالة المخابرات البريطانية فيما وراء البحار، ام آي ٦، فقد اصبح الاميركيون ساخـطين على عبـد الناصر، وغيروا رأيهم حول صدام سري بعد معارضة غزو السويس في عام ١٩٥٦.

كانت المحاولات البريطانية والاميركية لجرّ اسرائيل الى تحالف سري مؤيد للغرب قوية في عام ١٩٥٨ عندما كانت القومية المؤيدة لعبد الناصر والمناهضة للغرب تحقق مكاسب كبيـرة، واقترب الناصريون من السيطرة على لبنان، وفي العراق، تسلم عبد الكريم قاسم الحكم بعد قتل نوري السعيد والاسرة الملكية.

نصحت واشنطن ولندن اسرائيل بالمشاركة في تجمعين تعاونيين: «التكتل الشمالي»، لحلف محيطي يربط اسرائيل بتركيا وايران، و«التكتل الجنوبي» يربط اسرائيل باثيوبيا. وكانت كل هذه الاقطار متورطة في نزاعات حدودية مع الاقطار العربية وتخشى التخريب السوفياتي. وكانت تركيا على رأس القائمة.

في كانون الاول ١٩٥٧، استقبل رئيس الوزراء التركي، عدنان مندريس، مبعوثا خاصة من اسرائيل، ايلياهو ساسون، ورتب اجتماع متابعة في حزيران ١٩٥٨ لمسؤولي المخابرات من البلدين. وكان شيلوه يرأس الفريق الاسرائيلي مع انه لم يكن يتولى اي منصب رسمي في الموساد منذ سنوات، ورأى رئيس الوزراء بن غوريون ووزيرة الخارجية غولدا مائير ان شيلوه هو انسب شخص للمهمات الدبلوماسية السرية.

طار بن غوريون نفسه الى انقرة لمقابلة مندريس يوم ٢٨ آب، ١٩٥٨. وكان معه شيلوه وغولدا مائير ورئيس هيئة الاركان. وكانت الحجة الرسمية لوجود طائرة العال في البلد المسلم «مشكلة محركات» أجبرتها على الهبوط.

كانت النتيجة الراسخة لكل المحادثات عقد اتفاقية رسمية، لكن باللغة السرية، لتعاون شامل بين الموساد وجهاز الامن الوطني التركي، تي ان اس اس، ووافقت الموساد على حلف مماثل، في نفس الوقت تقريبا، مع سافاك ايران.

في نهاية عام ١٩٥٨، اقامت الوكالات السرية الثلاث شبكة تعاون رسمية باسم «ترايدنت»، وكانت تعقد اجتماعات شبه سنوية يحضرها رؤساؤها الثلاثة. وكان من بين اهتماماتها المشتركة تقارير عن نشاطات الجواسيس السوفيات في كل انحاء الشرق الاوسط، فتركيا ساعدت الموساد بمشاركتها في المعلومات التي كان العملاء الاتراك يجمعونها من سوريا، ومعالجة نوايا النظام العربي الراديكالي ازاء اسرائيل. وشبيها بالدروس التي كانت تعطى لرجال السافاك، كانت الموساد تدرب العملاء السريين الاتراك على اساليب مكافحة التجسس واستخدام الاجهزة الفنية.

حاول دبلوماسيو اسرائيل السريون تكرار نجاحاتهم في التكتل الشمالي بعمل مماثل في التكتل الجنوبي. فكان السودان ذا اهمية كبيرة بالنسبة لاسرائيل لانه كان جنوب خصم اسرائيل العنيد، الرئيس المصري جمال عبد الناصر. فعندما تولى السلطة في القاهرة في عام ١٩٥٤ كان السودان في فترة انتقالية نحو الاستقلال بادارة بريطانية مصرية مشتركة، وكان السياسيون في الخرطوم، العاصمة السودانية، يخشون من تدخل عبد الناصر في حملتهم الانتخابية بشعارات تدعو الى «وحدة وادي النيل». وهو امر اعتبر تهديدا بابتلاع مصر للسودان.

توجه اعضاء من حزب الامة وحركة المهدية القومية الى لندن على أمل في الحصول على دعم بريطاني ضد مصر، وكان من المحتمل ان تؤدي خطة عبد الناصر لتأميم قناة السويس وطرد القوات البريطانية من منطقة القناة الى مساعدة السودانيين في كسب التعاطف، وكانوا ايضا يعوّلون على عداء رئيس الوزراء انتوني ايدن لعبد الناصر.

إلا ان الوفد السوداني لم يكن راضيا عن استجابة لندن، ومع ان رجال المخابرات من ام آي ٦ بدوا متعاطفين، الا ان الدبلوماسيين من وزارة الخارجية والكومونولث حاولوا استرضاء عبد الناصر. وقد اتفق ان السودانيين قالوا بانهم مستعدون للتحالف مع الشيطان من اجل وقف توسع مصر، مما دفع رجال المخابرات البريطانية الى الاقتراح بان عليهم ان يتعاملوا مع شيطان العالم العربي - اسرائيل. وأحال البريطانيون السودانيين الى دبلوماسي اسرائيل اسمه موردخاي غازيت.

كان غازيت في ذلك الوقت السكرتير الاول للسفارة الاسرائيلية في لندن، وكان موظفا في الدائرة السياسية لوزارة الخارجية، ولم يشترك في «ثورة الجواسيس»، وواصل العمل في الوزارة حتى بعد حلّ الدائرة. فاجتمع مع صدقي المهدي وسياسيين آخرين من السودان في فندق سافوي، وتم استعراض عدة خطط للتعاون ضد عبد الناصر. وكفائدة للسودانيين الذين يعانون من الفقر يمكن تعليمهم تطوير حقول قطنهم على يد خبراء اسرائيليين.

شهدت الخرطوم عدة سياسيين واحزاب، لكن الاتصالات السرية بين السودان واسرائيل استمرت، وكانت ذروتها في اجتماع سري في آب ١٩٥٧ في فندق بلازا اثيني في باريس بين وزيرة الخارجية غولدا مائير وعبدالله خليل رئيس الوزراء السوداني، وانتهت الاتصالات فجأة في السنة التالية عندما اطاح الجيش السوداني بخليل.

والى الجنوب، وجد الاسرائيليون والاميركيون والبريطانيون ان اثيوبيا في الخمسينات اكثر استقرارا وموالاة للغرب، وذات اهمية استراتيجية كبيرة حيث تطل على الممرات البحرية المؤدية الى البحر الاحمر ومنه الى السويس وايلات. وكان الامبراطور هيلا سيلاسي في السلطة منذ اكثر من عقدين، معلنا بانه من سلالة قبيلة يهودية قديمة، جوداه، وكان يستخدم رمزها، وهواسد مهيب كشعار له. وكان سيلاسي معجبا بالدولة اليهودية.

بعد فتح قنصلية اسرائيلية في اثيوبيا، ذهب بعد الدبلوماسيين مستشارون زراعيون، واستاذة ساعدوا في تأسيس جامعة اديس أبابا، ومستشارون عسكريون ورجال مخابرات. وساعد الاسرائيليون الامبراطور في تدريب قواته الامنية، وسمح لاسرائيل باقامة مركز تصنت قوي كان يراقب حركة اللاسلكي العربية وكانت الموساد تدير «محطة» كبيرة من العملاء في العاصمة الاثيوبية، وكان عملهم مماثلا لمهمات مخابرات ايشر بن ناتان وان تكن اكثر كثافة،

كرئيس لشركة اللحوم الاسرائيلية في جيبوتي المجاورة قبل ذهابه الى فرنسا للمساعدة في خطة غزو السويس.

ساندت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى مساهمات اسرائيل الاستراتيجية وثمّنتها، باقامة تحالفات محيطية، لكن انتصار اسرائيل الحقيقي مع كبار الرتب في المخابرات الغربية جاء بانقلاب في اوروبا، فاستطاع الاسرائيليون ان يتفوقوا على جميع الجواسيس من السي اي ايه وام اي ٦ وفرنسا والمانيا وبلجيكا والأقطار الغربية الأخرى الذين كانوا يتجولون في كل انحاء اوروبا الشرقية بحثا عن حديث، فكان الخطاب السري الذي القاه الزعيم السوفياتي نيكيتا خروشوف امام مؤتمر خاص للحزب الشيوعي في موسكو في شباط ١٩٥٦.

لقد وضع الخطاب حدّا لعهد ستالين بتفصيل اهواله لأول مرة:

معسكرات الاعتقال، المحاكمات الصورية، وعمليات القتل. وكان يجب فهم خروشوف بشكل افضل، بعد ان خرج من قيادة جماعية ليصبح الديكتاتور السوفياتي الجديد. وكان يجب تصنيف الأضرار التي الحقها ستالين بالاتحاد السوفياتي، وكان يمكن استخدام كلمات الزعيم السوفياتي من قبل الدعائيين الغربيين في اضعاف ايمان الشرق بالستالينية والشيوعية.

وفي سعيهم للحصول على النص حاولت وكالات المخابرات الغربية ان ترشو الشيوعيين من دول الكتلة السوفياتية، الذين حضروا مؤتمر موسكو. وكان معظم الضيوف الأجانب قد منعوا من حضور جلسة ٢٣ شباط التي القى فيها خروشوف خطابه المثير ضد ستالين، وكان مسموحاً لكل وفد ان يرسل رئيسه الى القاعة، وكان هؤلاء كبار الشيوعيين الموالين جداً للكرملين بشكل لا يفشون معه الاسرار للجواسيس الراسماليين.

ولا عجب في ان يذكر الان دالاس يوم ١٧ نيسان على انه تاريخ احد الانجازات الكبيرة في حرفته كمدير للسي اي ايه، ففي ذلك اليوم تلقى نسخة مطبوعة من الخطاب الروسي من رئيس مكافحة التجسس، انجلتون، الذي ذكر بأن النص قد جاء من الاسرائيليين، فاتفاقية التعاون التي وقعتها السي اي ايه والموساد قبل خمس سنوات اثمرت، وفي ومضة بصر ترسخت سمعة الموساد الى الأبد.

ان الرجل الذي يجسّد الموساد، ايسر هاريل، هو المسؤول الوحيد ـ سابقاً او حاليا ـ الذي يؤكد ان اسرائيل امتطاعت ان تقدم للسي اي ايه مثل هذا الجميل الكبير، فقد كتب هاريل في مذكراته باللغة العبرية: لقد قدمنا لنظرائنا الاميركيين وثيقة تعتبر من اكبر الإنجازات في تاريخ المخابرات: الخطاب السري الكامل للسكرتير الأول للحزب الشيوعي السوفياتي.

وبينما اكد هاريل دور اسرائيل في الحصول على خطاب خروشوف للغرب، ووصفه بأنه «نجاح عملاق» فان هاريل لم يكشف الشخص الذي وضع يده على الخطاب او كيف.

ان القصة التي ظهرت فيما بعد اوحت بأن هاريل لم يعرف المصدر، وكان من الصعب تعقب الخيوط بعد عقود، لكن كانت هنالك مؤشرات تشير الى بولندا والى شيوعي اسمه ستيفان ستازويسكي، كان رئيس الحزب في وارسو في الخمسينات، وقد كشف في الثمانينات انه هو الشخص الذي ازاح القناع عن خطاب خروشوف المذهل.

ووفقا لقول هذا الشخص، ارسل الحزب السوفياتي نسخا من الخطاب الى عدد قليل من الشيوعيين في الأقطار الأوروبية الشرقية، ووصلت نسخة من ٥٨ صفحة باللغة الروسية الى ادوارد اوشاب، السكرتير الأول للحزب الحاكم في بولندا، ولم يكن قد حضر مؤتمر موسكو، وقد صدم بما قرأه: تأكيد مطلق لاسوأ الاتهامات التي وجهت ضد ستالين، وكان ذلك اشبه ما يكون باقناع مسيحي مؤمن بأن يتوقف عن الايمان بالمسيح.

وأسهم اوشاب، بحذر ودهشة، في التنصل من موسكو، مع عدد قليل من كبار الشيوعيين البولنديين، فاضطروا في البداية لقراءة النسخة الوحيدة المخبأة في خزانته، ثم امر فيما بعد بترجمتها الى البولندية، وارسلت نسخ محدودة الى قادة الحزب في المدن، بمن فيهم ستازوسكي.

قرر رئيس الحزب في وارسو وجوب قراءة الخطاب على نطاق اوسع فأمر بسحب الاف النسخ وتوزيعها، وقال انه اعطى النص للمراسلين الصحفيين الغربيين، ومن بينهم صحفي اسمه فيليب بن.

كيهودي بولندي ولد في لودز في عام ١٩١٣، باسم نوربرت نيزويسكي، اصبح بن صحفيا في سنوات المراهقة، وجنديا عندما غزا جيش هتلر بولندا في عام ١٩٣٩، وخدم نيزويسكي في الجيش الحر البولندي وهرب مع وحدته المقاتلة الى الاتحاد السوفياتي، ثم ارسل الى الشرق الأوسط فيما بعد كضابط ارتباط مع القوات البريطانية، لكن هويته اليهودية اثبتت وجودها في عام ١٩٤٣ فاستقر في فلسطين، يكتب للصحف العبرية وتخلى عن اسمه البولندي ليصبح فيليب بن.

خلال قيام اسرائيل في عام ١٩٤٨ والسنوات المثيرة التي تلت، كان بن يكتب عن الخارج اكثر مما كان يكتب عن الشرق الأوسط والأزمات الأقرب الى اسرائيل. وقد اظهرت مقالاته حول الشؤون الدولية لمحات من الذكاء وقداستخدمت صحيفة اللوموند الفرنسية هذا الاسرائيلي في عام ١٩٥٢، وكان تخصصه اوروبا الشرقية.

اقام بن شبكة واسعة من المصادر وذاع صيته اكثر من صحفي عادي، ويروي موشي افيدان، الذي كان سفيرا لاسرائيل في بولندا في الخمسينات، ان دبلوماسيين اخرين في وارسو اعتادوا على الاتصال بالسفارة للحصول على معلومات لأن «صحفيكم الاسرائيلي يعرف كل شيء». وكانوا يعنون بن.

لقد سببت تقاريره عن اضراب العمال في بوزنان في تشرين الأول ١٩٥٦، والتي نشرت في اللوموند ومعاريف الاسرائيلية غضبا دفع السلطات البولندية الى طرده من البلاد. وكان هنالك سبب اخر: علاقته الغرامية مع امرأة بولندية شابة وجذابة اسمها فرانكا تورونيك، وقام بن، الذي كان متزوجا في ذلك الوقت، بتهريب خليلته من بولندا، وعندما اعلن البولنديون ان بن شخص غير مرغوب فيه فقد وصفوه بأنه عميل للمخابرات الاسرائيلية والاميركية.

تقول شقيقته هانا تيكيسنكي: كان رجلاً غامضا.

وتوافقها على هذا الرأي فرانكا تورونيسيك التي ظلت في اسرائيل بعد مشاركة بن حتى آخر حياته: ذلك صحيح، فقد كان يعرف كيف يحتفظ بالأسرار ولم يكن ليتحدث بشيء حتى لي!

بعد كتابة التقارير لسنوات كثيرة من الأمم المتحدة في نيويورك، مات بن في عام ١٩٧٨ ومع انه كتب آلاف المقالات للاستهلاك العام فقد دفنت معه حكايات كثيرة خفية.

احدى القصص التي حجبها بن، وفقا لما قاله رئيس الحزب الشيوعي السابق في وارسو، ستازويسكي، تتمثل في دوره في اذاعة خطاب خروشوف السري، ويقول احد زملاء بن في معاريف انه «أمر ليس مستحيلاً» وربما «كان طبيعيا» ان بن ساعد وكالات بلاده الأمنية بالمعلومات من مختلف المدن التي زارها. ولو ان ستازويسكي اعطى نص خطاب خروشوف لبن، لذهب الى المخابرات الاسرائيلية ثم الى السي اي ايه وليس الى معاريف وقرائها.

الا ان ستازويسكي ادعى انه اعطى النص لصحفيي نيويورك تايمز: فلورا لويس وسيدني غروسن زوجها في ذلك الوقت. وفي تذكرها لعام ١٩٥٦ تقول فلورا وغروسن انها سمعت اشاعات عن خطاب هام لخروشوف لكنهما لم يستطيعا رغم الجهود التي بذلاها ان يحصلا على النص، وما يزال ستازويسكي يصّر على انه اعطى خطاب خروشوف، شخصياً، لفيليب بن.

هل كان فيليب بن العميل السري الذي وفر الخطاب لاسرائيل، وبذلك رفع الدولة اليهودية الى الروابط الكبيرة للمخابرات الدولية؟ شخص واحد فقط يعرف الحقيقة، انه استاذ الجاسوسية الاسرائيلي الذي استطاع ان يظل غير مرئي طوال حياته: اموز مانور، الرئيس الاسمي للشين بيت طوال معظم سنوات هاريل كميمونه.

بعدصعود مراتب الأمن الاسرائيلي، عمل مانور كرئيس للشين بيت احدى عشرة سنة، الى ان تقاعد في عام ١٩٦٤ من عالم الأسرار. وكرجل أعمال وعضو في مجالس ادارة لشركات كثيرة بعد ربع قرن نادرا ما يتحدث مانور مع الصحفيين، وهو يقول: انني لم اناقش عملي ولن اخرج عن عادتي.

كان لمانور مصادر ممتازة في اوربا الشرقية، وربما في الاتحاد السوفياتي، والتي كانت تتصل بالشين بيت وليس بالموساد لأن مهمتها الرئيسية كانت تعقب محاولات الكتلة السوفياتية لدسّ

العملاء الى اسرائيل. وكان احد عملاء مانور في الكتلة السوفياتية هو الذي ارسل خطاب خروشوف بلغته الروسية الأصلية الى مقرّ الشين بيت، في يافا، خلال الاسبوع الثاني من نيسان ١٩٥٦، وقد اتفق ان كان للعميل طريقة للوصول الى نص خطاب خروشوف ومرّره كشيء للاطلاع عليه.

لم يكن مانور يعرف الروسية فطلب من إحد كبار مساعديه الذي كان قد هاجر من روسيا الى اسرائيل ان يترجم الثمانية وخمسين صفحة الى العبرية وطلب مانور من كبار خبراء الشين بيت في الشؤون السوفياتية ان يقرأوا النص ويحكموا فيها اذا كان حقيقيا، فقد اشتهرت الكي جي بي بالاعلام المضلل من خلال تلفيق الوثائق.

في يوم الجمعة الثالث عشر من نيسان، في نهاية ذلك اليوم الذي يسبق عطلة السبت، جلس رئيس الشين بيت خلف مكتبه في يافا وقرأ خطاب خروشوف، وكان يسمع منذ اسابيع انه هام، وانه صيد ثمين تسعى السي اي ايه وجهات اخرى للحصول عليه. وكان في الحقيقة خطابا قويا يكشف آلكثير عن سياسات الاتحاد السوفياتي التي تبدو غير قابلة للاختراق.

عندما انهى قراءة النص، وضع مانور النسخة العبرية في حقيبته ـ مع رأي محللين للشؤون السوفياتية الذين اعلنوا انه حقيقي، وقاد سيارته على الفور الى بيت رئيس الوزراء بن غوريون في تل ابيب واعطاه الترجمة العبرية وتحليلات الشين بيت.

التقى مانور وبن غوريون مرة اخرى يوم السبت، وعندما اقتنع رئيس الوزراء بان خطاب خروشوف حقيقي امر بارساله على الفور للاميركيين وعندها فقط قاد مانور سيارته متوجها الى بيت ايسر هاريل، ليخبره، لأول مرة، بالنص وليريه للميمونه، دون ذكر المصدر.

كانت اسرائيل متلهفة دائما للتأثير على الأميركيين، لذلك بعد يومين فقط من قرار بن غوريون بمشاركتهم في خطاب خروشوف، كان احد رجال المخابرات الاسرائيلية يطير جوا حاملاً النص لجيم انجلتون في واشنطن. وشعر رئيس الوزراء ان هذا العمل يمكن ان يكون الاختراق المطلوب لجعل اسرائيل حليفا استراتيجيا محترما للولايات المتحدة، وشعر بن غوريون أيضا انه لو قامت اسرائيل باذاعة الخطاب السري فان ذلك سيضرّ بعلاقات اسرائيل المتوترة مع المتبرعين السوفيات الذين احسنوا لها سابقاً.

لم تتم فقط قراءة نص خروشوف باهتمام كبير في مقر السي اي ايه، بل سرّبه الاميركيون لصحيفة نيويورك تايمز ثم اذيعت كل العشرين الف كلمة بجميع لغات الأقطار الشيوعية عبر اذاعتي اوروبا الحرة وصوت الحرية. بل تم ربط نصوص مطبوعة ببالونات القتها الطائرات عبر الستار الحديدي في اقطار الكتلة الشرقية وبهذه الطريقة وصلت آلاف النسخ، الى بولندا، وربما كانت هذه اكبر عملية توزيع لخطاب خروشوف، ومن ناحية اخرى ربما كان فيليب بن رجل مانور

في اوروبا الشرقية : عيني واذني الشين بيت المناهضة للشيوعية في مكتب الكتلة الشيوعية .

حتى وهو في السبعينات من العمر، لا ينوي اموز مانور كشف اسم الرجل الذي كان على الطرف الثاني من خط المعلومات، ومن المعروف ان مانور تضايق لأن هاريل، الميمونه السابق ، حاول ان ينسب الفضل لنفسه باسم الموساد، لكن لم تكن الموساد بل الشين بيت هي التي حصلت على خطاب الكرملين السري ، لكن من الذي ارسله الى الشين بيت من اروبا؟ في عالم الجاسوسية تقود الأجوبة الى المزيد من الأسئلة .

كان انجلتون قادرا على التصدي او تحريف المعلومات القادمة من مصادر اخرى والتي يمكن ان تؤذي اسرائيل . فعندما ارسل الملحق العسكري الاميركي في تل ابيب تقريرا في تشرين الأول ١٩٥٦ بأن اسرائيل تخطط لمهاجمة مصر، ادعى انجلتون ان المعلومة ليست دقيقة . وسواء كان تصرفه مقصودا او عن غير قصد فان صديق اسرائيل الكبير في واشنطن ساعد على الابقاء على الساتر الدخاني الذي حجب الاستعدادات لغزو السويس .

لقد وقع انجلتون اسير اعجابه باسرائيل، فأصرّ على ان يكون الرجل الوحيد الذي يتولى هذا الأمر، وحسبما ذكر احد مديري السي اي ايه : كان انجلتون يتحمل مسؤولية كبيرة واحدة عدا عن مكافحة التجسس - اسرائيل - والتي عاملها بنفس الأهمية التي يعامل بها مكافحة التجسس .

غضب انجلتون عندما حاول اخرون في الوكالة ان يتصلوا بالاسرائيليين بلا علمه، ووصل حسده ذروته في عام ١٩٧١ عندما قام بيتر رايت، نظيره في ام اي ٦ البريطانية، بزيارة واشنطن، فقدم انجلتون شكوى رسمية لمدير ام آي ٥ ، سير مارتن فورنيفال جونز، زاعما ان رايت عقد مفاوضات سرية من وراء ظهره تتعلق باسرائيل والشرق الأوسط، مع مسؤولين اخرين في السي اي ايه . لكن البريطانيين لم يكّلفوا خاطرهم بالرد على الرسالة .

وفي مناسبات اخرى، لم يخف انجلتون شكوكه في اللورد فكتور روتشيلد، وهو من سلالة الأسرة المصرفية اليهودية المشهورة.كان روتشيلد عميلاً سابقاً للمخابرات البريطانية، من ايام الحرب العالمية الثانية اقام علاقات وثيقة مع رؤسائه السابقين في لندن بينما تعهد صداقات شخصية مع رؤساء المخابرات الاسرائيلية، فاستاء انجلتون من اتصالات روتشيلد .

يعترف الاسرائيليون الذين عملوا مع انجلتون انه كان ذا شخصية غير مألوفة، لكنهم يقدرونه لهدم جدار الشك الاميركي ازاء اسرائيل لدى تعبيد الطريق لتعاون استراتيجي حيوي، وفي تشرين الثاني ١٩٨٧ ، بعد وفاة انجلتون بسنة، اقامت اسرائيل «نصبا تذكاريا» لصديقها الاميركي القيّم . فعلى مرمى البصر من فندق الملك داود الفخم حيث كان يحب ان يقيم خلال العشرات من زياراته للقدس، تم الحفر على حجر كبير باللغات العبرية والانجليزية والعربية

احياء لذكرى صديق عزيز، جيمس (جيم) انجلتون. وقد ازيح الستار عن الحجر في حفل حضره رؤساء المخابرات الاسرائيلية السابقون والحاليون.

تحدث تيدي كوليك كيف التقى مع انجلتون لأول مرة عندما كان يتجول في مقر السي اي ايه في ايلول ١٩٥٠، ويضيف كوليك انه بعد دقائق صدف ان التقى ببريطاني اسمه كيم فيلبيي فعاد مسرعاً الى مكتب انجلتون وسأله: ماذا يفعل فيلبيي هنا؟.

أجاب انجلتون: كيم صديق جيد من اصدقائنا، وهو ممثل ام آي ٦ البريطانية لدى السي آي ايه.

لم يكن كوليك يحب فيلبي ربما لأن والد البريطاني قد اعتنق الاسلام واستقر في السعودية كمستشار خاص للأسرة الملكية هناك، كما شعر كوليك انه كان عليه ان يخبر انجلتون بأنه تعرف على فيلبي في النمسا في الثلاثينات. وان فيلبيي كان يساريا، بل ان كوليك حضر زفافه الى شيوعية يهودية في فيينا، وكان هذا جزءا من ماضيه الذي اخفاه فيلبيي عندما انضم للمخابرات البريطانية.

دون انجلتون ما قاله صديقه الاسرائيلي الجديد لكن لم يتخذ اي اجراء إلا بعد ان انضم الدبلوماسيان البريطانيان غاي بورغيس ودونالد ماكلين الى موسكو في عام ١٩٥١، فقامت السي اي ايه باعلام ام آي ٦ بأن فيلبيي يتصرف بشكل مثير للشك، وانه لم يعد مرغوبا فيه كضابط ارتباط في واشنطن. وسيطر عداء انجلتون للشيوعية عليه وشن حملة بحث عن خونة آخرين في الاجهزة السرية الغربية، لكنه ندم لأنه لم يلاحق فيلبيي بعد الذي سمعه من كوليك.

وجاء مفتاح آخر من امرأة بريطانية خلال زيارتها لاسرائيل عام ١٩٦١، كانت فلورا سولومون ابنة مصرفي يهودي ثري في روسيا القيصرية انتقل الى انجلترا، وعملت مع شركة ماركس وسبنسر، وكانت كرؤسائها صهيونية متحمسة، وفي حفلة كوكتيل قرب تل ابيب التقت بصديقها القديم لورد فكتور روتشيلد، وتحدثت بقسوة عن كيم فيلبيي، الذي كان في ذلك الوقت مراسلا لصحيفة بريطانية، في بيروت، وشجبت مقالاته الصحفية المؤيدة للعرب والمناهضة لاسرائيل. لكن احدى ملاحظاتها شغلت روتشيلد: كما هو معتاد فان كيم يعمل ما يطلبه منه رؤساؤه في روسيا.

ردّ روتشيلد بالدهشة، وروت سولومون له كيف حاول فيلبيي ان يجندها في عام ١٩٤٠، للعمل مع المخابرات السوفياتية ووصف فيلبيي عمله بأنه «سري وخطر» وعندما لم توافق طلب منها الا تخبر احداً بذلك.

وصل الخبر الى الموساد والمخابرات البريطانية مع ام آي ٦ لكنها لم تواجه الموضوع بالسرعة الكافية، وفي لبنان سمع فيلبيي انه تحت الشبهات، فاختفى في كانون الثاني ١٩٦٢ ـ ليظهر في

اواخر تلك السنة في موسكو كجنرال في الكي جي بي - لجنة امن الدولة.

لقد تأثر البريطانيون من الاسرائيليين الذين كانوا يعرفون الكثير. وكما هو حال انجلتون في الولايات المتحدة، فان رجال المخابرات البريطانية، بمن فيهم نائب رئيس ام آي ٦ موريس اولدفيلد ونائب رئيس ام آي ٥ بيتر رايت، اصبحوا يقدرون قدرات الموساد.

وكانت اجهزة بريطانيا السرية تدرك ان اسرائيل ليست بلدا من الدرجة الثالثة بل قوة عظمى في عالم المخابرات. ووقع ضباط ارتباط الموساد في لندن اتفاقية تعاون رسمية مع ام آي ٦ مشابهة للاتفاقية المعقودة بين الموساد والسي آي ايه.

من وجهة نظر اسرائيل، اصبح اولدفيلد نسخة بريطانية عن انجلتون وكان اكبر اخوته الأحد عشر، لأسرة زراعية انجليزية فقيرة، وقد اظهر حبه للعمل في المخابرات عندما وضع في السويس خلال الحرب العالمية الثانية. كان يعرف الشرق الأوسط كما كان يعرف تيدي كوليك. وكان اولدفيلد قد اخبز كوليك بأنه معجب بالصهيونية، وقد اعجب كوليك بشخصية اولدفيلد، وقد افرزت صداقتهما نتائج هامة في السبعينات عندما اصبح اولد فيلد مديرا لجهاز ام آي ٦، تحت رمز حركي «سي»، كما تأثر الروائيان أيان فليمنغ وجون لا كاري باولدفيلد حيث كانت شخصية ام في مسلسل جيمس بوند بقلم فليمنغ وجورج سمايلي في روايات لاكاري تستندان الى الحياة الحقيقية لرئيس ام آي ٦.

لقد حرص اولدفيلد على حماية مصالح إسرائيل في المؤسسة البريطانية حيث كان الموظفون المدينون والدبلوماسيون يظهرون عداء يمكن وصفه بأنه «مؤيد للعرب». واستطاع مدير المخابرات ان يشير الى منافع واضحة جنتها بريطانيا من العلاقات الخفية مع اسرائيل.

كانت اقامة علاقات قوية مع أجهزة المخابرات الأجنبية احد اكبر انجازات المخابرات الاسرائيلية، بالاضافة الى تشكيل التحالفات التكنولوجية والاستراتيجية والمحيطية كما ساهم مجتمع المخابرات بقيادة وتوجيه شيلوه بهذه الانجازات.

لكن شيلوه مات فجأة إثر ازمة قلبية في ايار ١٩٥٩ بينما كان يستعد لمهمة سرية اخرى في تركيا وايران، ولم يكن له حلفاء سياسيون كثيرون وكان له عدد قليل من الأعداء.

كانت اليقظة المتشككة والمستمرة عنصرا يعزى الى هاريل، فبينما كان مسؤولا عن الموساد، ويراقب الشين بيت طوال عقد، طوّر منهجا شخصياً جداً لادارة الأمن الاسرائيلي. واستناداً الى هواجسه كان هاريل يقضي كثيراً من وقته في شن الحملات الصليبية.

الفصل الخامس

هاريل الصليبي

بالاضافة الى كل صفاته الاخرى، كان لايسر هاريل صفة جعلته شخصية معقدة تجلس على عرش المخابرات الاسرائيلية، فكان يتجاهل التهجمات واللامبالاة ويقنع نفسه بانه مؤهل بشكل فريد لمهمة الدفاع عن اسرائيل.

ولم يتهاون هاريل رغم خيبات الامل مثل استبعاده عن الاستعدادات لحملة السويس في عام ١٩٥٦ وتشكيل وكالة التجسس التكنولوجي، لاكام من وراء ظهره، واستبعاده من تحالفات اسرائيل الاستراتيجية والمحيطية، وبدلاً من أن ينظر الى الوراء غاضباً، فانه فضل ان ينظر الى الامام بأمل.

كان هاريل مخلصا لخدمة مصالح اسرائيل وتعزيز سلطة بن غوريون السياسية وتطلع الميمونه حوله بحثا عن التهديدات واستنتج ان مجلة شعبية ناطقة باللغة العبرية، هاعولام هازيه، أي هذا العالم، مَثل خطراً واضحا وقائما لرئيس الوزراء ولحزب ماباي وللنظام بأسره، فاعلن هاريل الحرب على المجلة الاسبوعية.

كانت المجلة التي تنشر مزيجا من الاشاعات والفضائح الجنسية والتحقيقات الصحافية تدعو الى الصلح مع العرب الفلسطينيين والى نظرة غير ارثوذكسية للحياة الاسرائيلية، فقد قام محررها اوري افنيري بالطلب من بن غوريون إبداء الشهامة بالسماح باقامة دولة فلسطينية رغم انتصار اسرائيل في حرب ١٩٤٨، وكانت هذه الدعوة في اوائل الخمسينات هرطقة صارخة.

كان بن غوريون وطريقته المركزية في الحكم هدفا طبيعيا لهجمات المجلة المسمومة، وكان الحزب الحاكم يبادل افنيري الكراهية فنظمت منظمة ماباي السياسية مقاطعة لمجلة هاعولام هازيه، لكن المجلة حافظت على قرائها الموالين لها، وارتفع التوزيع اكثر في عام ١٩٥٦ عندما نشرت المجلة على غلافها مزاعم الفساد ضد رئيس شرطة تل ابيب. وكانت العناوين الفاضحة اكثر مما يستطيع هاريل ان يحتمل كخادم مخلص لرئيس الوزراء.

وقد صدف ان كان رئيس الشرطة ابن رئيس الوزراء، اموز بن غوريون وصبّ افنيري هجماته اللفظية على الشين بيت ، فأثار غضب هاريل لان احدا لم يكن في ذلك الوقت يكتب عن الاجهزة السرية الاسرائيلية، وبدلاً من ان تذكر الشين بيت كانت هاعولام هازيه تشير في اغلب الاحيان الى «جهاز الظلام».

لقد صورت المجلة الوكالة بانها وحش يعتدي بقسوة على الحقوق المدنية، وقد حملت الشين بيت المسؤولية عن كل ما هو سيء في اسرائيل. وعندما تعرض افنيري للضرب على يد مجموعة من المظليين الذين كانوا في اجازة، صبّ اللوم على الجهاز الامني، وعندما اختفى احد كتاب المجلة نتيجة انفضاحه في علاقة غرامية، ادعت هاعولام هازيه ان جهاز الظلام اختطفه.

لم تؤد اساليب افنيري فقط الى مضايقة هاريل، الميمونه، بل ضايقت رئيس الشين بيت الاسمي، اموز مانور. وفي شكواه من الاستفزازات والكذب من قبل المجلة وضع مانور موظفيها تحت المراقبة، آملا في ان يكشف بعض الامور القذرة ضدهم، ووردت هاعولام هازيه بتحقيقات صحافية، مع انها كانت شاذة بعض الشيء، لأن تسمية اي موظف من مجتمع المخابرات امر غير قانوني.

قرر ايسر هاريل أن يستخدم سلاحا غير مألوف: مجلة منافسة، ففي محاولة لتخفيض توزيع مجلة افنيري، بدأت الشين بيت اصدار مجلة اسبوعية بعنوان «ريمون» اي شجرة الرمان، يوم الاول من آب ١٩٥٦، وحاول بلا جدوى ان يخفي ملكية المجلة الجديدة، فكانت المرآة التي تعكس مجلة افنيري، وبدلاً من وجهة نظر هاعولام هازيه للاحداث بطريقة غير مؤدبة كانت مجلة ريمون تقدم خط المؤسسة الرسمي الى جانب اشاعات ترمي الى زيادة المبيعات، ومع هذا فان طاقة وكتابة المجلة التقليدية لم تكن مثيرة مثل المجلة الاصلية.

شنت ريمون حربا من الكلمات ضد هاعولام هازيه لكن ذلك لم يبع مجلات كثيرة، وكان مانور يشعر بعدم الارتياح من مشروع مجلة رئيسه هاريل لكن لم يستطع أحد ان يثني الميمونه عن اصدار المجلة الى ان كشف التوزيع وضعها.

بعد معارك كلامية شرسة بين المجلتين خسرت المخابرات حرب التوزيع، فقد جعلتها ثلاث سنوات من سوء التوزيع في وضع يستحيل معه على الشين بيت ان تحتمل تمويل ريمون، فانطوت القصة!

واستطاع هاريل ان يبلع الخسارة بسبب صيته الكبير الذي اكتسبه كصائد للجواسيس، وقد أفشل محاولات الشيوعيين الرامية الى التسلل داخل الدوائر الحاكمة في اسرائيل، بالاضافة الى الحيلولة دون نجاح مهمات مماثلة من الاقطار العربية. وفي الوقت ذاته تقريبا استطاع هاريل

ان يكشف غولد شتاين / آفني كجاسوس سوفياتي في وزارة الخارجية الاسرائيلية ؛ كما القى الميمونه القبض على ماري فرانسيس هاغن.

كانت هاغن صحفية اميركية في مقر الامم المتحدة في نيويورك وكانت معجبة بكثير من المندوبين العرب ووافقت على التجسس في اسرائيل من أجل خطيبها الدبلوماسي السوري غالب الخيلي، وفي عام ١٩٥٦ ذهبت الى اسرائيل كمراسلة اجنبية وبدأت في ارسال التقارير للمخابرات السورية، وبدت مهتمة بشكل غير مألوف بحدود اسرائيل، لذلك بدأت الشين بيت تراقبها على مدار الساعة، وقام رجال هاريل باعتقال هاغن وحوكمت خلف الابواب المغلقة دون ان يسمح لزملائها المراسلين بالحضور، وبعد ان ادينت بالتجسس في ٢٧ آب ١٩٥٦ قضت ثمانية شهور في سجن اسرائيلي، وعادت هاغن الساذجة الى نيويورك لتفاجأ بان الخيلي لم يعد يريد رؤيتها!

كان الاتحاد السوفياتي يعتبر ذا قدر كبير من المواهب التجسسية الطبيعية: القدرة على التريث والانتظار، والدقة في تجميع التفاصيل الصغيرة التي تكمل لغزاً، والفصل المطلق للعواطف عن العمل.

كان هاريل، وهو من اصل روسي، يقدر مواهب خصومه من الكتلة السوفياتية، وكان يعرف ان بعضهم يتجسسون في اسرائيل، وشعر ان الاميركيين على حق حين حذروا من ان كثيرا من العملاء الشيوعيين قد زرعوا بين اليهود القادمين من اوروبا الشرقية ولم يكن هنالك الكثير ليفعله ازاء الاشخاص الذين كانوا يعملون في وظائف صناعية صغيرة او في المستوطنات الزراعية، يبعثون بتقارير عن الحياة اليهودية الى مسؤولي الكي جي بي في الخارج. وتطلع هاريل الى الكمال وتمنى لو يستطيع ان يقبض عليهم لكنه ركز على اجتثاث الجواسيس الذين ربما وصلوا الى مراكز مهمة في اسرائيل.

ان حاسته السادسة كصائد مدسوسين متغلغلين في المجتمع الاسرائيلي، وانشغال ذهنه بالمابام افترضا ابعادا جديدة عندما اكتشف ان عضوين من الحزب اليساري كانا جاسوسين للاتحاد السوفياتي.

في القضية الاولى، قبضت دائرة مكافحة التجسس التابعة للشين بيت على اهارون كوهين، وهو خبير من مابام حول الشرق الاوسط وهو يلتقي مع دبلوماسي سوفياتي مركزه في تل ابيب وعرف بانه ضابط كي جي بي.

اعتقل كوهين في عام ١٩٥٨، لكن قادة حزبه غضبوا جدا حتى أنهم سارعوا الى مساندة كوهين واتهموا هاريل بانه يلفق التهم لصديقهم. واعترف الجاسوس المتهم في المحكمة بانه

اجتمع مع الروس لكنه أصر على أنه لم يعطهم اي سرّ، وادين وحكم عليه بالسجن خمس سنوات، لكن المحكمة العليا خفضت فترة السجن الى النصف.

كان رجل الماباي البارز الثاني الذي اعتقل بتهمة التجسس قريبا جدا من رئيس الوزراء، فقد كسب العقيد اسرائيل بير ثقة بن غوريون لكن تبين انه مرتدّ.

ولد بير في فيينا في عام ١٩١٢ وكان اشتراكيا من صغره، وقد تحدثت قصة حياته التي رواها عن محاربة الفاشيين في الشوارع قبل دخول النازيين الى النمسا في عام ١٩٣٨، وقال بير انه درس في كلية عسكرية في النمسا وتطوع «للواء الدولي» الذي كان يحارب فرانكو في اسبانيا، وذهب بير الى فلسطين في عام ١٩٣٨، وتم الترحيب به في الهاغاناه نتيجة خبرته القتالية المزعومة، كما ساعدته وجهات نظره الاشتراكية وتربيته الليبرالية وخبرته في الشؤون العسكرية، في مصادقة زعماء المجتمع اليهودي.

بعد قيام اسرائيل في عام ١٩٤٨، اقترب بير من الحصول على منصب كنائب لرئيس هيئة اركان الجيش، ونتيجة لخيبة امله وغضبه استقال من منصبه وعمل كمراسل عسكري لصحيفة اسرائيلية، وفي ذلك الوقت تحول بولائه السياسي من المابام، حيث كان في دائرة الامن التابعة للحزب، الى حزب ماباي بقيادة بن غوريون. وصادق الشخصيات العسكرية البارزة بمن فيهم شاؤول افيغور، شمعون بيريز وحتى رئيس الوزراء.

بدأت الشكوك تحوم حول بير في عام ١٩٥٦ وكان الجنرال موشي دايان شبه مازح عندما اشار الى المؤرخ العسكري وقال: ماذا يفعل ذلك الجاسوس هنا؟

كان ذلك قبل ان يذهب بن غوريون،ودايان وحاشيتهما الى باريس لاجراء المفاوضات السرية التي ادت الى ارسال القوات الاسرائيلية والبريطانية والفرنسية الى السويس، فوجىء دايان حين وجد بير عند نقطة التجمع السرية مع انه لم يكن ليطير الى باريس.

اخفى هاريل شكوكه وامر بمراقبة بير، لكن الرئيس الاسمي للشين بيت، اموز مانور، تردد قبل ان يتخذ اجراء ضد صديق رئيس الوزراء، فتولى هاريل المسؤولية وأمر باعتقال بير يوم ٣١ اذار ١٩٦١.

القي القبض على بير في ذلك اليوم على يد الشين بيت وضباط الشرطة عندما كان يسلم وثائق لفكتور سوكولو، وهو ضابط كي جي بي، كان يعمل تحت غطاء دبلوماسي سري في تل ابيب، وكان الملف يحتوي على مقتطفات من مذكرات بن غوريون وتقرير سري عن المؤسسة العسكرية الاسرائيلية.

لقد لفت بير انتباه هاريل باقامة اتصالات بلا اذن مع رئيس المخابرات الالمانية الغربية

رينهارد غيهلين، من جهاز المخابرات الفدرالي.

كان لغيهلين ووكالته مكانة خاصة في خطط حلف الناتو للدفاع عن اوروبا وكان غيهلين قد عمل في الحرب العالمية الثانية لوحدة المخابرات العسكرية لهتلر، أبويهر، يحرك الجواسيس في عملائه النائمين في روسيا، وكان السوفيات يدركون الخطر الذي يمثله جهاز المخابرات الفدرالي، بي إن دي، فارادوا شخصا يعرف ما كان يفعله غيهلين، وكان يمكن لبير وهو اسرائيلي كبير يمكن ان تثق به بون ـ ان يعرف ما يريده سادته الحقيقيون في الكي جي بي.

وفي غمرة رغبة الالمان الغربيين بعد الحرب في ارضاء الاسرائيليين فقد اتاحوا لبير درجة كبيرة من الوصول الى الجيش الالماني ومنشآت الناتو والقواعد الاميركية والقواعد الاخرى. حتى ان بير حصل لاسياده السوفيات على تفاصيل عقود الانشاءات لمواقع الصواريخ الذرية الاميركية في اوروبا، وكنتيجة لمشاريعه التجسسية فقد أعطى للسوفيات معلومات عن مشتريات الاسلحة الاسرائيلية، وزيارات الضباط الاسرائيليين الى اوروبا ومعنويات الجيش الاسرائيلي.

شكّ هاريل في ان بير اندسّ في اسرائيل من البداية، من قبل الشيوعيين وكان ينشط بناء، على اوامر من مراسل في تل ابيب لوكالة تاس السوفياتية في عام ١٩٥٦، وكان الروس يدفعون لبير نقداً، مما جعله يبذّر على النساء والملاهي والمطاعم الفخمة.

كانت قصة حياته مماثلة الى درجة كبيرة لحياة الخائن البريطاني كيم فيليبي، فكان الاثنان متعاطفين مع الشيوعية، وجندتها المخابرات السوفياتية في الحرب الاهلية الاسبانية «كعملاء نائمين» لينشطوا فيها بعد، وتغلغل بير، مثل فيلبي، في قلب المؤسسة الامنية لبلاده ليصبح اثمن مصدر للسوفيات قبل ان ينهي حرفته كصحفي ناجح.

ومع هذا لم يستطع الغرب ان يضبط فيلبي، بينما وقع بير، فقد اعترف في المحكمة بانه اخترع ماضيه، فهو لم يحصل على دكتوراه في التاريخ، كما ادعى، ولم تطأ قدماه اسبانيا، وقد حصل التشويش حول كيفية تغلغله عندما فند، في السجن، اعترافه الذي ادلى به في المحكمة وأعلن عن سيرة حياته الاصلية.

وحتى دون معرفة اسمه الحقيقي وخلفيته، وجد القضاة الاسرائيليون ان الادلة ضد بير ثابتة، وكان لمحكمة تل ابيب سببها الواضح لتحكم عليه بالسجن خمس عشرة سنة بتهمة التجسس، والى ان مات في السجن في عام ١٩٦٦ أصرّ على انه لم يكن جاسوسا، بل وطني مخلص يسعى الى جعل اسرائيل غير منحازة وليست موالية للغرب.

وحتى لو لم يكن بير موجودا لظل لدى الاميركيين ما يدعوهم الى الشك في مقدرة

الاسرائيليين على الحيلولة دون تغلغل المدسوسين داخل مؤسستهم الامنية، فمنذ قيام اسرائيل في عام ١٩٤٨ كانت هدفا للمخابرات السوفياتية، ومنخلاً كبيراً فيها يتعلق بتسرب الاسرار. فكان الروس مهتمين بموقع اسرائيل الجغرافي وعلاقاتها الواسعة مع الغرب، وكان العملاء السوفيات يشملون دبلوماسيين وصحفيين ومندوبين علميين وتجاريين اوروبيين شرقيين.

كانت الحاجة تدعو الى شبكة واسعة من العملاء لمساندة هذا النشاط المكثف، وكان للسوفيات حوالى ستين موظفا في سفارتهم في تل ابيب، وكان حوالى النصف من عملاء الكي جي بي أو «غي آر يو» أي مديرية المخابرات الرئيسية لهيئة الاركان العامة، وقد جندوا عملاء اسرائيليين لكن السوفيات كانوا يفضلون غير الشيوعيين في المؤسسة الاسرائيلية لان الشيوعيين المحليين كانوا عرضة للشك وتحت رقابة الشين بيت.

كان من بين اهداف التجسس زوجات الدبلوماسيين ففي صيف عام ١٩٥٥ عادت زوجة دبلوماسي اسرائيلي كبير في احدى اقطار اوروبا الشرقية الشيوعية الى اسرائيل للزيارة، وفي تل ابيب التقت مع دبلوماسي سوفياتي ووقعت في حبه، وقد علمت الشين بيت بالعلاقة لانها كانت تراقب الروسي.

دعا رجال هاريل المرأة الى مقر الوكالة وطلبوا منها ان تقطع كل العلاقات مع حبيبها، وفي الوقت ذاته تم استدعاء الزوج الى النمسادون ايضاح، لحمايته من الابتزاز، وفوجيء عندما وجد هاريل نفسه ينتظر في غرفة الدبلوماسيين في الفندق في فيينا، ودون أن يلفّ ويدور في حديثه قال الميمونه للاسرائيلي المخدوع ان زوجته تنام مع رجل سوفياتي، لذلك سيتم نقله خارج الكتلة الشرقية، وفهم الدبلوماسي ما هو ضروري، لكنه انهز نتيجة الخيانة الزوجية ونقل مركز عمله المفاجيء.

كان يتم تحذير الدبلوماسيين الاسرائيليين، قبل التوجه الى اوروبا الشرقية، ألا يتورطوا بعلاقات غرامية، وقد رفضت وزارة الخارجية ان ترسل رجالا عزابا او نساء عزباوات فيما وراء الستار الحديدي وكان يتم تعيين ضباط امن الشين بيت في كل سفارة لمراقبة المبتزّين المحتملين، ومع هذا لم يكن لمثل هذه الاحتياطات أن تكون مضمونة النتائج امام الاغراء البشري والعواطف والسخافة.

في شباط ١٩٥٩ تلقى دبلوماسي اسرائيلي كبير في عاصمة اوروبية شرقية رسالة تقول:

«عزيزي،

لقد وقع بين يدي عدد من الصور الهامة، التي تشهد بعلاقتك الدافئة بالانسة داغمار نوفوتنا، واذا استخدمت هذه الصور لابتزازك او ابتزاز المرأة المعنية بهذه الصور، فان هذا لن

يكون لصالحك او لصالح الانسة دوغمار نوفوتنا، وبعد ان فكرت في الموضوع توصلت الى النتيجة التالية: يمكن طيّ القضية شريطة ان تجيء الى فيينا في المستقبل القريب لتتحدث مع مساعدي، انه جدير بالثقة، ويجب ان تصل الى فيينا مع نهاية شباط واقترح ان تقيم في فندق ساشر، واطلب ردّك خلال اربعة عشر يوما من تلقيك للرسالة».

أعلم الدبلوماسي وزارة خارجية اسرائيل بمحاولة الابتزاز بعد أن اشتم رائحة المجازفة غير السارة بالفضيحة، فنقله رؤساؤه بسرعة من الكتلة الشرقية.

كان سعيْ هاريل الحثيث وراء الخونة الاسرائيليين نتيجة اهتمامه بامن بلاده، مقترنا بكراهيته الشخصية للشيوعية، وبالاضافة الى ذلك اراد هاريل، ومن قبله شيلوه، ان يثبت للولايات المتحدة ان اسرائيل شريك يعتمد عليه، وحاول هاريل ان يثبت انه اقدس من البابا، فاذا كان الان دالاس، من السي آي ايه، وجون فوستر دالاس، شقيقه في وزارة الخارجية كانا يريان «أحمر تحت كل سرير» فقد اراد هاريل ان يظهر بانه ينبغي القضاء حتى على اللون الزهري من كل غرف النوم في اسرائيل!

لذلك خاب أمل الميمونة عندما اكتشف في عام ١٩٦٠ ان البروفسور كورت سيتا قد تغلغل داخل مجتمع اسرائيل العلمي، وقد ولد سيتا في عام ١٩١٠ في سورتلاند، تشيكوسلوفاكيا لأسرة المانية غير يهودية، ودرس سيتا في براغ، حيث اعتبر عبقريا في الرياضيات والفيزياء، واعتقلته الغستابو وسجن في معسكر الاعتقال بوشنوالد، لان زوجته كانت يهودية، وشارك في خبرات مرعبة مع الشيوعيين البارزين المسجونين في المعسكر، وعندما ذهب بعضهم للعمل للمخابرات التشيكية، بعد الحرب، جندوا صديقهم سيتا ليصبح جاسوسا.

درس الفيزياء النووية في بريطانيا ثم درّس الموضوع في جامعة سيراكوس في نيويورك، وقامت الاف بي اي، التي اعتقدت انه عميل شيوعي باستجواب سيتا، وعرضت عليه ان توظفه كعميل مزدوج، وهكذا غادر الولايات المتحدة في ظل ظروف مشبوهة الى البرازيل في عام ١٩٥٣، وبعد سنتين دعي لالقاء محاضرات في مدرسة تخنيون في حيفا، ورأى انه أحب المدرسة والبلاد والشعب، او هكذا قال، عندما قبل منصب رئيس دائرة الفيزياء.

وفر نجاح سيتا النادر، كأجنبي غير يهودي في اسرائيل، فرصة ذهبية للتشيكيين واسيادهم السوفيات، فكان ضابط مخابرات، يعمل تحت غطاء دبلوماسي في السفارة التشيكية في تل ابيب، يلتقي بين الحين والآخر مع البروفسور بين عام ١٩٥٥ وعام ١٩٦٠. يجمع قدرا كبيرا من المعلومات، ومضت حوالى خمس سنوات، عندما اكتشفت الشين بيت برئاسة هاريل، العملية التجسسية.

في ليلة ١٦ تموز ١٩٦٠، الصافية والباردة بعض الشيء، دق رجلان على باب فيلا سيتا في شارع هوريب، في احدى ضواحي حيفا، التي تواجه البحر الابيض المتوسط كما تواجه سان فرانسيسكو خليجها. كان احد الرجلين عميل شين بيت وكان الاخر يعمل مع الشعبة الخاصة للشرطة الوطنية، فاقتادا سيتا لتوجه اليه اتهامات بالتجسس.

صدم اعتقاله اصدقاءه وطلابه وزملاءه في مدرسة تخنيون والقيادة السياسية لاسرائيل، ولم يستطيعوا تصديق الاتهامات، لكن عندما حضر بعضهم محاكمته صدموا مرة أخرى عندما سمعوا مدى خطورته كجاسوس.

كان تركيز سيتا على لجنة الطاقة الذرية الاسرائيلية برئاسة البروفسور بيرغمان، وسواء كانت صدفة أو لم تكن، جاء اعتقال سيتا قبل يومين من تشغيل مفاعل اسرائيل الذري التجريبي، ويقارن المحللون الاسرائيليون نشاطاته بنشاطات جوليوس واثيل رونزنبرغ في الولايات المتحدة وكلاوس فوش في بريطانيا اللذين أفشيا اسرار بلديهما الذرية للكتلة السوفياتية.

حكم على سيتا بالسجن خمس سنوات، غير ان اسرائيل عفت عنه بسرعة ليبدأ حياة اكاديمية جديدة في المانيا الغربية.

قام هاريل والاجهزة السرية الاسرائيلية بمحاولات لاصلاح الاضرار التي لحقت بسجلهم كصائدي جواسيس، التي كانت معصومة عن الخطأ الى ان ظهرت قضية سيتا، فادعوا انه مجرد سمكة صغيرة سقط في التجسس بسبب الابتزاز، عندما هددت الشرطة التشيكية السرية بايذاء والده الذي كان ما يزال يعيش هناك، وأصرت رواية هاريل على ان سيتا قد زود الشيوعيين بمعلومات غير هامة، لم تمسّ الامور النووية، كما لام الاف بي آي لعدم اعلام اسرائيل بكل ما كانت تعرفه عن سيتا، ولو ان الشين بيت علمت في الوقت المناسب لاستطاعت ان تقبض عليه في وقت أبكر.

استطاع هاريل ان يجد العزاء والنجاح في جهوده المتواصلة لاحضار مواطنين جدد الى اسرائيل، فالى جانب انشغاله باصطياد المدسوسين ومطاردة الجواسيس، كانت الهجرة اليهودية احد اهتمامات هاريل الثابتة، فأول رئيس للموساد، روفن شيلوه، ادخل مجتمع المخابرات الى مهمة الهجرة لكن هاريل طورها الى فن جميل.

بعد بضع سنوات من التوقف عن النشاط نسبيا، على صعيد الهجرة طرأت في عام ١٩٥٣ صحوة للوعي العرقي في المجتمعين اليهوديين الكبيرين اللذين كانا رصيدا للمواطنين الاسرائيليين في المستقبل في الكتلة السوفياتية والعالم العربي.

وجد شاؤول افيغور، رئيس آليه ب المخضرم، نفسه دون وظيفة، عندما الغيت وكالة

الهجرة السرية في عام ١٩٥٢، وعاد الى كينيريت، الكيبوتس الذي كان يعيش فيه عند بحيرة طبرية، وشعر بالاحباط بعد عقدين من الخدمة النشطة والسرية، وحصل افيغور على بعض المساعدة من صهره، وزير الخارجية موشي شاريت، الذي اصبح رئيساللوزراءفي كانون الاول **١٩٥٣** عندما بدأ بن غوريون تغيبا امتد سنتين عن الوظيفة، اتصل شاريت هاتفيا بايسر هاريل وطلب من الميمونه ان يسدي معروفا لافيغور، فقد قال رئيس الوزراء الجديد: أعد شاؤول الى العمل.

كان هاريل مترددا لكن لانه اراد الحفاظ على علاقات ودية مع شاريت، وافق على التأسيس الصامت لمنظمة جديدة اسميت «مكتب الارتباط» كان افيغور رئيسها، لكن الغموض اكتنف بعض التفاصيل مثل الجهة التي ستكون الوحدة مسؤولة أمامها، وحمل افيغور لقب مساعد وزير الدفاع للشؤون الخاصة، لكن مكاتب الوحدة كانت في وزارة الخارجية، وكانت من ناحية ادارية جزءا من مكتب رئيس الوزراء.

كانت الواجبات الاولية لمكتب الارتباط توجيه الصراع، داخل اسرائيل وخارجها، من أجل السماح لليهود بمغادرة الاتحاد السوفياتي، حين تضمن الوحدة ان تلتقي كل الجهود الرامية الى تحقيق ذلك الهدف تحت سقف واحد.

لم يكن هنالك اية منافسات أو مجادلات حقيقية بين وكالات المخابرات المختلفة تحول او تؤخر ميلاد وكالة متخصصة، فقد كان احضار اليهود السوفيات الى اسرائيل مهمة متفقا عليها، ونتيجة حقيقية للوحدة والهدف المشترك.

لم يكن التوقيت قضية صدفة فقط، او اسداء معروف لافيغور وصهره شاريت، بل كان حسابا سياسيا هادئا، فطالما حافظت اسرائيل على علاقات طيبة مع موسكو والدول التي تدور في فلكها، فان اسرائيل لم ترد اغضاب الكتلة السوفياتية، وحاولت التقليل من القضية اليهودية، الا ان قادة اسرائيل قرروا بعد الحرب الكورية تبني توجه موال للغرب بشكل واضح، وشعروا انهم لن يخسروا شيئا وكان هذا صحيحا بصفة خاصة عندما توقفت الهجرة من هنغاريا ورومانيا وبولندا وظهرت تقارير مزعجة عن اللاسامية في ظل ستالين.

حتى يقوم مكتب الارتباط بمهمته ـ كما ظهرت من لقبه ـ المتمثلة في الاتصال باليهود، فقد بعث المكتب دبلوماسيين الى الاتحاد السوفياتي الذي كان يضم ثانية اكبر جالية يهودية في العالم: ثلاثة ملايين، أما اول جالية فكانت في الولايات المتحدة وعدد افرادها ستة ملايين.

اختار افيغور ممثليه بكل عناية، فقد توجب اولا ان يكونوا متطوعين يبدون «دافعا صهيونيا كبيراً» وكان يجب ان يعرفوا التقاليد والعادات اليهودية، لأن كثيرا من عملهم يتكون من

مقابلات في الكنس مع اليهود، ولم يكن يمكن تلطيخ سمعة اسرائيل بأن يكون لها ممثلون غير مؤهلين للصلاة الارثوذكسية.

كان يجب ان يكون دبلوماسيو مكتب الارتباط شبانا نسبيا ليستطيعوا احتمال المحن الجسدية والعقلية التي تسببها مهماتهم، ومع ان التواجد في موسكو قد لا يكون مزعجاً كثيرا الا ان هؤلاء الرجال والنساء كان عليهم ان يسافروا الى كل انحاء الاتحاد السوفياتي عبر طرق بعيدة مرهقة، وكان يفضل المتزوجون، فلم تكن اسرائيل تريد ايّ اعزب في سفاراتها، لأنها كانت تشعر بأنهم قد يكونون اضعف امام الاغراء الجنسي، وكان على المرشحين ان يتحدثوا الروسية بطلاقة بسيطة على الأقل.

كان احد رجال افيغور في موسكو اريه (لوفا) ايلياف، الذي كان ذا خبرة طويلة مع آليه ب كمبعوث سري، وتم ارساله الى روسيا في صيف ١٩٥٨، كسكرتير ثان للسفارة الاسرائيلية، وبالاضافة الى واجباته كعضو في الفريق القنصلي، الذي يتعامل مع قضايا الممتلكات والقضايا الثنائية الأخرى، فقد كشف ايلياف في مذكراته ان عمله كان يشمل دسّ تقاويم سنوية يهودية بحجم الجيب او قواميس روسية عبرية صغيرة في جاكيتات اليهود في الكنس، وكان الدبلوماسيون يوزعون كتب الصلاة والتوراة والصحف الاسرائيلية وكتبا باللغة العبرية مع أنهم كانوا يعرفون ان السلطات السوفياتية تعتبر هذه المواد «دعاية مناهضة للدولة».

كانت الكي جي بي تعرف وظيفة ايلياف، ورتبت الشرطة السرية لاغوائه. وبينما كان ذات يوم متوجها من موسكو الى جامعة لينينغراد لاحظ ايلياف شابة جذابة جدا في محطة القطارات في العاصمة، كانت ذات مسحة اوروبية تندر في موسكو، وكان من الصعب مقاومة النظر اليها. والتقى بها ذات مساء في الفندق في لينينغراد، ومع انه كان متأكدا من ان الشابة قد ارسلت لاغرائه وايقاعه في حبائل الكي جي بي الابتزازية، فقد قرر ايلياف انه لن يتضرر اذا غازلها وكان يثق بأنه يستطيع الصمود امام اغراء آخر.

طلب ايلياف من المرأة الغامضة ان ترقص معه،فاستجابت بحماس، ولم يكن الاسرائيلي قد جرب ذلك النوع من رقصة التانغو التي رقصها تلك الليلة، وشعر بدفئها عندما التصق بها وكانت القبلات الحارة على شفتيه دعوة لمزيد من المتع.

عند هذا الحد قرر ايلياف انه ذهب الى ما هو ابعد من المطلوب، وقد تصبح تلك اللعبة خطرة، فترك المرأة وخلا بنفسه في غرفته في الفندق. وسّد الباب حتى الصباح، كان يعرف انه لو ضبط مع تلك المرأة فان الأحداث التي قد تتلو يمكن ان تشمل تهديدا من زوج مخدوع بقتله، وتدخل «موظفي الفندق» و «ترتيبا» يمكن ان يتطلب من ايلياف ان يصبح مدسوسا للكي جي بي في سفارته.

وكان هنالك اسلوب سوفياتي اخر يتمثل في استخدام الات تصوير خفية لتصوير اهداف استراتيجية وهي تمارس الجنس، ثم يستخدمون الفيلم في الابتزاز. وبناء على قصة انتشرت بين الدبلوماسيين الاسرائيليين وغير الاسرائيليين، كان للرئيس الاندونيسي سوكارنو علاقة غرامية مع احدى عميلات الكي جي بي، لكن عندما اطلعه العملاء السوفيات على الصور الفاضحة لم يبد على سوكارنو اي قلق، ويقال انه اشار الى الصور قائلا: اريد ست نسخ من هذه الصورة ودزينة من تلك .

جاء انتباه المخابرات السوفياتية الخاص لدبلوماسيي مكتب الارتباط نتيجة تأكد الكي جي بي ان هؤلاء الاسرائيليين جواسيس، ولذلك حاول السوفيات الحصول على معلومات عنهم حتى قبل مغادرتهم لاسرائيل للقيام بمهامهم.

في آذار ١٩٥٨ ، اعلمت اسرائيل السفارة السوفياتية في تل ابيب بأن العقيد موشي غات قد ارسل للخدمة كسكرتير ثان في سفارة اسرائيل في موسكو، وطلب مكتب الارتباط التأشيرة، فاستفسر دبلوماسي سوفياتي، وكان عميلاً سريا، من احد مخبريه الاسرائيليين للتأكد من خلفية غات، ومن سوء حظ رجل الكي جي بي فان الاسرائيلي الذي لجأ اليه كان عميلاً مزدوجا قام على الفور بابلاغ الضابط المسؤول عنه في دائرة مكافحة الجاسوسية التابعة للشين بيت.

عندما وصل دبلوماسيو مكتب الارتباط الى الاتحاد السوفياتي، قامت السلطات هناك بفرض قيود صارمة على السفر وحاولت منعهم من الاجتماع باليهود. وهنا يقول ايلياف: كان رجال الكي جي بي يتابعوننا اربعا وعشرين ساعة في اليوم، حتى داخل بيوتنا وغرفنا، وكانوا يلجأون الى المراقبة المكشوفة والمراقبة الخفية والمراقبة الالكترونية، وكانت كل هذه الوسائل متوفرة للكي جي بي ولم يكن هنالك احد من موظفينا لم يخضع لتدابير اكثر اثارة: بدءاً «بفضائح» مرسومة ضدنا من قبل «مواطنين غاضبين» الى القيام بهجمات وتهديدات بالسجن.

كانت السلطات السوفياتية تدرك ان الكنس، في غياب اية مؤسسة يهودية اخرى، قد اصبحت اكثر من مجرد بيوت صلاة، وحاولت ان تبقي الدبلوماسيين الاسرائيليين بعيدين عن اليهود القلائل الذين كانوا يحضرون صلاة السبت والأعياد.

وفي قضية اخرى، كرست الكي جي بي انتباها خاصا لالياهو هازان، وهو سكرتير ثان آخر في السفارة في موسكو، وادرك الاسرائيلي ان الخادمة التي تعمل في شقته كانت عميلة للكي جي بي، ولم يكن هذا امرا غير مألوف لكن معاناة زوجة هازان من تسمم غذائي هو الأمر الشاذ، فقد اصيب بآلام معدة بعد وصول ايلياهو وروث هازان الى اوديسا، على البحر الأسود، لمقابلة عميل يهودي في ايلول ١٩٥٥ ، ونقلت روث على عجل الى مستشفى بعد لحظات من مغادرة زوجها الى اجتماعه.

عندما عاد الى فندق اوديسا، اوقف رجال الكي جي بي هازان وطلبوا منه ان يرافقهم، واحتج على احتجازه وقال انه يتمتع بالحصانة الدبلوماسية لكن رجال الشرطة السرية تجاهلوا الاعراف الدولية واتهموه بالتورط في نشاطات مناهضة للسوفيات، وقالوا له ان بعض الكتب التي اعطاها لليهود السوفيات دعاية محظورة، وتم استجواب هازان لساعات كثيرة وركز الاستجواب على اجتماعاته مع اليهود.

صّعد السوفيات الضغط وطالبوا هازان بالعمل لهم، وقيل له ان الخادمة التي تعمل في بيته حامل بطفل منه وهددوا باذاعة الفضيحة اذا لم يوقع على بيان بالتطوع بالتجسس لهم، وقالوا له: اذا لم تتعاون فان زوجتك لن تشفى من متاعب معدتها»

وعندئذ اتضح انها تعرضت للتسميم.

انهارت مقاومة هازان ووافق على ان يكون عميلاً للسوفيات، واعطته الكي جي بي ثلاثة ايام من الجلسات، ودفعة اولى مقدارها ١٥٠٠ روبل بدل نفقات، وكانت روث تشعر بأنها افضل، وعادا الى موسكو من اوديسا، وطوال يومين عانى هازان من تأنيب ضمير واشتمّ زملاؤه في السفارة بأنه خائف وعصبي، فدعاه السفير يوسف افيدار للتحدث معه، واعترف هازان بما فعل.

وبمرافقة دبلوماسي من زملائه، ركب هازان اول طائرة متوجهة الى اسرائيل وطرد من وزارة الخارجية، ومع هذا لم يتم اتخاذ اي اجراء تأديبي ضده، ومع اواخر عام ١٩٥٥ كتب موشي شاريت في مذكراته الخاصة (وكان قد عمل كوزير للخارجية فقط): من العار ان احد رجالنا لم يستطع ان يقاوم، لكنه اذعن للتهديدات وانهار، «انها وصمة عار في حقنا».

على صعيد الهجرة السرية كان الدبلوماسيون البدلاء لاسرائيل يبحثون عن طرق للعودة الى العمليات الصاعقة التي اخرجت يهود العراق واليمن وكان يتوقع ان تكون الموجة البشرية الكبيرة الثانية من الجزء السفارديمي - الشرقي - من العالم من مصر في تشرين الثاني ١٩٥٦.

في بداية حملة السويس/سيناء بعث شاؤول فريقا صغيرا من العملاء الى مصر، وكان محور مهمتهم ان تستغل العمليات العسكرية المشتركة مع البريطانيين والفرنسيين لأقامة اتصال مع اليهود المصريين وترتيب رحيلهم السري الى اسرائيل، وفي ٩ تشرين الثاني، غادر لوفا ايلياف وابراهام دار، وكانا يديران شبكة التجسس الاسرائيلية عام ١٩٥١، متوجهين الى مصر، ومأمور لاسلكي من امان - وكانوا يرتدون بدلات فرنسية ويطيرون في طائرة عسكرية فرنسية الى بور سعيد، عند مدخل قناة السويس.

بدأت عملية توشيا، اي الخداع، على امل ان يستطيع عملاء المخابرات الوصول الى يهود مصر واقناعهم بمغادرة مصر، وكانت الخطة تقضي ان يتقدم ايلياف ودار ومأمور اللاسلكيّ الى

جانب القوات الفرنسية والبريطانية لدى توجهها الى القاهرة والاسكندرية التي كانت تضم جاليات يهودية ضخمة تعدّ بالالاف، وعندما اوقفت القوة الانجلو فرنسية غزوها وجد الاسرائيليون الثلاثة انفسهم محشورين في بور سعيد ـ حيث لم يكن فيها الا مئتا يهودي، معظمهم مسنون.

ذهب ايلياف ودار الى كنيس محلي، حيث اخفيا هويتهما وعرضا ترتيب خروج مأمون من مصر، وايقن يهود بورسعيد ان الرجلين الفرنسيين اللذين التقوا بهما كانا عميلين سريين اسرائيليين، فحزم خمسة وستون يهوديا حقائبهم، وتم اخذهم الى رصيف الميناء حيث ركبوا في سفينتي انزال بحري فرنسيتين.

ابحرت السفينتان الصغيرتان مسافة بضعة اميال في البحر الأبيض المتوسط، حيث تواعدتا مع سفينتين من الاسطول الاسرائيلي الصغير، كانتا مموهتين كسفينتي صيد ايطاليتين، افروديت وكاستيلو ديل مير.

حمل البحارة الفرنسيون النساء والرجال المسنين من قوارب الانزال الى السفينتين الاسرائيليتين حيث استقبلهم عميل مخضرم لعمليات الهجرة التابعة لآليه ب في العراق، شلومو هليل، وبعد يومين، رستا في حيفا. وعاد ايلياف ودار ومأمور اللاسلكي الى اسرائيل بعد يومين، بنفس الطريقة التي ذهبوا بها الى مصر، بمساعدة المخابرات الفرنسية.

كانت شبه الهجرة من بور سعيد مجرد عملية صغيرة سهلة التنفيذ بفضل المساعدة الفرنسية، حيث ان الرحيل السري لليهود من اقطار اخرى شمل عشرات الالاف من الناس، وكانت المغرب مثالاً رئيسيا.

وفي ٢ آذار ١٩٥٦ انتهى الحكم الاستعماري الفرنسي في المغرب، والى تلك السنة، طوال ثماني سنوات، كانت ابوابها مفتوحة للخروج ورحل حوالي مئة الف يهودي مغربي الى اسرائيل. وفي الأيام الأولى من الاستقلال المغربي اذعنت الحكومة الجديدة لضغوط الدول العربية وحظرت رحيل اليهود، واعلن الرئيس المصري عبد الناصر ان المهاجرين اليهود يصبحون جنودا اسرائيليا يقتلون العرب.

كان مصير المئة الف يهودي المتبقين في المغرب موضوع قلق كبير في اسرائيل، وكان ايسر هاريل، الميمونه، قد تكهن بهذا قبل سنتين، عندما كانت المغرب ما تزال تحت الحكم الفرنسي، واستعداداً لانقطاعات غير متوقعة في حملة الهجرة، كان هاريل قد انشأ جهازاً سريا للنشاط الصهيوني في المغرب، حيث جندت الموساد فريقاً من اعضاء كيبوتس وضباط احتياط من اصل مغربي كانوا يتحدثون العربية والفرنسية، وكان الجميع سيصبحون في وحدات مقاتلة حيث كان

لديهم خبرة في النشاطات السرية.

كان ضابط المخابرات المسؤول عن الشبكة الاسرائيلية في المغرب شمويل توليدانو، وكان يعرف لدى زملائه باسم امنون، وهو لقب ظل يحمله عندما ترك صفوف امان العسكرية، ليصبح عميلاً للموساد، في عام ١٩٥٤، وقد عمل توليدانو تحت غطاء دبلوماسي في السفارة الاسرائيلية في باريس، حيث ركّز على حماية المصالح اليهودية في كل المعمورة ـ وهو واجب ليس كواجب اية وكالة مخابرات اخرى في العالم.

كان الهدف الرئيسي لوحدة توليدانو، وكان اسمها الرمزي «الاطار»،تنظيم يهود مغاربة شبان للدفاع عن جاليتهم، وعندما انتهت الهجرة القانونية تحت الرعاية الفرنسية في عام ١٩٥٦، كلفت وحدة الاطار بالعثور على طريقة لتجديد الهجرة بوسائل غير مشروعة. وكان هذا تكريراً للنمط الذي نجح في العراق الى ان انهارت الشبكة هناك. ومع هذا، استطاع عملاء الموساد في هذه المرة ان يتعلموا من اخطاء الماضي، فكانوا مجهزين بشكل افضل للمشروع، وعلاوة على النمط الذي ابتدعه شيلوه في عام ١٩٥٢، كانت مسؤولية ادارة الاطار تتحملها الموساد والوكالة اليهودية، وعندما تعالت الشكاوى قطعها هاريل ـ حيث لم يرد ان يسقط في مصيدة الانشقاق على غرار ما حدث في العراق ـ بطرد نائب توليدانو، شلومو هافيليو، في شباط ١٩٦٠، وتعيين اليكس غاتمون قائد الاطار يعمل سرّا في المغرب.

في هذا الوقت كان حوالي ١٨ الف يهودي قد غادروا المغرب الى اسرائيل، واقام عملاء الموساد مراكز في المدن الكبيرة للدولة الافريقية الشمالية الجديدة، وبدأوا يستخدمون وثائق مزورة وطرق خداع اخرى لترتيب رحيل اليهود الراغبين في الهجرة الى اسرائيل.

وتلقى اليهود تعليمات بالتجمع في اماكن مختلفة في المدن الكبيرة، ومن هناك كان يمكن نقلهم الى الحدود بالسيارات او الشاحنات.ولتسهيل الطريق، دفعت الموساد نصف مليون دولار كرشاوى للمسؤولين المغاربة، وكان الطريق المفضل عبر طنجة، التي كانت مدينة دولية، ومن هناك الى اسرائيل، ثم استخدمت مدينتان اسبانيتان كقواعد للمشروع، الذي لقي تعاوناً كاملا من فرانكو، الذي كان يتصرف، حسبما اعتقدت الموساد، نتيجة الشعور بالذنب ازاء علاقات اسبانيا الوثيقة مع هتلر وموسوليني وازاء طرد اليهود الاسبان في عام ١٩٤٢.

واشترت الموساد معسكرا سابقا على الساحل الشرقي لاسبانيا لكنه كان في مستعمرة جبل طارق البريطانية، كانت الارضية والثكنات قد حولت الى معسكر استيعاب للمهاجرين المغاربة، وكانت السلطات البريطانية تعرف كيف كانت قاعدتهم العسكرية تستخدم لكنها غضّت الطرف. وكانت الوكالة اليهودية تتولى نقل المهاجرين بعد تجمعهم في المعسكر الى ميناء مرسيليا الفرنسي ثم الى اسرائيل على ظهر سفن اكبر.

وقعت مأساة في ١٠ كانون الثاني ١٩٦١، حين تعرضت سفينة صيد تسمى بيسكيس، محملة باللاجئين اليهود المهرّبين، لهبوب عاصفة بين الساحل المغربي وجبل طارق، وغرق ثلاثة واربعون رجلا وامرأة وطفلا مما اثار ردة فعل شديدة من قبل السلطات المغربية، فكشفت الشبكة السرية، واعتقلت عشرات النشطاء الصهاينة وعرضت العملية كلها للخطر.

طلبت اسرائيل من فرنسا والولايات المتحدة، والمنظمات الدولية، الضغط على المغرب، ومن حسن الحظ ان الملك الحسن قد توج في اوائل اذار وكان حريصا على كسب التأييد الغربي، فتعاون الملك، فكان لغرق السفينة تأثير ايجابي على تعجيل الهجرة اليهودية من المغرب وجعل المشروع كله افضل تنظيما.

اعطيت العملية الجديدة لترحيل اليهود المغاربة اسما رمزيا توراتيا، ياخين، وهو اسم احد العمودين اللذين كانا يدعمان الهيكل الذي بناه الملك سليمان في القدس وكانت اسرائيل تعتبر الهجرة عمودا رئيسيا يدعم وجود اسرائيل.

كانت عملية ياخين مشروعا مشتركا للمغرب واسرائيل وفرنسا، وذهب عملاء الموساد الى كل حي يهودي في المغرب، ودعوا الناس للذهاب والعيش في اسرائيل، بل ان رجال الموساد اعطوا تعليمات للوصول الى نقاط التجمع وكانوا ينقلون اليهود بالباصات والشاحنات الى الموانىء المغربية، حيث كانت السفن والطائرات تنقلهم، وقد ساعدت فرنسا في تنسيق ترتيبات النقل.

غادر اكثر من ثمانين ألف يهودي المغرب تحت لواء ياخين، كما افرز التعاون الاسرائيلي المغربي نتيجة غير مألوفة في بلد عربي آخر - تونس، ففي صيف ١٩٦١ طالبت الحكومة التونسية بان تغلق فرنسا، دولة الاستعمار السابقة قاعدتها البحرية في بنزرت، وفي الازمة التي تلت، اعتقل التونسيون بعض المواطنين الفرنسيين بالاضافة الى بضعة عشرات من اليهود في بنزرت.

بدأ عملاء الموساد في المغرب يخافون على يهود تونس ورتبوا لسفن حربية فرنسية - على غرار بورسعيد - للابحار من الساحل الافريقي الشمالي ونقل الف يهودي من ساحل بنزرت، وقد نقلوا اولا الى فرنسا ثم الى اسرائيل.

بينما كانت العملية المغربية تتم بشكل جيد، كان على هاريل ان يتحول الى اهتمامات اخرى، ومن بينها اعتقال ومعاقبة الرجل الذي انحرف عن المعايير الشخصية التي وضعت لعملاء المخابرات الاسرائيلية، وكان اسمه موردخاي (موتكي) كيدار.

كانت المخابرات العسكرية قد جندت كيدار في صيف ١٩٥٦، لمهمة في مصر، وكان العقيد يوفال نيمان خبير امان التكنولوجي، وكان معنيا باختراع وتطوير اساليب تجسسية جديدة، وقد اعطى كيدار الموجز النهائي في مقهى طعام توف أي الطعم اللذيذ، في تل ابيب وكان مقررا نقل

العميل الجديد الى الارجنتين اولا، لقضاء شهور كثيرة لخلق قصة تغطية، قبل التسلل الى مصر لصالح دائرة العمليات التابعة للوحدة ١٣١.

ولد كيدار في بولندا في اوائل الثلاثينات باسم موردخاي كرافيتزكي، وتخلت عنه امه، وحمله جده الى فلسطين، وعاش في الخضيرة، وهي بلدة زراعية على الطريق الساحلي بين تل ابيب وحيفا. وقد اظهر في شبابه علامات ذكاء عال، وصفات قيادية، وبنية قوية، مع ميول اجرامية كبيرة.

في حرب عام ١٩٤٨ خدم كرافيتزكي/كيدار في الاسطول الاسرائيلي الصغير، وفي اوائل الخمسينات اصبح قائدا للحركة السرية العنيفة في الخضيرة، وهي بلدة شمالي تل ابيب، وكانت عصابته من المجرمين تسرق السيارات وتتعامل بالممتلكات المسروقة، وقد ربطت الشرطة اسمه بالسطو المسلح والقضايا الاجرامية، واعتقل كيدار، لكن لم يكن لدى الشرطة ادلة كافية لملاحقته، وكان سكان المنطقة يخافون من كيدار اكثر من خوفهم من الشرطة، وقد رفضوا التعاون مع السلطات.

انتقل الى تل أبيب، واصبح يتردد على المقاهي البوهيمية والمومسات وعاش حياة ترف وبذخ دون ان يعرف احد من اين يأتي بالمال، وفيما بينه وبين نفسه كان متوترا ومتضايقا وبدأ يذهب الى الطبيب النفساني، الدكتور دافيد رودي.

ولم يكن كيدار يعرف ان الطبيب كان من المخابرات، وكان مشهورا بمقابلاته الاولية التي يجريها مع مجندين محتملين حيث يعضّ على غليونه ويطرح سؤالا مثل: كم مرة في الشهر تمارسين الجنس؟ او كم مرة كنت تستمنين قبل ان تفقدي عذريتك؟ او هل لك ان تخبريني لماذا ترغبين في مهمة قد لا تعودين منها؟

حقق الدكتور رودي معجزة الاعلان عن ملاءمة كيدار للمجتمع البشري، ثم قدمه الى الجنرال ياهو شافات هاركابي، رئيس امان، الذي جنّد كيدار للوحدة ١٣١، وفيما يتعلق باصدقائه واسرته، اختفى كيدار بعد حملة السويس/ سيناء في عام ١٩٥٦، وبدأت زوجته وابنه، اللذان تخلى عنهما، بتلقي بطاقات منه من اماكن مختلفة في العالم.

في تشرين الثاني ١٩٥٧ استدعي كيدار الى اسرائيل، فطار بالدرجة الأولى على طائرة العال من باريس، واخذ الى غرفة صغيرة في مطار اللد، وطلب منه ان يكتب تقريرا روتينيا عن نشاطاته وبشكل غير متوقع، دخل الغرفة ثلاثة رجال شرطة مسلحين واعتقلوه.

وطوال ثمانية عشر شهرا، حتى ايار ١٩٥٩، لم يعرف احد ما جرى مع موتكي كيدار، فقد اختفى مرة اخرى، وفي هذه المرة دون اي اثر من البطاقات، وكما لو ان الارض ابتلعته.

حتى الحراس في سجن الرملة لم يعرفوا من هو نزيلهم الجديد، او لماذا يوضع في سجن انفرادي، وبعد ستة اشهر سمح له بالسير وحده في ساحة التمرينات لنصف ساعة يوميا، ونقل الى زنزانة اخرى، كانت اكبر، لكنه لم يستطع ان يرى اي سجين آخر، وبدأت الاشاعات تسري، داخل الرملة وخارجها، حول السجين «س» الذي لم يعرف بأي اسم آخر.

يقول افري ال ـ اد/ فرانك الضابط السابق في الوحدة ١٣١ في مصر الذي نجا من فضيحة لافون لكنه سجن في الرملة، يقول انه كان يعرف هناك باسم «س ٤»، وفي الزنزانة المجاورة، كان موتكي كيدار، وبعد اشارات عديدة غير كاملة نتيجة الرقابة، وردت في الصحافة الاسرائيلية، اكدت الحكومة ان رجلا بلا اسم قد اعتقل لجرائم كثيرة، وقد جرت محاكمته خلف الابواب المغلقة وحكم عليه بالسجن عشرين سنة.

رفض كيدار الاعتراف بالجرائم التي اتهم بها، ولم ينهر، وحافظ في السجن على لياقته البدنية، واصبح من اتباع آين راند وفلسفتها، وبعد ان قضى سبع عشرة سنة في السجن ـ قضى منها سبع سنوات بلا رفيق ـ افرج عن كيدار في ١٩٧٤ وطالب بتحقيق جديد معه، لكن الشرطة والمدعين ومجتمع المخابرات رفضوا طلبه.

حافظت الحكومة الاسرائيلية على صمتها المطبق حول قضية كيدار والتي ظلت احد اكثر الاسرار كتمانا، وما ارادت السلطات ان تبقيه طيّ الكتمان هو حقيقة ان كيدار لم يحكم عليه بسبب احكام اجرامية فقط بل بسبب جريمة ارتكبت في الخارج بينما كان في مهمة لمجتمع المخابرات.

ففي الارجنتين قتل كيدار رجل اعمال يهوديا في تشرين الثاني ١٩٥٧، وسرق امواله، وقد طعن الضحية ثماني طعنات وحشية، وكان عميلا لكيدار، الشخص الذي كان يفترض ان يساعد في بناء قصته الملفقة قبل القيام بالمهمة وقد وجد معظم الاموال المسروقة في جيوب كيدار عندما طار الى تل ابيب.

لم يكن بالامكان معرفة الطبيعة الاكيدة للشجار او لدافع القتل بسبب السرية والاحراج اللذين ما يزالان يحيطان بكيدار وجريمته. فمن الواضح انه كان اختيارا سيئا لمهمة مخابرات هامة لكن رئيس امان الذي اختاره البروفسور هاركابي، داعية السلام النشيط في القدس، يقول «ان الناس الذين يجندون لهذه العمليات ليسوا منزهين».

كشف ايسر هاريل انه تم اعطاء اعتبار كبير لقتله لتغطية الجريمة، وكان يمكن ان يكون هنالك فرصة ضئيلة لصدام دبلوماسي مع الارجنتين او اثارة اي ضيق لمجتمع المخابرات، وقد كتب هاريل يقول «كنت اصرّ من البداية على الا نتولى القانون بانفسنا، فهنالك محاكم وقضاة».

وأضاف هاريل بافتخار خلال عهدي لم يتم اعدام اي خائن.

من وجهة نظر هاريل وفرت قضية كيدار دليلا جديدا على مقولته السابقة بان ادارة العملاء السريين مهمة اخطر من ان تترك لامان، فاراد هاريل ان تكون كلها بيد الموساد، واخيرا تم عقد صفقة حث ظلت مسؤولية العمليات في الاقطار العربية بيد المخابرات العسكرية، بينما سمح لهاريل بان يبسط دائرة عملياته على باقي اقطار العالم.

اسس هاريل وحدة العمليات بحماسه المعهود، فكان على صعيد عملي مسؤولا عن الشين بيت والموساد، واصرّ على ان تكون الوحدة الجديدة متاحة للوكالتين، وان تستخدم افضل الموارد البشرية لديها، وكان يقود هذه الدائرة رافي ايتان، وابراهام شالوم، الذي كان يسمى في السابق بن دور الذي قام فيها بعد بعمليات ذكية وفخرية.

استمتع هاريل في السنوات اللاحقة باستخدام لعبته الجديدة، وعندما بدأت دائرة العمليات بالعمل، كان الميمونه على المسرح يتفقد الخرائط والخطط ويشرف على التغييرات التي تطرأ في آخر لحظة، ومعايشة الاثارة، وبدأ عملاؤه يعملون في كل انحاء العالم: لندن، باريس، جنيف، روما، انتويرب، جوهانسبرغ ونيويورك.

وبعد ان اصبح تحت امرته ايتان وشالوم وعملاء ميدانيون آخرون، استطاع هاريل ان يلاحق هدفا لم يكن بامكان موارده المتوافرة ملاحقته، فمع ان قلة من مجرمي الحرب النازيين وقفوا متهمين في محاكم نورمبرغ عام ١٩٤٦، فقد هرب الالاف من يد العدالة. وقد تسامحت المخابرات الغربية مع بعضهم لمساعدتها في محاربة الشيوعية، فآمن هاريل بان على اسرائيل ان تقدم أسوأ النازيين للعدالة.

كان معروفا ان اثنين معينين ينبغي الامساك بهما: ادولف ايخمان، مدير «الحل النهائي» لهتلر، الذي تأكد من قتل ستة ملايين يهودي، والدكتور جوزيف مينغيلي، الذي اشتهر بتجاربه الطبية في معسكر الموت في اوشوتز.

اوضح هاريل لعملائه في المخابرات الالمانية الغربية ان المطلوب الحصول على اية معلومات عن ايخمان ومينغيلي، وفي اواخر عام ١٩٥٧ وصلت معلومة من فريتز باور، المدعي العام اليهودي في هيس، وظهر انها مقنعة عندما ذكرت ان ايخمان يعيش في الارجنتين.

ارسل هاريل اعضاء من دائرة العمليات الجديدة الى الارجنتين في عملية بحث بطيئة ودقيقة عن مهندس الجرائم النازية الضخمة وكانت الارجنتين ابعد نقطة يصل اليها رجال المخابرات الاسرائيلية، وكان ارسال فرق العملاء الى بوينس ايرس وأماكن اخرى في أميركا الجنوبية باهظ التكاليف، لكن هاريل كانت لديه ميزانية لوحدة عملياته واخذ ينفق أموالها في هذا

المجال.

عند بداية عام ١٩٦٠، وبناء على معلومات جديدة من باور في المانيا عثر رجال هاريل على ايخمان، وكان يعيش مع زوجته واولاده الاربعة في بوينس ايرس تحت اسم ريكاردو كليمنت، وقام هاريل باعلام بن غوريون الذي كان رئيسا للوزراء وحصل على الموافقة باختطاف ايخمان لتقديمه الى المحاكمة في اسرائيل.

اختير اكثر من عشرين رجلا وامرأة واحدة على الاقل من الموساد والشين بيت كفريق اختطاف، بما في ذلك ادوار مساندة ومراقبة، ونبههم هاريل الى ضرورة ضبط عواطفهم، وطار الميمونه نفسه الى باريس لاقامة مركز انطلاق للاختطاف ثم ذهب الى الارجنتين ليتولى المسؤولية الشخصية والكاملة.

توجه امهر مزوّر في الموساد الى اوروبا حيث اعدّ جوازات سفر مزورة ووثائق اخرى لجميع العملاء، حتى يستطيعوا التوجه الى بوينس ايرس على رحلات.منفصلة تحت اسماء لا يمكن استخدامها مرة اخرى، وحتى لا يترك اي اثر فقد ذهب المزور الى الارجنتين بكل اقلامه واوراقه الخاصة لتوفير هويات جديدة لجميع الاسرائيليين ولا يخمان نفسه حتى يمكن تهريبه.

تم استئجار ما لا يقل عن نصف دزينة من «البيوت المأمونة» والمزيد من السيارات في بوينس ايرس، في كابوس لوجيستيكي محتمل تم التصدي له بسهولة كبيرة، واختيرت عميلة للدور التقليدي، كربة بيت، لطبخ الطعام وترتيب السكن حيث سيتم احتجاز السجين النازي، وقدْ كان لايتان وشالوم وزميلهما زفي مالشين شرف القبض على ايخمان، وفي ١١ أيار ١٩٦٠، امسكوا به قرب بيته والقوا به في المقعد الخلفي للسيارة، ولم يضطر الاسرائيليون الى العراك مع «كليمنت» حيث اعترف على الفور بكونه ايخمان.

وقد تم توقيت الاختطاف ليتفق مع الزيارة الرسمية لوفد رسمي الى الارجنتين، حيث كان كثير من الضيوف الاجانب يشاركون في احتفالات الارجنتين بعيد ميلادها الماية وخمسين، وطارت طائرة العال حاملة الوفود في ١٩ أيار لتعود الى تل ابيب في اواخر الليلة التالية، وقد قال هاريل وبعض رجاله فيما بعد ان اصعب مهمة واجهوها هي اطعام ايخمان ورعايته طوال اكثر من تسعة ايام، بانتظار رحلة جوية الى اسرائيل، واستجوبوا سجينهم، ووقع على بيان بموافقته على المحاكمة في محكمة اسرائيلية.

فوجىء المختطفون عندماسمعوا ايخمان يردد صلاة بالعبرية، الشيما، التي كان اليهود يرددونها لدى توجههم الى غرف الاعدام.

وحسبما يروي هاريل «قال له ايخمان انه صديق لليهود، وغضبنا ونسي بعض رجالي

الاوامر بعدم لمسه فقد ارادوا قتله، لكنهم لم يفعلوا، وبدأ يتوسل لهم.

وقال السجين انه سيكشف جميع اسرار هتلر اذا لم يقتله الاسرائيليون، فرّد هاريل بوعد بان يدافع عن ايخمان افضل محام خلال محاكمته.

قضى هاريل وقتاً قصيراً في البيت المأمون حيث كان ايخمان مقيدا الى سرير، ثم اخبر رجاله باماكن تواجده في ساعات معينة من اليوم. وسار من مقهى الى مقهى في العاصمة الارجنتينية.

اتخذ هاريل مقره في ٢٠ ايار في مقصف في مطار ايزيزا حيث جلس على طاولة مع المزور يتفقد ويوزع الهويات التي سيحتاج اليها عملاؤه للرحيل من بوينس ايرس.

وفي البيت المأمون كان ايخمان والرجال الذين سيرافقونه يرتدون ازياء موظفي العال، وغرز طبيب موساد متخصص في التخدير ابرة من المخدر القوي في ذراع ايخمان، ولم يثر الفريق أي انتباه حين ركبوا على الطائرة الاسرائيلية ـ مع شخصيات اسرائيلية غير مثيرة للشك كانت قد حضرت الاحتفالات، ومنها ابا ايبان الذي كان وزيرا للتعليم.

لم يخبروا طيار العال عن المسافر الذي معهم إلا بعد الاقلاع من مطار بوينس ايرس في الدقائق الاولى من ٢١ أيار، وبتوصية من هاريل تم الترتيب للتزود بالوقود من ابعد مدينة ممكنة، وكان ذلك في داكار، السنغال حيث لم يقم احد في افريقيا الغربية بتحريات عن ارجنتيني ـ الماني مفقود. وتم التزوّد بالوقود ووصلت الطائرة الخاصة التي تحمل النازي الى تل ابيب في السابعة من صباح ٢٢ أيار.

قال رئيس الوزراء بن غوريون امام الكنيست: ان اجهزة الامن الاسرائيلية عثرت على ادولف ايخمان وسوف يتم تقديمه للمحاكمة قريبا.

بدأت الاجراءات القضائية بعد سنة تقريبا، يوم ١١ نيسان ١٩٦١، وبتغطية صحفية وتلفزيونية عالمية اصغى «الرجل في القفص الزجاجي» الى الشهود الذين تحدثوا عن جرائمه وعن آلة القتل النازية، وقال ايخمان انه كان ينفذ الاوامر، ولكنه ادين على جرائم بحق الانسانية، وشنق في سجن الرملة في ٣١ أيار ١٩٦٢، وهو الشخص الوحيد الذي يشنق في اسرائيل، عدا عن الكابتن مائير توبيانسكي، الذي قتل بناء على اوامر رئيس المخابرات العسكرية ايسر بيري في ١٩٤٨.

وبعد مرور عقود تحدث هاريل كيف اقترب فريقه من القبض على جوزيف مينغيلي في نفس الليلة التي قبض فيها على ايخمان، ويقول زفي مالشين الذي اصبح فيها بعد كاتبا تحت اسم بيتر مان، انه ضغط على ايخمان للحصول على معلومات قائلا له: «اخبرنا اين صديقك مينغيلي لا بد

انك تعرف اين يعيش» ، لكن ايخمان اصّر على انه لا يعرف ، فكان على مالشين ان يخبر هاريل : لقد حاولت كل شيء ، اعتقد انه ليس لديه اية فكرة عن مكان وجود مينغيلي او انه لا يريد ان يقول شيئا» .

الا ان هاريل يقول انه يشك في أن ايخمان الذي كان يعيش في حيّ فقير، كان يلقى دعما من مينغيلي الذي كانت اسرته غنية جدا، وعلى اية حال فان العملاء الاسرائيليين كان لديهم عنوان يذهبون اليه: شقة فخمة في بوينس ايرس حيث كان مينغيلي يعيش، فتفقدوا البناية ليكتشفوا ان مينغيلي واسرته قد هربوا من الشقة قبل اسبوعين من اختطاف ايخمان. ويبدو ان الطبيب قد خاف من تقارير عن حديث لصائد نازيين في نيويورك افاد بان مينغيلي يمكن العثور عليه في العاصمة الارجنتينية ، ووفقا لحديث هاريل ، رحل الطبيب الى باراغواي ثم الى البرازيل .

استمرت محاولات القبض على مينغيلي وعندما ذكرت السلطات البرازيلية في عام ١٩٨٥ ان الطبيب النازي قد مات ، بعد سنوات من الاشاعات ، ارسلت الموساد اخصائي تشريح جثث لفحص الهيكل العظمي .

لم يأوى هاريل الى الراحة بعد انتصاره في قضية ايخمان وواصل الضغط للقبض على المزيد من مجرمي الحرب النازيين .

ان الاجهزة السرية للدول الاخرى لا تحاول القبض على شخص الا عندما يشكل ذلك العدو خطراكبيرا للدولة التي تدافع عنها الوكالات . كان هاريل يرغب في ان يشن الموساد عملية مطاردة كبيرة للمجرمين من اقطار اخرى عملوا في بلدان ثالثة او رابعة ضد فئة من الناس ـ وليس ضد المصالح الدفاعية او الامنية لدولة اسرائيل ، التي لم تكن موجودة عند ارتكاب تلك الجرائم .

وخرج هاريل بحل فريد في عالم لم يفعل شيئا ازاء النازيين فيما عدا ادانتهم في المحاكم . كان الاسرائيليون ينوون العثور عليهم ، واقام هاريل وحدة تنسيق خاصة ذات مهمة محددة وهي اصطياد النازيين الذين عذبوا اليهود وقتلوهم . وكان ضابط الموساد المسؤول شمويل توليدانو، الذي اثبت قدرته الهائلة على ترتيب هجرة اليهود المغاربة في اواسط الخمسينات .

ساعد المسؤولون الالمان الغربيون الاسرائيليين في جمع قائمة تضم عشرة من النازيين المطلوبين اكثر من غيرهم ، ومن بين اهداف اخرى بحثت وحدة توليدانو عن الدكتور مينغيلي ، ومارتن بورمان ، نائب هتلر ، ورئيس الغوستابو هنريك مولر ، وعن ليون دي غريلي ، وهو بلجيكي خدم بنشاط كضابط في قوات العاصفة النازية .

اثار البحث عن دي غريلي قضية غريبة ، فقد سمع عميل سابق في الشين بيت ، زواي

الدوبي، في اوائل ١٩٦١ ان الموساد تبحث عن النازي البلجيكي وحلم ادلوبي باختطاف المجد، فاتصل بايغال موسنسن وهو كاتب شهير وضابط سابق في قوة الشرطة، وجنده لعملية اختطاف - حيث اعطاه الانطباع بانها مهمة رسمية للحكومة.

كان الدوبي في ذلك الحين يعمل صحفيا غير متفرغ، واستخدم علاقاته لتجنيد اصدقاء قدامى في جهاز الامن الفرنسي، بمن فيهم الحارس الشخصي للرئيس ديغول، واملا في ان يمرّر قصته كنصّ لفيلم - وبعد ان تلقى دفعة مسبقة من مجلات كبيرة - فقد ذهب الفريق غريب التشكيل للعمل في اسبانيا، ولحقوا دي غريلي الى خلّيته قرب سيفيل، وهم يخططون لاختطافه، على غرار اختطاف ايخمان، وتسليمه للسلطات البلجيكية التي كانت قد اصدرت عليه حكما غيابيا بالاعدام، بل انهم املوا في ان يقودهم دي غريلي الى بورمان، لانهم اعترضوا رسائل بين الرجلين النازيين.

بعد عدة رحلات استطلاعية، اعتقل الدوبي وشريكه الفرنسي جاك فينستون بينما كانا يجتازان الحدود من فرنسا الى اسبانيا، يوم ١٤ تموز ١٩٦١، بسبب الاختطاف الفعلي، وبعد بضعة أيام احتجز رجال المباحث الاسبان موسنهون وهو على ظهر يخت كان مقررا ان ينقل دي غريلي المخطوف، وهنا يقول موسنهون: ربما كنا نتعرض للملاحقة طوال الوقت لان الدوبي كان ذا لسان طويل، كان يمكن ان يتحدث عن العملية هاتفيا، وكانت كل صديقاته يعرفن الموضوع، وكان له عدد كبير منهن.

سجن الاسبان الدوبي وفينستون وعذبوهما وحكموا عليهما بالسجن لمدة سبع سنوات، وكان موسنهون اسعد حظا حيث اطلق سراحه بعد بضع ساعات، وبعد اكثر من عشرين سنة لم يعرف لماذا افرج عنه، فقد قال له عميل موساد في ذلك الوقت ان حظه الطيب قد جاء من تدخل رئيس وزراءاسرائيل، وقيل له ان بن غوريون كان يحب كتاباته فاتصل «الرجل العجوز» بفرانكو وحثّه قائلا: لا تلمسوا موسنهون، افرجوا عنه!

كان لهذه الاحداث الشاذة اثار سلبية على مجتمع مخابرات اسرائيل، واصبحت عدة اقطار في اوروبا الغربية حذرة ازاء العملاء الاسرائيليين بعد العملية الخبيثة التي كانت تستهدف دي غريلي.

واصل هاريل ارسال وحدة عملياته المشتركة المكونة من الموساد والشين بيت في مغامرات في الخارج، وكان ينضم الى قائمة الموظفين عندما تكون القضية مثيرة. وكانت المطاردة الكبيرة التالية تتعلق بصبي، فقد نقّبت المخابرات الاسرائيلية المعمورة بحثا عن صبي في العاشرة من العمر اسمه يوسيل.

كان يوسف شوماخر في الثامنة من العمر عندما اختطف في نهاية ١٩٥٩ من قبل جدّه، وهو يهودي ارثوذكسي متعصب كان قلقا لان والديه يربيانه تربية علمانية، وكان الرجل العجوز يساعده زملاؤه من نواطير كارتا، حراس الهيكل، الذين يعارضون الصهيونية لانهم لا يؤمنون بان اليهود يستحقون دولة قبل مجيء المسيح.

تم تهريب يوسيل الى الخارج، مخفيًا كبنت صغيرة، ونقل من أحد البيوت المأمونة الى بيت آخر في اوروبا ثم الى نيويورك، واحتلت القضية العناوين الرئيسية في الصحف الاسرائيلية مع انه لم يبد أنّ احدا يعرف من يكون، وقد ذاعت اغنية شعبية، تستند الى القضية، عبر الاذاعة الاسرائيلية حيث كانت تذاع بلا توقف تقريبا، اين يوسيل، وقد انتشرت الشائعات التي هزئت بالسلطات التي لم تستطع ان تتعقب اثر الطفل.

بعد ان قبض على ايخمان، سيطر على هاريل تحدّ للعثور على ابرة بشرية اخرى في كيس القش! وقد تضايق حين كان يرى الصحافة والسياسيين المعارضين يسخرون من بن غوريون ووزارته لاخفاقهم في العثور على الطفل. فشنّ هاريل حملة النمر، ووضع فريق العمليات المشترك في مهمة البحث عن يوسيل شوماخر رغم التردد الذي ابداه نوابه في الشين بيت والموساد، وطلب من كبار العملاء ان يوقفوا نشاطاتهم الاخرى بما فيها البحث عن مينغيلي للعثور على الولد، وفعلوا.

في بداية الامر نقل هاريل مقره الى باريس لبعض الوقت لاستجواب اليهود المتدينين الذين بدا انهم ساعدوا في اخفاء الولد المفقود، وناشدهم الميمونه بان يفكروا في مدى معاناة والدي يوسيل، ونجحت المقولة مع سيدة من نواطير كارتا اسمها روث بن دافيد، التي اخرجت الولد من اسرائيل بواسطة سفينة وألبسته شعرا مستعارا واسمته كلودين، واعطت الموساد العنوان في نيويورك حيث يمكن العثور على يوسيل.

وتم العثور على الولد المطلوب في تموز ١٩٦٢ في شقة يشغلها متعصبون يهود في بروكلين، ونقل الخبر الى الاف بي اي، واعيد الولد الى والديه في اسرائيل.

في الوقت الذي عثر فيه على يوسيل الصغير، كلّف صائد الجواسيس المغربي المخضرم شمويل توليدانو بمهمة أخرى من قبل هاريل - في اميركا الجنوبية مرة اخرى، لكنها مهمة تختلف بعض الشيء، فقد حظيت الموساد بسمعة طيبة في كل انحاء العالم لالقائها القبض على ايخمان، في بوينس ايرس، لكن الموضوع زاد مشاعر اللاسامية في الارجنتين وشكل خطرا على نصف المليون يهودي هناك. وتحدثت التقارير عن زيادة ملحوظة في عدد الهجمات على اليهود التي نظمتها تاكورارا، «ريد»، وهي مجموعة فاشية ارجنتينية كانت تضم كثيرا من ابناء وبنات ضباط الشرطة والجيش البارزين. اختطف اعضاء تاكورارا، في الاول من تموز ١٩٦٢، طالبة يهودية

اسمها غارسيا سيروتا ودقوا على صدرها وشما بالصليب النازي المعقوف. واثارت الحادثة صدمة في الجالية اليهودية في الارجنتين، ونشرت الصحف الاسرائيلية افتتاحيات تحث الحكومة على ارسال مساعدات «لأخوتنا اليهود» في اميركا الجنوبية. لم يكن هاريل بحاجة الى أي تشجيع، فقام توليدانو باصدار امر باحضار النشطاء اليهود الشبان من الارجنتين والاقطار المجاورة الى اسرائيل ليتلقوا تدريبا مكثفا في الدفاع عن النفس، وكان مشروعا سريا للموساد.

اصبح التركيز الجديد على النازيين واللاسامية احد مشاغل هاريل - مثل بحثه عن المدسوسين الشيوعيين - وهو ما ادى الى سقوطه في النهاية. وبدأ بصفة خاصة يركز في اوائل الستينات على وصول علماء الصواريخ الالمان الى مصر.

اراد الرئيس المصري جمال عبد الناصر من الالمان ان يساعدوه في تطوير صواريخ ارض ارض يمكن استخدامها في حرب مستقبلية ضد اسرائيل، وكان هاريل يؤمن بان الالمان يشاركون من جديد في محاولة لابادة اليهود، فردّ بعملية داموكليس، وهي سيف مصلت على رأس كل عالم الماني يعمل للمصريين.

بعث العملاء الاسرائيليون برسائل مفخخة للعلماء الالمان المشاركين في مشروع الصواريخ، والى اسرهم، ونفذت عمليات تخويف مماثل في كل انحاء اوروبا، ولجأ هاريل في هذا الى اسلوب ناجح استخدم في عام ١٩٥٦ عندما ارسلت رسائل ملغومة الى الضباط المصريين المسؤولين عن ارسال المخربين من قطاع غزة الى اسرائيل، وقد قتل مصريان كبيران في عمليات الاغتيال لمكافحة الارهاب التي قامت بها المخابرات الاسرائيلية في تلك السنة.

في الحملة ضد العلماء الألمان حدث تخويف كثير وشعر هاريل ان حملته يمكن ان تنجح لكن علاقاته مع بن غوريون توترت كثيرا لأن رئيس الوزراء واصل حّثه على عدم مضايقة حكومة المانيا الغربية، فكان بن غوريون يقول: ارفعوا ايديكم عن الألمان.

قطع هاريل شوطا بعيدا لاجبار العلماء على الخروج من مصر، وفي عملية سببت القلق لدى كثير من رجال الموساد، ارسل هاريل فريقا الى مدريد للالتقاء مع ضابط نازي سابق، اوتو شورزيني، الذي كان صديقا لعدد من الألمان في القاهرة، ومثل عملاء الموساد دور ممثلي جهاز المخابرات التابع للناتو، واقنعوه بحثّ اصدقائه على الخروج من مصر - خدمة للمصالح الغربية. وكان امرا مدهشا ان يستخدم الاسرائيليون نازيا، لكن هاريل رأى ان شورزيني لم يكن سوى محارب قديم في الجيش الألماني، وليس مجرم حرب.

ادى استخدام عميل آخر غير مألوف الى النهاية المفجعة لعملية داموكليس، كان نمساويا اسمه الدكتور اوتوجوكليك، وكان تجنيده انجازا للميمونه، لأن جوكليك كان واحدا من علماء

الصواريخ الذي كانوا يعملون لصالح عبد الناصر في مصر، وكمغامر اكثر منه خبير صواريخ بالّيستيكية، اقنع جوكليك المصريين بأنه يستطيع ان يصنع قنبلة كوبالتية ذات طاقة كبيرة، وقبل زاتبا مغريا من مصر بينما كان يعمل في المشروع دون أي نجاح حقيقي.

اقنع هاريل جوكليك بالعمل له حتى يستطيع ان يضيف كومة من النقود الاسرائيلية الى الكومة التي يحصل عليها من مصر، فكان النمساوي رجل الموساد في الداخل، وبعد مغادرته القاهرة طار الى اسرائيل لينقل معلومات كاملة عن مشروع الصواريخ السري، ونبه جوكليك من ان مصر تندفع نحو تطوير ما وصفه الخبراء بقوة ايه بي سي الضاربة، وهي الحروف الأولى للكلمات: ذرية - بيولوجية - كيماوية، ويمكن لمثل هذه الأسلحة ذات الدمار الشامل ان تركب على صواريخ يصممها الألمان، وقد اتفقت قصة النمساوي مع ما كان يجول في فكر هاريل.

نتيجة لعادته المتمثلة في تقسيم العمل، لم يخبر هاريل احدا في المؤسسة العسكرية والأمنية عن وجود جوكليك في اسرائيل، وقد عرف نائب وزير الدفاع، شمعون بيريز، بالأمر من مصادره في المجتمع المخابراتي المعقد، واصرّ بيريز على مقابلة جوكليك حتى يستطيع كبار رجال الجيش ان يسألوه.

رفض هاريل، واصرّ على انه بالامكان ان تشترك وكالات مجتمع المخابرات الاسرائيلية في المعلومات لكن ليس في المخبرين انفسهم، فهم اكثر امنا حين يقل عدد من يعرفهم.

الا ان بيريز شكا لبن غوريون وهدّد بالاستقالة، وبموجب سلطته كرئيس للوزراء امر «الرجل العجوز» هاريل بأن يفسح المجال لوزارة الدفاع لمقابلة جوكليك، وكوزير للدفاع أوكلْ بن غوريون مهمة التحقيق لبنجامين بلومبرغ، رئيس وكالة لاكام السرية جدا، ولأن طاقمه يضم علماء، فان بلومبرغ يستطيع ان يحكم على قول هاريل بأن مصر قريبة من حصولها على قدرة اسلحة ايه بي سي، وهذا بالطبع جعل هاريل يحقد على بلومبرغ وبيريز اكثر من أي وقت مضى.

رفض محللو بلومبرغ، دون ان يعرف احد منهم انهم مرتبطون بوكالة اسمها لاكام، معلومات جوكليك حول المخاطر المزعومة لمشروع الصواريخ المصري، وقد استنتجوا ان اوراق النمساوي العلمية مشكوك فيها.

الا ان هاريل كان ما يزال متأكدا بأن عبد الناصر يخطط لتدمير اسرائيل. وظل الميمونه يؤمن بجوكليك، فأرسله مع اسرائيلي آخر اسمه يوسف بن غال في مهمة سرية الى سويسرا، وكانت مهمتهما تخويف ابنة بول غوركا، أحد العلماء الألمان العاملين في مشروع الصواريخ المصري، واخبرا هيدا غوركا بأن هنالك نتائج وخيمة اذا لم يغادر والدها القاهرة على الفور،

فأخبرت الشرطة السويسرية التي اعتقلت عميلي الموساد خارج احد فنادق بازل في ١٥ آذار ١٩٦٣.

قبل بضعة اسابيع فقط، كان عميلان اسرائيليان قد اعتقلا في المانيا الغربية، قرب منزل احد علماء الصواريخ، وكانت الموساد محظوظة بعلاقاتها الدافئة مع المخابرات الألمانية الغربية التي رتبت الافراج عن الاسرائيليين بهدوء.

لم يكن جوكليك وبن غال محظوظين في سويسرا، وكانت محاكمتهما مثار ازعاج علني لاسرائيل، فارسل النمساوي والاسرائيلي الى السجن، وان كان الحكم لمدة قصيرة.

بعد ان وجد هاريل ان الألمان والمصريين لم يتوقفوا عن المشروع، قرر ان يتحرك علانية، فقد امل في اقناع العالم، او الشعب الاسرائيلي على الأقل، بأن ورثة الجيل النازي يستخدمون الان مصر كقاعدة لتشكيل خطر فادح على الدولة.

تم ارسال عملاء الموساد في مهمات اعلامية للصحفيين في الأقطار الأوروبية، وتولى ثلاثة صحفيين اسرائيليين بارزين - بعد اقناع هاريل لهم - مهمة خاصة، لصحفهم وكمهمة تجسسية ليعرفوا المزيد من العلماء الألمان.

وكانت المرة الأولى التي تستخدم فيها الموساد صحفيين اسرائيليين كعملاء، فكانت غلطة هاريل الكبيرة الثانية، فالمقالات التي نشرت كنتيجة للمهمة شبه الموسادية اثارت الرعب لدى الشعب الاسرائيلي حول الخطر البالسيتيكي من مصر، وغضب بن غوريون، وانّب هاريل لقيامه دون تصريح بتسريب المعلومات للصحافة، وحمّله مسؤولية افساد العلاقات النامية بين اسرائيل والمانيا الغربية، فقد كانت هذه العلاقات تحتل مكانة خاصة لدى بن غوريون وبيريز والمحيطين بهما، كبديل محتمل لفرنسا بعد ان فتر شعور ديغول ازاء اسرائيل.

لم يهتم هاريل كثيرا ازاء الحجة الدبلوماسية او مدى اهمية المانيا الغربية بالنسبة لبن غوريون وسياسته الخارجية الجديدة، فكان الميمونه يواصل حملته لكن «الرجل العجوز» لم يكن يسمح لأي شيء بأن يفسد العلاقات الجيدة مع بون، فكان هذا خطأ هاريل الكبير الثالث.

طالب بن غوريون بأن يوقف هاريل حملته الخاصة، لكن هاريل رفض، وسعى الى مساندة اعضاء اخرين من حزب رئيس الوزراء، الماباي، وحاول تجنيد وزيرة الخارجية غولدا مائير ووزير المالية ليفي اشكول، وفي ذلك الوقت كانت الخلافات السياسية حول فضيحة لافون في ذروة تفاعلها.

لأول مرة منذ عام ١٩٤٨ انضم هاريل الى خصوم بن غوريون فوجده في معسكر الاعداء، وكان هاريل ما يزال يأمل في تجاوز اعتراض سيده وتجديد الحرب المقدسة ضد العلماء النازيين لكن

بن غوريون اعتبر هذا الأمر مساويا للخيانة.

وراء الكواليس، كان هنالك عدم ثقة تتزايد بين رئيس الوزراء وهاريل حول قضايا اخرى، فلم يكن بن غوريون سعيدا بحماس هاريل لملاحقة اسرائيل بير الذي كان قد عمل في مكتب رئيس الوزراء، وقد انعكس اعتقاله في عام ١٩٦١ على نحو سيء على بن غوريون نفسه، ومن ناحية اخرى، لم يكن هاريل سعيدا ابدا بتعيين بن غوريون لشمعون بيريز مسؤولا عن المشروع الذري السري ولاكام.

بدأ رئيس الوزراء يقلق من السلطة المفرطة التي يتمتع بها هاريل، ونتيجة للعلماء الألمان، ظهرت صدوع واسعة في العلاقة بين الصديقين القديمين وتسرب الماء الدافق في الصدوع ليدمر الثقة التي كانت ذات يوم راسخة بين الرجلين.

في ٢٥ آذار ١٩٦٣، بعد تسعة ايام من اعتقال جوكليك وبن غال في سويسرا، قدم هاريل استقالته، وامل في الا يقبلها بن غوريون، وان يطلب منه البقاء فقد وصل الى تصديق الاسطورة التي نسجها عن نفسه، فالولد الصغير من فايتبسك اصبح لاعبا رئيسيا في لعبة الشطرنج على صعيد عالمي، فقد التقى بشخصيات قوية مثل الآن دالاس، موضع ثقة الرئيس ايزنهاور، والجنرال بختيار، رئيس السافاك، الذي كان ايضا رئيس وزراء ايران، وقد ظن هاريل انه لا بد ان يحظى بنفس الصلاحيات، بل ان يصبح وزيرا، واقل ما يمكن، اعتقد انه لا يمكن استبداله كميمونه، لكن بن غوريون فكر بطريقة اخرى.

لقد كانت نهاية عهد. فقد سقط الصليبي الكبير بسيفه.

الفصل السادس

آميت يعيد تشكيل الموساد

مراسل من الجيش قام بتسليم قطعة ورق للواء مائير آميت، وجاء فيها:

«اتصل بمكتب رئيس الوزراء في تل ابيب على الفور». قرأها ثم طواها ودسّها في جيب الصدر من زيه العسكري، وكان ذلك في ٢٦ أذار ١٩٦٣ وكان آميت في جولة على الوحدات العسكرية قرب البحر الميت.

وبطبيعة الحال، فعل كما طلب منه، أسرع الى اقرب هاتف واتصل بمكتب بن غوريون، فقال له كبير مساعدي رئيس الوزراء العسكريين: الرجل العجوز يريد أن يراك حالا، لذلك سنرسل لك طائرة.

بعد حوالى ثلاث ساعات، وصل آميت الى مكتب رئيس الوزراء في تل ابيب، وهو فرع من المكتب الرئيسي في القدس، كان بناية حجرية من ثلاثة ادوار، ذات سقف قرميدي أحمر وشرفة امامية صغيرة، كان آميت يعرف الحي جيدا، حيث كان مكتب بن غوريون يقع بين بيوت متشابهة في شوارع كيريا، وهي المنطقة العسكرية التي تضم هيئة الاركان العامة للجيش ومقرّ مجتمع المخابرات الناشىء.

صافح بن غوريون آميت، ثم اطلعه على نسخة من رسالة بعثت قبل ساعات الى ايسر هاريل، وكانت موافقة رئيس الوزراء على استقالة الميمونه، وقد قال بن غوريون دون ان يسأل اميت فيما اذا كان يقبل الوظيفة: «ستكون الرئيس المقبل للموساد».

كان أمراً وقبله آميت.

فوجىء الجنرال آميت بالعرض المفاجىء بالوظيفة، مع أنه اعتقد ان الوقت قد حان لتنحي هاريل بعد اثنتي عشرة سنة من ممارسة سلطات استثنائية على مجتمع المخابرات، وكانت المفاجأة الاخرى قرار بن غوريون بالا يحظى آميت بنفس الصلاحيات التي كان هاريل يحظى بها،

فلن يكون هنالك ميمونه مسؤول عن التجسس في الخارج ومكافحة التجسس في الداخل، فوظيفة الشين بيت ستكون لواحد آخر.

إلا أن آميت كان يرتدي قبعتين في وقت واحد، فقبل سنة عيّن رئيسا لأمان كانجاز تتويجي لمهنة طويلة في الزي الرسمي، وكان ولد في طبرية، في عام ١٩٢٦، باسم مائير سلوتزكي، ونشأ كاشتراكي، وانضم سلوتزكي/آميت الى كيبوتس ألونيوم في الجليل وانخرط في حركة الهاغاناه السرية، وكان قائد مجموعة في حرب ١٩٤٨ وبعد الانتصار شعر انه ممزق بين قيمه الاجتماعية والتزامه بالدفاع عن اسرائيل، وبدلا من ان يعود الى الكيبوتس اختار البقاء في الجيش، قوات الدفاع الاسرائيلية الجديدة.

خلال الخمسينات، قاد آميت وحدات مشاة ودبابات وكان واحدا من الرجال الذين طوروا مبدأ «اتبعوني»، وهو المبدأ الذي اصبح علامة مميزة للجيش الاسرائيلي، فالضابط الاسرائيلي لا يظل في المؤخرة بل يقود قواته في المعركة ليضرب مثالاً في الشجاعة. أصبح آميت صديقا حميماً للجنرال موشي دايان وخدم كمساعد له في حملة السويس عام ١٩٥٦ وكان لدى آميت وقت لدراسة الاداب الليبرالية، بما في ذلك الحصول على شهادة في الاقتصاد من جامعة كولومبيا في نيويورك.

عندما عرضت عليه الفرصة لكي يصبح رئيس امان في عام ١٩٦٢، ربما كان على آميت ان يفكر مرتين، فمنصب المخابرات لم يجلب على شاغله الحالي سوى الحظ التعيس وقد أجبر ثلاثة من رؤساء امان الاربعة على التخلي عن المنصب: ايسر بيري في عام ١٩٤٩، لانتهاك الحقوق المدنية، بنجامين غيبلي في عام ١٩٥٥ لتوجيه عمليات تخريب غبية في مصر، وياهو شافات هاركابي في ١٩٥٨، لسوء ادارته لتمرين تعبئة وطنية لاحتياطي الجيش.

غير ان هاركابي استبدل بالجنرال حاييم هيرزوغ، وكان قد حل محل بيري في امان، وفي عام ١٩٥٨، عاد هيرزوغ الى المنصب لتلميع صورة المخابرات العسكرية، فأعاد الاحترام لامان، ومع هذا فان هيرزوغ لم يستطع ان يخرج وكالته من الظلال القاتمة التي القتها الموساد خلال سنوات هاريل عندما كان الميمونه.

وعندما سعى هيرزوغ الى التقاعد مرة أخرى من الخدمة العامة في ١٩٦٢ عرضت وظيفة امان على آميت رغم معارضة هاريل. فقد أعلن الميمونه ان من الخطأ اختيار رجل ليس لديه خبرة في المخابرات، لكن ربما شعر بمنافسة محتملة من سمعة آميت كجنرال ذي اتباع مخلصين، وكان نفوذ هاريل بن غوريون يتضاءل، وحصل آميت على المنصب.

بعد وقت قصير من تولّي آميت الامور في مقرّ امان في كيريا، حاول ان يخفف الكراهية

والتنافس بين وكالته وموساد هاريل، وقال أن لا مجال للمنافسات عند الدفاع عن الدولة اليهودية، واقترح ان تعمل كل الاجهزة السرية بتعاون وثيق.

بعد بضعة اسابيع من محاولات المصالحة، زاد التوتر والعداء بين رئيسي الوكالتين، ومع أنهما لم يكونا يختلفان في الراي فانهما كانا ذوي عقليتين مختلفتين، فقد كان هاريل فنانا في العمليات بينما تخصص آميت في الاستراتيجية العسكرية، فقد جاب هاريل اوروبا كلها بحثا عن يوسيل شوماخر الصغير بينما ينام على سرير متنقل او يرتجف من البرد في الشوارع، وكان ضباط المخابرات العسكرية يرون طرق الموساد مضحكة، لان جواسيس اسرائيل في الخارج كانوا يعودون بالقليل من المعلومات حين يتعلق الأمر بالقدرات العسكرية للاقطار العربية.

توقع كبار ضباط الجيش ان تتحسن الانتاجية كثيرا عندما اصبح آميت رئيس الموساد، فكان واحدا منهم، وبدا أمراً حتميا ان تتعزز القدرة والتنسيق نتيجة دوره المزدوج في الموساد وامان، فلم يسبق لاحد ان تولى ذينك المنصبين.

لم تكن الوظيفة الجديدة سهلة، وقد شكل اميت سابقة كاول رجل من خارج الموساد يتولى رئاستها، كما واجه آميت صعوبة في الحلول محلّ رجل قضى دزينتين من السنوات يقولب الموساد والشين بيت حسب تصوره، ولم يستطع معظم موظفي الموساد، ولم يرغبوا في نسيان هاريل، فقد كانوا يعتبرون الميمونه اسطورة زمانه بطريرك المجتمع السري.

سار آميت الى مقر الموساد، ليس بعيدا عن مكتبه العسكري في امان، وكان الاستقبال فاترا، وكان اميت يرتدي زيه العسكري على عكس مرؤوسيه باللباس المدني، كان عليه أولا ان يواجه هاريل الذي كان في انتظاره «حامضا كالليمون»، كما قال اميت فيما بعد!

نطق رئيس المخابرات المتنحي ببضع كلمات روتينية ثم وقف ورحل وانهمرت دموع سكرتيرات هاريل الثلاثة!

في اليوم التالي، ٢٧ اذار ١٩٦٣، وصلت الى مكتب رئيس الموساد الجديد رسالة تلكس، اعربت عن الانزعاج من رحيل هاريل عن مجتمع المخابرات، واكدت على أنه يجب بذل كل الجهود لأعادته .

كان البيان موقعا من معظم كبار العملاء في اوروبا، وقد استخدموا اسماء حركية حفاظا على الاحتياطات الامنية في الاتصالات، وكان على اميت ان يطلب من مساعديه التأكد من ان الرسالة من شمويل توليدانو، المحارب القديم في المغامرة المغربية والمغامرات الاخرى، ورئيس عمليات باريس اسحق شامير، وموردخاي آلموغ ويوسف (جو) رعنان.

فكر توليدانو والآخرون في استقالة جماعية، لكنهم في النهاية قرروا ارسال التلكس

القاسي، وكان احتجاجهم أقل قسوة من «ثورة الجواسيس» قبل اثنتين وعشرين سنة عندما أعيد تنظيم الدائرة السياسية لوزارة الخارجية. ومع هذا بدأ مائير آمين بداية صعبة في جوّ من المرارة. المرارة.

لم يكن آميت متعاطفا او صبورا مع كاتبي الرسائل وموقعي العرائض، فهو ينتمي لتقليد مختلف، حيث كان تسلسل القيادة العسكري محترما، فاذا سقط قائد في معركة او رحل لأي سبب آخر فانه يستبدل ويجب ان يستبدل.

وجه رئيس الموساد الجديد ضربة قوية ترمي الى الحيلولة دون انتشار السخط، وقد كتب آميت: انني لا أقبل تصرفكم، ولست معتاداً على الاحتجاجات الجماعية.

لقد دفع الدم الجديد داخل الجهاز السري آميت الى التحقيق في عمليات هاريل التخريبية ضد العلماء الالمان في مصر، وقامت لجنة خاصة من بعض الوزراء بالتحقيق، وقد سنحت لهاريل فرصة الوصول الى ملفات الموساد قبل الادلاء باقواله أمام اللجنة. ولم تتم تسوية تضارب الاساليب والشخصيات، وكان من الصعب، بعد عقود، اقناع اميت وشامير، بان يتفوه أحدهما بكلام طيب عن الاخر. ولم يخف آميت ورعنان عداوتها عندما كانا رئيسين لمجموعتين اقتصاديتين اسرائيليتين في السبعينات، وكان التنافر القوي المتبادل بين آميت وهاريل يتزايد مع مرور الزمن.

في عام ١٩٦٣ طار آميت الى باريس في مهمة مصالحة مع رجاله في اوروبا. ودعا يعقوب كاروز، المقرب من هاريل، ليعمل كنائب له، وكان كاروز رئيس دائرة الارتباط والعمل السياسي للموساد، وكان يعمل مع الموساد «كدبلوماسي بديل» منذ ايامها الاولى، وقبل عرض آميت، وهو تصرف هدّأ الغضب الذي كان انصار هاريل يشعرون به.

وساعدت التغيرات في حكومة اسرائيل في تقليص التوترات، ففي حزيران ١٩٦٣ بعد ثلاثة شهور من اجبار بن غوريون لهاريل على الاستقالة استقال «الرجل العجوز» نفسه، من منصب رئيس الوزراء، فقد تعب من القتال في صراعات القوى الداخلية لحزب ماباي حول قضية لافون، وكان فشل المخابرات في مصر ذا أثر كبير على بن غوريون، وأطاح به بعد تسع سنوات من اعتقال حلقة التخريب.

ورفض بن غوريون تشكيل حزب سياسي جديد وسطي اسمه رافي مع مؤيديه موشي دايان وشمعون بيريز، واختار الماباي، الذي كان ما يزال يتمتع بالاغلبية في الكنيست، ليفي اشكول كرئيس وزراء جديد.

ابدى اشكول اهتماما كبيرا بالمخابرات، كان يقدّر عمل الموساد، وكان آميت من حين الى آخر، يثني على عمل عملائه، ومقابل ذلك كان آميت يتأكد من ان اشكول، الذي كان وزيرا

للمالية ويفهم الامور المالية الشكلية، سيزيد ميزانية الموساد. وقد أدى هذا الى تمكين آميت من استئجار بعض رجاله ونسائه ويعجّل في اصلاح الوكالة السرية.

واصل آميت العمل في منصبين، متنقلا بين مكاتب الموساد وامان، في تل ابيب، حتى كانون الاول ١٩٦٣، واستغل الفترة الانتقالية لاعادة تنظيم هيكل الموساد. حيث ضم اليها الوحدة ١٣١، ذراع العمليات المثلى لامان، وكانت الوحدة ١٣١ تحتاج الى هوية جديدة وقد دمجت في وحدتي العمليات الصغيرتين للموساد، ونتيجة لنقص مزمن في القوة العاملة، عملت كفرق عمليات تدعم مهمات هاريل على نطاق العالم، وكدوائر جمع معلومات من المخبرين العرب والاجانب، ويديرها ضباط حالات اسرائيليون، وكان متوقعا من اسحق شامير، رئيس الوحدة الاوروبية، ان يمنع الدمج، لكنه استقال.

خلال سنتين حفلتا بارسال تلكسات الاحتجاج الى آميت في يومه الثاني في الموساد، انسحب منها الاربعة مدراء الميدانيون الذين كانوا وقعوا الرسالة، فقد عرفوا بعد أن رفعوا رايات العصيان أن فرصهم في الترقية قد ضاعت، وبعد ان غادر توليدانو الموساد قال بأنه كان يأمل في أن يصبح رئيس الوكالة، وقد حصل على منصب مستشار رئيس الوزراء اشكول للشؤون العربية، وهو منصب مناسب لتوليدانو الذي كان يتحدث العربية بطلاقة.

بالنسبة لشامير، فقد واجه صعوبة في التكيف بعد حياة سرية قادها قبل مولد اسرائيل، وقد اكسبته خبرته القدرات المطلوبة لمهنة في المخابرات: كان متشككاً وراغباً في العمل بأقصى ما يستطيع، علّم نفسه الفرنسية رغم صعوبتها، لكن لم يكن يخرج بأفكار ذكية، كان يأتي للعمل في الصباح وفي آخر النهار يعود الى زوجته شولاميت وابنيهما، وكانت ابنته غيلادا مجذوبة لعمل المخابرات، بينما اصبح ابنه يائير ضابطا في سلاح الجو.

بعد ان ترك شامير الموساد فتح مصنعاً، لكنه فشل. ولم يكن امامه إلا أن يخوض عالم السياسة في ١٩٧٢، وكان في الخامسة والخمسين، وقد اعتاد على الذوبان في الجمهور وكان على هذا الرجل القصير القامة النادر الابتسامة، ذي الشاربين الصغيرين، ان يتعلم كيف يصبح شخصية شعبية، وحتى بعد ان اصبح رئيسُ وزراء، كان لشامير ذكريات عن أيامه الحافلة بالمفاجآت والتوتر كعميل سري، وقد قال: كانت ايامي في الموساد من أسعد أيام حياتي. وحتى السياسة ورئاسة الوزارة لا يمكن مقارنتها بها.

لتعويض من رحلوا، عين آميت كبار رجاله، وجاء بكثير منهم من امان، بمن فيهم رئيس دائرة جمع المعلومات العسكرية، راهافيا فاردي، ورتب آميت ترقية الملحقين العسكريين في السفارات الاسرائيلية، ومن أجل رفع مكانتهم، جعل بعضهم يعملون كرؤساء لمحطات الموساد في نفس الوقت.

كان هدف الرئيس الجديد ان يحول الموساد الى منظمة مخابرات حديثة وجادة، تركز على ما كان اميت يعتبره مهمتها الرئيسية: جمع المعلومات العسكرية والسياسية من الدول العربية. كان يعتبر الموساد هيئة جمع معلومات تسدّ مسد العمليات التظاهرية التي كان يعتبرها تبديدا للموارد، ومتأثراً بدورات الاقتصاد وادارة الاعمال التي اخذها في الولايات المتحدة، تمنّى اميث ان يقلد العقلية المؤسسية ونهج الادارة الاميركيين.

نقل اميت مقر الموساد الى مبنى حديث في وسط تل ابيب، وليس في مبنى وزارة الدفاع في كيريا، وهيأ رئيس الوكالة لنفسه مكتباً فخماً على الطراز الاميركي بأثاث جديد فخم.

غضب بعض مخضرمي الموساد حين رأوا انفاق الأموال على انواع الرفاهية التي كان ايسر هاريل يعارضها، وكانوا يفضلون مكاتب الميمونه السابقة، القديمة المتواضعة، ومن داخل الموساد بدأ الساخطون دورة جديدة من الشائعات، شبيهة بتلك التي اسقطت آشر بن ناتان ورجال دائرته السياسية في عام ١٩٥١، فأوحوا بأن اميت يبدد الاموال بل يضيع بعضها على أناس فاسدين. وانتشرت الحكايات حول حياة الترف التي كان كبار مسؤولي الموساد يعيشونها، في اقامتهم في الفنادق الضخمة وتناولهم الوجبات في ارقى المطاعم في الخارج.

استاء اميت من ماكينة الشائعات، وحاول وقفها، وواصل تحديثالوكالة، وكان جزءاً من الخطة تغيير اساليب الموساد في تجنيد العملاء، فبدلاً من الاعتماد على توصيات الاصدقاء، كان يفضل استخدام اساليب منهجية اكثر من مجرد «الاحساس» بأن معرفة انسان منذ زمن طويل في المدرسة او في وحدة الجيش المناسبة هو الانسان المناسب الذي يمكن ان يصبح جاسوساً.

بذل الرئيس الجديد للوكالة جهوداً للبحث عن المرشحين المهتمين ليس فقط في الجيش، بل في الجامعات ايضا، وفي عالم ادارة الاعمال، وبين المهاجرين الجدد، وركّز على العثور على عملاء ممثلين يظهرون بسلوك وملابس اوروبية، وهي صفات كان المجتمع الاسرائيلي يكرهها.

وكان احد هؤلاء شارلي مايوركاس، الذي ولد في اسطنبول، لأب نشأ في سويسرا ولأم من أصل نمساوي، وفي السابعة عشرة غادر تركيا لتجنب الخدمة العسكرية وسافر الى فرنسا لدراسة الطب، لكنه تحول الى التجارة، وفي عام ١٩٦٥ ذهب هذا اليهودي التركي الى اسرائيل، ليس لاسباب ايديولوجية، بل لأنه اكتشف ان الوكالة اليهودية ترغب في تمويل دراسته في الجامعة العبرية.

في حرم الجامعة في القدس جذب مايوركاس أنظار رجال الموساد فاقترحوا عليه الانضمام الى الوكالة، ووافق بحماس. وبعد ثلاث سنوات من التدريب الاساسي اكتشف رؤساؤه انه شاذ جنسياً، فطرد من الموساد.

قال شاكياً: لقد أردت ان اخدم الدولة، ثم طردوني بهذه التهمة. ماذا يمكن لاسرائيلي آخر ان يكون له مثل هذا الغطاء الممتاز: خلفية اسرتي، معرفتي لثماني لغات، وقدرتي على الوصول الى كل اوروبا؟

تعاطف معه كثير من زملائه في الموساد غير انهم لم يرغبوا في ان يجازفوا بما كانوا يعتبرونه أمراً غير مقبول في عالم الجاسوسية، حيث القلق الدائم من الابتزاز الجنسي والحبائل المذلة.

لم يكن وضع النساء في الموساد أفضل، وهنا يقول واحد من كبار رجال الموساد: «لا تستطيع امرأة ان تجمع المعلومات في العالم العربي، فالعرب لا يقبلون بالنساء».

تعمل النساء في الموساد في وظائف ادارية وخدماتية.وكانت الموساد مترددة في ارسال النساء في مهمات طويلة في الخارج، حتى وان كانت أقل خطراً مثل خدمة ضباط الارتباط مع وكالات الامن في الدول الاخرى. ومع هذا فان لكل قاعدة استثناء، ومثال ذلك ان ليلي كاستيل، كانت اسطورة حية، وبعد سنوات من موتها في عام ١٩٧٠ ما يزال الرجال الاكبر سنا في الموساد يتحدثون عن مواهبها الاستثنائية، فقد انضمت للموساد في عام ١٩٥٤ بعد خدمة سابقة في شاي.

كانت كاستيل تتحدث العبرية والفرنسية والانجليزية والالمانية والروسية، وكانت تعرف العربية والايطالية بدرجة معقولة، ويذكرها زملاؤها بأنها جذابة وذكية وجديرة بالثقة. وكان هاريل يشعر بأنه يستخدم عقلها وجاذبيتها في مهمات مختلفة في اوروبا، ومع هذا فإن طبيعة عملها لم تكشف ابداً.

ان التغييرات التي حدثت في الوكالة في عهد أميت ادت الى بعض التحسينات في الفرص أمام النساء، فقد ساعد طلب الرئيس الجديد على الكفاءة والاحتراف في اعطاء النساء فرصة أكثر نزاهة في الحصول على وظائف تغطي مناطق أو قضايا معينة، وكانت هؤلاء النساء ممن شققن طريقهن الى المراتب العليا، الى ان اصبحن مسؤولات عن مجالات خبرة معينة.

ان «مديرة المكتب» حلقة الاتصال بين العملاء الميدانيين والمقر الرئيسي في تل ابيب، توفر للموظفين في الخارج كل ما يحتاجونه لانجاز مهماتهم. كما يقوم موظف «المكتب» بارسال الاوامر وتلقي المواد التي تتجمع في الميدان، فمكتب شرق افريقيا، مثلاً، يجمع «حصيلة» المخابرات التي تبعث بها محطة الموساد الكبيرة في نيروبي ومن عملاء في الاقطار المجاورة لكينيا.

وحين تستدعي مهمة معينة استخدام النساء، يتم ارسال امرأة الى الخارج ولا يتقرر هذا الا بعد استنفاد كل الوسائل الاخرى، ورغم التردد نفسه الذي يشعر به الجيش الاسرائيلي ازاء تعريض مجنداته للقتال، فإن رؤساء المخابرات يدركون ان استخدام امرأة يمكن ان يكون ذا فوائد

مميزة، فهي تثير شكوكاً اقل، واذا عملت مع زميل يصبح هنالك اعتقاد بأنهما زوجان أو عشيقان فيجذبان انتباها أقل مما يجذبه الرجال العزاب في عملية مراقبة.

تقوم الموساد بارسال النساء إلى مهمات بهدف نصب المصائد الجنسية، لكن على مضض ايضا. فرؤساء المخابرات يفضلون في البداية ارسال نساء عزباوات لمثل هـذه المهمات، ويتم استخدامهن بهذه الطريقة مرة واحدة فقط، وتتردد الموساد قبل اصدار امر لعملائها، ذكوراً او اناثاً، بالدخول في علاقات جنسية من أجل المهمة.

غير أن التفكير حول الجنس تغير، ومع عدم وجود أي ضغط على العميلات لاستغلال الجنس، فإن من المتوقع ان يوظفن الجنس كواحد من الاسلحة الكثيرة في الميدان، فاذا كـان الابتزاز الجنسي او نصب الشراك الجنسية جزءاً مكملاً للعملية، فإن الموساد تستخدم مومسات وقد اثبتت بعض المومسات وطنية مدهشة، مع ان الوكالة السرية لا تخبرهن بتفاصيل العملية ولا حتى بهوية الرجال الذين يتلقين اوامر بمضاجعتهم.

انه تصرف شائع ان يتم استخلاص المعلومات من المخبرين العرب الذين تدبرهم الموساد أو امان، بتهريبهم عبر الحدود الى اسرائيل، واخذهم الى مدينة هادئة، وهنا تتم مقابلتهم مطولاً ويكافأون على عملهم بتوفير المومسات لهم، ويتم تصوير ممارساتهم لاستخدام الصور، للضغط الابتزازي فيما بعد لضمان ولائهم في المستقبل.

ليس هنالك تردد كثير في ارسال رجال الموساد الى الخارج الى مناطق الاصطياد الجنسي. حيث يتم اختيار العملاء المناسبين، والوسيمين عادة، لمصادقة عدد من سكرتيرات السفارات ومضيفات الطيران، لأنهن يستطعن أن يوفرن كثيـرا من المعلومات القيمـة عن الدبلومـاسيين والمطارات والمدن في العالم العربي.

وينهار النظام بين حين وآخر، فقد كان لأحد ضباط الحالات الاسرائيليين علاقة جنسية مغرية مع أهم عميلة يديرها، وهي امرأة شابة اوروبية، بامكانها ان تعطيه معلومات ويمكن ان تنام معه، وبعد بضع سنوات تولى الأمور في اوروبا ضابط حالات آخـر وقد فـوجىء «مديـر المكتب» ذو العلاقة عندما قرأ اول تقرير من الرجل الجديد، والذي قال فيه ان «المصدر الأنثى» اعربت عن الدهشة بل شكت لأنه لم يوافق على الذهاب معها الى الفراش. واكتشفت رئاسة الموساد ان هنالك جيلين من ضباط الحالات الذين يستخدمون المرأة بأكثر من طريقة، واعتقدت ان ممارسة الجنس جزء مكمل لتوظيفها من قبل الاسرائيليين، وقررت الموساد ألا تثير اتهامات تأديبية ضد ضباط الحالات السابقين، لأن ذلك لن يحقق هدفا كبيرا.

تمت اعادة النظر في استخدام الجنس وممارسات العمل الاخرى خلال عهد مائير اميت،

كرئيس للوكالة، كما ان عهد آميت ارسى كثيرا من المبادىء والهيكل التنظيمي للموظفين وهو ما اصطبغت به الوكالة السرية لسنوات كثيرة لاحقة.

من بين أقسام الموساد الثانية كان أهمها: دائرة جمع المعلومات، ودائرة التخطيط العملياتي والتنسيق، دائرة الابحاث ودائرة الارتباط والعمل السياسي، اما الدوائر الاخرى ـ التدريب، المالية والقوة العاملة و التكنولوجيا والعمليات الفنية ـ فانها بصفة اساسية تقدم المساعدة والدعم للدوائر الرئيسة.

ان مكاتب الدائرة السياسية ودائرة جمع المعلومات منظمة على أساس اقليمي ووظيفي، وهي متخصصة جدا، وتملك الموساد احتكارا على جمع المعلومات خارج اسرائيل، فيما عدا أهدافا عسكرية معينة ـ ليست بعيدة على حدود اسرائيل ـ والتي قد تتجسس امان عليها.

كانت طريقة عمل الموساد تتغير مع تغيّر الزمن والشخصيات، فكان هاريل يؤمن كثيرا بقوة المواهب البشرية، ومما لا شك فيه ان مواهبه كانت ممتازة، وكان يفضل الالهام غير المفسّر بل المدرّب جيدا، على اي اعتماد على التكنولوجيا الباردة والتي لا مشاعر فيها. ولم يكن يخفي ازدراءه بالاجهزة الالكترونية، مع ان اسرائيل كانت وطنا لبعض اكبر المخترعين في العالم.

كان هاريل يتباهى دائما بحقيقة ان الموساد، على عكس وكالات المخابرات الاخرى في الغرب، كانت منظمة تعتمد على الموارد البشرية والذكاء الانساني.

واصلت الموساد، في عهد اميت، التوجه بشريا، لكن تم التركيز ايضا على القوى الاخرى، فتم ادخال اجهزة كمبيوتر متطورة بأعداد كبيرة استنادا الى جعل امان معتمدة على الكمبيوتر في ظل هيرزوغ، وآميت وخليفته اهارون ياريف الذي كان مسؤولاً عن دائرة جمع المعلومات في امان عندما كان اميت رئيس الوكالة.

كان احد جواسيس الموساد الناجحين شالتيل بن يائير، الذي كان يعيش في مصر تحت غطاء سميك من ١٩٥٨ الى ١٩٦٢، وقد ولد لأسرة يهودية على حدود فلسطين مع لبنان، وقد تعلّم بن يائير كشاب ان يتصرف كعربي، وفي نهاية الثلاثينات انضم الى حركة مناحيم بيغن المتطرفة، الارغون، وتم ارساله في مهمات كتاجر مواشي عربي شاب.

ذعر والد شالتيل من المخاطر التي تكتنف ابنه، وارسله الى مدرسة حربية في فرنسا، معتقدا ان وجود ابنه في اوروبا اكثر سلامة. لكن بن يائير الشاب ترك المدرسة وهرب مع امرأة اكبر منه سناً، الا انه تعلم الفرنسية بشكل ممتاز، وعندما عاد الى فلسطين، التحق بمدرسة اسكتلندية، وتعلم نطق الانجليزية كأي اسكتلندي.

اشترك في الحرب العالمية الثانية مع وحدة كوماندو بريطانية في مصر، ثم مع عصابة شتيرن

بقيادة اسحق شامير، ضد البريطانيين، قبل ان ينضم للجيش الاسرائيلي في حرب ١٩٤٨. وفي عام ١٩٥٥، كان عاطلا عن العمل، فيما عدا التردد على الحانات، سمع ان شامير واصدقاء آخرين من الحركة السرية التي كانت قائمة قبل الدولة، انضموا الى الموساد وكان بن يائير سعيدا بالانضمام، وبلا أية متاعب حمل هوية باسم فرانسوا رينانكو، وهو مواطن بلجيكي كان «خبيراً» دولياً في المواشي. واستطاع بن يائير/ رينانكو ان يؤمّن دعوة من الحكومة المصرية لزيارة القاهرة كخبير في المواشي.

وذات يوم، قبل نهاية الخمسينات، رن جرس الهاتف في شقة المؤلف الاسرائيلي اموز كنان، في باريس، وجاء صوت لم يسمعه منذ سنوات «ايش شارلي».. وكان ذلك الاسم الحركي لبن يائير. أصغى كنان بضع ثوان، ثم اسرع خارجا لمقابلة صديقه من عصابة شتيرن على سفينة سياحية على نهر السين، وفوجيء الكاتب عندما رأى بن يائير بلا شاربين، ورفض التحدث بغير الفرنسية.

قال الاسرائيلي المتخفّي لكنان: «انني الآن خبير في المواشي، ويجب عليك ان تناديني باسم فرانسوا، انني أجيء الى باريس مرة في الشهر لقضاء ليلة واحدة، واذهب في اليوم التالي الى بروكسل، ومن هناك الى القاهرة، ليس هنالك من اتحدث معه، عملي صعب، فقد تدربت على عدم التحدث بالعبرية حتى لو صرخت عليّ في منتصف الليل. لا يمكن لأحد في مصر ان يتصور انني اتكلم العربية ايضا، وفي بلجيكا يعتقدون انني بلجيكي فلهجتي الفرنسية الجنوبية تتفق مع لهجتهم، ومن اجل السلامة اقول للناس بأنني قضيت جزءاً من سنوات الحرب في جنوب فرنسا».

كان بن يائير/ رينانكو في مصر واحداً من أجرأ عملاء اسرائيل، كان مسؤولاً عن رسم خرائط المطارات المصرية، وتوفير التفاصيل عن المنشآت العسكرية، ومع ان ذلك كان خطراً الا انه كان واحدا من العملاء الاسرائيليين الذين اكملوا مهامهم وعادوا الى اسرائيل دون ان يقبض عليه او يسبب فضيحة. وكانت أثمن ميزة له انه كان وحيداً في شبكة ليس فيها غيره، لكن بن يائير لم يستطع ان يحافظ على التكتم المطلق فقد سرّب امره الى كنان.

بعد عودته الى اسرائيل في عام ١٩٦٢، وجد بن يائير الحياة غير السرية مملّة جدا فرحل الى كندا وغيّر اسمه.

هنالك قصة جاسوس ذات نهاية غير سعيدة وهي قصة جاك ليون توماس، وهو أرمني نشأ في القاهرة وعمل مع المخابرات الاسرائيلية دون ان يعرف، كان شابا متعلما وسيما بشعر أسود يتقن كلاً من العربية والانجليزية والفرنسية والالمانية. ذهب الى بيروت في عام ١٩٥٦، ثم الى المانيا الغربية، حيث جرّب حظه في عدة مشاريع تجارية، وفي عام ١٩٥٨ التقى في المانيا بشاب

لبناني اسمه اميل، واصبحا صديقين حميمين، وقد اتضح من تردد اميل على الحانات والمطاعم في كولون وبون انه ثري فكان دائما يدفع الحساب، كانا يتحدثان عن التجارة والنساء، وعندما كان الحديث يتحول الى السياسة لم يكن توماس يخفي كراهيته للرئيس المصري عبد الناصر.

ذات مساء، عرض اميل على جاك مبلغا كبيرا من المال، واقترح عليه ان يعود الى مصر للمساعدة في الاطاحة بالرئيس المصري، وقيل لتوماس انه سيعمل مع احد اقطار الناتو، وتسمى الطريقة «تجنيد الشخص الزائف» والموساد تجيد هذه الطريقة. لم تذكر اسرائيل، وكان توماس مغرماً بالغرب فابتلع الطعم.

في شقة صغيرة في كولون، علمه اناس مجهولون اسس التجسس: تصوير الوثائق وتحميض الافلام، واخفاء مسودات الفيلم في انابيب معجون الاسنان، وعلب الاحذية او الكتب، والكتابة بالحبر السري وتمرير رسائل بالرموز بعد تركها في «صناديق الرسائل المهجورة» لشركاء غير معروفين.

عاد توماس الى القاهرة في تموز ١٩٥٨ وهو مفعم بالحيوية، وبدأ تجنيد المخبرين لشبكته، وكان بين الحين والآخر يسافر الى المانيا الغربية للاجتماع مع رؤسائه، الذين واصلوا الادعاء بأنهم «مسؤولون كبار في حلف الناتو»، ومقابل المعلومات العسكرية التي كان يحملها معه كان ضباط حالته يعطونه اموالا واوامر جديدة.

في احدى هذه الرحلات، التقى الارمني الشاب بامرأة المانية غربية تسمى كيتي بندهوف، وبعد علاقة غرامية عاصفة تزوجا وذهبت بندوف مع توماس الى القاهرة. واضاف زوجته الى شبكته وكانت رسوله.

كشف ضابط حالة توماس في كولون الحقيقة له: كنت استخدمك للمخابرات الاسرائيلية.

لم يكن ذلك مفاجئاً لتوماس كما ان عدم دهشة توماس لم تدهش مراقبيه الاسرائيليين فقد كانوا يعلمون بأنهم يتعاملون مع رجل ذكي، وكان توماس في حقيقة الامر قد شك في انه يعمل لاسرائيل. ومع انه عرف الحقيقة فانه لم يتضايق، فكان ما يزال يكره عبد الناصر، وعاد الى عمله التجسسي في القاهرة بحماس اكبر.

واتسعت شبكته تدريجيا، وجند شخصين ارمنيين وراقصة يهودية في ملهى ليلي، وكان مخبر آخر صديق طفولة لتوماس اصبح ضابط مدفعية، تم ارسال كيتي الى امستردام، حيث علمتها الموساد كيف تستخدم جهاز بث لاسلكي بحرفية كبيرة، وتلقى الزوجان زيادة في الاجر، وكانت الاموال تحوّل عبر بنك بلجيكي على أنها «مساعدة من اقارب في المانيا».

جمعت شبكتهما معداتها التجسسية الخاصة بها؛ خمس آلات تصوير، وحقيبة يدوية بقاع زائف، آلة حلاقة كهربائية ذات فراغ سري لتخبئة الوثائق،وولاعة سجاير جوفاء لوضع مسودات الافلام، وجهاز ارسال متطور، مرسل ومستقبل، مخبأ في حمام شقتهما في حي غاردن سيتي في القاهرة، وكانت كيتي بندوف ـ توماس تتصل كل بضعة أيام بتل ابيب وتنقل المعلومات، وتتلقى الاوامر الجديدة.

في أيار ١٩٦٠ تلقى الزوجان أمراً باستعراض مشروع كبير مقبل، كان عليهما ان يختارا ضابطا مصريا يمكن ان يجنداه في شبكتهما لاحقا، وحذرتهما الرسالة وطلبت ان ينتظرا مزيدا من التعليمات، لكنهما كانا اصيبا بأسوأ ما يصيب الجاسوس: الافراط في الثقة بالنفس، فتقربا من ضابط شاب مسيحي قبطي اسمه اديب حنا كارلوس.

بدا ان كارلوس شرب الطعم، لكنه اغلم ضابطه بما حدث، فنصب وكلاء مكافحة التجسس المصرية مصيدة للشبكة الاسرائيلية، فقاموا في البداية بإعطاء توماس معلومات كاذبة؛ واعتقد انه ينقل الى تل ابيب معلومات مفيدة.

بدأ توماس يشعر بأن الارض تحترق تحت قدميه، فاستعد لحلّ الشبكة ليهرب اعضاؤها، فحصل على جوازات سفر مزورة لنفسه ولزوجته، واستطاعت ان تهرب مع الراقصة اليهودية، لكن توماس واعضاء الشبكة الآخرين اعتقلوا في السادس من كانون الثاني ١٩٦١.

في احدى محاكم القاهرة، زعم توماس انه كان يتجسس لاسرائيل حبا في المغامرة والمال ولأنه يكره نظام عبد الناصر، وقال «لست خائناً، فأنا لم أعتبر نفسي مصرياً في اي يوم من الأيام، نحن الارمن مضطهدون في مصر لأننا أقلية».

ادانت محكمة عسكرية توماس واثنين من مجنّديه بالتجسس والخيانة، وأعدم الثلاثة في ٢٠ كانون الأول ١٩٦٢.

وخلال المحاكمة اكتشف المحققون ان شبكة توماس قامت بمحاولات كثيرة لدفع مليون دولار لطيارين من سلاح الجو المصري اذا وافقوا على الذهاب الى اسرائيل أو قبرص بطائرة ميغ سوفياتية الصنع.

لم يستسلم رؤساء مخابرات اسرائيل، وبإلحاح من قائد سلاح الجو، الجنرال عايزر وايزمن، تابعوا جهودهم للحصول على طائرة سوفياتية الصنع، وتم التفكير في عدة طرق ممكنة: اعتراض طائرة واجبارها على الهبوط في اسرائيل، زرع عميل كطيار في واحد من اسلحة الجو العربية، رشوة طيار عربي. لكن كيف يستطيعون رشوة طيار وهو يعيش حياة مترفة توفرها له حكومته؟

كان الرأي السائد ان هذا الطريق، رغم صعوبته، قد وفّر لاسرائيل افضل فرص نجاحها، وقد جمعت امان والموساد قدرا هائلا من المعلومات عن اسحلة الجو في مصر والاردن وسوريا والعراق، وكانت ملفات المخابرات الاسرائيلية تحوي كل معلومة عن طياري الاعداء، وقد نظمت وخزنت في اجهزة الكمبيوتر الجديدة لامان واميت. وكانت المعلومات شاملة جدا حتى ان المسؤولين عن الملفات شعروا وكأنهم يعرفون مئات الطيارين العرب معرفة شخصية.

لذلك السبب اصيب الاسرائيليون بخيبة امل عندما انشق طيار مصري اليهم في عام ١٩٦٤، وكان الكابتن عباس حلمي طيارا في سلاح الجو المصري وكانت طائرته سوفياتية الصنع، لكنها كانت طائرة تدريب لم تكن تثير اهتماما كبيرا للذين كانوا يتحرّقون شوقا لوضع ايديهم على طائرة مقاتلة.

رغم خيبة الامل التي اصابت مجتمع المخابرات الاسرائيلية الا ان الكابتن حلمي استقبل استقبالا حارًا، وكانت المعلومات التي قدمها لأمان اضافة هامة للمعلومات التي كانت مكدّسة عن اسلحة الجو العربية. واستخدم حلمي لاغراض اخرى، فقد ادان، علانية، تدخل مصر في اليمن، وكشف حلمي ان المصريين استخدموا الغازات السامة ضد اليمنيين الملكيين.

وأعطى المنشق المصري مساعدة مالية ووظيفة جيدة في اسرائيل لكنه لم يستطع ان يكيف نفسه مع الحياة في اسرائيل، فقرر الذهاب الى اميركا الجنوبية، فوفرت له الموساد وثائق ثبوتية جديدة واعطته مبلغا كبيرا من المال لمساعدته في بدء حياة جديدة في الارجنتين.

وعندما وصل الى بوينس ايرس، متجاهلا التعليمات التي تلقاها من الاسرائيليين، فقد ارتكب حلمي عددا من الاخطاء القاتلة، فقام اولا بارسال بطاقة بريدية الى والدته في مصر، حيث اعترضت الشرطة السرية البطاقة وعرفت مخبأه، وفيما بعد، صادق امرأة مصرية التقى بها في ناد ليلي في الارجنتين، فوعدته بجمائلها ووافق على الذهاب الى شقتها، وكانت نسخة من «مصيدة العسل» التي يستخدمها الاسرائيليون ووكالات التجسس الاخرى. وكان العملاء المصريون ينتظرون حلمي في شقة المرأة، ونقلوه في صندوق الى السفارة المصرية، ومن هناك هرّبوه بسفينة شحن الى مصر، وادانته محكمة عسكرية بالخيانة وأعدم.

مع ان قضية حلمي، لم تكن غلطة المخابرات الاسرائيلية فان القاء القبض عليه قد اضّر بسمعتها. وقد أدت الضربة المعنوية لأن تعيد الموساد وامان خطتها لاغراء طيار عربي آخر ليهرب بطائرة افضل. وجرت مناقشات كثيرة للموضوع، غير ان عايزر وايزمن واصل الاصرار على ان تفّحص طائرة ميغ يمكن ان يكون مفتاحاً لكسب الحرب، واستمرت المحاولات لاصطياد طيار.

بعد سنة، وفي بداية ١٩٦٦، تم العثور على هدف آخر مناسب، وكان في هذه المرة طيارا

عراقيا.

كان منير ردفه احد افراد اسرة مسيحية مارونية ثرية في العراق، وقد تدرب عند السوفيات .وكان طيارا في سرب من طائرات ميغ ٢١ ، احدث ما انتجه السوفيات في ذلك الحين.

كان الاسرائيليون، بفضل ما نشر في الصحف، والاتصالات العراقية التي اعترضـوها والعملاء في بغداد، يعرفون خلفية ردفه، وتم اختيار العملاء الاسرائيليين لهـذه المهمة بكـل حرص وأرسلوا الى بغداد، عن طريق اوروبا، للاتصال بالطيار واسرته. وكان انجح العملاء الذين ارسلوا امرأة اسرائيلية ولدت في الولايات المتحدة، وكانت تحمل جواز سفر اميركيا.

مثلت دور سائحة غنية حضرت بعض الحفلات العالية المستوى في بغداد واستطاعت ان تسحر الطيار العراقي، مع انه كان متزوجا وله طفلان، واتخذت موقفا شائعا مع الجاسوسات الاسرائيليات على مرّ السنين، فرفضت ممارسة الجنس مع الطيار في العراق، وكان عليه ان يذهب معها الى اوروبا، وعندها يمكن ان ينال ما يريد. ووافق الطيار على مرافقتها الى باريس حيث يمكن ان يعيشا قصة غرام مفعمة بالسعادة.

بعد يومين قضاهما في فرنسا، وافق ردفه على الطيران مع المرأة الفاتنة الى اسرائيل حيث قالت ان لها «بعض الاصدقاء المهمين». وثارت في نفس الطيار العراقي هواجس معينة غير انه بدا غير مهتم كثيرا، وخلال اربع وعشرين ساعة، كان الطيار يسافر على طائرة العال الى تل ابيب وهو يحمل جواز سفر مزورا وفرته له الموساد في باريس.

عومل ردفه في اسرائيل على انه «شخصية هامة جدا»، واخذ الى قاعدة جوية اسرائيلية، وهناك التقى بضباط من الموساد وامان حيث عرضوا عليه مليون دولار ولجوءا لكل اسرته اذا جاء الى اسرائيل بواحدة من طائرات الميغ ٢١.

وحتى يظهروا ان عرضهم حقيقي ورسمي، رتب عملاء المخابرات الاسرائيلية لقاء بين ردفه والجنرال مودخاي هود، قائد سلاح الجو الاسرائيلي، الذي كان قد تولّى المنصب من عايزر وايزمن. ودهش العراقي من مدى معرفة الاسرائيليين للسلاح الجوي العراقي، كانوا يعرفون اسماء الطيارين العراقيين ومدرّسيهم السوفيات، ووصف الاسرائيليون، بتفصيل كبير، المطار ومدارجه وبرج المراقبة وغرفة العمليات واقسام المعيشة.

بالتنسيق مع ردفه، وبرضاه، تم تحديد موعد لرحلته الجريئة من العراق الى اسرائيل بلا توقف. وساعد هود في رسم خط طيران وترتيبات للاتصالات في اليوم الموعود.

بعد بضعة ايام، عاد الطيار والعميلة الاسرائيلية، التي كان يظن انها صديقته الاميركية، الى بغداد، عن طريق باريس، وكما اتفق في اسرائيل، تم وضع دفعة تحت الحساب لردفه في

حساب مصرف سويسري، ثم جرى تهريب عائلة ردفه من العراق الى ايران، بمساعدة الثوار الاكراد الذين كانوا يعملون بانتظام مع العملاء الاسرائيليين، ثم قامت محطة الموساد في طهران بنقل الاسرة الى اوروبا ثم الى تل ابيب.

طار اميت في نفس الوقت الى واشنطن لاعلام مدير السي آي ايه، ريشارد هيلمز بان الولايات المتحدة سوف تستطيع قريبا ان تقيم وليمة على طائرة ميغ ٢١، وكان الاميركيون يحاولون منذ زمن ان يعرفوا هذه الطائرة، بتكنولوجيتها السرية، من أجل تحسين وحداتهم المقاتلة.

كان التخطيط ممتازا، ففي ١٥ آب ١٩٦٦ طار ردفه في المسار المتفق عليه باقصى سرعة وهبط بطائرته الميغ ٢١ في قاعدة جوية جنوبي اسرائيل، وكانت المرة الأولى التي تصل فيها طيارة سوفياتية متطورة كهذه الى الغرب. وبعد عقود، ظلت اسلحة الجو في الولايات المتحدة وحليفاتها في الناتو سعيدة بالانجاز الذي حققته المخابرات الاسرائيلية في ذلك اليوم، وكان الحصول على طائرة الميغ احدى المناسبات الرئيسية لبناء صورة الموساد بطريقة لا يمكن الشك فيها بين العسكريين الغربيين.

كان هروب ردفه، الذي عرف لدى بعض رجال المخابرات باسم «العملية ٠٠٧» نسبة الى فيلم جيمس بوند، قد أسعد ماثير اميت كثيرا. وعلى عكس فضيحة حلمي، كانت هذه العملية ذات نهاية سعيدة حيث تم اعطاء منير ردفه واسرته هويات جديدة والمبلغ الذي وعدوا به، وكل شيء احتاجوا اليه لبدء حياة سعيدة في اسرائيل. اما العميلة الاميركية المولد فقد غادرت العراق بسلام.

بينما كان اميت يخطط «لعملية ٠٠٧» كان عليه ان يتصدى لنكسات كبيرة في سوريا ومصر، فقد فُقد اكبر عميلين للموساد في اهم عاصمتين عربيتين في فترة خمسة اسابيع من عام ١٩٦٥؛ ايلي كوهين في دمشق وولف غانغ لوتز في القاهرة.

كان كوهين ولوتز يزودان المخابرات الاسرائيلية بمعلومات مذهلة من قلب مراكز القوى السياسية والعسكرية العربية. كانا قادرين وجريئين، وقد تغلغلا في اعلى مراتب القيادة في مركزي التجسس، حيث اصبح كوهين صديقا شخصيا للرئيس السوري، بينما صادق لوتز كبار الضباط في الجيش المصري.

ولد ايلياهو (ايلي) كوهين في الاسكندرية، مصر، في عام ١٩٢٤، وساعد يهودا مصريين آخرين في الذهاب الى اسرائيل وشارك في شبكة التخريب الاسرائيلية سيئة الحظ التي حطمها المصريون في عام ١٩٥٤، وكان كوهين محظوظا اذ لم يعتقل مع اصدقائه.

ستطاع ان يصل الى اسرائيل بعد حملة السويس عام ١٩٥٦، وبحماس صهيوني قوي، تصل بالمخابرات الاسرائيلية للتطوع، وكانت الوحدة ١٣١ ما تزال مسؤولة عن التجسس في لاقطار العربية المجاورة. وان تكن باشراف افضل مع اخفاق ١٩٥٤.

إلا ان اختبارات امان النفسية القياسية اشارت الى بعض المؤشرات المزعجة، فقد استنتجت الوكالة ان معامل الذكاء لدى كوهين عال، وانه شجاع جدا وذو ذاكرة خارقة وقدرة على الاحتفاظ بالاسرار، لكن الفحوص اظهرت ايضا انه يملك إحساساً مبالغا فيه باهميته، رغم مظهره المتواضع، بالاضافة الى قدر كبير من التوتر الداخلي، واشارت النتائج الى ان كوهين لا يقدر الخطر تقديرا سليما، وانه عرضة للاقدام على مجازفات تتجاوز ما هو ضروري.

افسحت المخابرات الاسرائيلية المجال امام كوهين للعيش على طريقته، لكن، عندما تزايد التوتر على الحدود مع سوريا في ايار ١٩٦٠ احتاجت امان الى جاسوس في دمشق، وكان كوهين الرجل الذي يصلح للمهمة.

ورغم الاحساس بالاستعجال، استغرق تدريبه في اسرائيل نصف سنة، وتبعها تدريب لمدة سنة في الارجنتين، وغادر كوهين اسرائيل في ٣ شباط ١٩٦١ ووصل الى بوينس ايرس باسم كامل امين ثابت، رجل اعمال سوري اخترعته امان، وكان عليه ان يندمج مع كثير من المقاولين العرب في اميركا الجنوبية، ونجح كوهين/ثابت في الاجتماع بأعضاء الجالية السورية الاغنياء والمتنفذين في الخارج.

في الوقت الذي توجه فيه الى دمشق في ١٠ كانون الثاني ١٩٦٢ كان كوهين/ ثابت مسلحا بحزمة من رسائل التعريف، وكان الرجل الجديد المثير في المدينة، حيث اوصى به كل السوريين في الارجنتين، ولم يمض وقت طويل على وجوده في دمشق حتى اصبح احد افضل اصدقائه من بوينس ايرس، امين الحافظ، رئيس سوريا، وكان من المتوقع ان يحصل ثابت على منصب وزاري وربما يصبح وزير دفاع.

بينما كان يعمل في مجال الاستيراد والتصدير، اهتم كوهين/ثابت بعلاقاته السياسية وكان يتلقى بين الحين والآخر دعوات لزيارة القواعد العسكرية وقام بجولة كاملة للتحصينات السورية المواجهة لاسرائيل على مرتفعات الجولان.

كانت المعلومات التي يرسلها الى تل ابيب، باستخدام اشارات موريس تغطي كل مجالات الحياة في سوريا، واستطاعت المخابرات العسكرية ان تحصل على صورة كاملة لبلد معاد بدا لا يمكن التغلغل فيه وكانت رئاسة امان ترحب كثيرا بتقارير كوهين، فكانت تشمل معلومات كاملة عن المشاجرات الداخلية داخل القيادة الحكومية، بالاضافة الى المعلومات التي كانت المخابرات العسكرية في حاجة لها عن الجيش السوري لملء ملفات الكمبيوتر.

واستطاع كوهين، من خلال تهريب الوثائق عبر اوروبا، أن يصف انتشار القوات على الحدود، بالتفصيل، ولاحظ مواقع مصايد المدرعات التي يمكن أن تحول دون تقدم القوات الاسرائيلية اذا نشبت الحرب، وقدم قائمة بجميع الطيارين السوريين، والمخططات الدقيقة للاسلحة المركبة على طائراتهم.

لو كان كوهين ورؤساؤه الاسرائيليون اكثر حذرا لكانت فرص كوهين في البقاء أفضل، ففي تشرين الثاني ١٩٦٤ كان في اجازة في اسرائيل، ينتظر مولد ابنه الثالث، فقد افتقد اسرته واعتاد على ارسال تحيات غير مباشرة عبر رؤسائه دون أن يكشف عن مكان وجوده، واستطاع كوهين ان يعرف المسؤولين عنه لأن فريق العمليات التابع للوحدة ١٣١ نقل من امان الى الموساد بعد نقل مائير اميت الى منصب رئيس الموساد.

واصلي كوهين تمديد اجازته وألح للموساد بانه، بعد حوالي اربع سنوات في الخارج، يرغب في التخلي عن مهمته، وذكر كوهين انه لم يكن يشعر بالارتياح من العقيد احمد السويداني، رئيس فرع المخابرات في الجيش السوري.

ومن سوء الحظ ان ضباط حالة كوهين لم ينتبهوا الى الاشارات التحذيرية فقد تجدد التوتر على الحدود وكانت احتمالات الحرب تلوح في الافق، فكان امراً حيويا أن تحصل اسرائيل على معلومات يعتمد عليها من دمشق، ومارست الموساد الضغط على كوهين للعودة الى وظيفته التجسسية باسرع ما يمكن.

في الشهرين التاليين، نسي كوهين قواعد الحذر والتعقّل، وربما أصبح راضياً عن نفسه نتيجة السهولة التي لا تصدق والتي استطاع بها ان يصادق أعلى الرتب في سوريا، فواصل إرسال بالرموز، مما كان يعني أن فريق مكافحة جاسوسية ذكيا يستطيع ان يربط عودة ثابت من الخارج باستئناف بث الاشارات.

أصبحت عمليات البث اكثر تكرارا، وفي غضون خمسة اسابيع بعث باحدى وثلاثين رسالة مبثوثة الى تل ابيب. وكان كوهين يبعث برسائله التجسسية في وقت محدد، في الثامنة والنصف صباحا، وقد أدى هذا الى سهولة تعقب جهاز البث الكترونيا.

وكان كوهين في بعض الاحيان يبثّ رسالتين في يوم واحد، وذات صباح سألته تل ابيب: ماذا حدث لمجموعة الميغ ٢١ التي كانت في حالة تأهب؟ وبعد ظهر ذلك اليوم، في الرابعة، اعطى كوهين اجابة مفصلة : قتل احد طياري المجموعة عندما ارتطمت طائرته بطائرة صغيرة على الارض، بعد حادثة تدريب في الجو، وتم اسقاط الثالث بسبب تعليقات بذيئة اطلقها ضد قائده.

اصبح كوهين متهاونا جدا على جهاز الارسال كما لو انه كان يستدرج مصيره، وكان على ضباط حالته في تل ابيب ان يكبحوه، لكن احدا منهم لم يفعل ذلك، فقد كانت المادة التي يبعث بها جيدة لا تستدعي كبحه.

يبدو انه بتوجيه من جهاز معرفة الاتجاه اللاسلكي، والذي يشغله على الأغلب، مستشارونْ سوفيات، اقتحم رجال المخابرات السورية برئاسة العقيد السويداني شقة كوهين يوم ١٨ كانون الثاني ١٩٦٥ وضبطوه متلبّساً بالجريمة، وهو يعمل على جهاز البث في منتصف رسالة كان يرسلها.

حاول السويداني أن يخدع اسرائيل باجبار كوهين على بث معلومات خيالية، وبعد ثلاثة ايام من هذه اللعبة، ودون ردّ من تل ابيب، استسلم السوريون وبعثوا برسالة نهائية، موجهة الى رئيس الوزراء ليفي اشكول: اننا نستضيف كامل ورفاقه لفترة محدودة، سنعلمكم بمصيره في المستقبل.

اعتقل عدة مئات من السوريين الذين كان كوهين/ثابت قد صادقهم كما اعترف كوهين بانه جاسوس اسرائيلي.

لم تنجح نداءات اسرائيل للبابا والحكومات الاوروبية للحصول على عفو عن ايلي كوهين، وقد حكمت عليه محكمة سورية بالاعدام فشنق في دمشق يوم ١٨ ايار ١٩٦٥ .

بالنظر الى ان الاسرائيليين كان لهم مصدر مخابرات قوي مزروع بشكل جيد مثل كوهين، فقد كان لهم مصدر آخر في ذلك الوقت في مصر: وولف غانغ لوتز.

ولد لوتز في مانهايم، المانيا، عام ١٩٢١ وكانت امه ممثلة يهودية، وكان والده مسيحيا يدير مسرحا في برلين.

تطّلق والداه، ووصل ادولف هتلر الى السلطة، وانتقلت الام مع ابنها الصغير لوتز الى فلسطين طلبا للسلامة، وغير وولف غانغ اسمه الى زيف غور اريه، وكلمة زيف عبرية تعني وولف أي الذئب، وعندما كان يدرس في مدرسة بن شيمين الزراعية شرقي تل ابيب، نشأ لديه حب شديد للخيول حتى ان اصدقاءه لقبوه «سوس» وهو الكلمة العبرية التي تعني الحصان.

انضم لوتز /غور اريه / الى حركة الهاغناه السرية في عام ١٩٣٧ ، وحارب مع البريطانيين في الحرب العالمية الثانية، وتسلل وراء الخطوط الالمانية في شمال افريقيا. كان يتقن العربية والانجليزية والالمانية والعبرية وفي ٤٨ ـ ١٩٤٩ كان ضابطا في جيش اسرائيل الجديد، ورقي الى رتبة رائد وقاد مجموعة احتلت مواقع مصرية خلال حملة السويس ١٩٥٦ .

بعد ذلك فقط اتصلت به امان، فقد تأثر ضباط المخابرات الاسرائيلية بغور اريه لانهم ادركوا انه لم يبد كالاسرائيليين، وكما قال فيما بعد: كنت أشقر، قصير الجسم ممتلئه، ومسرفا في الشرب ومثالاً لضابط الماني سابق.

سأله رجال امان فيما اذا كان يستطيع ان يتناسى يهوديته ويقنع الاخرين بانه نازي سابق، وفي التدريب المكثف والمرهق، تعلّم لوتز كيف ينسى انه غور اريه ويعود الى المانيا الغربية للبدء في بناء قصة تغطية ـ وهي خطوات شبيهة بتلك التي قام بها ماكس بينيث قبل عقد، وكان على لوتز ان يلعب دور رجل أعمال الماني خدم في جيش هتلر في شمال افريقيا وقضى احدى عشرة سنة في استراليا يربّي الخيول.

بعثه موجهوه من أمان الى مصر في كانون الأول ١٩٦٠، وزودوه براسمال كاف ـ مبلغ ضخم بالمقاييس الاسرائيلية ـ لاقامة مزرعة خيول. وشعروا أنه من غير المحتمل ان تقوم المخابرات العامة المصرية بالتنقيب في خلفية الالماني الغني، وكما قال لوتز فقد كانت مجازفة، لكنه كان احد العملاء السريين القلائل الذين عملوا تحت اسمائهم الحقيقية باوراقه الحقيقية.

كان لوتز مضيفا سعيدا لحفلات ضمت كبار ضباط الجيش وكل «الناس المناسبين» في المجتمع المصري، كان يدخّن الحشيش معهم، ويشجعهم على التحدث عن عملهم المتعلق بالدفاع، وكان يبث التقارير المفصلة لتل ابيب باستخدام جهاز ارسال صغير مخبأ في كعب حذاء الفروسية.

وقد استخدم لوتز ايضا في حملة ايسر هاريل السيئة الحظ ضد العلماء الالمان في مصر، فكان يعلم عناوينهم في القاهرة لرئاسة الموساد، وبعث لهم بعدة رسائل مجهولة المصدر ينبههم الى ضرورة التخلي عن برنامج الصواريخ المصري ـ من أجل سلامتهم، كما انه خزن متفجرات ربما كان المقصود منها استخدامها في الرسائل الملغومة.

وكان كل بضعة شهور يذهب الى اوروبا ليتصل بضابط حالته من امان، وفي باريس مثلا كان يذهب الى هاتف على الطريق ليتصل برقم يتذكره، ويتذكر لوتز: بعد ان اذكر كلمة السر، كانوا يطلبون مني ان اقابل صديقا في الساعة الثالثة في مقهى معين، وفي الحقيقة كانت الثالثة في مقهى س تعني الثانية على مقهى ص.

في قطار ليلي من باريس، في حزيران ١٩٦١، التقى لوتز بشقراء طويلة جميلة ذات عينين زرقاوين، وبعد اسبوعين تزوج وولف غانغ من ولترود واصطحبها معه الى القاهرة.

تقول بعض التقارير، ولم تؤكد، ان المرأة كانت جزءاً من غطائه، وان رئيس وكالة المخابرات الالمانية الغربية، بي ان دي، الجنرال رينهارد غيهلين، في جزء من تعاونه السري مع

اسرائيل ـ قد عين وولترود، وهي عميلة بي ان دي، للعمل مع لوتز في مصر. وتعززت هده الامكانية بحقيقة غير معروفة كثيرا وهي ان لوتز، وكان قد طلق مرتين في حياته، كان له زوجة ثالثة في اسرائيل كانت ما تزال على ذمته.

قال لوتز انه عندما أخبر زوجته الجديدة انه جاسوس يهودي، أحبّت الفكرة ووافقت على مساعدته واتفقا على رمز «نشير الى اسرائيل بكلمة سويسرا، وللمخابرات الاسرائيلية بالعم اوتو».

في مزرعتهما قرب قاعدة صواريخ تجريبية كانا يراقبان الضباط النازيين السابقين والعلماء الالمان الذين كانوا يساعدون مصر في تطوير اسلحة جديدة.

وذات مرة، ضبط يتجول في القاعدة، فجعل السلطات تتصل بكل اصدقائه في الجيش والشرطة السرية المصريين، فتأثر آمر القاعدة وهيأ لمربي الخيول الالماني جولة في مرفق الصواريخ، وقد قال المصري متباهيا: «سيكون لنا ذات يوم رايخ عربي عظيم، ان لدى الاسرائيليين جهاز مخابرات ممتازا، وينبغي الا يعرفوا أي شيء عن الصواريخ الى ان نوجه الضربة الاولى. والان تعال معي في جولة».

ولمس لوتز شيئا من عدم النضج لدى الجانب الاسرائيلي، ففي الحفلات في القاهرة رأى كارولين بولتر التي زعمت انها نصف المانية ونصف هنغارية، زوجة عالم اثار الماني، وكانت تنجح في الحديث مع العلماء الالمان وتأخذ بعض المعلومات عن مشروع الصواريخ المصري، ولاحظ لوتز انها عندما تفرط في الشراب، تتحدث العبرية بدلاً من الالمانية كما ضبطها بعضهم وهي تلتقط صورا في بيت احد العلماء، فبعث لوتز رسالة الى تل ابيب قائلا انه اذا كانت السيدة بولتر عميلة اسرائيلية فمن الافضل سحبها على الفور. . واختفت.

في تل ابيب نقلت مسؤولية ادارة لوتز من امان الى الموساد في عام ١٩٦٣، بعد انتقال مائير اميت من الجيش الى الموساد كرئيس للوكالة، ولم يكن ضباط الحالة في رئاسة الموساد يعرفون كيف يتعاملون مع تعدد الزوجات بالنسبة لعميلهم النجم، واحتاجوا الى وقت طويل قبل أن يخبروا زوجته في اسرائيل ان لوتز تزوج مرة اخرى.

كما ان ضباط الحالة الجدد لم يكونوا مسرورين بعادات عميلهم.كان يفرط في الشراب، وبدا كريما جدا في تقديم الهدايا لعملائه المصريين، وكان يتوجب دفع الفواتير في تل ابيب، وكانت دائرة الحسابات في الموساد تصفه بجاسوس الشامبانيا.

الا ان المعلومات التي كان يبعثها كانت موثوقة ولا بديل لها، وقد عانت الموساد برئاسة مائير اميت من ضربة ساحقة عندما اعتقل لوتز وزوجته من قبل عملاء المخابرات المصرية الذين

اقتحموا شقته في القاهرة في ٢٢ شباط ١٩٦٥.

ويبدو ان جهاز البث اللاسلكي، المخبأ في ميزان الحمام قد اكتشف بواسطة جهاز كشف الاتجاه، كما حدث في دمشق.

ومع هذا كانت هنالك اختلافات واضحة بين قضيتي لوتز وكوهين، فبينما اعترف كوهين بانه جاسوس اسرائيلي وشنق فقد تمسك لوتز بعناد بادعائه بانه الماني غير يهودي، ساعد اسرائيل مقابل بعض المال.

استطاعت الموساد ان ترسل محاميا المانيا لمساعدة لوتز وزوجته في محاكمتهما في القاهرة، وقال المحامي علانية انه تم ارساله من قبل اصدقاء لوتز في الجيش الالماني وهنا يعلق لوتز: بما انني لم أخدم في الجيش الالماني فقد عرفت من الذي أرسل المحامي.

ومع أنه حكم عليهما بالسجن مدى الحياة، الا انه وزوجته افرج عنهما بعد ثلاث سنوات في عملية تبادل الاسرى بين مصر واسرائيل بعد حرب حزيران ١٩٦٧، وكان رئيس الموساد اميت محبطا جدا لعدم قدرته على انقاذ كوهين لذلك أصرّ على رئيس الوزراء اشكول ان يدخل لوتز في عملية تبادل الاسرى. وتردد الزعماء السياسيون الاسرائيليون في الاعتراف علانية بان لوتز كان جاسوسا لاسرائيل لكن اميت هدد بالاستقالة من أجل كسب تأييدهم للمبادلة.

كان لوتز اسعد حظا من كوهين، لكن وولف غانغ لوتز ملّ الحياة كمدني وانتقل الى المانيا الغربية ثم الى كاليفورنيا ليتابع فرصا تجارية لم تفلح ابدا.

كان للموساد عميل كبير آخر في العالم العربي في نفس الوقت. فقد كان باروخ مزراحي في سوريا كمدير مدرسة لغات اجنبية عندما اعتقل كوهين من قبل المخابرات السورية، وقد أمره موجهوه في تل ابيب بالعودة الى اسرائيل فورا.

الا ان حذر الموساد لم يساعد مزراحي بعد سبع سنوات، فقد عين في اليمن للتجسس على الجيش المصري، الذي كان ما يزال يشارك في الحرب الاهلية هناك وللابلاغ عن حركة الملاحة من وإلى البحر الاحمر. وقد اعلنت السلطات اليمنية عن اعتقال مزراحي في ايار ١٩٧٢، وارسلت المشبوه الى القاهرة مع أن القوات المصرية كانت قد غادرت اليمن، لكن الامور لم تجر بشكل سيء بالنسبة له حيث أعيد الى اسرائيل في عام ١٩٧٤ مقابل عربيين اسرائيليين كانا يتجسسان للمخابرات المصرية.

كان للموساد أهتمام باليمن منذ زمن طويل، بسبب الممرات البحرية والتدخل المصري فيها، وبين عام ١٩٦٣ و ١٩٦٥ انضمت اسرائيل لبريطانيا العظمى، والسعودية، لتقديم الاموال والاسلحة للقوات الملكية في اليمن الشمالي التي كانت تقاتل ضد النظام الجمهوري،

والوحدات العسكرية المصرية، وقد اراد الاسرائيليون للحرب الاهلية اليمنية ان تستمر لأن ذلك يبقي الجيش المصري بعيدا ومشغولا.

لكن الاسرائيليين اخطأوا، لأن الصراع في اليمن البعيدة لم يمنع الحرب التي كانت المخابرات الاسرائيلية تتمنى ان تتجنبها والتي كانت تستعد لها.

الفصل السابع

الطريق الى الحرب

في نفس الوقت الذي كانت قواته تقاتل فيه في اليمن، سار الرئيس عبد الناصر في طريق سياسي سيقود العالم العربي أجمعه الى شفا حرب أكبر بكثير.

هذا ومدفوعاًبحماسه البلاغي القومي العربي، عرف عبد الناصر أنّ مصر وحدها لا تستطيع ان تسحق اسرائيل. وفي كانون الثاني عام ١٩٦٤ عقد مؤتمر قمة في القاهرة كمضيف لملوك ورؤساء الدول العربية كلّها. وأعلنت القمة تأسيس منظمة جديدة، هي منظمة التحرير الفلسطينية التي ستقاتل لاستبدال اسرائيل بدولة عربية أخرى.

وعرف عبد الناصر أيضاً أن المنظمات الجديدة لن تكون كافية لتحقيق الهدف، لذا قررت القمة كذلك تحويل روافد نهر الأردن التي كانت حيوية من أجل التطوّر الزراعي في اسرائيل. ودفعت أعمال التحويل الاسرائيليين الى تفجير الجرافات في سوريا والأردن ولبنان المجاورة.

وأدرك الزعماء العرب أنهم سيحتاجون الى قوة مسلّحة للتغلّب على الدولة اليهودية، لذا أسّسوا قيادة عسكرية موحدة. وكان ذلك هو الجانب الظاهري من حشد القوّة نحو الحرب. إلّا أنّه كان هنالك أيضاً جانب خفيّ.

فلقد قامت الاستخبارات المصرية والسورية، واللتان لا تُصنّفان من بين أفضل استخبارات العالم في التجسّس، بكل ما بوسعها لاختراق المجتمع الاسرائيلي؛ إذ استعانتا بقلّة من المواطنين العرب في اسرائيل ـ وهو خيار أبعد ما يكون عن كونه مثالياً وذلك لأنهم كانوا طبيعياً مشتبهاً بهم وتحت المراقبة ـ كما كانتا تقومان بين فترة وأخرى بإرسال عملاء للدولة اليهودية على هيئة سيّاح.

وكان أجرأ أسلوب لجأت إليه الاستخبارات السرية العربية مطابقاً لطريقة عمل الموساد وهو: أن يتعلم عميل عربي بالضبط كيف يكون يهودياً، وأن يذهب إلى إسرائيل كمهاجر دون أن يلتفت إليه أحد في موجة من القادمين اليهود الجدد والمرحّب بهم.

ولقد تمكّن كوبروك ياكوفيان، وهو أرمني يعمل لمصر، من القيام بهذه الخدعة، إذ انتحل هوية زائفة باسم «اسحق كوشوك»، وانتقل إلى إسرائيل في كانون الاول عام ١٩٦١ - ظاهرياً من البرازيل. وكان القنصل الاسرائيلي في ريو دي جانيرو قد أعطاه تأشيرة معتقدا انه يهودي يقوم بالهجرة الى وطنه التوراتي.

في الواقع، كانت الاستخبارات المصرّية قد جنّدت ياكوفيان/ كوشوك عندما كان مسجوناً في القاهرة وذلك لارتكابه جريمة صغيرة. بل إنّ المصريين ختنوه كي يجعلوه يهودياً مقنعاً جسدّياً. وتحت اسم كوشوك، عمل في كيبوتز لفترة واستقرّ في مدينة عسقلان ودخل الجيش الاسرائيلي. وبالرغم من رغبته في الانضمام الى الفيالق المدرّعة إلاّ أنّه لم يزد على أن يكون في وحدة نقل. ومع ذلك تمكّن من إرسال معلومات ذات قيمة للقاهرة قبل ان تلقي الشين بيت القبض على الجاسوس في كانون الأول عام ١٩٦٣. واستفاد ياكوفيان/ كوشوك من عدم وجود عقوبة الإعدام للتجسّس في اسرائيل، فقضى سنوات قليلة فقط في سجن اسرائيلي وتمّ ترحيله فيما بعد الى مصر.

وكان المصريون أكثر نجاحاً في أواخر الستينات من هذا القرن، عندما أرسلوا رجلاً زعموا أنه «أحد أفضل» العملاء السريين الى اسرائيل. ولقد أطلق على نفسه اسم جاك بيتون وفتح وكالة سفريات في برينرستريت في تل أبيب. وكان هو الآخر يتظاهر بأنه يهودي كما تمّ ختنه على نحو مماثل. وبخلاف ياكوفيان/ كوشوك، لم يتمّ القبض على بيتون أبداً - والذي ما زالت هوّيته الحقيقية مجهولة. وبدلاً من ذلك، كان يتمتعّ برفاهية غير عادية عندما اختار أن يتقاعد؛ إذ سمح له المصريون بالانتقال الى ألمانيا الغربية، حيث استقرّ مع زوجته بقيّة حياتهما.

وحقق تلفزيون مصر الحكومي ضربة كبيرة على الهواء عام ١٩٨٨ عندما أذاع فيلماً مأخوذاً عن قصّة حياة بيتون.* في البداية، قال المسؤولون الاسرائيليون انه كان من صنع «الخيال العربي»، إلاّ أنه عندما برزت تفاصيل أكثر في القاهرة اضطرّوا للاعتراف بأن عميلاً للعدّو قد فرّ دون عقاب. ومع ذلك، أصرّ الاسرائيليون بأنّه لم يُسبّب ضرراً بالغاً.

إنّ الافتراض الأوّل بأن بيتون لم يحدث ضرراً، وبأن العرب لا يستطيعون القيام بعملية ناجحة داخل اسرائيل كان نتيجة طبيعية للاعتقاد التقليدي باللامعصومية التامة للعرب؛ فأصبح الاسرائيليون مقتنعين بأنّ أعداءهم لا يستطيعون القيام بأي شيء على نحو صحيح، خصوصاً بعد حرب عام ١٩٦٧

لقد كان الانتصار المفاجىء على مصر والأردن وسوريا انتصاراً لمائير أميت الى حدّ كبير، والذي تحقّق بفضل هواجس مدير الموساد. فبخلاف هواجس سلفه إيسر هاريل، ركّز أميت على الحصول على أكبر قدر ممكن من المعلومات فيما يتعلّق بالدول العربية المجاورة وجيوشها، وذلك كي يكونوا على أهبة الاستعداد للحرب في أية لحظة.

(*) الفيلم هو رأفت الهجان.

وكان يمكن الحصول على المعلومات من مصادر عديدة، كما اعتقد أميت أن الاجانب المؤيدين يمكن أن يكونوا ذوي فائدة ـ وهذا هو السبب الذي جعله يتأكّد، عقب تولّيه رئاسة الموساد عام ١٩٦٣، من حرص الوكالة على إقامة روابط مع نظيراتها في كل مكان من العالم الغربيّ.

وأضحى قسم الاتصال والعمل السياسي في الموساد وزارة خارجية سريّة ثانية، حيث كانت تتفوّق في بعض الأحيان على الوزارة الأصلية. وفي مذكّراته، عرف مايلز كوبلاند الذي أعلن نفسه «العميل السياسي الأصلي للسي آي إيه» «العمل السياسي» من مفهوم الاستخبارات. فقال إنه يتضمّن كسب التأييد من خلال «تجميع المؤسسات التجارية والصناعية في الدول المستهدفة، وحثّها على تنظيم سبيل حكيمة للضغط على حكومتها»، الى جانب إرسال مستشارين وتعيين شخصيات محلّية بارزة «كعملاء متنفذين». وبينما يحدّد الوظيفة رجل من السي آي إيه، إلاّ أنّ الاسرائيليين هم الذين كانوا يقومون بالتنفيذ في مختلف أنحاء العالم.

وكانت هنالك العديد من الدول ـ على سبيل المثال ثلاثون دولة نامية في إفريقيا ـ فتحت اسرائيل فيها سفارات لها بعد إقامة علاقات دبلوماسية وتقديم برامج إعانة شتّى. وكما قد تفعل أي دولة تقريبا، جعلت اسرائيل عملاء من الموساد يعملون في السفارات تحت غطاء دبلوماسي.

وحيثما لم تكن هنالك علاقات دبلوماسية أو كانت قد قطعت فيما بعد نظراً لخلافات سياسية ظاهرية، قام الدبلوماسيون البديلون للموساد بوظائف لا تتولاّها في العادة الاستخبارات السرية، ففي إفريقيا على وجه التحديد، أقنع أميت السي آي إيه بتقديم ملايين الدولارات لتدعيم النشاطات السرية لاسرائيل. وكان قد حُكِم عليها بأنها لمصلحة الغرب العامة. ولقد أُطلق على المشروع في كتب السي آي إيه الاسم الرمزي «جبل كى كى».

وحظي «المفهوم المحيطي» لمدير الموساد الأوّل روفين شيلوه بدفع كبير إبّان عهد أميت: إذ تمّ تقوية الروابط السرية لاسرائيل مع أثيوبيا وتركيا وإيران. تعمدت كل من اسرائيل وايران الى مساعدة الثورة الكردية ضدّ حكومة العراق. كما ساعد العملاء الاسرائيليون في جنوب اليمن الملكيين في قتالهم ضدّ المصريين. وفي جنوب السودان، ألقت طائرة اسرائيلية إمدادات للتمرّدين المسيحيين. هذا وتوغّل الموساد اكثر من ذلك في إفريقيا، إذا امتدّ نشاطهم في الخارج ليصل أوغندا بحلول عام ١٩٧٠ لمساعدة عيدي امين في خلع الرئيس ميلتون أوبوتي.

وبالتنّسيق مع الشين بيت، أسست الموساد روابط مع عدد كبير من أجهزة الامن الخارجي بالانضمام الى «كيلووات»، وهي جماعة سرية تمّ تشكيلها لمقاومة الإرهاب الدولي. وكان أعضاؤها ممثلين لوكالات التجسّس في إيطاليا وبلجيكا وألمانيا الغربية وبريطانيا ولوكسمبورغ وهولندا وسويسرا والدنمارك وفرنسا وكندا وإيرلندا والنرويج بالاضافة الى اسرائيل بالطبع. وكان

للموساد كذلك روابط مع دول اخرى في اوروبا مثل البرتغال واسبانيا والنمسا.

ويوجد في معظم هذه الدول مراكز للموساد. ويعمل المركز عموما تحت غطاء دبلوماسي داخل السفارة الاسرائيلية، إلاّ أنّ رئيس المركز لا يطلع السفير على نشاطاته؛ ويرسل تقاريره بدلاً من ذلك إلى تل أبيب مباشرة. ولكلّ مركز ممثلون عن القسمين المهمّين للموساد وهما: جمع المعلومات والاتصّال. ويصرّ العملاء في الخارج على ضرورة التقسيم إلى أجزاء مستقلّة، بحيث أن أعضاء قسم واحد لا يعرفون ولا يجب ان يعرفوا بعمل الآخرين. وتشتمل مهامهم على تبادل الاتّصال الرسمي مع الاجهزة السرية للدولة المضيفة، إلا أنّهم كانوا يديرون شبكاتهم الخاصة بهم أيضاً دون إطلاع أجهزة الدولة المضيفة.

وركّز أميت على النشاطات شبه الدبلوماسية بصورة رئيسية في قارتين هما: افريقيا وآسيا.

فالدول الافريقية السوداء الحديثة الولادة والاستقلال في الستينات من هذا القرنفتحت أعينها لتجد اسرائيل الجميلة: مثالاً يُحتذى. وبينما كان يُنظر إلى الولايات المتّحدة والاتحاد السوفياتي كقوى عظمى توسعية، وبريطانيا وفرنسا والبلدان الأوروبية الأخرى كانت ما تزال مكروهة كدول مستعمِرة، كانت اسرائيل دولة فتّية برعت في عملية التطّور السريع في العصر الحديث. وكان بوسع زعماء إفريقيا رؤية الروح الريادية في العمل في اسرائيل، إلى جانب روح المبادرة والمقدرة الأكيدة التي أملوا ان تنتقل إليهم.

ورحّبت ما يزيد على اثنتي عشرة دولة إفريقية بفنّيين اسرائيليّين ومرشدين في الزراعة والصناعة والتجارة والدفاع. كما باشر مئات من الخبراء بمشاريع تنمويّة، ولم يكن السياسيون المتجّولون لاسرائيل متخلفين عنهم كثيراً؛ فلقد قامت وزيرة الخارجيّة غولدا مائير بجولة في القارة. وكان رئيس الوزراء ليفي اشكول أيضاً ضيف شرف في عدد من البلدان الافريقية.

وتضاعف عدد المستشارين بصورة كبيرة، وبالطبع كان عدد غير قليل منهم عملاء للموساد. وكان المضيفون الحكوميون في إفريقيا عادة أكثر من متفهمين لحقيقة الحياة هذه. فسارعت اسرائيل إلى تطوير تعاون استخباراتي ممتاز مع كينيا وزائير وليبيريا وغانا. وكانت وكالات التجسّس وأجهزة الأمن في كل بلد مُدرَّبة من قبل الاسرائيليين أو تحظى بمساعدتهم.

كانت القوة الرئيسية للموساد في إفريقيا تكمن في ديفيد (ديف) كيمحي. وكان كيمحي، الذي كانت أسرته الأوروبية الشرقية قد انتقلت من سويسرا إلى انجلترا، صهيونياً انتقل إلى فلسطين عام ١٩٤٦ إلا أنه احتفظ بعاداته البريطانية. فهو هادىء ومثقّف، ويرتدي نظارات ذات إطار أسود. وهو ذكي، ذو وجه ودود في الغالب، وشعره أسود، ولا يبدو أنه اسرائيلي، إذ يتحدّث الانجليزية على نحو ممتاز وبلهجة تجعل أي أحد يعتقد بأنه إنجليزي عريق.

وكان كيمحي قد جُنِّد من قبل الموساد عام ١٩٥٣، بعد بضع سنوات قضاها في معهد، حيث سرعان ما اشتهر في لجنة الاستخبارات لبصيرته الثاقبة وقدرته التحليليّة الممتازة إلى جانب ميله للاحتفاظ بمشاعره لذاته. وهو المكافىء الاسرائيلي الحقيقي لشخصية الجاسوس البريطاني جورج سمايلي الروائية لجون لوكاري. ولقد انصبّت اهتماماته على إقامة علاقات مع أقليات غير عربية أو غير مسلمة في الشرق الأوسط، إلا ان تخصّصه كان إفريقيا.

هذا وعمل في مختلف انحاء القارة منتحلاً شخصيات مختلفة بمن فيها شخصية «ديفيد شارون»، وهو دبلوماسي اسرائيلي. وكان كيمحي/شارون مصدراً موثوقاً وصديقاً للصحفيين الأجانب، كما كان قادراً دائماً على تزويدهم بآخر إشاعة تدور حول أنظمة الحكم الإفريقية في أغرب الأماكن.

وكانت جزيرة زنجبار الصغيرة الواقعة على مبعدة من الساحل الافريقي أحد تلك الأماكن. فحتّى عام ١٩٦٤، كان يحكمها سلطان، وكان أعضاء بلاطه ينحدرون من تجّار عبيد عرب. أما بقيّة السكان فكانوا من السود. في ذلك العام، اندلعت ثورة دموية في زنجبار، حيث انتزعت الأغلبية السوداء السلطة من يد الأقلية البيضاء، وقتل السلطان مع أسرته أو فرّوا من الجزيرة.

وفي اسرائيل لم تذرف أية دموع على رحيل السلطان، فلقد سقط معقل عربي آخر في إفريقيا، وتمّ فتح دولة أخرى أمام النفوذ الاسرائيلي. وقد «تصادف» ان كان ديفيد كيمشي في زنجبار في يوم الثورة، فعزّز وجوده سمعة الموساد وسط الدبلوماسيين الغربيين ومحلّلي الاستخبارات بكونهم قادرين على القيام بأي شيء.

وحرص أميت على أن تسعى الموساد إلى توسيع الدبلوماسية السرية لاسرائيل لتصل إلى الشرق الأقصى، بفتح مركز استخبارات في سنغافورة ـ وهي مستعمرة بريطانية سابقة كانت آنذاك جزءاً من ماليزيا الحديثة التكوين، قبل أن تحوّل نفسها إلى دولة مدنية مستقلة وثريّة. ولّما كان الزعماء الصينيّون العرقيون في سنغافورة يخشون دائماً من ماليزيا المتاخمة لهم ومن الأقلية الملاييه، فقد رحبّوا بمشورة إسرائيل في المجالين العسكري والدفاعي.

ووضعت الموساد وفداً عسكرياً اسرائيلياً دائماً في سنغافورة بزعامة الكولنيل بنيامين (فؤاد) بن أليزر، وهو ضابط في وحدة الكوماندو على قدر كبير من الخبرة، تمت ترقيته فيما بعد إلى رتبة عميد. وقام بن أليزر مع فريقه بتزويد جيش سنغافورة والبوليس السري بالاستشارات والتدريب ثمّ بالأسلحة.

وأضحت سنغافورة الصغيرة، بتعدادها الذي لا يكاد يصل الى مليونين ونصف المليون

منصّة إطلاق للدبلوماسيين البديلين للموساد في مختلف أنحاء آسيا. وكانت أندونيسيا أوّل نجاح ضخم لهم في آسيا ـ وهي دولة يبلغ عدد سكانها ١٨٠ مليون نسمة، ٩٠٪ منهم مسلمون.

كان الرئيس سوكارنو، الذي قاتل من أجل استقلال بلاده عن هولندا عقب الحرب العالمية الثانية زعيماً لحركة «عدم الانحياز» المعادية للغرب، وكان معادياً لاسرائيل بشدّة. إلاّ أنّه تمْت الإطاحة به عام ١٩٦٨ بعد تعليق الديمقراطية، وتعاونه المزعوم مع الشيوعيين الأندونيسيين الأقوياء في محاولة للاستيلاء على الدولة المتعددة الجزر.

وبعد الإشراف على ذبح ثلاثةآلاف شيوعي، أصبح القائد الأعلى للجيش الجنرال سوهارتو رئيساً. وكان لينفذ أي شيء لترسيخ حكمه. هذا وكانت اسرائيل في العام الماضي قد تغلّبت على الجيوش العربية الأكبر في ستة أيام فقط، الأمر الذي أثار إعجاب سوهارتو ودفعه للاتّصال بالاسرائيليين. فأرسلت الموساد فريقاً من مركزها في سنغافورة إلى الجنوب من جاكرتا، حيث تمت مناقشة إمكانّيات التّعاون على نحو تام ومثمر.

ومنذ فترة قريبة، كان المستشارون الاسرائيليون ـ الذين كانوا يتظاهرون عادة بأنهم أوروبيون او اميركيون ـ يقومون بتدريب الجيش الاندونيسي واستخبارات سوهارتو. وكانت وكالة الأمن الداخلي في جاكرتا مقتنعة بأنها تستطيع تحسين قدراتها الى حد كبير بالعمل بالنصائح الاسرائيلية.

وبسبب سياسات بلادهم المعادية للاستعمار بحزم، لم يثق الاندونيسيون بالسي آي إيه أو بأجهزة سريّة غربية أخرى. لذا كانت الموساد خياراً مثالياً، وسُمِح للوكالة الاسرائيلية بفتح مركز كبير إلى حدٍّ ما في جاكرتا تحت «غطاء تجاري» ـ وهو المصطلح الذي يستخدمه محلّل الاستخبارات للتظاهر بأنّه عمل.

وأخبر الرئيس سوهارتو ومعاونوه الاسرائيليين، بأنّها كدولة إسلامية، لا تستطيع اندونيسيا إقامة علاقات دبلوماسية رسمية. غير أنّ الروابط السرية أضحت وثيقة للغاية. وتمّ إرسال ضبّاط استخبارات وعسكريين اندونيسيين إلى اسرائيل للتدريب، وركزوا على وجه الخصوص على التكتيكات المضادة للتمرد، وذلك للبحث عن الثوّار الشيوعيين ـ وهي وسائل برع فيها الاسرائيليون لحماية حدودهم ومقاومة المقاتلين الفلسطينيين.

بحلول السبعينات من هذا القرن، توسّطت الموساد في صفقة أسلحة مهمة من إسرائيل إلى أندونيسيا. وشملت هذه الأسلحة اثنتي عشرة قاذفة قنابل «سكايهوك» اميركية الصنع، والتي لم يعد سلاح الجو الاسرائيلي بحاجة لها. بالإضافة إلى العوائد من مثل هذه المبيعات، استفادت اسرائيل من موطىء قدم آخر للاستخبارات في العالم الإسلامي. فلقد أثبتت أندونيسيا أنها قاعدة

مَهمّة يمكن من خلالها مراقبة الدبلوماسيين العرب والناشطين الفلسطينيين.

وكانت الهند، الأكثر كثافة سكانية، نقطة اتّصال أخرى ذات فائدة للموساد برئاسة مائير أميت، بالرغم من أن الحكومة الهندية كانت غير راغبة كذلك في إطلاع شعبها من الهندوس والمسلمين والبالغ عددهم ٨٠٠ مليون على العلاقة السرية مع الدولة اليهودية. ودائماً ما يكون التعاون السري مبنياً على مصالح مشتركة، بحيث يقود إلى تبادل في المعلومات. وبالنسبة للهند واسرائيل، فإنّ العدو المحتمل والمشترك هو باكستان وهي دولة مسلمة ملتزمة بمساعدة الدول العربية في الشرق الأوسط.

وأبدت الموساد قلقاً بالغاً حين علمت بأن العقيد معمّر القذافي في ليبيا قد عرض تمويل بناء مفاعل نووي في الباكستان، شريطة أن يُستخدم لتطوير «قنبلة إسلامية» يتم إعطاؤها للقذافي. بل إن العملاء الاسرائيليين بحثوا في إمكانيّة العمل مع القوات الهنديّة لتدمير المفاعل الباكستاني.

وكانت مقدرة الموساد على تعزيز الاتصالات الخارجية نيابة عن اسرائيل أكثر ما تكون إثارة للدهشة في العلاقات الفريدة التي أقامتها اسرائيل مع دولة عربية هي المغرب. فكدولة مسلمة، وعضو رئيسي في جامعة الدول العربية، كان المغرب يمنح تأييده المطلق للقضية الفلسطينية دائماً. إلّا أنّه وعلى نحو سرّي، أقام روابط ذات منفعة متبادلة مع الدولة اليهودية. وكان للملك حسن الثاني ميل شخصي موالٍ للغرب. كما شعر بأنه مُهدّد في الستينات من هذا القرن من قبل نظام الحكم الراديكالي والمعادي للملكية في الجزائر المتاخمة له، ومن قبل المتطرّف جمال عبد الناصر في مصر.

وساعد خبراء الموساد الملك حسن بتأسيس جهاز سرّي، وفي المقابل، تلقّت اسرائيل تأكيد الملك بأنه سيحمي اليهود في بلاده، كما سيسمح لهؤلاء الذين يرغبون في الهجرة الى اسرائيل القيام بذلك. وكانت العلاقات بين الدولتين سرية، لكنها كانت جيّدة ـ بل مثالية. غير أن أميت ما لبث ان وجد أنّ هنالك ثمناً يتعين عليهم دفعه مقابل كل هذا الكرم، وهو رأس مهدي بن بركة.

كان المنشق المغربي القيادي بن بركة قد صدر عليه حكم غيابي بالاعدام، وقرر لجهاز الأمن السري المغربي بزعامة الجنرال محمد أوفقير تنفيذ الحكم أينما كان بن بركة فطلب أوفقير مساعدة صديقه الاسرائيلي الجنرال آميت.

ووافق رئيس الموساد على تقديم المساعدة، لأنه كان يخشى أن ينعكس رفضه للطلب على يهود المغرب. والتقى آميت بأوفقير في فرنسا في أوائل خريف عام ١٩٦٥ لتوضيح التفاصيل النهائية للاتفاقية، وكان على الموساد ان تساعد في نصب الكمين لبن بركة.

في التاسع والعشرين من تشرين الاول عام ١٩٦٥، أغوى العملاء الاسرائيليون المنشق

المغربي بمغادرة جنيف الى اجتماع مزيف مع منتج أفلام في باريس. وهناك، خارج حانة راقية على الضفة اليسرى، قام ثلاثة ضبّاط فرنسيين كانوا يتعاونون مع المغاربة «بالقاء القبض» على بن بركة. وعندما رأى الاسرائيليون بأن العديد من العملاء الفرنسيين والمغاربة كانوا مشتركين في العملية تنحّوا بعيداً عن الصورة. غير أن رئيس مركز الموساد في المغرب كان عليه القيام بمهمة بغيضة، وهي المكوث مع أوفقير، لأنّ آميت أصرَّ بألاّ يُهمَل رئيس الأمن المغربي. ولم يعرف العميل الاسرائيلي القصد التام من المهمة، وفوجىء حين أطلق أوفقير ورجاله الرصاص على بن بركة، ودفنوه في حديقة فيلا خارج باريس.

اعتقد آميت وأوفقير أن السر قد دُفن مع الجثّة. فمن ذا سيلقي بالاً الى حادثة اختفاء ـ أو حتى الى جريمة قتل معزولة تمّ تنفيذها بالكامل ضمن معايير السياسات البشرق أوسطية؟ إلاّ أنّ رئيسي الاستخبارات لم يأخذا بعين الاعتبار ردود فعل شخصين آخرين لهما وجهات نظر وأمزجة مختلفة للغاية ـ وهما إيسر هاريل في اسرائيل والجنرال ديغول في فرنسا.

فلقد أمر الرئيس الفرنسي على الفور بـإجراء تحقيق في كيفيـة اختفاء بن بركة في قلب باريس. ولم يكشف التحقيق عن الارتباط الاسرائيلي المغربي وحسب، وإنما كشف عن تورّط الاستخبارات الفرنسية المماثلة للموسـاد، والمعروفـة باسم جهـاز التوثيق الخـارجي لمكافحـة التجسس.

وكان ديغول، الذي اشتبه بأن وكالته السرية كانت تحيك مؤامرة ضدّه، غاضباً بكل معنى الكلمة. وأمر بتنظيم الجهاز السرّي فوراً. كما وجّه غضبه نحو اسرائيل؛ إذ كيف يمكن لحلفاء فرنسا الذين تعاون ديغول معهم أن يعملوا من وراء ظهره؟

وكردّ فعل لمقتل بن بركة أمر الرئيس الفرنسي القيادة الأوروبية للمـوساد بـالانتقال من باريس، كما أمر بوقف كل التعاون الاستخباراتي بين الدولتين. وعمل قراره ببساطة على شحذ السكاكين التي امتدّت في اسرائيل، حيث كانت فضيحة قد بدأت بالظهور حول تورّط الموساد في جريمة القتل.

وكان هنالك من قبل صراع داخلي كبـير في السياسـة الاسرائيليـة، وذلك مـع اقتراب الانتخابات المقررة في تشرين الثاني عام ١٩٦٥، وكان حزب العمل واثقاً من فوزه كالعادة، إلاّ أن حركة العمل كانت قد انقسمت بمرارة بين حزب رافي لبن غوريون وحـزب مابـاي لليفي اشكول وغولدا مائير.

وبعد تعلم دروس من فضحية لافون، وظهور فضائح أكبر من عمليات تجسس خرقاء في مصر، قرّر زعماء ماباي أنه مهما حدث، فلن يسمحوا لفضيحة بن بـركة بـالانتشار ـ أو تصبـح حتى

معلومة عامة. لقد تسبّب القتل في نشر فضيحة مزعجة في فرنسا، بينما ظلّ التورّط الاسرائيلي سرياً تماماً.

وعندما ألمحت مجلة اسرائيلية جنسية تدعى «بول» بأنه من الممكن أن يكون هنالك «اسرائيليون في قضية بن بركة»، حجز الشين بيت الثلاثة آلاف نسخة كلّها من العدد قبل الموعد المحدّد لتوزيع المجلة. ولم تصل الأكشاك سوى خمس نسخ. ووُضِع رئيسا تحرير المجلة صمويل مور وماكسيم غيلان رهن الاعتقال الاداري، كما استند الى المادة ٢٣ من قوانين الأمن الاسرائيلية، رغم أن هذا الجزء لم يستخدم لأي شيء من قبل قط سوى التجسّس ضدّ الدولة اليهودية. وكانت هذه أوّل مناسبة والوحيدة ـ حتّى تأليف هذا الكتاب، يتمّ فيها العمل بهذا القانون ضدّ الصحفيين اليهود في اسرائيل.

وكما في فضيحة لافون، كان السؤال الأساسي: من الذي أعطى الأوامر؟ ادّعى آميت أن ليفي اشكول هو الذي أعطاه الضوء الأخضر، إلا أنّ رئيس الوزراء زعم أنّه لم يقم بمثل هذا الشيء مطلقاً، وبدأ المطلب الداعي الى تشكيل لجنة تحقيق يحظى بالزّخم عندما انضمّ إيسر هاريل الى الدعوة لذلك. وكان صوته آمراً، لا بسبب ماضيه فقط، وإنما لأن الميمونه السابق كان قد تعيّن للتوّ في وظيفة جديدة كمستشار لرئيس الوزراء في الاستخبارات.

حدثت عودة هاريل المفاجئة الى نشاطه في ايلول عام ١٩٦٥، قبل شهر من مقتل بن بركة. ولعل اشكول كان مدفوعاً برغبته لتحقيق تفوق واحد على منافسه الدائم ديفيد بن غوريون، فلقد كان الأمر كما لو كان يرسل الرسالة التالية: «أنا، ليفي اشكول، بعد أن أخذت مكان «القائد» أعيد الى الأجهزة السرية الاسرائيلية الرجل الذي كان ذات يوم ربيب بن غوريون، لكنّه أُلقي في كومة النفاية».

وتجاهل اشكول احتجاجات آميت بشأن التعيين، كما تجدّدت الحرب القذرة بين آميت وهاريل منذ اللحظة الأولى للتنظيم الجديد. ووجدت لجنة الاستخبارات نفسها مشدودة في اتجاهات متعاكسة؛ إذ رفض اميت التعاون مع هاريل. فوجد هاريل طرقاً لتجنب آميت. وبالاستعانة باتصالاته الشخصية ومعرفته بأرشيف الوكالات السرية، تمكّن هاريل من استعارة الملفات السرية من خزائن الموساد واستدعى هاريل رؤساء أقسام الموساد الى رئيس الوزراء مباشرة لعقد اجتماعات، حيث تضمّنت الموضوعات في الغالب تقييماتهم لمقدرة آميت ـ مركزين على عيوبه.

ورفض هاريل الموافقة على المقترحات للقيام بعمليات سرية والتي طرحها آميت لاشكول. وكان ذلك نهاية خطّة جريئة وضعها آميت عام ١٩٦٦ للسفر الى القاهرة لعقد اجتماع سري مع

المشير عبد الحكيم عامر نائب الرئيس جمال عبد الناصر.ولقد اقترح الفكرة رجل أعمال يهودي أجنبي على معرفة بمسؤولين مصريين كبار، حيث كان آميت مهتماً بها للغاية.

ورأى هاريل أن محادثات القاهرة المقترحة يمكن ان تكون كميناً، مضيفاً بأنّـه من الجنون واللامسؤولية أن يسعى رئيس الموساد الى الوقوع بين يديّ العدو. وأشار هاريل أنه اذا ما ألقي القبض على آميت وتمّ استجوابه في مصر فقد يضطر الى الكشف عن أسرار اسرائيلية حيوية.

ممزّقاً بمعركة العملاقين، وقف اشكـول الى جانب هـاريل. ولم يتمّ إجـراء المفاوضـات المقترحة مع مصر أبداً. ويعتقد آميت بحسرة ومرارة أنّه لو طار الى القاهرة بصورة سرية، لكان من الممكن تجنّب الحرب التي اندلعت في حزيران عام ١٩٦٧. إلاّ أنّه لم يكن هنالك وقت للجنة الاستخبارات للتفكير بهذه الاسئلة. فالتوتر على طول حدود اسرائيل مع مصر وسوريا كان يزداد بصورة حادّة، وكان يتعينّ على الوكالات السرية أن تجنّد كل مصادرها لمواجهة الخطر الجديد.

ولم يكن هنـالـك أيضـاً وقت لحسم الخـلاف حـول من المسؤول عن الاستخبـارات الاسرائيلية، هاريل، أم آميت. كما أن اقتراح التسوية بجعل رئيس مجلس الوزراء وبطل حرب ١٩٤٨ ييغال ألون مسؤولاً عن لجنة الاستخبارات لم يحظ بالاهتمام الذي يستحقه مـع بوادر حرب تلوح في الأفق.

وتمّ كذلك كنس أكبر إحراج لأميت، وهو مقتل بن بركة في باريس، تحت السجادة في اسرائيل. وكان هذا اكثر مما يستطيع هاريل احتماله، بعد دعواته المتكررة لاجراء تحقيق شامل. وكان قد وضع مركزه على الحد الفاصل، وشعر بألاّ خيار أمامه سوى الاستقالة في حزيران عام ١٩٦٦. ولراحة أميت الكبرى، انتهت محاولة هاريل لاستعادة مركزه السابق على نحو فظ بعد تسعة شهور فقط في مكتب رئيس الوزراء. لقد وصلت الحملة الجديدة للميمونه السابق الى لا شيء باستثناء إلغاء مهمة السلام الى القاهرة. وهذه المرة غادر هاريل الجهاز السري الى الابد.

وتمسّك أميت بوظيفته في الموساد بمعجزة، محظوظاً بإزاحة الأمور المختلفة جانباً، لتكريس الانتباه الكامل للهدف الأول للموساد وهو: الإعداد للحرب.

وقام الكولونيل ياريف، قائد أمان ووكيـل أميت السابق في الاستخبـارات العسكريـة بوظيفـة غير عادية حين فحص كل معلومة متوفرة حول القوات المسلّحة العربّية، حيث كانوا قد استعدوا لشن هجوم على اسرائيل عام ١٩٦٧. وباستخدام أنظمة كمبيوتـر طوّرهـا الكولـونيل يـوفال نيمـان مع آخرين في امان، تمكنت لجنة الاستخبارات من تزويد المخطّطين العسكريين لاسرائيل بقوائم الأهداف ونقاط المشاكل المحتملة في حالة اندلاع الحرب.

وعندما حاصر الرئيس المصري جمال عبد الناصر مضائق تيران في أيار، ليحول دون وجود

منفذ بحري الى اسرائيل من الجنوب، بحث رئيس الوزراء اشكول في الخيارات الدبلوماسية لمدة ثلاثة أسابيع قبل أن يعلن الحصار عملاً من أعمال الحرب. في غضون ذلك، كان عبدالناصر قد طلب من قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة مغادرة شبه جزيرة سيناء المصرية.

وأتى ردّ اسرائيل عن طريق الجوّ في صبيحة الخامس من حزيران عام ١٩٦٧. وضَمن سلاح الجو الاسرائيلي، مسلحاً بكل القنابل وقائمة الأهداف التي وضعتها لجنة الاستخبارات نصر الستة أيام في أقل من ست ساعات. وتمّ تدمير سلاح الجوّ المصري على الأرض. كما تلقّت القوات السورية والأردنية ضربات مدمرة على نحو مماثل.

كانت الساعات الأولى من الحرب القصيرة محيّرة، فبينما كانت محطّات الإذاعة العربية تتأمّل في انتصاراتها الخيالية، تمكّن جون هادين رئيس مركز السي آي إيه في اسرائيل من ارسال تقرير الى مركز قيادته في لانغلي بفرجينيا بأنّ «الحرب قد انتهت». وكان على علاقة ممتازة مع الموساد - ومن باب المزاح، كان اصدقاؤه من المسؤولين الاسرائيليين ينادونه بالاسم العبري المكافيء لاسمه وهو: يوشانان ها - دان - كما كان قادرا على الحصول على أحدث تقارير المعارك الصحيحة.

وكان أميت في مركز قيادة السي آي إيه الجديد قبل أيام قلائل فقط، وذلك في مهمة خاصّة لاشكول، تمثّلت في: إخبار الأميركيين بأن الحرب كانت أمراً محتوماً، وبأنّ عبد عبد الناصر هو الذي بدأها بمحاولة خنق اسرائيل، وبأنّه يتعينّ على اسرائيل أن تشنّ هجومها المسلّح الأول من أجل البقاء.

وأصغى مدير السي آي إيه ريتشارد هيلمز الى أميت، وكذلك فعل الرئيس ليندون بي. جونسون. وتفهّمت الولايات المتحدة حجج اسرائيل ولم تعترض على الاعتداء الاستباقي. هذا وكان إنجاز أميت في الدبلوماسية السرية مبنياً على روابط الاستخبارات العالمية التي جهد الموساد في تعزيزها على مدى سنوات. وقام سلاح الجوّ والجيش بانجاز ما تبقى، بل وأفرطا في ذلك.

ففي واحد من أكثر حوادث الحرب غموضاً وإثارة للجدل، تسابق سلاح الجو الاسرائيلي والبحرية الاسرائيلية للهجوم على سفينة أميركية. وكانت سفينة التجسس البحرية الأميركية «ليبرتي» المزوّدة بأجهزة لاسلكي متطورة وهوائيات وأطباق تعمل لوكالة الأمن القومي في البحر الأبيض المتوسط. وفي يوم الأربعاء الموافق الثامن من حزيران، كنت ليبرتي مقابل ساحل شبه جزيرة سيناء، تراقب تقدّم الفاتحين الاسرائيليين. وبالرغم من أنها كانت ترفع العلم الأميركي ذا النجوم والشرائط، إلا أنّ السفن والطائرات الحربية الاسرائيلية فجرّت وقصفت وضربت سفينة المراقبة بالطربيد، ممّا أسفر عن مقتل أربعة وثلاثين بحاراً أميركياً، وإصابة العديد منهم بجروح.

وبعد مرور ربع قرن تقريباً، لم تقدم الولايات المتحدة الأميركية ولا الحكومة الاسرائيلية تفسيراً منطقياً، وجعلتا المجال مفتوحاً أمام الشائعات والتخمين والغضب الطبيعي الذي شعر به العديد من جنود البحرية الأميركية. إذ تساءلوا كيف تجرّأ الاسرائيليون بالاعتداء على سفينة حليفهم الرئيسي؟ ولماذا قاموا بذلك؟

واعتقد الناجون وأسر المفقودين بأن العملية لا بدّ وأنّها كانت متعمّدة: بأن الاسرائيليين كانوا يعرفون ما كانوا يفعلون، وذلك لصمّ وسدّ الآذان والعيون الالكترونية لوكالة الأمن القومي أثناء قيام اسرائيل بتحويل قوّتها المسلحة من الجبهة المصرية إلى السورية.

وأُسنِدَ إلى رئيس مركز السي آي إيه هادين وملحق البحرّية الأميركية في تل أبيب إيرنست كاسيل مهمة التحرّي عن الأمر، وقال الاسرائيليون ان قواتهم ببساطة قد ارتكبت خطأ وبعد إجراء تحقيق شامل، صدقهم هادين وكاسيل. ففي حمّى المعركة، كانت البحرية الاسرائيلية وسلاح الجو يتنافسان بصورة مخزية على التخلّص من سفينةلا علاقة لها بالموقع حسب خطة المعركة الرسمية. وعندما رأوا العلم الأميركي، ظنّ الاسرائيليون بأنّه من المحتمل أن يكون المصريون قد تظاهروا بأنّهم أميركيون، دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء التحقّق من الأمر. وظلّت الولايات المتحدة منزعجة لسنوات عديدة فيما بعد، وذلك بسبب غطرسة الاسرائيليين الظاهرة في رفضهم دفع تعويضات لأسر الضحايا.

وبحلول الحادي عشر من حزيران، كانت اسرائيل المتباهية تُحكم سيطرتها على الضفة الغربية وقطاع غزة وسيناء التابعة لمصر ومرتفعات الجولان السورية. ومحا الاستيلاء على هذه الاراضي الضخمة الفكرة بوجود دولة يهودية صغيرة لا تكاد تستطيع البقاء وسط الدول العربية الكبيرة والقوية.

لقد كان الانتصار بمثابة حدّ فاصل في تاريخ اسرائيل، ولم تكن لجنة الاستخبارات بمنأى عن التغيّرات الجارفة التي تلت ذلك.

الفصل الثامن

. . . وللشين بيت يومها

كان السرير ما يزال دافئاً، وقد تناثرت الملاءات والبطانيات على الأرض، كما غلى الماء في الإبريق وكان الشاي في الأكواب ما يزال ساخناً، إلا أن الرجل المعروف باسم أبو عمّار لم يكن موجوداً، فقبل ثوان قليلة من اقتحام القوات الاسرائيلية ورجال الأمن لفيلا مؤلفة من ثلاثة طوابق في رام الله، في الضفة الغربية، كان زعيم منظمة التحرير الفلسطينية ـ والمعروف في العالم الخارجي باسم ياسر عرفات ـ قد فرّ هارباً.

من الطابق الثاني من مخبئه، سمع أصوات الاسرائيليين عندما طوّقوا الفيلا وبدأوا التفتيش. فقفز عرفات من نافذة واختبأ في سيارة واقفة قريباً. وعندما غادر الرجال الذين كانوا وراء فروة رأسه، أسرع باتجاه الشرق وعبر نهر الأردن للمرة الأخيرة. كان ذلك في منتصف كانون الأول عام ١٩٦٧، عقب ستة شهور من استيلاء اسرائيل على تلك المنطقة من الاردن. ومنذ ذلك الحين لم تطأ قدما عرفات الضفة الغربية.

وشعر مدير الشين بيت يوسف هارملين بخيبة أمل؛ إذ كانت تلك المرة السابعة التي لا يتمكن رجاله فيها من الإيقاع بزعيم منظمة التحرير الفلسطينية.

وأضحت المنظمة الفدائية بؤرة هامة للاستخبارات الاسرائيلية منذ تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية عام ١٩٦٤. وفي الأول من كانون الثاني من ذلك العام، كان هارملين قد تولىّ إدارة الشين بيت من عاموس مانور. وكان مانور قد أبدى خيبة أمله لأنه لم يحلّ محل إيسر هاريل المعروف بالميمونه عام ١٩٦٣، وشعر بأنه لا يستطيع ان يتنافس مع رئيس الموساد آميت للحصول على اهتمام رئيس الوزراء اشكول.

وبالرغم من فشلها في الإمساك بعرفات، إلاّ أن الشين بيت كان لديها الكثير لتفخر به عام ١٩٦٧. والأهم من ذلك، أن وكالة الأمن تمكنت من سحق محاولة منظمة التحرير الفلسطينية إطلاق «انتفاضة شعبية» ـ قبل أن تبدأ تقريباً.

هذا وأبدت معظم الأراضي التي استولت عليها اسرائيل في حزيران صعوبات قليلة في السيطرة عليها. فكل السوريين تقريباً في مرتفعات الجولان، باستثناء بضعة آلاف من الدروز كانوا قد فرّوا من المنطقة. ولم تكن سيناء موطناً لأي مصري باستثناء بضع قبائل من البدو الرحّل. وكانت المشاكل الحقيقية لاسرائيل كقوة محتلّة موجودة في الضفة الغربية وقطاع غزة، بمعنى آخر، حيثما وُجِد الناس.

كانت الضفة الغربية، وهي منطقة ذات مساحة تقل عن ثلاثة آلاف ميل مربع، موطناً لحوالي ستمائة ألف فلسطيني، بينما أقام أربعمائة ألف آخرون في قطاع غزة الفقير والمكتظّ بالسكان، والذي بالكاد يتألف من مائة ميل مربع.

وكان الفلسطينيون مرتبكين وخائفين عندما وضعت اسرائيل بنية احتلالها العسكري. فشكّلت لجنة الاستخبارات قوة عمل خاصة مؤلفة من ديفيد كيمحي من الموساد ورجال أمان والشين بيت للبحث في سياسة السكان المحليين. واقترحت المجموعة منح الفلسطينيين حكماً ذاتياً يؤدّي الى دولة منفصلة. إلا أنّ اشكول وحكومته رفضوا النصيحة. وكان بعض العرب من ذوي الشأن مؤدبين، إذ لم يطلبوا سوى أن يسمح الاسرائيليون بعودة سريعة للتجارة العادية والحياة المدنية اليومية، غير أنّه كان واضحاً أن معظم سكان الضفة الغربية كانوا يفضلّون العودة الى الادارة الأردنية حتى انّ الغزيّين الذين كانت أوضاعهم سيئة إبّان حكم مصر، كانوا يؤثرون حاكماً عربياً بدلاً من اسرائيل.

واملاً في الاستفادة من الاستياء الشعبي، اعتزمت منظمة التحرير الفلسطينية وجماعات منشقة من الفدائيين محاكاة الفيتكونغ، الذين كانوا يواجهون القوات المسلحة الأميركية القوية في فيتنام بنجاح، وجبهة التحرير الوطني التي طردت الفرنسيين من الجزائر. وناشد عرفات ورفاقه الشعب الفلسطيني للثورة ضدّ الاحتلال الاسرائيلي الصهيوني.

وكانت خطّتهم، عقب الانتصار الساحق في حرب ١٩٦٧، تتمثّل في جعل السيطرة على الأراضي المحتلة أمراً صعباً بالنسبة للاسرائيليين. وكان على منظمة التحرير الفلسطينية أن تسيطر على الحياة اليومية في الخمسمائة مدينة وقرية في الضفة الغربية وغزّة، كما اعتقد منظّرون يساريون بين الفدائيين بأنه لا بد وأن يتبع ذلك تأسيس حكومة ثورية فلسطينية.

بعد حرب ١٩٦٧ مباشرة، استخدم منشور أصدرته منظمة التحرير الفلسطينية، وُوزِّع بصورة متحدية في الضفة الغربية لغة كلاسيكية ذات نَفَس شيوعي، جاء فيه« لا بدّ أن ننشيء مقاومة سرية في كل شارع وقرية وحيّ. كل شخص ملزم بمقاتلة العدو. دحرجوا الصخور الكبيرة من أعالي الجبال وذلك لسدّ الطرق الرئيسية للعدو. حاولوا ان تجعلوا سيارات العدو تشتعل بألسنة اللهب. لا بدّ ان نفرض مقاطعة على المؤسسات الثقافية والاقتصادية لقوى

الاحتلال» . وانتهى المنشور بتعليمات حول كيفية تحضير زجاجات المولوتوف الحارقة .

والذي كان يدور في ذهن مجموعات الفدائيين هو «نضال شعبي من أجل التحرير» يمكن ان يفخر به ماوتسي تونغ أو فيدل كاسترو. ولم تقتبس منظمة التحرير الفلسطينية مفاهيم خارجية وحسب ، وإنما تكتيكات للقيام بعمليات عسكرية أيضاً وذلك من الصين وكوبا وفيتنام والجزائر . وحصل الفلسطينيون على مساعدة فعالة من العقيد أحمد سويداني ، رئيس الاستخبارات العسكرية السورية الذي نُسب اليه القبض على إيلي كوهين في دمشق .

وعمدت فصائل منظمة التحرير الفلسطينية المناضلة الى جعل العشرات من أعضائها يتسلّلون إلى الأراضي المحتلة مسلّحين بالبنادق والمتفجرات ، الى جانب إقامة مراكز قيادة على مرأى الاداريين الاسرائيليين الجدد . وكان عرفات مشتركاً شخصياً في تجنيد رجال مقاتلين للقيام بعمليات عسكرية متعددة ، كما كان لا بد من الحصول على موافقته بشأن كل نقطة تفصيلية صغيرة . وتم إرسال خلايا الفدائيين للقيام بعمليات عسكرية مباغتة ضدّ دوريات وعربات الجيش . ونصب الفلسطينيون كمائن في الشوارع الضيقة لمدن الضفة الغربية .

في اسرائيل نفسها ، فجّر الفلسطينيون القنابل في الأسواق ودور السينما ومحطّات الباص والمطاعم ، وسواء أكانت الأهداف مدنية أو عسكرية ، فلم يكن الأمر يعني شيئاً بالنسبة للمقاتلين . واعتقد عرفات وواضعو الاستراتيجيات أنهم كانوا مشتبكين في نضال مسلّح ومشرّف ، بينما في عيون اسرائيل ومعظم أنحاء العالم الخارجي ، كانت هنالك كلمة واحدة بسيطة تعبّر عن تكتيكات منظمة التحرير الفلسطينية هي : الارهاب .

ولم تملك الشين بيت الوقت للجدال بشأن المصطلحات . فأسدى رئيس الوزراء اشكول ووزير الدفاع دايان ـ أثناء جعل الجيش مسؤولاً عن الشؤون اليومية للإدارة المدنية والعسكرية في الأراضي المحتلة ـ إلى الجهاز السري لهارملين مهمة مكافحة التخريب والمحافظة على القانون والنظام . إلّا أنه كان هنالك العديد في كلٍّ من الحكومة والجيش الذين تشكّكوا في مقدرة الشين بيت على تحقيق هذه الأهداف .

في أثناء ذلك ، كانت الوكالة هيئة صغيرة ومكتفية ذاتياً ، تعمل في الواقع بصورة مجهولة تماماً . ولم يكن الرأي العام قد سمع بالشين بيت بالاسم ، كما كانت تفاصيل عملياتها خاضعة للرقابة بعيداً عن الصحافة ، وكان من غير القانوني معرفة أيٍّ من موظفيها . وبلغ عدد القوة بأكملها حوالي خمسمائة شخص ، وكان المناخ السائد بينهم مناخ أسرة حميمة ، يعرف أفرادها بعضهم بعضاً . ولم يتمّ إفشاء أسرار الأسرة الى الغرباء .

غير أنها كانت كذلك وكالة باهتة ؛ تبزّها على الدوام الموساد وأمان . ونادراً فقط ما كانت

تحصل على فتات من الإثارة يلقيها قسم العمليات الى الشين بيت، حيث كانت تشترك بها مع الموساد وكانت هذه بعض المهام غير العادية فيها وراء البحار كالقبض على أدولف ايخمان أو البحث عن يوسيلي شوماخر الصغير.

وكانت مهمة الشين بيت الأساسية تتمثل في العملية غير الممتعة في العادة والخاصة بالمراقبة اليقظة للجواسيس الأجانب والمخرّبين المحليّين. وبالطبع، كانت الأقلية العربية في اسرائيل تشكل دائما مصدر الاشتباه الرئيسي.

قبل عامين فقط من حرب ١٩٦٧، ألغت الحكومة الادارة العسكرية التي كانت نافذة المفعول في القرى والمدن العربية الاسرائيلية منذ حرب ١٩٤٨. وبينما كان المواطنون العرب في الدولة اليهودية يتمتعون دائماً بحقّ التصويت لانتخاب اعضاء الكنيست، إلّا أنهم لم يكونوا محكومين من قبل الأنظمة المدنية ذاتها كما في المناطق الخاضعة للهيمنة اليهودية. وكان هنالك حكّام عسكريّون في القطاعات المأهولة بالعرب، على وجه التحديد في منطقة الجليل في شمال اسرائيل، كما كان المواطنون خاضعين لمراقبة دقيقة من قبل الشين بيت.

وكانت التوصية الخاصة بالغاء الحكم العسكري في مناطق معينة من اسرائيل عام ١٩٦٥ قد أتت من عميل الموساد السابق شاموئيل توليدانو، في دوره كمستشار لاشكول فيها يتعلق بالشؤون العربية. وأيّد هارملين من الشين بيت الاقتراح، لا بسبب ولع الوكالة المفاجىء بالعرب وحقوقهم المدنية، وانما لأنه يمكن خدمة مصالح الدولة وأمنها على نحو أفضل.

كانت مهمة الشين بيت الحيلولة دون قيام العرب بالتصرّف كطابور خامس، يمكن أن يساعد إخوانهم على عبور الحدود. وزعمت الشين بيت أن الغاء الادارة العسكرية من شأنه ان يمنح العرب حافزاً للذوبان في المجتمع الاسرائيلي والدراسة في جامعاته وإقامة مشاريع أعمال والاشتغال بالوظائف وزيادة الدخل وعدم الشعور بالتمييز العنصري والإحباط وخيبة الأمل واليأس الذي يشجع التخريب. واعتقدت الشين بيت أنّ رفع القيود عن عرب اسرائيل سيهدىء ذلك القطاع من المجتمع، كما يعزل الأقلية من المتطرفين الذين زعموا بأن الحياة في اسرائيل كانت سيئة.

حظي اقتراح توليدانو بالموافقة. ومع التعديل الذي حدث في مهمّات الشين بيت، بدأ عهد هارملين بالفعل. وإلى أن تمّت ترقيته ليحلّ محل مانور الحيادي والعملي، كان هارملين مسؤولاً عن قسم التجسس المضاد في الشين بيت. واعتزم جعل عملية القبض على الجواسيس محطّ اهتمام نشاطات الوكالة كلها.

وأحبّ الرئيس الجديد الأسلوب الفكري النشط في الايقاع بالعملاء الأجانب. وتطلب نجاح الشين بيت فيه قدرا كبيرا من الحنكة، كما كانت الاستجوابات تحديا فكريا ممتعا على وجه

الخصوص. وتطلبت مواجهة المشبوهين جهدا متواصلا لتحديد نقاط الضعف في شخصياتهم والضعف البشري عموما. وكان يجلس المحقق من الشين بيت والشخص الخاضع للاستجواب ـ خائناً أو جاسوساً مزعوماً ـ يشربان معاً دون عنف بحيث يشتبكان في معركة ذهنية.

ولا يوجد أحد يملك وجهاً غير معبّر أفضل من يوسف هارملين. لقد كان رجلاً طويلاً على نحو مثير للاعجاب، إلا أنّ مقدرته على الاحتفاظ بملامح خالية من التعبير كانت أكثر صفاته بروزاً. ويعدّ إخفاء المرء لمشاعره صفة ممتازة بالنسبة لرجل الاستخبارات ولعله وُلد مع الموهبة عندما دخل العالم في فيينا عام ١٩٢٣.

عقب الآنشلوس عام ١٩٣٨، عندما ضمّت ألمانيا النازية النمسا، فرّ والدا هارملين من المحرقة الوشيكة بالانتقال الى المكسيك. إلا أن المراهق يوسف، الذي كان أكثر صهيونية من والديه، انتقل بدلاً من ذلك إلى فلسطين. ودرس في كلية بن شيمين الزراعية التي أبرزت زعماء سياسيين مستقبليين مثل شمعون بيرز ، وجواسيس مستقبليين مثل وولفغانغ لوتز. وكهاريل وأميت، التحق هارملين بكيبوتز قبل التطوع في الجيش البريطاني في الحرب العالمية الثانية وبعد الحرب، التحق بالهاغاناه، حيث التقى هاريل، وبعد سنوات قليلة من استقلال اسرائيل، تمّ تجنيد هارملين من قبل الشين بيت؛ فشقّ طريقه الى القمّة تدريجياً.

وكانت علاقته مع ليفي اشكول الذي عيّنه رئيساً للشين بيت رسمية للغاية. لكن اشكول أراد شيئاً مختلفا تماما. فكرئيس للوزراء، وبصفته مسؤولا بصورة مباشرة عن الموساد والشين بيت، حاول تطوير علاقة وثيقة، تكاد تكون أبوية مع هارملين ـ وذلك للتصدي للمشاكل التي كان يواجهها اشكول في تحقيق الانسجام مع رئيس الموساد مائير أميت.

ووجد اشكول هارملين أميناً للغاية ومخلصاً، ويسعى إلى الكمال. إلا أن هارملين كان من ناحية أخرى بليداً جداً بالنسبة لاشكول الذي كان سياسياً بارعاً ومناوراً خبيراً في الدسائس الحزبية ويحب الدعابة. ولم تلق هذه الدعابة عند رئيس الوزراء استجابة لدى هارملين بالرغم من محاولات اشكول المتكررة لاحياء محادثاتها بالمرح والحكمة بلغته «اليديشية» المحببة إليه.

في إحدى المناسبات، تبيّنت الشين بيت إشارات على وجود تهديد بالاغتيال، فتمت مضاعفة الحرس حول رئيس الوزراء. وكان هنالك في كل أسبوع تقريباً اقتراحات وتهديدات بأن اشكول قد يُقتل. وعموماً تم تجاهل هذه التهديدات، لأن الاسرائيليين كانوا يعتقدون دائما أن القتلة الحقيقيين لا يكتبون رسائل تهديد. إلا أنّه بعد اغتيال الرئيس جون إف كنيدي في تشرين الثاني عام ١٩٦٣، لم تكن الشين بيت مستعدة للمجازفة غير الضرورية.

وعمد هارملين، الذي كانت مسؤولياته تشتمل على حماية رئيس الوزراء ومسؤولين

حكوميين آخرين، الى إخبار اشكول عقب اغتيال كنيدي مباشرة أنه كنتيجة لمراجعة أمنية، سيكون لدى رئيس الوزراء الآن حارسان شخصيان بدلاً من واحد.

«تستطيع ان تثق بتكتمها التام»، هذا ما وعده به رئيس الشين بيت متذكراً أن اشكول أرمل، وقد يطالب بالعزلة حين يسعى الى رفقة امرأة. ووضّح هارملين قائلاً: «حتى وإن كان عندك أية اجتماعات خاصة للغاية، فلن يتفوها بكلمة».

وأجاب اشكول بضحكته التقليدية قائلاً: «على العكس، دعهما يتكلمان». ولم يكن هارملين يضحك على مثل هذه النكات. كان يقوم بعمله بجدية تامة، وهو نفس السلوك الذي انتهجه حين تولّى مهمة جديدة هي: الأراضي المحتلة.

وكان القرار الخاص بجعل الشين بيت مسؤولة عن القانون والنظام في الأراضي التي تمّ الاستيلاء عليها، ليمتد بذلك دورها في الحفاظ على الأمن الداخلي الى ما وراء الحدود الرسمية لاسرائيل، قد صدر في ١٩ حزيران عام ١٩٦٧، في اجتماع لفاراش ـ اللجنة التي تضم كل رؤساء الاستخبارات. وكانت حرب ١٩٦٧ قد انتهت بالنصر قبل أسبوع فقط، كما كان وهج النصر ما يزال قوياً. وحسب تقليد فاراش، ترأس أميت مدير الموساد الاجتماع، وجلس حول الطاولة رئيس أمان أهارون ياريف، وهارملين من الشين بيت ورئيس الشرطة الوطنية، والمدير العام لوزارة الخارجية.

وكانت الحكومة الاسرائيلية تجد صعوبة في تقرير وضع الأراضي التي استولت عليها ذلك الشهر، ورسم الخطط المستقبلية لها. فهل كانت أجزاء محررة من أرض اسرائيل التوراتية، أو قطعاً «محتلة» من أرض أجنبية معادية؟

ونظراً لعدم وجود قرار سياسي بشأن الأرض، أجبرت لجنة فاراش على تبني سياسة «الجزرة والعصا» الادارية التي تهدف الى الابقاء على الوضع الراهن، بينما تحافظ على النظام باعتباره الأولوية القصوى. وفي محاولة لدقّ اسفين بين اغلبية الفلسطينيين والأقليّة المخربة الخطيرة، قرّر رؤساء الاستخبارات السماح للسكان بمزاولة حياتهم بصورة طبيعية. وكان ذلك هو الجزرة.

أما العصا فكانت السياسة الخاصة بالعقاب القوي والحازم لأي شخص يشترك في التخريب أو العنف؛ إذ كان الفلسطينيون الذين يساعدون مجموعات الفدائيين يُعاقبون بالسجن وهدم منازلهم ـ باستخدام الديناميت في العادة، وذلك في انفجارات مدوّية لتكون عبرة للآخرين. لقد كان فقدان الشخص لمنزله عقاباً قاسياً، إلا أنّ أكثر انواع العقاب خطورة وحسماً عند الشين بيت هو الإبعاد. فمنذ الأسابيع الأولى لادارة ما أطلقت عليها اسرائيل اسم «الاراضي المدارة»، كان يتم ابعاد السكان العرب والمعتقد أنهم على علاقة بإرهابيي منظمة التحرير الفلسطينية، وذلك عبر الجسور الى الاردن، وحرمانهم من العودة

ولم يكن وضع نظرية الجزرة والعصا في حيّز التطبيق مهمة سهلة، إذ لم يكن عملاء الشين بيت مستعدين لذلك. فالارهابيون الجدد في أيدي اسرائيل كانوا عالما مجهولاً بالنسبة لهم - عالماً غير معروف حيث لم يكن للوكالة رجال في الميدان، كما لم يكونوا يعرفون السكان. لقد كان على الشين بيت ان تبدأ من الصفر.

كخطوة أولى استخدم عملاء هارملين واطقم الاستخبارات العسكري لياريف حرباً نفسية لنشر الإشاعات حول مدى صلابة الخطّ المتشدّد الاسرائيلي. ولم تكن هذه الإشاعات صحيحة بقدر ما كانت مثبطة للعزيمة.

وبعد أن أصبح واضحاً أن إصرار اسرائيل على البقاء في الاراضي المحتلة قد غدا معلوماً بالنسبة لسكانها، تحوّلت الشين بيت إلى المرحلة الثانية والأساسية: منع اندلاع الانتفاضة الفلسطينية ومقاومة الإرهاب. وأولى هارملين المهمة إلى أفراهام أهيتوف، رئيس قسم الشؤون العربية الصغير في الشين بيت. وبردم بعض الفجوات التي خلفها إلغاء الإدارة العسكرية في الجليل عام ١٩٦٥، حرص قسم أهيتوف على ألّا يشترك العرب الاسرائيليون في أعمال تخريبية أو في التحريض أو العنف.

كان أهيتوف محامياً بالتدريب، وقد عمل بالدقة المطلوبة في العمل القانوني. غير أن عمله كان مريباً، رغم أنّه لم يتلّق سوى الثناء من زملائه في الشين بيت، حيث أسس شبكة واسعة الانتشار من المخبرين بين العرب الاسرائيليين. وبدا أنّه لم يكن ليفلت أي شيء من عيون رجاله. هذا وقد وصف تقرير سري جمعته السي آي إيه، أهيتوف بأنه «ذكي للغاية ومجدّ وطموح ومتمكن» لكنه أيضاً «عنيد وجلف ومغرور».

وكان أهيتوف في السابق مسؤولاً عن عمليات الشين بيت في قطاع غزّة بعد أن استولت عليه إسرائيل من مصر عام ١٩٥٦، حيث تمّت السيطرة على الفلسطينيين هناك، كما عزّز أهيتوف سمعته. وفي عام ١٩٦٧، طُلب منه إستخدام مواهبه لتحقيق - في مختلف أنحاء الأراضي المحتلّة - نتائج مماثلة لتلك التي حقّقها في غزة والقطاع العربي من اسرائيل.

وكان اكثر أعوان أهيتوف براعة يهودا أربيل، وهو رجل قصير ذو شعر رمادي وعينين مغناطسيتين. وكانت عيناه شديدتي الزرقة، إلّا أنهما كانتا باردتين كالثلج، كما كان رومانسيا ومحبّاً للجمال، إذ عشق الموسيقى والفن والنساء الجميلات والخمور الجيدة. وبالرغم من أنّ اربيل كان مدهشاً في فرديّته، إلا أن سيرته الذاتية كانت مماثلة لسيرة الآخرين في لجنة الاستخبارات الاسرائيلية فقد وُلد في ترانسلفانيا، التي كانت آنذاك جزءاً من هنغاريا لكنّها الآن تابعة لرومانيا، وانتقل الى فلسطين وخدم في الجيش البريطاني وقاتل من أجل استقلال اسرائيل عام ١٩٤٨. وعندما اندلعت حرب ١٩٦٧، كان أربيل رئيس الشين بيت الخاص بمنطقة القدس. وكانت

منطقة صغيرة هادئة، لا يوجد فيها عمل كثير. وعموماً لمّا كان عدد العرب في القطاع الغربي للقدس التابع لاسرائيل قليلاً آنذاك، تألّف هذا العمل من التجسّس المضاد ومراقبة الدبلوماسيين الأجانب.

وشعر أربيل بالضجر الشديد لدرجة أنه في وقت ما فكّر بالاستقالة. إلّا أنه بعد حرب ١٩٦٧، سرعان ما أصبح يُنظر إلى دوره الجديد كمقاتل ضدّ الإرهاب بإعتباره واحداً من أكثر الأدوار حيويّة في الاستخبارات الاسرائيلية. لقد كان الأمر أشبه بحقنة مفاجئة من الأدرينالين.. كما لو أنّه وُلد من جديد. وتنقّل أربيل على نحو متواصل من قرية لأخرى في الضفة الغربية، مجنّداً المخبرين ومنسّقاً الاختراق داخل خلايا المقاومة.

وفي فترة وجيزة للغاية، حلّت الشين بيت المشكلة الفورية التي كانت تواجه اسرائيل في الأراضي، إذا لم يعد بمقدور الفلسطينيين تصعيد انتفاضة شعبيّة في الاراضي المحتلّة حديثاً. وكان لدى الشين بيت معلومات داخلية ممتازة، فكان ذلك السلاح الضروري في شنّ حرب ناجحة ضدّ المعارضة السرية.

وتمكّن أهيتوف وأربيل من إجتياز الضفة الغربية وقطاع غزة بشبكات من المخبرين والعملاء السريين. وكان معظمهم عرباً تمّ تجنيدهم إمّا بالمال أو التّخويف، إلا أنّه كان هنالك أيضاً عدد قليل من الاسرائيليين الذين كانوا يجيدون العربية. وغالبا ما كان العملاء يقدّمون للشين بيت معلومات مسبقة عن اعتداءات يخطّط لها فدائيون. لقد كان التدفّق المستمر في المعلومات هو ما جعل الشين بيت تكاد ان تضع يدها على عرفات في تلك الليلة من كانون الاول عام ١٩٦٧ في الفيلا الواقعة في رام الله.

وإستطاع عملاء الشين بيت الذين كانوا يقومون بتوفير المعلومات السرية الانقضاض على اجتماعات المخربين، كما نصبوا كمائن لأسر مجموعات الفلسطينيين وهي في طريقها لتنفيذ عمليات.

وأضحى الجهاز الذي سمح بتحقيق هذه النجاحات معروفاً باسم «الاستخبارات الوقائية»، وهي الرغبة القصوى لكل جهاز أمن داخلي مضطّر للتعامل مع العنف والارهاب. ولم يكن الهدف النهائي البحث عن المجرمين بعد ارتكاب الجريمة، وإنما منع الارهابيين من تنفيذ جريمتهم في المقام الأوّل.

بحلول كانون الأول عام ١٩٦٧، كانت الشين بيت قد سجلت رقما قياسيا مذهلا من الانتصارات: إذ انهارت معظم خلايا منظمة التحرير الفلسطينية، كما تمّ اجبار مركز قيادتهم داخل الضفة الغربية على الانسحاب الى الاردن. وقُتل مائتا فدائي فلسطيني في معارك مع الجيش

ووحدات الشين بيت، وألقي القبض على أكثر من ألف شخص.

وعلى أية حال، لا يرجع فشل الانتفاضة الفلسطينية المعتزم تفجيرها عام ١٩٦٧ الى كفاءة الاجهزة السرية فقط، فالفلسطينيون يُلامون أيضا لكونهم غير محترفين. إذ لم يتبعوا قاعدة التقسيم الى وحدات مستقلة، التي تعد أساسية في التجسّس والتحركات السرية. وانتظموا بدلا من ذلك في مجموعات كبيرة نسبيا، حيث عرفوا بعضهم بعضا او اعتمدوا على العرب المحليين بألّا يسلموهم الى السلطات. ولقد عرف عرفات نفسه وقوّاده الكبار، في انتهاك تام لقواعد التخطيط الجيد، معظم أعضاء الخلايا. وكان نظام اتصالاتهم بدائيا، كما كانت رموزهم بسيطة. ولم يتم التخطيط لطرق الهرب، كما لم تكن «البيوت الآمنة» الخاصة بهم آمنة حقاً. هذا ولم يكن اعضاء مجموعات الفدائيين أيضاً مستعدين للصمود امام الاستجواب إذا ما وقعوا في الاسر. فحالما تلقي الشين بيت القبض عليهم، كانوا يدلون بكل ما يعرفونه.

وتمّ حلّ رموزهم، كما صودرت اسلحتهم ومتفجّراتهم. وكحجارة الشطرنج سقطت الخلايا واحدة بعد الاخرى. وقبل كل شيء، فشلوا في تنفيذ المثل الصيني لماوتسي تونغ بأنّ الفدائي يجب أن يحصل على دعم السكان وأن يشعر بانه «مثل السمكة في الماء»، إذ لم يتمكن الفلسطينيون من «السباحة» دون ان يلحظهم جيرانهم الذين جرفوهم الى شاطىء الشين بيت.

على أيّة حال، حصلت الشين بيت على ثقة مطلقة. وكانت أهمية وكالة هارملين داخل لجنة الاستخبارات تتنامى، كما أضحى ضباط الحالة لأهيتوف معروفين باسم «ملوك الأرض المحتلة». وكما في النظام الإقطاعي تقريبا، حصل كل اسرائيلي على منطقته الخاصة به، وهي عموما قرية أو مجموعة قرى. وكان يتعين عليه ان يكون عيون اسرائيل وآذانها بحيث يعرف كل شيء يحدث في إقطاعيّته. وكان العميل مدّرباً كذلك لمعرفة معظم القرويّين بأسمائهم، بينما يعرفونه باسمه المستعار فقط ـ وهو في العادة اسم عربي مختلق مثل أبو موسى.

وإذا أراد فلسطيني الحصول على رخصة بناء، كانت الحكومة العسكرية في الاراضي المحتلة تراجع الأمر أولا مع ضابط الحالة المحلي للشين بيت ولم يكن بمقدور تاجر عربي يرغب في تصدير محصوله من الحمضيات من غزة او زيت الزيتون من الضفة الغربية الحصول على التراخيص الضرورية إلّا بموافقة الشين بيت. لقد كان كل نشاط يومي تقريباً وكل دقيقة من الحياة الفلسطينية خاضعة لاشراف الشين بيت فيما يشبه صفقة عمل. إذ كان العرب يوفرون المعلومات، ويحصلون بالمقابل على الأمن وفوائد ثانوية.

بيد أنّ الشين بيت دفعت ثمناً لنجاحها، إذ كان يتمّ الحكم على المجتمع الاسرائيلي في العالم الخارجي حسب ما يُرى من سياساته الأمنية ومع أنه تمّ سحق عمليات التخريب، إلا أن سمعة اسرائيل العطرة حول العالم تبدّدت. فبدلاً من أن تكون الأثيرة عند الرأي العام العالمي،

أصبحت الدولة اليهودية اسرائيل القبيحة. وطغت العناوين البازرة السلبية على كل الأشياء الحسنة التي قامت بها. لقد أصبح يُنظر الى ضحية عام ١٩٦٧ الآن كمحتلّ وحشي لأرض شعب آخر.

وكما تعكس معظم وكالات الاستخبارات أخلاقيات مجتمعاتها وقيمها، ألحق التغيير في صورة اسرائيل الأذى بالشين بيت. وحتى حرب ١٩٦٧، كان موظفو الوكالة أشبه بأسرة صغيره، لهم خلفية مشتركة: إذ خدموا في الجيش البريطاني أو الهاغاناه، كما كانوا بصورة رئيسية من القطاع الاشكنازي الأوروبي للسكان اليهود.

بعد حرب ١٩٦٧، أجبرت الظروف الشين بيت على تحويل نفسها الى قوّة مستبدّة، تلعب دوراً مركزياً في السيطرة على الأراضي وسكانها، فأصبحت الشين بيت جهاز الأمن لقوة محتلة وواثقة بل ومتغطرسة، وكي تبسط نفوذها على أرض اكبر، تراجع الكمال والدقة في العمل أمام الارتجال المتسرع.

ولإنشاء شبكات الاستخبارات الكبيرة للشين بيت، كان هنالك حاجة ماسة لزيادة القوة البشرية لديها. فتمّ بناء مجمّع عصري وحديث من المباني في ضاحية شمالية من تل ابيب لايواء مركز قيادة الشين بيت ولاستبدال القديم الموجود في يافا. وغدت معايير التجنيد أسهل مع تركيز أقل على المستويات المرتفعة. وتمّ القيام بكل شيء بسرعة، كما تغيرت الصورة الاجتماعية لموظفي الشين بيت وكان المتحدثون باللغة العربية الذين أضحوا الآن ضروريين للغاية يوجدون بين قطاع السفارديم الشرقيين من جمهور اليهود. وبالطبع، كانت هنالك استثناءات، إلا أنّها كانت تتعلّق عموماً برجال أقل تعليماً، اعتمدوا في وظائفهم على العضلات أكثر من الدماغ.

وحتىّ ذلك الحين كان معظم هؤلاء الذين اختيروا جنودا، من وحدات قتالية نخبويّة في الجيش. وبخلاف معظم البلدان، حيث تعتبر القوّات الخاصة أو الكوماندو أكثر القوّات عدوانية وتعطشاً للدماء وتحمسّاً للمعركة، كان المقاتلون الاسرائيليون النخبويون قد دُرِّبوا كي يمتحنوا ضمائرهم ويراعوا الأخلاق. إلا أن الشين بيت في تعجّلها لتوسيع نفوذها، أضافت الى صفوفها جنوداً من وحدات مساندة، حيث كانوا أقل تطبّعاً بجوانب الأخلاق الرفيعة.

وحتى قوادّ الشين بيت الكبار الذين كانت لديهم نظرة ثاقبة بشأن معرفة المتقدمين الذين قد يسببّون مشاكل لهم، ارتكبوا أخطاء. وكان يوسي غينوسار الذي سيمثّل بعد عقدين من الزمان دوراً مهماً في اثنتين من أسوأ الفضائح في تاريخ لجنة الاستخبارات الاسرائيلية، أحد هذه «الأخطاء». وكان غينوسار يعمل ضابطاً معاوناً للقائد ساعد في الصفوف الخلفية بدلاً من القتال في الجبهة.

وأملت طبيعة العمل المتغيّرة أيضاً طرقاً جديدة. ففي كل مرّة يتمّ فيها حجز ألفي عربي للاستجواب، عند تفجير سيارات مفخّخه، واتخاذ الارهابيين للفنادق والطائرات أهدافاً لهم، يكون من الضروري انتزاع المعلومات في أسرع وقت ممكن. وأضحى عامل الوقت أهمّ عنصر في الاستخبارات الوقائية. وبدا أنّ التصرّف السريع يتطّلب وحشية دون التوقف لاعادة النظر.

في البداية، وجدت الشين بيت أنّه من الصعب التكيف مع الحقيقة الجديدة. وعندما رأى يوسف هارملين ذات مرة أحد محقّقيه الشباب يصفع وجه مشبوه فلسطيني، فصل رئيس الوكالة موظفه على الفور، إذ لم يكن هارملين يقرّ بضرورة استخدام العنف الجسدي.

إلّا أن الظروف الجديدة هي التي سادت. واكتشف عملاء الشين بيت عبر الطريق الصعب معنى الاحتلال. فلقد كان عملهم عملاً قذراً لخدمة قضيّة لعلّها نبيلة. وتمكّن هارملين ونائبه من قمع الإرهاب، إلا أنه كان عليهما القيام بذلك من خلال طرح ما أطلق عليه رجالهما اسم «النظام».

وكانت وسائل الأمن بالفعل منهجية في خلق معيارين للعدالة. أحدهما ديمقراطي بطبيعته، مُطبّق على المواطنين الاسرائيليين، والثاني مختلف كلية، يسري في المنطقة الرمادية بين المسموح والممنوع، حيث كان يُستخدم ضد المشبوهين الفلسطينيين في الأراضي المحتلّة.

وخلق النظام ومعياره المزدوج تخوماً جديدة هي: «بلاد الشين بيت». وفي بلاد الشين بيت، كان للوكالة مراكز اعتقال خاصة بها، بالاضافة الى أجنحة منفصلة تديرها الشين بيت في السجون المدنية الاسرائيلية، وحيثما كان يلقى القبض على السجناء الفلسطينيين، كان يتم إحضارهم مباشرة الى الأجنحة الخاصة او مراكز الاعتقال. ولم تلقِ الشرطة وهيئة السجون الوطنية نظرة على ما كان يدور في الزنزانات وراء تلك الجدران.

وواجه العرب المتهمون بالإرهاب استجواباً وحشياً. وكانت الضربات الجسدية نادرة، إلا أنه كانت هنالك أشكال أخرى من التعذيب لم تترك أية علامات فما أن تغلق بوابات الشين بيت خلفهم، حتى تتمّ تغطية رؤوس السجناء الفلسطينيين بكيس أسود، ثم يُتركون فيها بعد بحيث يتعرضون لشمس اسرائيل الحارة أو برد الشتاء في انتظار المحققين، ثم يستمرّ الاستجواب لمدة أربع ساعات، وعادة ما يُحرم المشبوهون من النوم، وفي بعض الأحيان يتمّ نقعهم في الماء البارد.

ولم يحبّ بعض موظفي الشين بيت ما كان يتعيّن عليهم القيام به، إلا أنهم كانوا ينظرون إليه باعتباره أمراً ضرورياً في الصراع من أجل البقاء الوطني. فقد كانوا يعتقدون أنهم كانوا يدافعون عن اسرائيل التي كانت تواجه إرهاباً وحشيّاً. وقال متمرّس قديم في الشين بيت كان قد ترأس قسم الاستجواب في الوكالة لسنوات عديدة: «ماذا يتوقّع الإرهابيون الذين يقتلون النساء

والأطفال؟ أن نطرق على بابهم وندعوهم لفنجان قهوة؟» ولم يستخدم اسمه الحقيقي أبـداً، وأطلق على نفسه فقط اسم البشوش أي «الشّادي»، حيث عكس ذلك غايته بجعل كل المشبوهين «يغنون» الحقيقة كاملة.

وكان هنالك مشروع غريب جدّاً، تعاونت فيه الشين بيت مع الموساد وأمان، واستهدف مقاومة «المشكلة السكانية»، وهي توقّع أنه مع الارتفاع الكبير في نسبة المواليد عند العرب، فستتفوّق أعدادهم على أعداد اليهود في اسرائيل والأراضي المحتّلة بنهاية القرن العشرين. فتولّت لجنة الاستخبارات مهمة تشجيع الفلسطينيين على الهجرة. وأنشـأت وحدة اسرائيلية خاصّة شركات زائفة في أوروبا عمدت الى شراء الأرض من العرب من غزة والضفة الغربية، والذين وافقوا على الانتقال الى الخارج. وكانت الممتلكات في البرازيل وباراغواي، وحتى في ليبيا بالنسبة للذين يفضلون العيش في بلد عربي.

وأعطى الانشغال بمشاريع في ليبيا فرصة جيّدة للموساد لمراقبة التطوّرات السياسية هناك، لذا لم يكن الأمر مفاجئاً لرئيس الوكالة زفي زامير عندما أطيح بملك ليبيا، الملك ادريس الموالي للغرب في أيلول عام ١٩٦٩ من قبل مجموعة من الضبّاط العسكريين الشباب الذين اقتدوا بالعقيد جمال عبد الناصر وانقلابه العسكري المصري عام ١٩٥٢. وكان الزعيم الليبيّ الجديد هو العقيد معمّر القذّافي. ولم يكن زامير ليعرف عندما سمع الأخبار من طرابلس بأن القذافي سيصبح واحداً من ألدّ أعداء اسرائيل.

إلا أن رئيس الموساد أدرك ان مغادرة الملك الليبي كان خبرا سيئاً، إذ فقد الغرب معقلاً استراتيجياً في شمال إفريقيا. وقال زامير لزملائه في تل أبيب: «لقد اخبرناهم، لقد حذرناهم»، ملمحاً الى أن الاستخبارات الاسرائيلية كانت قد أصدرت تصريحات مسبقة لادريس وأصدقائه في الحكومات الأميركية والبريطانية والايطالية.

ولم يعمل فقدان ليبيا كمكان لاعادة توطين الفلسطينيين على وضع نهاية للبرنامج السري الخاص بارسالهم الى الخارج. ولم يتوقف البرنامج إلا بعد وقوع جريمة قتل في اسنسيون، عاصمة باراغواي عام ١٩٧٠. ففي منتصف نهار الرابع من أيار، اندفع شـاب عربي نحـو القنصلية الاسـرائيلية هنـاك مطالبـا بغضب مقابلة السفـير. وعندمـا حاولت واحـدة من السكرتيـرات الاسرائيليات تهدئة الرجل، سحب مسدّسا وأرداها قتيلة، ومن الواضح أنّ القاتل وشريكين له كانا ينتظران في الخارج قد فرّوا من البلاد ولم يتمّ إلقاء القبض عليهم أبداً.

وصرحّ الناطق الرسمي لاسرائيل بسرعة أن جريمة القتل كانت واحدة أخرى في موجة من الاعتداءات الارهابية الفلسطينية. إلا أنها كانت في الحقيقة شيئا مختلفا تماماً: إذ كانت عمـلاً انتقامياً قام به ثلاثة فلسطينيين أعيد توطينهم في باراغواي كجزء من برنامج لجنة الاستخبارات

السرية. وكان الرجال الثلاثة غير مسرورين لاعتقادهم بأنّهم حصلوا على صفقة غير عادلة من الاسرائيليين.

وتمت معرفة هويّة القاتل من قبل محقّقي الشرطة في اسنسيون، وهو طلال ابن ديماسي، وهو مولود في قطاع غزة، وكان هو وصديقاه قد عاشا في مخيم جباليا في غزة عندما استولت اسرائيل على المنطقة عام ١٩٦٧، وسرعان ما ملوّا الحياة هناك، فقبلوا دعوة لزيارة مكتب الحاكم العسكري الاسرائيلي في غزّة والذي لا يبعد كثيراً عن محل ديماسي للأدوات في شارع المختار في مدينة غزّة، وهكذا بدأوا رحلتهم في المنفى الطوعي.

ولقد عمل ضبّاط الاستخبارات الاسرائيليون بصورة مكثفة من أجل إيجاد عرب مثل ديماسي كانوا محبطين من قدرهم لدرجة أنّهم يمكن أن يكونوا مرشحين للمغادرة. وقبل المئات من أسر اللاجئين العرض، فحصلوا على جوازات سفر جديدة إلى جانب الأموال وتذاكر ذهاب فقط من وكالة سفريات اسرائيلية، حيث توجهّوا إلى أوطانهم الجديدة التي وُعدوا بها في جنوب أميركا أو شمال افريقيا.

وصل ديماسي وصديقاه الى باراغواي في نيسان عام ١٩٧٠، متوقعين أن تفي اسرائيلي بتعهّدها بمساعدتهم في إيجاد وظائف. ولمّا لم يتمّ الوفاء بالوعود، كما لم تلق التماساتهم لدى السفارة الاسرائيلية والقنصلية استجابة، قرر الفلسطينيون الثلاثة القيام باحتجاج عنيف؛ فاعتزموا قتل السفير الاسرائيلي، إلا أن ديماسي شعر بالذعر وأطلق الرصاص بدلا من ذلك على السكرتيرة.

ولمّا لم يكن راغباً في المجازفة بشعبيتّه، أمر مجلس الوزراء الاسرائيلي لجنة الإستخبارات بإغلاق برنامج إعادة توطين اللاجئين بسرعة. وكان وزراء المجلس يعرفون طوال الوقت أن إرسال مليون عربي أو أكثر، الى ما وراء البحار سيكون مكلفاً بصورة كبيرة، إلاّ أنهم كانوا مستعدين لاعطاء الفكرة فرصة، الى ان افسدت قضية باراغواي العملية وعرّضت سريتها للخطر. وفي المجموع، هاجر حوالي عشرين ألف مواطن من الضفة الغربية وقطاع غزة في السنوات الثلاث الأولى بعد حرب ١٩٦٧. وتلقّى ألف شخص تقريباً مساعدات من برنامج اعادة التوطين السري.

إلا أنّ أغلبية كبيرة من الفلسطينيين بقوا في منازلهم، وتعلّموا العيش مع الاحتلال الاسرائيلي. كما ظلّ قليل منهم وناضلوا، لكنّهم اكتشفوا أنّ الدخول في قتال مع الشين بيت وقوات الدفاع الاسرائيلية كانت عملية غير مجدية.

عقب الفشل في إشعال انتفاضة في الاراضي المحتلّة، حوّل المناضلون الفلسطينيون معركتهم الى أماكن أخرى، وتلقّت الاستخبارات الاسرائيلية تقارير متناثرة عام ١٩٦٨ من

أجهزة سرية صديقة من أوروبا، تشير الى جهود حثيثة تبذلها مجموعات فلسطينية لجذب متطوّعين من الدوائر اليسارية الراديكالية في أوروبا. . وقام بمعظم عملية التجنيد جورج حبش الذي تزعّم جناحاً ماركسياً لينينياً في منظمة التحرير الفلسطينية، يعرف باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

وتنقّل المبعوثون النافدوا الصبر نيابة عن عرفات وحبش وآخرين عبر ايطاليا وهولندا وفرنسا وألمانيا الغربية، مستخدمين زمالة أيديولوجيّة وحوافز مالية لاقناع الاوروبيين الشباب بالمجيء الى الشرق الاوسط ومقاتلة «الاحتلال الصهيوني» و «حلفائه الامبرياليين» واستجاب العشرات من المتطوّعين المتحمسين الى نداء منظمة التحرير الفلسطينية، حيث تمّ إحضارهم الى الأردن ولبنان، ودُرِّبوا في معسكرات الفدائيين، كما قاتلوا في بعض الحالات كإرهابيين ضدّ اسرائيل.

وفي الوقت الذي حاولت فيه الاستخبارات الاسرائيلية معرفة ما كان يدور في أذهان الفلسطينيين خارج الشرق الاوسط، أحدث راديكاليو حبش مفاجأة، وذلك باستهداف الخطوط الجوية الوطنية لاسرائيل. ففي أوّل تقرير بارز من نوعه، أخبر هارملين من الشين بيت رئيس الوزراء اشكول: «تمّ خطف طائرة بوينغ ٧٠٧ تابعة للعال، في رحلة لها من روما الى تل أبيب، وهبطت في الجزائر». وكان المختطفون ثلاثة عرب. وكان ذلك في الثالث والعشرين من تموز عام ١٩٦٨، حيث كانت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين تشنّ حملة كبيرة في ذلك اليوم.

وكانت الشين بيت وبقية لجنة الاستخبارات عاجزة عن القيام بأي شيء على المدى القصير باستثناء مراقبة التطوّرات. وتمّ حجز المسافرين وطاقم الطائرة الاسرائيلية في الجزائر لمدة ثلاثة أسابيع. ولم ينته الاختطاف الفلسطيني الأول بإطلاق سراح الرهائن إلاّ حين وافقت اسرائيل على إطلاق سراح اثني عشر فدائياً جريحاً من السجن.

وكانت تلك أيضاً آخر عملية اختطاف ناجحة لطائرة اسرائيلية؛ إذ سرعان ما اقتنع صانعو القرار الاسرائيليون بالإذلال الناجم عن الخضوع للابتزاز. فتعهدّوا بألا يستسلموا لمطالب الارهابيين ثانية أبداً، إلا أن الاسرائيليين كانوا يعرفون ان التصريحات بنوايا التحدّي لا تكفي في مثل هذه الأمور. وبدلاً من الكلمات وحدها، يحتاجون الى فن جديد هو: الارهاب المضاد.

وبدا أن القنّاصين وصانعي القنابل الفلسطينيين قد أخذوا زمام المبادرة. ففي السادس والعشرين من كانون الأول عام ١٩٦٨، ألقى رجلان من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين قنابل يدوية وفتحوا النار في مكتب «العال» للطيران في مطار أثينا، ممّا تسبّب في قتل مسافر اسرائيلي وإصابة مضيفتين بجراح. ووقع حادث مماثل في مطار زيوريخ في الثامن عشر من شباط الذي تلاه، عندما قتل أربعة رجال من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين طياراً من «العال» وجرحوا خمسة مسافرين. وأصبحت طائرات تابعة لخطوط جوية أخرى متجهّة إلى اسرائيل أهدافاً للاختطاف

والتفجير، وبدا كما لو أنّ الأرض كلّها قد تحوّلت الى قرية إرهابية ضخمة. فلم يكن هنالك هدف يصعب الوصول إليه، خصوصاً إذا كان ذا علاقة بإسرائيل أو اليهود.

وعندما انتقلت منظمة التحرير الفلسطينية ورجالها إلى الخارج، تبعتهم الشين بيت. وبالرغم من التنافسات داخل الوكالة، واحتكارها تقريباً للعمليات الخارجية، إلا أنّ الموساد قبلت على مضض أن يكون للشين بيت الالتزام القانوني والمهني بتوسيع نشاطاتها في الخارج في المطاردة الحامية للإرهاب. وهكذا، كان عملاء ورجال الشين بيت إما ملحقين ـ كإعارة ـ في مراكز الموساد الموجودة في السفارة، أو معيّنين في أوروبا على نحو مستقلّ من قبل الشين بيت. هذا وفيها أصبحت حرباً سرية بلا قيود تخاض بالابتكار والارتجال، لعب العملاء الاسرائيليون لعبة القط والفأر المميتة مع الفلسطينيين.

وركزت مسؤوليات الشين بيت على تطوير دفاعات مضادة للإرهاب. ويتذكر هارملين بقوله: «كنّا على شفا يأس مطبق؛ إذ بدا لنا أن الصراع ضدّ الإرهاب، خصوصاً الإرهاب الجوي، أشبه بمهمة مستحيلة». وكان يتعينّ على وكالته ان تبني من لا شيء نظاماً فعالاً ومتطوّراً لحماية المصالح الاسرائيلية في الخارج: كالسفارات والبنوك ومكاتب السياحة والخطوط الجوية الوطنيّة ولم يقتصر الأمر على أسطول الطائرات فقط، وإنما المنشآت الأرضية التي أصبحت أهدافاً للإرهابيين فتمت «تقوية» دفاعات مكاتب الاستعلامات والمكاتب في كل المطارات في الخارج، كما زودت بحراس مسلحين.

وطرحت اسرائيل نوعاً جديداً تماماًمن البنية الأمنية وذلك بوضع مارشالات جويين مسلّحين في كل رحلة، حيث يجلسون في مقاعد عادية في هيئة مسافرين عاديين بملابس بسيطة. وكان هؤلاء شبابا خدموا في وحدات الجيش النخبوية، وتعلّموا السرعة في الأداء، ومع أنهم كانوا، بشكل رسمي، موظفين في شركة الخطوط الجوية، إلا أن الشين بيت درّبتهم ووضعت الاستراتيجية، ومع استثمار مئات الملايين من الدولارات، أضحت «العال» أكثر الخطوط الجوية أمناً في العالم.

ولم يعرف العالم بالأمر إلّا حين أطلق أحد المارشالات الجويين النار في هجوم زيوريخ وذلك في شباط عام ١٩٦٩؛ إذ سحب موردخاي راشاميم، أحد رجال «العال» المسلح، مسدساً أثناء هجوم رجال الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وأطلق النار على أحد الفلسطينيين على اسفلت مطار كلوتين. وألقت السلطات السويسرية القبض على راشاميم وثلاثة فلسطينيين جرحى، حيث أمضى الاسرائيلي الشاب بضعة شهور في السجن قبل عودته الى اسرائيل كبطل قومي. وبسبب «احتراق» هويته بانتشار صورته في الصحف العالمية والتلفزيون، عيّنته الشين بيت حارساً شخصياً لغولدا مائير، وهي وظيفة لا تتطلّب شخصية مجهولة. (علماً بأن غولدامائير أصبحت رئيسة

للوزراء في آذار عام ١٩٦٩ بعد وفاة اشكول).

وكانت الموساد قد ترأسها رئيس جديد عُيِّن عام ١٩٦٨، تحت غطاء اسم مجهول رسمياً كالمعتاد. وعلى أيّة حال، لم يكن زفي زامير صانع عناوين بارزة. وكان أكثر جانب مذهل في تغيير القيادة هو أن عدم احتفاظ مائير أميت بالوظيفة لفترة أطول من خمس سنوات، وهي الفترة المسموح بها رسمياً، وطلب أميت من ليفي اشكول أن يعيّنه فترة ثانية، إلاّ أن رئيس الوزراء رفض. إذ كان ما زال يشعر بالمرارة بشأن فضيحة بن بركة على وجه الخصوص الى جانب استقلالية أميت المفرطة.

ولقد اعترف الجميع بمن فيهم اشكول بأنّ أميت كان موهوباً. ولعلّه في الحقيقة أُجبر على الخروج لأنه كان كفؤاً أكثر من اللازم؛ فقد بدأ اشكول وغولدا مائير وزعماء مخضرمون آخرون من حزب العمل يخشون القوة المتزايدة لأميت. وكما أصبح بن غوريون في النهاية متشككاً في القوة التي جمعها ايسر هاريل، لم يرد زعماء الحزب الجدد ان يكون لديهم رئيس استخبارات قوي للغاية.

وهنالك سبب آخر لتشكك اشكول وهو قيام أميت بتدبير مؤامرة صغيرة مع صديقه الحميم وزير الدفاع موشيه دايان. ففي آذار عام ١٩٦٨، أراد دايان القيام برحلة سرية الى ايران لمقابلة الشاه. ولجأ الى أميت، لأن الموساد كانت مسؤولة عن الروابط مع ايران، وذلك لترتيب الزيارة. وعندما اكتشف اشكول الأمر، غضب وطالب بتفسير من أميت.

سأل اشكول رئيس الموساد قائلاً: «ما الذي يحدث هنا؟ كيف تجرؤ على القيام بشيء كهذا؟ أنت والموساد تابعون لي، لا لوزارة الدفاع او لموشيه دايان».

ولم يملك أميت جواباً جيداً، وما بدا صداما صغيرا حول مركز بيروقراطي، قرّر مصيره نهائياً. فعندما طلب أميت بعد فترة وجيزة البقاء كرئيس للموساد لمدة خمس سنوات أخرى وضّح اشكول له بأدب بأنه قرّر استبداله باللواء زفي (زفيكا) زامير. وفوجىء أميت وآخرون عديدون بحصول زامير على الوظيفة؛ فحقيقة كونه بلا خلفية سابقة في الاستخبارات جعلته خياراً مفاجئاً، حتى لنفسه.

إذن لماذا اختير لواحدة من أهم الوظائف وأكثرها حساسية في اسرائيل؟ لأنّ زعماء حركة العمل اعتبروا زامير «واحداً منّا». وكالعديد من شخصيات حزب العمل، وُلد في بولندا عام ١٩٢٥، ووصل الى فلسطين وهو في شهره السابع مع أسرته، التي كان اسمها آنذاك زارزيفسكي. انضم الى بالماخ في الثامنة عشرة من عمره وقاتل في حرب ١٩٤٨ وحقّق نجاحه في الجيش الاسرائيلي. وقد حصل على رتبة لواء كما عُيِّن مسؤولاً عن القيادة الجنوبية، ولتتويج عمله، تمّ تعيينه ملحقاً عسكرياً لاسرائيل في لندن عام ١٩٦٦.

كان هنالك سبب آخر لقرار اشكول: فإلى حدّ ما، يمكن ان تكمن قوة زامير في ضعفه. فبعد عقدين من الجواسيس البارعين الأقوياء والواثقين بأنفسهم على نحو مفرط، أراد رئيس الوزراء تعيين شخصية مختلفة كلية. وكان زفي زامير ملائماً لذلك. فوظيفته في لندن كانت تعني أنه لم يشهد حرب ١٩٦٧ ولا هالة النصر التي أحاطت بجنرالات اسرائيليين آخرين. لقد افتقر زامير الى البريق، كما كان واحداً من تلك الوجوه الحيادية والمملّة والجامدة في الجيش الاسرائيلي.

تمكن زامير من التعاون بصورة جيّدة مع هارملين من الشين بيت. وعمل جهدهما المشترك على إدخال وكالة الأمن الداخلي ظاهرياً في ساحات القتال الخارجية اكثر من ذي قبل.

وعندما بدأت منظمة التحرير الفلسطينية بالهجوم على السفارات الاسرائيلية والدبلوماسيين في اوروبا وآسيا، كانت الشين بيت مستعدة للرد، إذ تم تحويل السفارات ومكاتب القنصلية الى قلاع: فكانت هنالك أبواب فولاذية ذات سمك مضاعف لحماية المداخل، وكاميرات تلفزيونية لتفحّص الزوار، علاوة على تطويق الحدود الخارجية للمبنى بأجهزة الكترونية حساسة، وتعيين حرس من الشين بيت لحراسة المباني والموظفين. وقام قسم «الامن الوقائي» الموسّع في الشين بيت بكل ما هو ممكن، للدفاع عن المنشآت الاسرائيلية في الخارج، إلا أن رؤساء الاستخبارات أدركوا أنهم لردع الارهاب، يحتاجون الى اجراءات أكثر قوة.

وللمضي الى ما هو أبعد من الدفاع السلبي، تحرّكت الاستخبارات الاسرائيلية بسرعة قصوى نحو الدفاعات الفعّالة. وبصورة أدق، كان ذلك عملاً عدوانياً. وكان الغزو الأول للانتقام من الارهاب عام ١٩٦٨، عقب الهجوم على مطار أثينا في السادس والعشرين من كانون الأول، إذ صرخ الجمهور الاسرائيلي مطالبين ببعض الراحة من الاحباط الذي تولّد لديهم لاحساسهم بأنهم خدعوا. وخشي الاسرائيليون من ألّا يكون لدى المدافعين عنهم رد ملائم على تصدير الارهاب الفلسطيني من الشرق الأوسط الى اوروبا.

لقد كان بذلك المزاج الكئيب المهيمن على البلاد عندما دعا رئيس الوزراء اشكول الى عقد اجتماع خاص في مكتبه مع رؤساء الاستخبارات والجيش. وحدّد اشكول الاسلوب بنفسه، إذ صرخ قائلاً: «لا نستطيع أن نتجاهل الأمر وحسب». فقرّروا إرسال الجيش في مهمة انتقامية الى بيروت، من حيث أتى منفّذو عملية أثينا.

في التاسعة والربع من مساء ٢٨ من كانون الأوّل، هبطت طائرة هيليكوبتر تقلّ القوّات الخاصة الاسرائيلية في المطار الدولي، جنوب العاصمة اللبنانية بالضبط. ودون ان تردعهم معركة بالبنادق مع القوات اللبنانية، فجّر الاسرائيليون ثلاثين طائرة مدنية خالية تابعة لخطوط الشرق الأوسط الجوية اللبنانية وشركات عربية اخرى. فصُدم العالم بجرأة الخطوة، وأدانوا اسرائيل لتورّطها فيما أصبح يُشار اليه باسم إرهاب الدولة. وظهر أنه كما حدث في الأيام الخوالي لفضيحة

لافون واغتيال بن بركة، لم يطلع رئيس الوزراء على كل شيء. وكان وزير الدفاع موشيه دايان قد خدع أشكول حين وعده بأنه لن يتم تفجير سوى أربع طائرات فقط في العملية.

وكانت غارة بيروت مؤشراً واضحاً بأن اسرائيل تستطيع وبدقّة مذهلة اختراق قلب العالم العربي. وذهب الفضل في العملية التي قادها قائد لواء المظليين رافائيل (رافول) إيتان، الى القوات الخاصة الاسرائيلية. هذا وتعرف كل واحدة من هذه الوحدات النخبوية باسم «سايريت»، وهي كلمة مشتقة من اللغة العبرية وتعني «استطلاع» إلا ان الجنود في «سايريت» كانوا خبراء فيما هو أكثر من مجرد الاستطلاع، إذ كان عليهم أن يخضعوا لتدريب قاسٍ بما في ذلك حرب رجال العصابات والقتال الليلي والهبوط بالمظلّات واستخدام تشكيلة متنوعة من الأسلحة النارية.

ولكل قطاع تقريباً من قوّات الدفاع الاسرائيلية وحدة «سايريت» خاصة به. وهكذا يوجد لكل من المظليين والمشاة والبحرية ولواء الدبابات وحدة سايريت وقبل كل هذه، هنالك وحدة «سايريت» أخرى ـ هو نخبة النخبة ـ تعرف باسم «سايريت ماتكال». وماتكال هي اللفظة العبرية المختصرة التي تدل على «الأركان العامة» للجيش، وعادة ما تكون وحدة «السايريت» الخاصة هذه رسمياً تحت القيادة المباشرة لرئيس الأركان، وهو القائد الأعلى لاسرائيل.

إلا أنه في الحقيقة، تقوم «سايريت ماتكال» بتنفيذ مهمات خطيرة ومعقّدة بأمر من كل من رئيس الأركان وقائد أمان. ولقد تأسست وحدة الكوماندو العليا عام ١٩٦٠ لتمكين الاستخبارات العسكرية من وضع بعض خططها في حيّز التنفيذ، خصوصاً وراء خطوط العدوّ ـ ممّا يعني في أوقات السلم، عبر الحدود داخل البلدان العربية.

ويعدّ وجود «سايريت ماتكال» أمراً سرياً رسمياً، كما أن الرقيب العسكري لاسرائيل ما زال يحظر كل التقارير الخاصّة بنشاطات الوحدة. وفي الستينات من هذا القرن عرفت قلّة فقط من الضباط الكبار الحقيقة بشأن الفريق الخاص المشار إليه في الجيش باسم وحدة ٢٦٩.

وكان قد تأسّس على يد ضابط كبير، يدعى الجنرال أفراهام آرنان، والذي التقط أشجع وأذكى الجنود من قوّات الدفاع الاسرائيلية. ولقد درّبهم آرنان الى أن وصلوا مرتبة الكمال في فن «القتال الفردي» ـ وهو وحده المقاتل في الأماكن النائية. وباتّخاذ طرق متعدّدة في الظلام الدامس، تعلّم رجال الكوماندو العيش وحدهم لفترات زمنية طويلة، بحيث كانوا يقطعون اميالا عديدة قبل شنّ هجوم عسكري مثالي.

وعادة ما يتم تنفيذ مهماتهم من خلال فرق صغيرة مؤلّفة من ثلاثة أو أربعة رجال، يعبرون الحدود بصمت لإقامة مركز مراقبة أو للدخول على نظام الهواتف في الدولة العربية بغية التجسّس

أو لاغتيال أو اختطاف هدف محدد: شخص أو شيء جماد.

أثناء حرب الاستنزاف عام ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠، والتي عمل تبادل إطلاق المدفعية على قتل المئات من القوات الاسرائيلية وآلاف المصريين، حققت قوات الكوماندو الاسرائيلية ضربة غير متوقعة بالاعتداء على محطّة رادار سوفياتية الصنع على الجانب المصري من خليج السويس. وكان من الممكن أن يكون تفجير مجمّع الرادار ذي التقنية الرفيعة والمزوّد حديثاً أمراً صعباً بما فيه الكفاية، إلا أنه كان سيكون سهلاً بالمقارنة مع ما فعله الاسرائيليون بدلاً من ذلك: ففي عشية السادس والعشرين من كانون الأول عام ١٩٦٩، استخدموا طائرتي هيليكوبتر لرفع محطّة الرادار كلّها بوزنها البالغ سبعة أطنان مع هوائياتها المتحركة وألواح التحكّم، وذلك على ارتفاع كبير في الجوّ وعبر الجانب الاسرائيلي.

ومن سيناء، تمّ نقل محطّة الرادار السوفياتية المصرية بسرعة الى قاعدة اسرائيلية تتمتّع بدرجة عالية من الأمن، حيث أمضى محلّلو أمان يوماً مشهوداً مع أفضل «صيد» لهم منذ انشقاق الطيار العراقي بطائرته الميغ ـ ٢١ وذلك عام ١٩٦٦. وتقاسموا صيدهم مع السي آي إيه وضبّاط الاستخبارات في سلاح الجوّ الأميركي، حيث كانت تلك بداية مفيدة للتعاون العسكري بين الدولتين والتي وصلت ذروتها بعد حرب ١٩٧٣.

كانت «سايريت ماتكال» أوّل قوّة كوماندو في العالم تستخدم طائرات هيليوكبتر بصورة روتينية في مهمّات عبر الحدود. إلا أنه بالرغم من التطورات في التقنية بما فيها منظار الوقاية الليلي وأجهزة اللاسلكي ثنائية الاتجاه الخفيفة، فإنّ أكثر الأشياء نفعاً للكوماندو هي خريطته وساقاه. ومما يدعو الى السخرية، أن الجيش الاسرائيلي لم يتوصّل الى طرق ذكية لاستخدام وحدات «السايريت» أثناء الحرب. فقد قاتلوا جيداً في حرب ١٩٦٧ وحرب ١٩٧٣ فيما بعد، إلا أن أكثر فتراتهم بروزاً جاءت خلال صراع الشرق الأوسط الرئيسي.

وبالرغم من الحظر المفروض على أية شعبيّة داخل الوطن، إلا أنّ الصحفيين الأجانب سمعوا ببعض بطولات الكوماندو وكتبوا عن «واحدة من الوحدات المختارة في الجيش الاسرائيلي» أو «الوحدة النخبوية». ومع ذلك، كانت الحقيقة بأن «سايريت ماتكال» متّصلة بلجنة الاستخبارات الاسرائيلية كلها ـ وليس فقط بأمان، جناحها العسكري ـ أمراً خافياً. وكانت الوحدة، بناءً على أوامر من رئيس الأركان تقوم بدور التنسيق مع الموساد والشين بيت أيضاً. وهذا مثال على التعاون الرائع الذي نادراً ما يتزعزع بين الجيش ووكالات الاستخبارات.

وغالباً ما يكون جنود «سايريت» القدماء، بعد ثلاث سنوات من العمل المجدّ في الخدمة الفعّالة عموماً، مرشّحين رئيسيين لوظائف في الشين بيت أو الموساد. فهم ذلك النوع من المجندين المرغوبين من قبل أيّ أحد ـ من المحتمل الموساد ـ كان قد وضع هذا الإعلان المجهول في

عمود «وظائف شاغرة» في صحيفة اسرائيلية: «أعضاء سابقون شباب من وحدات مقاتلة للعمل في الخارج في وظائف مجزية ستُعطى الأولوية لهؤلاء الذين يحملون جواز سفر أجنبيا ويعرفون لغة أجنبية».

وتشكّل وحدات «سايريت» التي تجنّد متطوّعين من بين الجنود الجدد، عامل جذب قوي للأولاد الاسرائيليين، والذين تجري عليهم القرعة كلّهم تقريباً في سن الثامنة عشرة ولا يوجد في اسرائيل تقليد عسكري كما هو الحال في الدول الغربية، حيث تخدم فيها أجيال من نفس الأسرة في وحدات معينة أو تدرس في أكاديميات عسكرية مثل ويست بوينت في أميركا وساندهيرست في بريطانيا. غير أنه يوجد في اسرائيل تقليد من الاتصالات الشخصية والأسرية والبروتكتزيا ـ وهو مصطلح موجود في الروسية والعبرية حيث يشير الى ما يطلق عليه الاميركيون «الجذب». وغالباً ما يتم القيام بهذه الاتصالات لتحقيق غايات ايجابية كما يتم عموماً إدخال أبناء المشاهير أو السياسيين في وحدة «سايريت» وذلك بعد ان يصبحوا على درجة عالية من التأهيل.

أحد الأمثلة على ذلك العقيد عوزي دايان الذي اشترك في الغارة على مطار بيروت. فهو ابن اخ الجنرال موشيه دايان، وتمكن رغم تعرضه لاصابة خطيرة قبل التحاقه بالجيش، من الانضمام الى وحدة «سايريت» مختارة جداً.

انعطفت الحرب المستمرة ضدّ الإرهاب نحو الأسوأ عام ١٩٧٢، عندما قام أربعة فلسطينيين باختطاف طائرة بلجيكية في الثامن من أيار. وكانت رحلة سابينا رقم ٥٧١ متوجهة من بروكسل الى تل ابيب، حيث جعلها المختطفون تهبط كما هو مخطّط في مطار اللد. واحتجزوا حوالي مائة من المسافرين وأفراد الطاقم في البوينغ ٧٠٧، مطالبين اسرائيل بالإفراج عن ٣١٧ فدائيّاً مسجوناً. تفاوض رئيس أمان الجنرال أهارون ياريف مع الرجلين والمرأتين الذين اختطفوا الطائرة مفصحاً عن مواهبه كمتحدث، بينما أعدت قوات الدفاع الاسرائيلية ردّها الحقيقي.

وبناء على أوامر من مجلس الوزراء، شرعت وحدة «سايريت»، المدّربة خصّيصاً لاقتحام الطائرات وإنقاذ الرهائن، في القتال وذلك في الساعة ٢٢ر٤ مساء التاسع من أيّار، إذ قامت قوّات الكوماندو التابعة للجيش والذين كانوا يرتدون ملابس عمّال الصيانة البيضاء باقتحام طائرة البوينغ النفاثة من خلال كل مدخل يمكن تصوّره وبمنتهى البراعة، فقتلوا الإرهابيين وجرحوا المرأتين، وأطلقوا سراح ٩٧ رهينة. وفي عملية تبادل إطلاق النار، قُتل أيضاً مسافر اسرائيلي واحد.

وسرعان ما نتجت النظرية من التطبيق، وإذ عمدت اسرائيل الى تطوير نظرية جديدة من الحرب ضد الأرهاب، سارع بقيّة العالم الى التعلّم من الخبرة الاسرائيلية. فأرسلت ألمانيا الغربية وبريطانيا ودول أخرى عملاءً للأمن وقوات كوماندو عسكرية الى اسرائيل، حيث تولىّ خبراء من

قوات الدفاع الاسرائيلية مهمة تعليم الأجانب الأصدقاء. كما قامت دول عديدة بتأسيس وحدات كوماندو خاصة مبنية على النموذج الاسرائيلي. وكان اختصاصيو انقاذ الرهائن في بريطانيا تابعين لوحدات من الخدمات الجوية الخاصة (ساس) بينما شكّل الألمان الغربيون قوة تعرف باسم جي إس جي - ٩.

في الثلاثين من أيّار، قام ثلاثة رجال من الجيش الأحمر الياباني بقتل سبعة وعشرين مسافراً، معظمهم سوّاح مسيحيون من بورتوريكو، كانوا قد وصلوا الى مطار اللد للتوّ. وبعد ارتباك أوّلي، ردّ حرس الأمن على الهجوم بالقتال، فصرعوا إرهابيين وألقوا القبض على كوزو أوكاموتو. واعترف اثناء محاكمته أنه هو وزميلاه - من باب إظهار التضامن - قد قاما بالعملية نيابة عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. وكانت المجزرة انتقاماً لفشل اختطاف سابينا، وذلك قبل ثلاثة أسابيع على اسفلت مطار اللد على بعد بضع مئات من الياردات فقط عن المذبحة التي نفذّها الارهابيون اليابانيون.

بعد مرور خمسة أسابيع، جاء دور اسرائيل بالانتقام؛ إذ قتلت رسالة مفخخة وصلت الى بيروت غسان كنفاني، وهو شاعر وكاتب ومتحدث باسم الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، متّهم من قبل الاسرائيليين بالتخطيط لمجزرة مطار اللد. بعد يومين آخرين، انفجرت رسالة بين يدي بسام أبو شريف، وهو مسؤول في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، حيث فقد عيناً واحدة وعدّة أصابع. وتمّ تنفيذ هذه الاعتداءات على غرار الطرود المفخخة التي قتلت الضبّاط المصريين في الخمسينات من هذا القرن والرسائل المفخخة التي أرسلت الى العلماء الألمان في مصر في أوائل الستينات.

وبلغت دائرة العنف والانتقام أوجها في دورة الألعاب الأولمبية في ميونيخ في الخامس من أيلول عام ١٩٧٢. فتحت غطاء جماعة «أيلول الأسود» الغامضة، احتجز سبعة عرب أحد عشر رياضياً اسرائيلياً في القرية الأولمبية.

وكما في حوادث رهائن أخرى، طالب ارهابيو الأولمبياد اسرائيل بالافراج عن ٢٥٠ من رفاقهم في السجن، إلا أن الحكومة الاسرائيلية، الملتزمة بسياستها الثابتة، أبت الاستسلام ورفضت اطلاق سراح اي فدائيين.

وبينما كانت وسائل الاعلام العالمية تذيع تغطية حيّة للاحتجاز في المنازل حول الكرة الأرضية، معلنة في آن واحد المطالب الفلسطينية، ومستدرّة العطف على الضحايا اليهود الذين كانوا يُعانون على الأرض الألمانية، سلّمت رئيسة الوزراء غولدا مائير مسؤولية أحداث ميونيخ لرئيس الموساد الذي كانت تثق به، وفي زامير. فطار الى ميونيخ على الفور وعقد محادثات طارئة مع مسؤولي الأمن في المانيا الغربية. وبناء على الأوامر المباشرة من رئيسة الوزراء مائير، ومسلحاً

بالخبرة في إنقاذ مسافري سابينا المختطفة قبل أربعة شهور فقط، ناشد زامير الألمان الغربيين السماح لوحدة «سايريت» اسرائيلية مدربة خصيصاً للتعامل مع الاحتجاز وكان يمكن أن يوافق المستشار ويلي براندت على الأمر، إلا أنّ الدستور الفيدرالي الألماني ترك القرار في أيدي مسؤولي الدولة المحليين، والذين رفضوا.

وهكذا، تُرك زامير ليراقب الأمر بيأس من برج المراقبة في مطار ميونيخ العسكري؛ حيث فتح رماة ألمان قليلو الخبرة والتجهيز النار، لكنهم فشلوا في قتل كل الفلسطينيين بوابل الرصاصات الأولى، إذا كان هناك ثلاثة ما زالوا على قيد الحياة، قاموا باطلاق الرصاص وإلقاء القنابل اليدوية ليقتلوا بذلك الرهائن المكبلين الذين كانوا يجلسون في طائرات هيليكوبتر على اسفلت المطار.

وفي اسرائيل قرّرت لجنة تحقيق ضرورة طرد رئيس قسم الأمن الوقائي في الشين بيت الذي كان مسؤولا عن حراسة الرياضيين الأولمبيين. غير ان رئيس الوكالة هارملين وقف بحزم ضدّ إلقاء اللوم على رئيس القسم، وللمرة الوحيدة في وظيفته، هددّ هارملين بالاستقالة. فأصرّت رئيسة الوزراء غولدا مائير بأنّ الطرد ثمن بيروقراطي رخيص، وفصل هارملين مرؤوسه مكرهاً.

وبينما كان التحقيق مستمّراً، وبعد خمسة أيام من مذبحة ميونيخ، تلقّى زادوك أوفير مكالمة هاتفية عاجلة في مكتبه بالسفارة الاسرائيلية في بروكسل. فأسرع الى مقهى «برنيس»، حيث قام عربي بجواز سفر مغربي، كان عضواً في ايلول الاسود باطلاق النار عليه من مسافة قريبة واتضح فيما بعد أن اوفير كان ضابطاً في الشين بيت يعمل بصورة سرية كسكرتير أوّل في السفارة. وجرح أوفير في بطنه، لكنّه نجا. وظهر كذلك أنّ الاسرائيليين عرفوا هويّة المهاجم. فلقد كان العربي عميلاً مزدوجاً، وكان أوفير ضابط الحالة الخاصّ به. وكانت السفارة في بروكسل مركز نشاط التجسّس الاسرائيلي في أوروبا، وهو دور لعبته منذ أن طرد ديغول الموساد من باريس بعد مقتل بن بركة.

كان يجب ان تعمل حادثة بروكسل على اشعال اضواء تحذير ضخمة في مراكز الموساد والشين بيت. فللمرة الأولى، يتمّ إطلاق الرصاص على ضابط استخبارات اسرائيلي أثناء تأدية واجبه في الخارج. غير أنّ حادثة ميونيخ طغت على كل الحوادث والاعتبارات. وحتى زامير، حين عاد من زيوريخ، لم يعر أهميّة للاعتداء على أوفير.

بعد عودته من ألمانيا، أسرع زامير من مطار اللد إلى القدس وأخبر رئيس الوزراء بالكارثة التي شهدها. فاغرورقت عينا غولدا مائير بالدموع. وكانت مائير ـ وهي سياسية صلبة لكنها امرأة حسّاسة حيث كانت «أماً يهودية» تقليدية ـ ممزقة بين المنطق البارد والرغبة بالانتقام لأرواح

«أولادها» المقتولين. ولم يمض وقت طويل قبل أن يتوصلا معاً إلى قرار هادىء ومدروس بقتل أولئك الذين قتلوا.

وأوجدت مائير مركز «مستشار رئيس الوزراء حول الارهاب المضاد» الجديد، واختارت الجنرال أهارون ياريف للوظيفة. وكان قد استقال حديثاً بعد ثماني سنوات كمدير لأمان، وهو مكانه في التاريخ الذي ضمنه له نصر اسرائيل في حرب ١٩٦٧.

أضحى الإرهاب العربي يشكّل هاجساً بالنسبة لمائير وياريف وزامير، فشكّل مجلس الوزراء الاسرائيلي بتحريض منهم لجنة سرية عليا برئاسة فولدا مائير وموشيه دايان للوصول الى قرار بشأن الردّ على ميونيخ. وعُرفت الهيئة فقط باسم «لجنة إكس»، كي لا يعرف بغرضها أعضاء المجلس الآخرون والموظفون المدنيون. واتّخذت لجنة اكس القرار التاريخي والسري للغاية باغتيال أي ارهابيين من جماعة ايلول الأسود متورطين بصورة مباشرة أو غير مباشرة في تخطيط أو مساعدة جو تنفيذ الاعتداء في الأولمبياد.

ولم تكن المهمة إيقاع أي أحد في الأسر لقد كان انتقاما بكل معنى الكلمة ـ لإرهاب الإرهابيين. وأولت مائير المهمة إلى الموساد، فاستدعى زامير مايك هراري، أحد العملاء الكبار في قسم العمليات، وجعله مسؤولاً عن فرق الاغتيال. واختار هراري فريقاً من العملاء، من الرجال والنساء، وأسس مركز قيادته الأوروبي في باريس. وقد تبنى هويّات زائفة عديدة، بما فيها جواز سفر عرّفه كرجل أعمال فرنسي يدعى إدوارد ستانيسلاس لاسكيير. وكان هراري وعميل الموساد افراهام غيهمر الذي كان يعمل تحت غطاء سكرتير أوّل للسفارة الاسرائيلية في باريس، مسؤولين عن التخطيط.

في البداية، جمع الاسرائيليون قائمة بالعرب الذين اشتركوا في عملية ميونيخ. ثمّ بدأ الفريق بتعقب اثر الرجال على قائمة «المطلوبين» حيث كان معظمهم قد ظلّوا في أوروبا في وظائف ظاهرية عديدة ونشاطات ارهابية خفية. وعندما شعر هراري وفريقه بأنّهم مستعدون للهجوم، أتّصلوا بزامير في تل أبيب والذي لجأ الى لجنة اكس للحصول على إذن بإعطاء الضوء الأخضر. وكان على رئيسة الوزراء غولدا مائير وهيئتها السرية الموافقة على كل عملية قتل فردية.

وكان أوّل من قُتل في تشرين الأول عام ١٩٧٢، وائل عادل زعيتر، وهو فلسطيني درس في روما كان يعمل لجماعة أيلول الأسود. وخلال عشرة شهور، قتل رجال هراري ونساؤه اثني عشر فلسطينياً كانوا على علاقة بالإرهاب ضدّ المدنيين. وتمّ قتلهم باستخدام البنادق وكاتمات الصوت، التي كانت تُطلق في بعض الأحيان من سيارات او دراجات نارية في باريس أو روما، أو باستخدام قنابل تعمل بنظام التحكّ من بعد، يتمّ تفجيرها بواسطة نغمات ذات درجة مرتفعة على مستوى رفيع من التقنيّة، تُبث عبر الهاتف أو اللاسلكي في نيقوسيا وباريس.

وسعت جماعة أيلول الأسود التي رأت اغتيال خيرة رجالها إلى الرّد على ذلك. . ففي الثالث عشر من تشرين الثاني عام ١٩٧٢، قُتل صحفي سوري في باريس يدعى خضر كانو بإطلاق الرصاص عليه؛ إذ كان يعمل عميلاً للاسرائيليين. وفي السادس والعشرين من كانون الثاني عام ١٩٧٣. اطلق الرصاص كذلك على رجل أعمال اسرائيلي يدعى حنان ييشع، حين كان واقفاً في مدخل ال «غران فيا»، الشارع الرئيسي في مدريد. وكُشف النّقاب بعد وفاته على أن اسمه الحقيقي هو: باروش كوهين، وأنّه كان قد جاء إلى مدريد من بروكسل في مهمة للاستخبارات الاسرائيلية.

كان كوهين الخروف الأسود في أسرة معروفة في حيفا، معظم أفرادها كانوا منتمين لأحزاب سياسية يمينية. وكان أحد إخوانه، ويدعى مائير كوهين، نائب رئيس البرلمان الاسرائيلي، كعضو في حزب الليكود لمناحيم بيغن. غير ان باروش سلك طريقاً مختلفاً؛ اذ عاش في كيبوتز واعتنق الاشتراكية والتحق بالشين بيت. وحتّى حرب ١٩٦٧، عمل في قسم أفراهام أهيتوف الخاص بشؤون العرب، كعمل ميداني بصورة رئيسية في منطقة الجليل الأعلى.

بعد الحرب، ونظراً لمعرفته باللغة العربية، عُيّن للعمل في الضفة الغربية. وبالرغم من انه كان مجرد رقيب في قوات الاحتياط العسكرية، إلا أنه تمت ترقية كوهين بسرعة الى رتبة نقيب كي يخدم كحاكم عسكري في أكبر مدينة في الأراضي المحتلة هي: نابلس، حيث كان يتعين عليه بالطبع التركيز على قمع الارهاب. وما أن تولى المنصب في تموز عام ١٩٦٧، حتى كاد أن يلقي القبض على ياسر عرفات الذي اضطرّ في تلك الحادثة الى ارتداء ملابس امرأة بما في ذلك الخمار الأسود التقليدي للهرب من كوهين ورجاله.

في عام ١٩٧٢، اشترك في كشف حلقة تجسس يهودية عربية عملت تحت أوامر الاستخبارات السورية، وتمّ إرساله فيما بعد إلى أوروبا لادارة شبكة من المخبرين الفلسطينيين الشباب هناك وكان أحد عملائه عميلاً مزدوجاً، ولاؤه الأساسي لجماعة أيلول الأسود كما هو واضح، وذلك لأنه أطلق الرصاص على ضابط الحالة الاسرائيلي الخاص به، ألا وهو: كوهين. وكان زادوك أوفير قد نجا من اعتداء مماثل قبل أربعة شهور، غير أن كوهين أضحى أوّل عميل استخبارات اسرائيلي في أوروبا يُقتل على يد فلسطيني.

زعم بعض أفراد عائلة كوهين فيما بعد أنه كان من الممكن تجنّب وفاته. ففي انتهاك لكل الاحتياطات الأمنية، كانت صورة كوهين قد نشرت، مما يبعث على السخرية، في ألبوم رسمي للجيش احتفالاً بانتصار عام ١٩٦٧ - وأظهرت اللقطة كوهين في الزيّ العسكري مع صديقه المخلص زادوك أوفير، الذي كان في الزي العسكري أيضاً. هذا وتجمع أجهزة الاستخبارات العربية مثل هذه القصاصات، ويعدّ من الضروري ألاّ يظهروا وجوههم أبداً. ويستطيع عملاء

العدوّ استنتاج الأشياء من الوقائع؛ فحتى لو اخفى كوهين هويته كاسرائيلي عند إدارته لشبكته الفلسطينية كان من الممكن ان تكون تلك الصورة قد كشفت عن شخصيته.

وفي الحقيقة، وقبل بضعة شهور من وفاته، تناقلت الصحف العربية روايات تفيد بأن جماعة أيلول الأسود قد أصدرت حكماً بالاعدام على عميل اسرائيلي. وكان يجب ان تجعل قراءة هذه التقارير الشين بيت تغيّر موقفها لاحتمال ان تكون هوية باروش كوهين قد عُرفت. وما كان يجب تعريض حياته للخطر بإرساله الى مدريد. ومما يزعج بنفس القدر، هو أنه بينما كان عملاء اسرائيليون آخرون «يغطّون» كوهين بمراقبته، لم يقوموا بشيء حين أُطلق الرصاص عليه خوفاً من أن يُكتشفوا هم أنفسهم.

ولم يبتهج أفراد الأسرة الذين شعروا أن كوهين كان ضحية لفشل رؤسائه بالاشارات بأن الموساد كانت تنتقم من مقتل باروش كوهين، وكشفت أرملته نوريت قائلة: «أحياناً، كان يأتي ضباط لزيارتي كي يسألوني: هل قرأت في الصحيفة ان هذا وذاك قد قتل أو هذا وذاك تمّ تفجيره؟ ماذا أستطيع أن أقول، بأنّ ذلك قد واساني؟» وانتشر نبأ يقول بأن ثلاثة أعضاء من جماعة أيلول الأسود كانوا مشتركين في اغتيال كوهين قد تمّت تصفيتهم.

كان يجب أن يكون مقتل كوهين بمثابة تحذير آخر لاسرائيل وكان يجب أن تربط لجنة الاستخبارات اغتيال كوهين بمحاولة اغتيال أوفير وقتل العميل السوري المزدوج كانو. كما كان يجب أن تستنتج الموساد أنّ عدوها الفلسطيني كان يظهر درجة عالية من الحرية في اختراق قلب العمليات للاستخبارات الاسرائيلية فيما وراء البحار.

إلا أنه بدلاً من ذلك، تصرفت لجنة الاستخبارات كما لو كانت ما تزال أسيرة الهواجس. فتبنّت الانتقام كعقيدة لها، وتم قتل أعضاء أيلول الأسود واحداً تلو الآخر في أوروبا.

بعد سبعة شهور من عملية الأولمبياد، أرسل القتلة الاسرائيليون فريقهم الانتقامي الى العالم العربي. وكانت أهدافهم اثنين من قادة أيلول الأسود، هما محمود النجار وكمال عدوان، والناطق باسم منظمة التحرير الفلسطينية كمال ناصر. ففي ليلة العاشر من نيسان عام ١٩٧٣، خرّ ثلاثتهم صرعى بإطلاق الرصاص عليهم في شققهم المنفصلة في بيروت. وكان القتلة قوّات اسرائيلية ممتازة، وجّهوا الى أهدافهم من قبل رجال الموساد. وصوّرت عملية الجيش الانزال الليلي لاعضاء وحدة كوماندو «السايريت» العليا على الشاطىء اللبناني.

ومما يثير الاعجاب أكثر، الاستعدادات التي قامت بها لجنة الاستخبارات فالكوماندو كان لديهم عناوين الزعماء الثلاثة. وكان المعتدون قادرين على النزول في مواقع قريبة من المنازل الثلاثة، كما كان هنالك سيارات مرسيدس مستأجرة على الشاطىء وذلك للجنود السريين. ولقد

أظهرت العملية درجة عالية من التعاون بين عملاء الموساد وأمان، كما تمّ تنفيذها في عاصمة عربية لا يوجد فيها سفارة اسرائيلية تقوم بتزويد غطاء دبلوماسي لجاسوس، وحيث لا يستطيع أي اسرائيلي حتى زيارتها، وذلك نظراً لحالة الحرب الرسمية.

كانت العملية الاعتداء الثاني على بيروت في خلال أربع سنوات ونصف السنة. وقد أطلق عليها الاسم الرمزي أفيف نعوريم، أي «ربيع الشباب». وشمل الرجال الذين أظهروا ثانية شجاعة اسرائيل العسكرية ضباطاً شباباً، من أمثال إيهود براك وأمنون ليبكين ـ شاحاك، اللذين رقّيا فيما بعد إلى قمّة أمان.

لم يدم الوهج الدافىء لوظيفة تمت تأديتها على خيروجه سوى ثلاثة شهور، إذ انطفأ في مكان يُدعى ليليهامر. في بداية تموز عام ١٩٧٣، اجتمع معظم أعضاء فريق مايك هراري الهجومي، بتخويل من رئيسة الوزراء مائير ولجنة إكس، في تلك المدينة الصغيرة الواقعة في شمال النرويج. وكانوا قد أتوا من أماكن مختلفة في أوروبا لتصفية حساب مع «الأمير الأحمر»، وهو الاسم الرمزي الذي أعطته الموساد لعلي حسن سلامة.

كان سلامة ضابط عمليات في أيلول الأسود في أوروبا، وقد خطّط كلاً من الاعتداء على الرياضيين الاسرائيليين في ميونيخ واغتيال باروش كوهين. وامتدت أهميته إلى ما وراء جماعة أيلول الأسود الغامضة. وكان سلامة، وهو ابن قائد ميليشيا فلسطيني ذي رتبة عالية كان قد قُتل في الحرب ضدّ اسرائيل عام ١٩٤٨، في الحقيقة قائد قوّة ١٧، وهي الوحدة التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية، والمسؤولة على وجه الخصوص عن حماية ياسر عرفات ـ ولقد أُطلق عليها هذا الاسم ببساطة لأن ١٧ هو رقم التلفون الفرعي في مركز منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت. وبسبب تورّط سلامة في عملية الأولمبياد، أرادت الموساد وضع نهاية عنيفة لوظيفته.

كان سلامة واثقاً بنفسه، غير أنّه كان كذلك رجلاً يصعب القبض عليه. بعد شهور من البحث عنه، توجه قنّاصو مايك هراري إلى النرويج بحماس بالغ، لأن عملاء في رحلة استطلاعية سابقة كانوا متأكدين بأنهم قد عثروا على سلامة أخيراً. وحدّد فريق هراري موقع فريستهم في ليليهامر، وتعقبوه لساعات عديدة للتأكد من أنه الأمير الأحمر، ثمّ أطلقوا الرصاص عليه ليردوه قتيلاً في الحادي والعشرين من تموز. وهرب القتلة أنفسهم من البلاد بسرعة، بينما توجه بقية الاسرائيليين الى البيوت الآمنة في أوسلو.

في اليوم التالي فقط اكتشف العملاء الاسرائيليون بأنهم ارتكبوا غلطة شنيعة؛ إذ قتلوا الرجل الخطأ، وهو نادل مغربي، يدعى أحمد بوشيكي كان متزوجاً من نرويجيّة، وهي امرأة حامل شهدت عملية القتل.

وكان بإمكان الاسرائيليين الافلات بجريمتهم، مبقين على خطئهم سرّاً مطلقاً، لولا التصرّف الغبي للعملاء المساعدين الاسرائيليين، وهم الرجال والنساء الذين قاموا بالمراقبة وببعض التخطيط للقتلة؛ إذ ارتكبوا كلّ خطأ ممكن، كما لو كانوا يسعون إلى إلقاء القبض عليهم من قبل الشرطة النرويجية.

ولم تكن الشرطة تبذل أية جهود كبيرة للقبض على القتلة. وفي الواقع، فإن عملاء الموساد - بالرغم من أنهم كانوا مدربين بدقة على الاختفاء بلمحة عين - تركوا أثراً واضحاً في كل خطوة على نحو يتعذّر تفسيره؛ إذ طافوا حول ليليهامر بسيارات كانوا قد استأجروها بأنفسهم بدلاً من استخدام وسطاء لا يعرفون شيئاً عن الطبيعة الحقيقية لمهمة القتل. وفي تعقّبهم لبوشيكي، بلغوا من الخفّة حدّاً أشبه بقطيع من الفيلة في محل للخزف الصيني. كما لم يراعوا قواعد التقسيم الى وحدات مستقلة، وإنما عرفوا بعضهم بعضاً.

وذكر جيران النادل السيء الحظ للشرطة رقم لوحة سيارة، كما أُلقي القبض على عميلين اسرائيليين حين أعادا سيارتهما المستأجرة الى مطار أوسلو. واعترف الاثنان المسافران تحت اسم دان إيرت وماريان غلادينكوف بأنهما كانا يعملان لاسرائيل، وأعطيا عنوان شقة مستخدمة من قبل الموساد.

فوجدت الشرطة هناك عضوين آخرين من فريق الهجوم.

وذُهل المحقّقون النرويجيون من انعدام الخبرة التي أظهرته وكالة التجسّس التي تُعد الأفضل في العالم. فوقع الاسرائيليون في أيدي الشرطة واحداً بعد الآخر، كسقوط فاكهة ناضجة اكثر مما ينبغي من على شجرة. وتمكن هراري نفسه من الهرب، إلاّ أنه ألقي القبض على أفراهام غيهمر وخمسة عملاء آخرين من الموساد.

وكشفت التحقيقات في النرويج عن طريقة عمل الاغتيالات الأخرى قبل عملية الأولمبياد. وكان أحد رجال الموساد يحمل مفتاحاً لشقة في باريس، حيث وجد الجهاز السريّ الفرنسي مفاتيح لبيوت آمنة اخرى مستخدمة من قبل العملاء الاسرائيليين. ووُجد دليل ربط الاسرائيليين بحوادث اغتيالات الفلسطينيين التي لم تُحلّ، وذلك في دول عديدة. وتمكّنت وكالات الاستخبارات الغربية في الكيفية التي نشر بها الاسرائيليون فرق الهجوم في أوروبا، ووجدوا بأن الموساد قد استخدمت مساعدة جزئية لزيادة المراقبة وتصريف أمور العملاء.

أحد الأمثلة، وأكثرهم ثرثرة إلى حدّ بعيد حين تمّ استجوابه في أوسلو، هو إيرت - ولم يكن عضواً في الموساد وإنما رجل أعمال من أصل تركي، عاش في هيرزليا، شمال تل ابيب، تحت اسمه الحقيقي، دان إيربيل. كانت الموساد تستدعيه من حين لآخر للقيام بمهمّات عدة. وما أن

وضعه النرويجيون في غرفة مظلمة ومنفردة، حتى أخبرهم بكلّ شيء. ولم يتمكن المحققون من إخفاء دهشتهم عندما كشف لهم إيرت/ إيربيل بأنه يعاني من رهاب الاحتجاز، الأمر الذي يعدّ عقبة واضحة لعميل سري. وفي مقابل نقله الى زنزانة اكبر، كان مستعداً للاعتراف بكل شيء، ليس فقط بشأن عملية ليليهامر، وإنما بشأن دوره أيضاً في عملية النقل الغامضة لشحنة يورانيوم الى اسرائيل عام ١٩٦٨.

وقال إيرت/ إيربيل أنه كان الرئيس الصوريّ في قيام الموساد بشراء شاحنة قديمة تدعى شيرزبيرغ إيه، كان فيها ٥٦٠ اسطوانة معدنية من أكسيد اليورانيوم حين غادرت انتويرب في بلجيكا، لكنها ظهرت في مينائها التالي دون المادة النووية الخام (راجع الفصل التاسع).

ومن الاسرائيليين الآخرين الذين أُلقي القبض عليهم في النرويج سيلفيا رافائيل. إلا أنها كانت أكثر احترافاً من إيرت/ إيربيل بكثير. فتحت اسم باتريشيا روكسبورو، طافت العالم كمصورة صحفية بجواز سفر كندي مزوّر. وكانت رافائيل قد وُلدت في جنوب افريقيا، وجنّدتها الموساد بعد العمل كمتطوعة في كيبوتز اسرائيلي. وكانت الوحيدة التي خرجت بنهاية سعيدة من فضيحة ليليهامر، إذ وقعت رافائيل/ روكسبورو في غرام محاميها النرويجي وتزوّجته. إلا أنه في البداية، كان عليها مع أربعة من عملاء الموساد الآخرين قضاء فترة في السجن. وبالرغم من العقوبات التي أصدرتها المحكمة، وهي فترات حبس تتراوح من عامين الى خمسة أعوام ونصف العام، إلا أن النرويجيين المتعاطفين أطلقوا سراح الاسرائيليين بعدما لا يزيد على اثنين وعشرين شهراً.

وكانت الموساد محظوظة لأنّ النرويج لم تضغط كثيراً في تحقيقها بشأن القضية المعقدة، مفضلة كما هو واضح ألاّ تضيف الى إحراج اسرائيل الاحتقار الشعبي. وبالرغم من المعلومات التي تثبت الجريمة، والتي ظهرت في المحاكمات في النرويج، إلا أن جهازي الأمن الفرنسي والايطالي أظهرا أيضاً قدراً كبيراً من التضامن مع الموساد، فتجاهلا مطالب منظمة التحرير الفلسطينية باعادة التحقيق في مقتل الفلسطينيين في البلدين.

وأشفقت وكالات الاستخبارات في أوروبا الغربية على الموساد، إذ أدركوا بأنهم هم أيضاً يمكن بسهولة الإمساك بهم في وضع مماثل، وكان من قبيل المجاملة المهنية عدم تصعيد الأمور الى الأسوأ. كما كان هنالك عامل قوي، يتمثّل في العطف على اسرائيل في قتالها ضد الارهاب العربي. ولقد احترمت الأجهزة السرية الغربية استعداد الدولة اليهودية لتقدّم للعالم بديلاً للاستكانة والخضوع في الحرب ضدّ الارهاب.

كان هذا عزاءً صغيراً لاسرائيل. غير أن الموساد لم تشعر بالرضا إلا حين تمكنت أخيراً من اللحاق بسلامة بعد خمس سنوات ونصف السنة؛ إذ طار فريق صغير من العملاء الاسرائيليين،

معهم امرأة للمرة الثانية، إلى لبنان بجوازات سفر بريطانية وكندية. في الثاني والعشرين من كانون الثاني عام ١٩٧٩، أوقفوا سيارة مليئة بالمتفجرات على جانب طريق في بيروت، وفجروا القنبلة الضخمة بجهاز التحكّم عن بعد عندما اقترب الأمير الأحمر بسيارته منها، حيث تبخّر هو وسيارته.

لم تسرّ السي آي إيه بتلك العملية كثيراً لأن سلامة، كما أضحى معروفاً بعد وفاته، كان ذا عون للأميركيين. فلقد كان حلقة الاتصال السري بين منظمة التحرير الفلسطينية والسلطات الأميركية.

وما انفكت ذكريات الفشل الذي انكشف على الملأ تؤرق اسرائيل. ويشير العديد من الاسرائيليين في لجنة الاستخبارات الى ليليهامر باستخدام تورية مثبطة: ليل - ها - مار، وهو تعبير عبري يعني «ليلة المرارة»، ففي كل مرّة تُذكر فيها، ينكمش العملاء السريون الاسرائيليون، إذ يتفقون جميعاً بأن قتل الرجل الخطأ - ثم القبض على القتلة - كان أكبر فشل لهم.

إن الهاجس بالانتقام جعل اسرائيل تخطىء في حكمها الثاقب، إذ اشتكى مسؤولون كبار في لجنة الاستخبارات بمرارة بأنه لم يكن من مهمتهم ان يصبحوا فرعاً من مؤسسة إجرامية. وادّعوا بأن قسماً هاماً من الموارد البشرية والتقنية في الموساد والشين بيت موظّف في القنص البشري، بدلاً من استغلاله في العمل الأكثر أهمية والأكثر تقليدية، والخاص بجمع المعلومات حول المقدرة العسكرية للدول العربية.

وزعم المنشقّون الداخليون بأنّ اسرائيل كانت تبالغ بشأن أهمية الارهاب الفلسطيني، لأنه في التحليل الأخير لم يكن هذا هو ما قد يعرّض وجود الدولة للخطر وعلى الأسوأ، كان الأمر أشبه بذبابة مزعجة تضايق اسرائيل دون أن تشكل خطراً كبيراً. وأكد آخرون بأنّه لا جدوى من إبادة رؤساء المجموعات الفدائية الفلسطينية، لأنه لم يكن هنالك ما يضمن ان خلفاءهم سيكونون أكثر اعتدالاً أو أقل قوة.

واتّهم المنشقّون الغاضبون كذلك بأن كارثة ليليهامر تمّ طمسها، فلم يتحمّل أحد العواقب. وحتّى مايك هراري استأنف ببساطة وظيفته الخاصة بالعمليات في تل ابيب.

غير أنّ هذه كانت أشبه بصرخات تنطلق في صحراء واسعة. فلقد كان رئيس الموساد زفي زامير في المطار في ميونيخ. وشاهد الرياضيين الاسرائيليين يُقتلون وهم مقيدون داخل طائرات الهيليكوبتر. وكان غاضباً ومتفقاً تماماً مع رغبة غولدا مائير في الانتقام.

عملت حملة الاغتيالات على تفكيك أيلول الأسود، ورغبت الاستخبارات الاسرائيلية الآن بالتعامل مع خصمها القديم في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين جورج حبش. ففي العاشر

من آب عام ١٩٧٣ ، اعترضت طائرات مقاتلة طائرة مدنية لبنانية ، وأجبرتها على الهبوط في قاعدة عسكرية في إسرائيل. وتمّ اقتياد المسافرين في طابور واحد، كما تمّ استجوابهم على نحو فردي، إلا أنّه لم يكن بينهم رئيس إرهابي، لذا أُطلق سراح الجميع ـ الأمر الذي سبّب إحراجاً بالغاً للموساد.

وكانت المعلومة التي ذكرت بأنّ حبش سيكون في الطائرة قد أتت من أحد أفضل عملاء اسرائيل الموجودين داخل الجماعات الفدائية الفلسطينية: من امرأة تدعى (أ.م). وكانت قد وُلدت عام ١٩٣٥ لأسرة شركسية مسلمة في الاردن، وجنّدتها الموساد في فينا عام ١٩٧٢ ـ بعد أن وقعت في غرام طيّار اسرائيلي كان يزور النمسا. ومن المحتمل ان الطيار كان في مهمة لايجاد عميل عربي ممكن، وكانت (أ.م) اختياراً جذاباً. وكانت مهمتها، التي قبلتها على وجه الخصوص بسبب كراهيتها لمنظمة التحرير الفلسطينية، وإلقاء اللوم عليها في استمرار صراع الشرق الأوسط، تتمثل في الانتقال إلى بيروت في أوائل عام ١٩٧٣ والالتقاء بأكبر عدد ممكن من الفلسطينيين. وكانت (أ.م) قد تلقت بعضاً من التعليم في الطب، فساعدها الاسرائيليون على انشاء عيادة. وشهدت عيادتها ازدحاماً كبيراً عندما اندلعت الحرب الأهلية اللبنانية عام ١٩٧٥ ، حيث كانت تعالج الفلسطينيين الذين جُرحوا أثناء الدفاع عن أحيائهم ومخيماتهم. ومما يثير السخرية، أن الموساد كانت تموّل الرعاية الطبية في لبنان وذلك بصورة سرية.

صادقت (أ.م) ضباطاً كباراً في منظمة التحرير الفلسطينية. وأثناء كونها وحيدة في الليل، كانت تكتب روايات مطوّلة بكل شيء رأته وسمعته. غير أنّها لم تلتق بأي أحد من الموساد لأنها كانت تترك تقاريرها وصورها في «صناديق الرسائل المهجورة» في بيروت، وهي أماكن مثل ممرات الفنادق أو حمامات المطاعم، حيث يمكن ترك مظروف صغير ليأخذه فيما بعد جاسوس غير مرئي. وقد نقلت معلومات عاجلة لاسرائيل باستخدام تقنيّة مفضلة لدى الموساد، وهي جهاز لاسلكي صغير للغاية.

توقف تدفّق المعلومات عام ١٩٧٥، عندما ألقى الفلسطينيون القبض على (أ.م). وتعرّضت للتعذيب على أيدي راديكاليي منظمة التحرير الفلسطينية كما تمّ استجوابها من قبل عملاء في الاستخبارات الالمانية الشرقية والكي جي بي السوفياتية أثناء خمس سنوات من الحبس في كهف بالقرب من ميناء صيدا اللبناني. وبالتفاوض من خلال اللجنة الدولية للصليب الأحمر، رتبت اسرائيل تبادلاً للأسرى، وأفرجت عن فلسطينيين ـ كان قد حُكم عليهما بالسجن مدى الحياة ـ مقابل (أ.م). وبعد ان سلمها الصليب الأحمر الى فريق من الموساد في قبرص، حصلت على هوية جديدة ووظيفة كطبيبة في شمال اسرائيل.

خلال الخمس سنوات ونصف السنة التي قضاها زامير في الموساد كرئيس للوكالة، كان التركيز على الصراع ضدّ الارهاب. ومع الشين بيت وأمان معاً، حققت الموساد توافقاً كبيراً حول هذا الهدف. إلا أنهم كانوا يعزفون النغمة الخاطئة. فبدافع الرغبة التي شاركتهم فيها غولدا مائير ومجلسها، رأوا الفلسطينيين كمجموعة من القتلة، واعتقدوا بأنّ المشكلة لا يمكن ان تُحلّ إلا من خلال الارهاب المضاد.

بمساعدة الادراك المتأخر للأمور، نستطيع أن نرى أن اسرائيل كان يجب ان تراقب خطراً أكبر، هو: النموّ العسكري العربي، وليس سلامة أو حبش. إلا أنّ زعماء اسرائيل كانوا مطمئنين فيما يتعلّق بأخطار الحرب لأنهم لم يكونوا يعتقدون بأن العرب قادرون على شنّ واحدة. أضف الى ذلك أنّ العلماء الاسرائيليين قطعوا خطوات واسعة بصورة سرية، وذلك في تطوير الرادع النهائي: ترسانة نووية.

الفصل التاسع

السلاح السري

كان مدير محطة السي آي ايه في تل ابيب طوال اواسط الستينات، جون هادن، يقيم علاقة اتصال مفيدة للجانبين مع المخابرات الاسرائيلية بينما كان يراقب المناسبات الكثيرة التي كانت السلطات تبذل قصارى جهدها لاخفائها. ومن الطبيعي ان هادن كان نشيطا في محاولة متابعة اكثر مشاريع اسرائيل سرّية، فقد كان يعرف ان الاسرائيليين لم يكونوا يقولون الصحيح ـ حتى له وهو صديقهم المحلي الرسمي ـ حول القضية الذرية. وهو لم يتوقع الانفتاح، فوكالات المخابرات، مثل الدول، لا أصدقاء لها، وانما مصالح باردة وقاسية.

ان كلمتي «الحقيقة» و «الذرية» لم تردا معاً ابدا في اسرائيل، فقد كان رئيس الوزراء بن غوريون قد اخبر الرئيس كينيدي في البيت الابيض في عام ١٩٦١ ان الدولة اليهودية تعمل في مجال القوة النووية لكن لا تعمل لانتاج قنبلة. لكن واشنطن لم تكن تصدق القصة!

في نيسان ١٩٦٣، استدعى كينيدي الى المكتب البيضاوي شمعون بيريز، حيث ألحّ عليه قائلا: «انك تعلم أننا نتابع باهتمام كبير أي تطور للامكانيات الذرية في المنطقة، حيث يمكن لذلك ان يخلق وضعا خطرا جدا، لذلك السبب، نحن على اتصال وثيق بجهودكم في المجال النووي. فماذا يمكنك ان تخبرني عن ذلك الامر؟»

أجاب بيريز بما يمكن أن يكون تكراراً لنغمات اسرائيل السياسية طوال عقود: لن ندخل الاسلحة الذرية الى المنطقة، ولن نكون اول من يفعل ذلك.

لقد سمع مدير محطة السي اي ايه نغمة جديدة عندما لم يخف رئيس الوزراء ليفي اشكول، وهو وزير مالية سابق، معارضته لانفاق الاموال على تطوير اسلحة ذرية، وفي زياراته لواشنطن توصل اشكول الى اتفاق ضمني مع حكومة جونسون بان تتلقى اسرائيل مساعدات عسكرية فوق التقليدية مقابل الابطاء في المشروع النووي. ولاول مرة تلقى الاسرائيليون طائرات فانتوم وسكاي هوك متطورة وحل الاميركيون محل الفرنسيين كموردي اسلحة للدولة اليهودية.

وكان هادن ما يزال يلمس الخداع من جانب الاسرائيليين، وكانت تقاريره الاكثر اثارة لرئاسة السي آي ايه في لانغلي، فرجينيا، تتعلق بموقف موشي دايان مما يسمى قنبلة اسرائيل في الدور الارضي. وحسب تقييم المخابرات الاميركية كان موقف دايان واضحا ازاء المشروع السري، الذي يشير اليه بانه مجرد سلاح آخر، وبدأت الاضواء الحمراء تومض عندما نقل عن الاستراتيجي الاسرائيلي تعليقه بانه يمكن ان يكون السلاح الذي ينهي كل الحروب في الشرق الاوسط.

عندما كان هادن يسافر الى النقب، كما يفعل هو وعملاء آخرون من السي اي ايه في محاولتهم الرامية لمراقبة ديمونا، كان رجال الشين بيت يتابعونه مثل ظله، ففي احدى المرات، كان الاميركي - وهو رسميا دبلوماسي سفارة - على الطريق قرب المرفق الذري عندما هبطت طائرة هليوكبتر عسكرية قرب سيارته، وطلب رجال الامن ان يطلعوا على هويته، وبعد ان أخرج جواز سفره الدبلوماسي الاميركي، قاد سيارته وهو مقتنع بان هنالك ما هو اكثر مما تعترف به اسرائيل عن ديمونا.

تعقبت السي آي ايه بوادر لاستراتيجية ذرية اسرائيلية تدعو الى تطوير اسلحة من كل الانواع والاحجام لاستخدامها باقصى حدّ من المرونة. ويمكن أن تتراوح ما بين القنابل الذرية التي يمكن اسقاطها من الطائرات الى القنابل الهيدروجينية التي يمكن تركيبها على رؤوس صواريخ. وكان يعتقد ان العلماء يفكرون في كل شيء، واستنتجت السي آي ايه ان اسرائيل تريد ان يكون لديها كثير من انظمة الحمل وخاصة تلك التي يمكن حمايتها.

بدا مفاعل ديمونا جيد الحراسة، وقد قامت بطاريات الصواريخ المضادة للطائرات المخبأة في التلال الصحراوية باسقاط طائرة اسرائيلية ضلت طريقها لدى عودتها من مهمة قصف في الأردن خلال حرب حزيران ١٩٦٧.

وسواء كانت في ديمونا أو موضوعة ضمن سلاح الجو الاسرائيلي، فان الترسانة الذرية السرية لم تكن تعتبر مامونة كما يجب، فاسرائيل بنت استراتيجيتها الذرية على نفس مفاهيم القوى العظمى: ردع الحرب كمصلحة اساسية مع تكوين قدرة على توجيه ضربة ثانية ناجحة اذا ما هاجم العدو أولاً، وقد لمست السي آي ايه رغبة اسرائيلية قوية في وضع جزء من الترسانة مقابل الشواطىء.

استنادا الى المعلومات التي جمعت من اسرائيل واماكن أخرى، استنتج محللو السي آي ايه ان الاسرائيليين كانوا يطورون قدرة على توجيه الضربة الذرية من الغواصات، ومن منطلق استراتيجي كان من الطبيعي ان تكون اكثر منصات الاطلاق امانا: الغواصات التي يصعب على العرب ان يحددوا مواقعها والتي يمكن ان تكون اماكن تخزين مامونة للترسانة السرية. وطالما أن

ديمونا او القواعد الجوية قد تتعرض للقصف بالقنابل او الضرب بالصواريخ او الاحتلال من قبل العرب، فان الغواصات يمكن ان تظل في البحر مستعدة للانتقام.

اعتقدت السي اي ايه ان اسرائيل استطاعت ان تطور تلك القدرة على وضع اسلحة ذرية قوية على غواصاتها الثلاثة البريطانية الصنع، وكانت هذه الغواصات تقوم بدوريات في البحر الابيض المتوسط، وقد تعتبر فنيا طريقة لتجنب الخروج على السياسة الرسمية بالا تكون اسرائيل اول من يدخل الاسلحة الذرية الى الشرق الاوسط.

وعلى اية حال فان مثل هذه الوعود هي من شان السياسيين وليس لوكالات المخابرات او العلماء الذريين، فهم يستمرون في عملهم، بصمت وبكدّ واجتهاد.

عندما توقف تأييد فرنسا ديغول لاسرائيل في الستينات، واجه رئيس مكتب الارتباط العلمي البالغ السرية مشكلة، لكنه لم يسمح لها بثنيه عن تصميمه، فمن مكتبه المجهول في لاكام، سعى بنيامين بلومبرغ الى مصادر بديلة عندما بدأت المشاكل الدبلوماسية مع فرنسا، وكانت حتى ذلك الحين المصدر الرئيسي للمواد والمعرفة الذرية لاسرائيل، وحقق اول نجاح مع النرويج، حيث وافقت حكومة اوسلو على صفقة سرية لبيع واحد وعشرين طنا من الماء الثقيل لاسرائيل، وما ان تم تامين هذه الشحنة، حتى بدأت لاكام تبحث عن اليورانيوم، وعثرت على مصدر هام يتمثل في شخص زالمان شابيرو.

ولد شابيرو في عام ١٩٢١ في كانتون، اوهايو وهو اميركي ذو خلفية يهودية واضحة، كان والده حاخاما ارثوذكسيا من أصل ليتواني، وقد حصل على شهادة الدكتوراه في الكيمياء في عام ١٩٤٨، في نفس السنة التي اعلنت فيها اسرائيل استقلالها، فانضم الى «المؤسسة الصهيونية واصدقاء تخنيون» وهي الجامعة التكنولوجية الكبيرة في اسرائيل. عمل مع شركة وستنغهاوس، وساعد في بناء أول غواصة ذرية لسلاح البحرية الاميركية، نوتيلوس، وفي اواسط الخمسينات بدأ شركته الخاصة به، نوميك، شركة المعدات والمواد الذرية، في ابولو، بنسلفانيا.

كانت شركة شابيرو تقدم اليورانيوم للمفاعلات الذرية في الولايات المتحدة، لكن بدا ان الشركة تستقبل عددا من الزوار الاجانب كانوا يجيئون، بشكل اساسي، من فرنسا واسرائيل، وهذه الزيارات لم تفت لجنة الطاقة الذرية الاميركية التي أنّبت شركة شاميرو في عام ١٩٦٢ لافتقارها الى الاحتياطات الامنية وعدم مراعاتها للاحتفاظ بقيود، وفي عام ١٩٦٥، فقط أدى تفتيش من قبل لجنة الطاقة الذرية الى اكتشاف هام: أظهرت قيود مستودعات نوميك ان اكثر من ١١٠ باوندات من اليورانيوم المغني مفقودة، وهذا اليورانيوم المغني يستخدم في صناعة الاسلحة الذرية.

لم يستطع محققو لجنة الطاقة الذرية ان يحصلوا على دليل واضح ان المادة قد ارسلت الى مكان آخر، أو ان شركة نوميك قد ارتكبت جريمة، لكن في التحقيقات الرسمية التي استمرت خمس عشرة سنة اوردت لجنة الطاقة الذرية الاميركية ان ما مجموعه ٥٨٧ باوندا من اليورانيوم قد اختفت ـ وهي كمية تكفي، من ناحية نظرية، لصنع ثماني عشرة قنبلة.

وقامت الاف بي آي بالتحقيق، مركّزة على علاقات شابيرو باسرائيل، لكنها لم تستطع التوصل الى أي نتيجة، وقد نظرت السلطات الفدرالية الاخرى في قضية شابيرو، لكنها حكمت بان علاقاته المحدودة باسرائيل لا تستدعي تسجيله كعميل اجنبي، الا ان الشكوك تزايدت الى حد الوصول الى شبه يقين، مع عام ١٩٦٨، بان اليورانيوم المفقود قد بيع لاسرائيل او شحن لها بطريقة ما.

بدأت المخابرات الاميركية في العمل، بعد ان اعتقدت ان اسرائيل قد حصلت على كمية كبيرة من اليورانيوم المغني، وبدأت السي آي ايه والاف بي آي تحقيقا اكثر تدقيقا، ووضعتا شابيرو تحت المراقبة واخذت تراقب هواتفه، وقد جيء به للاستجواب، وكان لبعض الحكايات الاكثر دلالة والتي رواها، ذات علاقة بالاجتماعات التي عقدها مع افراهام هيرموني، وهو مستشار علمي في السفارة الاسرائيلية في واشنطن، وبكلمات أخرى رئيس محطة لاكام، مع ان اسم الوكالة لم يكن معروفا.

كانت اسرائيل قلقة من الموقف الاميركي الجديد ازاء القضايا الذرية، ففي السنوات السابقة، ونتيجة لنفوذ افضل صديق للموساد، جيمس انجلتون في السي آي ايه، كانت السلطات الاميركية تغض الطرف عن الاسرائيليين وتسمح لهم بعمل ما يشاؤون. وفي الحقيقة فان انجلتون كان يحمي اسرار اسرائيل الذرية، ومع حلول عام ١٩٦٨، تلاشى نفوذ انجلتون، وكان مدير السي آي ايه الجديد، ريشارد هيلمز اكثر تشككا في التصرفات والدوافع الاسرائيلية.

من أجل استكشاف الوضع في واشنطن، ذهب اربعة اسرائيليين بمن فيهم هيرموني، رافي ايتان من الموساد، وافراهام بندور (شالوم فيما بعد) من الشين بيت الى مصنع نوميك الذي يملكه شابيرو، يوم ١٠ أيلول ١٩٦٨، وفي طلب للحصول على تصريح من الحكومة الاميركية، سجل ايتان وبندور نفسيهما على انهما «كيماويان» يعملان مع وزارة الدفاع الاسرائيلية، كانوا في مهمة خاصة لصالح لاكام، بعد نجاح بلومبرغ في اصلاح العلاقات مع الوكالات السرية الاسرائيلية الاخرى.

عندما عادوا من مهمة تقييم الاضرار ذكر ايتان وبندور/شالوم ان اسرائيل ما تزال تتمتع بالبراءة وانها ستنفد بصفقة اليورانيوم، لذلك لم يكن هنالك اي سبب يدعو الى مثل هذه النشاطات المغالية في المشروعية.

في تشرين الثاني ١٩٦٨، وفي عملية مشتركة مع الموساد، قام عملاء بلومبرغ بتهريب ٢٠٠ طن من اكسيد اليورانيوم - في ٥٦٠ اسطوانة كتب عليها «بلومبات» من ظهر سفينة شحن، واستنادا الى اعترافات دان ايرت/ايربيل في النرويج عام ١٩٧٣ توصل المحققون الى ان شركة كيماوية المانية اسمها «اسمره» اشترت اليورانيوم عن طريق وسطاء، من شركة بلجيكية، سوسياتي جنرال دي مينارو، وقد تم تحميل اليورانيوم في ميناء انتورب على سفينة اسمها شيرزبرغ أ، كانت ترفع علم ليبيريا، واعلن قبطانها ان وجهتها جنوا، في ايطاليا.

لم تصل الى جنوا وبدلاً من ذلك فان شيرزبرغ ا قد اختفت من السجل. فبعد دخول البحر الابيض المتوسط أبحرت شرقا وليس شمالاً، حيث كان يجب ان تتوجه حسب اتجاهها المعلن. وفي مكان ما بين قبرص وتركيا التقت مع سفينة شحن اسرائيلية، وفي بداية كانون الاول بعد ايام قليلة من اختفائها لفترة قصيرة، رست شيرزبرغ في ميناء الاسكندورن في تركيا، ولم يكن عليها أي يورانيوم.

كانت ملكية السفينة تعود للموساد ومن كل هذه المجموعة المربكة من الاقطار والشركات استطاعت اسرائيل ان تحصل على الوقود لمفاعل ديمونا، وقد ذهلت واحتارت وكالات الطاقة الدولية في المجموعة الاقتصادية الاوروبية بالحادث وقررت عدم الاعلان عنه.

وتمكنت اسرائيل ايضا من انتاج يورانيوم مفاعلها الذري من احتياطي فوسفاتها الضخم، حيث ان حصول اسرائيل على كل هذه المواد بالاضافة الى كونها اشترت اليورانيوم من جنوب افريقيا يوضح ان اسرائيل كانت تبني شيئا بالغ السرية في ديمونا: ترسانة اسلحة، وقد اصبحت جنوب افريقيا شريكة اسرائيل في المشاريع السرية بما فيها الأبحاث المتعلقة بالذرة والصواريخ.

لم يكن هنالك اي شك في ذلك الحين بان اسرائيل قد اصبحت سادس دولة في النادي الذري، لتنضم الى الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وفرنسا وبريطانيا والصين، ومع ان اسرائيل لم تعلن عن الحقيقة فقد اتضحت للولايات المتحدة بشكل مؤكد.

من اواخر الستينات فصاعدا كان مجتمع المخابرات الاميركية يراقب كل عالم يزور الولايات المتحدة من اسرائيل، فالبروفسور يوفال نيمان، الذي صدف أن طور جملة اجهزة وانظمة فنية مفيدة لأمان، وجد نفسه وجها لوجه مع الشك بعد وصوله الى باسادينا كاليفورنيا، لحضور ندوة حول الابحاث الفيزيائية.

تحدث صوت غير مألوف على الهاتف قائلاً: «ايها البروفسور، أنا من الدائرة، هل نستطيع ان نلتقي؟»

افترض نيمان ان الشخص على الطرف الاخر من خط الهاتف أحد اعضاء الدوائر

الاكاديمية في جامعة كاليفورنيا، وقد فوجىء عندما قدم ذلك الشخص نفسه على انه محقق من وزارة العدل الاميركية فقال الاميركي: هل انت الزعيم نيمان؟

«نعم»، أجاب نيمان وقد ذهل من مخاطبته برتبته العسكرية وتأكد من ان المحقق كان أحد رجال الاف بي آي، واوضح الاسرائيلي انه كان حتى اواخر الستينات عقيداً في جهاز المخابرات العسكرية في بلاده، لكنه ترك المنصب وهو يعمل الان في جامعة تل ابيب.

قال الاميركي: لكننا نعرف انك ما تزال منخرطا في التجسس، وانا انصحك بالتوقف على الفور.

نفى نيمان الاتهام، وانتهت المحادثة في حينه، وكانت من الواضح انها محاولة لتخويفه، ربما ردا على زيارة نيمان للمختبرات الفدرالية في ليفرمور قرب سان فرانسيسكو. وقد بدت الجولة في تلك المختبرات امرا هاما لأن الابحاث النووية تتم هناك.

بعد بضعة اسابيع انتقل نيمان الى جامعة تكساس في اوستن، حيث زاره مسؤول آخر من وزارة العدل، وطالبه بان يسجل نفسه، كعميل اجنبي، للحكومة الاسرائيلية.

ان عمل ذلك كان يمكن ان يضرّ بسمعة نيمان كفيزيائي، ويضرّ بقدرته على الاجتماع بزملائه، فاذا كان عميلا رسميا لحكومة اجنبية فان السلطات الاميركية تحدّ من تحركاته، وحاول نيمان أن يجنّد كل معارفه الاميركيين لتجنب التسجيل، ولجأ الى الاصدقاء القدامى للمساعدة بمن فيهم أب القنبلة الهيدروجينية الاميركية - البروفسور ادوارد تيلر، وسناتور تكساس المتنفّذ جون تاور.

وفي النهاية لم يجد المساعدة الا من علاقة المخابرات الاميركية الاسرائيلية حيث قام ضابط ارتباط الموساد في واشنطن بتقديم التماس مباشر وسري للسي آي ايه التي استطاعت ان تلغي الطلب، بان يسجل العالم الاسرائيلي نفسه كعميل.

كان اسرائيليون آخرون، وبعضهم ذو خلفية مخابراتية والآخرون يعملون كهواة في المجال السري يقومون بجمع معلومات خلال وجودهم في الولايات المتحدة وعندما كانت المعلومات المستهدفة تمس الشؤون العلمية كانت لاكام تتولى المسؤولية.

ان الناحية المدهشة في تاريخ لاكام ان وكالات المخابرات الاجنبية لم تكن تعرف بوجود لاكام رغم كل نشاطاتها التجسسية، وقد أشار تقرير سري للسي اي ايه، كتب في عام ١٩٧٦ الى اهتمام مجتمع المخابرات الاسرائيلية البالغ في العلوم والتكنولوجيا لكنه لم يذكر لاكام او مكتب ارتباط علمي.

اقترح بلومبرغ ان تقوم وكالته بتنسيق التأييد السري ليس فقط للمشروع الذري بل للصناعة العسكرية الاسرائيلية كلها، ووفق على عرضه، وتم تدعيم ميزانية لاكام بمساهمات من زبائن بمن فيهم صناعات الطائرات الاسرائيلية، ومؤسسة تطوير الاسلحة رافائيل والصناعات العسكرية الاسرائيلية، وكانت ملكيتها للحكومة أو تخضع لمراقبتها، لكن مسؤولي الشركة لم يكونوا يعرفون كيف وصلت لهم المخططات او كتيبات الانتاج من الخارج، ومن المؤكد أنهم لم يكونوا يعرفون لاكام.

كان واحد من اهداف اسرائيل المحددة، بينما تقوم بتطوير امكانياتها النووية، يتمثل في الحصول على التكنولوجيا والمعدات لصناعة صواريخ ارض ارض، ولم تكن مجرد صدفة، حيث لا يمكن أن يكون هنالك منطق لتطوير اسلحة نووية عندما لا يكون هنالك وسائل موثوقة لنقلها الى اهدافها، وكما قال عايزر وايزمن ذات مرة، في اجتماع سري عندما كان وزيرا للدفاع «كل الصواريخ تستطيع ان تحمل رأسا ذريا، وكل الصواريخ تستطيع ان تحمل رأسا تقليديا، انها تحمل كل انواع الرؤوس الغريبة». ان ترسانة اسرائيل المحلية الصنع يمكن استخدامها لأهداف ذرية أو تقليدية.

استطاع رجال بلومبرغ ان يحصلوا على المعارف المتعلقة بالصواريخ من مصادر مختلفة وظلوا على اتصال باحدث التكنولوجيا لمعرفة ما يستحق الشراء، وجاءت خطوة كبيرة الى الامام عندما وافقت فرنسا على بيع اسرائيل صواريخ ارض ارض، وكان تخصص اسرائيل تكييف وليس تقليد - اختراعات الاخرين، وكما قال وايزمن، مشيرا الى الفرنسيين: لقد حسّنا معداتهم.

وهكذا فان صاروخ ام دي ٦٦٠ الذي قدمته فرنسا بدأ اسرة الصواريخ الاسرائيلية: لوز أولاً، ثم اريحا، وعلاوة على ذلك، تحدث وايزمن سرّا عن «مشروع الزهرة» لتطوير صاروخ بحر بحر بعيد المدى.

لقد شكلت حرب ١٩٦٧ نقطة تحول بالنسبة لوكالة لاكام، مثلما هو الحال بالنسبة لكل مؤسسة اخرى في حياة اسرائيل. وقد امتدت مهمات لاكام، بفضل نجاحها في الحصول على المواد الذرية المطلوبة، لتشمل ميادين أخرى في العلوم والتكنولوجيا، وكان هنالك تحدّ جديد يتمثل في حقيقة ان الرئيس الفرنسي ديغول فرض حظراً على الاسلحة بعد حرب ١٩٦٧، حتى انه رفض ارسال الذخيرة والقوارب والطائرات التي كانت اسرائيل دفعت ثمنها في السابق.

اصيب الاسطول الاسرائيلي الصغير بخيبة الامل لأن خمسة زوارق صواريخ، كانت اسرائيل قد اشترتها قبل اعلان الحظر، مربوطة في ميناء شيربو مع تعليمات مشددة بعدم تحريكها، وقد وصلت فرنسا واسرائيل الى مازق دبلوماسي عندما ناقشتا زوارق الصواريخ، ولم يحلّ هذا المازق، الا عندما قام مجتمع المخابرات الاسرائيلية بالتصرف المباشر.

في خطة اتفق عليها الجيش والموساد، اللذان كانا يعملان بتنسيق وثيق، طار عدة عشرات من رجال البحرية الاسرائيلية الى فرنسا في اواخر عام ١٩٦٩، «كسيّاح» عاديين مع بدلات عسكرية مخباة في حقائبهم، ثم قام عملاء سريون، كانوا قد استكشفوا نقاط الضعف في أمن حوض ميناء شيربو، قاموا بقيادة البحّارة الى زوارق الصواريخ في منطقة المرفأ، كان توقيت العملية ممتازا: حيث استعاد الاسرائيليون ممتلكاتهم عشية عيد الميلاد، عندما كان الحراس الفرنسيون قلائل، ولم يكونوا حذرين تماما.

انطلق رجال البحرية ومعهم عملاء الموساد عبر البحر الابيض المتوسط، على متن خمس سفن امنوا بانها لهم، وكان الجانب التجاري للعملية، بما فيه العقود المزيفة والوثائق الاخرى قد تم تأمينه من قبل الشركات التي تسيطر عليها الموساد في بنما، حيث اصبح البلد الاميركي اللاتيني، بقناته الاستراتيجية، مركزاً مهما للمخابرات الاسرائيلية لعمليات الشحن والمعاملات المالية.

لم يكن بالامكان ابقاء خطف زوارق الصواريخ من أعشاشها على مرمى البصر من الشواطىء الفرنسية، سرّا، فقد اتضح فقدان الزوارق من شيربو، وخلال ساعات ردت السلطات الفرنسية على سيل من الاسئلة بتوجيه اللوم لاسرائيل.

لم تجد اسرائيل اي سبب يجعلها تخفي حقيقة استعادة الزوارق التي كانت قد دفعت ثمنها، وعندما اكمل البحارة الاسرائيليون رحلتهم مسافة ثلاثة الاف ميل الى حيفا، تم تكريمهم بحشد مبتهج على ظهور الزوارق.

وازدهر عمل لاكام، وكانت السرقة والرشوة والطرق الاخرى التي تصل الى حدّ اللامشروعية تستخدم لشراء الكنوز التي لم يكن احد يريد بيعها.

وحدث انقلاب آخر في سويسرا حيث تغلغل الاسرائيليون في شركة تصنع محركات لطائرة ميراج الفرنسية، ورتبت لاكام والجيش الاسرائيلي وسلاح الجو عملية مشتركة باداء اجراءات المخابرات الاسرائيلية بتحديد واستغلال الضعف الشخصي لمهندس سويسري الفرد فرانكشت: في استياؤه من شركته، حاجته الى المال ليكون له خليلة وتعاطفه مع اسرائيل بعد حرب ١٩٦٧.

قام بالخطوة الاولى الزعيم دوف سيون، الملحق العسكري الاسرائيلي في باريس، الذي صدف ان كان نسيب موشي دايان، زوج ابنته، فالتقى مع فرانكشت عدة مرات، واصطحبه الى العشاء، وحجّمه، ولم يمض وقت طويل حتى استطاع عملاء لاكام ان يقنعوا المهندس السويسري بتقديم مجموعة كاملة من المخططات لطائرة ميراج، وقبل الدفعات لكنه اصرّ على انه لم يكن يعمل من اجل المال فقط، بل لاسباب ايديولوجية ايضا، لم يكن فرانكشت يهوديا، لذلك لم يكن

استخدامه انتهاكا للدرس الذي تعلمته المخابرات الاسرائيلية بعد الفشلين في العراق ومصر: عدم استخدام يهود اجانب للتجسس على بلادهم.

في البداية التقى فرانكشت بعملاء اسرائيليين في الفنادق او المطاعم، حيث كان يقوم بتسليم صور للمخططات، ولتعجيل العملية استعان فرانكشت بابن اخيه لمساعدته في تصوير الوثائق، ووضعها في صناديق، ونقلها الى عملاء اسرائيليين كانوا ينقلونها الى المانيا، لكن السلطات السويسرية لاحظت هذه النشاطات واعتقلت المهندس وحصلت على اعترافه.

قال فرانكشت انه وعد بمليون دولار لخطط الميراج وتلقى ٢٠٠ ألف دولار من الاسرائيليين وفي ٢٣ نيسان ١٩٧١ حكمت محكمة سويسرية علية بتهمة التجسس لكن الجاسوس لم يقض في السجن سوى سنة واحدة.

خلال نصف سنة كانت اسرائيل تطلق طائرة حربية جديدة، نيشير، التي تحمل مزايا بعض تكنولوجيا الميراج، وفي ٢٩ نيسان ١٩٧٥ كشفت اسرائيل عن آخر مقاتلاتها النفاثة: كفير، وكانت نسخة عن الميراج الفرنسية، وقام الرجل المسؤول عنها ـ فرانكشت ـ باول زيارة له الى اسرائيل ليرى الطيران التدشيني، ينظر الى السماء ويعرف انها ذات علاقة بالعلامة الفضية عبر سماء البحر الابيض المتوسط.

تنكر رؤساء المخابرات الاسرائيلية له حتى ان الحكومة الاسرائيلية لم تدفع ثمن تذكرته من سويسرا، ورفضت ان توجه له دعوة رسمية، فشعر أنه تعرض للنسيان والتخلي عنه.

بينما كان فرانكشت يشعر بالمرارة كانت سمعة بنيامين بلومبرغ داخل مجتمع المخابرات تزداد بشكل اسطوري، فقلة من الناس عرفوا ما فعله، فكبار المسؤولين قرنوه باكبر مشروع نووي سري وادرك كل محلل ذو معرفة ان مفاعل ديمونا ذو مهمة عسكرية، وسرى اعتقاد بان اسرائيل قد حققت هدفها المتمثل في الانضمام الى المجموعة المختارة من البلدان الذرية.

ومن ناحية اخرى، اذا اعتقد الاسرائيليون ان مثل هذا الوضع السري، لكن الخاص، يمكن ان يحفظ أمنهم وسلامتهم فانهم يخطئون خطأ قاتلا.

الفصل العاشر

مفاجآت الحرب والسلام

كان الجنود السوريون يدقون على الابواب الفولاذية السميكة، ومع الخوف من ذلك الصوت المؤدب فانه لا توجد اية قواعد لانفجار القنابل اليدوية، فقد أقيمت الابواب للصمود أمام مثل هذا الهجوم، وطوال بضع ساعات ظل الجنود الاسرائيليون في ملاجيء جبل الشيخ. بعيدين عن متناول ايدي اعدائهم الذين كانوا يتقدمون بسرعة.

كان الجنود يعملون مع امان، لم يكونوا مقاتلين، بل كانوا محترفين في المخابرات العسكرية، يداومون على الجبل المغطى بالثلوج في مرتفعات الجولان المحتلة للتجسس على سوريا.

كان رجال امان يعملون حتى في يوم الغفران، وهو أقدس عيد عند اليهود، عندما يتوقف كل شيء في اسرائيل عن الحركة، كان السبت ٦ تشرين الاول ١٩٧٣، في الثانية بعد الظهر.

وكان قائد الموقع في جبل الشيخ، الملازم الشاب اموز ليفنبرغ، على الهاتف اللاسلكي مع رئيسه الضابط ليبلغ عن نيران المدفعية المتدفقة، وهنا يقول ليفنبرغ: قلت له أنني لست قلقا، وان كل شيء تحت السيطرة، وعندما يتوقف القصف سنقوم باصلاح الهوائيات المتضررة في الخارج.

لكن خلال ساعات كان ليفنبرغ والناجون من وحدته في ايدي السوريين.

كان المهاجمون أفضل جنود سوريا، رجال كوماندو نزلوا من طائرات الهليوكبتر، واحتاجوا وقتا حتى منتصف الليل ليقتحموا ويقتلوا ثمانية عشر اسرائيليا ويجرحوا عددا آخر، ويأسروا واحد وثلاثين ـ مع كومة قيّمة من الاجهزة الالكترونية الغربية والاسرائيلية الصنع، والتي قام الخبراء السوريون والسوفيات فيما بعد بتفحّصها بكل دقة.

ان خسارة جبل الشيخ، دون اعتبار النكسات التي حلت على جبهات اوسع في ذلك اليوم، كانت ضربة كبيرة للدفاعات الاسرائيلية، فقد كان الجبل أعلى نقطة ارضية، جبلا مزوداً بهوائيات ضخمة وهوائيات اطباق وتلسكوبات ومناظير حديثة جدا وأجهزة رؤية ليلية، فقد كان جبل الشيخ آذان وعيون اسرائيل البالغة السرية في الشمال.

كان المركز واحدا من كثير من وحدات امان التقنية، التي تراقب كل الحركة اللاسلكية في المنطقة فبالامكان، من فوق الجبل، في يوم صاف، مراقبة كل تحركات القوات السورية حتى دمشق، على بعد خمسة وعشرين ميلا، وكان آخر كلمة في «سيغينت»، مخابرات الاشارات، و «كومينت»، مخابرات الاتصالات: وهي مصطلحات حرفية لوسائل التكنولوجيا المتقدمة في مراقبة واعتراض كل مصدر سمعي يتراوح من اشارات البث اللاسلكي الى المحادثات الهاتفية.

كان يفترض في مركز التصنت المتطور أن يرى ويسمع كل ما يفعله العدو، لكن النظام أخفق. والاسوأ من ذلك أن استيلاء السوريين على جبل الشيخ قد أفقد الاسرائيليين ميزة مخابراتية، فقد كان الاسرائيليون يحتفظون بمجموعة كاملة من الرموز العسكرية هناك مما سمح للعدو بمراقبة كل اتصالات سلاح الجو، وكان على امان ان تعترف بان ذلك خطأ فادح، حيث ان حكاية الاسير اموز لينفبرغ ـ عن الرضى عن الذات، الفشل في كشف الخطر وصدمة أخذه اسيراً ـ كمثل الذل الذي لحق باسرائيل كلها في ذلك اليوم.

ان جيشي مصر وسوريا، في هجوم مخطط بشكل جيد، فاجآ المواقع الدفاعية الاسرائيلية في الاراضي التي فقدتها الدولتان قبل ست سنوات، وقد اخفق مجتمع المخابرات الاسرائيلية في مهمته الاساسية: اعطاء انذار مبكر بالحرب، فكانت مسؤولية امان قبل غيرها، لكن المسؤولية امتدت لتشمل كل وكالات اسرائيل الامنية.

كان يجب على رؤساء المخابرات في لجنة فاراش أن تعرف ان الحرب مقبلة، فقد كان لديهم السبب، حتى قبل خمسة شهور من يوم الغفران، كي يعرفوا الاستعدادات العدوانية لدى «الجانب الآخر». فهم لم يصدقوا ما كان بعض عملائهم ومحلليهم يرونه، فقد بدا ان عقل كل منهم قد سيطر عليه ما وصفه الخبراء الاستراتيجيون في اسرائيل بـ «ها ـ كونسبتزيا» أي المفهوم، وقد تطور هذا المبدأ غير الرسمي، لكن القوي، بشكل سريع في نشوة النصر التي اعقبت أنتصار حرب ١٩٦٧ الساحق، وتمثل المبدأ في ان العرب لن يشنوا حربا شاملة، لأنه كان واضحا أنهم لن يكسبوا، وفي حالة نشوب حرب، وهو أمر غير محتمل، كان الاسرائيليون مقتنعين جدا أنهم يستطيعون ان يحطموا خطوط العدو والتوجه نحو العاصمتين المصرية والسورية، القاهرة ودمشق.

كانت وكالات المخابرات تجمع معلومات مفصلة عن تحركات القوات في مصر وسوريا، لكن «المفهوم» أملى بان أي نشاط عسكري هو مجرد تمرين أو خدعة تهدف الى دفع اسرائيل الى القيام بتعبئة مكلفة لاحتياطيات الجيش، وكان «المفهوم» مناسباً ومطمئنا، وانتشر في هرم القيادة العسكري والمخابراتي والسياسي.

ان امان جزء من هيئة اركان الجيش العامة، مسؤولة أمام رئيس هيئة الاركان ووزير

الدفاع، ومع ان اعمال الموساد والشين بيت طغت عليها، فان أمان اكبر واهم وكالة مخابرات في اسرائيل، وبتلك الطريقة كانت امان تشبه وكالة الامن القومي الاميركية وليس فقط بمسؤولياتها عن المراقبة الالكترونية واللاسلكية.

ان وكالة الامن القومي الضخمة تعيش في ظلال السي آي ايه بينما تصنع الارضية لنجاح المخابرات الاميركية.

ان امان حسنة التنظيم، وهي تتكون من ست دوائر، يسيطر عليها دائرتان: الجمع والانتاج. ودائرة الانتاج مسؤولة عن تحريك العملاء والمخبرين وراء الحدود، وعن اعتراض الاتصالات اللاسلكية والتغلغل في النظم الهاتفية للاقطار العربية للتصنت على المحادثات وتسجيلها وكان جزء من نجاح حرب ١٩٦٧ نتيجة الاعتراض السريع لجلسات التخطيط العربية بما فيها محادثة هاتفية بين الرئيس المصري جمال عبد الناصر والعاهل الاردني، والتوزيع القدير للتفاصيل من امان الى الجنرالات الاسرائيلية ذوي العلاقة.

تعمل امان بشكل وثيق مع سلاح الجو في الحرب الالكترونية المعروفة لدى محّللي المخابرات باسم «إيلينت» حيث يتم اصدار الاشارات الرادارية والاشارات الاكثر تطورا للتشويش على القوات المعادية وخداعها.

ان دائرة الانتاج هي اكبر الدوائر حيث تضم حوالي ثلاثة آلاف موظف من السبعة الاف رجل وامرأة يعملون في امان، ومهمتهم تلقّي وتحليل المعلومات التي يتم جمعها.

انهم منظمون ضمن «مكاتب»، وكما هو الحال في الموساد، فان هذه المكاتب مقسمة وفق خطوط جغرافية ووظيفية: المنطقة القريبة لمصر والسودان وليبيا، والمنطقة الشرقية للعراق وسوريا ولبنان، ومكتب مستقل للاردن وشبه الجزيرة العربية، ومكتب لفلسطين لتعقب جماعات المقاتلين، مع محللين للشؤون العربية العربية، ومكتب لاقتصاد الشرق الاوسط. وتقوم دائرة الانتاج «بانتاج» التحليلات بما في ذلك تقديم الاراء والنصائح لصانعي القرارات السياسية.

كما ان امان مسؤولة عن ارسال الملحقين العسكريين الى السفارات الاسرائيلية، وادارة الرقابة العسكرية على الصحافة، وعن «الأمن الميداني» للحيلولة دون تسرّب الاسرار من الوحدات العسكرية. وهنالك دائرة صغيرة للابحاث والتطوير تبتكر المعدات والالات للمساعدة في جمع المعلومات، كما ان لسلاحي البحرية والجو وحداتها الصغيرة المتخصصة بالمخابرات.

يوفر هذا الهيكل لرئيس الوزراء «تقديرا مخابراتيا وطنيا» سنويا ـ يوقعه رئيس امان ـ ويهدف الى مراجعة، والتنبؤ بالسلسلة الواسعة من العوامل العسكرية والاقتصادية والسياسية التي تساهم في الحرب أو السلام، وفي السنوات بين ١٩٦٧ و١٩٧٣، غلب الانحياز «الى المفهوم» على هذه

التقديرات.

خضعت الحقيقة المحتملة للاختبار في تشرين الثاني ١٩٦٩، عندما تلقت أمان معلومات من مصر بدت متضاربة مع «المفهوم» وبعد أقل من سنتين ونصف السنة من الهزيمة المذلة، كان المصريون يعيدون بناء قواتهم بنجاح اكبر مما كان الاسرائيليون يعتقدون ولم يفعل محللو المخابرات شيئا لعدم تقبلهم لمثل هذه المعلومات. رغم الاشارات المبكرة، فوجئت اسرائيل في شباط ١٩٧٠ عندما ظهرت تفاصيل التدخل العسكري السوفياتي الضخم في مصر، فقد الحق المستشارون الروس، لأول مرة، بالوحدات المصرية المقاتلة ـ وهي حقيقة قلبت حسابات اسرائيل ازاء الدفاع عن الطرف الغربي لشبه جزيرة سيناء المحتلة.

لقد اخفقت امان في اعطاء تحذير مبكر حول أخطر تدخل لقوة عظمى في المنطقة خلال اكثر من ثلاث عشرة سنة، واتضح للسياسيين الاسرائيليين انه يتوجب تشكيل لجنة تحقيق مستقلة في ذلك الفشل، وبدلاً من ذلك فان امان شكلت لجنة منها لاعادة النظر، بقيادة الجنرال يوئيل بن بورات قائد وحدات التصنت التابعة لأمان، ولم تؤخذ نتائج التحقيق المعتدل بعين الاعتبار.

لقد اشتمّ قائد المخابرات العسكرية، الجنرال اهارون ياريف، أن هنالك خطأً لدى محلليه في امان، وفوجىء الضباط العاملون مع ياريف حين وجدوا رئيسهم حادّ الطبع كلما أثير موضوع التحليل، فمع أنه كان فيْ العادة هادئاً وغير عاطفي، كان الجنرال يصرخ فجأة في وجوه مرؤوسيه، فكان يلوّح بملف يحتوي على تقارير مخابراتية ناقصة، ويصرخ في وجه أحد محلّلي أمان: ان التقارير تختلف عن تقديراتك.

لقد جاءت صرخات ياريف الغاضبة والمحبطة متأخرة جداً، وبعد ثماني سنوات من توليه المنصب كرئيس لامان، ترك الجنرال الجيش في تشرين الثاني ١٩٧٢ ليصبح مستشار رئيس الوزراء حول الارهاب، فقد ترك ياريف وكالة اصبحت متغطرسة ومغرورة بنفسها.

لم يتمسك أحد بمفهوم حصانة اسرائيل الدفاعية اكثر من رئيس امان الجديد، الجنرال ايلي زيرا، ضمن وجهة نظر بيروقراطية كان على رأس العالم! فالمخابرات العسكرية هي التي حققت انتصار حرب ١٩٦٧، وانصب الثناء الاجماعي للمؤسسات الدفاعية والسياسية على ياريف، واشترك زيرا في المديح الدافىء لانه كان نائب ياريف الى ان ورث المنصب الرفيع.

لقد وصلت سمعة امان الى هذا الحد حتى ان زيرا، عندما قال في عام ١٩٧٣ ان مصر غير منظمة ولا تستطيع أن تهاجم اسرائيل فان كلامه أخذ على انه موثوق جدا، وقد قال زيرا ذلك في ايار من تلك السنة، عندما أعلن الجيش المصري حالة التأهب وأعدّ وحداته على امتداد قناة السويس لهجوم محتمل. وعندما لم يحدث شيء خفض المصريون حالة التأهب واعتبر قول زيرا

و «المفهوم» صائبين، وكان قد تمت تعبئة بعض قوات الاحتياط الاسرائيلية، لكن ذلك اعتبر مضيعة للأموال.

لقد لوحظت استعدادات عسكرية مماثلة من قبل مصر وسوريا في اواخر ايلول ١٩٧٣، لكن «المفهوم» قال ان هذه الاستعدادات ليست مؤذية، وحتى في الولايات المتحدة، وفقا للرئيس ريشارد نيكسون، فان السي آي ايه قالت: «. . ان الحرب في الشرق الاوسط غير محتملة» في ٥ تشرين الاول، واعتبرت تحرك القوات غير المألوف من قبل العرب مناورات سنوية.

ومن سوء الحظ ان السي آي ايه كانت تستقي كثيرا من معلوماتها عن احداث الشرق الاوسط من المخابرات الاسرائيلية ـ من خلال العلاقة المباشرة القائمة منذ زمن طويل، من رئاسة الوكالة في فرجينيا الى مبنى الموساد في تل ابيب، وبكلمات أخرى، فقد تم تعليم الاميركيين «المفهوم» فأصابهم بالعمى ايضا!

حتى عندما كان الاسرائيليون يجمعون المعلومات سرّا، أطلق الرئيس المصري انور السادات مؤشرات عن نواياه في عدد من الخطب النارية، ففي الذكرى السنوية الثالثة لوفاة سلفه عبد الناصر، يوم ٢٨ أيلول، قال السادات لشعبه: «ينبغي ألا ندخر اي جهد او تضحية لتحقيق هدفنا، لن اخوض في اية تفاصيل، لكن تحرير الارض هو المهمة الاولى والرئيسية أمامنا».

كان زيرا ومحللو أمان قد قرروا منذ فترة بعيدة ان -جاهلوا سيل الخطب العربية التي تنطلق من السياسيين مثل السادات ـ حتى عندما بدا ان معلومات أخرى تؤكد خطط مصر للحرب، ونظر مسؤولو امان في تقرير مذهل، لكنهم رفضوه، وكان التقرير من ضابط مخابرات ملحق بالقيادة الجنوبية للجيش، وكان يراقب سيناء المحتلة حتى خط بارليف الذي يحمي الجانب الذي تحتله اسرائيل من قناة السويس، فقد ذكر الزعيم بنيامين سيمانتوف يوم الاول من تشرين الاول، بالتفصيل، ان مصر تستعد لشن هجوم عبر قناة السويس خلال ايام، لكن زيرا لم يتحرك.

من ناحية أخرى كانت الموساد اكثر يقظة، فقبل اكثر من يومين من الهجوم المصري والسوري، ذكر عميل موساد في القاهرة أن الحرب تلوح في الافق القريب، وأخذ رئيس الموساد، زفي زامير، التحذير على محمل الجدّ، لكنه لم يدافع عن وجهة نظره.

ويظل الغموض يكتنف كيفية معالجة ـ أو سوء معالجة ـ بيروقراطية المخابرات الاسرائيلية لمؤشرات الحرب، حيث ما يزال المسؤولون المتقاعدون يدافعون بشدة عن شرفهم. ووفقا للنظام الذي كان قائما في ذلك الحين، فان زامير، من الموساد، كان ضابط المخابرات الرئيسي لرئيس الوزراء، يتحمل مسؤولية نقل مثل هذه المعلومات الى غولدا مائير، وايصالها مكتوبة الى امان.

يقول المخضرمون في امان ووكالات المخابرات الاخرى ان زامير، رغم انه كان مقتنعا بان

الحرب «وشيكة» ، فانه لم يقم الا باعلام زيرا هاتفيا ، وعين مساعدا لابلاغ مكتب رئيس الوزراء. وكان المساعد يعتقد ان كل ما عليه ان يفعله هو نقل المعلومات الى مكتب غولدا مائير، إلا أنه لم يستطع الوصول هاتفيا الى المسؤول المعني.

لم تصل المعلومات للشخص المقصود، ولم يكن زامير متوفراً، فقد غادر البلاد ربما لمقابلة، ووضع تقييم شخصي، مع مصدر الموساد الذي استدعي من مصر مؤقتا، ولم تستطع رئيسة الوزراء مائير ان تجد زامير يوم الجمعة ٥ تشرين الاول، وفي صباح السبت فقط توصل مجتمع المخابرات الاسرائيلية الى استنتاجه بأن الحرب يمكن ان تبدأ في ذلك اليوم، وقد جاء ذلك متأخرا جدا.

كان باستطاعة اسرائيل ان تستخدم سلاحها الجوي في ضربة وقائية على غرار عام ١٩٦٧، لكن مائير ودايان قررا عدم الاقدام على ذلك، فقد كانا يعرفان بان الولايات المتحدة لن توافق، ومن أجل تأمين الدعم الاميركي فقد توصلا الى ان على اسرائيل ان تستوعب الضربة الاولى، وكان ذلك مثالا مكلفا لما أصبح نموذجا مكررا للسياسات الداخلية والخارجية الاسرائيلية: الاعتماد المتزايد على الحكومة الاميركية، ففي عام ١٩٦٧ كان أمرا حيويا أن يعود رئيس الموساد، مائير اميت من واشنطن لينقل انطباعه بأن الرئيس جونسون سيعطي «ضوءاً أخضر» لضربة وقائية وفي عام ١٩٧٣، اتخذت مائير ودايان القرار المعاكس المستند الى نفس العامل: الاميركيين الذين كان دعمهم يعتبر أقدس المقدسات التي لا يمكن التضحية بها.

كانت مفاجأة يوم الغفران مماثلة لما كتبه المؤرخون الاميركيون من الهجوم الياباني على بيرل هاربر عام ١٩٤١، فقد كانت المعلومات موجودة لكن رؤساء المخابرات اختاروا تجاهلها أو أخطأوا في تحليلها.

كان على المشاة الاسرائيليين في سيناء ومرتفعات الجولان أن يضحوا بإرادتهم بسبب غرور زعمائهم ونتيجة اخطاء مجتمع المخابرات، ففي معارك ضارية استعاد السوريون جزءا من مرتفعات الجولان، واجتاز المصريون قناة السويس واحرزوا موطىء قدم في سيناء، وجن جنون دايان، بطل حرب ١٩٦٧، فقد كان مكتئبا جدا حتى أنه تحدث في اليوم الثالث من الحرب عن التدمير المحتمل «للهيكل الثالث» لاسرائيل. ويتحدث التاريخ اليهودي، بطبيعة الحال، عن تدمير البابليين لأول هيكل في القدس في عام ٥٨٦ قبل الميلاد، وتدمير الرومان للهيكل الثاني في عام ٧٠ للميلاد. وكان الهيكل الثالث دولة اسرائيل نفسها، وقد رأى دايان أن فرص بقائها متدنية جدا.

دار حديث بين الجنرالات الاسرائيليين حول استخدام اسلحة «غير تقليدية» وتم ايلاء اعتبار جاد، لأول مرة في ذلك الاسبوع، لامكانية حاجة اسرائيل الى استخدام القنابل الذرية

كآخر عمل من الدفاع الانتحاري، وكانت الترسانة السرية، التي عملت وكالة لاكام غير المرئية بكل جهودها للحصول عليها، غير مجرّبة بعد وكانت ما تزال غير واضحة النتائج، لكن، بناء على أوامر دايان تم اعداد صواريخ اريحا ومناصب قنابل خاصة على طائرات الفانتوم لامكانية اطلاق الاسلحة الذرية.

أثر يأس وزير الدفاع كثيرا على معنويات غولدا مائير، وقد بدا انها تفكر في الانتحار، كما يروي ثقتها لو كادار: «لم ارها شاحبة كما كانت في تلك الايام، كان وجهها في حالة كما لو انها تنتحب، قالت لي: يريد دايان منا ان نناقش شروط الاستسلام، وقد اعتقدت ان امرأة مثلها لم تكن تتمنى ان تعيش في مثل هذه الظروف، لذلك اعددت الامور لكلينا، ذهبت لمقابلة طبيب، صديق لي يمكن ان يوافق على اعطائي الاقراص المطلوبة حتى ننتحر معاً - أنا وهي».

تماسكت غولدا مائير مع رئيس هيئة اركان الجيش دافيد (العازر) الذي كان قويا كالصخر، ووجهت الهجمات المضادة التي حققت النصر، وكان الضرر القصير المدى يمثل ثمنا باهظا لاسرائيل: مقتل ٢٧٠٠ جندي.

أما الضرر البعيد المدى فتمثّل في ان دولة اسرائيل بأسرها قد فقدت الثقة في مخابراتها التي كانت ذات يوم اسطورية، ولم يكن ذلك مجرد شعور، بل جار بشكل مكتوب، فقد شكلت رئيسة الوزراء مائير لجنة تحقيق رسمية في حرب يوم الغفران و «المحدال» أو «التقصير». وعرف المحققون باسم لجنة اغرانات، وكان يتزعمهم رئيس المحكمة العليا الاسرائيلية، شيمون اغرانات.

وكما هي العادة، نجا السياسيون من المسؤولية وحمّلت على الجيش ومجتمع المخابرات، وبرأت اللجنة مائير ودايان من «المسؤولية المباشرة» عن المحدال (التقصير)، واعتبرت لجنة اغرانات، رئيس هيئة الاركان العازر وقائد القيادة الجنوبية شمويل غوروديش غونين، كبشي الفداء، وادى التقرير الرسمي الى تحطيم حرفة رئيس امان، زيرا، وثلاثة من مساعديه، واستبدلوا بضباط جدد وأصبح شلومو غازيت رئيس امان.

أوصت لجنة اغرانات باعادة تنظيم مجتمع المخابرات بأسره، بما في ذلك تشكيل وحدة جديدة، ونتيجة لذلك أعيدت الحياة الى مركز الابحاث والتخطيط السياسي التابع لوزارة الخارجية، ولم تكن مهمته جمع المعلومات بل توفير تقييم جديد مستقل للمعلومات الموفرة، وكان للمركز مكتبه الخاص به، في مجمع مسيّج ضمن وزارة الشؤون الخارجية في القدس، ولم يكن ذلك لأن له عملاء سريين، بل لحماية المواد المخابراتية غير المنقّحة، التي توفرها الموساد وامان.

وكان هنالك تغييرات أخرى شملت تكبير دائرة الابحاث الصغيرة في الموساد، حتى لا يكون اعتمادها فقط على صلاحيات امان التحليلية، وكما اقترحت لجنة اغرانات، بدأ «باحثو» الموساد في المشاركة في تجميع «تقدير المخابرات الوطني» الذي يتم اعداده سنويا لرئيس الوزراء.

على الصعيد السياسي، تلقى دايان ومائير اكثر الانتقادات حدّة طوال شهور كثيرة بعد ما قارب الهزيمة في تشرين اول ١٩٧٣ وأصبحت شدة الانتقادات لا تطاق حتى انهما استقالا في نيسان ١٩٧٤.

أصبح اسحق رابين زعيم اسرائيل الجديد، وكرئيس هيئة اركان الجيش في حرب ١٩٦٧، وسفير لدى واشنطن، لم يكن رابين غريبا عن تقارير المخابرات، وكرئيس للوزراء طلب أن يطلع على كثير من المعلومات غير المنقحة التي تجمعها الوكالات السرية وليس على الملخصات التي يفضلها كثير من السياسيين المدنيين، ولم يكن هذا بسبب خلفية رابين العسكرية، فالسي آي ايه، في تقييم سري، كانت تعتبره «انطوائيا» و «ذا ميول للقلق»، وكان يتميز بعادة عدم الاعتماد على الاخرين، ومن المؤكد ان رابين لن يثق بحكم وكالات المخابرات بعد الفشل الكلي لمحلليها في عام ١٩٧٣، فقد كان، ببساطة، يتصرف ضمن المزاج الوطني الجديد.

كانت معنويات امان في ادنى اوضاعها، ومن ناحية أخرى نجت الموساد دون ان تتأذى من مازق يوم الغفران والتحقيقات التي تلته، وكان هذا لأن زفي زامير قد عرف بان حرب تشرين مقبلة وغُفِر له عدم اطلاق تحذير، وفي الحقيقة فان رابين كافأ الموساد بمهمة جديدة: تنسيق اجتماعاته السرية مع مسؤولين آخرين ذوي علاقة بشخصيات اجنبية، وهي الناحية الاكثر سرّية وحساسية لسياسة اسرائيل الخارجية.

فقد استطاعت الموساد ان ترتب لزيارة سرية يقوم بها رابين الى المغرب، حيث كان رابين يأمل في الخروج من مأزق الشرق الاوسط، بعد أن تأكد بان الاردن لن يوقع معاهدة سلام، وبعد ان قرر ان الجبهة المصرية تحتاج الى شيء اكثر ديمومة من مجرد فك اشتباك بين القوات.

طار رئيس الوزراء الى الرباط في عام ١٩٧٦ عن طريق باريس، وطلب رابين من الملك الحسن الثاني أن يقنع الرئيس المصري انور السادات بالجلوس على مائدة المفاوضات، ولم يكن هنالك اية نتيجة مباشرة للمبادرة ازاء القاهرة، لكن تأكد التعاون السري بين اسرائيل والمغرب، فكان للموساد والسي آي ايه حرية مطلقة في التجول في المغرب، والاتصال بعرب اخرين يمكن ان يكونوا مفيدين، وادارة مراكز التصنت للحفاظ على اذن الكترونية على شمال افريقيا، وتقديم النصائح للملك المغربي وكبار مسؤوليه حول الامن الداخلي.

كان الدبلوماسيون الاسرائيليون مشغولين، يعملون مع هنري كيسنجر ووسطاء اميركيين اخرين لعقد اتفاقات حول فصل القوات مع مصر وسوريا، ولم يقتصر العمل الاميركي الاسرائيلي المنسق على الدبلوماسية، بل تم استكشاف مجالات اوسع وراء الكواليس، ولأن نيكسون وحكومة كيسنجر كانا راضيين عن كبح اسرائيل عشية حرب ١٩٧٣، فقد كوفئت باحدث الدبابات والطائرات والصواريخ.

لقد بدأ العصر الذهبي للتعاون العسكري، وبتشجيع من مسؤولي نيكسون، وحكومة الرئيس جيرالد فورد، فان المؤسسات الاميركية حذت حذو حكومتها بالاستثمار في الصناعات الاسرائيلية واقامة مشاريع مشتركة لانتاج المعدات والمعارف العسكرية والمدنية.

زادت الاتصالات بين القوات المسلحة للبلدين، مع مشاركة العسكريين في تبادل البرامج لمصلحة الجانبين، فقد قامت اسرائيل بتزويد الولايات المتحدة برؤية ممتازة لوضع التكنولوجيا السوفياتية، اعتماداً على الاسلحة التي غنمها الاسرائيليون في حروبهم مع العرب، وقد تفحص الاميركيون الاسلحة وطوروا التدابير المضادة المناسبة ثم أرسلوا الاسلحة الجديدة الى اسرائيل لتجربتها، وقد ضمت صواريخ ترمي الى اختراق الدروع، وأجهزة تشويش لابطال مفعول نظم الرادار والتوجيه، واجهزة الكمبيوتر المتعلقة بالطيران، وبذلك يمكن للمنتوجات العسكرية الاميركية ان تثبت «صلاحياتها القتالية» على يد وحدات مقاتلة في معارك حقيقية.

حتى عندما أصبحت الولايات المتحدة حليفة رئيسية وملاكا حارساً لاسرائيل، كانت اسرائيل تنتقل الى مرحلة انتقالية بعد عام ١٩٧٣ دون أي توجه واضح في رسم علاقاتها مع جيرانها العرب، فالفشل في توقيع اية معاهدات سلمية بشكل يتناقض مع تحقيق اتفاق اكثر تواضعا حول تحديد عدد القوات، قد عكس فترة الانحطاط بين السلام والحرب خلال عهد رابين كرئيس للوزراء. وشبيها بذلك، عندما اختار رئيسا جديدا للموساد، لم يكن الامر ينظر اليه على أنه قضية حياة أو موت، فتغيير الرجال لم يكن له أي تأثير فقد ترك المنصب احد الجنرالات واحتله جنرال آخر جديد.

بعد خدمة خمس سنوات كرئيس للموساد، وكما فعل سلفه مائير اميت، تقاعد زفي زامير من الوكالة، دون أن يترك أية بصمات، وانتهت فترته في عام ١٩٧٤، وسيطر عليه إخفاقان: كارثة ليليهامر وحرب يوم الغفران، مع أن الأخيرة لم تلوث شخصيته.

اختار رابين أحد معارفه السابقين، الجنرال اسحق (هاكا) هوفي، ليعمل كرئيس للموساد، وقد عكس التعيين ذكريات راسخة عن اخفاق المخابرات في عام ١٩٧٣، لأن هوفي كان يستطيع المفاخرة باعماله في ذلك الحين، فعندما كان مسؤولا عن القيادة الشمالية للجيش، فربّما كان الجنرال الوحيد الذي حثّ رؤساءه على ملاحظة التهديد الذي تشكله تحركات القوات السورية في الاسابيع التي سبقت يوم الغفران، وقد طلب تعزيز دباباته ومدفعيته، لكن نداءاته لم تلق أذنا صاغية، وفي اثناء الحرب حارب هوفي وجنوده بشكل جيد، واستعادوا جبل الشيخ ومرتفعات الجولان، بل تقدموا في عمق سوريا.

أصبح هوفي، الذي ولد في عام ١٩٢٧، أول رئيس للموساد من «الصابرا»، و«صابرا» كلمة عبرية تعني «فاكهة الصبّار»، وهو المصطلح الذي يطلق على المواطنين الاسرائيليي المولد،

حيث يقال أن ظاهرهم كالشوك بينما جوهرهم طيب. وكما هو حال كثير من ابناء جيله، انضم هوفي الى قوات بالماخ الخاصة، واشترك في حرب ١٩٤٨ - وكما فعل اميت وزامير - قرر البقاء في الجيش، وكقائد مظليين، شارك في عدة عمليات اسرائيلية في سيناء وقطاع غزة قبل حرب ١٩٥٦، وبعد عشر سنوات كان ضابط تخطيط في الاستعدادات لحرب ١٩٦٧، وفي عام ١٩٧٤ ترك هوفي الجيش واختفى. ورفضت السلطات الاسرائيلية التعليق عن مكان وجوده، لكن المظليّ السابق استقر في رئاسة الموساد في تل ابيب.

لم يكن عبقريا في المخابرات، لكنه كان يلقى احتراما بالغا من رجاله، وكان مجدّا في عمله ومثابرا، وقد تدعمت علاقته برئيس الوزراء بفضل الحقيقة الماثلة في انه قضى سنوات المراهقة في نفس الجناح من الحركة العمالية مثل اسحق رابين.

وبينما واصلت الموساد انتهاج السياسة الاسرائيلية التقليدية بتطويق الدول العربية المعادية باصدقاء «محيطيين» فقد اتضح في ظل هوفي ان اسرائيل في أمسّ الحاجة الى الاتفاق مع الاقطار العربية فبالاضافة الى المغرب، والاتصالات الاولية مع مصر، فقد جاء دور لبنان.

كان الدافع الرئيسي ما يزال الفكرة المحيطية القديمة المتمثلة في اقامة علاقات مع الاقلية المسيحية المارونية في لبنان، لكن اقامة العلاقات في بيروت وفرت للموساد قناة اخرى للاتصالات مع العالم الاسلامي ايضا.

وفي الوقت ذاته، حفلت دبلوماسية الموساد السرية بالحرب ضد الارهاب - ووصل نجاحها الى قلب افريقيا، وكان تم اللجوء الى العلاقات السرية التي أقامها دافيد كيمحي و «دبلوماسيون بديلون» آخرون في القارة عندما واجهت اسرائيل اختطاف طائرة فرنسية الى عنتيبي في اوغندا، يوم ٢٧ حزيران ١٩٧٦، وبدا الوضع ميئوساً منه بالنسبة للاسرائيليين، وكانت الطائرة الفرنسية غادرت تل ابيب، متوجهة الى باريس عندما سيطر عليها عضوان من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وشخصان المانيان ينتميان الى «الثوار الحضريين» - وهم ورثة عصابة بادر - ماينهوف.

كان على متن الطائرة الفرنسية اكثر من ٢٥٠ مسافرا وبحارا، وكان ما لا يقل عن ٨٣ رهينة اسرائيليين. واختار المختطفون المسلحون ان يحتجزوا الاسرائيليين واليهود فقط، بينما أفرجوا عن المسافرين الاخرين، واثارت عملية الفصل محللي الموساد وامان، كما ان عملاء الموساد غضبوا لأن واحداً من زعماء افريقيا السوداء الذي رعوه قد عضّ اليد الاسرائيلية التي كانت تطعمه، وقد تخلى كثير من الحكام الافارقة عن صداقتهم لاسرائيل بعد حرب ١٩٧٣، بمن فيهم الرئيس الاوغندي عيدي امين، الذي كان تولى الحكم قبل ثلاث سنوات في انقلاب بمساعدة المستشارين العسكريين الاسرائيليين، وقد غير عيدي امين سياسته الزئبقية وانحاز للعالم العربي، وكان فيما مضى شاويشا سابقا في الجيش البريطاني وملاكما، شنق خصومه السياسيين.

وبعد ان رفضت اسرائيل الافراج عن اربعين ارهابيا محتجزين لـديها، بناء على طلب المختطفين، لم تجد امامها الا الخيار العسكري ـ رغم صعوبته، وفي ليلة الثالث من تموز ١٩٧٦، نقل سلاح الجو عدة وحدات سرية من رجال الكوماندو مسافة تزيد عن الفي ميل للحد من الاختطاف، وخدعوا برج المراقبة في مطار عنتيبي عن طريق انـزال طائـرات النقل من طـراز هيركوليس محملة بالجنود والاسلحة ومستشفى ميداني، دون احداث اي صوت.

وقد ترجل بعض الجنود من الطائرة في سيارة ليموزين مرسيدس سوداء تشبه سيارة عيدي امين عندما اقتحمت القوة المهاجمة قاعة الركاب القديمة وقتلوا سبعـة مسلحين خـلال دقائق، ويعتقد ان ثلاثة آخرين قد أسرهم الاسرائيليون، وتم تخليص اكثر من مئة رهينة مع ان اثنين قتلا خلال تبادل اطلاق النار. وقتل العقيد يوناتان نيتانياهو، قائد احدى الوحدات على يد قناص اوغندي في برج المراقبة. وقتل ٤٥ جنديا اوغنديا.

ان نجاح اسرائيل المشهور والمذهل جزء من تراث اسرائيل، وكان العمل التحضيـري الممتاز من قبل عملاء الموساد المجهولين أمرا مكتوما، فقد أمر مجلس الوزراء الاسرائيلي مجتمع المخابرات لوضع ردود محتملة، من لحظة اختطاف الطائرة الفرنسية ـ وعرفت الموساد ان الرجل المناسب هو بروس ماكنزي، وهو رجل أعمال ومزارع بريطاني استقر في كينيا، وكان صديقا جيدا للرئيس جومو كينياتا والرجل الابيض الوحيد في وزارة كينياتا، وقد ساعد ماكنزي في تنظيم دفاع كينيا وأمنها، بينما كان يبقي جهاز ام آي ٦ البريطاني على معرفة بالاحداث في افريقيا، كما كان يعرف الاسرائيليين جيداً.

كان للموساد، من خلال محطتها في نيروبي، علاقات ممتازة مع جهاز الامن الكيني، وكانت مصلحة اسرائيل الخاصة في ان نيروبي ليست بعيدة عن القرن الافريقي، وانها أهم عاصمة في القارة الافريقية، بما تضم من دبلوماسيين وجواسيس من كل الجنسيات والتحالفات في مكاتب الامم المتحدة ومنظمة الوحدة الافريقية، وقد اصبحت كينيا، مع زائير في وسط افريقيا ونيجيريا الى الغرب، واحداً من ثلاثة مراكز استراتيجية لنشاط المخابرات الاسرائيلية في افريقيا.

في ١٨ كانون الثاني ١٩٧٦، وقبل أقل من نصف سنة من دراما الاختطاف، في عنتيبي، اعتقلت الشرطة الكينية ثلاثة فلسطينيين عند طرف مطار نيروبي مع قاذفتي صواريخ سام ٧، سوفياتية الصنع، ويمكن حملهما على الكتف وكان العرب يخططون لاسقاط طائرة العال، على متنها ١١٠ أشخاص، كان من المفترض أن تهبط بعد ساعة، ونتيجة لاستجوابهم، اعتقلت الشرطة السرية الكينية زوجين المانيين غربيين، توماس رويتر وبريجيت شـولز، وكـل منهما في الثـالثة والعشـرين، لدى وصـولهما الى نيـروبي بعد ثـلاثة ايـام، وقد اختفى المشبـوهـون الخمسـة ـ الفلسطينيون الثلاثة والالمانيان، وهي مثال آخر عـلى التعاون بـين المسلحين العـرب والشبان الراديكاليين الاوروبيين.

حاولت اسرة شولز ان تعرف مكان وجوده، لكن الحكومة الكينية نفت ان تكون احتجزت اي سجناء اجانب، وأخيرا اكدت اسرائيل انها تحتجز الخمسة، فقد رتب ماكنزي أمر استلامهم، حيث قامت السلطات الكينية بتسليم الارهابيين للموساد، وجرت محاكمتهم سرّا في اسرائيل، وادينوا وسجنوا.

في نهاية حزيران، لجأت الموساد لماكنزي حيث كانت في أمسّ الحاجة اليه، عندما كان هنالك اسرائيليون بين الركاب المختطفين في عنتيبي، وضمن ماكنزي موافقة الرئيس كينياتا على استخدام المخابرات الاسرائيلية لكينيا، وخلال ساعات قليلة، طار عشرة من عملاء الموساد وأمان الى نيروبي وأقاموا مركز تخطيط، وهيأوا الوضع لمجيء عشرات من رجال الجيش والمخابرات، واجتاز الاسرائيليون، وكان بعضهم يمثل دور رجال الأعمال، بينما قام آخرون باستخدام قوارب صغيرة، اجتازوا الحدود الى منطقة عنتيبي، عبر بحيرة فكتوريا من كينيا ـ في مهمات استطلاعية احتاجوا اليها لمراقبة المطار ومعرفة طرق الدخول والخروج.

وسمحت كينيا للطائرة الاسرائيلية ـ التي كانت تخدم كمستشفى ميداني، بالتوقف في نيروبي بعد نجاح عملية الانقاذ، وقد أدت العلاقات السرية التي أقامتها الموساد الى نجاح الغارة الخاطفة على عنتيبي، بينما أظهرت اسرائيل مواهبها في مكافحة الارهاب.

لقد أظهرت اسرائيل، مثلما فعلت إزاء جيمس انجلتون من السي. آي. ايه، أنها تكرّم اصدقاءها، فبعد سنتين من هجوم عنتيبي، قتل ماكنزي بسبب تعاونه مع اسرائيل: فقد زرع العملاء الليبيون الذين كانوا يعملون لصالح الرئيس الاوغندي قنبلة دمرت طائرة ماكنزي الخاصة، وكان ذلك انتقاماً لعيدي امين. وقد زرعت اسرائيل غابة من عشرة آلاف شجرة على تلال الجليل احياء لذكرى عميلها البريطاني الكيني.

كان نجاح عنتيبي تعزيزاً معنوياً لمجتمع المخابرات بعد ثلاث سنوات من اذلال يوم الغفران، لكن مشهدا واحدا لم يكن كافياً لابقاء اسحق رابين في السلطة، ففي أيار ١٩٧٧ رفض الناخبون الاسرائيليون، بشكل غير متوقع اسحق رابين وحزب العمل، فقد اختلطت كل الاخفاقات والفضائح، التي تتراوح ما بين فضيحة لافون وتقصير عام ١٩٧٣، مع رائحة الفساد المالي، فأثرت على حزب العمل بعد ان حكم اسرائيل تسعاً وعشرين سنة بلا انقطاع، فقد فازت كتلة الليكود اليمينية بالانتخابات، واصبح مناحيم بيغن رئيس الوزراء الجديد.

وكما هو حال الاسرائيليين الآخرين، فقد صدم كبار افراد مجتمع المخابرات بانتصار بيغن، فقد اعتادت الوكالات السرية على العمل مع الوجوه المشهورة من حزب العمل. كما ان معظم مسؤولي المخابرات كانوا ينتمون الى حركة العمال، ومع ان اهدافهم لم تكن حزبية، إلا ان الرتب العالية في مجتمع المخابرات أقاموا علاقات مألوفة وودية مع أسيادهم السياسيين، على مرّ السنين.

أصبح هنالك يقين، بل خوف، من ان بريق السلطة بالنسبة لليكود، وهو أمر متوقع لحزب عاش في القفار السياسية ثلاثة عقود، سيؤدي الى تطهير في الجهاز المدني الذي عينه حزب العمل، ولم يكن لدى رؤساء المخابرات أي سبب يدعوهم الى الاعتقاد بأنهم سيكونون مستثنين، ولم تكن مخاوفهم بلا أساس لأن الليكود كان يضم زعماء يحثون بيغن على القيام بمثل هذا التطهير.

ان رئيس الموساد هوفي، ورئيس الشين بيت افراهام اهيتوف قد نقلا رسالتين متماثلتين لرئيس الوزراء الجديد: اذا اراد منهما أن يستقيلا فانهما سيفعلان ذلك. ومع انهما موظفان مدنيان يستطيعان الاحتفاظ بمنصبيهما، فقد كانا يدركان حق الزعيم الجديد في تعيين رجاله في هذه المناصب الحساسة.

لكن بيغن طلب منهما البقاء، فهو لم يشأ ان يخلق أية اضطرابات أو سخط غير لازم في الوكالات الحكومية، بل سارع بيغن الى تعزيز علاقات وثيقة مع هوفي واهيتوف، فكان الرجلان يترددان كثيرا على مكتب رئيس الوزراء الخاص، وبخاصة رئيس الموساد.

كان بيغن معجباً بعمليات الموساد السرية، التي يبدو أنها ذكرته بماضيه كرئيس للارغون في الاربعينات، وكان بحماس صبياني يطلب من هوفي ان يخبره «بكل شيء» - ولا يترك أية تفاصيل، وأظهر هوفي صبراً كبيراً، حتى عندما كان يذهل بين الحين والآخر من جهل بيغن بالامور العسكرية والمخابراتية، فكرجل غريب عن المخابرات والجيش منذ عام ١٩٤٨، لم يكن زعيم الليكود يملك خلفية المعلومات التي كان يملكها رجال حزب العمل، وكما قال هوفي فيما بعد فإن افتقار بيغن للمعلومات أجبره ورئيس امان على الخوض في تفصيل كبير في احاديثهما حتى يكوّن رئيس الوزراء صورة كاملة.

كان بيغن يحب صخب وكالات المخابرات، واستمتع بكونه رئيسها الجديد. كما كان لديه اسباب أخرى لهذا الاهتمام الكبير، فقد انطلق بيغن ليغيّر التاريخ، وكان يريد استخدام المخابرات الاسرائيلية لتحقيق ذلك، وكان لبيغن تصوره الخاص به لسنواته الأولى في المنصب، وقد صوّره اعداؤه السياسيون في حزب العمل بأنه شيطان، شخصية شيطانية «سيبتلع العرب» وانه داعية حرب سيخلق صراعاً مخيفاً مع جيران اسرائيل.

كان بيغن يعرف مشكلة صورته وحاول بكل ما يستطيع أن يثبت ان الصورة خاطئة، فسوف يكون صانع سلام، وكانت احدى الخطوات تعيين موشي دايان، وكان حتى ذلك الحين مناصراً قوياً للعمل، وزير خارجيته.

وصل رئيس الموساد، بصحبة مساعده دافيد كيمحي، الى قصر ايفران، قصر الملك الحسن، خلال اسابيع من تولي بيغن للسلطة، وكان رئيس الوزراء الجديد يأمل في تحقيق ما فشل

رابين في تحقيقه خلال رحلته الى المغرب في السنة الماضية: عقد سلام مع اكبر عدو لاسرائيل، مصر، وكان هوفي قد ضمن موافقة الحسن على استضافة شخص فريد، وكان رئيس الموساد، المكروه والمرهوب في كل انحاء العالم العربي، على وشك الالتقاء بمصريين كبار لتهيئة الطريق امام مفاوضات مستقبلية.

وفي نفس اليوم وصل مسؤولان كبيران من مصر إلى المغرب، وهما الجنرال كمال حسن علي، رئيس المخابرات المصرية التي تعادل الموساد، وحسن التهامي، النائب المتدين لرئيس الوزراء الذي كان الآخرون يسخرون منه بسبب تصوراته الدينية، لكنه في الوقت ذاته كان يلقى الاحترام لأنه كان أحد الرجال الموثوقين لعبد الناصر، وقد روى الجنرال علي فيها بعد كيف أبلغه الرئيس السادات هاتفيا بالسفر الى الخارج مع التهامي دون أي تفسير، وطوال الرحلة الجوية كان التهامي صامتاً، وكان كل ما يعرفه علي أن وجهتهم هي المغرب.

دخل المصريان قصر ايفران وصافحا الاجنبيين، لكن لم يتم اخبار علي من هما، وقد دهش عندما طرده التهامي من الغرفة، ولم يكن علي، الذي كان من ناحية اسمية مسؤولاً من المخابرات المصرية الخارجية، يعرف ما كانت حكومته تدبّر من وراء ظهره، بينما كان الملك المغربي يعرف.

عندما انتهى الاجتماع، اشار علي باصبع غاضب نحو التهامي وقال انه ما كان ليأتي لو انه عرف بأنه سيستبعد. وردّ التهامي بأن الغريبين فرنسيان وان المحادثات كانت حول صفقات اسلحة.

وغضب علي اكثر وقال: انني رجل عسكري، وليس هنالك أي سبب يمنع مشاركتي في مثل هذه المحادثات.

عندما عادا الى مصر، شكا علي للسادات حول تصرفات التهامي الغامضة وهنا يقول علي مستذكراً: «لقد ضحك الرئيس بشكل لم أشهده من قبل، ثم أخبرني بالهدف الحقيقي للرحلة».

كان هدف هوفي اقناع المصريين بأن بيغن مخلص إزاء عقد السلام، وانه قوي جدا بشكل يمكنه من ذلك. ووافق هوفي والتهامي على وجوب عقد لقاءات سرية أخرى، وفي ١٦ أيلول ١٩٧٧ طار التهامي مرة أخرى الى المغرب للاجتماع، في هذه المرة، مع موشي دايان ـ وزير الخارجية الاسرائيلي الجديد.

جلس دايان الى جانب رئيس الموساد، كيمحي، وأعطى التهامي انطباعاً بأن اسرائيل، مقابل معاهدة سلام، ترغب في الانسحاب من سيناء بأكملها ـ وبذلك تتخلى عن حقول النفط والمطارات والمستوطنات، وكان هذا غير متوقع لأن بيغن بنى سمعته كقومي متطرف لا يتنازل.

لقد هيأ ذلك الاجتماع في المغرب الطريق امام الزيارة التاريخية التي قام بها الرئيس

السادات للقدس بعد شهرين فقط.

ومع ان رؤساء المخابرات الاسرائيلية كـانوا يشـاركون في عمليـة السلام مـع مصر من البداية، فقد كانوا يتشككون في فرص نجاحها، وعاد هوفي من الرباط، وهو ما يزال متشككاً في النوايا الحقيقية للرئيس المصري الذي لا يمكن التكهن بشيء حوله.

فيما يتعلق بأمان فتقديرها السنوي للمخابرات الوطنية قد تكهن بأن السادات سيلجأ الى الحرب، وليس الى السلام، وقد أوضح محللو امـان فيما بعـد أنهم لم يستطيعـوا التنبؤ بالقـرار الشخصي لرجل فردي، وفي مثل هذه الظروف لا تستطيع المخابرات ان تفعل شيئاً، وقد اتخذ السادات «قراراً لم يكن يعتبر مسبقاً أو تقرر بواسطة أي منتدى من كبار الموظفين الحكوميين في القاهرة» هذا ما قاله رئيس أمان، الجنرال غازيت محاولاً تبرير دهشة وكالته ليس من الحرب في هذه المرة بل من السلام.

وحتى حين كان الرئيس المصري يستعد لرحلته القصيرة، لكن المثيرة جداً، إلى مطار بن غوريون فقد نصحت أمان رئيس هيئة اركان الجيش، الجنرال موردخاي غور بأن طائرة السادات الوافدة من القاهرة يمكن ان تكون طعماً لهجوم عسكري، فوضع الجيش الاسرائيلي في حالة تأهب مع انتهاء عطلة السبت ١٩ تشرين الثاني ١٩٧٧.

لقد أثار الجنرال غور ضيق بيغن عندما شكك علانية في السادات واكد على ان اسرائيل مستعدة للحرب، لكن السادات لم يكن متضايقاً، وبعد نزوله درجات طائرته في مطار بن غوريون صافح غور وقال له مبتسماً: انني جئت من اجل السلام وليس من اجل الحرب.

أما أمان التي كانت ما تزال تعاني من الصدمة القاسية لاخفاقها في عام ١٩٧٣ في التنبؤ بالحرب، فقد كانت بالغة الحذر حتى آخر لحظة، ونتيجة للشلل الذي احدثه الفشل والخوف من الفشل مرة أخرى، فقد أصبح ضباط المخابرات العسكرية يعانون من حالة الارتياب، فقد كانوا يرون الحرب خلف كل باب، ومن حسن الحظ أن هذه الحالة لم تصبح «مفهوماً» جديداً.

وعلى العكس من ذلك فإن المفهوم أضحى الآن في ألا يكون هنالك «مفهوم»، وبدلاً من المغالاة في الثقة بالنجاح، أدت النفسية الجديدة الى تحليل الأسوأ لكل شيء، ومـع هذا فـان المعلومات غير المنقّحة كان يجري معالجتها بشكل أفضل من عام ١٩٧٣، فكان هنالك تركيز جديد على المراقبة العسكريـة لمسافـة طويلة، استخـدام التقدم التكنـولوجي مثـل الطائـرات الالكترونية بلا طيار والتي تستطيع أن تبث صورا تلفزيونية حية من فوق خطوط العدو.

وعلى أية حال فإن الاخفاق في عام ١٩٧٧ في التكهن بالسلام ليس سيئاً كتقصير المخابرات الذي كلف الاسرائيليين آلاف الارواح، وكان السلام وليس الحرب.

بعد ثلاث سنوات، وبعد توقيع اتفاقية كامب دافيد، طرأ مشهد غريب على هامش زيارة أخرى للسادات الى اسرائيل، ففي عام ١٩٨٠ كانت القيادة المصرية في حيفا، وكان نائب رئيس الوزراء التهامي ينتظر الدخول الى مادبة رسمية، وعلى بعد ستة أقدام كان يقف رئيس الموساد هوفي وزوجته، وتظاهر التهامي وهوفي بأنهما لا يعرف احدهما الآخر - فلم يتصافحا ولم يتبادلا هزّة رأس.

مراسل تلفزيوني اسرائيلي كان يعرف بأن الرجلين هما اللذان أطلقا «سرّاً» عملية السلام في المغرب، وقد غمز هذا المراسل بقناة التهامي قائلاً: يكفي التمثيل! فهذا مدون في كتب التاريخ.

الفصل الحادي عشر

من أجل مصلحة اليهود

«ياهيل، أرجو استدعاء هاري هورويتز»، هكذا طلب رئيس الوزراء من سكرتيره السياسي المخلص، ياهيل كاديشاي، وكان ذلك في تموز ١٩٧٧، وكان مناحيم بيغن زعيم اسرائيل وقرر ان يصبح بطل الشعب اليهودي في كل مكان.

كان كاديشاي محدّثا متحمسا يعرفه الناس بسهولة من شعره الابيض ونظارته السميكة، وكان سكرتير بيغن الخاص منذ ايامهما السرية في الارغون، وقد عرفا الاحباط الطويل الأمد من الوقوف في صف المعارضة البرلمانية ضد سلسلة متلاحقة من الحكومات بزعامة حزب العمل وبعد ان فاز اخيرا في انتخابات عامة، كان بيغن ورجاله اكثر من متشوقين للعمل الحقيقي.

تناول كاديشاي الهاتف الداخلي، وطلب الرقم ٢١١، وطلب من هورويتز ان يحضر فوراً الى مكتب رئيس الوزراء.

خلال الوقت القصير الذي عمل فيه هورويتز المولود في جنوب افريقيا، ذو الشعر القاتم، مع بيغن كمستشار له حول الشؤون اليهودية، تعلّم كيف يفهم رئيسه، وكان بيغن نادراً ما يدعوه الى مكتبه، وكان هذا يتم عندما كان يحتاج إلى مهارة هورويتز في صياغة الرسائل والوثائق الحساسة باللغة الانجليزية.

ومع ان بيغن ولد وتعلّم في بولندا، فلم يكن يواجه متاعب كثيرة مع اللغة الانجليزية وقد حسّنها باستماعه اليومي الى اذاعة لندن، وهو تقدير خاص للندن من الرجل الذي كان ارهابيا مطلوبا خلال الانتداب البريطاني في فلسطين، وكان بيغن معجبا ببريطانيا واراد لاسرائيل ان تقلد ديمقراطيتها، ومع هذا كان بيغن يلجأ الى هيرويتز كلما احتاج الى شيء يحتاج الى بلاغة خاصة.

مرّ المستشار مسرعا من عدة حراس من الشين بيت، وعندما دخل مكتب رئيس الوزراء بيغن في الطابق الثاني، حياه بيغن قائلا: أريد منك يا هاري أن تكتب رسالة ليست مهمة فقط لكنها عزيزة على قلبي.

كانت الرسالة موجهة الى رئيس اثيوبيا الماركسي الجديد، العقيد منغستو هيلا مريام، وبلغة مهذبة جدا طلب بيغن من منغستو ان يسمح ليهود اثيوبيا بالسفر الى اسرائيل، وقد صاغ بيغن طلبه كنداء انساني الى رئيس «المجلس الاداري العسكري المؤقت» في اديس ابابا، وكان الجيش قد أطاح بحليف اسرائيل المحيطي القديم، الامبراطور هيلاسيلاسي، في عام ١٩٧٤.

لقد شعر بيغن بأن هنالك مجالاً لتحقيق اهتمامه الخاص بتحرير يهود العالم، لأن اسرائيل كانت قد تلقت طلبا من العقيد منغستو لتجديد مبيعات الاسلحة الاسرائيلية لاثيوبيا، وقد أشار العقيد منغستو، عبر قنوات سرية، الى انه يأمل في ان تقوم اسرائيل باقناع الولايات المتحدة بمساعدته في حروبه ضد الصومال المجاورة، وضد ثوار جبهة تحرير ارتيريا.

في أول زيارة له الى واشنطن، كرئيس للوزراء، في تموز ١٩٧٧، كانت اول قضية اثارها بيغن مع الرئيس جيمي كارتر تتعلق بأثيوبيا، ومع هذا فإنها لم تتركز على الاسلحة او الحروب في افريقيا، فقد تحدث بيغن لعدة دقائق، يثير تعاطف كارتر مع حنين يهود اثيوبيا لتحقيق حلمهم القديم في العودة الى اسرائيل.

لقد حققت حكومة بيغن، في افريقيا وكل مكان آخر، تغييرا ساحقا في تصور يهود المهجر لاسرائيل ـ اغلبية يهود العالم المنتشرين في كل انحاء العالم، ويعيشون خارج وطنهم التوراتي.

استدعى رئيس الوزراء رئيس الموساد اسحق هوفي ونيهيميا ليفانون، الذي كان الرئيس الجديد لمكتب الارتباط الذي ينسق كل جهود اسرائيل لمساعدة اليهود السوفيات في الحصول على الحق في الهجرة، وقد اخبرهما بيغن بأنه يعتبر الهجرة الى اسرائيل لا تقل اهمية عن السلام مع مصر او مكافحة الارهاب او اصدار التقييمات العسكرية ـ وهي المهمات الحيوية التي كانت أعلى أولويات مجتمع المخابرات.

حلّ ليفانون محل شاؤول افيغور في مكتب الارتباط في آذار ١٩٧٠، وكان افيغور مؤسسا مشاركا لشايَ، في عام ١٩٣٤، وتقاعد، في السبعينات من العمر وهو في صحة سيئة، بعد سبع عشرة سنة من توجيه المكتب في معركته السرية من أجل اليهود السوفيات.

كان الرئيس الجديد للمكتب قد عمل مع افيغور هناك وفي المعهد مع آليه ب قبل ذلك، وفي الخمسينات عمل كدبلوماسي في موسكو حيث طرده السوفيات بسبب الاتصالات السرية التي أقامها مع اليهود، ومنها قيامه بنقل رسالة من وزير اسرائيلي الى شقيقته في روسيا، وقد حكم على المرأة سيئة الحظ بالسجن ثلاث سنوات، كما اعتبر دبلوماسيان اسرائيليان آخران غير مرغوب فيهما لكن في مناسبات منفصلة لكن مماثلة!

عاد ليفانون الى اسرائيل، وعمل في مقر مكتب الارتباط في تل ابيب، ثم عين في السفارة

الاسرائيلية في واشنطن ليتولى الشؤون اليهودية ـ وبصفة اساسية ممارسة الضغوط بين السياسيين والمسؤولين الاميركيين لمصلحة الهجرة من الاتحاد السوفياتي، واصبحت محاولات الحفاظ على الاتصال مع اليهود الروس اكثر صعوبة، بعد ان قطع السوفيات العلاقات مع اسرائيل في عام ١٩٦٧، ولم يعد للاسرائيليين سفارة في موسكو لتوفير الغطاء الدبلوماسي.

كرئيس لمكتب الارتباط في السبعينات، آمن ليفانون بالنشاط الهادىء غير ان عدة منظمات في اسرائيل والمهجر رفضت الاساليب الخفية ودعت الى مطالب صاخبة «بتحرير اليهود السوفيات» وقد أجبرت هذه المجموعات الحكومة الاسرائيلية على تغيير سياستها والتمشي مع الحملة العلنية.

في ذات الوقت بدأت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي عصرهما الذهبي للوفاق، قبل غورباتشوف، فقد سمح رئيس الحزب السوفياتي، ليونيد بريجنيف، تحت ضغط اميركي، بمغادرة حوالي ربع مليون يهودي، وقد رحل ثلثاهم الى اسرائيل.

ان تزايد الهجرة قد أجبر مكتب الارتباط على التوسع، وقد بدأ بتعيين قناصل في السفارات الاسرائيلية المختلفة في اوروبا، وارسل موظفي ارتباط للحفاظ على العلاقات مع المنظمات اليهودية في كل انحاء العالم، وتم ارسال رسائل تأييد الى اليهود السوفيات بالاضافة الى الكتب العبرية ورزم الكتب الدينية والمواد الاخرى النادرة في روسيا. كان يتم اعطاء اليهود الاجانب الذين يسافرون الى الاتحاد السوفياتي ايجازاً، من قبل الدبلوماسيين الاسرائيليين الذين كانوا يعطون تعليمات مفصلة عما يجب ان يفعلوه وما يجب الا يفعلوه، وكان يقال لهم أي اليهود ينبغي ان يقابلوهم او يتجنبوهم، وكيف يتصرفون اذا احتجزتهم السلطات.

كان ليفانون ورئيس الموساد، هوفي، اللذان كانا يعملان بتنسيق كبير حول مشروع الهجرة، يدركان جيدا ان عملاء اسرائيل السريين يشاركون دائما في الشؤون اليهودية، لكنهما كانا يعرفان ايضا ان رئيس الوزراء بيغن يريد المزيد.

* * *

تعتبر اسرائيل نفسها الموطن الطبيعي لكل الشعب اليهودي، وملجأ لكل يهودي حيثما يكون، ويكمن وراء هذا المبدأ عنصر المصلحة الذاتية الوطنية، فبسبب مخاوفها الديموغرافية فإن اسرائيل المحاطة بعرب يفوقونها عدداً، في حاجة الى مهاجرين جدد، فهم لا يخدمون فقط كمخزون بشري بل كمبرر لوجود الدولة.

لهذا تشعر اسرائيل بواجب حماية كل يهودي أو مجتمع يهودي، يعاني من ضيق، ويمتد الاحساس بالمسؤولية ليشمل الوكالات السرية، فعندما ترى اسرائيل ان هنالك مشكلات يهودية

فإن مجتمع مخابراتها يصبح جهاز «مخابرات يهودية».

ترى سياسة اسرائيل انه ينبغي عمل كل ما هو ممكن لحماية الجاليات اليهودية في الخارج، والمجيء بهم الى الدولة اليهودية كمهاجرين، ويفضل القيام بهذا بوسائل علنية وقانونية، وكلما تعذّر ذلك، كانت المنظمات الصهيونية واسرائيل نفسها لا تتردد في استخدام الوسائل غير القانونية، وكان ذلك هو منطق آليه ب، واساس الهجرة الشاملة لليهود من اليمن والعراق واقطار الكتلة السوفياتية في السنوات الاولى من قيام اسرائيل. كان بيغن يؤيد مهمة مكتب الارتباط تأييداً كاملاً لكنه كان يفضل حملة واضحة وعلنية اكثر من الاساليب الصامتة التي يستخدمها ليفانون ـ وهو موقف ضده كمتسلّم للمنصب من الحكومات العمالية السابقة، فقد رأى رئيس الوزراء الجديد الحاجة الى مسيرات ونداءات تطالب بحرية اليهود السوفيات، ففي ذلك الوقت، في اواخر السبعينات، كان عدد اليهود المسموح لهم بمغادرة روسيا يتدنى مع تدهور العلاقات بين الولايات المتحدة والكرملين في عهد ليونيد بريجينيف.

وكانت هنالك ايضا علاقات مضطربة بين مكتب الارتباط برئاسة ليفانون، والمنظمات اليهودية الخارجية التي كانت تعمل لتحقيق غايات مماثلة، وقد قام شاب اسرائيلي متحمس بجولات على نوادي الشباب اليهودية في لندن عام ١٩٨٠ يطالب المتطوعين بالسفر الى الاتحاد السوفياتي، وقد لبّى الدعوة حوالي مئة بريطاني في سن السابعة عشرة الى العشرين، وقد وجههم الاسرائيلي الغامض الى وكالة سفر معينة وفرت لهم تذاكر سفر مخفضة الى روسيا وكتباً واسطوانات واشرطة كاسيت بالعبرية لنقلها الى هناك.

لم يكن آباء المسافرين البريطانيين المغامرين سعداء حين علموا بأن ابناءهم تحولوا الى عملاء سريين هواة، فشكوا للسفارة الاسرائيلية في لندن والتي وصلتهم مباشرة بنيهيميا ليفانون، ومع ان رئيس مكتب الارتباط لم يشرح وظيفته بشكل محدد الا انه قال للآباء: لا تتدخلوا. انه أمر لا يهمكم، نحن نعرف ما نفعله.

وتضايقت المنظمات البريطانية التي كانت تدعو لصالح اليهود السوفيات، فقد كانت كلها تعمل لتحقيق نفس الهدف، وكان الجميع يعرف ان اسرائيل أقامت شريان حياة حيويا بجمع قدر هائل من المعلومات عن اليهود وحاجاتهم، لكن الجماعات غير الاسرائيلية شعرت بأنها يطلب منها تمويل رحلات لا تعرف عنها أي شيء.

بعد أكثر من عقد على رئاسته لمكتب الارتباط، استبدل ليفانون، بيهودا لابيدوت، فقد اخذ بيغن أخيرا بالتسليم بطلبات كبار مستشاريه بأن يعين شخصا مواليا من حزب الليكود في الوظيفة الحساسة للهجرة السرية، ومع ان لابيدوت لم يكن لديه الخبرة في المخابرات اليهودية التي كان يملكها ليفانون او افيغور قبله، إلا ان رئيس المكتب الجديد كان عضوا في ميليشيا الارغون

المتصلبة بقيادة بيغن، وكان لابيدوت الشخص رقم ٢ في نيسان ١٩٤٨ في قتل حوالي مائتي مدني عربي في قرية دير ياسين قرب القدس، وهي العملية التي شجبها العالم ووصفها بالمجزرة لكن بيغن بررها كعملية عسكرية ضرورية. وبدلاً من العيش مخزياً فقد أصبح لابيدوت مشهورا كعالم كيمياء حيوية موهوب في الجامعة العبرية.

كان هنالك كثيرون في المجتمعات الدبلوماسية والمخابراتية لم يفهموا لماذا حصل لابيدوت عديم الخبرة على منصب رئيس مكتب الارتباط، غير أن الرئيس الجديد ورئيس الوزراء بيغن كانا يفهم احدهما الآخر بشكل جيد، ومضى عمل المكتب بسلاسة كبيرة، حيث كان لابيدوت ينفذ رغبات بيغن بشنّ حملة علنية لصالح اليهود السوفيات.

وقد أطلق المكتب صفة «أسير الصهيونية» على أي يهودي سوفياتي يعزز الحركة الصهيونية، والثقافة اليهودية، أو كلتيهما معاً، واعتقل بسبب هذه النشاطات، وقد ميّز الاسرائيليون بين اليهود المنشقين الذين يكافحون من أجل حقوق الانسان السوفياتية، واليهود الذين كانوا صهاينة نشطين ويعانون بسبب حبهم لاسرائيل.

واذا كان «لأسرى الصهيونية» الرسميين اقارب خارج روسيا، فقد يتم ارسالهم في جولات شاملة الى الخارج للالتقاء مع الشخصيات الاجنبية والصحافة العالمية ـ يدعون الى حرية الهجرة من الاتحاد السوفياتي، وتقوم الحكومة الاسرائيلية، من خلال مكتب الارتباط او المجلس العام لليهود السوفيات، بدفع كل النفقات.

ان الضغط من قبل الاقطار العربية والتهديدات من قبل المسلحين الاسلاميين قد دفعت المراقبة العسكرية الاسرائيلية الى فرض طوق من السرية على العدد الفعلي للمهاجرين والطرق التي يتوجهون بها، وقد شارك مكتب الارتباط في التخطيط، بعد ان اصبح يعمل مع الدبلوماسيين الاسرائيليين المسموح لهم بالعمل في موسكو، وساعدت الشين بيت في ترتيب الامن عند نقاط العبور الاوروبية.

اثارت موجات الهجرة اليهودية المشكلة التي كان على الشين بيت ان تتصدى لها في اوائل الخمسينات: وهي الخوف من ان يكون الاتحاد السوفياتي يغتنم الفرصة لزرع عملاء سريين في اسرائيل، وقد يستخدم سيل اليهود كنقطة انطلاق للعملاء الشيوعيين الى الغرب.

لقد تأكد استخدام مثل هذه الاساليب بواسطة ايليا غريغورفيش جيركفيلوف، وهو ضابط كبير في الكي جي بي، انشق الى الغرب، وقد اخبر المحققين البريطانيين في عام ١٩٨١ ان الشرطة السرية السوفياتية يدققون قوائم كل اليهود الذين يطلبون الهجرة، يبحثون عن عدد منهم يمكن ان يتجسسوا لروسيا الام، وتم تجنيد البعض، وامروا بالبدء في ارسال معلومات الى موسكو على

الفور، وقد زرع آخرون كعملاء «نائمين» لا يفعلون أي شيء لبضع سنوات ثم يتم «إيقاظهم» من قبل السوفيات المسؤولين عنهم. وقد أقامت الكي جي بي دائرة خاصة لتجنيد العملاء اليهود، وتدريبهم، ثم أبرزتهم، وعلى هذا فقد اكتشف الكرملين ان كثيرين، بعد وصولهم الى اسرائيل، رفضوا خدمة الكي جي بي ولم يرسلوا أية تقارير على الاطلاق.

وظهر تأكيد آخر لمدى الجهود السوفياتية الرامية الى التغلغل في اسرائيل، ظهر في لندن في عام ١٩٨٢، عند محاكمة «هوجورج هامبلتون» وهو استاذ اقتصاد كندي كان يتجسس للكي جي بي، وقد وردت قضيته في العناوين الرئيسية للصحف البريطانية على انها قصة الرجل الذي عمل في مكتب لحلف الناتو بينما كان يعمل سراً للكرملين. وبدا ان لا علاقة لقضيته باسرائيل، لكن العلاقة لوحظت بالصدفة فقط، فقبل دقائق من ادخال هامبلتون الى «المحكمة رقم واحد» في مبنى محكمة أولدبيلي التاريخية في لندن، جرت محاكمة غطاها الصحفيون الاسرائيليون وانتهت بادانة رونا ريتشي، وكانت دبلوماسية بريطانية طويلة وجذابة تحطمت مهنتها بالطرد عندما كانت وظيفتها في تل ابيب.

انضمت ريتشي الى وزارة الخارجية في آب ١٩٧٩، بعد ان وجدت الوظيفة المثالية لامرأة اسكتلندية تجيد عدة لغات، وتدربت في لندن على فن الدبلوماسية وتولت اول وظيفة لها في تموز ١٩٨١، عندما عينت في السفارة البريطانية في تل ابيب كملحق صحفي، وبعد ثلاثة أسابيع، دعيت ريتشي الى حفلة كوكتيل دبلوماسية في السفارة المصرية، التي فتحت بعد معاهدة ١٩٧٩ السلمية مع اسرائيل.

ادت مصافحتها لشاب اسمر وسيم الى وضع مهنتها على منحدر قاد الى الطرد، فقد وقعت، من أول نظرة، في حبّ رفعت الانصاري، السكرتير الثاني في القنصلية المصرية، ولم تحتج المخابرات الاسرائيلية الى بذل جهود كبيرة لتكتشف علاقتهما، بل ان الحبيبين لم يحاولا اخفاء هذه العلاقة، فقد شوهدا في عشرات من حفلات الاستقبال الدبلوماسية، او يسرقان القبل على ضوء الشموع في المطاعم الصغيرة في شارع ييرمياهو، شمال تل ابيب.

ربما كان الصيف الحار الرطب للبحر الابيض المتوسط والشعور الجياش بالتحرّر، بعيداً عن طقس سكوتلاندا الكئيب، قد افقد الدبلوماسية البريطانية منطقها السليم، فهي لم تستسلم لمطالب حبيبها المصري فقط، بل استجابت لطلباته للحصول على معلومات عن رسائل التلكس السرية التي كانت ترد الى سفارتها من لندن.

في نهاية تشرين الثاني، ناولت الانصاري وثيقة بالغة السرية تعطي تفاصيل عن الزيارة المقبلة لوزير الخارجية البريطاني، اللورد بيتر كارينغتون، الى الشرق الاوسط. واذا وصلت هذه

المعلومات الى غير الجهة المعنية، مثل مجموعة ارهابية، فان ذلك قد يعرض حياة كارينغتون للخطر.

كانت الشين بيت تراقب، وقررت ان تضع حداً للعلاقة الغرامية الخطرة قبل ان يفوت الاوان، فقام الاسرائيليون بتزويد البريطانيين بتقرير مفصل. فاستدعيت ريتشي الى لندن لامر مزعوم ثم اعتقلت.

اعترفت بالذنب، واعربت عن الندم، وتعاونت مع مستجوبيها، وبعد محاكمتها في اولد بيلي، صدر عليها حكم في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٨٢ مع وقف التنفيذ، وقال المدعي العام، سير ماركل هافرز: لا بدّ ان اعترف أن تصرف المتهمة سخيف اكثر منه شريراً، فقد سمحت لنفسها بالانسياق وراء علاقتها حتى أنها اطلعته على البرقيات السرية.

إنهار عالم ريتشي كلية عندما اكتشفت ان لحبيبها زوجة واطفالا ظلوا في القاهرة، وفي الحقيقة وكما اعلم الاسرائيليون نظراءهم البريطانيين كان الانصاري ضابط مخابرات محترفاً يستغل وسامته لغايات سرية. وكان يوماً مشهوداً لصحافة الاغراء في بريطانيا عندما صدرت بعناوين رئيسية مثل: دبلوماسية عذراء يخدعها روميو القاهرة ودون جوان النيل.

المراسلون الاسرائيليون في لندن، الذين اثارهم المزيج المثير من الجنس والتجسس، حضروا المحاكمة وغطوها، وبينما كانت تغادر قاعة المحكمة، رأوا خائنا آخر يجلب الى المحاكمة، فبقي المراسلون ليستمعوا بعض الوقت لكنهم سرّوا لوجودهم هناك، فقد كان امراً نادراً جدا ان تعرض قضيتان في اعلى محكمة جنائية في بريطانيا، وتكونا ذات علاقة باسرائيل، لكن تبيّن ان هو هامبلتون كان يتجسس في اسرائيل.

كانت الكي جي بي قد جنّدت البروفسور الذي كان يحمل جنسيتين: كندية وبريطانية، في أواخر الاربعينات، وقد تبيّن أنه ذو قيمة خاصة للسوفيات عندما تولى منصباً كاقتصادي للناتو في باريس، وقد قال المحققون البريطانيون ان البروفسور «ألحق أضراراً فادحة» بمصالح الغرب.

وكدليل على مدى تثمين الروس لهامبلتون، دعاه اندروبوف، رئيس الكي جي بي (الذي اصبح فيما بعد رئيس الاتحاد السوفياتي) دعاه الى موسكو، وفي حفلة احتفائية، ناقشوا الدفاعات الغربية والمهمات التي قام بها البروفسور وبخاصة في اسرائيل.

انهار هامبلتون خلال الاستجواب في اولد بيلي، وحكم عليه بالسجن عشر سنوات، فقد اعترف بانه زار اسرائيل ثلاث مرات، في الاعوام ١٩٧٠، و ١٩٧٥ و ١٩٧٨، على حساب الاتحاد السوفياتي. ومع انه قام ببعض البحوث الاقتصادية المشروعة الا انه قام بقدر كبير من العمل الذي حدده له اسياده في الكي جي بي، وخلال زيارته الاولى، كلّفه مسؤوله السوفياتي في

النمسا، المعروف باسم «باول» فقط، بمعرفة فيما اذا كانت اسرائيل انتجت قنابل ذرية، ومعرفة مدى علاقات اسرائيل بجنوب افريقيا.

كما طلب من هامبلتون ان يعدّ تقارير تتعلق بمجال خبرته: الاقتصاد، وطلب منه باول تفاصيل عن تكاليف كل مهاجر يهودي: التعليم، اقامة، عمل جديد، الحصول على بيت جديد، وقضايا اخرى معينة بحثها هامبلتون. وكما قال الجاسوس الاسير لمستجوبيه البريطانيين من جهاز ام آي ٦، فقد اتضح له انه كان يهيء الطريق لدسّ عملاء سوفيات في اسرائيل.

من الصعب معرفة الى أي مدى أثّر تقرير هامبلتون حول كيفية دسّ عميل على الكي جي بي، لكن، اتضح في ١٠ كانون الثاني ١٩٨٨ ان عميلا سوفياتيا كان يعمل في الدولة اليهودية منذ وصوله كمهاجر من روسيا، فالرجل الذي كان يتحرك تحت اسم اسرائيل بير والذي القي القبض عليه في ١٩٦١، كان شابتاي كالمانوفيش - اتهم في ذلك اليوم من كانون الثاني في محكمة مقاطعة تل ابيب بالتجسس للروس، وكانت الشين بيت قد اعتقلته قبل ثلاثة اسابيع، لدى عودته من زيارة الى اوروبا الشرقية.

عندما غادر كالمانوفيش الاتحاد السوفياتي الى اسرائيل لأول مرة في عام ١٩٧١، كان في الثالثة والعشرين وكانت الكي جي بي قد جنّدته، وامره ضباط حالته بان يتغلغل في المجتمع الاسرائيلي وان يقيم لنفسه قاعدة اقتصادية قوية، وان يصادق القادة السياسيين والعسكريين. وبتمويل من السوفيات، حقق صيتاً كرجل اعمال من طراز عالمي، وقد امتدت مصالحه المالية من مونت كارلو الى افريقيا.

ان القوى المغرية للثروة قد اجتذبت الاصدقاء ذوي النفوذ الكبير في المجتمع والحكومة الاسرائيليين، وكان احدهم الجنرال دوف تماري، وقد دعا كالمانوفيش تماري وهو آمر سابق لوحدة كبيرة من سايريت، لزيارة سيراليون على نفقة الاسرائيلي - الروسي الشاب لاجراء بعض المشاورات حول الامن.

كما ان كالمانوفيش عقد علاقات اخرى مع سياسيين رفيعي المستوى، فقد خدم اولاً كمستشار للبرلماني شمويل فلاتو - شارون، الذي كان لاجئا في فرنسا بسبب اتهامات جنائية، وقد أمنت الوظيفة طريقا قيما الى الكنيست للمهاجر من روسيا، وبعدئذ ساعد فلاتو - شارون وعضو الكونغرس من نيويورك، بنجامين غيلمان عندما عملا مع المحامي البرليني الشرقي وولفغانغ فوغيل، لترتيب تبادل سجناء دوليين - بمن فيهم اميركي في المانيا الشرقية، واسرائيلي في موزمبيق، وروسي في بنسلفانيا.

وبعد ان تطورت شهيته وتطلع الى مصادقة سمكة اكبر، اخذ كالمانوفيش يدعو الوزراء الى

حفلات سخية وحفلات استقبال تجارية في فيلته الواقعة في احدى ضواحي تل ابيب. وكان كثير من جيرانه من كبار رجال المخابرات، بل انه تباهى لأن باب غولدا مائير مفتوح له.

عمل كالمانوفيش، لوقت قصير، لدائرة اوروبا الشرقية التابعة لحزب العمل الاسرائيلي، وقد عيّن لضمان ان يبدي المهاجرون الجدد من الاتحاد السوفياتي امتنانهم لوطنهم الجديد بمساندة العمل.

وكقاعدة، تجاهل مجتمع المخابرات السياسات' الاسرائيلية لكن عددا من جيوب الانحياز الحزبي ظلت في اواسط السبعينات، وكان احدها مكتب الارتباط، فقد كانت وحدة الهجرة اليهودية تعتبر معقلاً سياسياً هامّاً، حيث جلبت مواطنين جدداً حشدتهم كل الاحزاب للحكم على امكانياتهم الانتخابية، والى أن قام بيغن بتعيين يهودا لابيدوت مسؤولا عن مكتب الارتباط فان نيهيميا ليفانون قد وضع المكتب في معسكر حزب العمل.

عندما كان حزب العمل في السلطة، حتى عام ١٩٧٧، كان كالمانوفيش في كل الاماكن المناسبة، ففي اثناء سنوات بيغن وما بعدها واصل اليهودي الروسي الغني التنقّل حول مراكز القوة الاسرائيلية، الى ان لاحظته الشين بيت وهو يسلّم اسرارا لعملاء شيوعيين معروفين في اوروبا في اواخر عام ١٩٨٧، وفي ١٥ كانون الاول، ١٩٨٨، وبعد محاكمة وراء الابواب المغلقة في تل ابيب، حكم على كالمانوفيش بالسجن تسع سنوات.

لقد اثارت علاقات كالمانوفيش على مستوى عال، وقدرته على مصادقة أناس في مواقع عالية، تساؤلات صعبة حول اخفاق الشين بيت في ضبطه من وقت أبكر، الا ان الاضرار التي سببها لم تكن كبيرة، فلم يستطع ان يصل الى منشآت دفاعية سرية أو مؤسسات علمية أو قواعد عسكرية. وقد استطاع ان يخبر اسياده الروس بما كان الاعضاء البارزون في المؤسسة الاسرائيلية يفكرون، لكن بتفاصيل ضئيلة جدا عمّا كانت اسرائيل تعمله لحماية نفسها.

وعلى نقيض ذلك، فقد كان جاسوس سوفياتي آخر زرع كمهاجر، اكثر نجاحا، فقد وصل ماركوس كلينبرغ الى اسرائيل في وقت ابكر واستطاع ان يندسّ عميقاً في البنية العسكرية لاسرائيل.

وصل كلينبرغ الى شاطىء الدولة الحديثة الولادة كمهاجر من اوروبا الشرقية في عام ١٩٤٨، حين كان في العشرين من العمر، ودرس العلوم الطبيعية، وفي نهاية الستينات عين نائباً لمدير المركز البيولوجي، البالغ السرية، في بلدة نيس زيونا، على بعد حوالي عشرة أميال شمال تل ابيب، وحيث انه كان يبدو مريضاً، فقد كان كلينبرغ يسافر، بين الحين والآخر، الى سويسرا «للعلاج».

اختفى كلينبرغ فجأة في عام ١٩٨٣ وجاء رجال مجهولون الى المركز واخذوا كل شيء في ملفاته، واكتشفت الشين بيت أن زياراته لسويسرا كانت إلى رئيس جواسيس روسي، ودون اي اعلان، اتهم بالتجسس وأدين في محكمة سرية وسجن مدى الحياة.

لقد سبب كلينبرغ أضراراً كبيرة لأنه كان واحدا من كبار الرجال في مشاريع سرية في نيس زيونا، وكان المركز، منذ عام ١٩٧٣، مرتبطاً، بواسطة باحثين اجانب، «بمواضيع تتعلق بالاسلحة الكيماوية والبيولوجية». وقد استنتج محللو المخابرات الاميركية ان اسرائيل تطوّر تدابير دفاعية ضد الغازات السامة التي يعتقد ان عدة دول عربية قد خزّنتها، وكان هنالك تقارير اكثر إثارة للخوف بأن العراق كان يعمل في الثمانينات على صنع اسلحة جرثومية، لذلك ارادت اسرائيل ان يكون لديها مخزون من اللقاحات ووسائل مراقبة الجو والماء ضد احتمال وقوع عدوان كيماوي او بيولوجي.

كان تغلغل الجواسيس السوفيات مؤذياً غير ان رئيس الوزراء بيغن كان يريد الاقدام على مجازفات اخرى لتحقيق الهدف الاستراتيجي المتمثل بالتصرف لمصلحة اليهود، فقد أقام، مثلاً، علاقات مع أنظمة بغيضة في كل انحاء العالم، ففي اميركا الجنوبية، باعت اسرائيل الاسلحة والمعارف العسكرية لتشيلي والارجنتين، حيث لم تخف المجالس العسكرية الحاكمة مشاعرها اللاسامية، ومقابل ذلك، حصل الاسرائيليون على تعهدات من الديكتاتوريين في سانتياغو وبوينس آيرس بأن يحموا اليهود ويسمحوا لهم بالرحيل بأموالهم النقدية وممتلكاتهم.

وتمّ تبني سياسة مماثلة مع رومانيا، وهي الدولة الوحيدة من الكتلة السوفياتية التي أبقت على علاقاتها الدبلوماسية مع اسرائيل بعد أن قطعت كل الاقطار الشيوعية الاخرى علاقاتها بعد حرب ١٩٦٧، وكانت الشخصية الرئيسية في العلاقة السرية والخاصة مع رئيس رومانيا نيقولاي شاوشيسكو، اسرائيليا مسنّا أشيب اسمه ياشاياهو (شايكي) تراشتينبرغ - دان.

تطوع شايكي دان في الحرب العالمية الثانية مع الجيش البريطاني وقفز بالمظلة، مع شبان يهود فلسطينيين آخرين نظمهم روفن شيلوه، وراء الخطوط النازية في البلقان، وكان أحد الناجين، فعاد الى اسرائيل وانضم الى مكتب الارتباط في ظل افيغور وليفانون.

ان نشاطات دان السرية قد جعلته هدفا لعدة أجهزة تجسس اوروبية شرقية، لكن اميركيا اسمه شارلس جوردان دفع الثمن.

كان جوردان ضابطاً كبيراً في لجنة التوزيع المشتركة الاميركية، وهي منظمة يهودية للرعاية الاجتماعية تعرف باسم «جوينت» وقد وصل الى العاصمة التشيكية براغ، يوم ١٤ آب ١٩٦٧، وبعد يومين، غادر الفندق واختفى، وعندما لم يعد ابلغت زوجته الشرطة حول اختفاء زوجها،

وبعد أربعة أيام تم انتشال جثته من نهر مولداو، وقالت السلطات الشيوعية ان جوردان ربما سقط في الماء وربما انتحر!

كانت الاجهزة السرية في الكتلة السوفياتية تشك في ان ممثلي جوينت لم يكونوا سوى عملاء للسي آي ايه، وكانت الاجهزة تدرك العلاقات بين جوينت والحكومة الاسرائيلية. وقد اجتذب جوردان بعض الانتباه من موظفي المخابرات الشيوعية وبخاصة لأنه وصل الى براغ من القدس.

يمكن الآن القول بما يشبه التأكيد ان شارلس جوردان قتل على يد العملاء الشيوعيين، عن طريق الخطأ في هويته، فقد ظنوا ان ضحيتهم شايكي دان الاسرائيلي.

ولم يرتدع دان واستمر في العمل في اوروبا الشرقية وحصل على موافقة الرئيس شاوشيسكو على السماح برحيل اليهود الرومانيين، ومقابل ذلك كان الخبراء الاسرائيليون يقومون بصيانة الدبابات والمعدات العسكرية الاخرى الرومانية، كما كانت الدولة اليهودية تستورد بضائع رومانية اكثر من حاجتها ـ حيث ان هنالك حدا لما يستطيع اي بلد ان يستهلك من مربّى الخوخ. وبمساعدة المنظمات اليهودية للرعاية الاجتماعية في الغرب، وافقت اسرائيل على دفع ثلاثة آلاف دولار عن كل يهودي يسمح له بالمغادرة، وقد ذكر المسؤولون ان رومانيا يتم تعويضها عن تكاليف تعليم مواطنيها، لكن اتضح لكل الاطراف ان المبلغ عبارة عن فدية!

اعتاد دان على السفر الى بوخارست بحقيبة مليئة بالاموال النقدية، لتقديم الدفعات، كما تبنّت اسرائيل طلب رومانيا للحصول على «وضع البلد المفضل» في التجارة مع الولايات المتحدة.

ان الشرط الوحيد الذي وضعه شاوشيسكو، وقبلته اسرائيل، ألا يتم الاعلان عن هذه الاتفاقيات، ولم يكن هذا لحماية صداقاته مع اشقائه الشيوعيين أو الاقطار العربية، بل كان رئيس رومانيا يخشى من ان تضغط جماعات اقلية اخرى، وبخاصة تلك الاقلية ذات الاصل الالماني، بمطالب مماثلة من أجل الهجرة. وقد تلقى شاوشيسكو واسرته حوالي نصف مبلغ الستين مليون دولار الذي دفع نقدا، على مرّ السنين، حتى سقوطه واعدامه في ١٩٨٩.

ظلت الصفقة المالية سرية، وفي تناقض واضح مع السياسة العلنية التي تبنتها اسرائيل في المطالبة بحرية اليهود السوفيات في الهجرة، ظلت اسرائيل صامتة تماما حول اليهود الرومانيين. فاختلاف الظروف يستدعي اختلاف الاساليب، لذلك وصف رحيل اليهود في بوخارست بأنه «لمّ شمل الأسر» وليس هجرة!

أصبح شايكي دان قناة الاتصال الغربية مع الزعامة الرومانية، وكان ينصح الحكومة الاميركية، وكخبير في مجتمع مخابرات حول وضع «الاسرة» اليهودية الاوروبية الشرقية، كان دان يعطي معلومات لكل زعيم اسرائيلي من غولدا مائير حتى مناحيم بيغن.

وحسب رأي بيغن فإن الأسرة اليهودية لا تعرف أية حدود وينبغي لمّ شملها كلما سنحت الظروف، وفي عهده، أصبح مجتمع المخابرات شديد الاهتمام «بالأسرة».

كان ليهود اثيوبيا، مع اعتبارهم فريدين بسبب سواد بشرتهم، نفس الرغبة القوية مثل اخوتهم اليهود في المغرب ورومانيا وباقي اقطار العالم العربي واوروبا الشرقية، ولم يتوقف يهود اثيوبيا من الحلم في ارض الميعاد وكانوا يسمون انفسهم بـ «بيتا اسرائيل» اي بيت اسرائيل، مع ان جيرانهم غير اليهود اطلقوا عليهم صفة مشينة ـ الفلاشا ـ التي تعني «الغرباء» بأسوأ ما تحمله الكلمة من معنى ـ القريبة من «الزناديق» الذين لا ينتمون لأي مكان.

في الماضي البعيد، كانوا قبيلة قوية من المحاربين، لهم مملكتهم الخاصة في جبال اثيوبيا الشمالية، وبعد سلسلة من النكسات في المعارك مع القبائل الاخرى، انحسرت قوة «بيتا اسرائيل»، ومع منتصف القرن العشرين كان عددهم حوالي ٢٠٠ الف نسمة، وتركز وجودهم في غوندار ومقاطعات اخرى، وقد حظر الاثيوبيون المسيحيون الذين كانوا يسيطرون على المناطق المجاورة، حظروا على الفلاشا شراء الارض، ونتيجة لذلك اصبح اليهود حرفيين ومحاصصين في المحاصيل الزراعية (أي يزرعون ارض غيرهم مقابل حصة من المنتوج)، وهنا يسمح امتلاك الارض بالفرصة الوحيدة الحقيقية للحصول على ما يكفي من الطعام.

في اوائل الخمسينات استطاعت حفنة من الشباب اليهود الاثيوبيين ان يصلوا الى اسرائيل، ومارسوا الضغط على الحكومة الاسرائيلية لاخراج باقي اليهود من اثيوبيا. ورغم العلاقات السرية الممتازة مع اسرائيل رفضت حكومة الامبراطور هيلاسيلاسي السماح بهجرة اليهود، فقد كانت قضية كرامة وطنية فالامبراطور المحترم لا يسمح بأن ينظر اليه الناس وهو يفقد رعاياه!

ومن ناحية اخرى فإن الحكومة الاسرائيلية التي كان يسيطر عليها حزب العمل لم تخرج عن طريقها لمساعدة اليهود الاثيوبيين وقد قال روفن ميرهاف الذي عمل في محطة الموساد في اديس ابابا: كان اليهود يدقون على ابواب سفارتنا، وكان زعماؤهم يتوسلون لنا بأن نخرجهم، لكننا كنا نعيدهم كسيري الخاطر!

كان الاسرائيليون يخشون من ان اثارة القضية يمكن ان تدمّر العلاقات الاستراتيجية مع اثيوبيا، وهي واحدة من البلدان الرئيسية في الاستراتيجية «المحيطية» للتغلب دبلوماسيا على الأقطار العربية.

كما ان هنالك أمراً بالغ الأهمية وهو ان السلطات الدينية الارثوذكسية في اسرائيل أعلنت رفضها الاعتراف «باليهود السود»، مما زاد من تردد اسرائيل في تقديم المساعدة، وواصل اليهود الاثيوبيون انتظار مؤشر من صهيون، لكن المؤشر تأخر، وعندما فاز مناحيم بيغن وليكوده في

انتخابات عام ۱۹۷۷، طرأ تغيير كبير في نهج اسرائيل، وبدا ان اليهود الاثيوبيين سيحققون حلمهم.

بعد التحدث، بشكلٍ مثير، في البيت الابيض في واشنطن في تموز، حول معاناة «بيتا اسرائيل» غير المعروفين كثيراً، أثار بيغن النقاط المحددة التي كانت تهمّ العقيد منغستو، رئيس اثيوبيا، لكن كارتر رفض تغيير ولاءاته في القرن الافريقي، حتى يزود اثيوبيا بالاسلحة بدلاً من جارتها الصومال، فمن وجهة نظر الحكومة الاميركية كان نظام منغستو استبدادياً وماركسياً وليس جديراً بالدعم الاميركي.

بعث بيغن برسالة الى اديس ابابا، صاغها مستشاره هورفتز، وأعلم العقيد الاثيوبي فيها بأن اسرائيل ستقدم المساعدات العسكرية. وكانت النتيجة ائتلافين غريبين في شمال شرق افريقيا، لا يمكن تفسيرهما إلا بعبارة «السياسة تخلق مضاجعين غريبين»! ويمكن القول أيضا ان السياسة الدولية تخلق مضاجعين اكثر غرابة، فقد تلقت اثيوبيا الماركسية في عام ۱۹۷۷ دعما من الاتحاد السوفياتي والمانيا الشرقية واسرائيل، بينما كانت الصومال تتلقى الدعم من الولايات المتحدة والسعودية ومصر.

وبالمقابل، وافقت الحكومة الاثيوبية على السماح برحيل أعداد صغيرة من اليهود، وحتى شباط ۱۹۷۸ تم نقل مجموعتين، مجموعة افرادهما ۲۲۰ يهوديا، من اديس ابابا مباشرة الى اسرائيل في طائرات شحن اسرائيلية كانت قد نقلت الاسلحة الى اثيوبيا بشكل سري.

لقد اطلق وزير الخارجية موشي دايان تعليقا لا مبال، قطع شهر العسل بين اثيوبيا واسرائيل، ففي مؤتمر صحفي، اعترف دايان بان اسرائيل تزود الجيش الاثيوبي بامدادات عسكرية، وسارع الى القول بانه يقصد البدلات العسكرية، لكن كان واضحاً بانه يعني الاسلحة، وكان كشف السرّ كافياً لدفع منغستو الى قطع العلاقات السرية، ولن يكون مسموحاً لمواطنيه اليهود بالرحيل.

ورغم غضب بيغن من وزير خارجيته، فقد ارتاح بعض الشيء من حماس رئيس الموساد، هوفي، حول البحث عن طرق بديلة، فبينما كان هوفي يعمل في رسم خططه، فقد حمى بيغن أمن العملية بصمته، بل كان عليه ان يتساهل، دون أي ردّ، ازاء الاساءات التي تعرض لها من قبل المنظمات اليهودية الدولية، فقد شكت من ان اسرائيل لا تفعل أي شيء أمام التقارير التي تتحدث عن الاضطهاد الذي يتعرض له يهود اثيوبيا على يد حكومتهم والفئات الثائرة وعصابات قطاع الطرق، وقد اوصى الناقدون بان اسرائيل قد تكون لا مبالية بسبب سواد بشرة «الفلاشا».

«السيد بيغن! عليك أن تستجيب»، هكذا توسل يا هيل كاديشاي لرئيس الوزراء حيث لم

يستطع كاديشاي أن يحتمل رؤية التهجمات على الزعيم الذي يحترمه، لكن بيغن رفض الاستجابة، ولم يرغب في كشف العمل الذي كان يجري تنفيذه!

كان رئيس الوزراء الاسرائيلي يعرف في عام ١٩٧٩ بان عملية الانقاذ تتم بشكل سريع، فقد تم تجنيد الشبان الاثيوبيين الذين انتقلوا الى اسرائيل في وقت سابق للعمل للدولة اليهودية، وكما تم ارسال اليهود الشبان المغاربة في مهمات الى وطنهم الاصلي قبل عشرين سنة، فقد مرّ اليهود الاثيوبيون في فترة تدريب قصيرة واعيدوا الى حيث اتوا ـ كعملاء سريين لاسرائيل.

سافر العملاء الاسرائيليون عديمو الخبرة الى الجاليات اليهودية، واقترحوا ان كل من يستطيع ان يرحل، عليه ان ياخذ طريقه، الطويل والخطر الى السودان، وقد قام الاسرائيليون ـ الاثيوبيون باطلاع زعماء القرى اليهودية حول الرحلة المحفوفة بالمخاطر، وبدأت قرى باكملها تسير في طرق غير معروفة، وفي كثير من الحالات تم الامساك بهم وتعذيبهم واعادتهم الى قراهم.

ومات الكثيرون على الطريق، لكن الذين استطاعوا الوصول الى جنوب السودان، وضعوا في مخيم اقيم على بعد عشرين ميلا من الحدود، واشرف عليه موظفون من اللجنة العليا للاجئين، التابعة للامم المتحدة.

كان العزاء الوحيد لهؤلاء اليهود الاثيوبيين ان وضعهم افضل من وضع اللاجئين الاخرين في المخيم، ففي حالتهم، كان هنالك عملاء اسرائيليون يضمنون تقديم أفضل معاملة لليهود، وقد اختلط المبعوثون السريون، الذين كانوا سوداً، مع الاثيوبيين، لكن كان هنالك ايضاً اسرائيليون بيض يحملون هويات مختلفة ـ عمال اغاثة من اوروبا، مثلا.

كان الهدف الثاني هو كسب التعاون السري للسودان، فقد ساعدت الحكومة الاميركية بالضغط على الرئيس جعفر النميري لتقديم مساعدات مالية، ولم يكن هذا اكثر من رشاوي تدفع في حساباته المصرفية الشخصية، كما ساعدت مصر ايضا لأن انور السادات كان صديقا شخصيا للنميري، وبناء على طلب من بيغن، فقد حث السودان على مساعدة اليهود الاثيوبيين على الهرب، وبذلك وجد بيغن فائدة جانبية ثمينة من معاهدته السلمية مع مصر.

وعد الجنرال النميري بغضّ الطرف عن نقل اليهود، طالما ظل كل شيء سرّاً، ومن اجل وضع التفاصيل، ارسلت الموساد موظفاً كبيراً الى الخرطوم في بداية عام ١٩٨٠، وقد نسّق العملية مع أبو الطيب، رئيس اجهزة الامن السودانية وكانت أنسب وسيلة واكثرها فعالية هي نقل اللاجئين اليهود باقصر طريق ممكن ـ بحراً الى ميناء ايلات ـ لكن لم يرد النميري استخدام شواطئه وطالب بنقل اليهود عبر بلد ثالث الى اسرائيل وليس من السودان بشكل مباشر.

أبرمت الموساد والسودان اتفاقية تم بموجبها نقل اليهود الاثيوبيين عبر المعسكرات في جنوب

السودان، بالتنسيق مع العمال الميدانيين التابعين للام المتحدة، وعبر الحدود الى كينيا. وكان الكينيون، بطبيعة الحال، حلفاء سابقين لاسرائيل وكانوا طرفا في الاتفاقية السرية، لكن هذا الطريق اغلق بعد ان اجتازت طائرة صغيرة خاصة تابعة لجمعية خيرية اميركية، الحدود من السودان واضطرت الى هبوط طارىء في كينيا وتم اعتقال الركاب، بمن فيهم خمسة يهود اثيوبيين، ونشرت صحيفة نيروبية تفاصيل العملية السرية بما فيها معلومات عن محطة الموساد في كينيا، وأصّرت حكومة نيروبي على وقف تدفق «الفلاشا» بدل المجازفة بعداء الاقطار العربية والافريقية الاخرى.

ولعدم وجود أي بديل، اضطرت الموساد، مرة أخرى، لاستخدام مواهبها للتحسين لكن الوكالة احتاجت الى بعض المساعدات الاجنبية، ولجأ عملاء اسرائيل الى الولايات المتحدة، فطلب ممثل الموساد في واشنطن من السي آي ايه ان تساعد في تحرير يهود اثيوبيا، ووافق الاميركيون بسرعة مدهشة، فبوجود حكومة ريغان الجديدة في السلطة اصبحت العلاقات العسكرية والمخابراتية بين الولايات المتحدة واسرائيل اقوى من اي وقت مضى.

أقامت الموساد والسي آي ايه مؤسسة وهمية اسمها نافكو استأجرت ارضا على البحر الاحمر في السودان، بهدف انشاء قرية فندقية يأوي اليها الغواصون، وفي الحقيقة، وصل الغواصون الاجانب على الفور، لكن لم يكونوا اولئك الهواة الذين يستمتعون بمشاهدة الصخور المرجانية بل كانوا اعضاء من قوة الكوماندو البحرية الاسرائيلية.

كان رجال الضفادع يستقبلون اليهود الاثيوبيين الذين يتم ارسالهم الى قرية نافكو، من قبل عملاء الموساد في الداخل، وتحت ستار ظلام الليل كانوا ينقلون اللاجئين بقوارب صغيرة الى شرم الشيخ، الذي كانت اسرائيل تحتله، وهو الطرف الجنوبي من شبه جزيرة سيناء. ثم كان يجري نقل الاثيوبيين بطائرات شحن الى قواعد جوية في وسط اسرائيل.

عينت الموساد فريقا من المصورين لتسجيل المراحل الاخيرة من الرحيل، وكان القصد من هذه الافلام واشرطة الفيديو الاحتفاظ بها في ملفات الوكالة السرية، وكانت تعتبر بالغة الاهمية.

ان طريق البحر الاحمر، عبر القرية السياحية الوهمية على الساحل السوداني، جاءت بحوالي الفين من اليهود الاثيوبيين الى اسرائيل. لكن مخططي العملية كانوا قلقين لأنهم لم يستطيعوا تعجيلها، فقد كان آلاف آخرون من اليهود الاثيوبيين، بعد ان اجتازوا الصحراء من أثيوبيا، ينتظرون فرصتهم للوصول الى ارض الميعاد، وفي الوقت ذاته كان الرئيس السوداني جعفر النميري يعرف ان الموساد والسي آي ايه كانتا تستخدمان بلاده كممرّ، وازداد قلقه من احتمال انكشاف العملية، ولم يكن باستطاعة النميري ان يفسر للأغلبية المسلمة المناهضة للصهيونية من سكان السودان لماذا يساعد اسرائيل، وكان يخاف من أن تكشف الانظمة العربية الراديكالية،

وبخاصة جارته وعدوته ليبيا، تورطه مع الاسرائيليين فيصنفونه كخائن.

لذلك اتخذ الرئيس السوداني موقفا اصلب، وأصرّ على تقليص الترحيل من اثيوبيا الى اسرائيل الى درجة كبيرة، ومن سوء الحظ أن هذا قد حدث عندما كان عدد اليهود الذين يغادرون قراهم ويجازفون بأرواحهم بدخول السودان قد زاد بشكل كبير في موجة هائلة. وكان رئيس الوزراء مناحيم بيغن ورئيس الموساد هوفي يعرفان أن الوقت ينفد فقررا عملية شبه حمقاء أملا في أن تنقل عشرين الف لاجيء يهودي الى اسرائيل في فترة قصيرة جدا، تحت اسم عملية موسى.

كانت الخطوة الأولى احياء مدرج قديم قرب بلدة شوباك السودانية، ففي احدى ليالي شهر آذار ١٩٨٤، هبطت طائرتا هيركوليس وحملتا على متنهما مئتي يهودي كانوا قد جيء بهم بالشاحنات، وطارتا في عتمة الليل، وتكررت العملية عدة مرات في ذلك الشهر، وحرصت الموساد على عدم ترك أي اثر قد يشير الى تورط اسرائيل، ولو علبة سجاير فارغة او علبة كبريت.

ونقل عدد من اليهود الاثيوبيين من مطار الخرطوم في رحلات تجارية الى اوروبا، ومنها الى اسرائيل، وكانت الموساد تريد استغلال المطار اكثر، مدركة انه اكثر امنا من شريط الهبوط الصحراوي، لكن كان يجب اقناع الرئيس النميري، وكان على قواته ان تحرس المطار وتبعد المتفرجين محبّي الاستطلاع عندما كانت الرحلات الخاصة غير الواردة على جدول رحلات المطار على وشك الاقلاع.

بناء على طلب اسرائيل، وعدت الولايات المتحدة بمساعدة اقتصادية أخرى للسودان، ٢٠٠ مليون دولار، مقابل وعد من النميري بان يسمح لليهود بالطيران من الخرطوم، وكان المفاوض الرئيسي جورج ويبر، من السفارة الاميركية في الخرطوم، الذي كان يعمل تحت غطاء «منسّق اللاجئين».

من أجل تحريك الامور وضمان موافقة النميري النهائية، رصدت الموساد مبلغ ستين مليون دولار في البنوك الاوروبية، في سويسرا ولندن بشكل اساسي لحسابات النميري وعدد من اعوانه، بمن فيهم ابو الطيب. وكان كثير من المال قد جمع من المتبرعين اليهود في كل انحاء العالم، الذين كانوا يعرفون ان الاموال هي لمساعدة الفلاشا.

اقنعت الموساد جورج ميتلمان، وهو مليونير بلجيكي كان ايضا يهوديا متدنيا، بمساعدة المشروع السري، وكان ميتلمان مثاليا لأنه كان يملك شركة طيران ـ ترانز يوروب ايرلاينز، وكان طيارو واطقم هذه الشركة ذوي خبرة كبيرة بمطار الخطروم، حيث كانوا ينقلون المسلمين من السودان الى مكة خلال موسم الحج، ووافق ميتلمان على وضع طائراته تحت تصرف اسرائيل، وابقاء فمه مغلقاً! وقد استشار رئيس وزراء بلجيكا ويلفرد مارتنز ووزير العدل جين غول الذي كان مسؤولا عن الجهاز السري البلجيكي وصدف انه يهودي.

من ٢١ تشرين الثاني ١٩٨٤، حتى الاسبوع الاول من عام ١٩٨٥، اقلعت خمس وثلاثون طائرة من مطار الخرطوم الدولي، تحمل سبعة الاف مهاجر الى بروكسل، وبعد توقف ساعتين، للتزوّد بالوقود في قاعدة شركة ترانز يوروب ايرلاينز (تي اي ايه) كانت الطائرات تتوجه عائدة الى الجنوب شرق ـ الى اسرائيل، وكانت العملية تعمل بمنتهى الدقة، مثل دقّة ساعة سويسرية، وكانت تتوقف أيام السبت لان اليهود الاثيوبيين كانوا يقدسون عطلة السبت اليهودية. ومع ان آلاف الناس في اسرائيل وفي الخارج عرفوا بعملية موسى، الا ان السرّ لم ينتشر اكثر، ووافق محرّرو الصحف الاسرائيلية على عدم نشر اية تقارير عن وصول اليهود الاثيوبيين، كما ان المراسلين الاجانب في اسرائيل اظهروا مسؤولية كافية ازاء عدم ارسال اية تقارير قد تعرّض العملية للخطر.

لكن مسؤولاً اسرائيليا لم يستطع ان يمسك لسانه، فقد ماتت عملية موسى قبل اوانها بسبب تهوّر يهودا دومينيتز، وهو مسؤول كبير في الوكالة اليهودية، وكان مكتبه قد أصبح مشاركا فعالا في وصول وايواء اليهود الاثيوبيين، وفي جمع الاموال على نطاق العالم، وفي بداية كانون الثاني ١٩٨٥، أجريت مقابلة مع دومينيتز، بواسطة مجلة مغمورة ناطقة بالعبرية، ناكودا، أي «النقطة» كان المستوطنون اليهود في الضفة الغربية المحتلة يصدرونها، وكانوا يأملون في مجيء الاثيوبيين والمساعدة في توسيع المستوطنات المثيرة للجدل، وأدلى دومينيتز بتفاصيل، غير ضرورية، عن المشروع المذهل لانقاذ اليهود الاثيوبيين، وقد رأى الاربعماية مراسل أجنبي في اسرائيل أن هذا الحديث اشارة للاستشهاد به والكتابة عن العملية بأسرها.

لقد قفزت القطة من حقيبتها، ولم يكن لدى زعماء اسرائيل سوى ان يحتفلوا بنجاح مشروعهم السري في افريقيا، ولم يكن مضى على رئيس الوزراء الجديد، شمعون بيريز، في منصبه إلا ثلاثة شهور فسارع الى عقد مؤتمر صحفي وردّ على كل الاسئلة حول كيفية قيام اسرائيل باحضار حوالي عشرة آلاف يهودي اثيوبي الى «وطنهم التاريخي» وظن ان بيريز، زعيم حزب العمل، اراد ان ينسب لنفسه الفضل ازاء عملية بدأت بمبادرة بيغن وحزبه الليكود.

كانت القصة خبراً هاماً في كل انحاء العالم، وكما خشي الرئيس النميري ادانة الدول العربية ومنظمة التحرير الفلسطينية ووصفته بالخائن لمساعدته الصهاينة على تجنيد قوة بشرية جديدة لجيشهم، وفي الخامس من كانون الثاني، بعد يومين من مؤتمر بيريز الصحفي، طلبت الحكومة السودانية من واشنطن وقف ترحيل الاثيوبيين عبر الخرطوم، وحذت اثيوبيا حذو السودان، باغلاق حدودها معه واتهام النميري والاسرائيليين «باختطاف» المواطنين الاثيوبيين.

وبقي في السودان اكثر من الف يهودي من الفلاشا، معظمهم شبان، لأن سياسة اسرائيل كانت تتمثل في ترحيل المرضى والمسنّين والنساء أولاً، وبضغط جديد من الولايات المتحدة،

وتدخل شخصي من نائب الرئيس آنذاك، جورج بوش، وافق النميري على ان ست طائرات هيركوليس تابعة لسلاح الجو الاميركي تستطيع ان تهبط في مطار مهجور قرب احد مخيمات اللاجئين، في ٢٨ آذار ١٩٨٥، وهناك حمل الاميركيون من تبقّى من اليهود وطاروا بهم الى اسرائيل مباشرة.

كانت ايام النميري معدودة، فبعد فترة، أطيح به في انقلاب عسكري، وكانت المصادفة التاريخية ان رئيس الوزراء الجديد الصادق المهدي هو نفس السياسي السوداني الذي بدأ الاتصالات السرية مع اسرائيل في لندن عام ١٩٥٤، وقد حوكم النميري وزعماء حكوميون آخرون غيابيا، بمن فيهم رئيس الجهاز السري، ابو الطيب. وقد اتهموا بالفساد وقبول الرشوة من الموساد والسي آي ايه، والتواطؤ مع العدو الاسرائيلي. ووجد النميري له ملجأ في القاهرة في ضيافة صديقه حسني مبارك، خليفة السادات المغدور. وكان اسوأ فصل في القضية ان حوالي عشرة آلاف يهودي كانوا ما يزالون في اثيوبيا.

ان افضل تلخيص لتلك العملية يمكن ايراده على النحو التالي:

بادر بيغن بالعملية، وتوسط السادات فيها، وأفسدها دايان، وأصلحها هوفي، ودفع ريغان تكاليفها، وتحدث بيريز عنها.. وتحطم النميري نتيجة لها!

الفصل الثاني عشر

عصر المغامرة

لم يعكّر صفو الصباح الدافىء في الضفة الغربية سوى ثلاثة انفجارات قبل الثامنة من يوم الثاني من حزيران ١٩٨٠، وكذلك أجساد ثلاثة رؤساء بلديات فلسطينيين، فقد كانت أعجوبة، أن ينجو بسام الشكعة المتقد حماساً وذو الشعبية الواسعة، رئيس بلدية نـابلس، وكريم خلف رئيس بلدية رام الله، الوسيم الانيق، ورئيس بلدية البيرة محمد الطويل الهادىء، بعد انفجار قنابل زرعت في سياراتهم أمام بيوتهم.

وانتشر الحنق والتعاطف في كل انحاء العالم مع السياسيين الذين فقدوا أطرافهم ولم يخفوا «شعورهم» بأن السلطات الاسرائيلية هي المسؤولة، وفي الوقت ذاته قام الجيش بتحقيق، ونفى رئيس الوزراء مناحيم بيغن أي علاقة رسمية بالهجمات، وأوصى كثير من الاسرائيليين بـأن رؤساء البلديات قد هوجموا من قبل الفلسطينيين.

وراء الكواليس، كان مدير الشين بيت، ابراهام اشيتوف، يعتقد بأن المهاجمين يهود، ولو تابع المحققون خيوط الجريمة لتوصّلوا الى المستوطنات اليهودية المثيرة للجدل في الضفة الغربية، فقد كان للمستوطنين المتطرفين الوسائل والدوافع لارهاب رؤساء البلديات العرب، وبناء على تطور القنابل التي زرعت في السيارات، وغياب بصمات الاصابع والادلة الطبيعية الاخرى، فقد كان هنالك ما يدعو الى الاعتقاد بأن الجماعة السرية المسؤولة عن العمليات ينبغي أخذها على محمل الجدّ ـ كتحدّ للقانون دون اعتبار للأمور السياسية.

اجتمـع اشيتوف مـع بيغن، وطلب الاذن بزرع عمـلاء الشـين بيت كجـواسيس بـين المستوطنين اليهود، ففي الخمسينات والستينات والسبعينات، تم استخدام شبكات من اجهزة التصنت والمخبرين ضد اليهود اليساريين المتطرفين في اسرائيل، وكان كبار ضباط الشين بيت يؤمنون دائما بأن اليسار قابل للتخريب من الخارج، سواء بواسطة المخابرات السوفياتية أو الجهات العربية.

إلا ان اليمين المتطرف أصبح في السنوات التي اعقبت حرب ١٩٦٧ مصدر قلق متزايد،

وهذه المجموعة اليهودية الهامشية طورت «عقدة المسيح المخلص» والتعصب الديني والقومية المتطرفة والكراهية العمياء للفلسطينيين.

منحت الشين بيت حرية مطلقة لمراقبة واحدة من المنظمات اليمينية، وهي حزب كاخ بزعامة الحاخام مائير كاهانا، وهي منظمة اسرائيلية خلفت رابطة الدفاع اليهودية التي أسسها كاهانا في الولايات المتحدة، وكان لكاخ برنامج سياسي يدعو الى طرد كل العرب من اسرائيل والاراضي المحتلة، وتسلل عملاء الشين بيت الى حزب كاهانا، يكتبون التقارير عن كل ما يحدث فيه، حتى يكون هنالك تحذير مسبق اذا ما خطّط لأحد الاعضاء المهووسين للبدء بحملة قتل أو تشويه، وكان يجري اعتقال نشطاء كاخ، من حين إلى آخر، استنادا الى معلومات من المخبرين.

وعلى مرّ السنوات، اعتقل عدد من الاسرائيليين الآخرين الذين ينتمون لجماعات صغيرة ساذجة وغير مستقرة عقليا أو سريعة الزوال، بسبب التخطيط لمهاجمة مدنيين عرب أو نسف مساجد مقدسة في منطقة الحرم في القدس، فقد كان كثير من اليهود المتعصبين يرون وجوب ازالة اماكن العبادة الاسلامية قبل ان يجيء المسيح ويخلص العالم، لأنه سيبني «هيكلاً ثالثاً» لليهود، مكان مسجد عمر والمسجد الاقصى ثم ينطلق لانقاذ العالم.

كانت الشين بيت فعالة ضد ما يسمى بالحالات الحمقاء، لكن كان أمامها مهمة أكبر حين يتعلق الامر بمستوطني الضفة الغربية، فقد كان معظمهم يعتبرون وطنيين مجدّين، وكان لهم علاقات ممتازة وواضحة مع بيغن ومؤسسته الليكودية.

وكما خشي اشيتوف، رفض رئيس الوزراء طلبه بأن يزرع جواسيس بين المستوطنين، فقد تخلّى بيغن عن الاحتراف المطلوب للامن والمخابرات لصالح الاعتبارات العاطفية والسياسية التي كانت تملي بعدم القيام بأي شيء.

لقد كان هذا الـ«بيغن» مختلفا عن الذي تولى المنصب في عام ١٩٧٧، فبعد تأمين دوره كصانع سلام بتقديم تنازلات لتحقيق معاهدة سلمية مع مصر، فان مناحيم بيغن «الحقيقي» - الغوغائي القومي المتطرف كما يصفه خصومه - كان يتشوّق للخروج من قوقعته المعتدلة، ومع حلول عام ١٩٨٠، وبعد ان صنع التاريخ مع الرئيس المصري الساحر انور السادات، بدأ بيغن يتداعى امام تعويذة الجنرال اريل شارون.

كان لشارون جاذبيته ايضا، وكان يعرف بين اصدقائه واعدائه باسم «اريك»، ولد في عام ١٩٢٨، باسم اريل شينرمان، في مزرعة شمال تل ابيب، ونشأ على عقيدة اشتراكية، ثم اختار فيما بعد الاسم العبري، شارون، وظل في احضان الحركة العمالية المهيمنة في الصهيونية.

أبدى شجاعة ومهارة فائقتين خلال خدمته العسكرية الالزامية وقرر ان يحترف العسكرية، وقد جرح شارون في عام ١٩٤٨، لكنه في عام ١٩٥٣ ساعد في تشكيل القوات الخاصة لاسرائيل، كرأس حربة لفصيلة الكوماندو التي عرفت باسم الوحدة ١٠١، وكانت تضم خمسة واربعين رجلا فقط، ولم تعمّر طويلا، وكما قال شارون: مرت خمسة شهور حتى أصبح لها تأثير اساسي على جهود اسرائيل الرامية الى تخليص نفسها من الارهاب.

واضاف شارون، الذي قاد رجاله عبر حدود الاقطار العربية في غارات انتقامية: كان لدينا مجموعة مستعدة للردّ.

كان رجال الوحدة ١٠١ أشداء وقساة، وكان هجومهم السيء السمعة هو الذي وقع ضد قرية اردنية، قبية، ليلة الرابع عشر من تشرين الاول ١٩٥٣، فقد دخلت الوحدة ١٠١ وبعض جنود المساندة الى قرية قبية ومعهم كمية كبيرة من المتفجرات، وقد هرب معظم الخمسماية مواطن، من أهل القرية، قبل ان ينسف الاسرائيليون حوالي خمسين بيتا، وقد قتلت الانفجارات تسعة وستين رجلا وامرأة وطفلا كانوا في منازلهم.

أدت الادانات من الأمم المتحدة واماكن اخرى الى حلّ الوحدة ١٠١، لتصبح جزءاً من سلك المظليين، إلا ان سمعة شارون ارتفعت عندما رقّي الى قائد المظليين وكان مرشحا اكيدا لمنصب رئيس هيئة اركان الجيش.

كان مظليوه يقومون بما هو اكثر من القفز من الطائرات، وقد وصفهم شارون «بالمقاتلين غير التقليديين ضد الارهاب»، والذين قاموا في عام ١٩٧١ بمهمة اجتثاث اعمال العنف في قطاع غزة، وكان الاسرائيليون يرتدون مثل العرب بل يمثلون دور المقاتلين العرب حتى يتغلغلوا داخل خلايا العدو، وحسب رواية شارون نفسه فإن رجاله، خلال سبعة شهور، قتلوا ١٠٤ فلسطينيين واعتقلوا ٧٤٢ آخرين.

لقد استقال شارون من الجيش ـ وكانت صدفة ان يستقيل قبل ثلاثة شهور من حرب يوم الغفران عام ١٩٧٣.

لكنه عاد الى الخدمة على الفور للمساعدة في تحويل نكسات اسرائيل الأولى في الحرب حيث اقتحم قناة السويس غربا الى الاراضي المصرية ليجبر المصريين على وقف اطلاق النار، وكان لحزب العمل عدد كبير من الجنرالات في ادوار قيادية فقرر انه يستطيع ان ينجح أكثر في حزب سياسي يستطيع فيه ان يقوم بدور رئيسي، وبهذا شق شارون طريقه الى الحزب «الليبرالي»، والذي كان تجمعا يمينيا، رغم تسميته.

استطاع شارون، بطاقته اللامحدودة، ان يقنع عدة احزاب لتشكل معارضة يمينية تحت

سقف منظمة واحدة أسمت نفسها الليكود، وبعد انتصاره الانتخابي في عام ١٩٧٧ رسم شارون أساليب البيروقراطية فمن خلال خلفيته العسكرية ادرك اهمية السيطرة والاشراف على مجتمع المخابرات، فالمخابرات تعني المعلومات ـ والمعلومات تعني القوة، وقد تصور الجنرال المتقاعد المخابرات الاسرائيلية دولة داخل دولة، تسيّر سياستها الخارجية وتؤثر على السياسات الدفاعية والداخلية، وقد حرص شارون على مثل هذه الاستقلالية.

وادراكا بأن بيغن يخطط لاعطاء وزارة الدفاع للجنرال عايزر وايزمن، قائد سلاح الجو السابق الذي دبّر حملة الليكود الانتخابية، فقد رشح شارون نفسه ليرأس وزارة جديدة للمخابرات، وكانت اقتراحات مماثلة قد طرحت قبل دزينة من السنوات، في عام ١٩٦٦، عندما تم التفكير بجنرال آخر ـ ايغال آلون ـ لاعطائه مثل هذا المنصب، لكنه لم يقم أبدا، وحسب تصوّر شارون، فإن الوزارة تكون مسؤولة عن كل وكالات المخابرات بل يمكن لها أن تأخذ امان من وزارة الدفاع.

رفض بيغن اقتراح شارون، وأعطاه وزارة الزراعة، فاستغل بطل الحرب ذلك المنصب لشن هجومه الخاص به: رصد الميزانيات ليملأ الاراضي المحتلة بالمستوطنات اليهودية التي وصفها بـ «حقائق على الارض» وكأنه يتحدى العالم الخارجي كي يجلي اليهود من الارض التي احتلوها. وبينما كان شارون ينتظر فرصا اكبر، فقد كان يراقب الخلاف بين رئيس الوزراء ورئيس الشين بيت اشيتوف حول نسف سيارات رؤساء البلديات عام ١٩٨٠.

كان اشيتوف يفكر في الاستقالة، وكان بيغن يرفض طلبه باجراء تحقيق اكثر حزماً حول اندلاع الارهاب اليهودي، إلا ان رئيس الشين بيت كان يعرف ان رحيله المفاجىء سوف يربك وكالة الامن الداخلي ويثير عاصفة سياسية شديدة لن تفيد أحداً، فقرر ان يبتلع كرامته الحرفية ليبقى سنة اخرى في المنصب.

عندما غادر اشيتوف الشين بيت في عام ١٩٨١، قال العليمون بمجتمع المخابرات أنه ارتكب غلطة حين طلب اذن بيغن للتجسس على المستوطنين، فاذا كان رئيس الشين بيت يرى تخريبا وعنفا في المجتمع الاسرائيلي فقد كان عليه ان يستخدم عقله وصلاحياته فيدنس شبكة من المخبرين بين يهود الضفة الغربية.

في غياب اية معلومات ثابتة عن تفجير السيارات، لم تستطع الشين بيت والجيش ان يوقفا «الحركة السرية اليهودية» عن استمرار طريق العنف، فقد كان عدة مستوطنين من الضفة الغربية يرتدون كالعرب عندما اقتحموا ساحة الجامعة الاسلامية في الخليل في تموز ١٩٨٣ وامطروا الطلاب بالرصاص، فقتلوا ثلاثة فلسطينيين، وظلت تلك الجريمة بلا حلّ حتى ايار ١٩٨٤.

ففي ذلك الشهر، كان هنالك نقطة تحول عندما اكتشفت الشرطة الاسرائيلية في القدس اثنتي عشرة قنبلة مركبة على باصات عربية في القدس الشرقية، وهي باصات تحمل الركاب بمن فيهم الاطفال. وامكن تجنّب حمام دم، وفي هذه المرة استطاعت الشين بيت ان تشن حملتها، فالمتفجرات من النوع الذي يستخدمه الجيش الاسرائيلي، مما يشير الى ان جنودا أو جنود احتياط قد سرقوا المتفجرات من الترسانة العسكرية.

كانت الشين بيت تعرف من تعتقله، لأنها، مع حلول عام ١٩٨٤، كانت دسّت عملاء في الحركة السرية اليهودية، وكان بيغن قد استقال في السنة السابقة، وقام رئيس الشين بيت الجديد ـ ابراهام شالوم الذي كان نائبا لاشيتوف ـ بمتابعة القضية على عاتقه بغض النظر عمّا تستدعيه المتابعة، وتبين ان الخلية الارهابية تتكون من حوالي عشرين مستوطنا يهوديا كرّسوا انفسهم لقتل العرب وتخويفهم، ومع هذا قامت الشين بيت بمعاملة اليهود بطريقة ألطف من معاملتها للارهابيين العرب، واعترف المشبوهون وحوكموا وادينوا وحكم عليهم.

بينما كان بيغن، رئيسا للوزراء، تعرض للانتقادات لأن الحركة السرية اليهودية تتحدى القانون والنظام، ولم يظهر أي صبر أو رحمة ازاء التهديدات التي تنطلق من الخارج، فالسلام مع مصر لم يكن يعني انه اصبح ليناً، كما اثبت بيغن بقرار جرىء في عام ١٩٨١، ففي الرابع من حزيران قامت اربع عشرة طائرة اف ١٦ واف ١٥ من سلاح الجو الاسرائيلية بتدمير المفاعل الذري العراقي في بغداد، وتظهر خلفية الهجوم دور مجتمع المخابرات الرئيسي في سياسة بيغن الخارجية الجريئة. فقد كانت الموساد وامان ترقب وتترقّب من اللحظة الاولى التي ظهرت فيها نوايا العراق لشراء مفاعل ذري من فرنسا، فلم يكن الزعماء الاسرائيليون ينامون الليل اذا لمسوا امكانية حصول اي بلد عربي، خاصة العراق الراديكالي ـ على اسلحة ذرية يمكن أن تهدد الدولة اليهودية.

في تشرين الثاني ١٩٧٥ وافقت فرنسا، رسميا، على تزويد العراق بمفاعلين ذريين صغيرين، واحد للبحوث، والآخر اكبر، بطاقة ٧٠ ميغا واط، وقد أسمى العراقيون المشروع تموز، نسبة الى اله كنعاني، واشارة الى الشهر الذي جاء فيه حزب البعث الاشتراكي الى السلطة عام ١٩٦٨.

إلى أن أصبح بيغن رئيس وزراء عام ١٩٧٧، كانت الحكومة الاسرائيلية تستخدم الدبلوماسية الهادئة لثني فرنسا واقطار اخرى، مثل ايطاليا والبرازيل، عن تزويد العراق بالمعدات واليورانيوم والمعارف الفنية، والتي كانت قد وافقت على تقديمها لمشروع تموز، كما طلبت اسرائيل من الولايات المتحدة ان تتدخل املاً في أن تنجح حملة الرئيس كارتر لمنع انتشار الاسلحة الذرية،

في التأثير على فرنسا، لكن الوسائل الهادئة لم تفلح، واستمر انشاء المفاعلات الذرية في موقع سري قرب بغداد.

قرر بيغن انتهاج ساسة جديدة تماما، فاستدعى رؤساء اجهزة المخابرات، واعلن ان تدمير المفاعل الذري العراقي واحد من اكبر اهداف اسرائيل الوطنية، وامرهم بيغن ببذل كل جهد ممكن للحصول على المعلومات عن مفاعل تموز واحد: مدى سرعة بنائه ومدى التعاون بين العراق والاقطار الاخرى.

كان بيغن يحمل مبدأ جديدا: لن تسمح اسرائيل لاي بلد عربي بان يطور قدرات ذرية هجومية.

بدأت كتائب بيغن السرية العمل، فوصل فريق من العملاء الى طولون، في فرنسا، بطرق مختلفة، في الاسبوع الاول من نيسان ١٩٧٩، وكان هدفهم مخزن كبير في المدينة الساحلية لاسين مورمير، حيث كان جزءان مهمان لمفاعلي تموز الذريين بانتظار الشحن الى العراق وقد قالت السلطات الفرنسية فيما بعد ان المهمة حرفية جدا: تثبيت المتفجرات بالمعدات نفسها وتوقيتها على الساعة الثالثة صباحا، وعدم وجود أي أثر عند حدوث الانفجار.

ادعت جماعة بيئية فرنسية مسؤوليتها عن التفجير لكن ذلك لم يؤخذ على محمل الجدّ، فقد استنتجت وكالة المخابرات الفرنسية ان تدمير المعدات الذرية كان عملا لمصلحة اسرائيل، وربما نفذته الموساد.

أمل بيغن ومجتمع المخابرات الاسرائيلية في أن يستغل الفرنسيون التفجير كذريعة لالغاء مساعداتها للعراق، لكن أمالهم تبددت خلال فترة قصيرة، حيث اعلنت الحكومة الفرنسية انها ستحترم اتفاقياتها مع العراق وانها ستوفر له معدات جديدة.

لجأ بيغن الى ما اعتبره آخر مسار للعمل: الخيار العسكري ضد العراق نفسه، وبتنسيق مع رئيس هيئة الاركان رافائيل ايتان، أمر بيغن الموساد وامان ان تتحريا امكانية هجوم مباشر من قبل القوات الارضية - سواء رجال كوماندو او بعض المسلحين غير النظاميين - على المفاعل الذري العراقي، فالمتفجرات التي يزرعها الاشخاص اكثر دقة من الهجوم من الجو، لكن الجنرال ايتان امر سلاح الجو باقامة نموذج مماثل للمفاعل، استنادا الى تقارير التجسس، والتدرّب على قصفه.

وعندما بدأت الاستعدادات للهجوم، ظهرت خلافات كبيرة بين صانعي السياسة الاسرائيليين، حيث يتم التفكير والتخطيط لغارة على بغداد، وهي على بعد اطول مما حاول سلاح الجو طوال حياته، عندما كانت الانتخابات العامة تلوح في الافق، فقبل بضعة اسابيع من التوجه الى صناديق الاقتراع، يوم السابع من حزيران ١٩٨١، علم زعيم المعارضة شمعون بيريز

وجنرالات الجيش السابقون من حزبه، بالخطط من اصدقاء وزملاء سابقين في المؤسسات العسكرية والاستخبارية. فتحدث بيريز مع بيغن وحثه على عدم مهاجمة العراق، حيث كان زعماء حزب العمل يخشون من ان تؤدي الغارة على المفاعل الى تقوية شعبية الليكود وبيغن بين الناخبين.

كما ان بعض الاصوات الاكثر نفوذا في مجتمع المخابرات عارضت الخيار العسكري المباشر، فقد كان رئيس الموساد اسحق هوفي، وشلومو غازيت رئيس امان الى ان حلّ ياهو شوا ساغوي محلّه في شباط ١٩٧٩، يريان ان المفاعل الذري العراقي لن يصبح «حارّاً» إلا بعد فترة طويلة، وهي المرحلة التشغيلية التي يمكن عندها ان يبدأ المفاعل في تشكيل خطر حقيقي. واقترح رجال المخابرات الذين يمثلون اغلبية، القيام بمبادرة دبلوماسية اكثر حزماً، وحذروا من ان قصف بغداد قد يدفع العراق وايران لانهاء حربهما، والتوحدّ ضد اسرائيل. في الوقت الذي بدت فيه الحرب التي بدأت عام ١٩٨٠ وكانها تخدم مصالح اسرائيل ـ كما يمكن ان يثير القصف موجة كبيرة من الادانة الدولية.

من ناحية أخرى فان ائتلافا قويا من وزراء الليكود بقيادة اريل شارون قد احتشد حول الجنرال ايتان في تأييد الغارة، وكان رئيس الوزراء بيغن مقتنعا بالفكرة، وقام ضابط أمان، ساغوي بتخطيط العملية بحماس وكفاءة، وتم تنفيذ الهجوم بدقة قبل ثلاثة أيام من يوم الانتخابات، وانتصرت كتلة الليكود واصبح بيغن رئيسا للوزراء لفترة ثانية.

لقد تبين ان وجهة نظر بيغن ـ شارون ـ ايتان ازاء الانعاكسات الدولية مصيبة، كما ثبت خطأ التحذيرات المخيفة التي انطلقت من بيريز، وهوفي وغازيت واشخاص آخرين من المخابرات. لقد عانت اسرائيل من اضرار دبلوماسية ضئيلة، لأن الاميركيين والسوفيات شعروا بارتياح لتدمير برج بابل الذري العراقي. فلم تتحدث القوتان العظميان كثيرا، والأهم من ذلك ان رئيس فرنسا الجديد الاشتراكي، فرانسوا ميتران، استغل الهجوم كذريعة لتخفيف التعاون الذري مع العراق، وقررت فرنسا عدم تعويض المفاعل الذري الذي دمرته اسرائيل.

* * *

كان الهجوم على بغداد نقطة الانطلاق لنهج حكومة بيغن الجديد ازاء المشاكل على الجبهة الخارجية، بعد اعادة انتخاب الليكود في عام ١٩٨١، فقد كان رئيس الوزراء عدوانيا ومغامرا عندما يشعر ان ذلك ضروري للدفاع عن اسرائيل، وقد اصيب بعض وزرائه بالدهشة من رغبته في الاقدام على المجازفات.

كان هنالك تعبير واضح عن لهجة السياسة للفترة الثانية، وهو تعيين شارون وزيرا للدفاع،

فطوال اكثر من سنة، اصر بيغن على حصر شارون في وزارة الزراعة، وبدلا من اعطاء شارون المنصب الذي كان يتمناه ـ احتفظ بيغن بحقيبة وزارة الدفاع لنفسه، بعد استقالة عايزر وايزمن احتجاجا على النهج الجديد المولع بالقتال، وفي استمرار بيغن في المقاومة علّق قائلا: «في اليوم الذي يتم فيه تعيين شارون وزيرا للدفاع، فانه سيحيط مكتب رئيس الوزراء بالدبابات».

لقد كان احتلال شارون لوزارة الدفاع حلماً راوده منذ سنين، ومع هذا لم يكن المنصب كافياً، فبطريقة أو أخرى، كان ما يزال يتمنى السيطرة على مجتمع المخابرات. وكان قد اقنع بيغن بتعيين رافي ايتان، وهو صديق قديم لشارون، مستشارا لرئيس الوزراء حول مكافحة الارهاب، وحتى لا تخلط بين رئيس هيئة اركان الجيش رافائيل ايتان، فان رافي ايتان كان رجل المخابرات المتقلب الذي احرز اكبر نجاح له في فريق اختطاف ادولف ايخمان عام ١٩٦٠.

يعرف رافي في دائرة المخابرات بـ «رافي ها مزراحي»، أي رافي ذي الرائحة، ولد في عام ١٩٢٦، في كيبوتس عين حارود، في وادي جزريل، وبعد ان ذهب مع أمه الى السينما ذات مرة قال لها: اريد ان اكون جاسوسا مثل ماتا هاري، وقد استطاع ان يحوّل ايتان خيالاته الطفولية الى واقع طفولي، لانه كان يقوم بمهمات سرية للهاغانا وهو في الثانية عشرة. وقد جرح في ١٥ ايار ١٩٤٨ ثم التحق بوحدة مخابرات في الجيش وجند من قبل ايسر هاريل وخدم في دائرة العمليات المشتركة التابعة للشين بيت والموساد. وعمل رسميا في الشين بيت من ١٩٥٠ حتى ١٩٥٣، ثم انتقل الى الموساد حيث أصبح رئيس العمليات، وقد شارك في كل عمل قام به مجتمع المخابرات، وعندما شنق ايخمان في عام ١٩٦١، كان ايتان شاهدا في السجن، وقد كانت آخر كلمات ايخمان التي وجهها لايتان: ارجو ان تلحق بي قريبا.

شعر العميل المخضرم انه مضطر للاستقالة في عام ١٩٧٢ عندما علم بانه لا يجد اية فرصة لاختياره رئيسا للموساد، محلّ زفي زامير، فقد كان على خلاف شديد، وظيفي وشخصي، مع زامير، ثم مع خليفته هوفي، عندما استدعى ايتان كمستشار، وبدأ ايتان يشترك مع صديقه شارون في وجهة نظره بان الموساد في حاجة الى اصلاح وترويض وإضعاف!

وفي عام ١٩٧٢، عندما كان ايتان في السادسة والاربعين، جرب حظه في كل دروب العمل، من تربية الاسماك الى الاتجار في اراضي الضفة الغربية، لكنه لم ينجح، فانقذ شارون صديقه القديم من الغرق في مزيد من الملل واعاده الى الخدمة الحكومية في عام ١٩٧٨ كخبير رسمي في مكافحة الارهاب: وهو منصب تنسيق لا صلاحية له، على هامش مجتمع المخابرات.

* * *

اكتشف شارون ايضا، داخل وزارة الدفاع، كنز المخابرات المعروف باسم لاكام ـ مكتب

الارتباط العلمي - وهو مكتب لم يكن معروفا الا لدى قلة من الناس، ودرس شارون تاريخ لاكام، في الملفات السرية للوزارة، ولاحظ كيف حولت الوكالة نفسها من حماية أمن مفاعل ديمونا الى دور أوسع يتمثل في شراء المواد التي يحتاج اليها دفاع اسرائيل.

كان الكثيرون في جهازي الدفاع والمخابرات يعتبرون مدير لاكام، بنيامين بلومبرغ عبقريا، مع ان واجباته ونشاطاته لم تكن معروفة. لكن لم يكن شارون سعيدا حين لاحظ ان لاكام قد أصبحت «اقطاعية» تفعل كل ما تريد دون الشعور بانها مسؤولة أمام أحد!

حين كان القياديون في مجتمع المخابرات يطلبون تقريرا عن أعمال لاكام، كان بلومبرغ يتجاهلهم، وكان وزير الدفاع دايان قد اعطى وكالة الارتباط العلمي السرية جدا تاييده الكامل، لكن دون ان يرغب في معرفة شيء عنها، وقد فوض المسؤولية على لاكام لمساعده الجنرال زفي زور، وقد أطلق الجنرال، الذي كان رئيس هيئة اركان الجيش في اوائل الستينات، الحرية المطلقة، وازداد الموقف الليبرالي عندما عاد شمعون بيريز الى وزارة الدفاع في عام ١٩٧٤ بعد غياب احدى عشرة سنة - كوزير للدفاع محلّ دايان بعد اذلال حرب يوم الغفران.

من بين الاسرائيليين القلائل الذين كانوا يعرفون لاكام، كان هنالك من شكوا من انحياز بلومبرغ لاصدقائه، يعطيهم المعلومات ويكلفهم بالمهمات المفتوحة التي جعلتهم اغنياء، بل سرت شائعات بان رئيس لاكام كان يستفيد شخصيا، مع ان قلة من الناس شكوا في استقامته ونهج حياته المتواضع، ومع هذا شعرت سلطات وزارة الدفاع ان عليها ان تنظر في الشكاوى حول ادارة لاكام المثيرة للتساؤل.

بعد ان تولى مناحيم بيغن وكتلته اليمينية في الليكود، السلطة في ايار ١٩٧٧ زادت المحاولات الرامية الى تنحية بلومبرغ، فقد كان في عيون الادارة الجديدة مرتبطا بمؤسسة حزب العمل القديمة.

شك نائب وزير الدفاع الليكودي، الجنرال موردخاي زيبوري، في ان بعض عمليات لاكام تشمل تحويل الاموال الى حزب العمل، وقد حاول اقناع رئيسه، عايزر وايزمن، بترميج بلومبرغ في عام ١٩٧٩ على أساس انه لا يوجد اي ضوابط له، وعقد وزير الدفاع وايزمن اجتماعا وضمن موافقة بلومبرغ على أن يبلغه بالامور بشكل اكبر واكثر تكرارا.

***

قرأ شارون تاريخ لاكام، واستمع الى عدة مستشارين، ثم اخذ الشكاوى ضد بلومبرغ على محمل الجدية اكثر من سلفه وايزمان، وكان ذلك اكثر من مجرد شكاوى حيث كانت اتهامات

بوقوع اخطاء واساءات من قبل موظفي لاكام الذين وفروا الادلة على ان الوكالة كـانت تنقل الاموال التي كانوا يحصلون عليها بطرق غير مشروعة.

بالنسبة لشارون، لم يكن في حاجة الى تفصيلات لطرد بلومبرغ، فقد كان وزير الدفاع الجديد قد خطط لتعيين رجله المناهض للعمل لكنه كان يملك المبرّر، وانتشرت الشكاوى كشائعات، ثم كبرت لتصبح افتراءات ومع ان معظمها كان بلا اساس الا انها سهّلت الطريق امام طرد بلومبرغ، فبعد عقوده الثلاثة التي قضاها في مجتمع المخابرات، بما فيها اكثر من عشرين سنة كرئيس للاكام، انفجرت عاصفة شديدة حول رحيله في عام ١٩٨١ ـ لكن داخل مجتمع المخابرات فقط، حيث لم يرد أي ذكر للأمر في الصحافة الاسرائيلية.

حتى يفرض النظام وينفذ مشيئته، سارع شارون الى تعيين صديقه رافي ايتان مسؤولا عن لاكام، ولاول مرة منذ ايام روفن شيلوه، والشهور التسعة من وظائف مائير اميت المتداخلة، فان مسؤولا كبيرا في مجتمع المخابرات لم يلبس فقط قبعتين في وقت واحد، بل كان تابعاً لرئيسين معاً، ففي منصب مستشار رئيس الوزراء حول مكافحة الارهاب كان ايتان تابعا لبيغن، بينما كان تابعاً لشارون لانه رئيس للاكام.

كان الانقلاب في لاكام خطوة هامة في محاولات شارون الرامية الى أن يصبح الشخصية المهيمنة في مؤسسة الأمن ـ المخابرات في اسرائيل ووقفت منظمتان مستقلتان في طريقه، وهما الشين بيت والموساد، وكان شارون يعرف انه لن يجد أي رئيس وزراء يوافق على التنازل عن اشرافه الوزاري المباشر على هاتين الوكالتين، لكنه أمل في اقناع بيغن بان يستبدل رئيسيهما، وكان حريصا، بشكل خاص، على ازاحة اسحق هوفي من الموساد.

لم يجيء العداء بين شارون وهوفي فقط من خلافات اساسية في وجهات نظرهما حول سياسات ودفاع ودور المخابرات، بل شمل العداء تيارا دفيناً من الكراهية المتبادلة التي تعود الى سنوات كثيرة، ففي اعقاب حملة السويس عام ١٩٥٦ «ثار» اربعة قادة كتائب في لواء المظليين ضد رئيسهم اريل شارون، وكان زعيم «الثوار» نائبه اسحق هوفي، وفي افتراضهم بان قائدهم جبان، قالوا ان شارون لم يقد رجاله الى المعركة، كما كان يزعم دائما بان قيادتهم واجب آمرهم، وقالوا انه كان يفضل البقاء في المؤخرة.

لجأ شارون والثوار الى ضابطين محايدين لتسوية خلافهما، لكن الوسيطين توصلا الى نتائج متضاربة، ولم يتفقا على الحكم بينهما، وظل هذا المشهد الغريب سرّا لسنوات كثيرة، لكن شارون معروف بان له ذاكرة فيل ولم ينس عصيان هوفي.

كان شارون ينوي ان يغتنم فرصة عمره لتصفية حسابه القديم مع هوفي، وقد زاد تدمير المفاعل الذري العراقي في حزيران ١٩٨١ من فرص تحقيق ذلك، فقد اثار هوفي سخط بيغن عندما نصح بعدم شن الغارة على بغداد.

لكن رئيس الموساد لم يخف من شارون، فقد كان هوفي يدرك انه خلال اثني عشر شهرا سيكمل ثماني سنوات في الموساد، فقد كان وقت التقاعد يقترب، وعلى أية حال، وبدلاً من اتخاذ موقف دفاعي بيروقراطيا، قام هوفي بهجوم قوي لم يسبق له مثيل.

في ١٨ حزيران ١٩٨١، ودون ان يسعى الى إذن بيغن، أجرت صحيفة هارتس الاسرائيلية مقابلة مع هوفي على أنه «رئيس الموساد المجهول» وحذرت السياسيين من المغالاة في التحدث حتى ينسبوا لأنفسهم الفضل للغارة الجوية على المفاعل العراقي.

وفي الوقت الذي لم يكن بالامكان ذكر اسمه في المقابلة، حسب القانون الاسرائيلي - فان تصريحات هوفي ابرزت للمرة الاولى ان رئيس الموساد قد تمت مقابلته وادعى أنه «بسبب المعلومات العديدة التي تسربت لوسائل الاعلام عن قصف بغداد فان اضراراً فادحة قد وقعت وقد تؤثر على مصادر المعلومات والعلاقات مع أطراف خارج اسرائيل».

وحسب طبيعة الاشياء، فان هذه المقابلة أدت الى تفسيرات وتخمينات حول من كان رئيس الموساد يقصدهم، وقد أعطى عدد من الصحفيين كانوا اصدقاء حميمين لهوفي، الاجابة المطلوبة: فقد قالوا أنه كان يشير الى شارون والكاتب الصحفي اليومي أوري دان، وهو أحد أقرب أصدقاء الوزير المثير للجدل.

وكما يمكن أن يكون متوقعا، ردّ شارون على هوفي بنفس الطريقة، فقد نشر دان نفسه مقالة هجومية شنيعة على رئيس الموساد الذي لم يذكر اسمه في عدد معاريف المسائي، قائلا ان المقابلة وفرت للمعارضة العمالية سلاحاً، وان رئيس المخابرات كان يقصد ذلك الهدف المحدد: خدمة حزب العمل الذي عينه في منصبه.

وادعى دان ايضا ان هوفي كان على اتصال مستمر بقادة المعارضة، وانه كان يسرّب لهم الاسرار، وانه كان يضلّل رئيس الوزراء بعدم تزويده بالمعلومات الدقيقة عن المفاعل الذري العراقي، وقد طالب كاتب معاريف بيغن بان يطرد رئيس الموساد.

رفض رئيس الوزراء الاستجابة لدعوة دان، مع انه كان معروفا ان القوة التي تكمن وراء المقالة هو شارون، بل ان بيغن نفسه قد غضب من المقابلة التي أجريت مع هوفي بلا اذن، لكن مقالة دان اعتبرت غاضبة جدا، ومنحازة جدا، ومثيرة للشقاق السياسي، ولم يكن محررو معاريف

راضين فترك دان الصحيفة ليتولى منصبا آخر: مستشارا اعلاميا لشارون، وناطقا باسم وزارة الدفاع.

ومع هذا فقد كان هوفي ما يزال رئيسا للموساد، وكتكتيكي عسكري ذي خبرة، رأى شارون ان اهدافه لم تتحقق بهجوم مواجهة وغيرطريقته ليعمل وفق استراتيجية غير مباشرة، فقد ساعد في انشاء عدة «منتديات» ومعظمها تشكيلات فكرية غير رسمية تضم مسؤولين حكوميين ومواطنين مدنيين عاديين، وكان الخصوم السياسيون يشيرون الى هذه الاجتماعات في مكتب وزير الدفاع في تل ابيب بانها «غرفة الحرب» او «ديوان اريك».

وكان من بين المشاركين فيها اصبح اداة متنفذة رافي ايتان، وهو عميل موساد سابق، وريهافياه فاردي الذي عينه شارون «كمنسق» للحكومة في الاراضي المحتلة، والجنرال ابراهام تامير، مساعد الوزير للتخطيط والاستراتيجية، وتاجر الأسلحة الخاص وعضو امان المخضرم يعقوب نمرودي، ودافيد كيمحي العميل المخضرم في افريقيا الذي كان الرجل رقم ٢ في الموساد قبل ان يترك ليصبح المدير العام لوزارة الخارجية.

طوال ربع قرن، منذ اليوم الأول لانضمامه الى الموساد كاكاديمي بريطاني المولد، في عام ١٩٥٣، حلم كيمحي برئاسة الوكالة، وفي نهاية السبعينات اعتقد كيمحي انه وجد فرصة ممتازة لأن بيغن اعتبره خليفة هوفي الطبيعي، لكن هوفي لم يكن ليسمح بذلك حيث كان ساخطا جدا على كيمحي لأنه كان يتصرف كما لو كان منظمة قائمة بذاتها، حيث كان يختفي بين الحين والآخر في مهمات غامضة لم يكن احد آخر يعرف بها، بمن فيهم رئيس الوكالة، وكان كيمحي الذي يجوب العالم معروفا في الموساد بانه «الرجل ذو الحقيبة» كما أن هوفي اتهم نائبه بانه يبدّد الاموال، ومع أن كيمحي نفى كل التهم فانه لم يكن راغبا في البقاء في مكان لم يكن مرغوبا فيه فاستقال من الموساد في عام ١٩٨٠.

قبل كيمحي عرضا بوظيفة من زميله السابق في الموساد، وزير الخارجية اسحق شامير، واصبح كيمحي المدير العام لوزارة الخارجية، رغم عدم تخليه عن طموحه بان يكون ذات يوم رئيس الموساد وحافظ على الاتصال مع زملائه القدامى وواصل متابعة ما كان يجري في الوكالة.

بدأ رافي ايتان، مخضرم الموساد ذو الطموحات المماثلة، بتوسيع نشاطات لاكام، مكتب الارتباط العلمي الذي اعطاه له صديقه شارون، ولم تتوقف اهتمامات الوكالة عند الارتباط العلمي، وقد حقق ايتان زيادة بمقدار عشرة اضعاف فيما يصفه المحترفون في المخابرات «بالانتاجية»، فاذا كان رجال لاكام يضعون ايديهم على مئتي وثيقة في السنة في أيام بينيامين بلومبرغ فان الرقم السنوي في عهد ايتان وصل الى ألفين.

بدأت لاكام دخول المناطق غير التابعة لأحد والتي كانت من مهمات الموساد، كما وجد ايتان نفسه في مجابهات وخلافات مع الموساد، عندما كان يتصرف ضمن صلاحيته الاخرى كمستشار لرئيس الوزراء حول مكافحة الارهاب.

سخط هوفي من عمليات ايتان المستقلة وشكا رئيس الموساد لبيغن ولزملائه رؤساء الأجهزة السرية في لجنة فاراش.

كان شارون يتلقى من لجنة المخابرات اخبارا جيّدة اكثر عندما استبدل ابراهام اشيتوف كرئيس للشين بيت، بابراهام شالوم الذي كان في السابق يسمى بندور، وكان صديقا قديما لرافي ايتان وعمل معه في العمليات الميدانية بما فيها اختطاف ايخمان في الارجنتين عام ١٩٦٠، فقد كان شارون وشالوم يعملان على نفس الموجة حول قضايا كثيرة.

وسرّ شارون باحتمال ان يتولى واحد آخر من حلفائه المنصب في الموساد، فقد كان الجنرال ياكوتيل (كوتي) آدم، وهو رجل عسكري عمل في مشروعات مشتركة مع وكالة التجسس، الرجل المفضل لدى بيغن لخلافة اسحق هوفي، وكان آدم وشارون مظليين في الخمسينات.

ازدادت ثقة شارون بنفسه، ولم يتورع عن القيام بمحاولات لاعادة رسم سياسات اسرائيل الخارجية والدفاعية، وفي كانون الأول عام ١٩٨١، القى وزير الدفاع الجديد خطابا شاملا اعلن فيه ان مصالح اسرائيل الامنية تتجاوز منطقة مجابهتها المباشرة مع الدول العربية، وانها تشمل باكستان واقطار شمال افريقيا، بل اجزاء أبعد في افريقيا.

لم يقتصر شارون على الكلام، فقد حاول ترجمة كلماته في مشروعات سياسية واستراتيجية واستخبارية.

ووجدت الموساد نفسها في مواجهة النشاطات المستقلة لاصدقاء شارون: عميل الموساد السابق نمرودي، وشريك نمرودي التجاري آل شويمر، المدير السابق لصناعات الطائرات الاسرائيلية. وكانت معاملاتهم تقودهم في اغلب الاحيان الى الاتصال بتجار وسياسيين عرب، وكان شارون مستشارهم السياسي وقناتهم الى مراكز القوى الاسرائيلية.

واصل نمرودي، الذي كان قد خسر ملايين الدولارات عندما اطاحت الجماعات الاسلامية بقيادة اية الله روح الله الخميني بشاه ايران، واصل العمل لصالح الاتصالات الغربية مع طهران، وكخبير مطلع، أمل في أن يعيد الغرب الى سوق من ٤٥ مليون ايراني، وأمل في استعادة استثماراته التي خسرها، وقد اعتبر نفسه وطنيا ممتازا لكن الخط الذي فصل مصالح نمرودي الخاصة عن مصالح دولة اسرائيل كان يغلب عليه الغموض.

كان نمرودي وشويمر يلتقيان مع البليونير السعودي عدنان الخاشقجي، واشتركوا في عدد من المشاريع التجارية وسعدوا بافكار تجارية، اعتقدوا انها ستؤدي الى السلام في الشرق الاوسط، وكان الرجال الثلاثة يؤمنون بالتعايش من خلال التعاون الرأسمالي. وساعدت العلاقة مع الخاشقجي في حصول نمرودي على وثيقة سياسية وضعها ولي العهد السعودي، الأمير فهد، وقد عرفت هذه الوثيقة «بمشروع فهد» الذي تحدث لأول مرة عن الاعتراف السعودي بالدولة اليهودية، وحملها نمرودي الى اسرائيل حتى قبل نشرها في الرياض، وقد تأثر بالوثيقة واحب الفكرة التي كان كل السعوديين يريدونها، مقابل العمل من اجل السلام والاعتراف المتبادل بين اسرائيل والعالم العربي، يكون للسعوديين الحق في وضع العلم السعودي فوق الاماكن الاسلامية المقدسة في القدس الشرقية كرمز لرعاية تلك المقدسات مثلما هو الحال في مكة والمدينة.

لكن رئيس الوزراء بيغن غضب من نمرودي لأنه حاول أن يصور الوثيقة بانها معتدلة، فلم يكن بيغن يفكر في أي تخلّ عن السيادة الاسرائيلية على القدس، ولم يرغب في النظر في تفاصيل الوثيقة، وحسب وجهة نظر بيغن، فان كلمات فهد مجرد اعادة صياغة للتطرف العربي القديم تعكس محاولة لاجبار اسرائيل على التسليم بما اعتبره بيغن تراب الوطن اليهودي.

غير ان المشروع السعودي لم يكن شيئاً يذكر اذا قورن بالمشاريع التي تدير الرأس والتي طبخت خلال عدد من الرحلات السرية في اواخر ١٩٨١ و ١٩٨٢، ويمكن تلخيص شبكة الاتصالات السرية بانها قضية ايرانية ـ سودانية تربط اسرائيل والسعودية، وقد بدأ نسج خيوط الشبكة في شمال افريقيا. طار نمرودي وشويمر، كضيفين على الخاشقجي على طائرته الضخمة من طراز دي سي ٨، من اوروبا الى المغرب لاجراء محادثات مع كبار ضباط الجيش الايراني الذين يعيشون في المنفى منذ الاطاحة بالشاه، وقد اجتمعوا ايضا مع ابن الشاه، الامير رضا بهلوي الذي كان يطلق عليه «الشاه الولد»، ومع انه كان شخصية ضعيفة الا أن وكالات المخابرات الغربية كانت مهتمة برضا على انه شخص يمكن ان يؤثر، وساعدته السي آي ايه في بث رسائل اذاعية وتلفزيونية سرية الى ايران حيث وقعت كلماته على آذان صمّاء.

كان الشاه الصغير قد استقر في المغرب، مع حاشية من الخدم والرجال العسكريين، يخططون لعودة مستحيلة الى السلطة في طهران، وقد اخبروا نمرودي وشويمر والخاشقجي ان كل ما هو مطلوب هو دعم مالي لشراء الاسلحة ودفع رواتب لقوة من المرتزقة التي يمكن ان تطيح بآيات الله.

وظن الاسرائيليان ان مثل هذا الانقلاب يمكن ان ينجح، وعادا مسرعين الى اسرائيل ليخبرا شارون، وبدت احلام الشاه الصغير متلائمة مع تطلعات شارون الجيوستراتيجية الأوسع، وقد ذهل اصدقاء وزير الدفاع. وبعد سلسلة من المكالمات الهاتفية الدولية

والاجتماعات المطولة، تجمعت مجموعة اكبر من المخططين في افريقيا. واجتمعوا في نادي ماونت كينيا سفاري، وكان ذلك في الثالث عشر من ايار ١٩٨٢، قرب الحدود التانزانية - يفصلهم عن نيروبي حوالي مئة ميل من الاراضي الرعوية حيث الحياة البرية بلا قيود، وكان المكان منتجعا يملكه الخاشقجي، وقد اجتمع ستة اسرائيليين، وسودانيان وسعودي تصافحوا بين الزهور والاشجار التي تنوء بما عليها من فواكه.

كانت النية ان يظل الاجتماع سرّاً، لكنهم كانوا في منتهى الارتياح حتى ان واحدا منهم التقط صورا للاخرين بينما كانوا يتحدثون، فقد كان بين الحضور اريك شارون وزوجته ليلي - التي كان يصطحبها الى كل مهماته السرية تقريبا - وكان يفيض بسحره على الاجانب الذين كانوا، بشكل رسمي، اعداءه!

إلا أن القضية التي ناقشوها كانت بالغة الخطورة، فقد كان السودانيان الرئيس جعفر النميري ورئيس مخابراته ابو الطيب، وهنا يقول شارون: لقد فوجئت بان الرئيس السوداني لطيف ومؤدب جدا.

كان النميري حسن الاطلاع ومتفهّماً واتفق مع شارون على أن عدوهما المشترك هو ليبيا، وكان الزعيم السوداني يرغب في النظر فيما هو أبعد من التعاون، الذي كان قد بدأ بمشروع المخابرات الاسرائيلية لترحيل اليهود الاثيوبيين، وكان للاسرائيليين في ذلك الوقت - في شخص شارون وحاشيته - مشاريع اكبر للنميري واراضيه.

كان وزير الدفاع هناك مع نمرودي وشويمر وكيمچي وتامير وكانت خطتهم الاساسية تحويل السودان الى مخبأ اسلحة ضخم «لمشاريع خاصة»، وسوف تقدم جهات التمويل: وقد أخبر الخاشقجي ضيوفه انه حظي بموافقة مسؤول ما على توقيع شيكات تصل قيمتها الى ٨٠٠ مليون دولار - وقال مبتسماً: واذا لزم الامر فقد تصل القيمة الى بليون دولار.

وتجيء اسرائيل بالاسلحة، سواء محلية الصَنع او من الفائض المستولى عليه، ويمكن ان تضم الترسانة ما هو اكثر من البنادق ومدافع المورتر والرصاص، حيث يمكن ان تشمل ايضا الدبابات والطائرات والصواريخ.

كانت الجزرة بالنسبة للنميري الاموال التي ستدفع لبلده ولجيبه الخاص، وكوسطاء يمكن ان يكون نمرودي وشويمر والخاشقجي فعالين في شراء الاسلحة وبيعها ويستفيدوا من العمولات المعتادة التي تدفع للوسطاء.

بالنسبة لشارون، كانت هنالك فرصة للفوز بطلبية تصدير ضخمة، والتي يمكن ان تشمل اسلحة استولت عليها اسرائيل من رجال منظمة التحرير الفلسطينية والجيوش العربية على مرّ

السنين، كما ان خطة بناء ترسانة في السودان وفرت المفارقة المضحكة بامكانية جعل السعوديين يدفعون لاسرائيل ثمن الاسلحة والذخيرة التي اشترتها منظمة التحرير الفلسطينية والدول العربية أصلاً بمساعدات مالية سعودية.

لمن كانت كل هذه الاسلحة؟ لقد كانت ايران على رأس القائمة، وكان يمكن للشاه الصغير وجنرالاته المبعدين ان يتلقوا الاسلحة التي يريدونها للقيام بانقلاب ضد اية الله الخميني، فبدلاً من المعارضة التي لا تذكر التي اصبحوا يشكلونها فان رضا واتباعه يمكن أن يشكلوا فجأة تهديدا حقيقيا للجمهورية الاسلامية ويعيدوا ايران الى احضان الغرب.

كما يمكن نقل الاسلحة من المخزن في شمال شرق افريقيا الى قوات الثوار الذين يقاتلون الحكومات المعادية لاسرائيل والسودان والمصالح الغربية، ويمكن شن هذه الحروب الاهلية في افريقيا او آسيا او حتى في العالم العربي، وكان المجال مفتوحا لمثل هذا المشروع، واتفق النميري والاسرائيليون على الاجتماع مرة اخرى في الاسكندرية، في مصر، في تموز ١٩٨٢ لمزيد من المباحثات المفصلة.

لقد استبعدت الموساد من اجتماع ماونت كينيا، لكنها اصرت على تلقي تقرير واف، فبعد عودة كيمحي الى مكتبه في وزارة الخارجية، قام باطلاع الموساد بان الرئيس النميري وافق على فتح محطة دائمة في الخرطوم، وقال التقرير ايضا ان شارون ضمن ان يواصل النميري التعاون في نقل اليهود الاثيوبيين.

سرّ اسحق هوفي لوجود محطة موساد جديدة في عاصمة عربية، لكنه استاء من استثنائه من الاجتماع مع النميري، وكان الاسرائيليون الذين اقاموا علاقات وثيقة مع عدنان الخاشقجي قد بدأوا في عملية سرية كبيرة دون الموساد، بينما كانت الوكالة لم تكن تحبّ او تثق بملك المال السعودي. وكان «ديوان اريك» يهدد بالزحف الى منطقة هوفي.

علاوة على اعتبارات السياسات الداخلية والتقسيم البيروقراطي، كان لدى محللي الموساد اهتمامات حقيقية بالمشروع الايراني ـ السوداني، ففيما يتعلق بايران، كانت الموساد تعتقد ان الشاه الصغير وجنرالاته العاجزين رجال ولّت ايامهم، حيث ان غزواً على نطاق صغير لايران التي كانت ناجحة في اشغال الجيش العراقي الضخم لن يؤدي الى النصر بل سيقود، على الأغلب، الى مضايقة كبيرة وربما الى كشف مخططي الانقلاب.

وفيما يتعلق بالاهداف الجيوستراتيجية الاوسع للترسانة السودانية المقترحة، فقد كان هوفي والموساد يعتقدون ان شارون يبالغ في قدرات ومصالح دولة اسرائيل، كما كان هنالك اعتراض آخر توصلت اليه الموساد، في هذه الحالة وحالات اخرى، ويتمثل في أنها فكرة غير جيدة ان يثق

الاسرائيليون بالعرب ـ ومن المؤكدعدم الثقةالى حدّ وضع الارواح والاموال والكرامة الاسرائيلية في وضع محفوف بالمخاطر استنادا الى التعاون والنوايا الطيبة لاقطار مثل السودان والسعودية.

كما كان وزير الخارجية شامير، وهو مخضرم في الموساد، متشككا في جدوى وضع ثقة كبيرة في شركاء عرب، ففي تقييمه لمشروع السودان، وقف مع الموساد ولم يغير الحاح المدير العام لوزارته، كيمحي موقفه. لكن رئيس الوزراء بيغن لم يأخذ موقفا محددا، وقال لشارون واصدقائه ان عليهم ان يقدموا ادلة اكثر اقناعا حول امكانية نجاح انقلاب في ايران ـ كخطوة اولى في الخطة الاوسع والاكثر طموحا.

لم تكن الموساد لتسمح للخطة بان تتقدم خطوة واحدة، فقد اعتبرها هوفي فكرة سيئة لاسرائيل، وسيئة للموساد، وارسل واحدا من كبار نوابه في رحلة جوية سرية الى المغرب، عن طريق اوروبا، لمقابلة الشاه الصغير. وأوضح الجاسوس الاسرائيلي الكبير هويته لرضا وقال للامير الشاب: «إنني مخوّل من قبل أعلى الدوائر في اسرائيل، لاخبرك بان الاسرائيليين الذين اجتمعت بهم ليسوا ممثلين ذوي صلاحية. انهم سيجرّونك الى المتاعب فقط. ارجو ان تنسق معنا مباشرة في المستقبل، مع ان هذه الخطة التي تشمل السودان لا تعنينا».

طار مبعوث الموساد عائدا الى تل ابيب، عبر اوروبا ايضا. وانجز مهمته، فقد مات المشروع الذي وضعه شارون ونمرودي وكيمحي والعرب، وكانت طريقة استثنائية لانجاز الاعمال الحكومية. لكن مجتمع المخابرات الاسرائيلية انزلق في معارك بيروقراطية وحسد.

* * *

كان المشروع السوداني الايراني بداية النهاية لاستراتيجية اوسع رسمها شارون خلال سنواته كوزير دفاع، وبينما انهمك في كثير من المشاريع المعقدة، فقد كرس معظم انتباهه لهدف استراتيجي اقرب الى اسرائيل: لبنان جديد، شمال اسرائيل.

كان شارون مصمما على تدمير بنية منظمة التحرير الفلسطينية العسكرية في جنوب لبنان، «دولة ارهابية داخل دولة»، كما وصفها صانعو السياسة الاسرائيليون. وبعد سلسلة من الغارات المسلحة المؤلمة والهجمات بالصواريخ على المدن والمزارع الاسرائيلية في شمال منطقة الجليل، والتي كانت تتلوها عمليات انتقام اسرائيلية على شكل غارات جوية وقصف مدفعي، فقد وافق بيغن على مضض في تموز ١٩٨١ على وقف اطلاق النار، باشراف اميركا، مع منظمة التحرير الفلسطينية، ومع هذا، فقد اتضح ان هذا الاتفاق ضعيف ومؤقت، حيث واصلت الجماعات الفلسطينية المنشقة مهاجمة القوات الاسرائيلية، وكان الجيش وسلاح الجو يتلهفان للردّ.

كان بيغن وشارون يشعران بحقد عميق ازاء منظمة التحرير الفلسطينية، وكان بيغن يشبه

ياسر عرفات بهتلر، وكان واضحا ان اسرائيل ستقوم بمهاجمة المعاقل الفلسطينية في لبنان، لكن الاسئلة الوحيدة كانت: متى سيضرب الاسرائيليون وما مدى كبر وطموح عمليتهم؟

كانت جهود اسرائيل لمتابعة مصالحها في لبنان تشمل دبلوماسية سرية، فقد ظلت الموساد وامان على اتصال وثيق مع ميليشيات لبنان المسيحية ـ الكتائب ـ لمدة ثماني سنوات، وتمت اول الاتصالات في عام ١٩٧٤، حين كان الزعماء المسيحيون يخشون فقدان السيطرة التي يتمتعون بها، وشكل منافسوهم المسلمون ائتلافا مع اللاجئين الفلسطينيين الكثيرين في لبنان، فزادوا قوتهم ونفوذهم وكانوا يطالبون بنصيب اكبر في الفطيرة السياسية، لكن السياسيين المسيحيين رفضوا أية اصلاحات في نظام يناسبهم كثيرا.

تم اقناع زعيمي الميليشيا المسيحية في لبنان، كميل شمعون وبيار الجميل بالدخول في اتصالات مع الدولة اليهودية، وقد عقد شمعون، وهو رئيس جمهورية سابق، والجميل، وزير، محادثات مطولة مع رئيس وزراء اسرائيل، اسحق رابين، واتفق على ان تساعد اسرائيل ميليشيا الكتائب مع أنها بدأت حياتها كنموذج يحتذي بالفاشيين النازيين والاوروبيين الاخرين في الثلاثينات.

وعلى الجانب الاسرائيلي، كانت الموساد مسؤولة عن الاتصالات مع الكتائبيين واهتمت كثيرا ببشير، ابن بيار الجميل، فقد كان الجميل الصغير محاميا لكن في بلد لا قانون فيها، عرف عنه انه جريء وماكر واجرامي، ولم يُبد اي تردد في قتل حلفائه المسيحيين ـ افراد اسرتي شمعون وفرنجيه ـ حتى يكون الحاكم الوحيد للميليشيات.

كجزء من تعليمه في السبعينات، عمل بشير الجميل مع شركة قانونية في واشنطن العاصمة، وقد اتصلت به السي آي ايه ووافق ابن زعيم المليشيات المسيحية على ان يكون مخبراً بأجر لدى السي آي ايه. ودفع الاميركيون آلاف الدولارات واثبتوا انهم احسنوا الاختيار، رغم كون بشير اصغر ستة ابناء لبيار، فقد تقدم بسرعة حتى اصبح مسؤولا عن اكبر ميليشيا مسيحية في لبنان عام ١٩٧٦.

بعد مساعدة الكتائب المسيحية في الصمود في الحرب الاهلية اللبنانية ٧٥ ـ ١٩٧٦، سمح للموساد بفتح «محطة» جديدة، بما فيها جهاز ارسال لاسلكي قوي في ميناء جونية. حيث كان الجميل وعائلته يسيطرون بشكل كامل على الميناء شمال بيروت، وبالاضافة الى موظفي الموساد سافر ضباط الجيش الاسرائيلي الى جونيه حيث اقاموا نظام ارتباط رسميا مع كتائب الجميل وهو أقوى من أي شيء استطاعت اسرائيل ان تحققه في الاقطار العربية الاخرى.

وفي الوقت ذاته، شكل الاسرائيليون ميليشياتهم اللبنانية الخاصة بهم في جنوب لبنان للتصدي لوجود منظمة التحرير الفلسطينية في المنطقة والمساعدة في حماية حدود اسرائيل

الشمالية. وسميت القوة بجيش جنوب لبنـان وكان يسيـطر عليها مسيحيـون محليون في بلدة مرجعيون وحولها، وارتدى جنود هذا الجيش بدلات رسمية اسرائيلية، بعد نزع اشارة الجيش الاسرائيلي، وكانوا يقودون الدبابات وسيارات الجيب التي لم تنزع عنها كل اشاراتها العبرية.

كانت امان مسؤولة عن تدريب وتجهيز وتمويل ولباس جنود جيش جنوب لبنان، كما تلقى أفراد الكتائب من شمال لبنان تدريبا على يد الجيش الاسرائيلي ومن خبراء الموساد والشين بيت فيما يتعلق باساليب الاستجواب والمخابرات، وكان ايلي حبيقه رئيس جهاز الامن والمخابرات الصغير الذي كانت الكتائب قد اقامته بمساعدة اسرائيلية.

لقد دعمت امان والموساد الاتصالات مع الكتائب، معتقدتين بانها توفر لاسرائيل مزايا هامة، فقد مكنت اسرائيل من اقامة شبكة واسعة من المخبرين الذين كانوا يقدمون المعلومات، اولا بأول عن الجماعات المقاتلة الفلسطينية، والجيش السوري والتطورات السياسية في ذلـك الجزء من العالم العربي، وقد تلاءمت العلاقات السرية مع لبنان مع المفهوم «المحيطي» التقليدي للسياسة الاسرائيلية، وكان طبيعيا ان يصبح مسيحيو لبنان اصدقاء اسرائيل لانهم كانوا اعداء المسلمين.

* * *

حتى عام ١٩٨١ لم تتجاوز علاقة اسرائيل بالكتائب مساعدتها في مساعدة نفسها، فقد قال دافيد كيمحي، الذي كان في ذلك الحين مسؤولا عن نشاطات الموساد في الموساد، ان ضباط الارتباط الاسرائيليين في جونيه كانوا دائما يوضحون للمسيحيين بان اسرائيل لن تحارب نيابة عنهم، وامر بيغن، عندما أعيد انتخابه، هوفي بان يوسع ويعمق الاتصالات مع الكتائب، لكن شارون اخذ الامور الى ما هو أبعد من ذلك.

بدأ الزعماء المسيحيون بالضغط على بيغن لزيادة المساعدات الاسرائيلية لهم، وزعموا انهم عرضة للتصفية من قبل السوريين، وقاموا باستفزازات واصدروا تقارير كاذبة لتدعيم ادعاءاتهم. اما بيغن، المتعاطف مع الاقليات المضطهدة، خاصة عندما يكون العرب المسلمون هم الذين «يمارسون الاضطهاد» فقد مال لتصديق الكتائبيين.

عرف شارون الحقيقة ولم يكن لديه أي خوف حقيقي من القضاء على مسيحيي لبنان، لكنه آمن بان بشير الجميل رجل متهور يمكن ان يرغب بل يقدر على تطبيق استراتيجية شارون لاقامة نظام جديد في الشرق الاوسط.

في ليلة الثـاني عشر من كـانون الثـاني ١٩٨٢ تجمعت مجموعـة صغيرة لكن قـويـة من الاسرائيليين في مطار عسكري قرب تل ابيب، وقد شملت اريل شارون، والجنرال تامير وممثلي

الموساد ـ ورئيس امان، الجنرال ياهوشوا ساغـوي وآخرين من كبـار ضباط الجيش، وقـد تم اطلاعهم على كيف عليهم ان يتصرفوا اذا وقع شيء غير محسوب، وكيف يهربـون من ارض معادية عند الضرورة، ثم اقلعوا بطائرة هليكوبتر عسكرية.

كانت رحلة جوية غريبة الى المجهول بالنسبة لهؤلاء الرجال الذين يحملون مسؤولية امن اسرائيل، نظروا الى اسفل، الى عتمـة البحر الابيض المتـوسط، والى الاضواء المتـلالئة عـلى الشواطىء اللبنانية، في محاولة لمعرفة الاماكن التي كانوا يـطيرون فـوقها الى ان رأوا الاضـواء الساطعة لبيروت. ومضت طائرة الهيلكوبتر الى الشمال، الى شريط هبوط في جونية، حيث قام رئيس محطة الموساد المحلي باستقبال شارون وزملائه.

لم يكن بشير الجميل يعلم إلا بأن «مسؤولا اسرائيليا كبيرا سيحضر، لكنه كان قد خمّن من يكون الضيف» وعندما رأى شارون الضخم الجثة ابتسم الزعيم الكتائبي الشاب وقال: كنت أعرف انك ستأتي، وكنت انتظرك.

وخلال عدد من الوجبات السخية، التي تخللتها جولات لعدة مناطق من بيروت، عمل الجانبان على التوصل الى تفاهم عريض واساسي، وعندما عاد شارون الى اسرائيل قال لاصدقائه متباهيا: لقد أنهيت الخطة مع المسيحيين، ونستطيع الآن ان ننفذها فقد قيدت اقدامهم.

بعد خمسة اسابيع تم تأكيد اتفاقيات التعاون عندما طار الجميل الى القدس للاجتماع مع رئيس الوزراء بيغن، فقد اراد شارون ان يقتنع بيغن شخصيا.

ان اعلان وزير الدفاع عن تحالف شامل ومقنع مع الكتائبيين قد أثار جدلا قويا في مجتمع مخابرات اسرائيل، فقد اصرّت امان على ان اسرائيل لا تستطيع ان تثق بالمسيحيين بشكل يكفي لتحريك أية قوات لدعمهم، وكان لدى المخابرات العسكرية تقارير تقول ان للجميل علاقات مع القيادة السورية، ومع منظمة التحرير الفلسطينية الى درجة معينة.

تساءل محللو امان كيف يمكن اعتبار الكتائبيين جديرين بالثقة بينما تحولت بعض الاسلحة التي تلقوها من اسرائيل الى منظمة التحرير الفلسطينية، كما ان بعض الزعماء المسيحيين شاركوا في صفقات خاصة تشمل الاسلحة والمخدرات، وعارضت امان البدء في مشروع عسكري يمكن ان يقود الجيش الاسرائيلي الى مجابهة مع القوات السورية في لبنان.

كان شارون عنيدا في قوله ان الوقت قد حان لتنفيذ خطته الرامية الى تغيير مسار التاريخ، وقد فوجىء الجميع حين وجد شارون حليفا في الموساد، وهي منظمة كان يعاملها بشكّ بالغ.

قال هوفي ان خطة شارون يمكن ان تنجح، وتصرفت الموساد كما لو انها نسيت واحدا من أقدس قواعد المخابرات: عدم المبالغة في الالفة مع المصادر، لقد ادت كل الوجبات السخية التي

استمتع بها رجال الموساد في بيروت، وكل رحلات ردّ الزيارة التي قام بها الكتائبيون سرّاً الى اسرائيل، الى عقد تحالف لم يترك مجالا للاسئلة او الشكوك، فقد كان الجميل ورجاله يوافقون على كل شيء يقوله الاسرائيليون ومضوا الى ما هو أبعد من ذلك حين كانوا يعربون عن كراهية المسيحيين اللبنانيين لمنظمة التحرير الفلسطينية.

بعد ان عرف انه خسر المعركة البيروقراطية الداخلية، وافق الجنرال ساغوي، من أمان، على ان يكون الرجل الذي يخبر حلفاء اسرائيل الاميركيين المهمين، فخلال زيارته لواشنطن في نهاية كانون الثاني ١٩٨٢ حذّر رئيس المخابرات العسكرية وزير الخارجية الاميركي الكسندر هيج من انه اذا استمرت الاستفزازات الفلسطينية فان اسرائيل لن يكون امامها اي خيار سوى غزو لبنان ـ وصولاً الى ضواحي بيروت، وطار شارون الى واشنطن بعد بضعة شهور ليكرر التحذير.

من الثاني حتى الرابع من حزيران كان وزير الدفاع في مهمة سرية ـ رتبتها الموساد ـ الى رومانيا، فتحت ستار زيارة عائلية، كان شارون يعرض «التعاون التكنولوجي» على الحكومة الشيوعية الوحيدة التي أبقت على العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل، وصاحب شارون في زيارته خبراء من الصناعات العسكرية الاسرائيلية وصناعات الطائرات الاسرائيلية.

في الثالث من حزيران تعرض سفير اسرائيل في لندن، شلومو ارغوف لاطلاق الرصاص واصيب بالشلل مدى الحياة على يد فلسطينيين نصبوا له كمينا بعد حفلة دبلوماسية، وكان المسلحون من جبهة ابو نضال المنشقة عن منظمة التحرير الفلسطينية، لكن شارون اعتبر محاولة الاغتيال «عود الثقاب الذي اشعل الفتيل»، واصبح من المؤكد ان اسرائيل ستغزو لبنان، آملة في ان يساعدها المسيحيون اللبنانيون في القضاء على منظمة التحرير الفلسطينية.

في السادس من حزيران بعث شارون بقواته عبر الحدود، وكانت الحرب الثانية التي تبدأها اسرائيل، حيث كانت الاولى حملة السويس في عام ١٩٥٦، وقد تبين ان الحرب «واترلو» شارون، فكما كانت امان قد حذرت شارون فان القوات المسيحية لم تلتزم بوعدها، ولم يساعدوا الاسرائيليين في محاربة منظمة التحرير الفلسطينية كما رفض الجميل فيما بعد توقيع معاهدة سلمية مع اسرائيل، وغرق شارون في المستنقع اللبناني.

كان الهدف المعلن اجتثاث مواقع المدفعية والصواريخ الفلسطينية التي كانت تهدد المدنيين في شمال اسرائيل، وقد أطلق على الغزو: عملية سلامة الجليل.

كان زعماء اسرائيل يعايشون آمالاً اوسع تتمثل في ان الحاق هزيمة ماحقة بمنظمة التحرير الفلسطينية سينسف الولاء الذي يشعر به الفلسطينيون في الضفة الغربية وقطاع غزة نحو منظمة التحرير الفلسطينية، وكان بيغن يرغب في تقوية قبضة اسرائيل على الاراضي المحتلة، بينما

يعرض على السكان العرب نوعا من «الحكم الذاتي» كما ورد في معاهدة السلام مع مصر. وقد رفضت منظمة التحرير الفلسطينية الحكم الذاتي، وأصرت على اقامة دولة، وكان بيغن يرغب في تشجيع زعماء فلسطينيين بدلاء يمكن ان يقبلوا بالعمل مع الاسرائيليين.

كانت تطلعات شارون اكثر طموحا، فقد أمر دباباته بالاستمرار في التقدم، والقتال، والوصول الى ضواحي بيروت، وهناك يمكن ان تلتقي بالقوات المسيحية اللبنانية وتساعدها في فرض قانونها ونظامها على لبنان. ويمكن ان تشمل الخطة انتخاب بشير الجميل كرئيس، فيقوم بعدئذ بطرد السوريين من لبنان، ويوقع معاهدة سلام رسمية مع اسرائيل، ومن المؤكد ان يقوم الجميل باجبار جميع المقاتلين الفلسطينيين على الرحيل، سواء على السفن الى اجزاء اخرى من الشرق الاوسط، او عن طريق البرّ الى سوريا.

في اليوم الخامس من الحرب تلقت تطلعات شارون فيما يتعلق بمجتمع المخابرات الاسرائيلية ضربة قوية، فقد قتل صديقه الجنرال «كوتي» آدم في معركة يوم العاشر من حزيران، ومات المرشح الكبير لرئاسة الموساد.

رحل آدم، لكن بعد ثماني سنوات كان ما يزال من الممكن استبدال اسحق هوفي، فلجأ بيغن له يطلب نصيحته وفي السابع والعشرين من حزيران أوصى رئيس الوزراء أمام مجلس الوزراء بتعيين نائب هوفي، ناحوم ادموني رئيسا للموساد.

كانت المرة الأولى التي يكون الرجل الذي يختار لقيادة الوكالة في معارك اسرائيل السرية ضابطا محترفا، فتمشّيا مع القيود الامنية التقليدية لم يكن اسم ادموني معلنا، لكن وثيقي الصلة بالموساد كانوا يطلقون عليه صفات مثل «رجل عادي» او «مدير» او «الغريب»، كان بيروقراطيا بلا وهج، لكن كان مستقرا ومجدا، كان في الثالثة والخمسين وقد تعلم في اميركا وقضى ثماني وعشرين سنة كعميل سري في عدة مراكز في الخارج، وكان ادموني قد شق طريقه بجهوده.

ولد في القدس في عام ١٩٢٩ لأسرة انتقلت من بولندا الى فلسطين قبل بضع سنوات من مولده، وغيرت اسمه من روتباوم الى ادموني، وكان والده مهندس منتزهات القدس، وعاشت الاسرة في ضاحية رحافيا ـ ليس بعيدا عن فندق الملك داود، وينتمي عدد كبير من قادة اسرائيل منذ نشوئها عام ١٩٤٨ فصاعدا الى ضاحية رحافيا: مسؤولون حكوميون، وزراء، اساتذة جامعات، ضباط جيش وموظفو مخابرات.

عندما كان دون العشرين، خدم ادموني في الهاغاناه وفرع مخابراتها: شاي، وبعد وقت قصير من حرب ١٩٤٨، ذهب الى اميركا لدراسة العلاقات الدولية في جامعة كاليفورنيا في بيركلي، وعمل ادموني في مدرسة احد يهودية، وفي كنيس بوظيفة مشرف، وفي مصنع ينتج

البدلات للقوات المسلحة الاميركية، والتقى وتزوج زوجته في كاليفورنيا.

كان ادموني يأمل في ان يصبح دبلوماسيا، لكن لدى عودته الى اسرائيل عمل كمحاضر في الاكاديمية الخاصة التابعة لمجتمع المخابرات في القدس، وكان دافيد كيمحي يدرّس في الاكاديمية ايضا.

ولم يكن من الطبيعي فقط ان تقوم الموساد بتجنيد ادموني من صفوف المعلمين، وفي محطات تمتد من واشنطن الى اثيوبيا قضى ادموني ثلاثة عقود في دائرة الارتباط التابعة للوكالة السرية، وقد شارك في جميع المشاريع التي تمت مع السي آي ايه طوال سنوات، وكان خبيرا في دبلوماسية البدلاء لكن عندما كان الامر يتعلق بالعمليات السرية كان ادموني ذا خبرة عملياتية ضئيلة في الميدان، ولم يكن مغامرا ولم يكن قاتلا، بل كان صائب الرأي ومحترما بسبب عمله الدؤوب.
عندما اتسعت الحرب اللبنانية لتتخذ مسارات اكثر دموية، أفسحت وعود شارون الاولى باجتياح سريع، المجال أمام واقع يتمثل في اراض محتلة تمتد من حدود اسرائيل الشمالية الى بيروت، وكانت منطقة مليئة باللاجئين والفوضى ولا بد من السيطرة عليها.

وكلفت الشين بيت برئاسة افراهام شالوم بمهمة الانتشار في لبنان بحثا عن الاصدقاء ومحاربة الاعداء، واصبحت القرى الشيعية المسلمة التي رحبت في البداية بالقوات الاسرائيلية المتقدمة بسبب كراهيتها لمنظمة التحرير الفلسطينية، اصبحت مراكز لارهاب مناهض لاسرائيل - بوحي من صورة الامام الخميني الايراني وبعض العملاء النشيطين، وبدأت الشاحنات الانتحارية الملغومة التي قتل بعضها اكثر من ٢٥٠ جنديا من مشاة البحريةالاميركية والقوات الفرنسية في بيروت عام ١٩٨٣، بدأت تهاجم الوحدات الاسرائيلية في الجنوب، وقام الشيعيون المتعصبون بقيادة وتفجير عربات محملة بالمتفجرات، يدخلون ابواب الجنة بطرد اليهود الى حدودهم.

لم تكن الشين بيت مستعدة لهذا النوع من المجابهة، فقد كان لشالوم وعملائه خبرة مع الفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة ممن لم يكونوا يعيشون سعداء في ظل الاحتلال الاسرائيلي منذ عام ١٩٦٧، لكنهم لم يتطوعوا بنسف أنفسهم.

في صيف ١٩٨٢ كانت وحدات الجيش الاسرائيلي تحمي المواقع حول بيروت، وكان سلاح الجو الاسرائيلي يسيطر على الجو لمنع اية محاولة تدخل من قبل الطائرات الحربية والصواريخ السورية، وبدأت الشين بيت في اقامة انظمة للقانون والنظام في جنوب لبنان، وفي الوقت ذاته، ظهرت ساحة معركة بيروقراطية عندما التقى عملاء الشين بيت مع رافي ايتان وهو يقود سيارته حول المنطقة ويتفقد عملهم من خلال دوره كمستشار لرئيس الوزراء حول الارهاب، وكان ايتان هناك لأن شارون كان يعتمد على صديقه الوفي في مراقبة الشين بيت.

انجز صديقه الأقل موثوقية، بشير الجميل، جزءا من الخطة بانتخابه رئيسا جديدا للبنان في ٢٣ آب، وقام الرئيس المنتخب بزيارة سرية الى نهاريا في اسرائيل، بعد بضعة ايام من انتخابه، ليجتمع مع رئيس الوزراء بيغن، وفي الثاني عشر من ايلول قام شارون بزيارة بيت الجميل قرب بيروت واتفقا على ان يعود شارون في الخامس عشر من ايلول مع وزير الخارجية اسحق شامير.

وبدلا من ذلك تطايرت خطط شارون ازاء لبنان يوم الرابع عشر من ايلول، فقد نقل جهاز الاتصال في سيارة وزير الدفاع رسالة عاجلة تطلب منه الاتصال برئيس الموساد على الفور، وعندما كان سائق سيارته يقودها به الى مزرعته في جنوب لبنان طلب منه شارون ان يخرج عن الطريق الى أي قاعدة عسكرية حتى يستطيع ان يتحدث هاتفيا مع تل ابيب.

كان اسحق هوفي ما يزال في مكتبه خلال الانتقال الى ادموني، وقد أعلم شارون ان الجميل قد قتل بقنبلة قوية في مقرّ حزبه في بيروت، وكان حديثا مزعجا ومحبطا لهوفي، حيث تقاعد من مجتمع المخابرات مغموراً وليس منتصراً، وكان خبرا مزعجا جدا لشارون، فالعملية التي كان وزير الدفاع يعتمد عليها، اقامة علاقات طبيعية بين اسرائيل ولبنان، كان يمكن لها أن تبرّر الحرب المثيرة للجدل. لكنها وصلت الى نهاية متفجرة، فقد اغتيل الجميل قبل بضعة ايام من تنصيبه رئيسا.

في صباح اليوم التالي، ١٥ ايلول، طار شارون بطائرة هليوكبتر الى لبنان، وكان معه رئيس أمان، الجنرال ساغوي، ورئيس الشين بيت، افراهام شالوم، ونائب مدير الموساد مناحيم (ناحيك) نافوت، وقد ذهبوا لتعزية آل الجميل. وفي ذلك اليوم نجوا من الموت بشقّ الانفس.

ان الرجل الذي عرّض كل رؤساء دفاع اسرائيل للخطر هو عقيد في أمان، استقبل طائرة الهليوكبتر وكان عليه أن ياخذهم بسيارته الى عزبة آل الجميل، لكن العقيد، الذي كان في بيروت كضابط اتصال بالكتائب، ضيّع الطريق، فقد اقتاد شارون وساغوي وشالوم ونافوت نحو مواقع منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت الغربية التي يسيطر عليها المسلمون وكانوا محظوظين لان شرطيا مسيحيا لوّح لهم بعلم ونصحهم بالرجوع والخروج من ذلك المكان، وهنا يستذكر شارون: لا أعرف من كان ذلك الشرطي، لكنه بلا شك انقذ حياتي مع كبار رجال المخابرات الذين كانوا معي.

لدى وصولهم سالمين الى عزبة آل الجميل قدم شارون تعازيه لوالد بشير، زعيم الميليشيا المخضرم بيار الجميل، وعمل نافوت ككاتب ملاحظات خلال الحديث، الذي اتخذ طابعا رسميا، وكان الاجتماع مهما - وحيويا بالنسبة للجولة التالية من الاحداث. وقد حفظت ملاحظات نافوت المكتوبة بخط اليد في ملفات الموساد الامنية، وأصبحت هذه الوقائع عاملا

رئيسيا في محاكمة تشهيرية في نيويورك حينما قاضى شارون مجلة التايم لأنها كتبت قائلة بانه اقترح على آل الجميل بان يثأروا من الفلسطينيين المتبقين في بيروت، وقد كسب شارون القضية.

وعلى اية حال، كان زعماء الكتائب مشغولين في اليوم التالي، يوم ١٦ ايلول، وقرروا أن يكون امين الجميل، شقيق بشير، مرشحهم لمنصب الرئيس، وارسلوا مسلحيهم في مهمة ثأرية الى مخيمي صبرا وشاتيلا للاجئين الفلسطينيين في ضواحي بيروت الجنوبية. وكان ايلي حبيقه يقود الوحدات التي دخلت المخيمين، حيث مرّ الكتائبيون باسلحتهم الثقيلة عن وحدات الجيش الاسرائيلي التي كانت تطوق المخيمين، وكان هدف حبيقة «تنظيف» المقاتلين الفلسطينيين.

وقام رجال الميليشيا بحملة سفك دماء استمرت اربعا وعشرين ساعة بلا توقف قتلوا خلالها الاطفال والامهات والمسنين، وكان مقاتلو منظمة التحرير الفلسطينية قد خرجوا من المخيمين، وقد قام المهاجمون الكتائبيون باطلاق الرصاص والطعن حتى الموت فقتلوا اكثر من سبعماية فلسطيني أعزل، وقد حدث كل ذلك تحت سمع الجنود والضباط الاسرائيليين وبصرهم، والذين كانوا يقفون على مراكز المراقبة خارج المخيمين لكنهم لم يكترثوا بما كان يحدث.

عرض التلفزيون صور اكوام الجثث المثيرة للشفقة في كل انحاء العالم ـ وقد رأى العالم مذبحة صبرا وشاتيلا على أنها الكلمة الاخيرة حول غزو اسرائيل للبنان، فكانت كارثة.

حاول بيغن ان يقول ان المذبحة قضية عرب يقتلون عرباً ولا علاقة لها باسرائيل، لكن الاجانب لم يقبلوا ذلك، ولم يقبله الاف الاسرائيليين الذين احتجوا على أعمال حكومتهم في لبنان، ووافق بيغن على تعيين لجنة تحقيق خاصة برئاسة قاضي المحكمة العليا السابق اسحق كاهان، ليقرر فيما اذا كان هنالك اي تورط اسرائيلي في مذبحة صبرا وشاتيلا.

وبينما كان ينتظر قرار لجنة كاهان، واصل شارون المضي بمشاريعه الاستراتيجية في مكان آخر، فقد رأى في افريقيا فرصة لتوجيه ضربة للعقيد الليبي القذافي، وهو محارب اسلامي ضد الصهيونية، وكان الليبيون يتدخلون بفعالية في حرب اهلية في تشاد، جارتهم الجنوبية الشرقية، وكان القذافي يساند الثوار المناهضين للحكومة، والى الشرق من تشاد، كان الرئيس السوداني، جعفر النميري يخشى ليبيا وقد بذل كل ما في وسعه لمساعدة الرئيس التشادي الموالي للغرب، حسين حبري، وكانت الولايات المتحدة وفرنسا، الدولة المستعمرة السابقة لتشاد، تقفان الى جانب حبري.

كان الاسرائيليون متضايقين من القذافي لأنه كان يحول دون محاولاتهم الدؤوبة في اوائل الثمانينات لاستعادة نفوذهم في افريقيا، وكان الثوري الليبي يهدد ويبتز ويرشو الزعماء الافارقة حتى لا يعيدوا العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل، وقد أدّت حقيقة أنه دعم الجماعات المتعصبة

والارهابية في اوروبا والعالم العربي الى زيادة أهمية الهدف المشترك بين اسرائيل والولايات المتحدة: اضعاف الزعيم الليبي حيثما أمكن، على أمل الاطاحة به في آخر المطاف.

طلب شارون، من كبير مساعديه، الجنرال تامير، ان يستكشف امكانيات عملية ضد ليبيا، يقوم بها شخصيا، وفي تشرين الثاني ١٩٨٢، اختفى تامير من اسرائيل، كما هي عادته كمبعوث سري، وطار الى باريس لعقد اجتماع مع وزير تشادي كبير، وناقشا الصراع في شمال افريقيا، وتهديد التدخل المباشر من قبل الجيش الليبي، وكان التشادي متفائلا بان قوات حبري تستطيع هزيمة الثوار، لكنه خشي من معركة واسعة النطاق مع قوات القذافي، وكانت تشاد تلحّ على فرنسا بان تلتزم بارسال الجيش الفرنسي، اذا اراد الليبيون أن يتدخلوا من الشمال.

كان استنتاج تامير، استنادا الى كل ما سمع، ان تقيم اسرائيل تواجدا عسكريا صغيرا في تشاد، وكان يسعى الى أفضل ما يمكن: أن تتحمل فرنسا عبء انقاذ حكومة حبري، بينما تأخذ اسرائيل، على الاقل فضل توجيه نكسة للقذافي، واتفق تامير، والوزير التشادي على أن يقوم الاسرائيلي بزيارة نجامينا، عاصمة تشاد، ووضعا اللمسات الاخيرة على تفاصيل علاقة اتصال سرية مع اسرائيل.

بعد اسبوعين، وصلت الاشارة المرتقبة من تشاد وارتدى تامير ملابس مدنية استعدادا للطيران الى باريس، ومن هناك أخذ رحلة جوية طويلة ومتعبة الى نجامينا، وهي مدينة من نصف مليون نسمة، لا تزال فيها اثار الدمار التي احدثتها حرب شرسة، فقد دمرت بيوت كثيرة في العاصمة وحفرت الطرق، وظهرت الانقاض في كل انحاء المدينة.

ان كلمة نجامينا تعني «المدينة التي يستطيع فيها المرء أن يستريح»، وهي ترد في واحدة من اللهجات المحلية، لكن الجنرال الاسرائيلي لم يجد أية راحة، فبعد وصوله مباشرة، اسرع الى القصر الرئاسي ليجتمع مع حبري، واستمرت محادثاتهما طوال الليل، وفي الصباح، تم أخذ الجنرال في جولة على الخطوط الامامية، في الصحراء الشمالية، واتفق الجانبان على ان ترسل اسرائيل خبراء عسكريين الى تشاد لمساعدة جيشها في الحرب الاهلية والمعركة ضد ليبيا، وعاد تامير الى اسرائيل، عن طريق باريس، وأبلغ شارون بما جرى.

وجاء الدور لسفر شارون، ففي اواخر كانون الثاني وفي الرابع من شباط ١٩٨٣، زار عددا من الاقطار الافريقية ليقترح تجديد العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل، مقابل مساعدات عسكرية وكانت عشرات من الدول قد التزمت بقرار منظمة الوحدة الافريقية في اواخر ١٩٧٣، بقطع علاقاتها مع اسرائيل، ردّا على حرب يوم الغفران وحظر النفط الذي تلاها، والذي جعل الدولارات النفطية العربية اكثر قيمة من أي وقت مضى. ولدى زيارته الى زائير لم يلتق شارون فقط مع رئيسها موبوتو سيسي سيكو، بل التقى ايضا مع الرئيس التشادي حبري. فقد اتفقا على

الحاجة الى مواجهة التخريب الليبي، وكبادرة مباشرة لتشاد أعطى شارون لحبري شحنة من الاسلحة الخفيفة نقلت جوا من اسرائيل مباشرة، وفي غضون وقت قصير أرسل الجيش الاسرائيلي وفدا من خمسة عشر مستشارا الى نجامينا من وحدة سرية كانت متواجدة في زائير.

عندما عرفت الموساد بمهمة تامير السرية ودبلوماسية شارون الشخصية، غضب ناحوم ادموني فقد كانت افريقيا منطقة تقليدية للموساد، وليس لوزارة الدفاع، لكن العملية بأسرها قد تم تنفيذها من وراء ظهر الموساد ولم يبد شارون أية نية لاعلام الموساد. وشكا ادموني لرئيس الوزراء بيغن، قائلا ان هنالك مخاطر كبيرة من وضع ضباط اسرائيليين في بلد ذي نظام غير مستقر، حيث يمكن أن يحرز الثوار اليد العليا في اي وقت، وكانت المخاطر أكبر لأن المستشارين العسكريين الاسرائيليين يمكن أن يقعوا أسرى بيد القوات الليبية.

دافع شارون و تامير عن حملتهما الدبلوماسية، واكدا لبيغن على أهمية مساعدة الافارقة المعتدلين والعرب المعتدلين مثل السوداني جعفر النميري، في محاولة لهزيمة العقيد القذافي، الا ان رئيس الوزراء قرر ان ادموني مصيب ازاء المخاطر والايتيكيت البيروقراطي بادخال الموساد في امور ذات دبلوماسية سرية، وصدر أمر بعودة الخمسة عشر ضابطا من تشاد.

كان زخم الحقيقة قريبا في اسرائيل عندما نشرت لجنة كاهان تقريرها حول مذبحة صبرا وشاتيلا في بيروت، وفي ٨ شباط ١٩٨٣ قال القاضي المتقاعد كاهان ان على اسرائيل ان تتحمل المسؤولية غير المباشرة عن المذبحة الكبيرة، وقد أوصى تقريره «استبعاد» اريل شارون من منصب وزير الدفاع، واستقال شارون على مضض في ١٤ شباط.

ان غزو لبنان، الذي تم شنه في حزيران السابق وظلت القوات الاسرائيلية في مستنقع الاراضي اللبنانية، قد اعتبره الاسرائيليون أمراً يؤسف له، بينما رآه اخرون غلطة فادحة. فالحرب التي اشعلها الاسرائيليون في بلد عنيف قتلت آلاف اللبنانيين والفلسطينيين، مدنيين ومقاتلين، كما كانت الخسائر الاسرائيلية اكبر بكثير مما كان مقدّرا، اكثر من ستماية جندي قتلوا، والاف جرحوا.

لم تتحقق اهداف عملية سلامة الجليل، ولم يتم اخراج السوريين من لبنان، ولم يوقع لبنان معاهدة سلام مع اسرائيل، وظلت منظمة التحرير الفلسطينية بخير، رغم اخراجها من بيروت وجنوب لبنان، ورغم أمال رئيس الوزراء بيغن واصل الفلسطينيون في الضفة الغربية وغزة التعهد بالولاء لياسر عرفات، بينما حاولت اسرائيل بلا جدوى تعهّد قيادة عربية بديلة في الاراضي المحتلة.

لقد رأت المؤسسة الدفاعية في اسرائيل أن مجتمع المخابرات قد أساء كثيرا، فقد فشلت الموساد في أهم وظيفة تقييم بوضع رهانه على فوائد التحالف مع الكتائبيين الذين يعتبرون وعلى نطاق عالمي بانهم عصابة من القتلة مصاصي الدماء.

كما تسرب الخبر بان الموساد وامان لم تستطيعا ان توفرا تفاصيل محددة عن تحركات عرفات فقد ادت المحاولات المتعددة من قبل القوات الاسرائيلية لقتل الزعيم الفلسطيني خلال الحرب الى مقتل اناس آخرين كثيرين بدلاً منه، فالسيارات المفخخة والغارات الجوية اخطأت عرفات الذي وصفه بيغن بانه «وحش على ساقين».

وأخيرا عندما واجه قناص اسرائيلي فرصة لاطلاق النار على الزعيم الفلسطيني خلال جلاء مقاتليه الاحتفالي عن بيروت، كان اطلاق النار عليه يعتبر أمراً غير حكيم كما ان من الغباء اغتيال رئيس منظمة التحرير الفلسطينية أمام الدبلوماسيين الاميركيين والاخرين الذين يشرفون على الاجلاء، بالاضافة الى طواقم آلات التصوير العالميين.. ولم يطلق القناص ناره!

في تشرين الاول ١٩٨٣ بعد ثمانية شهور من رحيل شارون عن وزارة الدفاع، فاجأ رئيس الوزراء بيغن مجلس وزرائه عندما أعلن قائلا: «لم يعد لدي أية قوة» وقدم استقالته. وكان موت زوجته اليزا قد سبب له الاكتئاب، كما أن مرابطة الاسرائيليين المتظاهرين ضد الحرب مقابل مقر اقامته الرسمي قد دفعت بيغن الى حالة صمت مطبق.

أصبح وزير الخارجية اسحق شامير رئيس الوزراء الجديد بعد ان خلا بيغن بنفسه الى عزلة كاملة في بيته الكائن في شارع زيماخ في القدس. ومع أنه كان أحد شخصيات اسرائيل التاريخية رفض بيغن ان يفسر دوافعه للحرب أو السلام، وقال بعض ثقاته أنه كان يتعذب من الشعور بان شارون ورئيس هيئة الاركان رافول ايتان قد ضلّلاه وبدلاً من الاحتفال بالنصر الذي وعد به فقد تسبب في مقتل مئات الشبان الاسرائيليين في لبنان.

بعد تسعة شهور من رحيل بيغن المثير عن الساحة السياسية شكلت حكومة اسرائيلية جديدة بسبب النتيجة غير الحاسمة للانتخابات الوطنية التي قسمت اسرائيل، وبعد شهور من المعارك بين الليكود والعمل في صيف ١٩٨٤ قرر الزعيمان شامير وبيريز المشاركة في السلطة في حكومة فريدة للوحدة الوطنية، وقد تشكلت الوزارة من كلتا الكتلتين السياسيتين الكبيرتين وبعد أن عمل بيريز كرئيس للوزراء فترة الخمسة وعشرين شهرا الاولى سلم المنصب لشامير في عملية «تبادل» لم يسبق لها مثيل ليتولى النصف الثاني من فترة الحكم.

كانت هنالك آمال كبيرة في التغيير في نواح كثيرة للحياة الاسرائيلية، وقد استطاع الائتلاف المتردد أن يتفق على خطة اقتصادية لجمت التضخم الكبير، وانسحبت القوات الاسرائيلية من كل

لبنان تقريبا، واحتفظت «بحزام أمني» قرب الحدود على جانب وكلائها من جيش جنوب لبنان.

كان شارون وزير التجارة والصناعة في الحكومة الائتلافية، لكنه واصل القاء ظلال متنفذة على التصور الاستراتيجي للبلاد، وفي الوقت ذاته كان اصدقاؤه في مجتمع المخابرات وحوله. شالوم وايتان ونمرودي - سيثيرون متاعب مذهلة في السنوات القليلة المقبلة.

الفصل الثالث عشر

عمليات القتل والتستر عليها

همس احد حراس اسحق شامير قائلا: السيد رئيس الوزراء، هنالك رسالة عاجلة تطلب منك الاتصال برئيس الشين بيت.

كل شيء إلا ذلك!

هكذا فكر شامير وهو يغذّ الخطى، وخلفه حراسه، الى غرفة جانبية في مركز المؤتمرات الدولية شمالي تل ابيب، ونظر شامير الى ساعته، كانت تشير الى السابعة والنصف مساء ١٣ نيسان ١٩٨٤، وخلال ساعات قليلة سوف تظهر نتائج الانتخابات الداخلية لكتلة الليكود، فقد كان شامير مشغولا طوال اسابيع بمعركة الجبابرة التي كانت تستعر في الليكود على الوظائف الكبيرة على قائمة المرشحين للكنيست، فبعد اكثر من نصف سنة على استقالة مناحيم بيغن المثيرة التي سلمت رئاسة الوزراء لشامير، رفض المتنافسان دافيد ليفي واريك شارون الاعتراف به كزعيم لليكود وكان شامير يعي أن نتائج الانتخابات الداخلية ستقرر المعركة.

كان رئيس الوزراء الموضوع الأرجح لمكالمة افراهام شالوم، فقد كانت الشين بيت على وشك حل واحدة من أهم القضايا الغامضة في اسرائيل في السنوات الاخيرة، وهي كشف المنظمة الارهابية اليهودية التي قتلت الطلاب الفلسطينيين وحاولت قتل رؤساء بلديات الضفة الغربية الثلاثة.

على عكس سلفه، لم يسمح شامير للشين بيت بزرع مخبرين بين المستوطنين اليهود في الاراضي المحتلة، وفي آخر المعلومات التي قدمها شالوم قيل لرئيس الوزراء انه سيتم اعتقال اكثر من عشرين مشبوها في المستقبل القريب، وجميعهم مستوطنون.

لم يحاول شامير التدخل في التحقيق لكنه كان خائفا من النتائج الحتمية، وقد أمل في أن تأتي الادانات بعد انتخابات الليكود الداخلية، بل الافضل بعد الانتخابات العامة التي ستعقد بعد شهر. فاعتقال المستوطنين اليهود يمكن ان يضع شامير وحزبه تحت ضغط كبير من اليمين المتطرف

والاحزاب القومية والتي ستتهم الليكود بانه غير وطني ويمكن ان تجتذب بعض انصار الليكود التقليديين.

«السيد رئيس الوزراء، لقد تحدثت مع رئيس الشين بيت»، قال الكولونيل ازريل نيفو، المساعد العكسري لرئيس الوزراء، عندما دخل شامير الغرفة، واضاف قائلا: لقد ذكر ان المسلحين العرب اختطفوا باصا على خط رقم ٣٠٠، بعد مغادرته محطة الباصات المركزية في تل ابيب وهو في طريقه الى عسقلان. ان قوات الجيش والشرطة في حالة تأهب، وقد صدرت الاوامر لوقف الباص، وهنالك خوف من ان يحاول المسلحون العبور الى مصر واحتجاز الركاب كرهائن، ليس لدينا اية معلومات اخرى حتى فيما يتعلق بالخسائر».

رغم خطورة الحادث، وقلقه الطبيعي ازاء ركاب الباص، فقد شعر شامير بقدر من الارتياح، فقد كان واثقا ان قوات الامن ـ الجيش والشين بيت ـ ستهزم المسلحين، وان النتائج السياسية ستكون لصالح الليكود. وقد يقوي الحادث اعتقاد شامير بعدم تقديم تنازلات لجيران اسرائيل العرب، ولمنظمة التحرير الفلسطينية، لأن هذا لن يؤدي الا الى تشجيع الارهاب، وقد اظهرت معظم استطلاعات الرأي ان حزب العمل، برئاسة شمعون بيريز، متقدم، لكن شامير لا يستطيع ان يصور بيريز بانه لين مع العرب.

منعت الرقابة العسكرية نشر أية تقارير اخبارية عن دراما الرهائن، لكن لم يكن بالامكان ابقاء حقيقة اختطاف باص سرًا الى وقت طويل، وبدأت الشائعات تسري بين الاف النواب في مؤتمر الليكود، ثم بين عشرات المراسلين والمصورين الذين كانوا يغطون التجمع السياسي. وانطلق معظم الصحفيين مسرعين الى سياراتهم واتجهوا جنوبا بحثا عن قصة اسخن من صراع شارون ـ ليفي على النفوذ في الليكود.

وفي الوقت ذاته، استطاع الجنود عند حاجز طرق أن يضربوا اطارات الباص فاوقفوه في قطاع غزة، على بعد اقل من ستة اميال عن الحدود المصرية، وتم تطويق الباص بعدد كبير من رجال الشرطة والجيش والشين بيت، ووصل افراهام شالوم نفسه الى مسرح الاحداث.

***

كان شالوم قد انضم الى الشين بيت بعد مهمات قصيرة كعضو كيبوتس وجندي، وكان دائما يريد ان ينتمي الى النخبة الاسرائيلية . الرواد الذين تتشابك حياتهم مع القوة والسياسة والتطوعية.

ولد في عام ١٩٢٩ باسم افراهام بندور، من ابوين انتقلا الى فلسطين من المانيا بعد صعود هتلر الى السلطة، وفي تل ابيب، كما في برلين، حاول والداه ان يوفرا له تعليما بورجوازيا يفيد

رجل اعمال يهوديا المانيا مزدهرا، غير ان افراهام بندور/شالوم فضل القيم الاشتراكية وانضم الى كيبوتس.

دخل الجيش في عام ١٩٤٨ حيث لاحظه ايسر هاريل وجنده في الشين بيت، فقد كان من بين مواهبه انه يتحدث الانجليزية والالمانية، كما كان هادئا وزاهدا وباردا، وحين كان يغضب لم يكن يظهر عليه أي مؤشر للسبب.

خلال ثلاثة عقود ونصف العقد مع الشين بيت شارك شالوم في معظم عملياتها الكبيرة، بما فيها المهمة المشتركة مع الموساد لاختطاف ادولف ايخمان، في الارجنتين، فقد كان شالوم رجل ميدان وعمليات، وطور علاقات وثيقة مع يهودا اربيل، وقاما معا بكثير من الهجمات السرية ضد الارهابيين الفلسطينيين، وظل هذا محور تركيز شالوم بعد تعيينه رئيسا للشين بيت في عام ١٩٨١، محلّ افراهام اشيتوف.

أخذ شلومو يراقب الباص ٣٠٠ وهو يقف بلا حراك على الطريق قرب غزة، وكان يعرف ان لدى الجيش والشرطة وحدات مدربة خصيّصاً لاقتحام جميع انواع المركبات المخطوفة، وانقاذ الرهائن، وكانت مهمة الشين بيت ان تستجوب المهاجمين العرب ومعرفة شركائهم ومصادر اسلحتهم ومن يدفعون لهم.

ادت الانوار الكاشفة العملاقة الى تحويل ظلام الليل الى نهار، بينها اختلط الجنود مع رجال الشين بيت والشرطة بلباسهم المدني وكانت أصوات اجهزة الاتصال تتردد، كما أن عشرات المصورين الصحفيين قد وفروا ضوءا اكثر بانوار آلاتهم الخاطفة، وعلى مسافة قصيرة كان الباص واقفا تحت سيطرة المسلحين الفلسطينيين الاربعة.

كان شالوم وكبار ضباط الجيش ووزير الدفاع موشي ارينز في الساحة في ساعات ما قبل الفجر المشحونة بالتوتر، لكنهم لم يستطيعوا التخلص من الشعور بان هنالك افتقارا للنظام والسيطرة.

وفي وسط جمهور المسؤولين والعملاء الذين جاءوا بدافع الفضول ورغبة في المساعدة، كان المختصون في مكافحة الارهاب يجمعون اكبر قدر من المعلومات عن الخاطفين والاسلحة التي لديهم واماكن المتفجرات في الباص.

لم يكن هنالك اية نية لتلبية مطالب المسلحين، فقد طالب الخاطفون باطلاق سراح زملائهم الفلسطينيين من السجون الاسرائيلية، لكنهم لن ينجحوا.

بعد تجميع كل المعلومات الضرورية بمساعدة اجهزة التصنت السمعية البصرية عرفت القوات الاسرائيلية ان الخاطفين لم يكونوا يحملون سوى اسلحة خفيفة. لم يكن بينها رشاش. فقد

كانوا هواة.

كان الكوماندو المحترفون الاسرائيليون جاهزين، واعطيت اشارة البدء بهجوم الانقاذ، فقام الجنود بتحطيم عدة شبابيك واصبحوا داخل الباص خلال ثوان، وفتحوا النار على الفور، فقتلوا اثنين من المسلحين وجرحوا الاثنين الآخرين، وتحرر الرهائن مع أن امرأة في العشرين من العمر قد قتلت في مقعدها بينما جرح ركاب آخرون.

عاد الجنود الى قاعدتهم، بعد تسليم الجريحين لوحدة عسكرية اخرى ولمحققي الشين بيت.

«لكن ذلك مستحيل»، قال اليكس ليباك، وهو مصور لصحيفة حداشوت، عندما سمع تصريحات الجيش عبر الاذاعة بعد بضع ساعات، فقد اعلن الناطق الرسمي ان اثنين من المسلحين قد قتلا، وجرح اثنان، وبعد ساعة تم تصليح التصريح قائلا بان خاطفي الباص الاربعة قد قتلوا في هجوم الجيش عليهم.

احتار ليباك لانه كان قد شاهد اطلاق النار وهو يتذكر جثتي الخاطفين وقد اشتعلت النار في الباص، لكنه شاهد ايضا الجنود والرجال بلباس مدني وهم يضربون الجريحين بقبضاتهم واعقاب بنادقهم، بل انه يتذكر العيون المرتعدة للفلسطينيين عندما أسرع الى مختبر الصور في حداشوت لتظهير فيلمه، ولم يكن ليباك في حاجة الى بذل جهود كبيرة ليجد الصورة التي كان يبحث عنها، فقد اظهرت رجال الامن وهم يقتادون احد الخاطفين للاستجواب.

قال يوسي كلين، محرر الصحيفة الشاب: هل انت متأكد.

ودهش عندما اطلعه ليباك على الصورة وأخبره بما شاهد.

قال المصور: نعم. انني متأكد ألفاً بالمئة.

عين ارينز لجنة تحقيق داخلية، برئاسة الجنرال مائير زوريا، من احتياطي الجيش، وهو رجل ذو سجل لا يعاب.

اتصل الناطق باسم ارينز، ناحمان شاي، بمكتب المراقبين العسكريين وطلب منهم منع نشر اية تقارير عن القضية المثيرة للجدل، واتصل المراقبون وشاي بكل الصحف وكثير من المراسلين الاجانب في اسرائيل ليخبروهم بوجوب عرض اية مقالة عن الباص ٣٠٠ على الرقابة، وكان المضمون واضحا: حظر اية مقالة او تقرير او تقرير اذاعي او تلفزيوني. وكان السبب الذي اعطي تبريرا للقرار ان اي نشر او حتى اشارة بان المسلحين قد ضبطا وهما على قيد الحياة وقتلا في الاسر، يمكن ان يؤدي الى قتل الاسرى الاسرائيليين المحتجزين لدى المنظمات الفلسطينية.

ست دلين بان وراء السبب المعلن عوامل اخرى، ترمي الى حرمان الشعب الاسرائيلي من الحقيقة، وفي خرق مباشر لحظر الرقابة العسكرية، نشر صورة ليباك المثيرة على الصفحة الاولى من جريدة حداشوت، مع خبر قصير بان وزارة الدفاع شكلت لجنة تحقيق للنظر في الظروف المحيطة بالحادث.

وبعد حداشوت التي كان دافعها رغبتها في سبق صحفي مثير وزيادة المبيعات، نشرت الصحف الاخرى تفاصيل القضية، وردّ وزير الدفاع ارينز بحدّة حيث استخدم صلاحيته القانونية لمعاقبة حداشوت باغلاقها لمدة اربعة ايام، وكان هذا الاجراء الأول من نوعه مع صحيفة عبرية بعد اغلاق صحيفة الحزب الشيوعي كول هاعام سنة ١٩٥٢، فيما عدا الاجراءات الادارية ضد الصحف العربية التي تصدر في القدس والضفة الغربية المحتلة لكن ردة الفعل المتشددة ضد حداشوت قوّت الشكوك في ان قصتها صحيحة.

في صباح اليوم التالي، ٢٤ ايار ١٩٨٤، قدمت لجنة زوريا تقريرها لوزير الدفاع وذكر بوضوح ان المسلحين قد اخرجا من الباص وهما على قيد الحياة. واصبح من الضروري اجراء تحقيق لمعرفة من قتلهما، واعتبر تقرير زوريا سرّيا ولم يعط للصحافة لكنه ارسل الى الشرطة والمدعي العام اسحق زامير والمدعين الحكوميين والشرطة العسكرية.

استمرت المعارك السياسية كالعادة، حيث احتفظ شامير بمقاليد امور الليكود، وقد افرزت الانتخابات العامة في حزيران ١٩٨٤ مأزقاً: تعادلاً بين الليكود والعمل، ولم يستطع اي منهما ان يجتذب ما يكفي من الاحزاب الصغيرة للدخول في ائتلاف، واضطر الفارسان السياسيان لخلق مخلوق جديد غريب، حكومة وحدة وطنية مع «تبادل» غريب بين رئيسي الوزراء.

وتولى شمعون بيريز رئاسة الائتلاف الصعب القياد، حيث انغمس على الفور في خلافات حول جهوده الرامية الى وقف نسبة التضخم المحّلق، والذي زاد عن ٦٠٠ بالمئة، وحول اصراره على اعادة القوات الاسرائيلية من مغامرتهم المفجعة في لبنان، ولم يرد أي ذكر لاختطاف الباص في نيسان السابق.

لم يكن الاسرائيليون ليكترثوا ازاء موت شخصين فلسطينيين كانا ارهابيين، وحتى مع تلاشي الباص ٣٠٠ من الذاكرة الشعبية فقد جرت معركة كبيرة وراء الكواليس، فقد شهد رجال الشين بيت امام لجنة زوريا بانهم استلموا المسلحين من الجيش وقد ضربا بشكل مبرّح حتى انهم لم يستطيعوا التحقيق معهما، وذكرت هذه الرواية الصادرة عن الشين بيت ان الخاطفين ماتا بعد وقت قصير من الضربات التي كانا قد تعرّضا لها ـ وبذلك اشاروا باصبع الاتهام الى الجيش.

كان فريق التحقيق الذي يعمل للمدعي العام، يونا بلاتمان، ميالا للتمشي مع قصة الشين بيت، ففي تموز ١٩٨٥ اعلن بلا تمان ان الجنرال اسحق موردخاي الذي كان مسؤولا عن عملية الانقاذ العسكرية مسؤول عن حالتي القتل.

وحوكم الجنرال موردخاي عسكريا، ولم ينكر انه ضرب الارهابيين بعقب مسدسه، لكنه قال بانه فعل ذلك «تلبية لحاجات المخابرات العملياتية»، ليعرف فيما اذا كان هنالك قنابل مزروعة في الباص، واضاف في دفاعه: عندما استلمتهما، كانا في وضع سيء.

وقبلت المحكمة العسكرية زعمه بان الخاطفين في لحظة اخراجهما بالقوة من الباص ماتا من جراحهما، وبرىء الجنرال من كل التهم.

بناء على الشهادات المتوفرة ـ اوصى بلاتمان والمدعي العام زاميربمحاكمةعميلي الشين بيت اللذين ضربا الارهابيين، لكن هذين العميلين برّئا ايضا ـ لكنهما واجها محاكمة في محكمة داخلية للشين بيت، حيث ان الشين بيت تتبنى دائما سياسة الكذب على العالم الخارجي بينما تطلب من عملائها ان يخبروها بالحقيقة.

أثبتت قضية الباص انها امر يستحيل توقعه، فعاجلاً أو آجلا، فان الشخص الذي يؤذن له بالكذب في ظروف معينة سوف يسمح لنفسه بان يكذب في ظروف اخرى ايضا. وهذا ما حدث مع ثلاثة من كبار رجال الشين بيت، وهم روفن هازاك، نائب شالوم، وبيليغ راداي، رئيس شعبة الامن ورافي مالكا. ومع انهم كانوا في الاربعينات من العمر، بينما كان شالوم في الخمسينات، فقد كان الاربعة يعتبرون «رجال اربيل» الذين يتصرفون بروح يهودا اربيل، روح العمليات الجريئة ضد الارهاب.

تبادل هازاك واراداي ومالكا الملاحظات واكتشفوا انهم جميعا تلقوا اوامر من شالوم بالادلاء بشهادات كاذبة ومذكرات مزيفة أمام المحكمة الداخلية للوكالة. وكانوا راغبين في عمل أي شيء من اجل الوكالة، بما فيها الكذب وتلفيق الوثائق واخفاء الأدّلة.

ذهب الثلاثة الى شالوم وطالبوا بتوضيح كامل لما أمروا بعمله، وعندما فشل توضيح شالوم في اقناعهم حثوه على الاستقالة. ورفض شالوم، لكنه سمح لروفن هازاك ان يجتمع برئيس الوزراء بيريز، وكان الاجتماع قصيرا وباردا، فلم يرد بيريز ان يصدق ما سمع من هازاك، فقد كان رئيس الوزراء قد سمع من قبل من شالوم ان هازاك كان يقوم بلعبة قوى للوصول الى منصب رئيس الشين بيت.

وكان بيريز قلقا من الدلالات السياسية، فهي قضية تعود الى الفترة التي كان اسحق شامير فيها رئيسا للوزراء وكان موشي ارينز وزيرا للدفاع. وبوجودهم الآن جميعا في حكومة الوحدة

الوطنية فان قرارا يتخذه بيريز بالوقوف الى جانب هازاك يمكن ان ينسف الائتلاف، ولا بدّ ان شالوم الشين بيت كان يتصرف بمعرفة شامير، فالاقتتال الداخلي السياسي المستند الى فضائح مخابراتية، مثل فضيحة لافون في مصر قبل ثلاثة عقود لم يفد اي واحد من السياسيين المعنيين، ومن الافضل ابقاء هذه الامور سرّا.

لأسباب كثيرة، قبل بيريز ادعاء شالوم بان لدى هازاك جدول اعمال خفيّاً: شنّ ثورة داخلية في الشين بيت. وبدعم من رئيس الوزراء شعر شالوم بالقوة الكافية لوقف خصومه الثلاثة عن العمل، وقد طرد محمّييه السابقين.

اذا كان شالوم يعتقد انه بذلك التصرف يغلق القضية، فقد كان مخطئا جدا. فقد واصل ضباط الشين بيت الثلاثة كفاحهم، ومع ان رئيس الوكالة منعهم من ذلك فانهم توجهوا الى المدعي العام زامير في نهاية عام ١٩٨٥، واعطوه تفاصيل مثيرة حول عمليات تستّر وخداع.

انقسمت الشين بيت الى معسكرين: واحد ساند شالوم، والآخر وقف مع الثوار الثلاثة، وكان من المستحيل البقاء بعيدا عن صراع مسّ كل واحد في الوكالة السرية، ورفع رافي مالكا قضية امام المحكمة العليا مدعيا ان شالوم أوقفه عن العمل بلا وجه حق، وطالب باعادته الى العمل، وفي رئاسة الشين بيت في تل ابيب كانت القضية موضوعا لحديث كل العاملين فيها، كما لو لم يكن لديهم ما يعملونه سوى الحديث في تلك القضية.

وسرت كل انواع الشائعات، وأشدّ الاتهامات، وانطلقت كل مواطن الاستياء التي كانت مكتومة طوال سنوات، حتى بحقّ الصحفيين الذين لم يستطيعوا نشرها بسبب الرقابة الصحفية.

ومن بين القصص الاخرى، تمت الاشارة الى ان امرأة تقف وراء الفضيحة غير المألوفة، فقد زُعم ان احد الثوار كان على علاقة وثيقة بمحامية اسرائيلية كبيرة دفعتهم الى الشكوى للمدعي العام، ولم تكن القضية جدلاً حول كيفية معاملة الخاطفين عند القاء القبض عليهم بل كان جدلاً حول الزعامة والاخلاق والثقة. ولم تشهد الشين بيت حربا داخلية بمثل هذه الضراوة.

هزت الاتهامات الخطرة اسحق زامير الذي كان عميد كلية الحقوق في الجامعة العبرية في القدس قبل تعيينه، في عام ١٩٨١ مدعيا عاما «ومستشارا قانونيا» للحكومة، فذهب الى رئيس الوزراء بيريز وأخبره بكل ما سمعه، وقال زامير انه ينوي تسليم الادلة والاشاعات والوثائق، للشرطة لتجري تحقيقا رسمياً.

صدم بيريز ـ ليس من الادلة التي سمعها، بل من خطط المدعي العام الرامية الى متابعة القضية، وحاول رئيس الوزراء ان يوضح لزامير ان تحقيق الشرطة مع الشين بيت يمكن ان يؤذي الامن القومي.

واقترح زامير ان يستقيل شالوم على الفور، لكن شالوم وبيريز رفضا الاقتراح، ثم عقد بيريز اجتماعا عاجلا مع شامير، نائب رئيس الوزراء، ووزير الدفاع اسحق رابين. وكان للرجال الثلاثة، المعروفين بنادي «رؤساء الوزرات» خبرة مع الوظيفة الكبيرة فقرروا ان يفعلوا كل ما في استطاعتهم لوقف زامير.

لم يرد احد، سواء من العمل او الليكود، ان يرى الشين بيت وقد تمزقت اكثر.

كان اعضاء «النادي» الثلاثة يعرفون ان المدعي العام قد طلب منذ شهور إعفاءه من منصبه، فقد كان زامير يأمل في التقاعد من الحكومة، قبل ان تنشأ قضية الباص ٣٠٠ وفضيحة الشين بيت، واستنتج بيريز وشامير ورابين ان يجعلوا زامير يستقيل على الفور، مع اقل قدر من الجلبة. وعندها يمكن ان يعينوا مدعيا عاما ومستشارا قانونيا اكثر مسايرة لهم.

لكن النادي، الذي اعتاد على التصرف كحكومة داخل حكومة ـ ثلاثة سياسيين يتخذون كل القرارات على عاتقهم ـ لم يكن يستطيع ان يتصرف بسهولة في هذه المرة، فقد فات الاوان على وقف فضيحة بدأت!

فضل زامير تأجيل رحيله حتى يستطيع ان يتابع قضية الشين بيت ولم يجد أي تناقض بين حكم القانون والامن الوطني، فقد رأى ان محاولة تغطية الامور والتستر عليها يمكن ان تضرّ باسرائيل.

في ١٨ أيار ١٩٨٦ قدم زامير شكوى رسمية للشرطة، طالباً منهم ان يحققوا في الاتهامات والاتهامات المضادة داخل الشين بيت، وتحولت الاشارات والتلميحات في الاحاديث الخاصة وحتى في وسائل الاعلام العلنية، من «قضية الباص ٣٠٠» الى «فضيحة الشين بيت».

بعد بضعة ايام بدأت الشرطة تحقيقاتها، وبث التلفزيون الاسرائيلي تقريرا قصيرا عن تحقيق يؤثر بالشين بيت، وبسبب نظام الرقابة الذي تديره امان، لم يستطع التلفزيون ان يسمّي ضباط المخابرات المعنيين، وبدلا من ذلك، اشار الى «مسؤول كبير» والى «القضية» التي اعادت الى الاذهان فضيحة لافون في الخمسينات، ومرة أخرى فان الاسرائيليين الذين يعرفون من الفضيحة هم وحدهم الذين يفهمون ما كانت وسائل الاعلام تحاول ان تقوله، فقد ظل عامة الناس يجهلون ما يجري.

وانكشفت القضية أخيراً عندما أظهر نظام الرقابة عجزه، فقد انتهكت شبكة تلفزيونية اميركية الرقابة عندما ذكرت اسم افراهام شالوم وقالت انه «المسؤول الكبير»، فقد قالت شبكة اي بي سي انه يشتبه بأنه أمر بقتل خاطفي الباص، وان الحكومة تحاول ان تتستر على القضية

بأسرها رغم الموقف الذي اتخذه المدعي العام، ولأن الشعب الاميركي عرف عن القضية اكثر مما عرفه الاسرائيليون، فقد اضطرت الرقابة للسماح للصحف الاسرائيلية باعادة ما تمّ بثه في الولايات المتحدة، وظهر اسم شالوم علانية وتم كشف رئيس الشين بّيت.

* * *

أخذ التحقيق يتحرك بسرعة، وقامت الشرطة على مضض، باستجواب رجال الشين بيت المعنيين، بمن فيهم شالوم، بالاضافة الى الوزيرين اللذين كانا في السلطة وقت الاختطاف، شامير وارينز.

اشار شالوم، الذي قرر الدفاع عن نفسه، الى انه كان يتصرف بتفويض من رئيس الوزراء شامير، لكن عندما رأى الادلة تتراكم ضده وان هنالك فرصا كبيرة باتهامه بالقتل أو ارتكاب مذبحة، رسم شالوم اجتماعا سريا في آخر الليل لكامل اعضاء مجلس الوزراء يوم ٢٣ تموز، وبتوصية من نادي رؤساء الوزارات أصدرت الحكومة قرارا لم يسبق له مثيل: طرد رئيس الموساد وموظفيه الثوار الثلاثة، وكجزء من الصفقة، يمنح احد عشر عضوا من الشين بيت عفوا حتى لا يقدموا للمحاكمة. كما عين مجلس الوزراء لجنة تحقيق من ثلاثة مدعين حكوميين، برئاسة يهيدوت كارب، للتحقيق في قضية الشين بيت بالتفصيل.

نشرت لجنة كارب تقريرها في نهاية كانون الأول ١٩٨٦، وقد أثنت اللجنة على هازاك وراداي ومالكا لأنهم أدلوا بشهاداتهم واوردت استنتاجها الراسخ بأن الثوار الثلاثة قالوا الحقيقة. وقالت ان رئيس الشين بيت قد كذب، وامر مساعديه بأن يكذبوا.

وحكم كارب ولجنته بأن هازاك ورادا ومالكا كانوا قد عرفوا قرار شالوم بالكذب امام لجنة زوريا وبلاتمان، وكجزء من التغطية، استطاع رئيس الشين بيت أن يضع واحدا من رجاله في لجنة زوريا للتحقيق. وعندما اصدرت لجنة كارب تقريرها اتضحت النية الحقيقية لشالوم.

لقد كشف تقرير كارب ان ممثل الشين بيت لدى لجنة زوريا، يوسي غينوسار، كان حصان طروادة لشالوم، حيث كان يطلع رئيسه بالوجهة التي يتخذها التحقيق، ويؤثر على اللجنة للوصول الى نتائج لصالح رئيس الشين بيت.

قام غينوسار بمهمته بمنتهى الاخلاص لشالوم، وقد غير بعض الأدلة، وأخفى بيانات ووثائق اخرى وبذل كل ما في وسعه ليضمن ان تكون التغطية كاملة، وقبل كل اجتماع للجنة، كان يجتمع مع عملاء الشين بيت الذي كان من المقرر ان يظهروا امام اللجنة، فكان غينوسار يعطيهم المعلومات، حتى لا تتضارب شهاداتهم مع شهادات الآخرين. وكان يأمل في ان يساعده شالوم في ان يصبح الرئيس المقبل للشين بيت.

وبتوجيه من غينوسار، حملت لجنة زوريا مسؤولية قتل المسلحين العربيين على الجنرال موردخاي، وكان تبييض دور شالوم يشمل تلطيخ اسم ضابط عسكري كبير، فقد كان رئيس الشين بيت يريد ان يرى إدانة موردخاي، مع ان الشخص الذي اعطى الاوامر لقتل المسلحين لم يكن إلا شالوم نفسه.

كانت الحقيقة، مكما ظهرت في تقرير كارب، ان الخاطفين الجريحين قد نقلا الى الشين بيت للاستجواب، ثم قتلا. اما محامو الوكالة الامنية الذين شاركوا في التغطية فقد برروا سلوكهم بالادعاء أنهم حاولوا حماية ما وصفوه «بواحد من اكبر اسرار الشين بيت»، لكن لجنة كارب أدانت محامي الشين بيت.

واصل شالوم، خلال دفاعه، الادعاء بأنه ببساطة تصرّف وفق الصلاحية الممنوحة له من قبل رئيس الوزراء، وبناء على قول شالوم، فقد عقد اجتماعا مع اسحق شامير في تشرين الثاني ١٩٨٣ ـ قبل خمسة شهور من اختطاف الباص ـ حيث تمت مناقشة عامة لكيفية التعامل مع المخربين لدى القبض عليهم، دون الاشارة الى أي حادث بعينه. وقال شالوم، بشكل اكثر تحديدا، ان وزير الدفاع ارينز اعطاه صلاحية قتل الارهابيين الاثنين، لكن ارينز نفى هذا، وبينما اعترف شامير انه تناول مثل هذا الحديث مع شالوم، إلا ان شامير نفى ان يكون امر رئيس الشين بيت «بعدم أخذ أسرى».

اختارت لجنة كارب ان تصدق رئيس الوزراء ووزير الدفاع وليس رئيس الشين بيت، كما قالت اللجنة بوضوح ان رئيس الشين بيت، ليلة اختطاف الباص، لم يتلقّ اية اوامر من رئيس الوزراء حول كيفية معاملة الارهابيين.

ونتيجة للتقرير، تقرر احياء الممارسة التي تمت في ايام رئيس الوزراء غولدا مائير واسحق رابين بوجوب وجود كاتب ملاحظات في اي اجتماع يعقد بين رئيس الوزراء ورؤساء الاجهزة السرية، ولأن أحدا لم يحضر اجتماع شامير ـ شالوم عام ١٩٨٣، فلم يكن هنالك اية مذكرة او وقائع.

اهتز الشعب الاسرائيلي من تقرير كارب، كما اهتزت ثقته بمجتمع المخابرات. فبعد سنوات كثيرة مرت دون سماع اي شيء عن الشين بيت، شعر المواطنون ان رئيس أمنهم قد تصرف بطريقة لا تختلف عن أسوأ الديكتاتوريات، ووفقا للتقارير التي ظهرت في الصحف الاسرائيلية، فقد تصرّف كما لو انه فوق القانون. وفي أعين كثير من الاسرائيليين فقد كان يمكن لهم ان يغفروا لشالوم لو انه أذنب «فقط» في قتل اثنين من الارهابيين الفلسطينيين، لكن التغطية، كما وصفت في الصحف، تجاوزت الحدود المقبولة.

وكما هو الحال في فضيحة لافون في اسرائيل، وفضيحة ووترغيت في اميركا، فان الديناميت الحقيقي ليس في العمل نفسه بل في التغطية التي تلته، وكما فهم عامة الناس، فقد بدا ان كبار الرجال في الشين بيت قد تآمروا ضد رؤسائهم السياسيين وضد الشعب الذي يفترض انهم يخدمونه.

لو وقف أي واحد من الشخصيات الرئيسية في القضية وقال في اية مرحلة من المراحل: «لقد أصدرت الأوامر»، لكانت هنالك فرصة لاحتواء النار. لكن بدا كل واحد ذي علاقة بفضيحة الشين بيت، وكأنه يحاول ان يحمل المسؤولية للآخرين.

واضطر رئيس الوكالة، افراهام شالوم، الى بدء حياة جديدة كمواطن عادي، وساعده رئيس الوزراء بيريز في الحصول على وظيفة مع شاؤول ايزنبرغ، وهو تاجر دولي مركزه اسرائيل يتاجر بالطائرات والاسلحة والبضائع والخدمات من كل نوع، وتم ارسال شالوم الى نيويورك وعاد الى اسمه القديم افراهام بندور.

في الولايات المتحدة، استغل شالوم/ بندور خبرته في شراء عقود تتعلق بالدفاع لايزنبرغ، ومع انه كان دائما يبدو غير سعيد، الا ان تعاسته أخذت تتضح الآن، فقد كانت نيويورك منفى له، ولم يكن العمل مثيرا، فقد كان عليه ان يهتم بذلك النوع من العمل الذي كان يفوضه لمرؤوسيه في الشين بيت.

لم يكن امامه بدائل كثيرة، وكانت عمليات الشين بيت: القتل والتغطية، جديدة بعد، ومزعجة، ومؤلمة لأي شخص يحاول الحصول على وظيفة لائقة في اسرائيل. فقد وجد شالوم/ بندور نفسه مرفوضا من وطنه.

ومع هذا وجد من الصعب ان يتصرف بحرية، فقد ألغت سلطة الموانىء في نيويورك ونيوجيرسي عقدا بقيمة ٧٥ ألف دولار مع شركة اسرائيلية تسمى اتويل سيكيوريتي، عندما علمت ان رئيس المؤسسة هو بندور، وقد قالت سلطة الموانىء «انها لم تعد راضية عن الاتفاقية» التي كانت وقعتها حول النصائح الامنية لمطارات منطقة نيويورك من مؤسسة المستشارين التي يملكها ايزنبرغ.

* * *

في غياب أي تفسير من قبل شالوم نفسه حول قيام المحققين بقتل خاطفي الباص، خرج اصدقاؤه في الشين بيت وحولها بتبريراتهم الخاصة بهم، فقد قال أحدهم انها عملية تمت بدم بارد وهو عمل سليم في الحرب الارهابية، لأن الخاطفين كانوا هواة تصرفوا على عاتقهم ولم يستطيعوا ان يوفروا اية معلومات عن اية منظمة معادية. ونتيجة لذلك فانهم لم يشكلوا اية قيمة للشين بيت.

وهنالك آخرون ممن فسروا القرار استنادا الى النفوذ المتراكم لتدخل الشين بيت في لبنان بين عام ١٩٨٢ و ١٩٨٥، الى ان قامت حكومة الوحدة الوطنية بسحب القوات الاسرائيلية، فقد كان لبنان ساحة للشين بيت، وقد تحدثت التقارير الصحفية عن تجوّل يوسي غينوسار مثل «شريف»، وكانت هنالك حالات تهريب وانتهاكات أخرى لتعليمات الجيش والوكالة السرية ومع هذا لم تكن التقارير التي تصل الى رئاسة الشين بيت كاملة. وقد انتقلت التصرفات السيئة الى الاراضي المحتلة.

* * *

لقد اقبل الناس بشغف على قراءة كل ما نشر عن الشين بيت ومشكلاتها في عام ١٩٨٧، وكان الشغف اكثر في واحدة من زنازين سجن عسكري في وسط اسرائيل. فبينما كان يجلس غارقا في أفكاره ومتشوقا لاسرته في كفركما، وصلت الصحف المسائية الى زنزانة عزت نافسو، مثلما كانت تصل طوال السنين السبعة السابقة.

تغلبت عليه العواطف فجأة وشحب لونه، فقد شاهد في احدى الصحف صورة غينوسار ـ احد ضباط الشين الذي عفا عنه الرئيس حاييم هيرزوغ كجزء من قرار مجلس الوزراء بإنهاء الفضيحة وجاء في الخبر ان غينوسار قد حصل على وظيفة في وزارة التجارة والصناعة التي يرأسها اريل شارون.

«انه الرجل الذي استجوبني واوصلني الى حالي»، قال نافسو وسارع الى كتابة رسالة الى محاميه قال فيها: «قلت في نفسي انه لو مرت مئة سنة فلن انسى ابتسامة غينوسار، ابتسامة ساخرة، وكيف طلب مني ان أتعرّى، وبصق عليّ، وبعد ذلك، عندما كنت على الارض، داس فوقي وجذب شعري».

كانت تلك بداية قضية جديدة، لا تقل قسوة من اختطاف الباص، التي تلطخ فيها اسم الشين بيت، وهذه قضية تتعلق بلبنان.

لم يكن احد يتوقع ظهور فضيحة امنية من بلدة نظيفة ومزدهرة مثل كفركما، الواقعة على التلال الريفية قرب بحيرة طبرية، حيث يعيش معظم أصغر اقلية في اسرائيل: بضعة آلاف من الشركس، وهم مسلمون غير عرب ينتمون الى جبال القوقاز في الاتحاد السوفياتي.

وكما هو حال معظم الشبان الآخرين من مجتمعه، تطوع نافسو للخدمة في الجيش الاسرائيلي، وقد وصل الى رتبة ملازم اول، وفي عام ١٩٧٦ قبل الغزو الاسرائيلي للبنان عامي ١٩٧٨ و ١٩٨٢، ارسل للخدمة في جنوب ذلك البلد، على بعد حوالي ثلاثين ميلا من منزله في كفركما، لكن عبر الحدود الاسرائيلية.

كتب نافسو في مذكراته: لم تكن لي أية مهمة معينة، وكان ذلك في الايام الاولى لتورط اسرائيل في المنطقة، وقد شاركت في كل انواع المهمات الاستخبارية دون ان اتلقى اي نوع من التوجيه الحقيقي، ولم أتلقّ أي تدريب متخصص أو يطلب مني ان اتخذ اية احتياطات معينة، وكانت مهمتي تستدعي ان اعيش بين اللبنانيين، وكان كثير منهم مخبرين.

استخدم نافسو في مذكراته كلمة «شتينكر» وهي كلمة عبرية مأخوذة من كلمة «ستينكر» الانجليزية، ليصف بها المتواطئين والمخبرين غير المهمين الذين كانت المخابرات الاسرائيلية تستخدمهم بين العرب في اسرائيل وخارج حدودها. وكتب الضابط الشاب ان مهمته هي توفير الاسلحة والذخيرة والامدادات الطبية للبنانيين المسيحيين والشيعة المسلمين الذين يمكن ان يعارضوا الفلسطينيين.

ونتيجة لادراكه للعداوات التاريخية والدينية المعقدة في لبنان، فقد وصفه نافسو: «بلد يدمّر الارواح»، وكتب يقول: لقد كان أسهل عليّ ان أصفي شخصا هناك مما تستطيع المافيا في نيويورك، فقد كان قانون الغاب هو الذي يحكم المنطقة حولي، فأينما كنا ننظر، كنا نرى الاحداث المفجعة: قتل وانتقام، فالحياة البشرية رخيصة».

تدوّن المذكرات حوادث كثيرة عن الجنود والعملاء الاسرائيليين الذين أصبحوا اغنياء عن طريق تهريب السجائر والساعات واجهزة التلفزيون وحتى المخدرات الى اسرائيل. ويضيف نافسو: «بالنسبة لي كان ابو قاسم رمزاً لهذه الاشياء كلها، فقد كان شتينكر (نتناً) يعمل مع كل الاطراف، فقد كان «زوربا» جنوب لبنان، كان عنيفا كالحيّة، وكان «إله البقاء»، فقد كان هو الشخص الذي رسم مصيري».

في ليلة الرابع من كانون الثاني يناير ١٩٨٠، وكانت ليلة ماطرة، وحسبما جاء في المذكرات، أيقظه قرع على باب منزله في كفركما، ولم يكن مضى على نوم نافسو سوى ثلاثة ارباع الساعة، فسأل بالشركسية: من الطارق؟ ولم يسمع اي جواب، وعندما اعاد السؤال بالعبرية تلقى جوابا وفتح الباب ليجد احد اصدقائه، داني سنير، وهو ضابط في الزي العسكري. طلب سنير من نافسو ان يرافقه على الفور في مهمة سرية الى لبنان، ووعده بأنه سيعود الى بيته خلال يوم او يومين.

وافق نافسو على الفور، وصعد الى الطابق الثاني وحمل ربطة ملابس كان يبقيها جاهزة، وقبل زوجته سهام، التي تزوجته منذ ثلاثة اسابيع فقط، ورافق سنير. وكانت المرة الثانية التي رأى فيها نافسو بيته بعد سبع سنوات ونصف السنة.

بدلاً من اخذ نافسو الى وحدته العسكرية فقد ذهب الى جناح في فندق في ميناء حيفا،

وكانت المرة الاولى التي يتعرّف فيها على يوسي غينوسار. لم يكن نافسو يعرف اسم الرجل الحقيقي في تلك اللحظة، لكن المعاملة الجيدة التي لقيها نافسو جعلته يعتقد ان الشين بيت تريد تجنيده.

مع استمرار الحديث، ايقن انه يخضع للتحقيق، فقد واصل المحقق المجهول طرح الاسئلة عن رجل معين من منظمة التحرير الفلسطينية، كان حسب معلومات الشين بيت، على علاقة مع نافسو. وعندئذ فقط بدأ الضابط الشركسي يخاف.

قال رجل الشين بيت: اعترف انك كنت عميلا مزدوجا مع منظمة التحرير الفلسطينية، فأنت لن تستطيع ان تضحك علينا، نحن نعرف كل شيء. اننا نتابعك منذ شهور.

نفى نافسو كل التهم بشدة، وظل ينفي بعد نقله الى سجن كيشون في حيفا، حيث يوجد للشين بيت زنزانات خاصة بها.

«بدأت ايام وليالي من التحقيق، والتهديد والتخويف»، واضاف نافسو في مذكراته ان غينوسار المجهول كان له رئيس اسماه «باشوش».

«جاء باشوش ذات مرة الى الغرفة وزعم أنه نائب رئيس الشين بيت، ورئيس شعبة التحقيقات، وقد هدد بارسالي الى مكان يستخدم في التحقيق مع الارهابيين وسوف يحقنوني بمادة تسبب لي العجز. وتكرر هذا التهديد بحقني طوال فترة التحقيق وكان احدهم يفتح درجاً كما لو كان يريد اخراج ابرة الحقن».

تقول مذكرات نافسو ان محققي الشين بيت هددوا ايضا بحبس زوجته وتجريدها من ملابسها «كانوا يحضرون مجلة بلاي بوي بما فيها من صور لنساء عاريات، حتى أفهم الرسالة، كما هددوا باحضار زوجتي واخبارها بانني مارست اللواط مع أبو قاسم وهددوا بنشر الشائعات في القرية بانني شاذ جنسيا».

ادرك نافسو ان المادة الموجهة ضده تستند الى شهادة ابو قاسم، وان الدافع المزعوم لعمله مع منظمة التحرير الفلسطينية هو الابتزاز الجنسي. وزعم غينوسار أن لديه شهودا، بمن فيهم ابو قاسم، شاهدوا نافسو يمارس اللواط مع رجل من منظمة التحرير الفلسطينية ورجل مسيحي لبناني، وبعد التهديدات، جاء محققون آخرون من الشين بيت الى زنزانة نافسو ومثّلوا دور الاشخاص الطيبين، ووعده بانه اذا تعاون وقال كل ما يعرفه، فانهم سيعطونه اجازة ليزور زوجته.

ان خصوصية اية وكالة استخبارات، وخصوصية الشين بيت الموهوبة في هذا المجال، هي اكتشاف مواطن ضعف الذين تتصل بهم، وفي حالة نافسو كانت نقطتا ضعفه زوجته ورجولته.

فكفرد من المجتمع الشركسي، وهو المجتمع المقتصر على الرجال، كان يخاف من العار الذي سيلحق به لو انتشرت مزاعم المحققين.

بعد اربعين يوما من الاستجواب المستمر، انهارنافسو، واعترف بكل الجرائم التي نسبت اليه، بما فيها الخيانة والتجسس ضد اسرائيل من خلال العلاقات مع منظمة التحرير الفلسطينية.

لكن عندما بدأت المحاكمة أمام محكمة عسكرية، سحب نافسو اعترافاته وقال انه ادلى بها تحت الضغط والتهديدات، لكن محققي الشين بيت انكروا وصدّقهم القاضي - كما هو الحال في معظم الحالات.

جرت المحاكمة وراء ابواب مغلقة، حتى ان اسرة المتهم منعت من الدخول الى قاعة المحكمة، وبعد جلسات ومداولات امتدت سنتين، أدين نافسو، وفي نهاية ١٩٨٢ حكم عليه بالسجن ثماني عشرة سنة، مع تنزيل رتبته العسكرية الى رتبة جندي.

ان نافسو واسرته ومحاميه الذي كان في السابق كبير المحققين العسكريين، هم وحدهم الذين ظلوا يؤمنون ببراءته، وحتى بعد رفض التماساته القضائية، رفض نافسو التفكير في اقتراحات الشين بيت وجهات أخرى بان يطلب العفو، فقد قال: كنت اريد البراءة وليس العفو.

حصل نافسو على ما كان يريد، لكن بعد معاناة طويلة، يوم ٢٤ أيار ١٩٨٧، عندما برّأته المحكمة العليا الاسرائيلية من تهمتي التجسس والخيانة؛ وأبطلت حكم السجن. وافرج عن نافسو ودفعت له كل رواتبه المستحقة منذ اعتقاله. لكن القضاة حكموا عليه بالسجن لمدة سنتين (وكان قد قضاهما في السجن) لأنه أحجم عن الابلاغ عن اجتماعاته مع اعضاء من منظمة التحرير الفلسطينية، لكن محور الحكم كان انتقادا قاسيا للشين بيت ومحققيها والطرق التي استخدمتها لأنتزاع الاعترافات.

كانت تصرفات الوكالة السرية مجرد جزء من بيئة معادية أوسع، فقد كانت الشين بيت اشبه ما تكون بالبعبع الذي يهدد به الآباء اطفالهم اذا لم يسلكوا جيدا، وهكذا كان الحال مع دانيال شوشان. فقد كان بوظيفة جندي وحكم عليه في تشرين الاول ١٩٨٦ بالسجن لمدة عشر سنوات، «لنقل معلومات الى العدو»، فقد اتهم بانه كساعي بريد عسكري، سلّم وثائق لعربي في الضفة الغربية، له علاقات مع منظمة التحرير الفلسطينية، وخوّف محققو الشرطة العسكرية شوشان بانذاره انه اذا لم يعترف بالتهم فانهم سيسلمونه للشين بيت، وسيكون ذلك أسوأ بالنسبة له، واستناداً الى ما كان يسمعه عن الشين بيت، خضع للضغوط واعترف بجريمة لم يرتكبها.

وبعد سنتين، وبعد اعادة محاكمته، برىء شوشان وحكم قضاة الاستئناف ان الشرطة العسكرية استخدمت القوة الجسدية وطرق إكراه أخرى للحصول على اعتراف الجندي الشاب،

وانها أخفت الادلة عن المحكمة.

اعتاد الشعب الاسرائيلي على واقع سلبي جديد، فقبل عقد، كان محظوراً ذكر اسم الشين بيت، وكان امرا غير مقبول انتقاد الاجهزة السرية، أما الان، وخلال أقل من سنة؛ أزيح قناع السرية مرتين لتنكشف الشين بيت ملطخة بأسوأ فضيحتين لها: قتل خاطفي الباص، ومقاضاة نافسو، وقد أصبحت الشكوك الواسعة النطاق تحيط بأحكام الوكالة ونقاء الهدف وطريقة العمل. فالاسرائيليون أخذوا يرون وكالتهم الامنية الداخلية لأول مرة، ولم يرضوا عما رأوا.

ان الرئيس هيرزوغ الذي صادق على الصفقة التي عفا فيها عن كبار ضباط الشين بيت، اعلن الان ان قضية نافسو جعلته يشعر «بالخجل» وقد تحدّى المدعي العام الجديد، يوسف حريش، رغبات نادي «رؤساء الوزارات» والشين بيت نفسها حين أمر باجراء تحقيق مع الذين استجوبوا نافسو، وكان الهدف الرسمي ملاحقة تهم جنائية مع انه كان من الواضح أنه لا يمكن المساس بغيناسور بسبب العفو المفتوح الذي تلقاه.

وفي اعقاب الضغوط من الرأي العام، كما ظهرت من صحف ومجلات اسرائيل، قامت الحكومة بتعيين لجنة تحقيق يوم ٣١ ايار ١٩٨٧، بعد اسبوع من الافراج عن نافسو من قبل المحكمة العليا. وترأس القاضي موشي لانداو الذي كان قد تقاعد من المحكمة العليا، التحقيق الجديد في مجتمع المخابرات وطرقها، وكان المحققان الاخران اسحق هوفي، رئيس الموساد السابق، ومراقب الدولة يعقوب مالتز. وطوال نصف سنة استمعت لجنة لانداو الى شهادات من رؤساء وزارات، ورؤساء الشين بيت ومستشاريها القانونيين وموظفيها، والذين كانوا قد استجوبوا وممثلي الجمعية الاسرائيلية لحقوق الانسان وحتى محامين أجانب من لجنة العفو الدولية.

وفي الوقت ذاته، ظهر الى النور قضية أخرى مزعجة، فقد اعتقلت الشين بيت يوم ١٩ تموز ١٩٨٧ عوض حمدان، وهو شاب في الثالثة والعشرين من أبناء قرية صغيرة قرب طولكرم في الضفة الغربية. وكان يشتبه بانه عضو في منظمة فلسطينية، وبعد عقدين مات في زنزانته وزعم مستجوبوه انه مات من سكتة قلبية، لكن اسرته قالت ان جثته أظهرت اثار التعذيب الجسدي.

وانتشرت الشكوك في التعذيب ولوثت مركز التشريح الحكومي، حيث كان خبراء الطب الشرعي مسؤولين عن تقرير سبب وفاة كل من يموتون في ظروف مشبوهة في اسرائيل.

وحتى صدور تقرير لجنة لانداو في اواخر تشرين الثاني ١٩٨٧، كان المركز يتمتع بمصداقية، وعند ذلك اتضح ان عددا من اطباء المركز قد حرّفوا الحقائق. فقرروا سبب وفاة المسلحين اللذين قتلا في قضية الباص ٣٠٠ ـ لمصلحة الشين بيت ـ ووافقوا على القول ان حمدان مات نتيجة سكتة قلبية.

كان تقرير لانداو مفجعا: تسجيلا مطبوعا لكيفية تغلغل الداء في الشين بيت، فقد ذكر انه في عام ١٩٧١ وافق رئيس الوكالة آنذاك يوسف هارميلين على أن يكذب رجاله في المحاكم. واشار التقرير الى أنه لم يأمر رجاله بالكذب لكنه وافق على هذا كحقيقة واقعية.

وكشف لانداو وهوفي ومالتز أن عملاء الشين بيت كانوا يكذبون أمام المحاكم الاسرائيلية كقضية عادة ومنهج، مع أن القانون الاسرائيلي يفرض عقوبة بالسجن لمدة سبع سنوات بسبب حلف يمين كاذب. لكن موظفي الشين بيت وضعوا أنفسهم فوق القانون.

وجاء القرار بالكذب من الزيادة الكبيرة في العمليات الارهابية التي اعقبت احتلال اسرائيل للضفة الغربية وقطاع غزة، فعندما تزايد الارهاب شعر محققو الشين بيت أن عليهم ان يستخدموا الضغوط النفسية وبعض اشكال التعذيب ـ «الضغط النفسي» بكلمات اللجنة ـ لانتزاع الاعترافات من المذنب.

تولت الشين بيت مهمة الحصول على معلومات وقائية لاعطاء التحذير المبكر من هجمات فلسطينية الا أن اساليبها تجاوزت القانون الاسرائيلي، فقد كانت مئات من محاكمات الارهابيين محاكم عسكرية جماعية حيث كان القضاة العسكريون يقرأون الاعترافات التي تحصل عليها الشين بيت. وحين كان المتهمون يقولون انهم تعرضوا للتعذيب او اكرهوا بطرق أخرى على اعطاء بيانات كاذبة، كان القضاة العسكريون ـ دون وجود هيئته محلفين ـ يقبلون إنكار الشين بيت.

واستمر نموذج اليمين الكاذب مدة ست عشرة سنة، حيث امتدت من عهد افراهام اشيتوف الى عهد افراهام شالوم على قمة الوكالة. وقد ذكر تقرير لانداو ان شالوم «وجد معيارا يستند الى الشهادة الكاذبة، هكذا قيل لنا، وقد انتقل المعيار من جيل الى آخر، عندما افكر في الحرب ضد الارهابيين، هكذا قال لنا، فأنني لا افكر في سياق المحكمة الاسرائيلية، حتى انه لم يفهم ان هنالك ما هو خطأ في هذا المعيار، وتعتبره اللجنة واحدا من المسؤولين عن وجود هذا الاسلوب المشين».

شجب التقرير قيادة الشين بيت بأسرها «والتي فشلت في عدم ادراك أنه ليس هنالك اي اعتبار أمني مهما كان مهما أو حيويا، يمكن أن يضع اولئك المعنيين فوق القانون، ولم تدرك القيادة انها خولت بمهمة رئيسية يمكن أن تبرر وسائل معينة، لكن ليس كل الوسائل، ومن المؤكد ليس الادلاء بشهادة كاذبة».

كتبت استنتاجات لانداو بوضوح اكثر من معظم الوثائق الحكومية عندما قال ان قول الحقيقة الزامي على عملاء الشين بيت« كل من يُكتشف بانه لم يقل الحقيقة كان يُعاقب بأقسى طريقة، وكانت هنالك حالات طرد من الجهاز وقد خلق هذا النهج نوعا من الازدواجية في القيود:

الاصرار على قول الحقيقة داخل الجهاز من ناحية، والادلاء بشهادة كاذبة في المحكمة من ناحية أخرى. وهذه الرسالة المزدوجة لم تزعج أحدا طوال ست عشرة سنة».

وفي الوقت ذاته، ولأن اللجنة ركزت على تعقيد معركة الشين بيت ضد الارهاب، فقد ذكرت بوضوح ان محققي الوكالة يملكون الحق في استخدام درجة معينة من «الضغط» على الناس - وتقصد العرب - الذين يخضعون للاستجواب دون وضع حدود لهذا الضغط، الا ان التقرير حذّر من ان على كل عميل شين بيت «الا يضع قوانينه بنفسه» بشكل اعتباطي، في ممارسة الضغط على الشخص الذي يخضع للاستجواب».

وأملاً في ان يقدم بعض الارشادات كتب لانداو يقول: ان درجة استخدام هذه الوسائل ينبغي ان توزن بدرجة الخطر المتوقع، حيث ينبغي تحديد وسائل الضغط النفسي والجسدي بشكل مسبق، وأي خروج على المسموح به يجب ان يقابل بردّ قوي وفوري من القادة.

قبل أن يجف الحبر على التقرير أصبح واضحا ان محققي الشين بيت كذبوا أمام لجنة لانداو، وعندما اكتشف الرئيس الجديد للشين بيت قضية الشهادة الكاذبة، أوقف الثلاثة عن العمل. والمفارقة أن رئيس الوكالة الجديد لم يكن الا يوسف هارميلين - حيث جيء به من التقاعد لفترة ثانية بعد اثنتي عشرة سنة من مغادرة الشين بيت، وبعد سبع سنوات من طيرانه من طهران على طائرة إجلاء اميركية حيث كان سفير اسرائيل غير الرسمي حتى الثورة الاسلامية في عام ١٩٧٩.

لقد كانت عادة الكذب أمام المحاكم قد نشأت خلال فترة هارميلين الاصلية في الشين بيت، من عامي ١٩٦٩ و ١٩٧٤، الا ان هارميلين كان شخصا مخضرما ومحترما وقوبل بالترحيب في عام ١٩٨٦ كرئيس مؤقت للشين بيت ليملأ المنصب في وقت الازمة. وكانت مهمته اعادة النظام والثقة والامل في الوكالة، التي تمزقت نتيجة عدة فضائح وتحقيقات.

واستمرت مؤشرات السخط في الشين بيت، ولم يكن الموظفون يخفون اشمئزازهم من المحققين والصحفيين الذين بدا انهم يتوقعون شكلا نظيفا من الحرب ضد الارهاب، وقد لام رجال الشين بيت السياسيين لأنهم فشلوا في اتخاذ قرارات بعيدة المدى حول وضع الضفة الغربية وقطاع غزة وتطبيق القوانين هناك. لقد شعر كثير من رجال الشين بيت أنهم اكباش فداء للاحتلال، وبعد اكثر من خمس وثلاثين سنة من الثورة الاصلية للجواسيس بدا ان هنالك شبه ثورة ستنشب داخل مجتمع المخابرات الاسرائيلية. واستطاع هارميلين بطريقته الهادئة ان يضفي الاستقرار على صفوف الشين بيت، وتهدئة موظفيها، الا انه لم يستطع ان يصلح الاضرار التي لحقت بسمعة الشين بيت ومجتمع المخابرات بأسره فلأول مرة في تاريخ اسرائيل لم تعد الاجهزة السرية بقرة مقدسة لا تحتاج الى مواجهة تساؤلات حول اساليب عملياتها.

ان تلك الاسئلة التي عصفت بالسي آي ايه في السبعينات قد واجهت مجتمع المخابرات الاسرائيلية في الثمانينات، بشكوك وحقائق مؤلمة لم يسبق لها مثيل. وبعد ان خسرت قدرا كبيرا من الثقة الشعبية في الداخل، فقد كان سادة الجواسيس الاسرائيليين يواجهون ازمة مع أفضل اصدقائهم في الخارج.

الفصل الرابع عشر

جاسوس في اميركا

كان دخول جوناثان جاي بولارد مجمع السفارة الاسرائيلية في واشنطن العاصمة يوم ٢١ تشرين الثاني ١٩٨٥، كان آخر عمل في عملية سرية هددت العلاقة الاسرائيلية الطويلة الاجل مع أهم حليفة لها، وهي الولايات المتحدة، أحد المصادر الرئيسية للقوة الاسرائيلية.

كان جاي بولارد يجلس في سيارته الفورد في صباح ذلك الخميس، وهو يتصبّب عرقا. كان يجلس على مقعد القيادة، وكانت زوجته ان هندرسون بولارد تجلس الى يمينه، وكان يحملان معهما شهادتي ولادتهما، وشهادة زواجهما، والصور العائلية، وقطتهما وشهادة تطعيم القطة. كان آل بولارد مستعدين للهرب من اميركا، كانا خارج بوابات مجمع السفارة، قرب شارع كونيكتيكوت وشارع فان نس، شمال شرق واشنطن، وكان محرك سيارتهما شغّالا.

انفتحت الابواب الفولاذية الثقيلة لعبور سيارة أخرى، وداس بولارد على دواسة البنزين واسرع وراء السيارة الاخرى ليوقف سيارته في موقف السيارات امام مبنى السفارة، الذي كان جديدا ومبنيا على طراز مباني القدس الحجرية القديمة، بنوافذ أقواس، وكاد حارس اسرائيلي ان يخرج مسدسه المخبأ تحت ابطه، عندما قال السائق الاصلع ذو الثلاثين سنة كلمات عن كونه يهوديا يطلب اللجوء. وقال للاسرائيليين المحتارين: ان الاف بي اي تلاحقني. احتاج الى مساعدة.

خلال دقائق، كان عملاء الاف بي أي الذين كانوا يلاحقون بولارد يخبرون فريق الامن الاسرائيلي، من خلال جهاز الاتصال الموجود على البوابة، ان الرجل الذي دخل المجمع بسيارة فورد مطلوب للاستجواب، وفي ضوء الحصانة الدبلوماسية كان يمكن للاسرائيليين ان يفعلوا أي شيء، مع أن إيواء شخص هارب يمكن ان يؤدي الى حادثة سياسية ضارة. وأجرت البوابة الامامية مكالمة هاتفية داخلية سريعة مع الطابق العلوي من المبنى المكون من ستة طوابق، حيث كانت وكالات المخابرات الاسرائيلية تؤوي ممثليها في واشنطن.

كان ضابط الامن الرئيسي في السفارة قد سمع من بولارد نفسه في اليوم السابق، وهو يذكر اسماء رافي ايتان وآخرين ويطالب بالمساعدة. وفي مكالمة هاتفية ثانية طلب رجل الأمن من

الاميركي ان يجيء الى السفارة اذا استطاع ان «يملص» من الاف بي آي ، لكن الاف بي آي كانت وراء آل بولارد، اللذين كانا ما يزالان ينتظران في موقف السيارات في الخارج، يحيط بهما الحراس الاسرائيليون بلباس مدني.

«متأسفون»، هكذا قيل للاميركيين اللذين يطلبان اللجوء، بينما رافقهم رجال الامن الى خارج البوابة. واعتقلت الاف بي آي بولارد، وقادوا زوجته الى بيتها في نيويورك، بينما كان جوناثان جاي بولارد في طريقه الى السجن مدى الحياة.

* * *

كان بولارد مدنيا عمل مع البحرية الاميركية عدة ست سنوات، وقضى معظم الوقت في وحدات الاستخبارات ومكافحة الارهاب ولم يكن بولارد سوى موظف مكتب، لكن عمله يشمل جهاز كمبيوتر يصل الى كل سرّ تجمعه وتخزنه شبكة الاستخبارات الاميركية الضخمة. وبينما كان يعتبر نفسه اميركيا مخلصا فقد كان مؤيداً متحمساً لاسرائيل.

ولد بولارد في ٧ آب ١٩٥٤ لاسرة يهودية في غالفستون، تكساس، وقضى معظم شبابه في ساوث بند، انديانا ، وكان بولارد محبّاً للعزلة فكوّن حماسه للصهيونية بنفسه.

درس بولارد في جامعة ستانفورد، وهي واحدة من أحسن الجامعات الاميركية، حيث اكتشف اساتذته في العلاقات الدولية انه ذو خيال مفرط. وقد زعم انه كولونيل في الجيش الاسرائيلي مع انه في اوقات اخرى كان يقول انه كابتن، بل انه اخبر معارفه بان الموساد تتعهدّه ليكون جاسوساً داخل الحكومة الاميركية.

كان جيران بولارد في المهجع يعتبرونه مضطربا وغامضا، وقد غضب ذات مرة من مجموعة من الاسرائيليين افترض انهم سيقتلونه، فاطلع اصدقاءه على مسدس وحشر نفسه في غرفته. كما قال لهم ذات مرة انه قتل عربيا عندما كان يقوم بالحراسة في احد الكيبوتسات.

كانت قصص بولارد تتعلق باسرائيل دائما، وقد ترك الانطباع لدى بعض الناس ان الموساد تدفع رسوم دراسته، ومع ان القصص لم تكن تبدو جميعا قابلة للتصديق الا انه كان يرويها بقناعة حتى يكون من الصعب الاعتقاد بانها كاذبة، مع انها كانت كذلك.

* * *

بعد الحصول على البكالوريوس من ستانفورد في عام ١٩٧٦، توجه بولارد لدراسة الحقوق والدبلوماسية في كلية فليتشر في جامعة توفتس، قرب بوسطن. ومع ان دوراته لم تؤهله للحصول على شهادة إلا أن البحرية الاميركية وظفته كمحلل مدني للمعلومات، في خريف ١٩٧٩، وكانت

وظـائفه مـع البحريـة في منطقـة واشنطن في وكـالات تحمل اسماء مثل مـركز الاستخبـارات والاستطلاع العملياتي البحـري، مركـز المسانـدة الاستخباريـة البحري، وجهـاز التحقيقات البحرية. (ان آي اس).

كان واحدا من عدد ضئيل اختيروا لمركز مكافحة الارهاب الجديد في مقر ان اي اس في سويتلاند، ميريلاند، عندما وسعت كل القوات الاميركية المسلحة جهودهـا لكشف اشارات مبكرة لتهديد ارهابي. وكان ذلك في حزيران ١٩٨٤، رداً على الشاحنة الانتحارية الملغومة التي قتلت ٢٤١ جنديا اميركيا فيي بيروت في تشرين الاول السابق. وقد جرت محاولة جادّة لتجميع كل الحقائق والمفاتيح والشائعات في هذا المجال الغامض، وتشمل الوصول الى عـدد كبير من المصادر والتقاريـر: عن اهداف محتملة ومهـاجمين محتملين وهـوية الجمـاعات والافـراد الذين يساعدون الارهابيين، وما تفعله الاقطار الاخرى حول الارهاب.

في هذا الزمن الحافل بالارهاب، كانت كل الاجهزة نشطة، وكان بولارد يتمتع بالوصول الى كل شيء تقريبا. فقد كان لديه جهاز كمبيوتر يستطيع الوصول الى بنوك المعلومات في كل انحاء نظام الاستخبارات الفدرالي، وكان له تصريح بالاطلاع على الاوراق البالغة السرية، كما كان يملك مستوى عاليا من التصريح يعرف باسم اس سي آي (المعلومات المهمة المقسمة). كما كان يحمل اهم بطاقة مكتبية في العاصمة ـ «بطاقة رسول» تسمح له بزيارة الملفات البالغة الامنية وحمل الوثائق الى مكتبه للتحليل.

ظل ضباط الامن في واشنطن مذهولين لسنـوات ازاء الكابـوس المتمثل في ان رؤسـاءه الاميركيين اخفقوا في كشف صفاته الشخصية المثيرة في المدرسة، وتبجّحاته المبالغ فيها وكذباته الصريحة، فقد تقدم بولارد للعمل مع السي آي ايه في عام ١٩٧٧ لكن طلبه رفض، وعندما قام جهاز التحقيقات الدفاعية التابع للبنتاغون (دي آي اس) بدراسة الخلفية المعمول بها حول بولارد كمتقدم لوظيفة مخابرات بحرية بعد سنتين، قابلوا والد بولارد وعـددا من زملائـه في جامعـة فليتشـر، لكن السي اي ايه لم تعط (دي آي اس) تقييم الـوكالـة لبولارد «ككـاذب خيـالي، وجاسوس نظري ومتعصب صهيوني ومتعاطي مخدرات».

في عام ١٩٨١ قامت البحرية بتجريد بولارد من تصريحـه الامني لفترة قصيـرة، بسبب مشكلات عاطفية غير محددة وصفت «بالسلوك الغريب»، بل ان بولارد زعم انه صديق حميم لرجل مخابرات كبير من جنوب افريقيا، لكن عندما قام ذلك الرجل بزيارة الولايات المتحدة، اكتشف رؤساء بولارد ان مزاعمه كاذبة. فاقترحوا عليه ان يذهب الى طبيب نفسي، لكن بولارد كافح عبر البيروقراطية حوالي ستة شهور، وقدم شكوى رسمية وكسب نقض القرار لأن الجيش الاميركي لم يستطع ان يثبت وجود شيء ضد موظفه المدني الغريب!

شرع جاي بولارد، محلل المخابرات الاميركي الذي حلم بالتجسس لاسرائيل، في ممارسة خيالاته، وخطا اول خطوة له في عالم الخيانة في ايار ١٩٨٤، عندما التقى الرجل الذي جعله جاسوسا. فمن خلال رجل اعمال نيويوركي كان يعرفه، تم تعريفه على كولونيل من سلاح الجو الاسرائيلي اسمه أفييم سيلا.

كانت مؤامرة منذ البداية، فقد اخبر بولارد ذلك الكولونيل بان لديه دليلا ايجابيا على ان الولايات المتحدة لا تشرك اسرائيل بكل المعلومات الاستخبارية التي يجب ان تشركها فيها، وقال بولارد انه غاضب من ذلك. وكان سيلا يصغي باهتمام، وهو الذي كان واحدا من امهر طياري اسرائيل وشارك في الغارة على المفاعل الذري العراقي عام ١٩٨١.

نقل سيلا المعلومات بالطرق الرسمية، الى قيادة سلاح الجو في تل ابيب، وهناك، تم نقل تقريره عن رجل مخابرات اميركي محبط راغب في مساعدة اسرائيل الى رافي ايتان، رجل المخابرات الاسرائيلية المحبط الذي يرتبط بوزارة الدفاع كرئيس لوكالة التجسس التكنولوجي، لاكام.

كانت اسرائيل تحصل على التكنولوجيا القيّمة من أهم الانواع، من مصدر اميركي واحد على الاقل، ومن بين الوسطاء، كان هنالك مقاول اسرائيلي في هوليوود، قام بتقديم مسؤولي بلاده العسكريين الى مؤسسة اسمها ميلكو كاليفورنيا، ويملكها ريشارد سميث، وهو يهودي، اتهمته هيئة محلفين فدرالية في ايار ١٩٨٥ بتهريب ٨١٠ جهاز الكتروني لاسرائيل، وهي اجهزة يمكن استخدامها كعوامل تفجير في القنابل الذرية. وكان تصديرها يستدعي الحصول على تصريح خاص، لكن سميث قدم طلبا لتصريح سترفضه الحكومة الاميركية لان اسرائيل لم توقع على معاهدة عدم انتشار الاسلحة الذرية.

اكتشف محققوا الاف بي اي ان ٨٠ بالمئة من عمل شركة ميلكو الذي يعود الى عام ١٩٧٣، كان مع اسرائيل. وقد اخرج عن سميث بكفالة بقيمة مئة الف دولار. لكن بعد ثلاثة شهور لم يمثل امام المحكمة، حيث اختفى لكن سميث شوهد في بريطانيا واسرائيل.

اعتذرت اسرائيل للولايات المتحدة بعد ان احتلت القضية العناوين الرئيسية قائلا ان الاجهزة الالكترونية هي للاغراض الطبية ولم يتم استخدامها في برنامجها الذري، وكما طالب الاميركيون، اعيدت كل المفجرّات «غير المستعملة».

ذكر عدد من الحوادث الاخرى في عام ١٩٨٥، والتي كان للمؤسسات الحكومية الاسرائيلية، مثل الصناعات العسكرية الاسرائيلية علاقة في صفقات غامضة مع الشركات الاميركية، وقد قدّم بعض الاميركيين للمحاكمة، ولم يُخفِ المسؤولون الحكوميون، خاصة في جهاز الجمارك والاف بي آي، غضبهم من تصرفات اسرائيل.

لكن أعلى وأوضح رسالة من واشنطن، خاصة بعد ان اصبح رونالد ريغان رئيسا في عام ١٩٨١، تتمثل في أنه لا ينبغي لاسرائيل ان تعاني طويلا بسبب اي شيء فعلته. فالعصر الذهبي للتحالف الاميركي الاسرائيلي القوي وغير المعلن اخذ يؤتي ثماره.

لم يكن هنالك أي تعهد رسمي، كما هو الحال في الناتو والاحلاف العسكرية الأخرى، بان اي هجوم على بلد يعتبر هجوما على البلد الآخر، لكن اسرائيل كان لها المبرر لتشعر بانها اقرب الى الولايات المتحدة من الحلفاء الغربيين الرسميين مثل بريطانيا.

لقد ذهب ريغان ابعد مما ذهب اليه أي رئيس اميركي في جعل الاسرائيليين يشعرون بالامن، فلم يكن هنالك اي احتجاج حقيقي من الحكومة الاميركية على غزو لبنان في عام ١٩٨٢، وقد زمجرت وزارة الخارجية ضد انشاء المستوطنات اليهودية في الاراضي المحتلة لكنها لم تفعل شيئا. والأهم من ذلك ان البيت الابيض قدم دعما كبيرا لمذكرة رسمية حول التعاون الاستراتيجي مع اسرائيل.

ظل معظم المذكرة سرّاً، لكن الاثار المرئية شملت زيادة في زيارات الاسطول السادس الاميركي لميناء حيفا. وكانت القوات المسلحة الاميركية تخزن المعدات العسكرية والامدادات الطبية في اسرائيل، كما كانت المناورات التدريبية المشتركة شائعة اكثر من أي وقت مضى. وشملت الاثار غير المرئية تعاونا كبيرا بين جهازي المخابرات بما في ذلك محاربة الارهاب، حيث كانت الولايات المتحدة تعتمد بشكل شبه كامل على الاسرائيليين ازاء المعلومات عن الجماعات الارهابية العربية.

استنتج مخضرمو السي آي ايه، ذوو الخبرة الطويلة في الشرق الاوسط، ان الاسرائيليين يستطيعون ان يأخذوا أي شيء، وكانوا يعرفون ذلك. حتى ان جاسوساً اميركيا قال لعميل موساد، شبه مازح، ان اسرائيل محظوظة لانها لم تصبح الولاية الحادية والخمسين. وقد تساءل رجل المخابرات الاسرائيلي، لماذا نحن محظوظون؟ فرد عميل السي اي ايه: لأنه عندئذ لن يكون لكم الا سناتوران. أمّا الآن فان لكم ما لا يقل عن ستين سناتورا.

كانت حكومة ريغان، تعطي الدولة اليهودية حوالي ثلاثة بلايين دولار كمساعدات سنوية، ثلثاها كدعم عسكري. وبدا بئر الكرم بلا قاع، كما ان نافورة الاعفاء لم تكن لتجفّ ابدا.

ومع هذا كانت مجتمعات المخابرات في البلدين يشك بعضها في ا لآخر. فقد كانت الاف بي اي قلقة من المدى الواسع للنشاطات الاسرائيلية في الولايات المتحدة. وكانت مقتنعة بان كثيرا من هذه النشاطات يصل الى التجسس. وكانت دائما في حالة ترقب لانتهاكات القانون من خلال حصول اسرائيل العدواني على التكنولوجيا.

ان ندرة عمليات المقاضاة وكثرة المعلومات المسّربة الى الصحافة من قبل مسؤولين اميركيين غاضبين قد عملت كتحذير لايتان وباقي افراد المؤسسة الصناعية العسكرية في اسرائيل بان التصرفات السرية تحمل مخاطر الانكشاف، فعندما قرا تقرير الكولونيل سيلا من نيويورك، احتار ايتان وتشكك ازاء ظهرر بولارد «كمتطوع»، فقد تكون فخاً، نصبته السلطات الاميركية.

وفي الوقت ذاته كان ايتان يعرف ان الاميركي الشاب يمكن ان يكون ثمينا جدا. فرغم اتفاقيات التبادل الرسمية كان مجتمع المخابرات الاسرائيلية يفترض دائما ان الولايات المتحدة لا تشارك في كل شيء. ويمكن لبولارد ان يملأ الفجوة. وبوجود جاسوس في الداخل يستطيع الاسرائيليون ان يعرفوا ما ينقصهم.

كما ان بولارد شكل فرصة لايتان ليتفوق على الموساد بطريقة الموساد، في جزء من محاولاته الرامية الى امتداد لاكام الى مجال جديد ـ ليظهر انه يستطيع ان يحصل على معلومات من واشنطن اكثر مما تقدم السي اي ايه والبنتاغون.

رفض رئيس الموساد ـ ادموني، ان يكون لوكالته جاسوس رسمي في قلب مجتمع المخابرات الاميركية، في ضوء اتفاقية التعاون لعام ١٩٥١ مع السي آي ايه وما تبعها من تحديثات، كانت هنالك اتصالات يومية، بما فيها علاقات كمبيوتر، بالاضافة الى اجتماعات رسمية مرتين في السنة للنظر في خطط جديدة للتعاون، واستعراض العالم بالنظر الى فرص مشتركة، وقد يكون ضارا وحتى مدمراً للعلاقة ان تزرع الموساد عميلا بين اصدقائها، والاسوأ من ذلك، أن يتم ضبط العميل.

اذا كان العميل يعرف لمن يعمل ويصرّ على أنه لا يريد إلا خدمة الولايات المتحدة فانه لا ينبغي أن يدار من خلال محطة السي آي ايه المحلية في تل أبيب. ينبغي ألا يكون هنالك أية آثار للتدخل الاميركي، ويجب عقد الاجتماعات في بلد ثالث، ويجب توجيه العملية من محطة اخرى للسي آي ايه. والافضل من ذلك، يجب استخدام وكالات بديلة، فلا يجب ان تتدخل السي آي ايه رسميا في ادارة الجواسيس داخل اسرائيل وعليها ان تسلّم مثل هذه المسؤولية لجزء آخر من مجتمع المخابرات الاميركية. ومثيلاً لذلك، عندما تواجه الموساد فرصة تجسسية في الولايات المتحدة فان عليها ان تعمد الى ترك المهمة لوكالة اخرى مثل لاكام.

والحقيقة انه لا يوجد اي مؤشر على ان المخابرات الاميركية، قد تسللت الى الاجهزة السرية في اسرائيل، مع ان الولايات المتحدة ارسلت جواسيس الى اسرائيل في مهمات محددة ليعرفوا عن المشاريع العسكرية والاقتصادية والعلمية ـ بما فيها البرنامج الذري، وقد علّق وزير الدفاع اسحق رابين بعد اعتقال بولارد ان اسرائيل اكتشفت خمسة جواسيس اميركيين في أواخر السبعينات واوائل الثمانينات في المرافق الذرية والصناعية الحساسة. وكان احدهم يجمع

المعلومات في شركة تطوير الاسلحة التابعة للدولة، وهي شركة رافائيل في حيفا. وكان هنالك جاسوس آخر وهو عالم اميركي يعمل في مشروع تبادل في مفاعل البحوث الذرية، ناحال سوريك، الذي قدمته حكومة ايزنهاور لاسرائيل، وتم استجواب الجواسيس الاميركيين وطردوا دون محاكمة تجنبا لمضايقة الولايات المتحدة.

عندما ظهرت قضية بولارد اشاع عضو لجنة المخابرات التابعة لمجلس الشيوخ، دافيد دورنبرغر ان المخابرات الاميركية كانت تدير ما لا يقل عن جندي اسرائيلي، كعميل مدفوع الاجر، خلال غزو لبنان عام ١٩٨٢.

كان موظفو السي آي ايه في مقرّها في لانغلي يشعرون بالاغراء للبحث عن عملاء محتملين بين مئات الالاف من الاميركيين الذين رحلوا الى اسرائيل لكن لان معظمهم كانوا يهودا هاجروا من دافع ديني او صهيوني فقد شعرت السي اي ايه ان ولاءهم لاسرائيل وليس للولايات المتحدة. وبينما كانت المخابرات الاسرائيلية تؤمن ان وكالات التجسس في الكتلة الشرقية كانت تزرع الجواسيس بين المهاجرين اليهود المتوجهين الى اسرائيل، فان الاسرائيليين لم يشكوا في ان السي اي ايه تفعل ذلك.

من ناحية اخرى كانت المخابرات الاميركية واثقة من وجود جواسيس بين الاسرائيليين الذين يرحلون الى الولايات المتحدة او الذين يزورونها للدراسة او الزيارة.

وفي الحقيقة كانت النشاطات السرية الاسرائيلية في الولايات المتحدة واسعة النطاق، فقد كان يطلب من الاسرائيليين الذين يسافرون للخارج، حتى الى اميركا، ان يبقوا عيونهم مفتوحة - خاصة اذا كانوا علماء يشاركون في مشاريع تهمّ الدفاع الاسرائيلي. لكن لم يكونوا مستأجرين من قبل الموساد او امان، فالمعلومات التي يمكن ان تساعد اسرائيل ينبغي ارسالها بدافع وطني، حسبما شعر كثير من المسافرين.

بغض النظر عن النشاطات السرية في الولايات المتحدة فان الموساد تجنبت استعمال محطتها المحلية في واشنطن - مثلما فعل الاميركيون في اسرائيل. فعندما كان يتم ارسال جاسوس اسرائيلي الى اميركا في مهمة معينة لم يكن يتم اخبار رجال الموساد في واشنطن بذلك.

كان جوناثان بولارد حالة غير مألوفة، فقد كان متطوعا، وكان يعمل في مخابرات بحرية، قادراً على الوصول الى الوثائق، وكان يهوديا، عرض العمل خدمة لاسرائيل فقط، وكان ايتان يعرف مخاطر استغلال يهود محليين كعملاء سريين في وطنهم - تمشيا مع النموذج الذي اتبع في مصر والعراق في الخمسينات. لكن المعلومات التي استطاع بولارد ان يحصل عليها لا تقاوم.

بموافقة رئيس هيئة الاركان وقائد سلاح الجو، فقد سمح لايتان بان يستخدم الكولونيل في

تلك المهمة الفريدة. ولم يتم اعلام موشي ليفي واموز لابيدوت بالتفاصيل المحددة لما سيفعله ستيلا الذي يدرس علم الكمبيوتر في جامعة نيويورك.

أمر ايتان سيلا بان يعلم بولارد ان اسرائيل مستعدة لتجربته، وأجرى الكولونيل عدة محادثات مع محلل المخابرات الاميركية، مستخدماً اكشاك التلفون العامة في نيويورك وواشنطن لتقليل فرص تصنت الاف بي آي.

ذهب سيلا الى واشنطن من نيويورك في رحلات جوية مكوكية عدة مرات في صيف ١٩٨٤ للاجتماع مع بولارد وأخذ الوثائق. وكان سيلا يتلقى مساعدة من ملحقي لاكام برئاسة ايتان، في المدينتين الاميركيتين، لكن على عكس ما يتمتعون به من حصانة دبلوماسية، لم يكن سيلا يتمتع بها، فلو اعتقل وحوكم على استلام اوراق سرية، فان سيلا نفسه، وسلاح الجو، واسرائيل، سيتضايقون جدا وربما يواجهون ما هو أسوأ. لكن الكولونيل الشاب كان راغبا في الاقدام على المجازفة.

كانت اول الوثائق التي اعطيت لسيلا من جهاز الاستخبارات البحرية، اوراق كمبيوتر من جهاز بولارد. وارسلت الى تل ابيب بالحقيبة الدبلوماسية وكانت مذهلة تفوق توقعات ايتان.

كان بولارد قد انضم حديثا الى مركز البرت لمكافحة الارهاب في سويتلاند، ميريلاند، وبدأ على الفور في اعطاء المعلومات لسيلا حول مواضيع تتجاوز عمله في المركز (آتاك). وكانت هنالك تفاصيل مذهلة عن تطوير سوريا للترسانة الكيماوية، وعن جهود العراق لاحياء برنامجها الذري.

كانت هنالك معلومات عن بعض احدث انظمة التسليح لدى جيران اسرائيل العرب، وكانت هنالك قوائم واوصاف للاسلحة التي اشترتها مصر والاردن والسعودية، ولأن الولايات المتحدة كانت تعتبر تلك الاقطار العربية الثلاثة موالية لها فقد كانت دائما ترفض مشاركة اسرائيل في مخابراتها. وادرك ايتان ان الوقت مناسب ليكون لاسرائيل نافذة الى تلك الاقطار.

كان حماس بولارد شديدا، خاصة بعد ترقيته في مركز «آتاك» في تشرين الاول ١٩٨٤، وقد أخبر الاسرائيليين أن تصريحه الامني أصبح يخوّل له الوصول الى أية وثيقة في شبكة المخابرات الاميركية. بل يستطيع ان يستعير صور التجسس التي تلتقطها اقمار التجسس الاميركية. ولأنه لم يكن يستطيع اصدار نسخ بواسطة جهازه فقد كان عليه ان يقترض الصور ليوم أو يومين.

صعق سيلا، حين عرف الاهمية الكبيرة لهذا الجاسوس، فقبل ثلاث سنوات فقط، قبل ان يقود سربه من القاذفات المقاتلة في الغارة على مفاعل بغداد، كان سيلا قد درس صور الاقمار الصناعية الاميركية التي حددت الهدف، وكان مثل هذا الوصول الى الوثائق نادراً، حيث كان

مدير السي آي ايه بين الحين والاخر يشارك اسرائيل في مثل هذه الامور المهمة كجزء من اتفاقيات التعاون الاستراتيجي، وفي الوقت ذاته اكمل سيلا دورات الكمبيوتر في نيويورك وعاد الى اسرائيل. وكان بولارد ينتظر ضابط حالات جديدا.

كان ايتان سعيدا بالنتائج حتى انه قرر البدء بمرحلة جديدة، فطار بولارد، وآن هندرسون، وكانت خطيبته في ذلك الوقت، الى باريس على حساب لاكام في تشرين الثاني ١٩٨٤، وكان بانتظارهما مفاجأة حين ظهر آفي سيلا ودعاهما الى مشروب في مدينة الاضواء، واحتار بولارد حول سبب احضارهما الى فرنسا، وذهب الغموض عندما قدمهما سيلا الى يوسي ياغور ضابط حالته.

كان ياغور القنصل العلمي للاكام في القنصلية الاسرائيلية في نيويورك، ويتحدث تاريخ حياته الرسمي، لكن الغامض، عن عدة وظائف غير محددة تولاها سابقا في وزارة الدفاع. وكان ياغور يحظى بالحصانة الدبلوماسية.

كقنصل منذ عام ١٩٨٠، اعتاد ياغور على حضور المؤتمرات الاكاديمية، وعقد الصداقات مع العلماء الاميركيين في الصناعات العسكرية والاخرى، وارسال ملفات ضخمة من قصاصات الصحف والمجلات الدورية المحترفة الى محللي لاكام في تل ابيب.

وفي مفاجأة أخرى، اجتمع بولارد مع رافي ايتان الاسطوري، وتم تقديمه كمدير للعملية بأسرها، وجلس هو وياغور مع بولارد لمناقشة تحركاتهم المقبلة، بما فيها وثائق محددة يحتاج اليها دفاع اسرائيل.

وفي لحظات اكثر استرخاء، قام سيلا بتشجيع جاي وآن على التفرّج على نوافذ أفخم محلات الجواهر في العاصمة الفرنسية، وعندما أحبت آن خاتما ماسيا كبيرا قال سيلا: «اشتريه»، وقال انه سيدفع شريطة أن يكون خاتم خطوبتهما.

وقد كلف حوالي عشرة الاف دولار وكان العلامة الواضحة لاسرائيل في خطوبة آل بولارد. بل ان سيلا اعطاهما مذكرة مكتوبة بخط اليد تقول ان الخاتم هدية من «العم جو» فيما لو سألهم أحد في واشنطن كيف استطاعا شراء مثل هذا الشيء الثمين. وتزوج جاي وآن في آب التالي في البندقية وقضيا شهر عسلهما لمدة ثلاثة اسابيع هناك، على حساب اسرائيل بالاضافة الى رحلة الى تل ابيب للاجتماع مع ايتان مرة أخرى.

تعويضا عن النفقات الضرورية وكرمز للتقدير قال الاسرائيليون لبولارد انه سيتقاضى ١٥٠٠ دولار شهريا، وبالاضافة الى خاتم آن، أعطي بولارد مبلغ عشرة الاف دولارا نقدا واخبره

ايتان انه تم فتح حساب بنكي له في سويسرا، وسيتم ايداع امواله مباشرة، ليستخدمها بولارد خلال عشر سنوات. واجاب بولارد عندها بانه يأمل في العيش في اسرائيل، وردّ ياغور عليه حينها اطلعه على جواز سفر اسرائيلي معدّ لبولارد، وعليه صورته واسمه الزائف «داني كوهين». ان فريق لاكام لم يختر فقط اسما يهوديا قديما، بل ان العميل الاميركي اعرب عن اعجابه الشديد بالجاسوس الاسرائيلي الذي شنق في دمشق، ايلي كوهين، لذلك، ومن أجل تشجيع بولارد، أعطاه ايتان وياغور نفس اسم العائلة على الجواز، وسوف يلقى الترحيب في اسرائيل في اي وقت، كبطل لم يره او يسمع به أحد.

لم يقل ايتان لبولارد ان الخاتم الماسي والاموال النقدية كانت اسلوبا كلاسيكيا لايقاع عميل سري في الشرك والابقاء عليه. فالجاسوس الذي يقول انه يتصرف طواعية وانطلاقا من اعجاب ايديولوجي بالبلد الذي يخدمه - او بسبب كراهية للبلد الذي يخونه - يمكن ان يتغير، فهو يشعر أنه يستطيع ان يتراجع في اي وقت لانه متطوع.

لكن العميل المدفوع الاجر لا يستطيع، فهو يشعر بانه مضطر للعمل، حيث يخشى من الابتزاز. لكن دافع بولارد كان مزيجا من الصهيونية والاثارة، وتعززت كونه جاسوسا بالرحلات المفرطة والدفعات السرية، لكنه كان سعيدا لادراكه انه يساعد اسرائيل في الدفاع عن نفسها.

عندما عاد من اوروبا توجه بولارد الى العمل فورا، وحمل حقيبة مليئة بالوثائق - وصور الاقمار الصناعية عن الشرق الاوسط - الى بيت في ميريلاند حيث اجتمع مع ياغور، وقد قام ضابط الحالة بتعليم بولارد بعض الكلمات الرمزية ليستخدمها في الاتصال او الغاء اجتماع متوقع، واخبر ياغور بولارد انه سيتوقعه ويرحب به في كل جمعه في مكان تصوير خاص أعد في بناية شققية في واشنطن حيث كانت ايريت ايرب تقيم. وكانت تعمل كسكرتيرة لاحد رجال لاكام في السفارة الاسرائيلية.

لقد تم شراء شقة مليئة بمعدات النسخ والتصوير، من قبل هارولد كاتز وهو اميركي يهودي يعمل كمحام في اسرائيل، ولم يكن يعرف كيف تستخدم وزارة الدفاع مكان سكنه في واشنطن.

كان الاسرائيليون يعرفون كيف يبقون بولارد مهتما بعمله: فقد دغدغوا انانيته، حيث كان ياغور، بين الحين والاخر، يخبر بولارد انه مهم جدا وان جهات كثيرة في مجتمعات الدفاع والمخابرات الاسرائيلية تستفيد من المعلومات التي يوفرها. ولأن بولارد كان يعمل في تحليل مثل هذه الامور فلم يكن مقتنعا بالاشياء الصغيرة، فقد كان يصرّ على ان يعرف ياغور من في اسرائيل يستخدم الوثائق السرية وكيف يستخدمونها.

كان رؤساء الوكالات في تل ابيب يعرفون أن كنوز ايتان تأتي من واشنطن، ولا يمكن أن يوفر صور الاقمار الصناعية الا شخص اميركي. ولم يسأل أحد ايتان من هو عميله. هل هو رجل عسكري؟ يهودي؟ اسرائيلي زرع في القوات المسلحة أو الوكالات السرية الاميركية؟ ولا بد ان رجالا مثل ادموني من الموساد او رئيس امان الجديد ايهود باراك قد تساءلوا. فنوعية «المواد» جيدة جدا بشكل لا يجب معه تجاهل طبيعة ومخاطر العملية التجسسية.

كان بولارد يحمل اكواما ضخمة من الملفات الى ايريت ايرب، كل اسبوعين، كان في البداية يقوم بعملية الاختيار، لكن ياغوركون عادة باختيار وثائق معينة بشكل مسبق ـ كما لو كان يأمر ويختار من قائمة، وهذه القائمة هي دليل الوثائق التي جمعتها وكالة الاستخبارات العسكرية التابعة للبنتاغون، دي آي ايه وكيف وقع مثل هذا الدليل وهو وثيقة سرية بين ايدي الاجانب؟ وهنا رأى المحققون الاميركيون في هذا الامر كدليل قاطع على وجود جاسوس اسرائيلي آخر، وربما أهم من بولارد.

وباستخدام «بطاقته» وهي أهم بطاقة في منطقة واشنطن، استطاع بولارد ان يستعير وثائق سرية من ست ملفات مهمة: السي آي ايه والاف بي آي، ووزارة الخارجية والدي آي ايه وحتى وكالة الامن القومي بما تفرضه من قيود مشددة. واذا كانت الوثائق تتعلق بالشرق الاوسط كان بولارد يؤمن بان على اسرائيل ان تعرف عنها. وكان يشعر بان الوزير وينبرغر ومجتمع المخابرات الاميركية لم يكونا يشاركان اسرائيل في كل شيء عن التهديدات المحتملة للدولة اليهودية، وبفضل هذا الجاسوس الشاذ لكن الفعّال، تلقى الاسرائيليون تحليلات السي اي ايه ونسخا من الرسائل المتبادلة بين المرافق الاميركية في المنطقة، وتفاصيل عن شحنات الاسلحة السوفياتية الى سوريا وحلفاء آخرين، كما لاحظها العملاء السريون الاميركيون أو اقمار التجسس، بالاضافة الى صور من تلك الاقمار.

ان الصور والتحليلات التي وفرها بولارد قد سمحت للاسرائيليين، طوال حوالي سنة الى حين القبض عليه، بمراقبة تفصيلية لحركة سفن مختلف الاساطيل في البحر الابيض المتوسط، فقد كان هنالك ملف لدى السي آي ايه حول جهود باكستان لبناء سلاح ذري، وهو مشروع القنبلة الاسلامية، الذي كان يقلق اسرائيل مثل قلقها من المفاعل العراقي الذي دمرته في عام ١٩٨١، وكان هنالك تفاصيل عن الاسلحة الكيماوية المكدّسة لدى العراق وسوريا وهما عدوان لاسرائيل حيث يصعب الحصول على معلومات عنها.

ان تأملات بولارد في السجن، ويشاركه فيها الصحفي وولف بليتزر مهمة في تقييم السبب الذي جعله ذا قيمة كبيرة في نظر ايتان، فقد قال بولارد انه اكتشف ان المخابرات الاسرائيلية عملاق يعرف كل شيء عن الشرق الاوسط، وكانت اسرائيل تكرس افضل موجوداتها الفنية

والبشرية ضد سوريا، التي تشكل اهم تهديد لوجودها، وقال بولارد انه ركّز على حلقتها الخارجية من الاعداء وبالتحديد ليبيا والجزائر والعراق وباكستان.

كان أهم جزء في المخابرات المسروقة ـ الصور الجوية لمقر منظمة التحرير الفلسطينية في تونس، كما كان هنالك تقارير عن نظم الدفاع الجوي لدول شمال افريقيا حتى تونس، بما فيها ليبيا. وقد قصف سلاح الجو الاسرائيلي مبنى منظمة التحرير الفلسطينية يوم الاول من تشرين الاول ١٩٨٥ في أبعد غارة اسرائيلية تقوم بها طوال حياتها، وقد دمرت قاعدة ياسر عرفات وسعد بولارد حين علم بانه ساعد في تحقيق ذلك.

بدأ بولارد في ارسال الاف الصفحات المتعلقة بالتهديدات الارهابية وشحنات الاسلحة السوفياتية واعتراضات الاتصالات الالكترونية ونظم التسليح في الاقطار العربية. ولم يستطع ايتان والمحللون القلائل المتوفرون لديه في لاكام ان يجاروه، وكان واحد من استاذة بولارد في جامعة ستانفورد قد شعر «بأنه يبالغ في العمل» فاذا طلب منه ان يكتب ورقة كان يعدها بشكل اطول من المطلوب، واخذ بولارد يتصرف بطريقة مماثلة لكن ليس كطالب وانما كاستاذ للاسرائيليين.

كان يجب على المخابرات الاميركية ان تعرف ان بولارد لا يعتمد عليه، استنادا الى خلفيته وسلوكه الملتوي، فقد كان رئيسه في «آتاك» جيري آغي، الذي بدأت الشكوك تراوده حول مصداقية بولارد بعد ان ضبطه يكذب مرتين حول امور تافهة، وواصل آغي يراقب بولارد ولاحظ رزماً ضخمة من المواد السرية على مكتبه غير المتعلقة بعمله، وبعد ظهر الجمعة ٢٥ تشرين الاول ذكر زميل ان بولارد غادر العمل وهو يحمل رزمة كبيرة من المادة في اوراق اللف الخاصة بمركز الكمبيوتر، ووجدت السلطات انه كان يصل الى حركة نقل الرسائل المتعلقة بالشرق الاوسط.

وتفقد آغي الامور في يومي الجمعة التاليين، الاول والثامن من تشرين الثاني ولاحظ ان بولارد يجمع معلومات بالغة السرية، ولم يستطع آغي النوم وذهب الى المكتب في الرابعة والنصف صباح ذات يوم ووجد المزيد من المواد المتعلقة بالشرق الاوسط في مكان عمل بولارد، وقال الضابط البحري لنفسه: ان لديّ جاسوساً لعينا.

لم يستطع آغي ان يقنع الاف بي آي بوضع بولارد تحت المراقبة، لان الوكالة كانت مشغولة بسلسلة من حلقات التجسس الاجنبية، لكن مكافحة الجاسوسية البحرية وضعت آلات تصوير تلفزيونية مخبأة حول مكان عمل بولارد، وراقبوه وتأكدوا انه يكدس مكتبته الاستخبارية الشخصية، وتم احتجازه للاستجواب يوم ١٨ تشرين الثاني.

استجوب عملاء المخابرات البحرية بولارد ثلاثة ايام، لكنهم لم يضبطوه متلبّساً، ففي ضوء خبرته في سرد الحكايات الخيالية أخبر العملاء أنه سيساعدهم في كشف مؤامرة تجسسية متعددة الجنسيات، يعرف بها!

ارتاحوا جدا، بل سمحوا خلال الجلسة الاولى من التحقيق بان يتصل بولارد بزوجته، وبينما تظاهر بانه سيأتي الى البيت متأخرا في ذلك المساء، أخبر آن ان تأخذ «الصّبار» للاصدقاء. وكان رمزاً كانا قد اتفقا عليه سابقا، يدل على أنه يعاني من مشكلة وانه ينبغي ترحيل اية وثائق سرية من البيت على الفور.

والمفارقة أن آل بولارد كانا على موعد لتناول العشاء في ذلك المساء، الثامن عشر، مع افيم سيلا، الذي كان في زيارة للولايات المتحدة، وكان سيلا قد أخبر آل بولارد أن سلاح الجو قد رقّاه الى وظيفة قائد لواء وان عليهم ان يخرجوا للاحتفال بذلك. وبدلاً من ذلك، عندما خرجت آن لموعد العشاء كانت في حالة ذعر. وحاولت في طريق خروجها ان تتخلص من حقيبة يدوية كانت متفجرة كالديناميت، بالنسبة لآل بولارد. فقد كانت تحوي على رزمة سمكها خمسة عشر انشا من الوثائق السرية الاميركية، كانت في شقتهما، وكانت «الصبّار» الذي اشار اليه جاي. لجأت آن الى جيرانهم الوديين، آل اسفاندياري، للمساعدة، فطلبت من كريستين اسفانديارى ان تأخذ الحقيبة، قالت انها مليئة بوثائق من عمل جاي، وتسليمها لها في فندق فورسيزونز في واشنطن، كانت عصبية جدا واعطت لكريستين البوم زواج بولارد للاحتفاظ به لديها.

كان آل بولارد طيبين مع ال اسفانديارى، وكانوا يعيرونهم سيارتهم في المناسبات، لكن طلب تهريب حقيبة يدوية من بناية شققية بدا مزعجاً لكريستين، فقد صدف ان كانت ابنة ضابط بحري اميركي، وفي اليوم التالي اتصلت هاتفيا بجهاز التحقيقات البحرية وقالت: لدي بعض المعلومات المهمة التي يمكن ان تكون مفيدة لكم.

وقد روت كريستين فيما بعد: لقد كان أمراً صعبا لأننا اهتممنا بها اكثر من المطلوب، لكن لو كنا في وضع طبيعي لما سمحنا للامور ان تجري كما جرت، فلم استطع ان اصدق ان هؤلاء جيراننا جاي وآن، كنت مجنونة، تألمت كثيرا، فقد شعرت بانني خدعت وغدر بي.

ان الطلب من جار ان يسدي معروفا ليس طريقة جيدة للتخلص من أدلة مشبوهة، وعلاوة على ذلك فان اسم بولارد كان على الحقيبة، ولو أنها وجدت طريقها في قمامة العاصمة، لأمكن ان توقعه في مشكلة.

كانت آن عصبية على العشاء في مطعم صيني في شارع كيه مع سيلا، وقالت: ان جاي في مشكلة.

ولمس سيلا خطرا شديدا وطلب من آن، بعصبية، ألا تعترف بانها التقيا، ولم ير أحدهما الاخر مرة أخرى.

عادت آن هندرسون ـ بولارد الى البيت فوجدت جاي وقد عاد من اول جلسة تحقيق معه، كان كل منهما عصبيا ـ روى بولارد لزوجته أهوال الاستجواب ـ وقررا الاتصال بضابط حالتهما، واتصل بولارد مع ياغور وطالب باللجوء الى اسرائيل.

أجاب ياغور: ليحذّر بولارد وليهدئه أيضاً: ربماتكون تتعرض للمتابعة، اذا استطعت ان تتملص من المراقبة تعال وسوف نساعدك.

كانت الملاحظة ساذجة بشكل غير متوقع من جاسوس كبير: فاذا كان ياغور يظن ان عميله مراقب، فكان عليه ان يعرف ان تلفون بولارد مراقب ايضا.

وكان على اسرائيل وآل بولارد ان يدفعوا ثمن عدم احترافهم في هذه العملية الحساسة والخطرة وكان الاسرائيليون في سباق ليروا من يستطيع الهرب أسرع من غيره، وخلال ثلاثة ايام طار ياغور وسيلا الى اسرائيل من نيويورك وغادرت ايريت ايرب ورئيسها، ايلان رافيد، نائب ملحق لاكام في السفارة في واشنطن، وانتشر خبر اعتقال اميركي بالتجسس.

عندما وصل موجهو بولارد الى اسرائيل ادرك مسؤولو المخابرات والسياسيون ان التقارير الاعلامية عن اخذه من بوابات السفارة الى مقر الاف بي اي كفيلة بان تؤذي علاقات اسرائيل بالولايات المتحدة وبالتحديد: مع السي آي ايه والمؤسسة الدفاعية.

عندما اعترفت اسرائيل باحتمال التورط مع بولارد، بعد ثلاثة ايام من اعتقاله، كانت هنالك صدمة كبيرة من ان المخابرات الاسرائيلية كانت غبية جدا بالسماح باعتقال عميل في سفارة اسرائيل. وقد دهش الناس لأن الموساد كانت بمثل هذا السخف وعدم النضج.

خلال ايام قليلة، انكشف ان لاكام مسؤولة ـ ولم يكن وجودها قد ذكر فيها قبل ـ لكن هذا لم يوفر راحة لدى الشعب الاسرائيلي.

وكان هنالك حيرة لدى الجانب الاميركي، فقد سمع رونالد ريغان لأول مرة عن اعتقال بولارد عندما كان عائدا بالطائرة الى واشنطن من اجتماع القمة مع الزعيم السوفياتي ميخائيل غورباتشوف في جنيف، وقد علق قائلا: انني لا أفهم لماذا يفعلون ذلك.

ومن ناحية اخرى كان ينبغي على الاميركيين ان يعرفوا أفضل. فقد كانت السي اي ايه تفترض ان الجواسيس الاسرائيليين نشيطون في الولايات المتحدة، فقد اعلنت دراسة سرية، للوكالة، انه بعد جمع المخابرات عن جيرانها العرب، فان الاولويتين الثانية والثالثة للمخابرات

الاسرائيلية هما «جمع المعلومات عن السياسة او القرارات السرية الاميركية، ان وجد منها ما يتعلق باسرائيل، وجمع المخابرات العلمية في الولايات المتحدة والاقطار المتقدمة الاخرى».

وكان ينبغي للاميركيين ايضا ان يعرفوا المزيد عن بولارد وتاريخه غير المستقر، كما ظهر خلال استجوابه، فقد اتضح انه ما كان يجب ان يكون في مجتمع المخابرات، فقد كانت السي اي ايه قد رفضت بولارد لكن الوكالة لم تنصح الاستخبارات البحرية عندما بدأ العمل معها.

واعتقلت آن هندرسون ـ بولارد ايضا لأنها كانت تعرف عن نشاطات زوجها التجسسية، وساعدته حيثما استطاعت، كما وقعت أمام الاغراء باستخدام بعض الوثائق التي حصل عليها في علاقاتها العامة.

أصرّ المدعون الفدراليون على مقاضاة هندرسون ـ بولارد، لكنهم كانوا قساة في اعداد قضية قوية ضد زوجها، فقد قال المدعون لقاضي محكمة المقاطعة، اوربي روبنسون ان هذا المتهم قد اعترف بانه باع لاسرائيل كمية ضخمة من الوثائق المهمة، لو جمعت معاً لأصبحت كومة ارتفاعها ستة اقدام وعرضها ستة اقدام.

كتب وزير الدفاع كاسبر وينبرغر رسالته الوحيدة الى القاضي روبنسون: من الصعب أن أتخيل اذى يحيق بالامن القومي اكبر من الاذى الذي سببه المتهم.

وقد قال وينبرغر ان بولارد يستحق القتل شنقا أو ضربا بالرصاص، واضاف ان اصلاح الاضرار يمكن ان يكلف الولايات المتحدة بليون دولار.

في الرابع من اذار ١٩٨٧ بعد اربعة شهور من اعتراف بولارد حكم عليه بالسجن مدى الحياة. فقد غيرت رسالة وينبرغر رأي القاضي.

كان بولارد في الثانية والثلاثين، وزوجته، ٢٦ سنة، اعترفت بالذنب ازاء اتهامات اقل شدة وحكم عليها بالسجن خمس سنوات. وقد سقطت على ارض المحكمة وصرخت: لا لا.

وعندما استعادت وعيها قالت: انني ادعو الله في كل يوم ان يعود لي زوجي، فهو كل ما أعيش له.

لقد اخطأ بولارد بالتباهي بانه «عيون اسرائيل واذانها على منطقة جغرافية شاسعة تمتد من المحيط الاطلسي الى المحيطالهندي».

كما ان مذكرته للقاضي وفرت الراي بان المعلومات التي اعطاها لاسرائيل «فريدة جدا» بشكل كان يجب على القادة السياسيين الاميركيين ان يعرفوا بوجود عميل يعمل في المؤسسة الاستخبارية الاميركية. لكن الجاسوس شعر ان سادته تخلوا عنه.

اسرع المحققون الاميركيون الى تل ابيب ليختبروا تاكيد الحكومة الاسرائيلية بان فضيحة بولارد مجرد عملية خرقاء وان الزعماء الاسرائيليين لم يكونوا يعرفون ان لهم جاسوسا في المخابرات الاميركية.

ولاظهار النوايا الطيبة شكل الاسرائيليون فريق ارتباط لاعطاء المحققين الاسرائيليين كل مساعدة ممكنة، وعين رئيس الشين بيت افراهام شالوم مسؤولاً عن فريق الارتباط، لأن الاميركيين يعتبرونه رجلا محترما، وبعد ان تلقوا، ظاهريا، تعاونا كاملا من شالوم اعتقد المدعي الاميركي جوزيف دي غينوفا ومحامي وزارة الخارجية ابراهيم سوفاير أنهم يستجوبون كل الاسرائيليين المعنيين بتوجيه بولارد، لكنهم لم يتم اخبارهم عن افيم سيلا، فلم تكن اسرائيل لتكشف الذي جند جاسوس لاكام في واشنطن.

وعندما قيل للاميركيين ان كل ما قدمه بولارد من وثائق قد اعيد لواشنطن طارا الى واشنطن ليكتشفا ان واشنطن لم تتلق الا ١٦٣ وثيقة من اصل الف وثيقة منفصلة كانت تتوقعها.

وغضب الاميركيون لانه كان باستطاعة اسرائيل ان تصور الوثائق كما أن بولارد لم يعطها اية وثيقة او صورة أصلية لتحتفظ بها.

وجه مدير الاف بي اي وليم وبستر انتقادات علنية للاسرائيليين واتهمهم بانهم لم يبدوا سوى «تعاون انتقائي»، وكان موقف وبستر كفيلا بان يكون مزعجا لاسرائيل لأنه أصبح بعد سنة مديرا للسي آي ايه.

قامت الحكومة الاسرائيلية بتحقيقين، اتفقا على ان بولارد عمل مع لاكام، برئاسة رافي ايتان، وان افيم سيلا لعب دور الوسيط والمغوي برضى رؤسائه العسكريين، ولم يظهر اسمه علانية إلا لأن بولارد أعطى للمحققين الاميركيين اسم الشخص الذي جنّده.

وقد اختلفت لجنتا التحقيق حول قضية المسؤولية السياسية فلم تجد اللجنة التي عينتها الحكومة - أو لم تذكر على الاقل - أية علاقة مع السياسيين الاسرائيليين، فقد اعتبرت قضية بولارد عملية استخبارية معزولة. أما اللجنة البرلمانية فقد اسقطت اشارات طفيفة الى ان القادة السياسيين يستحقون بعض اللوم.

تم تجنيد بولارد عندما كان موشي ارينز وزيرا للدفاع، مسؤولا عن لاكام، وكان اسحق شامير رئيسا للوزراء. وواصل الجاسوس الاميركي تقديم المعلومات عندما حلّ رابين محل ارينز، وحلّ بيريز محل شامير، ولم يخف السياسيون الاربعة انهم تلقوا بعض المعلومات التي وفرها بولارد لكنهم لم يسألوا عن هوية المصدر، وقد زعموا أنهم، لو عرفوا المصدر، لألغوا العملية على الفور!

ومن ناحية أخرى قال رافي ايتان للجنتين ان ضميره مرتاح، وقال: «ان كل تصرفاتي، بما

فيها قضية بولارد قد تمت بمعرفة المسؤولين، ولا أريد ان أُستغل ككبش فداء لتغطية معرفة الاخرين ومسؤوليتهم».

وبدا ان سيد الجواسيس المخضرم كان يوحي بان السياسيين يعرفون اكثر مما اعترفوا به، وليس مدهشا انهم لم يعرفوا اسم جوناثان جاي بولارد، ووظيفته، لكن بعض التقدير لمصدر «المادة» الاستخبارية كان يمكن ان يتوقع من سياسيين ذوي خبرة طويلة بالامور العسكرية والسرية: رابين كرئيس هيئة اركان سابق، وشامير كعميل موساد كبير، وبيريز كنائب وزير دفاع، أوجد لاكام، وحتى ارينز بخلفيته في الهندسة الفضائية العسكرية.

اذا كانت الحكومة والشعب الاميركيان قد دهشا لعدم المسؤولية في اسرائيل الديمقراطية، فقد دهشوا اكثر لأن المجرمين الاسرائيليين لم ينجوا فقط من العقاب، بل حصلوا على ترقيات.

بعد عودته من الولايات المتحدة، عين قائد اللواء سيلا قائدا لقاعدة تل نوف العسكرية، وهي اكبر قاعدة في اسرائيل. وكان الملحقون العسكريون الاميركيون يذهبون الى هناك، جنوب تل ابيب، يطلعون الطيارين الاسرائيليين على مهماتهم في الطائرات الاميركية الصنع كجزء من التعاون الثنائي في مجال الدفاع والمخابرات.

وسقطت الورقة الثالثة عندما أصبح سيلا ثالث وآخر شخص ـ بعد آل بولارد ـ يدان بتهم جنائية في المؤامرة، فلأول مرة يتم اتهام مسؤول عسكري او مدني رفيع المستوى من بلد حليف للولايات المتحدة بالتجسس ضدها.

وعندما علم المسؤولون الاميركيون ان قائد القاعدة الجوية هو ضابط الحالات الذي جنّد جاسوس اسرائيل في اميركا أعلنت واشنطن انها لن تسمح لاي مسؤول اميركي بالذهاب الى تل نوف طالما ظل سيلا مسؤولا عن تلك القاعدة. وعندما قام جورج بوش في عام ١٩٨٦ بزيارة اسرائيل، وكان نائبا للرئيس، رفض زيارة قاعدة سيلا. ونجح الضغط، فضحّى القادة السياسيون والعسكريون الاسرائيليون بالجنرال الشاب على مذبح العلاقات الاسرائيلية الاميركية. واستقال سيلا.

وجد نفس القادة الاسرائيليين ان من الصعب تنحية ايتان، فقد سارع اريل شارون، وزير التجارة والصناعة، الى نجدة محميه القديم، فاعطاه رئاسة شركة الكيماويات الاسرائيلية وهي اكبر شركة صناعية تملكها الدولة.

ظلت الامور تجري كالمعتاد بالنسبة لاسرائيل، فلم تتغير المتطلبات الصناعية العسكرية المعقدة لاسرائيل لأن بولارد قد وقع، فما تزال الدولة في حاجة الى جواسيسها في مجالات لاكام:

العلوم والتكنولوجيا والصناعة. فقد كانت هذه واحدا من التخصصات لمجتمع المخابرات الاسرائيلية.

التزمت الحكومة الاسرائيلية بوعدها العلني، بعد اعتقال بولارد، بحلّ الوحدة «النخبة» التي اشرفت عليه كجاسوس. الا أن مجتمع المخابرات واصل العمل بطرق مختلفة للحصول على كل ما بدا حيويا للامن الوطني. فعدّل المجتمع تقييم العمل واستطاع التصرف بلا لاكام. ولم يقلق الاميركيون كثيرا بهذا، لأن من الطبيعي ان تلبي اسرائيل حاجاتها الدفاعية عن طريق التجسس. لكن الولايات المتحدة أصرّت على ان تتعهد اسرائيل بعدم توظيف عميل داخل المخابرات ا الاميركية.

وفيما يتعلق ببولارد نفسه فقد شعر ان الاسرائيليين تخلوا عنه ليقضي حياته سجينا، وشعر بالمرارة لكنه ظل متحمساً في تأييده لاسرائيل ودفاعها، لكن اسرائيل لم تفعل اي شيء للدفاع عنه، فبينما كان التعاون مع المحققين الاميركيين بعيدا عن الكمال، فان العقبة كانت ترمي الى حماية آفي سيلا والاسرائيليين الاخرين الذين وجهوا بولارد ـ وليس الاميركي الذي وجهوه .

ومع هذا كان هنالك بعض الدعم السري من مجتمع المخابرات، لمجموعة خاصة من المحامين الاسرائيليين ورجال العلاقات العامة الذين جمعوا الاموال للمساعدة في دفع نفقات آل بولارد القانونية، بل جرت بعض المحاولات غير الرسمية من قبل المحامين والاقارب لاستكشاف امكانية مبادلة جواسيس، مع اقتراحات بان اسرائيل قد ترغب في الافراج عن جاسوس سوفياتي او اكثر ـ مثل شابتاي كالامانوفيش وماركوس كلينبرغ ـ مقابل بولارد. لكن لم يتضح كيف يمكن للولايات المتحدة ان تستفيد من مثل هذه الصفقة، وقد صدر تقرير سري في اوائل عام ١٩٩٠ بان جاسوسا غربيا مسجونا في تشيكوسلوفاكيا يمكن ان يكون جزءاً من مبادلة متعددة الاطراف، لكن كثيرا من الاسرائيليين ترددوا في الافراج عن بولارد وجعله يعيش في اسرائيل كتذكير بمضايقة كبيرة.

ان الضرر الاكثر استمرارا والذي سببته فضيحة بولارد هو خلق صدع كبير بين اسرائيل واليهود الاميركيين، فقد حرص مجتمع المخابرات الاسرائيلية لسنوات طويلة على عدم مجابهة اليهود في اقطار أخرى بالقضية المؤلمة المتمثلة في ازدواجية الولاء. حيث ان تجنيد بولارد واستغلاله قد أفسد النموذج، وقد انزعجت الجالية اليهودية الاميركية لأن جيرانهم غير اليهود قد يعتقدون ان اليهود الاميركيين يحبون اسرائيل اكثر من الولايات المتحدة.

إذن، لماذا واجهت اسرائيل الستة ملايين يهودي في اميركا بهذا المازق باستخدام بولارد؟ هل هو الغباء؟ أم الغطرسة؟ أم الاهمال؟

لم تكن هذه هي الاسئلة الوحيدة التي ظلت بلا اجابة، حيث يقول مدير سابق للسي آي ايه: «لم أفهم ابدا لماذا استخدم الاسرائيليون بولارد؟ انهم يحصلون على كل شيء مجانا، هنا في الولايات المتحدة فالاسرائيليون الموجودون في سفارتهم في واشنطن لا يقومون فقط بالعزف على قيثاراتهم، فانهم يتحركون، يعملون كثيرا، يقابلون الناس. لكن ليسوا مضطرين لسرقة الكثير، لأن تسعين بالمئة مما يحصلون عليه يتلقونه من اميركيين اصدقاء ومتعاونين».

ان ظلال عدم الثقة التي القتها فضيحة بولارد بين الولايات المتحدة والمخابرات الاسرائيلية لن تزول بسهولة، لكن المشاعر الجريحة تخلي المجال دائما أمام الحقائق الاستراتيجية والمصالح الوطنية. فعندما احتاج البلدان لبعضهما في اواسط الثمانينات، للتصدي لقضايا حساسة مثل ايران والرهائن، وجدا قنوات جديدة للتعاون.

الفصـل الخامس عشر

فوضى إيران غيت

كان بالإمكان سماع صوت رئيس الوزراء الايراني من الطرف الآخر للسّماعة في جناح الفندق السويسري. فقد كان مير حسين موسوي في طهران يصرخ عبر اسلاك الهاتف في رئيس استخباراته محسن كانغارلو. وحملق كانغارلو بدوره في الاسرائيلي الذي كان معه في الغرفة الأنيقة. لقد اعتقد الايراني أن الموساد قد قامت بلعبة قذرة.

وكان كانغارلو، وهو شخصية سرية مهمة في ايران الا انه لم يكن معروفا كثيرا في الغرب، في فندق نوغا هيلتون في جنيف مع عميل استخبارات ايراني غير متفرّغ، وتاجر السلاح مانوشر غوربانيفار بالاضافة الى اسرائيلي.كان يبيع السلاح على أمل اطلاق سراح الرهائن الأميركيين والمحتجزين من قبل مسلمين شيعة موالين لايران في لبنان. وكان الاسرائيلي يدعى ياكوف نمرودي، حيث كان الايرانيون واثقين بأنه عميل حالي للموساد. إلا أن نمرودي كان في الحقيقة مجرّد عميل استخبارات اسرائيلي سابق. والأمر المزعج من وجهة نظر لجنة الاستخبارات الاسرائيلية، هو ان الموساد لم تكن تعرف شيئا عمّا كان يجري.

كان ذلك في الخامس والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٨٥، بعد أربعة أيّام فقط من تضعضع الثقة الخطير بين الولايات المتحدة واسرائيل، والذي أحدثه اعتقال جوناثان جاي بولارد في واشنطن. ومع ذلك، كان نمرودي مخوّلاً من قبل رئيس الوزراء شمعون بيريز بالانضمام الى اسرائيليين آخرين للتعاون بصورة وثيقة مع مسؤولين أميركيين، وذلك في سعيهم لمقايضة الرهائن بالسلاح.

وكان من شأن كشف الأمر ان يفسد الصفقة ويحكم على الغربيين في لبنان بقضاء سنوات أخرى في الأسر. وبالنسبة لكلٍّ من اسرائيل والولايات المتحدة، كان من الضروري الابقاء على سرية الاتصالات مع ايران. وخدع الاسرائيليون والأميركيون المتورطون في الأمر حتى الموساد والسي آي إيه.

ومن المؤكد ان رئيس الوزراء الايراني قد شعر ذلك اليوم بأنه خُدع، لأنه كان في مطار طهران مع عسكريين كبار يفحصون صواريخ أرض ـ جوّ، كانت قد وصلت على متن طائرة سرية

من اسرائيل واتصل موسوي بكانغارلو صارخاً: «من الذي يحاول ان يعاملنا كحمقى؟ إنني أقف هنا مع خبير صاروخ الهوك في جيشنا، وهو يرى أن هذه صواريخ هوك قديمة ـ عتيقة تماما وليست ذات جدوى لنا».

وكان لدى الضابط الايراني قائمة بأرقام المواصفات العسكرية ـ المواصفات العسكرية الأميركية ـ فأدرك ان الصواريخ المضادة للطائرات قد صنِّعت قبل قيام الولايات المتحدة بتحسين سرعة الهوك ودقته.

وشعر نمرودي، الذي كان قد عمل لعدة عقود في ايران، وآليه ب ولامان وأخيراً لنفسه، بوجود شيء ما خطأ. فهو لم يكن يحاول خداع الايرانيين. وكانوا قد دفعوا له حوالي ٢٤ مليون دولار عن ثمانين صاروخ هوك، كما ساعد الأميركيون في ترتيب عملية التسليم من اسرائيل، ووعدوا بسدّ النقص من المخزون الاميركي. كل شيء كان منطقياً. لقد كانت صفقة جيدة للصادرات العسكرية الاسرائيلية كما كانت ستساعد على إقامة اتصال مع المعتدلين نسبيا في السلطة الراديكالية في ايران، ولعله كان سيتمّ الافراج قريبا عن خمسة اميركيين آخرين، إلى جانب الرهينة الاميركي الذي أفرج عنه من قبل بمقايضة بالسلاح، وذلك كزيادة على الصفقة. ومن خبرته الطويلة، أدرك نمرودي أن الايرانيين لا يُعلى عليهم في خلق المصاعب، إلا أنه كان لديه احساس بأن الخلاف المتعلق «بمواصفات الصواريخ» كان مشكلة حقيقية وأن مصدرها من الممكن أن يكون في اسرائيل.

نزل نمرودي على رؤوس أصابعه الى القاعة متوجهاً الى غرفته في الفندق، واتصل بصديقه الحميم وشريكه في العمل أدولف (آل) تشويمر وكان في منزله في تل ابيب، حيث كان مرهقا فلم يكن يصدّق ما الذي كابده لإخراج صواريخ الهوك تلك من اسرائيل. وكان نمرودي الآن يتلفن من جنيف، لا ليقول ان الايرانيين كانوا سعداء وان رهينة اميركيا في طريقه الى الحرية. وبدلاً من ذلك، قال نمرودي إن الايرانيين كانوا غاضبين، وإنّ طاقم الطائرة المستأجرة أضحوا الآن سجناء في طهران.

وكان تشويمر قد عانى في الليلة السابقة من مشكلة إيجاد حفنة من النقود للكابتن الالماني الغربي لطائرة البوينغ ٧٠٧، والتي كانت على وشك مغادرة مطار بن غوريون بصواريخ الهوك على متنها. وكان تشويمر يصب اللعنات طوال اليوم على «أولئك الأميركيين اللصوص»، لأن المقدم أوليفر نورث في مجلس الأمن القومي الاميركي كان قد أرسل طائرة لكن دون نقود لوقود الطيران وكان بحوزة الاسرائيلي حوالي خمسمائة دولار فقط في جيبه، فأسرع الى منازل أصدقائه الاثرياء لاقتراض بقية التسعة آلاف دولار التي قال الطيار أنه يحتاجها للوقود.

كان نورث رجل البيت الأبيض الرئيسي، الذي كان يسعى لاطلاق سراح ست رهائن

أميركيين محتجزين في لبنان. وكان المحارب القديم في فيتنام مولعا بالعمليات السرية المعقدة، كما كان حاليا أنشط عميل للرئيس ريغان، في أكثر مشروع سري للادارة ـ وهو مقايضة الرهائن بالسلاح بالرغم من موقف ريغان العلني بعدم عقد صفقات مع الارهابيين.

لماذا اضطر المقدّم نورث للتعامل مع رجلي اعمال اسرائيليين خصوصيين في مهمة سرية تشترك فيها دولة ثالثة وتنطوي على مصالح قومية حساسة؟ ولماذا لم تكن الموساد وشقيقتها السي آي ايه تديران العملية ـ كما كان متوقّعاً؟

كالرئيس ريغان، استنتج رئيس وزراء اسرائيل بيريز انه من الممكن ادارة العملية بصورة سلسة اكثر من خلال قنوات جديدة بدلاً من القنوات التقليدية وأمل بيريز ان يعمل استخدام الاسرائيليين لا على الافراج عن الرهائن وحسب وإنما على مساعدة الدولة اليهودية على جني الربح من مبيعات الأسلحة لسوقها التقليدية في ايران. كما قد تساعد الصفقة المعقّدة على إصلاح الخلل في العلاقات الأميركية الاسرائيلية الذي سببته فضيحة بولارد.

لكن من كان هؤلاء الاسرائيليون؟ هؤلاء الوسطاء الثلاثة؟

كان الأول هو آل تشويمر، الذي ولد عام ١٩١٧ في الولايات المتحدة وقرّر في شبابه أن يتعلم كل ما يتعلّق بالطيران. فبرع في المجال، بدءاً من قيادة طائرة صغيرة، وحتى بيع قطع غيار الطائرة الى دول صغيرة. عمل كمهندس في شركة لوكهيد وفي ترانزويرلد، كما خدم في سلاح الجو الاميركي، وعقب الحرب العالمية الثانية، أعاد اكتشاف جذوره اليهودية عندما التقى بالناجين من المحرقة في اوروبا. أضحى تشويمر عميلاً سريا سيئا في تشيكوسلوفاكيا، حيث جمع أسلحة بيعت من قبل تجار غربيين ومن الكتلة السوفياتية. ونقلت طائرة الشحن الخاصة به البنادق والذخيرة الى اسرائيل قبل وبعد قيام الدولة عام ١٩٤٨.

كبطل مجهول كان يساعد الدولة الحديثة الولادة كي تكسب حربها من أجل الاستقلال، عُيّن تشويمر كضابط في سلاح الجوّ الاسرائيلي. فعاد الى الولايات المتحدة عام ١٩٤٩ على أمل مساعدة وطنه اليهودي الجديد من بُعد، إلا أنه في البداية، وجهت اليه السلطات الأميركية تهمة التصدير غير القانوني للطائرات وقطع الغيار الى اسرائيل وتشيكوسلوفاكيا وايطاليا وبنما. وأُدين تشويمر وشركته «الخدمات الجوية» في المحكمة الفيدرالية بلوس انجلوس عام ١٩٥٠، وتمّ تغريمهما بمبلغ عشرة آلاف دولار واعتقد مكتب التحقيقات الفيدرالي انه في مقابل استخدام المطار التشيكي في زاتيك، زوّد تشويمر الحكومة الشيوعية هناك بطائرة تدريب ووحدة رادار مصغرة.

وكان مشروعه التالي «شركة انتركونتننتال للطيران»، التي لم تكن تنقل المسافرين، وإنما عملت كمركز للتصليح والتجديد في الولايات المتحدة لطائرات تابعة لسلاح الجو الاسرائيلي

وشركة «العال» للخطوط الجوية. وقام رئيس الوزراء بن غوريون ومساعده الشـاب في وزارة الدفاع بيريز، باقناع تشويمر بالعودة الى اسرائيل عام ١٩٥١، فأنشأ مصنعاً عصرياً عـرف في البداية باسم بيدك وتحوّل لاحقا الى شركة صناعات الطائرات الاسرائيلية، وكانت لحظة تبعث على الفخر عام ١٩٧٥ عندما قدّم تشويمر لسلاح الجوّ طائرة «كفير» النفاثة المقاتلة، مبنية على خطط حصلت عليها لاكام من عميلها السويسري فراونكنيشت.

بعد تقاعده من مصنع الطائرات الذي تملكه الدولة، اصبح تشويمر مستشارا خاصا لبيريز، وشريكاً في أعمال عديدة مع نمرودي. وبين عامي ١٩٨٤ و١٩٨٧ تقاضى تشويمر راتباً رمزياً من مكتب رئيس الوزراء بمبلغ شيكل واحد سنّوياً ـ أقل من دولار واحد.

وكان الاسرائيلي الثاني ياكوف نمرودي، الذي ولد في العراق عام ١٩٢٦، لكنّه نشأ في القدس، واحدا من عشرة أطفال لأسرة فقيرة. بدأت وظيفته في الاستخبارات قبل قيام الدولة اليهودية عام ١٩٤٨، عندما انضم نمرودي الى البالماخ. وبعد حرب الاستقلال، كان ضابطا ميدانيا صغيرا في أمان.

عام ١٩٥٦، أُرسل الى طهران ليعمل لصالح الاستخبارات الاسرائيلية، حيث كان يعمل لكل من أمان والموساد في المراحل الأولى لتطوّر الاستراتيجية «المحيطيـة». وفي دوره الرسمي كملحق عسكري، قضى الكولونيل نمرودي معظم الستينات من هذا القرن باذلاً كل ما في وسعه لجعل ايران معتمدة على اسرائيل.

وكان مفيداً وفعالاً في بيع ما قيمته ٢٥٠ مليون دولار سنوياً من معدات الدفاع الاسرائيلية لايران. فلقد رتّب عروضاً للاسلحة الاسرائيلية الجديدة هناك، كما كان حريصاً على التأكد من استخدام اسرائيليين يجيدون الفارسية كمدرّبين عسكريين. وبعد مضيّ سنوات، كان المئات من الضباط الايرانيين الذين دُرّبوا على نحو سريّ في اسرائيل ما زالوا يخدمون في جيش ايـران. ويرجع الفضل الى نمرودي أيضا في تعزيز سلك الاستخبارات العسكري لايران بجعله هيئة جديرة بالاحترام.

وسعياً للحصول على مكافأته داخل نظام الدفاع الاسرائيلي عام ١٩٦٩، عاد نمرودي الى اسرائيل وضغط من أجل تقلّد وظيفة قائد عسكري في الضفة الغربية التي انتُزعت من الاردن قبل عامين فقط. إلا أنه رُفض، فغادر الجيش.

بعد قضاء فترة وجيزة في اسرائيل، عاد للقيام بما كان يعرفه على نحو أفضل: بيع البضائع في ايران. فأضحى تاجرا خصوصياً للأسلحة ومنتجات اسرائيلية أخرى، يلعب دور «السيد المصرّف للأمور»، لترتيب الصادرات للسوق الايرانية الكبيرة. وعاد نمرودي مع زوجته وأطفالهما الصغار الى طهران. وأصبحت كل مبيعات البضائع الاسرائيلية التي كان يرتبها كجزء من وظيفته

ذات المعاش التدني في أمان، يقوم بها الآن كعميل تصدير واستيراد خصوصي. وكانت العمولات ضخمة ـ وصلت في بعض السنوات الى ملايين الدولارات.

وبالطريقة الفريدة التي يظهر بها الرجال الأثرياء واللامعون انجذابا متبادلاً، التقى نمرودي بالثري السعودي عدنان خاشقجي، حيث استمتعا بالتخطيط معاً في كلٍّ من العمل والدبلوماسية السرّية.

ولقد استثمر نمرودي وتشويمر وخاشقجي الملايين في ايران إبّان عهد الشاه، إلا أن الثورة الاسلامية عام ١٩٧٩ كنستها جميعا. ولمّا كان نمرودي قد أودع أمواله في أوروبا، فقد خسر ما يكفي للاستقرار في لندن مع أصدقاء ايرانيين قدامى كجيران في المنفى.

أمّا الاسرائيلي الثالث فكان ديفيد كيمحي ولم يكن مديراً خاصاً وإنّما مدير عام لوزارة الخارجية الاسرائيلية. وكمتمرّس في الدبلوماسية السرية في افريقيا ولبنان ومكان آخر، اختير لتمثيل حكومته رسمياً في الصفقات السرية مع ايران. كما كان متحرّقاً للعودة إلى العمل الذي أحبّه أثناء اشتغاله في الموساد، ولم يجد كيمحي اية غرابة على الإطلاق في الطرق المتّبعة ـ بما في ذلك ترتيبات النقل الجوي الملتفّة.

في تلك الليلة الطويلة من الرابع والعشرين من تشرين الثاني، كان نمرودي وتشويمر وكيمحي يناضلون من أجل تحقيق نصر بشأن مقايضة الرهائن بالسلاح وذلك بجعل البوينغ ٧٠٧ تتابع طريق رحلتها من تل أبيب وعبر قبرص الى طهران. وكان طاقم في الجيش الاسرائيلي بالكاد تمكّن من حشر أوّل ثمانية عشر صاروخ هوك من ثمانين واحداً على متن الطائرة. ثمّ بعد ست ساعات من مغادرة الطائرة في التاسعة مساء ـ مع نقود الوقود التي هرع تشويمر لجمعها ـ أيقظته مكالمة هاتفية أخرى؛ إذ قال له رجل، كان واضحاً أنّه يتحدّث من الخارج، بأنّه مالك طائرة البوينغ وأنّه يتلفن من البرازيل.

فسأل تشويمر بعينين غائمتين: «ما الأمر؟ نقود من جديد؟»

وقال صاحب الطائرة المستأجرة: «كلّا، لقد أُلقي القبض على طيّارنا بعد وصوله إلى قبرص بسبب وثائق مخالفة للقواعد».

وكان من حسن الحظ التام ان السلطات القبرصية لم تفتح صناديق الشحن للتفتيش. وقد يفعلون ذلك في غضون ساعات، وعلى أيّة حال سرعان ما كانت الصحافة ستعرف ـ إذ كان مراسلو الشرق الاوسط من وسائل الإعلامية الرئيسية في العالم متمركزين في قبرص ـ بأمر الطائرة الغامضة الواقفة في أحدى زوايا مطار لارنكا بطيّارها الموقوف.

واتّصل تشويمر بالمقدّم نورث في واشنطن، حيث كان الوقت ما يزال مساء الأحد، فرفع

نورث جزئياً ستار الجهل الذي كان قد أسدله على السي آي إيه وذلك باللجوء الى مساعدة الوكالة. وبناءاعلى طلب نورث، استخدم عميل للسي آي إيه في قبرص بعض نفوذه مع السلطات المحلية لاطلاق سراح الطيار بهدوء. وأقلعت البوينغ ثانية، بعد تزويدها بالوقود في الساعة السادسة من صباح يوم الاثنين.

وكان نورث من الاثارة بحيث جافاه النوم، فاتّصل بشويمر بعد بضع ساعات ليقول له بأن الطائرة هبطت في طهران. ولما كان واثقاً بأنه سيفرج الآن عن واحد أو اكثرمن الرهائن الاميركيين بواسطة أصدقاء إيران في لبنان، أخبر المقدّم نورث الاسرائيلي: «فليباركك الله».

وعندما سمع تشويمر من نمرودي فيما بعد بأنّ رئيس الوزراء الإيراني نفسه كان في المطار، وأنّه غاضب بسبب ارسال البضاعة الخطأ، اتصل تشويمر على الفور بنائب مدير عام وزارة الدفاع في تل أبيب حاييم كارمون، الذي كان مسؤولا عن تحميل الصواريخ، فقال: «لا تقلق. قل لهم ان صواريخ الهوك تمّ تعديلها في اسرائيل، وهي الآن أفضل من الصواريخ الأصلية».

وتمّ نقل رسالة التطمين هذه من تل أبيب الى طهران، عبر جنيف، حيث ما لبث أن دقّ جرس الهاتف ثانية. وكان على الخطّ هذه المرة الكولونيل الايراني، الذي كان يتباحث مع رئيس الوزراء موسوي حول الصناديق المليئة بصواريخ الهوك. وقال الضابط إنّه كان يفحص الصواريخ مع فنّي، وطالب بمعرفة: «ما هي التعديلات؟».

في أثناء ذلك، كان غوربانيفار يحدّق في نمرودي باستياء، كما لو أنّ الاسرائيليين الذين بدوا دائما جادين ومخلصين للغاية قد خدعوه الآن في ذروة علاقتهم ذات الشهور السبعة. وشعر كانغارلو بالقلق، وألحّ بأن يحصل نمرودي على الاجابات للكولونيل في طهران «فوراً!».

وطُرح سؤال عاجل بالتلفون من جنيف الى تل أبيب؛ إذ سأل نمرودي تشويمر: «ما هي التعديلات؟» فاتّصل تشويمر بدوره بمصدر معلوماته في وزارة الدفاع. وقال كارمون بأنه سيراجع الأمر وسيتصّل ثانية. وفي خلال دقائق، كان يتحدّث ببطء وهدوء، إذا أخبر تشويمر أخيراً بالحقيقة: «اسمع. تلك الصواريخ لم تخضع للتعديل».

وأدرك تشويمر ان العملية التي بدت منظمّة تماماً أضحت سخيفة جداً. فاتّصل بنمرودي وأخبره بالأنباء السيئة: «إنّهم محقّون. فهي صواريخ الهوك القديمة».

وأخبر نمرودي كانغارلو بالأمر في نفس اللحظة التي أتى فيها الزعيم الايراني، رئيس الوزراء موسوي، على الخطّ ثانية. فتلعثم كانغارلو بعصبيّة عندما أخبر موسوي بأنّ إيران قد تلقّت بالفعل نموذجاً عتيقاً من الصاروخ.

وصرخ موسوي، فشحب كانغارلو كورقة وسقط على الأرض. لقد أغمي عليه من الضغط. وخشى حرّاسه الشخصيّون ان يكون ذلك نوبة قلبية وبدأوا يدلكون صدره.

في غضون ذلك، وخوفاً من أن يتداعى المشروع بأكمله أمام عينيه، اختطف نمرودي سماعة التلفون وتناول الحديث مع موسوي، بلغة الايراني الخاصة، الفارسيّة.

وشرح نمرودي لموسوي، مدركاً بأنّه لن يضايق الزعيم الايراني بذكر هويّته كاسرائيلي، بأن كانغارلو قد انهار للتوّ، وأنه لا بدّ ان تكون هنالك طريقة هادئة ومعقولة لتسوية «سوء الفهم». وواصل موسوي الصراخ، مهدّداً بابقاء طائرة النقل ومحاكمة الطاقم المستأجر، الى أن عرض نمرودي ان يرجع الى ايران معظم المبلغ المدفوع.

وتمّ اعداد الترتيبات الدقيقة من خلال غوربانيفار، في نفس الوقت الذي قامت فيه سيارة اسعاف بنقل كانغارلو الى مستشفى سويسري، وفي صباح اليوم التالي، رافق نمرودي حراس شخصيّون إيرانّيون ضخام الجثة الى فرع من بنك «كرديت سويس» لتحويل ثمانية عشر مليون دولار الى حساب ايران ثانية.

كانت حادثة صاروخ الهوك كارثة لصفقة مقايضة الرهائن بالسلاح، كما ادارها نمرودي وفريقه الاسرائيلي الصغير. وقد مرت سنة أخرى تقريبا قبل ان تصبح المفاوضات الثلاثية الجانب والمعقّدة معلومة عامة. حيث قال مسؤولون اميركيون أنّهم دخلوا في الصفقة لأنهم وثقوا «بالاسرائيليين» ومعرفتهم المتفوّقة بإيران.

ويرجع الفشل الأخير والإحراج الذي لحق بالبيت الابيض من جرّاء فضيحة إيران غيت الى الربط غير المنطقي بين ايران وأمريكا الوسطى. فقد ربط المقدّم نورث عملية إيران ببرنامجه السرّي لإرسال المساعدة لمتمرّدي الكونترا المعادين للشيوعية في نيكاراغوا ـ مخفياً عمليات إدارة ريغان عن الكونغرس والناس، بينما كان يجني الأرباح من نقود آية الله كي يدفع ثمن الرصاصات في الساحة الخلفية لأميركا.

لم يكن ديفيد كيمحي يولي اهتماماً كبيراً بالكونترا بخلاف اهتمامه العظيم بإيران، الساحة الأمامية لاسرائيل. لقد كان أحد المؤيدين الكبار للاستراتيجية «المحيطية» سواء عندما كان في الموساد أو عندما صعد الى السطح من الثقب الأسود لوظيفة سرية والتحق بوزارة الخارجية. ولم يتخلَّ أبداً عن الفكرة بأنّ اسرائيل يجب أن تتعاون مع الإيرانيين.. وبالرغم من استيلاء آيات الله على السلطة عام ١٩٧٩، إلا أنّه اعتقد بأنه لا بدّ أن يكون هنالك مجموعة من المعتدلين ـ إما في الجيش أو في مكان آخر من المجتمع ـ على استعداد للتعاون مع اسرائيل والغرب.

وخلال عامين من بدء وظيفته العلنية الثانية، لم يتوقّف كيمحي قليلاً لمجرّد الحلم. كان

مدركاً تماماً بأن اسرائيل كانت تبيع الأسلحة لإيران لتوسيع صادراتها ولمساعدة يهود إيران وللإبقاء على علاقة مع طهران، وفي عام ١٩٨٢، اشترك في التخطيط المعقّد لانقلاب ضدّ آيات الله مع نمرودي وتشويمر وخاشقجي في المغرب وكينيا والسودان.

وكان كيمحي شديد الثقة بنفسه لدرجة انه سمح لنفسه بتسجيل رقم قياسي. وذلك عندما ظهر كالوجيه البريطاني الهيئة على التلفزيون البريطاني في شباط عام ١٩٨٢ حاثاً على الملأ قيام اسرائيل والغرب بتشجيع وقوع انقلاب في إيران. ولم يكن الأمر مصادفة أن يظهر نمرودي على نفس برنامج الـ بي بي سي، ليملأ الشاشة بوجهه المدوّر ودخان سيجارته، وليقول بانجليزية ذات لهجة رصينة ان الانقلاب يمكن ان يكون امراً بسيطاً وضرورياً للغاية.

ومن نواح عديدة، كانت المكيدة الأولى عرضاً مسبقاً لإيران غيت. والفرق هو انه في عام ١٩٨٢، وبإرسال مبعوثها الخاص إلى الشاه الصغير في المغرب، تمكّنت الموساد من إحباط المؤامرة.

لذا، لم يكن مفاجئاً عام ١٩٨٥ حين قرّر المتمرسان في الجهاز السري نمرودي وكيمحي تجاهل الموساد كليةً عندما اقترح خاشقجي مبادرة جديدة إزاء إيران. غير أنّه كان ما يزال من المهم الالتزام بالحدّ الأدنى من قواعد لجنة الاستخبارات. فحظيت الموساد بالفرصة للتعبير عن رأيها.

اتصل خاشقجي بنمرودي وتشويمر في أوائل نيسان عام ١٩٨٥، ودعاهما للمجيء الى لندن بسرعة للالتقاء به وبعدة إيرانيين «جديرين بالمقابلة» وزاد خاشقجي من أهميّة الأمر بالإشارة إلى أن الملك فهد، ملك المملكة العربية السعودية، قد وافق على الخطة التي على وشك أن يطرحها.

وأخبر تشويمر، المعيّن رسمياً من قبل بيريز، صديقه القديم بشأن الدعوة، وتلقى موافقة رئيس الوزراء لرؤية ما المعروض في لندن. وهكذا، كان ذلك بداية فضيحة إيران غيت.

في جناح من فندق هايدبارك في لندن الذي تبلغ تكلفة الإقامة فيه ستمائة دولار في الليلة الواحدة، قدّم خاشقجي نمرودي وتشويمر لرجل إيراني يدعى سايروس هاشمي. وقال السعودي أنّ هاشمي رجل متنفّذ وابن عم علي أكبر هاشمي رافسنجاني، رئيس البرلمان الإيراني الذي كان في المرتبة الثانية بعد آية الله الخميني في السلطة السياسية في طهران. (وقد اصبح رافسنجاني الحاكم الأول عام ١٩٨٩ بعد وفاة الخميني).

وفي تحوّل مذهل، وبدلاً من اقتراح اسقاط نظام الخميني، كما فعل قبل ثلاث سنوات في كينيا، كان خاشقجي ينصح الاسرائيليين بالتقرّب الودّي من عناصر محدّدة في ذلك النظام.

وقال هاشمي إنّه مخوّل من قبل مسؤولين حكوميين إيرانيين كبار بالحث في إمكانية تجديد الإتصالات مع الغرب. وقال إنّ مهمته هي إحياء الاتّصـالات بين واشنـطن وطهران، والتي قُطعت منذ ست سنوات عندما وضع راديكاليون ايرانيون أيديهم على السفارة الأميركية، إلاّ أنّ خاشقجي نصحه بالبدء مع الاسرائيليين. فماذا كانت تريد إيران؟ لقد قال هاشمي إنّها كانت تريد تجديد مبيعات الاسلحة التي أوقفتها اسرائيل، بناء على طلب أميركا ـ والتي كانت إيران بحاجة لها في حرب الخليج المطوّلة ضدّ العراق.

بعد مضيّ فترة قصيرة، قدّم خاشقجي نمرودي وتشويمر الى غوربانيفار، الذي عرّفه كرجل أعمال إيراني مقيم في هامبورغ ومخوّل من قبل رئيس الوزراء الايراني بمتابعة إقامة علاقات أفضل مع الغرب. وأيضاً من خلال اسرائيل.

وسافر «غوربا»، كما لقّبه الاسرائيليون بذلك، في هيئة مواطن يوناني يدعى «نيكولاس كراليس». ولتجنّب شرطة الحدود في مطار بن غوريون المتميزين في اكتشاف الوثائق المزوّرة، تمّ مرافقة الايرانيين ـ إلا أنّهما اسميا ليسا كذلك ـ من قبل عملاء اسرائيليين عبر نقطة الجوازات دون أسئلة أو تأشيرات مرور.

وخُدع بيريز أيضاً بإمكانية إحياء العلاقات مع ايران. وبدلاً من الاحتجاج على مبيعات الاسلحة الاسرائيلية السرية لإيران، فقد يصادق الاميركيون عليها هذه المرّة. وأمر رئيس الوزراء الموساد بإجراء مقابلة دقيقة مع هاشمي وغوربانيفار وإصدار تقرير سريع وكامل. وكان تورّط الموساد طبيعياً تماماً. كما أعطى كيمحي وزميلاه كوسطاء الوكالة الفرصة للاشتراك.

وكان هاشمي ببساطة كثير الكلام، مستعداً كما هو واضح لعقد صفقات لتسليح ايران وملء جيوبه، إلاّ أنه كان يفتقر الى الحنكة السياسية التي قد تترك انطباعاً حسناً لدى مضيفيه الاسرائيليين. وراجعت الموساد كذلك ملفاتها الموجودةفي الكمبيوتر، فوجدت أنّ هاشمي سيء السمعة فيما يتعلّق ببيع نفسه ومعلوماته لمن يدفع أكثر، دون اعتبار لأيّة استراتيجيّـة خاصّـة. وكانت أجهزة الأمن الأوروبية كلّها، الشرقية والغربية، قد استخدمت سايروس هاشمي، فلم ترده الموساد على الإطلاق.

ولم تكن الموساد كذلك متيمّة بـ «غوربا»، إلا أن كل الاسرائيليين الذين التقوا به اعترفوا بأنه كان ممتعاً. فقد قابلته كل من الموساد وامان، تماماً كما فعلت وزارتا الدفاع والخارجيّة. وروى قصّة مثيرة عن ذهابه الى العاصمة السعودية، الرياض، وتحذيره للملك فهد ـ في مقابلة رسمية رتبّها خاشقجي ـ بوجود مؤامرات ايرانية للاعتداء على الأضرحة الاسلامية المقدسة في مكة.

وبينما اعترض المحكمون وتحفظّت الموساد في حكمها بشأن غوربانيفـار، سعدت وزارة

الدفاع بالموافقة على عقد صفقة صغيرة نسبياً اقترحها هو. وكانت ستكون اختبارا آخر لمصداقية إيران، بالاضافة الى حصول اسرائيل بسهولة على عائد يقدّر بأربعين مليون دولار. واتصل غوربانيفار بطهران من اسرائيل وصاغ قائمة شرائية بقطع مدفعية ومدافع هاون وذخيرة، والتي اعتبرها الخبراء الاسرائيليون في الوزارة «خردة قديمة».

في غضون أيام من شهر نيسان ذاك، استأجر الاسرائيليون سفينة شحن، وأعدّوها للإبحار من إيلات إلى ميناء بندر عباس في إيران. وتمّ شحن الاسلحة على متن السفينة، وبدا أن غوربانيفار قد اثبت نفسه ثانية عندما طار مقدّم من الجيش الايراني الى تل أبيب ـ دون ارتداء الزي الرسمي وبجواز سفر مزوّر أيضاً ـ للإبحار إلى الوطن على متن السفينة.

إلّا أنه في أثناء ذلك، قدّمت مكالمة تليفونية أخرى من غوربانيفار الى مكتب رئيس الوزراء موسوي في طهران قائمة شرائية مختلفة تماماً. فقد ألغى الإيرانيون صفقة الأربعين مليون دولار وبدأوا بالمطالبة بصواريخ «تو» التي تطلق عبر اسطوانة ويمكن تتبعها بالنظر وموجهة سلكيا، حيث تستطيع قوّاتهم استخدامها لتدمير الدبابات العراقية أثناء هجوم متوقّع قريباً في حرب الخليج. لقد احتاجت إيران صواريخ «تو»، وكان هذا كل ما تريده من الاسرائيليين. فلم تبحر السفينة أبداً وعاد المقدّم الى الوطن.

كان ذلك بإيجاز المشكلة مع غوربانيفار وأياً كانت اتصالاته في إيران. هذا ومن الممكن ألّا تُنفّذ الاتفاقيات، كما قد تُمتصّ اسرائيل بصورة أكثر إلى أن تزوّد الايرانيين بما يحتاجون إليه دون أن تتلقى شيئاً في المقابل باستثناء النقود ـ في أحسن الاحوال ـ هذه المشكلة جعلت الموساد تحجم اكثر عن المشاركة، ومع ذلك كانت الوكالة ما تزال في الصورة.

وكان طلب غوربانيفار الجديد الحصول على المئات من صواريخ «تو»، وكان سعر الصاروخ الواحد الذي تبلغ قيمته حوالي عشرة آلاف دولار مغرياً للتجار الاسرائيليين، إلا أن حقيقة أن هذه الصواريخ «صنعت في الولايات المتحدة الاميركية» بالكامل، وأنّه يتعين إعادة تزويدها من هناك، أبرز مشاكل عديدة.

في زيارة ثانية لاسرائيل، استطاع غوربانيفار أن يرى ان قائمته الشرائية الجديدة والبسيطة والمربحة قد قوبلت بالشكّ والتردّد. فضاعف من الضغط ـ والمكافآت المحتملة للاستخبارات الاسرائيلية ـ بالجلوس في مقر كبير للضيوف تابع للموساد بالقرب من تل أبيب، وكتابة تقرير طويل حول الوضع السياسي داخل إيران.

كان ذلك في الثاني من أيار عام ١٩٨٥، حيث ميّزه غوربانيفار بقوله: «سرّي للغاية ـ لاطلاعك فقط». وكان على درجة عالية من الحرفية من وجهة نظر رجل الاستخبارات، كما كشف

عن عقلية منظّمة تماماً، وأثار إعجاب الوسطاء الذين وجدوا غوربانيفار حذراً ومحيّراً جداً لدرجة أن التحدث معه كان «تحدياً حقيقياً».

لقد كتب غوربانيفار تقريره للموساد، إلاّ أنّه بالتأكيد صاغه كي يتمّ تقديمه الى واشنطن. وكانت الولايات المتحدة، في تلك المرحلة، خارج الصورة تماماً. وكان غوربانيفار قد حاول مرات عديدة إقامة روابط مع السي آي إيه، عارضاً تقديم معلومات وعقد صفقات متعدّدة، غير أن الأمريكيين أخضعوه لاختبارات كشف الكذب واستنتجوا أنّه غير جدير بالثقة.

بدأت دراسة غوربانيفار المفصّلة لايران بالشيء الواضح، إذ يدرك رجال الاستخبارات المحترفون بأنّه لا يجب استبعاد الحقائق التي «يعرفها الجميع» لانه من الممكن نسيانها بصورة غير مقصودة في التحليل الأخير. لذا، كتب الزائر الإيراني في تل أبيب يقول: «إن الامام الخميني هو الحاكم الأوحد لايران» مضيفاً بأنّ معظم السياسيين والملالي الشيعة الأقوياء في أيّة لحظة بعينها كانوا هم الذين حظوا بدعم آية الله الخميني.

وطرح التقرير السرّي لغوربانيفار فكرة وجود ثلاثة «خطوط» من السياسيين ورجال الدين في حالة ترقّب، يتنافسون على السلطة تحت المنزلة الرفيعة والسامية لآية الله وينتظرون وفاته وكان هذا هو نوع التحليل المفصل الذي عرفت كل من الولايات المتحدة واسرائيل أنهما كانت تفتقران إليه ما لم تكن هنالك مصادر جيّدة داخل إيران.

كتب غوربانيفار عن الخطّ الأول يقول بأنه «يميني»، يجد قوّته في الجيش والشرطة والبرلمان (المعروف باسم المجلس) ومعظم التجار، بل وبعض الحرس الثوري. ولقد فضّلوا التجارة الحرّة، كما كانوا معادين للسوفيات بشدّة. وعارضوا تصدير الثورة الشيعية بالقوّة، وأرادوا أيضاً إقامة علاقات وديّة مع كل من الغرب ودول اسلامية أخرى.

أمّا الخطّ الثاني فكتب يقول بأنّه «يساري»، حيث ضمّ كلّاً من رئيس الوزراء موسوي والرئيس علي خامنئي. ووصف غوربانيفار هذه المجموعة بأنّها «متشدّدة في الداخل والخارج»؛ إذ تؤيّد الإرهاب وتصدير ثورة شيعيّة مسلّحة. وألقى اللوم على الخطّ الثاني بسبب محنة الرهائن الأمريكيين الاثنين والخمسين في سفارتهم بطهران وذلك عام ١٩٧٩ ـ ١٩٨١.

ووصف غوربانيفار الخطّ الثالث بأنه «خطّ متوسّط ومتوازن» مع وجود سند كبير لـه في المجلس والمحكمة العليا علاوة على انتشاره بين المؤسسات الثورية.

ولقد تمكن من ذكر أسماء ـ عشرات الايرانيين، بعضهم بارزون والآخرون غير معروفين كثيراً عام ١٩٨٥ ـ كما وضعهم بترتيب في ثلاثة خطوط سياسية. ونقل عن الخميني قوله: «أوقفوا لعبة الخطوط». إلاّ أنّ غوربانيفار تنبّأ أيضاً أنه بعد وفاة آية الله، فسيكسب أحد التجمعّات

السياسية الصراع «ويستبعد الخطّين الآخرين» .

وكانت نصيحته لقرّائه الاسرائيليين، وكما أمِلَ للأمريكيين ما يلي: «لا بدّ أن ندعم الخطّ الأوّل ونتخلّص من الخطّ الثاني ونستوعب الخطّ الثالث».

كانت تلك سياسته بطريقة منظمة، فشعر كيمحي الآن بأنّ لديه شيئاً ليطلع الأميركيين عليه. وكان الوسطاء الثلاثة قد اعتزموا دائماً ادخال الولايات المتحدة في مخطّطهم، فاعتقدوا الآن بأنّهم أمسكوا بالطّعم لإيقاع السمكة الضخمة في الشبكة. وكان أفضل طعم ممكن: الرهائن في لبنان؛ إذ عرف الاسرائيليون كم كان ريغان وبيته الأبيض يتطلّعان إلى إطلاق سراح مواطنيهما. وكان فريق كيمحي يرغب كثيراً في الافراج عن الرهائن، فأخبروا واشنطن بوجود مصدر معلومات مغرٍ، جدير بالبحث.

وحتىّ قبل تلقيّ تحليل غوربانيفار بشأن الخطوط الثلاثة، استجاب مستشار ريغان للأمن القومي، روبرت (بود) ماكفرلين لما سمعه من صديقه القديم كيمحي. فأرسل ماكفرلين الى اسرائيل مستشاراً حول الإرهاب والشرق الأوسط غير متفرغ، يدعى مايكل ليدن، وذلك لمناقشة إمكانيات بذل جهود مشتركة وسريّة، لتحقيق اتّصال في إيران. والتقى ليدين برئيس الوزراء بيريز، الذي عرفه من اجتماعات زعماء حركة العمل في الاشتراكية الدولية.

وعندما ذكر بيريز بحذر إمكانية بيع الأسلحة لعناصر معتدلة في إيران، كان من الطبيعي بالنسبة لليدين أن يأخذ هذا الأمر كمجّرد تبرير لمبيعات الأسلحة الاسرائيلية السابقة. وقد عرف أن القصد منها الى حدٍّ كبير هو مساعدة اليهود الخائفين على الهرب من إيران دون عائق. وكان عملاء الموساد قد ساعدوا في تهريب اليهود الايرانيين عبر الحدود الى باكستان وتركيا بينما كانت السلطات الايرانية تغضّ الطرف.

وبعد تقرير غوربانيفار، كان هنالك الدافع الأكثر تعقيداً والأكثر إغراءً بشأن السعي للمساعدة في انتصار خطّ سياسي من الصراع على السلطة المحتوم في إيران.

وقرّر بيريز المضي في التحالف مع الوسطاء الثلاثة فتجاهل الموساد التي قرّرت أخيراً - في المرحلة الدقيقة من اجتذاب الأميركان - عدم الاشتراك؛ إذ لم تثق الموساد بالمخطّط كله، كما لم تجد أية فرص حقيقية في إيران الراديكالية.

كان الموقف حقيقة شاذاً، ففي أوقات أخرى كانت الموساد إذا قالت لا، فإنّ الاقتراح يُلغى. أمّا الآن وبعد ثلاثين عاماً من السيطرة على العمليات السرية في الآفاق الخارجية لاسرائيل، تمّ حرمان الموساد تماماً من مشروع سري في الخارج.

ومما يثير الحيرة أكثر، حقيقة أنّ الموساد استُبعدت من قبل بيريز ـ وهو رئيس وزراء غير معروف عنه في العادة تخلّيه عن التقاليد الثابتة والمتعلّقة بالعمليات. ولم يكن بيريز مثل بيغن في عهده الذي اتسّم بالمغامرة، كما لم يكن شارون الذي سعى إلى إجراء إصلاحات كبيرة في الموساد.

وعلى أيّة حال، لم يكن ناحوم أدموني قادراً على حماية أولويّة وكالته؛ إذ لم يكن قوياً كرئيس للموساد كما كان اسحاق حوفي عام ١٩٨٢، عندما رفض اقتراح شارون ونمرودي بإحداث انقلاب في إيران من قواعد سودانية. وفي عام ١٩٨٥، اكتفى أدموني بالتعبير عن رفضه إلاّ أنّه انسحب في وجه رغبات رئيس الوزراء.

وكان بيريز يؤيّد مشروع إيران بشدّة. وعندما نصحت الموساد بطرح الخطة جانباً، آثر المضيّ فيها بواسطة مسؤول سابق في الموساد ورجلي أعمال بدلاً من إلغاء مشروع ينطوي على فوائد سياسية ممكنة بما في ذلك امتنان الرئيس ريغان الدائم.

وبذل رئيس الوزراء جهداً أدنى لتعيين رجل محترف في الموساد مسؤولاً عن الاشخاص الثلاثة. فطلب من رئيس آمان السابق، شلومو غازيت الإشراف على الوسطاء، إلاّ أنّ غازيت انسحب في غضون أسابيع «لأن الموساد ليست في الصورة تماماً»، كما رفض تلقّي الأوامر من نجّار سلاح، يمكن أن تكون عملياتهم السياسية مدفوعة بحافز الربح.

وأرسل رئيس الوزراء كيمحي الى واشنطن كي يضيف إلى ما كان ماكفرلين قد سمعه من مستشاره ليدين. وكان الربط بين كلمة «إيران» مع فكرة «الرهائن» عملية أوتوماتيكية ولا إرادية تقريباً من قبل كلّ من الأميركيين والاسرائيليين. وكان غوربانيفار يشير الى امكانية إطلاق سراح ويليام بكلي، رئيس مركز السي آي إيه في بيروت الذي اختطف من قبل لبنانيين شيعة موالين لإيران، حيث كان يخضع لتعذيب قاسٍ. كما كانت فكرة مقايضة الرهائن بالسلاح تقوى وتضعف.

ونظّم الوسطاء أنفسهم بصورة غير دقيقة وفق التقسيمات الوظيفية للمهمة؛ فكان كيمحي ضابط الارتباط مع الاميركيين، كما كان نمرودي في جنيف ولندن كخبير مالي، أما تشويمر فكان ضابط العمليات الذي يتعينّ عليه حلّ مشاكل النقل.

على الجانب الاميركي، اتسعت دائرة الناس الذين عرفوا بأمر الصفقات السرّية. ولم يحبّ وزير الدفاع وينبيرغر العملية، إلا أنّه أُدخل في الصورة عندما اضطرّ البنتاغون الى سدّ النقص في الترسانة الاسرائيلية صاروخاً بصاروخ بعد كل شحنة اسرائيلية الى ايران. وكان ذلك الثمن الذي طالب به وزير الدفاع لتعاونه.

وجلبت طائرة نفاثة استأجرها تشويمر ٥٠٨ من صواريخ «تاو» الى ايران ـ التي دفعت خمسة

ملايين دولار ـ وذلك في رحلتين، في آب وأيلول عام ١٩٨٥. وتمّ إطلاق سراح القسّ بنيامين وير بعد ستة عشر شهراً أمضاها في الأسر، كما أضحت عملية مقايضة الرهائن بالسلاح جاهزة للمضي فيها قدماً مع وجود توقّعات كبيرة.

هذا وسيعود كيمحي ثانية في معمعة العمليّات السرية بحثاً عن تحالفات محيطيّة. كما سيضع نمرودي ايران ثانية بالقرب من قمة جدول أعمال اسرائيل، وسيجني أيضاً ربحاً. وسيحقق تشويمر أهدافه بشأن خدمة الصهيونية، بينما يستخدم قدراته في مناورة الطائرات. وسيكون بيريز رجل الدولة الرئيسي الذي أنجز انقلاباً سرياً. وسيشكرهم الرئيس ريغان جميعهم لاعادتهم أحباءه من المواطنين الأميركان.

غير أنّ الرحلة المشؤومة لصواريخ الهوك في تشرين الثاني سحقت كل تطلّعات الوسطاء الاسرائيليين. وكان الايرانيون غاضبين، إلا أن الأهمّ من ذلك هو أنّ الأميركيين فقدوا كل الثقة في الاسرائيليين الثلاثة. وعلى أيّة حال، كان المشروع نفسه من الإغراء بحيث لم يُترك، إذ أراد الأميركيون متابعة الأمر، كما كان بيريز متحمسّاً بالمثل. بيد أنّ رابين كان يصرّ على وضع واحد آخر ليكون مسؤولاً عن الجانب الاسرائيلي. لكن الموساد كانت أكثر غضباً من ذي قبل بشأن المسألة كلها ورفضت أن تحرّك ساكناً.

وكان لا بدّ من إيجاد قناة عبر الظلام. ولم يتردد بيريز كسياسي بارع في التخلّص من الوسطاء ـ حتىّ صديقه القديم تشويمر. كان الضوء في نهاية النفق أميرام نير.

ولعلّ نير، وهو في الخامسة والثلاثين من العمر، بدا صغيراً لمثل هذا التعامل العالمي، إلا أنّ طموحاته لم تعرف حدوداً. فكمستشار لرئيس الوزراء حول الإرهاب المضادّ، قدّم جيلاً جديداً من العملاء الاسرائيليين. وُلد باسم أميرام نيسكر عام ١٩٥٠، بعد قيام دولة اسرائيل. لذا لم تكن لديه الخلفية التقليدية كمقاتل سري قبل إعلان الدولة.

ولسوء حظّ نير، لم يكن لديه حتى خلفية نضالية. وخدم قضيّة بلاده كمحرّر في محطّة الإذاعة التابعة لقوات الدفاع الاسرائيلية، حيث ابتلي بفقدان عينه في حادث سيارة. ولفترة، ارتدى عُصابة عين سوداء على غرار موشي دايان قبل تركيب عين شكلية.

برز نير كصحفي وأضحى مراسلاً عسكرياً حسن الاطلاع للتلفزيون الاسرائيلي. وتزّوج الفتى الذهبي كذلك إحدى بنات عائلة موسى، وهم اصحاب الصحف الرئيسية في اسرائيل.

وادراكا منه لحدة انعدام خبرته العسكرية في بلد تتألف من المحاربين، تطوّع نير للخدمة في الجيش مدة عام واحد، وأضحى مقدماً في كتيبة دبابات احتياطية. والآن، وبعد أن اشبع رغبته، حوّل وظيفته باتّجاه جديد، إذ أصبح مساعداً لشمعون بيريز عندما كان زعيماً للمعارضة.

أثناء تحضيره لرسالة الدكتوراة في مركز الدراسات الاستراتيجية في جامعة تل أبيب، انضمّ الى مكتب رئيس الوزراء ـ كخبير في الإرهاب ـ وذلك عندما تزعّم بيريز حكومة الوحدة الوطنية الجديدة التي تأسست عام ١٩٨٤.

غير أنّ لجنة الاستخبارات رفضت نير، فقد كان غربيا، كما افتقر الى الخلفية الصحيحة. وعلى أية حال، لم يحبّ رجال التجسّس الصحفيين. وامتعضت الأجهزة السرية أيضاً لقيام بيريز بطرد الجاسوس العريق رافي إيتان لصالح نير.

وحاول مستشار الارهاب المضاد الجديد جهده إقناع رؤساء الاستخبارات بأنّه كان رجلاً جديراً بالثقة. وكخطوة أولى، أمل في الحصول على منصب إيتان الآخر ـ كرئيس للاكام ـ دون أن يعرف بأن إيتان كان مشغولاً بتعقّب جوناثان جاي بولارد في الولايات المتحدة. وكان نير أيضاً مهتمّاً بالوظيفة العليا في الشين بيت، بمجرّد أن يتمّ هارملين فترته المؤقتة لما بعد الفضيحة، وامتدّت طموحات نير على المدى الطويل إلى الموساد.. إلا أنه أوّلاً، وكي يُؤخذ مأخذ الجدّ، استقرّ في الظلال القاتمة للوظيفة التي تقلّدها للتوّ.

وكان منصب مستشار رئيس الوزراء للإرهاب المضاد قد استحدث عندما أرادت غولدا مائير مستشارهاالمقرّب إليها، أثناء عمليات اغتيال الفلسطينيين الانتقامية التي نُفذّت بعد اولمبياد ميونيخ، ، حيث تمت المصادقة عليه بعد عام في أعقاب حرب ١٩٧٣ وتقصير الاستخبارات.

وكان يتعين على المستشار أن يعطي رئيس الوزراء الأدوات اللازمة لاتّخاذ قرار أفضل في الحرب ضدّ الارهاب. فتولّى نير بسهولة، وبواسطة عقليّته التحليلية، تنسيق نشاطات الاستخبارات ووكالات الأمن. وأشار إلى محاولة اعتداء عام ١٩٨٥ كمثال يثبت به الحاجة الى عمله.

فلقد غادرت سفينة عربية تقلّ فدائيين فلسطينيين اليمن. ويعدّ اكتشاف وتعقّب سفينة بالقرب من دولة عربية مسؤولية أمان.

وعندما اقتربت السفينة من المياه الاقليمية لاسرائيل، دخلت في نطاق سلطة البحرية الاسرائيلية.

وخطّط الفدائيون بالنزول على الشاطىء في تل أبيب. وكان ذلك من مهمّة الشرطة.

ثم أمل الفدائيون بشقّ طريقهم الى مجمعّ كيريا، الذي يضمّ مركز قيادة الأركان العامة. وكان على الجيش أن يحول دون حدوث ذلك، وبجوار مركز القيادة وزارة الدفاع نفسها، حيث يوجد اسحاق رابين في الطابق الثاني، خطط الفلسطينيون بأخذه كرهينة. وتعّد حماية أي وزير من اختصاص الشين بيت.

وكان لا بدَّ لأحد المسؤولين أن يمنع وقوع هذا الحادث وفي هذه القضية بالذات، أوقفت البحرية الاسرائيلية الفدائيين قبل وصولهم الى الشاطىء، حيث ضربتها بالطربيد وأسرت عدّة فلسطينيين. فأظهر نير للجنة الاستخبارات أنّ دوره التنظيمي كان حيويّاً.

وكان البرهان الأخير على أنه يمكن أن يكون زعيماً وسط رجال الاستخبارات ـ أميراً للجنة السرية ـ هو أن نير أقلع عن ثرثرته القديمة كصحفي. كما تجاهل المتمرس الاعلامي القديم أصدقاءه في الإعلام.

عندما مُنح نير الفرصة لممارسة قدراته التنسيقيّة في فضيحة إيران، شعر بأن أمامه فرصة لن تتكرّر في الحياة وذلك لتوسيع مكتبه الخاص بالإرهاب المضاد والذي يتألف من شخص واحد إلى وحدة استخبارات سرية جديدة. ووجد مثيلاً له في أوليفر نورث. فكل من نورث ونير مقدّم، كما أنّ كليهما من أنصار السرية والتنظيم الجيد. وقد عرفا بعضهما ـ من خلال اتصالات تلفونية متفرّقة ـ عندما ساعد الاسرائيليون الولايات المتحدة في تعقّب سفينة أكيلي لورو المختطفة في تشرين الأوّل عام ١٩٨٥.

وكان نير، كمنسّق للإرهاب المضاد، هو الذي أخبر الأميركان بأن اسرائيل كانت تعترض وتسجل كل كلمة تنقل عبر اللاسلكي بين المختطفين الفلسطينيين وموجّههم في منظمة التحرير الفلسطينية، أبو العباس، على الشاطىء في مصر. وظهر رئيس أمان، إيهود براك، الذي كانت وكالته قد اعترضت المحادثات، على التلفزيون الأميركي ـ مستهدفاً الجمهور الأميركي، حتى قبل التحدث إلى التلفزيون الاسرائيلي ـ لتشغيل بعض الأشرطة على جهاز تسجيل صغير كان يحمله في يده.

وادراكاً منه بأنّه يحظى بدعم نادي رؤساء الوزراء المؤلّف من بيريز وشامير ورابين، شعر نير بأنه يستطيع أن يبدأ بوضع خطط مع نورث لشنّ حملة حول العالم ضدّ الإرهاب الدولي. وكانت أوّل مهمة له، في كانون الأول عام ١٩٨٥ إحياء فضيحة إيران.

ولم يواجه نير صعوبة كبيرة في الفوز بثقة البيت الابيض ـ إذ كان نورث أكبر نصير له في واشنطن. غير أنّه كي يشقّ طريقه إلى قلوب الإيرانيين، فقد تـطلّب ذلك دهـاء أكثر وبعض الحيل، من ذلك لقاء في أحد كازينوهات لندن، كان له هدفان: إثبات ان العملاء الثلاثة قد أخرجوا من مسرح الأحداث، ولترك انطباع حسن لدى الايرانيين بأن نير كان الآن رجل بيريز.

وخطّط نير في الأصل استغلال زيارة زعيمه الى رئيسة وزراء بريطانيا مارغريت تاتشر في كانون الثاني عام ١٩٨٦ كفرصة لتقديم بيريز نفسه الى نورث وغوربانيفار. إلا أن الايراني سرّب كلمة عن الخطّة لرفيقه القديم نمرودي. فأخبر نمرودي تشويمر، الذي طار على الفور من تل ابيب

الى لندن لمواجهة بيرز والمطالبة بمعرفة لماذا تمّ استبدالهما بنير. وأنكر رئيس الوزراء أنّه كان يخطّط لاجتماع، كما لم ير غوربانيفار.

وكي يبرهن على علاقته الوثيقة بزعيم اسرائيل، خدع نير بدلاً من ذلك المساعد الكبير لبيريز، الكولونيل ازرائيل نيفو، وذلك بمرافقته الى الكازينو. وهناك، لفت انتباه غوربانيفار الى الصورة المنشورة في صحيفة ذلك اليوم والتي أظهرت نيفو واقفاً بجانب بيريز. فإذا كان بيريز مع نيفو، وكان نيفو الآن مع نير، فمن البديهي ان نير هو المندوب الشخصي لرئيس الوزراء.

وكان نورث في لندن أيضاً واثقاً بأنّ ليدن - على غرار المناورات الاسرائيلية - قد أُخرج وسيتعامل نورث الآن مباشرة مع نير. فإذا كان نمرودي ورفيقاه قد أُخرجوا لتحقيق تفوّق على الموساد بأسلوب الموساد، فقد استطاع نير التغلّب على نمرودي باسلوب نمرودي.

تمكن نير أيضاً من إقناع البيت الأبيض بتجديد عمليات تسليم الأسلحة لطهران. حتى انّه انضمّ إلى ماكفرلين ونورث وفريق من رجال الاستخبارات الاميركيين - جميعهم بجوازات سفر إيرلندية مزّورة - في زيارة سرّية إلى طهران في أيار عام ١٩٨٦ لإجراء محادثات لم تكن عقيمة وحسب وإنما سخيفة تماماً. وفي محاولة لإنقاذ الرهائن الأميركان، كان من الممكن اقتيادهم جميعاً كرهائن من قبل الحرس الثوري. فقد كان نير والأميركيون قدراً مغرياً في عرين الأسد.

وتمّ الافراج عن رهينتين آخريْن هما الأب لورنس جينكو وديفيد جاكبسون، من قبل حلفاء إيران في لبنان. وفي نفس الوقت الذي استُقبلا فيه في أميركا وفي البيت الابيض بالاسلوب التمثيلي لريغان كانت بذور الفشل المزروعة في طهران قد بدأت تعطي ثمارها. فقد تسّربت رحلة ماكفرلين ونير الى الصحافة العالمية من قبل خصوم داخليين للإيرانيين كانوا قد تحدثوا الى «الشيطان الكبير» - ليقضوا بذلك على صفقة مقايضة الرهائن بالسلاح في تشرين الثاني عام ١٩٨٦.

كفضيحة، لم تمت. وتكشفت العمليات السرية وغير القانونية لماكفرلين ونورث ومجلس الأمن القومي على الملأ، وقادت المحاكمة الى المكتب البيضاوي. وطالبت الصحافة الاميركية والجمهور بمعرفة ما يتعلّق بتورط الرئيس ريغان. فهل أقرّ مقايضة الرهائن بالسلاح؟ وهل سمح لنورث بانتهاك حظر الكونغرس المفروض على تقديم المساعدة لمتمرّدي الكونترا باستخدام تجار سلاح اسرائيليين وحساباتهم في البنوك السويسرية لتحويل الارباح التي يحققونها من الايرانيين؟ ولم تجد وسائل الاعلام والمحقّقون الرسميّون سوى ان ريغان كان قد أعطى المسؤولية لمجموعة من المساعدين، أُجبروا على الاستقالة.

وكان هنالك رجل واحد تجاوز كل الشكوك، واجتاز تحقيق لجنة السيناتور جون تاور وجلسات استماع الكونغرس، هو نائب الرئيس، جورج بوش. وبرفضه الكشف عما كان

يعرف أو يفكّر أو يشعر أو ما قام به أثناء فضيحة إيران، انتخب بوش رئيساً في تشرين الثاني عام ١٩٨٨.

وكان الشخص الوحيد الذي يمكن تصوّر أنّه قادر على تدمير بوش سياسياً قد توفي في حادث تحطّم طائرة بعد ثلاثة أسابيع من الانتخابات. . فقد توفي أميرام نير قبل قليل فقط من عيد ميلاده الثامن والثلاثين في طائرة سيسناتي ٢١٠ قاصدة مدينة المكسيك من مطار صغير في يوروبان، حيث تحطمت في ظروف جوية سيئة على بعد ١١٠ أميال الى الغرب من العاصمة.

قبل عامين ونصف العام، في المكان التقليدي والمترف لفندق الملك داود في القدس، كان نير قد التقى بوش، وأعطاه ملخصّاً عن الصفقة الجارية مع ايران. ولم يكن الرئيس الجديد ليتحدث عن الأمر مطلقاً.

لقد عملت فوضى ايران غيت على وضع نهاية لوظيفة نير الواعدة. فظلّ في مكتب رئيس الوزراء لحوالي ثمانية عشر شهراً، إلا أنه لم يتول أية مهمات حقيقية. بعد استقالته في ربيع عام ١٩٨٨، انتقل الى لندن بكلّ الصمت الذي أضحى ميزته. ولم يعرف أحد الطبيعة الفعلية لعمله، وكان هنالك فقط بعض تلميحات بأنّه كان يعدّ لغطائه السري للقيام بمهمة تجسس جديدة.

وقالت الشرطة المكسيكية ان الاسرائيلي الذي وجدوا جثته كان قد استأجر طائرة السيسناتحت اسم «بات ويبر» لقد كان نير، غير أن التفسير الوحيد لوجوده في المكسيك هو اهتمامه المفاجيء بشراء ثمار الأفوكاتو للتصدير.

وهكذا، حمل أميرام نير معه الى قبره في اسرائيل ما تبقى من أسرار ايران غيت!

الفصل السادس عشر

اعمال . . مهما كلف الأمر

قال تاجر سلاح اسرائيلي في نهاية صيف عام ١٩٨٢ : «عندما عرضنا بندقية «الجليل» في الفلبين، أحضرنا مصمّم البندقية وفي البداية أسقطها في حوض به ماء. ثم فركها بالقاذورات. ثم بدأ بإطلاق الرصاص منها، الأمر الذي أثار إعجاب الفلبينيين بشدة».

غير أنهم لم يشتروا أياً من البنادق، الاسرائيلية الصنع وذات المواصفات القياسية في الجيش والمبنية على بندقية الكلاشنكوف السوفياتية. فالمشترون لم يتمكنوا من التغلّب على كراهيتهم للتعامل مع اسرائيل، والتي تشكل هدفاً لحملة عربية منظمة لوسم الدولة اليهودية بـ «دولة أبرشية» وبندقية الجليل واحدة من العديد من الأسلحة الاسرائيلية، التي تعدّ من بين الأفضل في العالم، إلّا أنّ التوجّه نحو المبيعات الخارجية عادة ما يصطدم بحيطان سياسية صلبة كما حدث في الفيلبين.

وهكذا، تضطرّ اسرائيل للبحث بنشاط عن أسواق مربحة، ولبيع خردتها العسكرية لأنظمة ذات سمعة مريبة كجنوب إفريقيا وإيران وأنظمة الحكم الديكتاتورية في أميركا اللاتينية.

وتنظر اسرائيل الى تصدير الأسلحة باعتباره مصلحة وطنية حيوية، ولا يُعدّ مصدراً للعملة الأجنبية ووسيلة مفيدة لإحداث تأثير فيها وراء البحار وحسب، فهناك منطق اعمال جوهري أكثر. فأن يكون لديها صناعتها الدفاعية الخاصة بها - والتي تجعل اسرائيل تقتنع بأنّها تحتاج اليها لتجنّب الاعتماد على عطف الدول الاخرى - يجب ان تحقق «جدوى اقتصادية»، إذ يتعين على صناعة السلاح الاسرائيلي أن تصنّع العديد من البنادق والرصاصات والقذائف والزي الرسمي والدبابات وزوارق الصواريخ الى جانب معدّات متطورة أكثر مما تستطيع اسرائيل نفسها استخدامها فالمبيعات الخارجية تغطي ثمن البحث والتطوير، كما أنّه من الممكن دفع نفقات امتلاك صناعات عسكرية من العوائد الخارجية.

لا عجب إذن أن تكون لجنة الاستخبارات مشتركة في حماية هذه المصلحة الوطنية وذلك بتعزيز المنتجات، إذ يعمد عملاء الموساد أثناء وجودهم في الخارج في مهمات كسفراء غير

رسميين، الى جانب رجال الشين بيت الذين يعملون كمستشارين سريين للارهاب المضاد الى نشر تفوق المنتجات الاسرائيلية، وتصبح البنادق ومعدات عسكرية أخرى جزءاً من صفقة شاملة، حيث تسير النصيحة الجيدة من الاسرائيليين جنباً إلى جنب مع أسلحة مجرَّبة في المعارك.

وهذه ظاهرة جديدة نسبيّاً، بدأت بعد حرب ١٩٧٣. وكانت عمليات تصدير الأسلحة الأولى يتولاّها على نحوأكثرمباشرة قسم صغير في وزارة الدفاع بتل أبيب يعرف باسم «سيبات»، وهي لفظة عبرية مختصرة تعني «مساعدة أمنية»، وكانت المفاوضات تجري بصورة متكتّمة، وعندما يكون البيع لدول ترغب بشدّة في إخفاء روابط العمل مع اسرائيل، كانت «سيبات» تحرص على الابقاء على سريّة مصدر السلاح.

وتمّ تأسيس «سيبات» بسبب السخط العام في منتصف الستينات من هذا القرن عندما كشفت وسائل الاعلام العالمية عن أوّل صفقة أسلحة بين اسرائيل وجنوب إفريقيا، لقد كان إحرجاً جديداً ومفاجئاً للدولة اليهودية، التي يُنظر إليها في مختلف أنحاء العالم كملجأ للناجين من المحرقة، أن ترتبط بنظام الحكم العنصري المنبوذ في بريتوريا. فأسس وزارة الدفاع وحدة المبيعات الخارجية الجديدة، لا للحيولة دون القيام بصفقات مماثلة في المستقبل وإنّما لإخفائها.

تحت إشراف سيبات، ازدهرت روابط الدفاع السرية، فعلّم المستشارون الاسرائيليون قوات الدفاع الجنوب افريقيّة ـ نفس اسمها يحاكي تلك الموجودة في الجيش الاسرائيلي ـ كيفيّة مقاتلة المؤتمر الوطني الافريقي وثوار جبهة «سوابو» وفق الخطّة العامّة ذاتها المستخدمة في مقاتلة الفلسطينيين، وباعت اسرائيل بنادق وأنظمة سلاح أكبر للجنوب افريقيين، بل وكي تساعدهم أكثر منحتهم امتيازات لصنع نسخهم الخاصة بهم من الأسلحة الاسرائيلية.

وانتجت «آرمسكور» وشركات جنوب افريقيةاخرى زورقاً للصواريخ مطابقاً لزورق «ريشيف» الاسرائيلي، المصمّم على غرار الزوارق التي استولى عليها الاسرائيليون من تشيربورغ. كما أنتجوا طائرة «شيتاح» المماثلة تقريبا لطائرة «كفير» المقاتلة المبنية على طائرات ميراج المسروقة والتي حصلت عليها لاكام، بالاضافة الى صاروخ «سكوربيون» وهو صاروخ بحر/بحر يتعذر تمييزه عن صاروخ غابرييل الاسرائيلي.

وكُشف عن التعاون البحري بصورة درامية في أوائل عام ١٩٨٢ بالقبض على روث. وديتر غيرهاردت. وكان ديترغيرهاردت قبطان الأسطول البحري لجنوب إفريقيا وقائد قاعدة سيمونزتاون البحرية الاستراتيجية بالقرب من كيب تاون. ولقد أثبتت الاستخبارات المضادة لجنوب إفريقيا، بعد أن تزوّدت بمعلومات سرية من جهاز تجسّس غربي، أن الزوجين غيرهاردت كانا يعملان كجاسوسين للاتحاد السوفياتي لفترة طويلة.

وكانت محاكمتهما سرية، إلا أن جزءاً من لائحة الاتهامات تسربت، فأماطت اللثام على أنه

من بين العديد من المهمات التي كانت الاستخبارات السوفياتية قد أولتها للزوجين الجنوب افريقيين التجسّس على علاقة بلادهما العسكرية والدفاعية السرية مع اسرائيل وكما كان الحال مع جون هادين وآخرين في السي آي إيه قبل خمسة عشر عاماً، لمس السوفيات أيضاً إشارات بأن اسرائيل كانت تعمل على رؤوس حربية نووية تتخذ الغواصات قاعدة لها. فأعطوا تعليماتهم للزوجين غيرهاردت لمعرفة ما إذا كانت صواريخ سكوربيون غابرييل من الممكن أو قد تكون أو كانت فعلاً مسلّحة برؤوس حربية، من شأنها أن تعطي الاسرائيليين خياراً لهجوم نووي، بالاضافة الى صواريخهم الأرضية وقاذفاتهم الهجومية.

لقد كان من قاعدة سيمونزتاون في أيلول عام ١٩٧٩، حين أبحرت مجموعة من السفن الجنوب افريقية باتجاه الجنوب الغربي في عملية على درجة عالية من السرية. وبعد بضعة أيام، رصد القمر الصناعي «فيلا» الذي تديره وكالة الأمن القومي الأميركية وميضاً لامعاً فوق جنوب الأطلسي، مماثلاً للأثر الذي يتركه انفجار نووي. وشكّت إدارة كارتر بأنّ ذلك كان تجربة لقنبلة جنوب إفريقيّة، مع احتمال تورّط اسرائيل بالأمر. وقال العلماء أنه بدا جهازاً مركباً ـ «ونظيفاً» على نحو مثير للإعجاب، دون أي غبار إشعاعي، وبالتالي من الصعب اكتشافه بعد الانفجار.

عقب مضيّ عشر سنوات ورد ثانية بأن اسرائيل وجنوب إفريقيا كانتا تتعاونان في إجراء بحث نووي، إلى جانب تطوير صواريخ أرض ـ أرض من طراز أريحا. وأعلن الجنوب إفريقيون في تموز عام ١٩٨٩ أنّهم كانوا قد اختبروا إطلاق صاروخ معزّز لصاروخ بالستي، فقال مسؤولون من إدارة بوش إنّ المعدّات التي رأتها الاستخبارات الاسرائيلية كانت شبيهة بالمعدات الاسرائيلية الخاصة باختبار الصواريخ، وبدا أنّ ذلك امتداد آخر لبرنامج سري للغاية، نشأ من المبيعات التي كانت وكالة «سيبات» في الأصل تقوم بتنسيقها.

ولم تشترك الوكالة في عمل استخباراتي محض، كما لم يلعب مدير «سيبات» دوراً في لجنة فاراش المؤلفة من رؤساء وكالات الأمن، إلا أنه كان في العادة ضابطاً عسكرياً كبيراً متقاعداً، حملت توصياته وزناً كبيراً في الدبلوماسية البديلة التي كانت لجنة الاستخبارات الاسرائيلية تمارسها.

وكانت سيبات تقوم بين حين وآخر بتعيين وسطاء، من أجل إخفاء التورط الاسرائيلي في العملية بالدرجة الأولى، إلا أنّ صفقات السلاح بين حكومة وأخرى كانت خاضعة عموماً لمراقبة وكالات الدولة المعنيّة. ولم تكن مبيعات الاسلحة من اسرائيل غير مرخصة أو «عرضية». غير أنها كانت حسّاسة ـ كما في الصفقة التي وافقت عليها أميركا والخاصة ببيع طائرات «سكايهوك» النفاثة والقديمة من سلاح الجوّ الاسرائيلي الى اندونيسيا، وهي دولة مسلمة معادية ظاهرياً للدّولة اليهودية، فأصرّت بالتالي على سرّية مطلقة.

وحتى حرب الغفران، بلغت صادرات الاسلحة الاسرائيلية حوالي ٥٠ مليون دولار سنويا. ثمّ ضاعفت الصناعة الدفاعية من جهودها لانتاج أسلحة مصنّعة محليّاً، فامتدت المبيعات العسكرية الى مرحلة ثانية. وبدأ الوسطاء الاسرائيليون بأخذ زمام المبادرة، حيث طرقوا كل الابواب بنشاط، وفتحوها لسيبات وللمجمّع الصناعي ـ العسكري المتنامي. وفي خلال خمسة عشر عاماً، وصلت صادرات الاسلحة الاسرائيلية الى حوالي مليار دولار سنويا، رغم ان الارقام غير منشورة رسميا.

كانت هذه السنوات الذهبية لياكوف نمرودي، كعميل مبيعات اسرائيلي اثناء وجوده في ايران. وعندما أغلقت السوق الايرانية بتولّي آية الله الخميني السلطة عام ١٩٧٩، تحرّقت اسرائيل للبحث عن مشترٍ آخر لمنتجاتها، فاكتشفت الصين. وكان المكتشف الذي جعل ذلك ممكناً يُدعى شاؤول ايزنبيرغ.

ولد ايزنبيرغ، وهو اكثر رجال الاعمال ثراء في اسرائيل، في أوروبا، ووجد ملجأ له اثناء الحرب العالمية الثانية في الشرق الاقصى. استقرّ في اليابان، حيث تزوّج امرأة يابانية وصنع ثروته من بيع فائض الحرب والمعادن الخردة.

وسرعان ما أثبت ايزنبيرغ نفسه باعتباره واحدا من الوسطاء الرئيسيين في المنطقة. إلا أنّه لم يفقد وعيه مطلقاً بأنّه يهودي، وقادته روابطه العاطفية الى القيام بأعمال في اسرائيل، ثمّ انتقل مع أسرته الى هناك. وأبقى على مصالحه في الشرق الاقصى، وفي أواخر السبعينات استطاع ان يمهّد الطريق للصادرات العسكرية الاسرائيلية الى بكين.

وكانت اضخم ادواته طائرته النفاثة الخاصة به، التي كان يستطيع على متنها ان يتجاهل العداء الرسمي بين الدولتين، ونقل اسرائيليين رفيعي المستوى الى الصين مباشرة كما قام ايزنبيرغ بالعديد من الرحلات حاملا معه مسؤولين من سيبات ومستشارين من الجيش وخبراء ماليين وبائعين عسكريين لما وصفتها اسرائيل باعتبارها «أقوى مفاوضاتهم على الاطلاق».

بعد القيام باتصال أولي متين، كان ايزنبيرغ يترك التنسيق للشحنات والصفقات الخفية للموساد، التي كانت تقوم بدورها التقليدي كوزارة خارجية سرية بديلة لاسرائيل. وكان جديرا بالحصول على عمولات ضخمة من سيبات ومن مقاولي الدفاع الاسرائيليين الذين كانوا يتولون عملية البيع فعليا.

ويُقدر مجموع صادرات الدفاع الاسرائيلية الى الصين في الثمانينات حوالي ثلاثة مليارات دولار عن العقد بأكمله.

ومع تزايد الصادرات، بلغت صناعة السلاح الاسرائيلية مرحلتها الثالثة. وبدأ الوسطاء

الاسرائيليون لا بقرع الابواب فقط، وإنما عملوا بنشاط على جذب حكومتهم وجرّها الى أبواب زعموا أنها فُتحت. لقد كان هنالك تغيّر مفاجيء: إذ كان الوسطاء يسعون إلى أن يملوا السياسة الخارجية الاسرائيلية، مبنية على توقّعاتهم المالية الخاصة بهم. ولم يعد سلوك نمرودي في فضيحة إيران غيت فريداً من نوعه.

ويوجد لدى اسرائيل طبقة جديدة كلية من الموساد والشين بيت ومحاربون قدماء كبار في الجيش يعملون لاقناع دولتهم بالبيع بينما يحثّون الاجانب على الشراء. ويشكل العسكريون ورجال الاستخبارات السابقون جزءا من شبكة اجتماعية ـ يمكن أن يُطلق عليها اسم «السابقون» ـ حيث تتمتع بإستقلاليّة وتوفّر الحماية لأعضائها تماماً كأي طبقة ارستقراطية في العالم. وقد تختلف جذورهم الاسرية وتعليمهم وأسلوب حياتهم، الا ان رغبة واحدة كانت تجمع بينهم وهي القيام بالاعمال وتحقيق الربح مهما كلّف الأمر.

وكانت البيئة ملائمة من جوانب عديدة لهؤلاء الرجال كي يضعوا مسألة الربح قبل كل شيء آخر. ولقد مرّ المجتمع الاسرائيلي بتحوّل في السبعينات والثمانينات من هذا القرن وعلى وجه الخصوص، كان هنالك الارهاق الذي سبّبه تعاقب الحروب. وكان على الروح المثالية والريادية لاسرائيل في الربع الأول من القرن ان تتنافس مع المصلحة الذاتية والمادية.

في الأيام الخوالي، كان الناس يخجلون من مناقشة النقود، كما كان يُعدّ من «الفظاظة» بمكان التركيز على جمعها. ولم يكن من المقبول تحقيق ربح من صفقات العمل، خصوصاً إذا تعلّقت بالمصالح الوطنية. إلا أنه في اسرائيل اليوم أصبح جمع النقود «عجلاً ذهبياً» تركع امامه معظم فئات المجتمع ـ بما في ذلك الدوائر العسكرية والاستخبارات.

ويجد «السابقون» انّ وظائفهم تنتهي في وقت مبكر وان رواتبهم التقاعديّة لا تزيد على معدل رواتب الخدمة المدنية التافه والبالغ ١٢ ألف دولار سنويّاً. ويشعرون بأن لديهم بضع مواهب قابلة للتسويق بعد العمل بجدّ اكبر حتّى من نظرائهم العالميين، حيث يحسدون على وجه الخصوص عملاء السي آي إيه لمرتّباتهم الضخمة ورواتبهم التقاعدية السخيّة. وعلى أية حال، يمكن عقد نفس المقارنة بالنسبة لأية وظائف في اسرائيل ذات الأجور المنخفضة.

وما أن يتركوا عملهم في الاستخبارات أو الجيش، وفي بعض الاحيان وهم ما زالوا موظفين من قبل الدولة، حتّى يعمد العديد من الاسرائيليين الى اقامة روابط يجدونها مفيدة لكسب العيش ـ وغالبا ما يكون «عيشاً» جيداً ـ في حياة خاصّة.

والبعض أبطال حقيقيون. وآخرون يتركونك بذلك الانطباع: ومن ذا يستطيع ان يراجع مسؤوليهم السابقين؟ إذ يستغلون السمعة التي بناها الاسرائيليون في الارهاب المضاد والخبرة

العسكرية وأمن المكاتب والخطوط الجوية والحماية الشخصية.

وقد أضحت دول مثل إيران، عندما كانت في حرب مع العراق، وبعض حكومات أميركا اللاتينية مقتنعة تماما بأن الاسرائيليين يستطيعون تزويدهم بأي شيء وبكلّ شيء. فباعت اسرائيل أنظمة سلاح كاملة الى جنوب إفريقيا، كما رخصت شركات هناك لتصنع طائرة «كفير» النفاثة المقاتلة الاسرائيلية التصميم، والتي أعيد تسميتها الى «شيتاح» بالاضافة الى زوارق الصواريخ «ريشيف» وصوارخ غابرييل بحر - بحر تحت أسماء جديدة.

وكان يتمّ استخدام تجّار السلاح الاسرائيليين الخصوصيين لتجنّب الحواجز السياسية - حتّى وان كانت الولايات المتحدّة، حامية اسرائيل الرئيسية هي التي تضع العراقيل. ورغم ان ذلك ممنوع من قبل واشنطن، إلاّ أنّ اسرائيل سمحت لتاجر رسمي سابق يُدعى نورمان شكولنيك بالتفاوض لبيع اثنتي عشرة قاذفة «سكايهوك» الاميركية الصنع للأسطول البحري الارجنتيني. كان ذلك في ربيع عام ١٩٨٢، في نفس الوقت الذي كانت بريطانيا ترسل فيه قوّتها البحريّة الخاصّة لاسترداد جزر الفوكلاند من الارجنتينيين. وفرضت ادارة ريغان حظراً على بيع السلاح للارجنتين، واخبرت الاسرائيليين بايقاف صفقة شكولنيك. فتمّ الغاء بيع الطائرات الحربية، إلا أن المسؤولين الأميركيين ظلّوا متشكّكين إزاء كلّ من سيبات والتجار الاسرائيليين «الخصوصيين».

من جانب آخر، بعض السماسرة الذين حدث وان جاءوا من اسرائيل يخادعون فقط عندما يقترحون بأنّهم يمثلون حكومتهم. لقد كان ذلك الانطباع بالقدرة اللامحدودة هو ما حاول قائد اللواء المتقاعد افراهام بار - آم نقله.

وكان بار - آم، وهو ضابط خدم في لواء المشاة والمدّرعات وفي الثلاثين من عمره، قد غادر الجيش عام ١٩٧٨. وكان قد عوقب لقيامه بتقديم أسلحة لشخصيّات إجراميّة اسرائيلية مزعومة. وكمحارب قديم عاطل عن العمل، نظر حوله فرأى مدى ما حققه عدد من أصدقائه المقربين من نجاح في العمل الخاص.

وقد أسس ضباط كبار سابقون في سلاح الجوّ، من بينهم قائدهم في حرب ١٩٧٣، اللواءموردخاي هود وكالات للبيع مثلت شركات تصدير اسرائيلية كبيرة ومصانع اميركية عملاقة. وواصل الضبّاط الذين كانوا قد تعاملوا مع هذه الشركات أثناء وظائفهم العسكرية، الابقاء من حيث الجوهر على هذه الروابط بعد مغادرة الجيش ودخول الحياة المدنيّة. وكان بار - آم شديد الاعجاب على وجه التحديد بالثروة التي جمعها نمرودي في إيران، وقدّر بأنّه يستطيع القيام بنفس الشيء.

إلى جانب حوالي ألف ضابط كبير متقاعد آخرين، قدّم بار-آم طلباً للحصول على ما يبدو وثيقة روتينية من وزارة الدفاع تخوّل حاملها المضيّ قدماً والبحث عن مبيعات للأسلحة الاسرائيلية. وكان له ما أراد. غير أن التصريح حظر على وجه الخصوص الاشتراك في مفاوضات فعلّية.

وفي نهاية نيسان عام ١٩٨٦، ألقى ضبّاط الجمارك الاميركيون القبض على الجنرال بار-آم ورجلي أعمال اسرائيليين آخرين وأربعة عشر رجلاً آخر. وكانوا جميعاً ضحايا لعملية استمرت لمدة أربعة شهور، قام بها تاجر السلاح الايراني سايروس هاشمي - الذي كان قد زار اسرائيل في العام الماضي، في الفصل الأوّل من مسرحيّة ايران غيت - كمخبر للحكومة الاميركية. وأدين المتهمون السبعة عشر جميعهم في نيويورك لتورّطهم في مؤامرة مزعومة لبيع طائرات «الفانتوم» المقاتلة والدبابات والصواريخ وعدد كبير من الاسلحة المتطوّرة للايرانيين.

ولم تكن القائمة الشرائية سوى جنون عظمة مطبق، وكان من الصعب التصديق أنّ بار-آم وزملاءه قادرون على الحصول على الكثير ليبيعوه الى ايران. غير أنّ هاشمي كان في اسرائيل مع نمرودي، بل انه التقى بمدير السي آي إيه وليام كيسي بصورة مستقلة عام ١٩٨٥ كي يقترح صفقة ضخمة لمقايضة الرهائن بالسلاح، وتمكّن من إقناع بار-آم بأنّ الصفقة بأكملها سترحب بها كل الحكومات المعنية.

وأضحت دوافع هاشمي غير واضحة حالما استخدمته الجمارك لتلفيق تهمة ضدّ بار-آم والآخرين. وحتى البيت الأبيض كان متحيّراً. وفي نقاش مع الرئيس ريغان في تشرين الثاني عام ١٩٨٦، تساءل مستشاروه المقرّبون إليه فيما إذا كانت اسرائيل تلعب دوراً رسمياً في حلقة صفقة السلاح لبار-آم.

وسأل نائب الرئيس جورج بوش في ذلك الاجتماع: «هل تلك القضية محاولة خاصة او حكومية لبيع السلاح لاسرائيل؟».

فأجاب أحد المعاونين، والذي لم تُحدّد هويته في المذكرات الرسمية للبيت الابيض: «لعلها خاصة لكن بمعرفة الحكومة».

فشعر بوش بأن الاعتقالات قد تقود الى مشاكل أكثر، وقال: «قد تحاول اسرائيل الضغط علينا».

وأنكرت اسرائيل بشدّة أنها كانت متورّطة في المخطّط المزعوم، إلا أن بار - آم اتّصل بالملحق العسكري الاسرائيلي في واشنطن بعد اعتقاله، وأصرّ بأن أصدقاء في الموساد تخلّوا عن المشتركين في صفقة السلاح.

بحلول عام ١٩٨٨، ووسط الإحراج الذي تسبّبت به فضيحة إيران غيت والكشف عن مبيعات الأسلحة الأميركية لآيات الله، أسقطت السلطات الأميركية تهمتها ضدّ بار ـ آم. وكان أحد أؤلئك المتمرسين في الاستخبارات والدفاع والذين بينما كانوا وطنيّين تماماً أثناء وجودهم في الخدمة الرسمية، إلاّ أنّهم تجاهلوا مصالح اسرائيل حينما أصبح دخلهم يعتمد على حقائق السوق المتعلّقة بالعرض والطب. وعندما كانت تتوفر الفرصة لبيع بعض سيارات الجيب والبنادق والذخيرة ومدافع الهاون وقطع الغيار، وغيرها من «الخردة الصغيرة» التي لم تكن اسرائيل ترغب فيها بأيّ حال من الأحوال، لم يكن القراصنة ليترددوا كثيراً حتّى أنّهم لم يتحققوا فيما إذا كانت القدس قد تعترض على الأمر.

وزعمت سيبات عام ١٩٨٩ أنّها كانت تُحكم نظام مراقبتها بحيث تتطلّب الآن من أي شخص يقوم ببيع معدّات عسكرية اسرائيلية تقديم طلب للحصول على إذن فيما يتعلّق بكل صمولة ومسمار ورصاصة. غير أنه بدا أن العديد من القراصنة لم يرتدعوا. وفي عالم العمليات السرية، كان هؤلاء العملاء السابقون قد أدركوا أنّ العديد من المهمات ليست بذات قيمة نظراً للضرر الذي قد يحدثه الكشف عنها. إلا أنّهم بعد أن أضحوا رجال أعمال خصوصيين، لم يلقوا بالاً كبيراً لمثل هذه التفاصيل. وعندما كانوا يرتكبون أخطاء، كان اللوم يُلقى دائماً على الدولة اليهودية.

والأسوأ من ذلك أنّ بعض العملاء السابقين في الاستخبارات اعتقدوا بأنّ كل ما قاموا به أصبح بشكل آلي مصلحة وطنية لاسرائيل. لقد كان اعتقادهم بأفضليتهم مذهلاً في بعض الأحيان، كما كانت المناطق الرمادية خادعة. فهل ضغطوا من أجل خطوة سياسية بعينها لأنّ ذلك كان سيكون لصالح اسرائيل؟ أم أنّ ذلك كان مجرّد عذر، بينما تركز اهتمامهم فقط على أرصدتهم البنكية؟

وكانت اسرائيل تنتهي بين حين وآخر متورطة مع بعض اسوأ انظمة الحكم في العالم. وقد يجد متمرّس قديم في الاستخبارات فرصة عمل، لنقُل في أنظمة الحكم الديكتاتورية الافريقية مثل أوغندا بزعامة عيدي أمين أو زائير بزعامة موبوتو، وقبل فترة طويلة من قيام عملاء سابقين ومحاربين قدماء بتدريب أجهزة الأمن في هذه الدول.

ولقد وافقت وزارة الدفاع عموماً في تل ابيب، رغم أن ذلك كان بصورة سرية، على صفقات التصدير المربحة التي عقدها «السابقون» وغالباً ما كان يتسرب أمرها من خلال الدبلوماسيين والصحفيين، مما عمل على تقوية صورة اسرائيل السيئة كدولة أبرشية على علاقة بأنظمة عالمية أخرى منبوذه.

وكان مايك هراري، وهو أحد رجال الموساد الذين انتقموا من العرب بعد عملية الأولمبياد

عام ١٩٧٢، من بين العملاء السابقين مع أصدقاء في مراكز رفيعة. وُلد هراري في تل ابيب عام ١٩٢٧ لأب يعمل مسؤولاً في الجمارك. وكانت وظيفته مماثلة لوظائف العديدين من أبناء جيله في الاستخبارات الاسرائيلية. خدم في البالماخ وشاي، وعندما أعلن قيام الدولة انضمّ الى لجنة استخباراتها.

وكانت وظيفته في الشين بيت في الخمسينات كضابط أمن لوزارة الخارجيّة، ثم قضى العشرين سنة التالية في وظيفة الموساد السرية. هذا وكان دائماً عميلاً ميدانياً للمهمّات الخاصة، حيث عُرف عنه اجتهاده البالغ. وفي عام ١٩٧٢ و١٩٧٣ كان مسؤولاً عن فرق الاغتيال التي تصيّدت الفدائيين الفلسطينيين في أوروبا الغربية، إلى أن أخفقت عملية ليليهامر. وتمكن هراري فقط مع صديقته ومساعدته تامار الى جانب القناصين من مغادرة النرويج، أمّا الأعضاء الآخرون من فريق الهجوم فقد أُلقي القبض عليهم.

واستطاع هراري البقاء في الموساد رغم تورّطه في أكبر خطأ فاضح في تاريخ أجهزة الأمن الاسرائيلية حتى ذلك الوقت. وفي اسرائيل السبعينات، وحتى بعد عملية ليليهامر، لم يجرؤ أحد على توجيه نقد علني للجنة الاستخبارات أو المطالبة بتحقيق علني أو صرف موظفين.

وتولىّ رجل العمليات المتمرّس مهمة جديدة بعيدة عن مكتب قيادة الموساد؛ إذ عُيّن هراري مسؤولاً عن مركز الوكالة الرئيسي في مدينة المكسيك، وتتمثّل مهمّات الوكالة في تعقّب نشاطات الفلسطينيين في الأميركتين ولبيع السلاح الاسرائيلي. وأقام هراري صداقات عديدة، غنيّة ومتينة أثناء تجواله في أميركا اللاتينية لتعزيز مصالح اسرائيل، من بينها صداقته مع ديكتاتور بنما الجنرال عمر توريجوس ورئيس استخباراته العسكرية، الكولونيل مانويل نوريغا وكان هراري قد التقى بتوريجوس عام ١٩٦٨ في مهمة تتعلّق بتمويل الموساد وترتيبات الشحن، حيث تمّ الجمع بينهما من قبل عضو من المجتمع اليهودي الكبير والثري، بل أنّ هراري استُدعي كي يتوسط في العلاقة الشائكة بين الديكتاتور وحميه اليهودي.

وبعد ما يزيد على خمسة وثلاثين عاماً من خدمة بلده، انتقل الى العمل الخاص عام ١٩٨٠، فعمل لفترة قصيرة كموظف تأمين، ثمّ بدأ يوزع وقته بين اسرائيل وأميركا الوسطى.

وكانت الموساد في ذلك الوقت ما تزال قوية بما يكفي، ضمن البيروقراطية الاسرائيلية، لتقسيم العالم الى إقطاعيّات لـ «السابقون» الاثيرين لديها. وحيثما كان لوزارة الخارجية سفارة رسمية علناً، فإنّ جزءاً كبيراً من العمل الرسمي كان يقوم به عملاء سابقون. وتمّ إعطاء بنما لمايك هراري. فأنت لا تتقاعد فعلاً من لجنة الاستخبارات، وإنّما تظلّ دائماً تحت تصرّفهم.

وكان لزعماء بنما المعروفين بولعهم في اللعب على الحبلين روابط قوية مع الولايات المتحدة،

إلا أنهم احتفظوا كذلك بعلاقات جيدة مع كوبا برئاسة فيدل كاسترو. وكانت الثورة الكوبية خير نصير للقضية الفلسطينية، كما شجعت التجمّعات الراديكالية في مختلف أنحاء العالم، لتجعل كاسترو بذلك هدفاً مثيراً للجاسوسية الاسرائيلية. ومن خلال مصفاة هراري وأصدقائه البنميين، جمعت اسرائيل معلومات حول الصفقات التي عقدتها كوبا مع الفلسطينيين. وعندما توفي توريجوس في حادث تحطّم طائرة غامض عام ١٩٨١، ورث نوريغا كلاً من الدولة والصداقة مع هراري. وكان الرجل القوي البنمي الجديد قد تعامل مع السي آي إيه لفترة طويلة، إلا انه بدأ بإثارة غضب الولايات المتحدة بالتورّط في عمليات تهريب المخدّرات المزعومة من جنوب إفريقيا الى الولايات المتحدة.

في غضون ذلك، أضحى هراري الذراع الأيمن لنوريغا الذي لا غنى عنه، فأقنع الاسرائيلي الجنرال بطرد رجل الأعمال الثري شاؤول ايزنبيرغ من مركز القنصل البنمي الفخري في تل أبيب. وأخذ هراري اللقب لنفسه.

وعَيّنَ حراساً شخصيين اسرائيليين، كما درّب رجالاً محليين لحماية الجنرال نوريغا الذي استفاد قصره من نظام الأمن الاسرائيلي التقليدي المؤلف من الأسلاك الشائكة والمجسات الالكترونية وساعد هراري نوريغا على تنظيم جنوده في قوّه الدفاع البنمية، والتي سُمِّيت حتّى على غرار تسمية جيش اسرائيل. ومن خلال هراري، باعت اسرائيل أيضاً أسلحة خفيفة الى الحرس الوطني البنمي. ولم يمض وقت طويل حتّى بدأت كل الصفقات التجارية بين اسرائيل وبنما، وليس فقط الأسلحة، تمرّ من بين يدي هراري. وكان ربحه يكمن في العمولات.

ولم يُدلِ هراري بتصريحات علنية، كما كان حساساً على نحو مماثل إزاء ظهور اسمه في الصحف. وكانت صورته قد نُشرت في الصحف الاسرائيلية مرتين فقط، وذلك عندما رافق الجنرال نوريغا في زيارة رسمية الى اسرائيل عام ١٩٨٥. وفشلت محاولة ثالثة لتصويره. كان ذلك في حزيران عام ١٩٨٨ في حفلة أقيمت في حديقة كبيرة في ضاحية سافيون لتكريم أستاذ على نشر كتابه الجديد.

فبينما كان هراري يتناول الطعام في الحفلة، ثبّتت مصوّرة شابة من إحدى الصحف اليومية الاسرائيلية آلتها لالتقاط صورة له. وتراجع هراري. ثم مشى نحو المصوِّرة، وطلب منها بأدب أن تعطيه الفيلم، حيث وعدها بتحميض كل الصور، وإعادتها لها في خلال يوم أو اثنين ـ باستثناء الصورة التي التقطتها له.

وعندما رفضت، انتزع الرجل الغامض منها آلة التصوير، وسحب الفيلم وأحرقه أمام عيون مئات الضيوف المندهشين، وصرّح قائلاً: «لا أحد يجرؤ على تصوير مايك هراري»، مواصلاً تنزّهه حول الحديقة وكأنّ شيئاً لم يحدث.

وأضحى الخط الفاصل بين المصلحة الوطنية والجشع الشخصي غير واضح مع وجود كميّات ضخمة من النقود في متناول اليد. وفي الولايات المتحدة، وبعد ادانة نوريغا بتهمة تهريب المخدّرات عام ١٩٨٨، تهامس المسؤولون بشأن الاسرائيلي الغامض الذي ساعد على حماية الجنرال وعندما غزت الولايات المتحدة بنما في كانون الاول عام ١٩٨٩ وأطاحت بنوريغا، تساءلت وسائل الاعلام ما الذي حدث للاسرائيلي المقرّب من الديكتاتور.

وبالأسلوب الذي يحيط عادة بأي رجل استخبارات، كانت عمليات هراري أثناء الغزو الاميركي مغلّفة بتضليل إعلامي متناقض، إذ أخبر دبلوماسي أميركي في مدينة بنما الصحفيين بأن رجل الموساد السابق كان قد ألقي القبض عليه وهو يحاول الهرب، إلا أنّ القصّة تراجعت فيما بعد لتصبح قضيّة مزعومة لتطابق غير صحيح. واقترحت رواية اخرى ان هراري كان يقيم مع أسرة نوريغا ـ بينما كان الديكتاتور نفسه يقضي الليل مع عشيقة ـ عندما أتى اسرائيليان لزيارته، وحذّراه من الغزو، حيث فرّا معه بأمان قبل ست ساعات فقط من إنزال المظليين.

من جانب آخر، أشار المسؤولون الاميركيون أنهم بينما كانوا في أثر نوريغا، لم تكن لديهم مذكرة لإلقاء القبض على هراري. فالاسرائيلي كان بمنأى عن التهم المتعلقة بالمخدّرات والموجهة ضدّ الديكتاتور البنمي في المحكمة الفيدرالية بميامي.

وظهر هراري المراوغ في اسرائيل، ليدلي بأوّل أحاديث له في حياته، لكن دون أن يلقي ضوءا جديدا على العقد الذي أمضاه في بنما. وبصوته الرفيع والمرتفع على نحو مذهل، اشتكى ضابط الموساد السابق من أنّ الفلسطينيين قد يستهدفونه من جرّاء اهتمام الصحافة.

قال هراري: «يقولون انني فتكت بأناس. ألا يدركون بأن هذا ينزل عقوبة الموت بي؟ ما الذي فعلته للصحافة؟».

وأثناء عمله كقرصان لسنوات، ساعد هراري اسرائيل وذلك بتعريفها على كل الناس المهمين. وبدا أنّ الامر كان اكثر من مجرّد صدفة أنّه عندما اختار أوليفرنورث، الموظّف المتحّمس للرئيس ريغان، حلفاء أجانب لمساعدته على التحايل على الكونغرس وذلك بتسليم أسلحة لمتمرّدي الكونترا المعادين للشيوعية في نيكاراغوا، تحوّل الى كلّ من اسرائيل ونوريغا.

ومع خروج ريغان من السلطة، وإدانة نورث في فضيحة إيران غيت وادانة نوريغا بتهريب المخدّرات، وجدت اسرائيل بأن عميلها السابق هراري أضحى عائقاً بالنسبة لها.

غير أنّ أكثر تفسير منطقي هو أنّ هراري لم يكن حقيقة يقف الى جانب نوريغا حالما تجمعّت أميركا وكل الظروف ضد الديكتاتور. وعندما قررت الولايات المتحدة بحزم معارضته والاطاحة به، فمن غير المحتمل ان يتخذ الموساد موقفاً معاكساً، متمسكة بنوريغا بشدّة. لقد كان صديقاً

لاسرائيل، كما كان جيدّا مع يهود بنما، إلاّ أنّه لم يكن قيّماً إلى تلك الدرجة. وفي عمل تطغى فيه المصالح على العواطف دائما، حظيت السي آي إيه بتعاون من الموساد، والتي كانت ستستخدم بالطبع موظفها السابق والمخلص هراري.

وهكذا، بينما كان الجنرال مسجوناً في ميامي، مواجهاً تهماً بالمخدرات سمح الاميركيون لهراري بالخروج من بنما، كما سمحت له الاستخبارات الاسرائيلية بالعودة الى بلاده بصمت حتى دون سجلّ يفيد بأن «السيد هراري» كان قد مرّ بنقاط التفتيش الحدودية في أيّ من البلدين.

وينظر الى بيساش بن ـ أور أيضاً «كعميل اسرائيلي»، رغم انه كان مجرّد نقيب سابق شاب سعى وراء المنفعة الشخصيّة، ومثّل نوعاً آخر من تجّار السلاح الاسرائيليين. ولم يكن لبن ـ أور ماضٍ عسكري لامع أو علاقات «السابقون» القديمة بالمؤسسة الدفاعية والسياسية.

وُلد في اللدّ عام ١٩٤٨ تحت اسم بيساح سبيغلر. وكان فتى طموحاً منذ الصغر، فبعد أن أتم خدمته العسكرية الالزامية، انضمّ إلى والده كموظف في شركة صناعات الطائرات الاسرائيلية. وهناك، التقى بماركوس كاتز، وهو تاجر سلاح اسرائيلي ووسيط من المكسيك كان قد مثل شركة صناعات الطائرات الاسرائيلية في أميركا اللاتينية.

انتقل سبيغلر/ بن ـ أور الى المكسيك كسائق وحارس شخصي لكاتز. وتعلّم الاسرائيلي الشاب كل الحيل المتعلّقة بتجارة السلاح. وانتظر بن ـ أور الفرصة المناسبة، حيث واتته في عام ١٩٨٠ عندما فرضت الولايات المتحدة حظراً على السلاح ضدّ غواتيمالا. وكان نظام الحكم في ذاك البلد يشهد خلافا مع كاتز، لذا قام بن ـ أور بخطوته، فأزاح رئيسه جانباً ليملأ الفراغ ويصبح مُورِّد السلاح الرئيسي لنظام من أسوأ أنظمة الحكم في المنطقة. وهكذا، ببيع السلاح لحكومة تقمع حقوق الانسان بوحشية، أضحى مليونيراً.

اشترى بن ـ أور منزلا فخما محصنا كقلعة في ضاحية تقع في وسط اسرائيل، واستثمر أمواله في المطاعم. وارتبط اسمه بصفقات سلاح عديدة غير مؤكّدة في أميركا اللاتينية، بما في ذلك بيع أسلحة لمتمردي الكونترا في نيكاراغوا.

وبينما تُعدّ مدينة المكسيك مركزاً مهماً للموساد ـ ومركز قيادة لبعض الاسرائيليين القراصنة يوجد هنالك أيضاً مراكز رئيسية في ريودي جانيرو وبيونس آيريس. وتراقب الموساد أمن المجتمعات اليهودية في البرازيل والارجنتين، كما تراقب أيضاً المشاريع التعاونية بين هاتين الدولتين والعالم العربي. وكانت مصادر اسرائيلية قد اتهمت البرازيل عام ١٩٨١ بمساعدة العراق في برنامجها النووي، وبذلوا كل ما في وسعهم عام ١٩٨٨ لاقناع الارجنتين بوقف مشاركتها في المشروع المصري ـ العراقي الخاص بتطوير صاروخ أرض ـ أرض جديد يُدعى كوندور.

وكانت لجنة الاستخبارات الاسرائيلية أكثر تساهلاً في أميركا اللاتينية من أي مكان آخر في العالم، عندما يتعلّق الامر بالسماح لـ «السابقون» بالعمل لحكومات ولجماعات خاصة. وتشعر معظم أنظمة الحكم في المنطقة بانها مهدّدة من قبل الدول المجاورة والمتمردين داخل البلد. وباختصار، يرغبون عموما في أن يكونوا مدجّجين بالسلاح. وبالنّسبة لتجار السلاح الاسرائيليين، فإنّ فرص تحقيق الربح كانت مغرية على نحو غير عادي.

واستخدمت بعض الحكومات اسرائيليين كمستشارين «للأمن»، أُدينوا من قبل دعاة حقوق الانسان وغيرهم من النقاد الاجانب لاعطاء نصيحة «قذرة» حول كيفية قمع الخصوم السياسيين بصورة فعّالة اكثر. وبينما تُعّد السياسة الرسمية الاسرائيلية واضحة تماماً عندما يتعلّق الامر بالصراعات الاهلية في أميركا الجنوبية والوسطى، فمن المؤكد ان «الخصوصيين» قد قدموا تدريباً حول «التمرد المضاد» للوحدات العسكرية النخبوية في المنطقة.

وتحوّلت غواتيمالا والسلفادور ونيكاراغوا قبل العهد السانديني جميعها بحماس الى منتجات «الدفاع» الاسرائيلية بعد ان استجابت الولايات المتحدة لانتهاكات حقوق الانسان، بتقليل المساعدات العسكرية. واقترحت تقارير متواصلة في الصحافة الاسرائيلية والأميركية بان الولايات المتحدة الأميركية كانت تدفع ثمن بعض البضائع الاسرائيلية بصورة سرية، وذلك كي تساعد الاميركيين اللاتينيين المعادين للشيوعية الى ما هو ابعد من الحدود التي وضعها الكونغرس وقال عدة زعماء من متمردي الكونترا المعادين لنيكاراغوا الساندينيّة بأنهم حصلوا على سلاح من اسرائيل ـ من بينها أسلحة استولت عليها من منظمة التحرير الفلسطينية.

وكانت أجهزة الكمبيوتر من بين اكثر الصادرات الاسرائيلية نجاحاً للشرطة السريّة في العديد من الدول المستبدّة؛ إذ باع القراصنة الذين لديهم تصاريح تصدير من سيبات أنظمة ملفات وبرامج كمبيوتر خاصة بتحديد هوية الثوار وأجهزة تصنّت الكترونيّة مبنية على أنظمة الارهاب المضادّ التي طوّرتها الشين بيت.

وشوهد «السابقون» الاسرائيليون وهم يدّربون وحدات عسكرية وقوات الشرطة في غواتيمالا وهندوراس والسلفادور، وفي كولومبيا، اضحى اي عقد مربح يسبب إحراجاً بالغا. ومضى المقدّم يائير كلين، وهو ضابط احتياط كان قد قاد وحدة مظلية للارهاب المضاد إلى حدّ فتح شركة أمنية خاصة عرفت باسم: «رأس الحربة»، حيث اظهر شريط فيديو عُرض في مختلف أرجاء العالم في آب عام ١٩٨٩، كلين واسرائيليين آخرين وهم يقومون بتدريب كولومبيين مسلحين وُصفوا بانهم فرق اغتيال لبارونات المخدّرات في ميدلين.

وفرّ كلين من كولومبيا، وهو في الرابعة والاربعين من عمره، قبل صدور مذكرة بالقاء القبض عليه، إلا أنّه هُدِّد فيما بعد بمقاضاته في اسرائيل عن نشاطات أصرّ بأنها كانت مرخّصة

تماماً. وكان لرأس الحربة رخصة تصدير من وحدة سيبات التابعة لوزارة الدفاع. وقال مسؤولون اسرائيليون انّ التصريح غطّى فقط العقود مع الحكومات لا المليشيات الاجرامية. وذكر كلين قائلاً: «درّبت مجموعة من المزارعين دافعوا عن أنفسهم ضدّ المنظّمات الارهابية، وبالدرجة الاولى الجماعة المعروفة باسم إم-١٩ التي تريد تحويل كولومبيا الى كوبا أو نيكاراغوا».

وتلطخت صورة اسرائيل بسبب الربط العلني مع مهرّبي المخدّرات. وصدرت الأوامر لسيبات ثانية كي تشدّد المعايير التي يتمّ على أساسها إصدار تصاريح التصدير لاسرائيليين يبيعون السلاح أو الخبرة العسكرية.

ويبدو أن الاسرائيليين يقومون بعقد صفقات سرية في كل مكان. وقد يصطدم زائر لأحد «السابقون» في أوروبا بالمنظر الغريب لثري عربي يجلس باسترخاء ويشرب ويضحك ويتباحث في عمل ما مع اسرائيليين. وسواء هناك أو في افريقيا، آسيا او اميركا اللاتينية، فقد أعطى القراصنة لاسرائيل وقواتها والمسلحة ولجنة استخباراتها سمعة سيئة. وفي بعض الاحيان، يلقي الوزراء الحكوميون الاجانب والصحافة مسؤولية كل حادث غامض او قذر في العالم على ما يبدو على الاجهزة السرية الاسرائيلية.

وفي المحاكم في مختلف ارجاء العالم، كانت «الاستخبارات الاسرائيلية» أو الموساد تُطرح كدفاع، كما لو أنّ القضاة كانوا سيغفرون كل شيء إذا اعتقدوا بأنّ مجرماً ما كان يعمل لصالح اسرائيل. وانحدرت سمعة اسرائيل الى الحضيض تماما من قبل القناصين وتجار المخدّرات والمختطفين في قاعات المحاكم من الجزر الكاريبية الى عواصم أوروبا.

وقد ظهرت قضيّة كهذه على الملأ في بريطانيا عندما اشتبه ضباط الجمارك ببعض موظفي الشحن في السفارة النيجيرية والذين كان توتّرهم واضحاً. ففي مطار ستانستيد، شمال لندن، كان الموظفون يستعدون بحذر لتحميل صندوقين خشبيين كبيرين على متن طائرة تابعة للخطوط الجوية النيجرية، كانت على وشك الاقلاع الى افريقيا. وكان الضباط البريطانيون يعرفون النوع المعتاد للحقائب الدبلوماسية التي كانت السفارة النيجيرية في لندن ترسلها الى الوطن.. وهذه المرّة، في عصر الخامس من تموز عام ١٩٨٤، بدا الصندوقان غريبين، كما انبعثت من أحدهما رائحة شبيهة برائحة جناح في مستشفى.

وسألوا ما الذي كان في الصندوقين، فرفض النيجيريون الاجابة، مختبئين وراء حصانتهم الدبلوماسية. ودون أن يثنيهم شيء، أمسك الضباط البريطانيون مطرقة وعتلات وفتحوا الصندوقين.

كان في أحدهما رجلان أبيضان، بدأ أنّهما هاربان ومذنبان، لم يظهرا مقاومة حين أُلقي

القبض عليهما من قبل الشرطة الذين استدعتهم سلطات الجمارك. أما في الصندوق الآخر، فصرخ رجل أبيض على الفور بقوله: «أنا طبيب!» حيث كان قد غرس حقنة في الوريد في ذراع رجل أسود ببزّة عمل تكوّر في قعر الصندوق غائباً عن الوعي.

وهكذا أُحبطت عملية اختطاف معقدة عُرفت فيما بعد باسم «فضيحة ديكو». وكان الضحية عمر ديكو وهو وزير كبير سابق في حكومة نيجيريا، كان على قمة قائمة «الاكثر مطلوبين» هناك بعد حدوث انقلاب عسكري. وقال النظام الجديد أنه كان قد فرّ الى لندن بملايين الدولارات من الأموال العامة. وأراد النيجيريون إحضاره إلى لاغوس لمحاكمته، فوجدوا ثلاثة اسرائيليين للقيام بالعملية القذرة نيابة عنهم.

وكان اسكندر باراك العقل المفكّر، وكان ينحدر هو ومساعده فيليكس أبو تبول ـ اللذان تشاركا في صندوق في ذلك اليوم ـ من نفس الخلفية الاجرامية في نتانيا، في اسرائيل. وبعد أن غادرا البلاد في أوائل الثمانينات كان من الصعب معرفة مكان وجودهما بالضبط.

أما الرجل الثالث فكان الدكتور ليف شابيرا، وهو يهودي سوفياتي انتقل الى اسرائيل، ونال سمعة ممتازة كعالم تخدير في مستشفى صغير بالقرب من تل أبيب. وكان في الصندوق مع ديكو حيث خدّره.

بعد اعتقالهم، أطلق الاسرائيليون الثلاثة الزعم الذي أضحى شائعاً الآن بأنهم قاموا بالعملية من أجل اسرائيل. وقال المحامون الانجليز بان الموساد كانت قد أصدرت الأوامر، إلا أنّ الحكومة الاسرائيلية أنكرت ذلك تماماً.

وحتى بعد أن حكم عليهم بالسجن لفترات تتراوح من عشر الى أربع عشرة سنة، خيمّت سحابة من الغموض فوق فضيحة ديكو. وكان هنالك قطعاً بضع حقائق ثابتة، فمنظمة الأمن النيجيرية هي التي أدارت العملية من سفارتها في لندن، كما ارتكب النيجيريون أخطاء شنيعة، كتعريف سفيرهم على فريق الاختطاف. غير أن الاسرائيليين الثلاثة كانوا على درجة عالية من الاحتراف والكفاءة. تماماً كإسرائيليين آخرين كانا قد فرّا من بريطانيا بعد القبض على ديكو خارج منزله ووضعه في شاحنة.

ووُجدت بعض الحلقات مع رجال الاعمال اليهود والاسرائيليين الذين لديهم اتصالات جيّدة مع الاستخبارات الاسرائيلية، وكانوا قد خسروا استثمارات ضخمة بعد انقلاب عام ١٩٨٣. فلمن كان المختطفون الاسرائيليون الخمسة يعملون؟ لرجال الأعمال؟ للاستخبارات النيجيرية؟ للموساد؟ لوزارة الخارجية الاسرائيلية؟ أم لاتحاد ما فيما بينها؟ هنالك شيء واحد مؤكد وهو: انه لو كانت العملية ناجحة، وانّ الصندوق الذي يضمّ ديكو لم يُفتح الى أن وصل

الى لاغوسْ، لكانت الحكومة النيجيرية ستدين بعظيم الشكر لشخص ما في اسرائيل ـ إما للمختطفين الخمسة أو لسلطة أعلى من ورائهم.

ولعلّ ما هو أسوأ من الضرر الذي لحق بصورة اسرائيل ان هنالك ما يدعو الى الخوف من تسرّب مصالح اسرائيل الضرورية وأسرارها الى الخارج، بل ووقوعها في أيدي العدوّ.

من المحتمل أن اسرائيل لم تكن لتستطيع أن تتجنّب الثغرة الأمنية في قضية أولريخ ويغنر وهو ضابط شرطة ألماني غربي كان قد أسّس وحدة الإرهاب المضاد الخاصة في بلده والمعروفة باسم جي إس جي ـ ٩ فقد نال هو ورجاله شهرة سريعة عندما استخدموا في السابع عشر من تشرين الاول عام ١٩٧٩ قنابل صوتية ومسدسات آلية، للهجوم على طائرة تابعة لخطوط «لوفتهانزا» الجوية، اختطفت على الأرض في مقديشو بالصومال ـ حيث أطلقوا سراح تسعين مسافراً وطاقمهم، وقتلوا ثلاثة مختطفين وجرحوا واحداً في فريق مختلط مؤلف من ارهابيين عرب وألمان. وكان الألمان يستخدمون التكتيكات التي ابتدعتها وحدات الكوماندو الاسرائيلية المعروفة بـ «السايريت» وذلك في حادث اختطاف طائرة السابينا عام ١٩٧٢.

لا عجب إذن، فقد تعلّم ويغنر صنعته من نفس المعلمين. وكان قد تلقى تدريباً في الطرق الخاصة بإنقاذ الرهائن في اسرائيل. وفي حزيران عام ١٩٨٨ أخذ هذه الاسرار الاحترافية الى دولة عربية خليجية، عندما ذهب الى هناك لتدريب قوات خاصة.

ولم تستطع اسرائيل ان تمنع الألمان من الذهاب الى الخليجيين، الذين كانوا ما يزالون رسمياً في حرب مع الدولة اليهودية. لكن ماذا يتعين عليها أن تفعل عندما يقوم موظفوها الأمنيون مثل داني ييساشاروف واسحاق ييفيت ببيع المهارة التي كسبوها أثناء العمل للدولة؟

وكان ييساشاروف ضابطاً كبيراً مسؤولاً عن أمن شركة «العال» للخطوط الجوية الاسرائيلية. وبعد أن ترك عمله في الحكومة، انضمّ مع عدد من «السابقون» في لجنة الاستخبارات لتأسيس شركتهم الخاصة بهم وذلك لتقديم خدمات استشارية في مجال الأمن والارهاب المضاد. هل تريد أن تحمي مكتبك؟ قصرك؟ مطارك؟ اتّصل بالاسرائيليين. وحظي ييساشاروف وزملاؤه ببعض العقود المربحة، وما اعتاد أن يفعله من أجل «العال» أصبح الآن يقوم به من أجل الطائرات الأميركية.

وشغل ييفيت أيضاً منصب ضابط الأمن الرئيسي للعال، وبعد أن تقاعد مبكراً، أدار امبراطورية للاستشارات الامنية في مختلف أنحاء العالم، من شقة فخمة في نيوجيرسي، تطلّ على مانهاتن، هذا ويُقابل ييساشاروف وييفيت وعشرات من «السابقون» الآخرين بالاستياء عموماً من قبل مستخدميهم السابقين، إلا أنهم يضحكون طوال الطريق الى البنك.

وإذا كان ساكن الكيبوتز الذي يرتدي بنطالاً قصيراً وقبعّة عامل بسيطة سعيد في الحقول في فترة ما رمزاً للاسرائيلي الشاب الممجّد فوق كل صادراتها الأولى، فقد أصبحت الرموز الجديدة لاسرائيل في المجتمع العالمي تجار السلاح و «السابقون» الآخرين.

لقد كان تسرّب الاسرار وتدفق المعلومات وتواجد المئات من الاسرائيليين الذين يعملون لحسابهم في مختلف أرجاء القارات الخمس جزءاً من انحطاط عام في المعايير والقيم في المجتمع الاسرائيلي. وبلغ الوضع درجة متدنية ببروز خائن من أكثر الأعماق سرية في الدولة اليهودية.

الفصل السابع عشر
الخائن الذري*

كان الرجل النحيف الاصلع يسير عبر ميدان ليستر، في وسط لندن، مندهشاً باضواء النيون وواجهات دور السينما، كان يوم الاربعاء ٢٤ ايلول ١٩٨٦، ورغم مخاوفه كان يتوقع ان يهز العالم في الاسبوع المقبل.

كان موردخاي فعنونو قد عمل حوالي عشر سنوات كفني في ديمونا، وهو الموقع الذري البالغ السرية، في صحراء النقب، كان يعرف انه مصنع قنابل، وان اسرائيل قد كدّست ترسانة مخيفة من الاسلحة الذرية، وقد أخبر فعنونو احدى الصحف البريطانية، وسوف يعرف الجميع بذلك بعد قليل. وحين نظر الى جماهير الناس الذين يسيرون في الميدان، تساءل فيما اذا كانت حياتهم ستظل على حالها بعد سماع الحقيقة المخيفة بان الحرب الشرق اوسطية المقبلة يمكن أن تؤدي الى نهاية العالم.

حول أطراف الميدان، وخارج أحدى حانات الرقص، لاحظ امرأة شقراء طويلة ذات شفتين مكتنزتين، نظر موردخاي اليها، ونظرت اليه. فاهتم بها واقدم على الخطوة الاولى.

كان فعنونو اعزب، في الثانية والثلاثين، فقدّم نفسه لها باسم «موردي»، هكذا كان اصدقاؤه في استراليا ينادونه، لكنه في اسرائيل كان موردخاي. وقدمت نفسها «سيندي»، اميركية تسافر وحدها في عصر تحرّر المرأة، فكان التحدث والمشي معها أحسن وقت قضاه فعنونو في ذلك المساء.

اعتقد فعنونو، بعد ان استجابت لخطوته الاولى، انها قد تكون مهتمة بالجنس، لكنها لم توافق، وعندما افترقا في تلك الليلة أعطاها فعنونو رقم الهاتف لفندقه حيث اتفقا ان يرى أحدهما الآخر مرة أخرى.

ولد فعنونو في المغرب في عام ١٩٥٤، وهو الثاني بين سبعة اطفال لاسرة يهودية انتقلت من مراكش الى اسرائيل في اوائل الستينات عندما رتبت الموساد الهجرة السرية الى اسرائيل. واستقرت الاسرة في حي فقير في بئر السبع. وكافح والد فعنونو، سالومون على تحقيق غايته،

* لمزيد من المعلومات انظر كتاب القنبلة الخفية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٩٠.

فاخذ يبيع الادوات الدينية والمقدسة في سوق بئرالسبع، حيث يمتزج اليهود والعرب والبدو وينشغلون بالتجارة والحديث.

خدم فعنونو في الجيش الاسرائيلي، حيث كان برتبة عريف، في سلك الهندسة، وبعدئذ رسب في السنة الاولى في جامعة تل ابيب حيث اراد دراسة الفيزياء، وعندما كان في الثانية والعشرين رأى اعلانا في الصحف يطلب «فنيين متدربين» وقدم طلبا لمركز البحوث الذرية، كاماغ، في ديمونا.

كانت المقابلة الاولى مع ضباط أمن المركز، الذين كانوا يعملون مع الشين بيت للتدقيق في المتقدمين بالطلبات، وسألوه عن تعاطي الكحول والمخدرات، وفيما اذا كان له قيد جنائي، وعن توجهاته السياسية. وأدرج على جدول الرواتب في تشرين الثاني عام ١٩٧٦ وارسله مركز ديمونا في دورات مكثفة في الفيزياء والكيمياء والرياضيات والانجليزية.

وبعد شهرين اجتاز امتحانا، مثلما اجتازه تسعة وثلاثون من الخمسة واربعين مرشحا، وفي اوائل شباط ١٩٧٧ ركب باص الفولفو الرسمي ـ الذي يقلّ الموظفين يوميا الى أعمالهم السرية ـ من بئر السبع الى مجمع ديمونا لأول مرة، وفي بناية صفوف دراسية داخل البوابات البالغة الأمن، طلب من فعنونو أن يوقع على تعهد بعدم كشف اية اسرار، وفق قانون يقضي بالسجن لمدة خمس عشر سنة، اذا أفشى لأي شخص ـ وحتى زملائه الموظفين ـ عن واجباته في ديمونا.

كانت هنالك دورة قصيرة أخرى في الفيزياء النووية والكيمياء، بما فيها دروس عن البلوتونيوم واليورانيوم اللذين سيعمل المجندون الجدد معهما، وخضع فعنونو والوافدون الجدد لفحوصات طبية وتلقوا تصاريح مرور أمنية ثم قضوا عشرة اسابيع في التعرف على المرفق وروتينه قبل البدء بالعمل.

عرف فعنونو بسرعة أنه اصبح عضوا خاصا في المجتمع، حتى وان لم يكن مسموحا له بذكر السبب، وكما هو حال اسرائيليين آخرين، استدعي فعنونو للجيش لاداء الخدمة الاحتياطية لمدة شهر، لكن اعيد الى البيت فوراً، عندما أعلمت وحدته أنه الان يعمل في مشروع دفاعي غير محدّد، لكن مهم.

وكان عليه أن يجتاز امتحانا شفويا آخر في مجمع ديمونا أمام لجنة من ثلاثة فاحصين، وأخيراً تولى فعنونو، في السابع من آب ١٩٧٧، أول نوبة كاملة من واجبه، فقد كان «ميناحيل ميشميريت» أو «مدير نوبة» بين ١١,٣٠ مساء حتى الثامنة صباحا.

كان يمكن أن يظل فعنونو في الظلام، مغموراً في ردهات مجمع ديمونا، مثلما يعمل جميع العاملين المجهولين. لكن تغيرات مفاجئة في شخصيته وضعته على مسار آخر، وكان التغير الاول

عندما تنصّل من تنشئته الدينية، فقد أصبح فعنونو علمانيا وقطع كل صلاته باسرته المتدينة.

وكان التغير الاخر، والاكثر إثارة، بعد الغزو الاسرائيلي الدموي للبنان في عام ١٩٨٢، فقد كان ذات يوم، مثل معظم المهاجرين المغاربة الآخرين. . صهيونيا قوميا يؤمن ببيغن وحزبه الليكود، وجلفاً مع العرب، لكن فعنونو شهد صحوة سياسية، وتحولت ايديولوجيته الى اتجاه آخر، الى الراديكالية.

أصبح عضوا متحمساً في الجماعات اليسارية التي افرزتها جامعة بئر السبع، حيث التحق بدائرة الفلسفة وصادق طلابا عربا، بل قدم فعنونو طلباً للحصول على عضوية في الحزب الشيوعي، مع أنه ترك خانة الوظيفة فارغة.

انضم الى الحملة القوية التي طالبت باطلاق سراح احد اساتذته الذي سجن لانه رفض الخدمة في الجيش في الاراضي العربية المحتلة، وهنا يستذكر الدكتور زيف تزاهور، وهو نشط سياسي ومحاضر تاريخ في جامعة بئر السبع، فيقول: «لقد كان استثنائياً حتى بيننا، معشر اليساريين في الحرم الجامعي، فقد عكس احساسا عميقا بالحرمان».

وتبينّ أيضا ان فعنونو غريب الاطوار عصابياً، فقد صوره زملاؤه في الدراسة وهو يتعرّى مع الموسيقى في حفلة جامعية، وقد أصبح نموذجا عاريا لطلاب الفن، والاخطر من ذلك انه كان يحمل يافطات مع الطلاب الفلسطينيين في عدة مظاهرات، وقد نسبت صحيفة الجامعة لفعنونو قوله: «توقفوا عن اضطهاد العرب».

كان ينبغي لكل هذه النشاطات الاضافية أن تلفت انتباه عملاء الشين بيت، الذين يتعقبون الجماعات التي يعتبرونها تخريبية، ولو كانت اليد اليمنى للوكالة الامنية تعرف ما تفعله اليد اليسرى، لأمكن الحكم على فعنونو بانه مرشح مخيف للعمل المتعلق بالدفاع السري، لكن شيئا لم يحدث طوال شهور، وظل فعنونو يركب باص الفولفو الى ديمونا، واستمر عمله كالمعتاد.

مع أواخر عام ١٩٨٥ علم ضباط الامن في ديمونا أن احد موظفيهم ـ الذي تلقى اوامر بأن يظل صامتا أو على الاقل غير فضولي ـ كان يكشف عن نفسه كمناهض للمؤسسة، وتلقى فعنونو تحذيرا كي يتوقف، وعندما واصل طريقه غير المألوف، قررت السلطات الذرية ترميجه. وحتى تتجنب اثارة ضجة او فضيحة، لم تعتبره خطرا أمنيا، فدفعت لفعنونو بدل فصله من العمل وطردته مع ١٨٠ عاملاً آخر في عملية تقليص نفقات في تشرين الثاني ١٩٨٥.

خلال شهر، باع فعنونو سيارته القديمة، وشقته الصغيرة، وكما هو شأن كثير من الشبان الاسرائيليين الاخرين، انطلق في رحلة طويلة الى الشرق الاقصى، وعلى عكس الاخرين،

الذين يعودون بعد بضعة شهور حافلة بالمغامرات، في الشرق المثير، وجد فعنونو نفسه في موقف البحث عن الذات، قاده الى التغير الثالث في حياته.

وصل الى سيدني، في استراليا، في ايار ١٩٨٦، ومساء يوم جمعة توجه نحو اضواء كنيسة سانت جون الانجليكانية وابوابها المفتوحة، وكان الاسقف جون ماكنايت هناك وهو يستذكر ويقول: «دخل موردي، ونظر حوله، وتحدث معي، واصبحنا صديقين.»

وبعد شهرين، قام فعنونو بآخر خطوة، بعيداً عن طفولته وخلفيته فقد تحول الى المسيحية، فكان ذلك طلاقا كاملا للدولة اليهودية.

وكما هو شان شخص يرفض اعادة خاتم الزواج، فقد احتفظ فعنونو بقدر ضئيل من ماضيه في جيبه، لم يخبر أحداً، لكن بعد أن اصبح صديقا لشخص كولومبي شاذ اسمه اوسكار غيريرو، خرج سرّ فعنونو، وكان غيريرو صحفيا يعمل لحسابه، تخلى عن قلمه ودفتره لصالح فرشاة الرسم، وكان غيريرو يرسم سياج الكنيسة عندما التقى فعنونو به، وبعد اسابيع من الصداقة، كشف فعنونو سرّه. وقد أخبر غيريرو انه يحمل فيلمين ملونين، منذ مغادرته لاسرائيل، ولم يكن يعرف ماذا يفعل بهما، لم يصدق غيريرو عندما قال فعنونو انها صور التقطها سرًا داخل مركز ديمونا الذري خلال نوبات عمله الليلية.

اما الكولومبي، المدفوع بغرائزه وحماسه لتحقيق الارباح، فأنه لم يكلف نفسه أن يسأل فعنونو كيف قام بتهريب آلة تصوير داخل ديمونا، أو فيلميه خارج اسرائيل، وبدلاً من ذلك اعجب بفعنونو كدجاجة ستبيض ذهبا.

أقنع غيريرو الاسرائيلي بان بالامكان بيع قصته.. ومقابل مبلغ من المال يكفيه طوال حياته، وقد أعجب فعنونو بالفكرة، وبعد صراع مع ضميره توصل الى ان مشروع اسرائيل الذري السري لا أخلاقي وينبغي كشفه.

عين غيريرو نفسه «وكيلا» لفعنونو، واتصلا معاً، بعدة صحف عالمية لتحقق سبقا صحفيا، لكن لم يشأ أحد ممن اتصلا بهم أن يصدق ان فعنونو كان موظفا سابقا في اكثر مواقع اسرائيل سرية، فقد رفضت مجلة النيوزويك قصته، ورفضتها صحف استرالية محلية، الى أن قررت صحيفة الصانداي تايمز اللندنية أن تجرّبه.

قامت الصحيفة، التي يملكها قطب الصحافة الاسترالي المولد روبرت مردوخ، بارسال المراسل بيتر هومان الى سيدني ليقابل الاسرائيلي ويقيّم قصته المثيرة، ووجد فعنونو وغيريرو نفسيهما يلقيان معاملة سخية في أفخم مطاعم سيدني، يجيبان على عدد لا نهاية له من الاسئلة الى أن توصل هومان الى استنتاجه، فقد تأثر هومان كثيرا، وهو يحمل شهادة في الفيزياء، بعد ان اطلعاه على

الصور بعد تحميض الفيلمين في مختبر يقوم بالتحميض خلال ستين دقيقة، وقرر الصحفي البريطاني أن الأمر يستحق اصطحاب فعنونو الى بريطانيا لمزيد من الاستفسارات، وعرض هومان حوالي خمسين الف دولار بدل حقوق نشر القصة والصور، بما فيها نشرها في كتاب.

لكن الصانداي تايمز، كاي ناشر آخر ذي عقلية تجارية، ارادت ان تستبعد الوسيط، فلم يرض هومان عن نمط غيريرو ومصداقيته المشكوك فيها.

في ١١ أيلول ١٩٨٦ أخذه اصدقاؤه الاستراليون الى مطار سيدني ووعدهم بانه سيعود خلال ثلاثة اسابيع وهبط هومان وفعنونو في لندن في الاسبوع التالي، ولم يكونا يعرفان أن غيريرو يتابعهما على طائرة أخرى، ولم يكونا يعرفان أن رجال الموساد يتابعونهما.

قبل بضعة اسابيع، تلقت الموساد رسالة من منظمة المخابرات الامنية الاسترالية، حيث ارسلت ملفا موجزا عن اسرائيلي متورط في شكل غريب من اشكال الاغواء: محاولة اغواء وسائل الاعلام لشراء قصة «سرية»، واعتقدت المخابرات الاسرائيلية ان الموساد قد ترغب في المعرفة، وعندما علمت ان فعنونو كان متوجها الى لندن، فقد أخبرت الوكالة الاسترالية جهاز ام آي ٥ البريطاني.

وادرك مسؤولو المخابرات الاسرائيلية أنهم امام مشكلة وان عليهم ان يتصرفوا بسرعة، فقام اثنان من عملاء الشين بيت بزيارة البرت، شقيق فعنونو، في منجرته وسألاه فيما اذا كان سمع شيئا عن موردخاي، ودون ان يخبرا البرت بالسبب، قال أحد العميلين: اذا تلقيت رسالة من شقيقك، أحضرها لنا.

ربما لم يكن محررو الصانداي تايمز يعرفون انهم يخضعون للمراقبة، لكن لا بدّ انهم كانوا يعرفون ان بين ايديهم قنبلة موقوته: خائن اسرائيلي مع قصة لم ترو من قبل.

أعطاهم فعنونو اكثر من ستين صورة كان قد التقطها داخل مجمع ديمونا، وداخل احد المباني الذي أسماه «ماخون ٢»، وكلمة ماخون تعني مركز أو مرفق، والتي توحي بانها مكان للتعلّم أو مركز انتاج.

قال فعنونو انه واحد من الـ ١٥٠، من بين ٢٧٠٠ موظف في ديمونا يحملون تصاريح أمنية لدخول ماخون ٢، الذي كشف أنه مصنع قنابل تحت الارض ـ بسيط ونقي، وقال ان العلماء والفنيين الاسرائيليين يقومون تحت الصحراء باستخراج البلوتونيوم من قضبان وقود اليورانيوم بعد استخدامه في المفاعل الذري ذي القبة الفضية فوق الارض. وقال فعنونو ان البلوتونيوم يستخدم في صنع القنابل.

لقد كان العالم يفترض منذ زمن بعيد ان المفاعل، الـذي كان يتم تصـويره بـين الحين والاخر، وعن بعد، من قبل الملحقين العسكريين والصحفيين الاجانب الذين يتحدون الرقابة الصحفية، كان يستخدم سرًا في انتاج قنابل ذرية بسيطة وقليلة، واظهرت صور فعنونو، التي التقطت داخل المجمع البالغ الامن، لقطات قريبة للقبة المشهورة واول دليل على ان اسرائيل تصنع اسلحة ذرية حرارية متطورة، ربما تشمل قنابل نيوترونية أو هيدروجينية، بسيطة لكن قوية بشكل لا يصدق.

وقدم فعنونو مخططا مفصلا لمستويات «ماخـون ٢» غير المعـروفة والمقـامة تحت الارض، وفـوق الارض ظهرت البناية كمستودع من طابقين، غير مهم، وقليل الاستعمال. وقال انها المفتـاح لتطوير اسرائيل للاسلحة الذرية.

وقد سجلت آلة التصوير الدوارة جولة في الممرات والمختبرات وغرف التخزين ولوحات التحكم. وفوق مجموعة من الاقراص المدرّجة والشاشات والعدّادات، توجد لافتة صغيرة كتب عليها بالعبرية «يهيدا ٩٥» أو الوحدة ٩٥، وقد أخبر فعنونو المراسلين البريطانيين ماذا يفعل كثير من الوحدات في عملية فصل البلوتونيوم، وقد أظهرت الصور لوحات تحذر من «الاشعاع» كتبت باللغة العبرية، كما أظهرت حجرات عبارة عن قفازات مطاطية كبيرة اقيمت في الجدران الزجاجية السميكة وتستخدم في استلام المادة، كما أظهرت بعض الصور أجساما معدنية قال عنها فعنونو انها نماذج قنابل.

قال فعنونو ان الذين سمح لهم بزيارة المكان، من غير العاملين فيه، كانوا كبار العسكريين ومسؤولي وزارة الدفاع ورؤساء وزراء اسرائيل. وهنالك نقطة تفتيش تعرف داخل ديمونا باسم «شرفة غولدا»، وهي الشرفة التي وقفت فيها غولدا مائير ورأت «قاعة الانتاج» تحت الشرفة.

كل ما كان فعنونو سمعه، خلال أحاديثه مع زملائه الاكبر الذين كانوا يعملون في المرفق الذري منذ سنوات، اتفق مع التقارير التي ذكرت ان فرنسا بنت ديمونا للاسرائيليين، فقد حفر الفرنسيون الحفرة التي تحتوي على معظم ماخون ٢، وأقاموا معدات صنع القنبلة.

كما أشارت الحقائق والارقام الى أن مفاعل الـ ٢٦ ميغاواط الذي قدمه الفرنسيون، في اواخر الخمسينات، قد زاد الاسرائيليون مقدرته ـ الى ١٥٠ ميغاواط. وقد أيدت معلومات فعنونو شكوك الحكومات الاجنبية ووكالاتها الاستخبارية، والتي ترددت في وسائل الاعلام العالمية، بان اسرائيل تملك قدرة نووية اكبر مما تعترف به. فقد تمت تغذية المرفق بيورانيوم اضافي تم الحصول عليه من شركة نوميك، وصاحبها زالمان شابيرو، في اميركا، ومن خدعة تحويل وجهة السفينة بلومبات في البحر الابيض المتوسط عام ١٩٦٨.

قام الخبراء والفيزيائيون الذين جندتهم الصانداي تايمز بدراسة الصور، وتحدثوا مع فعنونو، وفكروا في «نسب التدفق، والمقاييس ودرجات الحرارة والبيانات العلمية الاخرى» التي يتذكرها. وكان استنتاجهم ان اسرائيل تستطيع بسهولة ان تكون صنعت ما لا يقل عن مئة قنبلة خلال سنواته العشر التي قضاها في ماخون ٢.

اقتنع فريق الجريدة، فقد كان فعنونو صادقا ولا بدّ ان قصته ستكون عظيمة، لكنهم لم يفكروا في الخطط المعيقة لدى غيريرو.

من فرط غضبه من فعنونو والصانداي تايمز لأنهما تخلّيا عنه، ذهب الكولومبي الى صحيفة منافسة، الصانداي ميرور، وهو يحمل روايته الخاصة به عن المعلومات الذرية، ولم تصدق الصانداي ميرور غيريرو ابدا، لكنها استغلته مع حفنة من صور فعنونو قدمها الكولومبي - حيث اشترت قصته مقابل بضعة آلاف من الدولارات. لتنشر تعليقا لاذعا من صفحتين، سخر من الصانداي تايمز لأنها سقطت ضحية لفعنونو وهذا الهراء المباح!

وتم استخدام امكانيات اسرائيل الذرية كسلاح في حرب توزيع باروني الصحافة البريطانية، نشبت بين صاحب التايمز، مردوخ، ومنافسه الكبير، صاحب الميرور، ماكسويل.

كان فعنونو غاضبا وخائفا عندما رأى الصانداي ميرور، وصورته على الصفحة الاولى، وغضب من الصانداي تايمز لأنها ترددت مع القصة الحقيقية، وتأكد ان العملاء الاسرائيليين يتعقبونه.

حتى تزيل الصحيفة التوتر وتحميه، كانت تنقل فعنونو من فندق الى بيت ريفي ثم الى فندق، من الضواحي الى الغابات، وبعد بضعة ايام، الى وسط المدينة، وفي يوم ذيوع أمره كان يقيم في فندق ماونتباتن، في منطقة المسارح في لندن، تحت اسم وهمي، ولم يكن يعرف مكانه سوى اثنين من موظفي الصحيفة، وحاول الصحفيون تهدئته، لكنهم قالوا له أنه لمصلحة معايير الخبر الجيد، سيحتاجون الى ردة فعل اسرائيلية قبل نشر القصة في الاسبوع التالي، وقالوا له ان ذلك سيجعل روايته اكثر صدقا.

في ٢٣ أيلول - سعت الصانداي تايمز الى رد من السفارة الاسرائيلية في لندن، باعطائها ملخصاً لقصة فعنونو، فاصدرت السفارة نفيا كما حاولت تصوير فعنونو بانه فني صغير لا يعرف شيئا.

إلا أن السفير يهودا آفنر كان شديد القلق كما كان رؤساؤه في اسرائيل كذلك، كانوا على وشك الاصابة بالسعار، مدركين، لأول مرة، عمق ومدى ما كشفه الخائن الذري.

قام رئيس الوزراء بيريز، الـذي صدم لكن لم يستـطع ان يفعل الكثـير للسيطرة عـلى المعلومات بعد ان تسربت خارج حدود اسرائيل، قام بالدعوة لاجتماع خاص لمحرري الصحف في اسرائيل نفسها، وتوسل لهم ان يقللوا ـ لا أن يؤكدوا ـ من أمر القصة، عندما تنشر الصحيفة البريطانية روايتها. ووافق المحررون على التعاون.

كان يفترض ان الاجتماع سري، لكن وصل الى لندن خبر الاجتماع، والمفارقة، ان محاولة بيريز التقليل من شأن القصة كانت الدفعة النهائية لكشفها الى الدرجة القصوى، وافترض محررو الصانداي تايمز ان مناشدته لرؤساء الصحف الاسرائيلية لا بدّ انها تعني ان القصة التي تعدّ في لندن، مهمة جدا، فاذا كان رئيس الوزراء قلقا، فلا بدّ ان فعنونو كشف اسرارا حقيقية ـ بغض النظر عن نفي السفارة الاسرائيلية.

* * *

تشاور بيريز، في الوقت ذاته، مع رابين وشامير في نادي «رؤساء الوزراء» وقرروا ان يأمروا الموساد باعتقال فعنونو ـ حيثما يكون ـ حتى يحاكم في اسرائيل، وسيكون ذلك درسا لباقي السكان بأن أحداً لا يستطيع ان ينفد بالخيانة.

لأن بيريز كان يعي حساسية رئيسة الوزراء مارغريت تاتشر ازاء السيادة الريطانية، فقد تلقت الموساد اوامر بعدم انتهاك القانون البريطاني، وكـان بيريـز يعرف الضرر الذي يمكن ان يلحقه غضب السيدة الحديدية بالتعاون الاسرائيلي ـ البريطاني والذي كان واحداً من مشاريع بيريز الدبلوماسية الاثيرة.

لذلك كانت المهمة اصعب، فاختطاف رجل في بلد اجنبي يكون صعبا عندما ينّبه للخطر، وحين يكون تحت الحماية، ويتم نقله الى اماكن سرية، كما ان حظر رئيس الوزراء للامشروعية جعل المهمة شبه مستحيلة، حيث قيدّت ايدي الخاطفين.

إلا ان الموساد كانت تعرف انها تستطيع الاعتمـاد على عنصـرين: استعداد المخـابرات البريطانية للتعاون في تحديد مكان وجود فعنونو ـ او غضّ الطرف على الاقـل ـ والعثور عـلى الضعف البشري لدى أي رجل يمكن استغلاله.

تم ارسال فريق من رجال ونساء الموساد الى لندن للبحث عن الخائن الذري، بل ان الموساد خصصت رجلين مع آلة تصوير فيديو للبحث عن فعنونو عند مدخل صحيفة التايمز الذي يتمتع بحراسة مشددة، في وابينغ، قرب احواض السفن شرقي لندن. وكانت ضربـة حظ ان اتحاد المطابع البريطانية كان له خط دائم من مراقبي الاضرابات خارج معقل الطباعة التابع لمردوخ، كما ان الحراس كانوا معتادين على رؤية كثير من الفرق التلفزيونية التي تغطي احتجاجات العمال

لبرنامج اخباري تلفزيوني، وقد تم تصوير فريق الفيديو الاسرائيلي نفسه حيث ذكرت الصانداي تايمز ان الة التصوير الامنية سجلت رجلا طوله ستة أقدام قال انه يغطي وضع الاضراب لاتحاد طلابي، ومعه زميل طويل الذقن لم يقل أي شيء.

لاحظ فريق الاستطلاع الاسرائيلي فعنونو وهو يغادر وابينغ في سيارة تاكسي، وتعقبته فرق اخرى من الموساد مستخدمين السيارات والدراجات النارية، ولم يواجهوا اية مشكلة في متابعة فعنونو الى فندقه. فاصبح من السهل ان يلازم العملاء الاسرائيليون فعنونو كظلّه حيثما كان يذهب في الايام التالية، وعندما كان يسير في ميدان ليستر يوم ٢٤ أيلول، كان الوقت مناسبا لارسال «سيندي» لتقوم بدورها.

كانت سيندي، بالنسبة لفعنونو، هدية من السماء، فقد كان عصبيا جدا وعبرت هذه العصبية عن نفسها في الجوع الجنسي، وقد دأب الاسرائيليون بلا خجل على تعيين النساء في فرق الموساد.

أملاً في أن يشبع رغباته، كان متلهفا لرؤية الشقراء الاميركية مرة اخرى، بعد اللقاء الأول، وفي اليوم التالي، اتصلت هي، لكن الصحيفة اتصلت ايضا، لترتيب جولة اخرى من الاستجواب، وعندما شكا فعنونو، بان لديه موعدا، قاده مراسل الصحيفة الى موعده المحدد، في تيت غاليري، على الضفة الشمالية لنهر التايمز حتى يستطيع الاسرائيلي ان يقابل صديقته ويلغي موعده، ولاحظ المراسل ان المرأة الشقراء ترددت في الاقتراب من السيارة.

وكانت المرة الاولى التي يلتقي فيها شخص غير فعنونو، سيندي، وجها لوجه، وقد قال الاسرائيلي الذي تردد في الحديث عنها، أنها فنانة تجميل اميركية تقوم برحلة الى أوروبا، كما علق فعنونو بألم بان سيندي ترفض مضاجعته.

كان بينهما بضعة مواعيد في الايام التالية، واستغلالا لشهوته الجنسية، واشمئزازه من تأخيرات الصانداي تايمز ثم الخوف من قصة الصانداي ميرور، قامت كيندي باقناع فعنونو بان ينسحب من القصة، وتجاهل النصيحة التي كان اصدقاؤه في الصحيفة يقدمونها له من حين إلى آخر: ألا يغادر البلاد، ألا يطير، الا يدخل اي فندق يطلب منه اعلان هويته بابراز جواز سفره.

إلا ان سيندي كانت حريصة على كل شيء، فقد دفعت ثمن تذكرتين الى روما، من فئة رجال الاعمال، وبعد ان نسي مخاوفه من متابعة الموساد له، رافقها فعنونو الى مطار هيثرو في لندن، وركبا طائرة الخطوط البريطانية رحلة رقم ٥٠٤ يوم ٣٠ أيلول. وقبل ان يغادر، اتصل بالصانداي تايمز وقال انه سيغادر المدينة، ووعد بالعودة خلال ثلاثة أيام، لكن الصحيفة لم تسمع منه شيئا بعد ذلك.

كما حدث في عملية اغواء الطيار العراقي منير ردفه قبل عشرين سنة، كانت العميلة الاسرائيلية تعد فعنونو بان كل شيء سيكون على ما يرام عندما يصلان الى بيت مأمون - وهذه المرة في روما، وكان يتوقع أن يحصل على كل ما يرغب فيه. وكان «بيتا مأموناً» لكن بالمعنى التجسسي المحترف لمأوى محميّ ومجهول للموساد.

***

اختفى فعنونو عن وجه الارض اربعين يوما وليلة، وفي التاسع من تشرين الثاني فقط اعلن سكرتير مجلس الوزراء الاسرائيلي ايلياكيم روبنشتاين: ان مورد خاي فعنونو رهن الاعتقال القانوني في اسرائيل بناء على أمر من المحكمة بعد جلسة حضرها محام من اختياره.

لماذا قرر نادي «رؤساء الوزراء» ان يؤكد بعد اسابيع من الصمت، ان فعنونو معتقل؟ لقد هددت اسرته باللجوء الى المحكمة العليا الاسرائيلية لأخذ الحقيقة من الحكومة، وكانت اسرائيل قلقة من ان تؤدي التكهنات في وسائل الاعلام - بان فعنونو قد اختطف على الارض البريطانية - الى الاضرار بالعلاقات مع لندن، فقد كان النواب البريطانيون يشكون، وكانت سكوتلانديارد تحقق، كما ان الصانداي تايمز نفسها ذكرت ان فعنونو قد اختطف، حيث وضع في صندوق، كمتاع دبلوماسي، ونقل جوا الى اسرائيل.

اختارت الحكومة الاسرائيلية الطريق الصعب، واعلنت ان فعنونو رهن الاعتقال بشكل قانوني مألوف، وحتى تغطي اثار العملية السرية في اوروبا، سرّبت المصادر الرسمية في القدس عدة روايات عن القبض على الخائن الذري. وكانت كل الروايات المسرّبة تشترك في عنصر واحد، يرمي الى حماية علاقات اسرائيل ببريطانيا: انه لم يحدث اي اختطاف على الارض البريطانية، وانه غادر بريطانيا قانونيا وطواعية.

وذكرت احدى الروايات المسربة ان فعنونو كان على يخت مع عميلة موساد في جنوب فرنسا، ولم يتم اعتقاله الا عندما وصل اليخت الى المياه الدولية، وقالت رواية اخرى ان فعنونو طار الى باريس حيث تم تخديره ونقله على طائرة العال من فرنسا الى اسرائيل.

ظلت الحقيقة غامضة، مع ان القناع ازاحه المجرم نفسه، فقد اظهر فعنونو، حتى وهو رهن الاعتقال وقوة الاستجواب، انه ما يزال يملك معنويات عالية ولم ينهر امام امن الشين بيت. وقد وضع كف يده على شباك عربة الشرطة التي كان محاطا فيها بحراسة مشددة. وأمام عيون وعدسات الصحافة العالمية كشف الخبر الذي كان على راحة يده الحقيقة فقد كان مكتوباً عليها:

لقد تم اختطافي
في مطار روما الدولي

يوم ١٩٨٦/٩/٣٠
الساعة ٢١,٠٠
وصلت الى روما
على الطائرة البريطانية ٥٠٤

لم يستطع فعنونو ان يفصل مأساته على راحة يده، وفي ظهوره في المرات التالية أمام المحكمة كان يصل ويداه مقيدتان، وشبابيك العربة مطلية بالسواد، وعلى رأسه خوذة سائق دراجة نارية حتى لا تستطيع الصحافة ان تسمع اية رسالة قد يصرخ بها. وحتى عندما اخذت الشين بيت اقلامه الحبر والرصاص، وجد فعنونو - وهو امر آخر يثير الحيرة - طرقا اخرى لاخبار افراد اسرته بانه اختطف.

لقد رآه شقيقه مائير في زنزانته ثم سافر الى الخارج ليعرف الحلقات المفقودة في اعتقال فعنونو: منذ نزول الطائرة البريطانية في مطار روما، اوقفت سيندي سيارة حملت الزوجين الى عنوان اعطته للسائق - عش حبّهما المزعوم.

وعندما دخلا الشقة، انقض على فعنونو رجلان اسرائيليان، طرحاه ارضا بينما حقنته سيندي بمخدر قوي، واضاف مائير فعنونو ان شقيقه تم تقييده، ونقل الى ميناء ايطالي ثم نقل الى اسرائيل عن طريق البحر وبعد اسبوع في البحر الابيض المتوسط وصل يوم ٧ تشرين الثاني وكان مربوطا على نقّالة جرحى عندما اخذ الى الشاطىء عند الفجر، والقي به في زنزانة بلا ضوء، وعلى ارضها فرشة بلا غطاء.

وعند التحقيق معه فقط من قبل الشين بيت، علم فعنونو ان الصانداي تايمز نشرت قصته، فقد كان مقيدا، في البحر، عندما نشرت الصحيفة عنوانا كبيرا على صفحتها الاولى:

اسرار ترسانة اسرائيل الذرية

وأعقبه قصة فعنونو عن العمل الذي يدور في ديمونا ومخطط تفصيلي للمرفق الذري، رسمه واحد من راسمي الخرائط في الصحيفة استنادا الى وصف فعنونو لماخون ٢، الواقع تحت الارض.

ان ما لم يستطع المتهم ان يعرفه، بينما كان على وشك مواجهة تهمتي الخيانة والتجسس وبينما كانت اسرته تعاني من ردة فعل جيرانهم القاسية، ان الصانداي تايمز كانت تحاول ان تسدّد دينها لفعنونو بمتابعة القصة، وشعر بعض موظفي الصحيفة بالذنب لفشلهم في حماية مصدرهم الاخباري الثمين.

كان يمكن، بل يجب ان يكون امرا سهلا، الحفاظ على فعنونو سالما وسعيدا، فكان كل ما يحتاج اليه صحبة امرأة، وكان يمكن لصحيفة غنية وقوية ان توفر المومسات، وقد ناقش موظفو

الصانداي تايمز تزويد الاسرائيلي برفيقةمدفوعة الاجر، لكن تقرّر ان بالامكان ان تعرف صحيفة منافسة، ذات يوم، ان مصدر القصة الكبيرة قد كوفىء برعاية جنسية وهذا امر يمكن ان يضرّ بالصانداي تايمز.

اكتشف مراسلو التحقيقات في الصحيفة ان السفارة الاسرائيلية في روما استأجرت عربة في بداية تشرين الاول، وان عدد الكيلو مترات التي سجلتها عندما اعيدت، اتفق مع المسافة الى ومن ميناء لاسبيزيا، في روما. وكانت سفينة تجارية اسرائيلية، تابوز، او البرتقالة، موجودة هناك في نفس الوقت، لكن بعد تحويلها من ممر بحري آخر. ويدل ذلك على ان السفينة اعادت السجين المعتقل الى اسرائيل.

خرجت الصحيفة البريطانية ببعض الادلة المتعلقة بالظروف في سعيها الى معرفة المرأة المغوية غير المعروفة التي خدعت فعنونو، واكتشف الصحفيون ان «سي. شانين» كانت تجلس بجانب «إم. فعنونو» في مقدمة الطائرة البريطانية المتوجهة الى روما وان شيرلي شانين بن ـ توف، امرأة من أميركا تعيش في اسرائيل ومتزوجة من ضابط في المخابرات العسكرية، امان، واستنادا الى صورة زفاف حصلت عليها الصانداي تايمز فان السيدة بن ـ توف بدت متلائمة مع الوصف العام لسيندي، علماً بان اخت زوجها في فلوريدا تعمل في التجميل، واسمها سينثيا (سيندي) شانين.

قد يبدو، من استئجار العربة، وتحويل وجهة السفينة، والهوية المستعارة من قريبة ـ ان الموساد تركت أثرا غير متقن بل بعيد عن الاحتراف، لكن رؤساء المخابرات الاسرائيليين لم يكترثوا، فقد اصبح فعنونو في السجن، ولا يهم أي شيء عدا ذلك.

* * *

لقد استطاعت الموساد ان تلقي القبض على فعنونو، بينما نفذت التعليمات بالبقاء على الجانب السليم للقانون البريطاني. وقد استطاع رئيس الوزراء بيريز ان يتصل برئيسة الوزراء مارغريت تاتشر ليؤكد لها انه لم يتم انتهاك قوانين بلادها.

تبادلا الكلمات الحلوة وبدا انهما سعيدان بالنتيجة السلسلة لقضية فعنونو، لكن لم يعرف اي منهما ان تحت السطح مواجهة مرة كانت تنمو بين مخابرات البلدين.

بدأ الصدام غير المألوف في عام ١٩٨٦ عند اكتشاف ثمانية جوازات سفر بريطانية مزورة في كشك هاتف في المانيا الغربية، وقد تركها عميل مخابرات اسرائيلي مهمل كانت حقيبته التي تركها مليئة بالوثائق المزورة وجواز سفر اسرائيلي حقيقي، واوراق اخرى تربط الحقيبة بالسفارة الاسرائيلية في بون، واحتجت الحكومة البريطانية بشدة وحصلت على اعتذار من اسرائيل، وهو

اعتراف ضمني بان مزّوري الموساد اختاروا بريطانيا كواحدة من الجنسيات المزورة الكثيرة التي تزود بها الجواسيس الاسرائيليين.

ادين فعنونو بالخيانة والتجسس، وكشف اسرار الدولة، في ٢٤ اذار ١٩٨٨، وقد رفض القضاة الثلاثة ادعاءه بانه تصرف من منطلق أيديولوجي، لكن القضاة كانوا يستمعون عندما قال: «لست خائنا، ولم اقصد الاضرار بدولة اسرائيل».

وحكموا عليه حكما متساهلاً نسبياً، السجن ثماني عشرة سنة. الا ان سحب الغموض لم تنقشع، فعندما رأى صورة شيريل شانين بن توف، صرخ فعنونو قائلاً: تلك هي سيندي التي عرفتها.

وكانت استنتاجات القاضي الايطالي الشهير في امور مكافحة الارهاب، دومينيكو سيكا، فبعد التحقيق فيما اذا كانت جريمة الاختطاف قد ارتكبها الاسرائيليون في روما، ونشر الاستنتاج المدهش في ايلول ١٩٨٨ بان فعنونو لم يختطف على الاطلاق.

قال قاضي التحقيق ان الكلمات الانجليزية المكتوبة على راحة يد الاسرائيلي كانت مكتوبة بشكل جيد لا يمكن تصديقه، وان صور مصنع القنابل في ديمونا، التي استعارها سيكا من الصانداي تايمز لم يكن ليتم التقاطها الا بتعاون رسمي، وبدا «وجود السائح» في الممرات والمختبرات دون ان يراه احد امرا غريبا لم يصدقه سيكا، الذي قال ان مثل هذه الادوات والاقراص المدرّجة لا بدّ انها تخضع للمراقبة على مدار الاربع وعشرين ساعة.

أقنعت النتائج الايطالية بعض الصحف والمجلات بان فعنونو كان يدعي انه خائن وان اسرائيل هي التي رتبت كل القصة ـ «عملية منظمة للتضليل» كما قال سيكا. وكان حكمه مثيرا للشك مثلما كان مناسبا في الوقت ذاته. وقد فضل القضاء الايطالي، المستقل فيما ندر عن الاعتبارات السياسية، ان يسقط القضية كلها لأن «عدم حدوث اختطاف» يعني عدم الحاجة الى تحقيق.

ان المخابرات الايطالية والاسرائيلية تتصفان بتاريخ حافل بالتعاون الوثيق، الذي يعود الى الخمسينات، فهل كانت مجرد صدفة ان الموساد اختارت روما كمكان لاختطاف فعنونو؟ فبينما كان رئيس الوزراء بيريز مصرّاً على عدم انتهاك اية قوانين بريطانية فقد كان جواسيس اسرائيل يشعرون بالحصانة في ايطاليا.

إلا ان افتراضات سيكا اخذت على محمل الجد من قبل الصحافة العالمية التي شعرت ان المخابرات الاسرائيلية لا بدّ انها كانت ذكية بشكل غير معقول ـ وليست غبية بطريقة لا تغتفر ـ لتسمح لفعنونو بالخيانة.

لقد واجهت وسائل الاعلام مشكلة في تصديق ان بالامكـان سقوط الاجهـزة السريـة الاسرائيلية في موقف الغباء، وافترضت الصحافة الاجنبية ان جواسيس اسرائيل قد استخدموا فعنونو في مؤامرة متطورة لاخافة العرب بكشف ان اسرائيل لديها ترسانة ذرية. غير ان العرب وسائر العالم يدركون منذ زمن طويل ان اسرائيل تملك القنبلة، فتذكيرهم لا يفيد، بل يؤدي الى سباق تسلح غير تقليدي، مع السوريين والعراقيين والليبيين الذين يسعون الى تطويـر اسلحة كيماوية، وحتى ذرية.

ان النتيجة المضحكة لفضيحة فعنونو تتمثل في ان اكثر اسرار اسرائيل سرية ـ موضوعها المحظور الذي لم يناقش في اي منتدى يضم اكثر من عشرة اشخاص ـ احتل فجأة الصفحات الاولى في كل انحاء العالم، بتفصيل واف، واصبح عرضة للنقاش العام في اي وقت ليس من اختيار الحكومة.

لم يكن لدى الشعب الاسرائيلي وقت او ميل للتركيز على اثار الفضيحة، حيث تحول الانتباه بسرعة الى قضايا كان الاسرائيليون يعتبرونها اكثر علاقة بوجود الدولة اليهودية ـ امور زعم فعنونو انها هي التي دفعته الى تصرفه: الاحتلال الاسرائيلي المستمر للاراضي العربية المحتلة والتحدي الذي تشكله القومية الفلسطينية.

الفصل الثامن عشر

موت المخبرين

كان آخر موقف لمحمدِ العيّاد وقد كان يائساً في إظهاره، كان يركض من نافذة الى أخرى في بيته الحجري القديم، يرشّ الرصاص من رشاشه العوزي، على زملائه الفلسطينيين في الخارج ولم يكن العياد يكترث بمن قد يصيبه، فقد كان يريد مخرجاً.

«عياد، عياد» صرخت زوجته باسم العائلة على الهاتف وهي تتحدث مع واحد من الاسرائيليين الذين يتحدثون العربية، وكان يفترض فيهم ان يحموهم، فقد كان آل عياد يتعاونون مع الاسرائيليين منذ احتلالهم للضفة الغربية قبل احدى وعشرين سنة.

كان اليوم ٢٤ شباط ١٩٨٨، اليوم الثامن والسبعين للثورة الشعبية التي علمت كثيرا من دول العالم كلمة عربية، فقد كانت الانتفاضة أطول تحدّ للاحتلال الاسرائيلي واكثر ضررا له، فبعد انتصار الاسرائيليين في عام ١٩٦٧ سارع الاسرائيليون الى نشر مجسّات قانون ونظام في كل انحاء الضفة الغربية وقطاع غزة ومرتفعات الجولان وشبه جزيرة سيناء. وكانت الشين بيت الاخطبوط، بعقله القابع في الوسط في ضاحية شمال تل ابيب.

وكما هو حال الاف بي آي، فان الشين بيت ملتزمة بمحاربة أعداء الدولة، سواء كانوا محليين أو خارجيين، داخل حدود اسرائيل أو خارجها. وكانت حدود الشين بيت تشمل الاراضي المحتلة وكان محمد العياد يعمل مع الشين بيت.

قال جيرانه في قباطية ان عياد قدّ «تعرض للاكراه»، فلم تكن كلمة «جنّد» مناسبة ـ ليعمل كمخبر عندما اعتقلته الشين بيت في الشهور الاولى من الاحتلال، كان عياد في العشرين من عمره فقط وقد اتهم باثارة بعض المتاعب، مع ان احدا لم يكن ليتذكّر. وكان ما يهم ان يستعيد حريته، ثم تشحيم العجلات الادارية التي كانت تضمن ازدهار مقهاه، ووافق عياد على توفير المعلومات للشين بيت.

يقول عميل الشين بيت لمن سيصبح متعاونا: «ليس امراً كبيراً، وهو ليس ضد مصلحة شعبك. فكل ما تريده هو ان تعيش في سلام، أليس كذلك؟ فاذا رأيت مثيري متاعب، قل لنا ونحن نقوم بالباقي ولن يعرف احد بذلك».

لكن في القرى الصغيرة حيث يصعب اخفاء الاسرار، في غالب الاحيان كان مخبرو الشين بيت معروفين، فقد كان هنالك آلاف منهم بين فلسطينيي الضفة الغربية وغزة الذين يزيدون على المليون، إلا ان مصير عياد جعل مستقبل تجنيد المخبرين أمرا شبه مستحيل.

اتصفت الانتفاضة بقوة جديدة في ذلك الاسبوع من شباط، عندما كانت آخر المنشورات السرية الصادرة عن القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة تدعو الى اضراب عام ومسيرات احتجاجية لتتفق مع بداية مبادرة دبلوماسية اميركية، وشعر الفلسطينيون انهم تعرضوا للتجاهل زمنا طويلا، وقد دفعت الانتفاضة وزير الخارجية جورج شولتز للمجيء بمشروع اميركي لاجراء مفاوضات سلمية في الشرق الاوسط. وكان المتظاهرون يريدون التأكد ان اميركا ستصغي اليهم.

اصطدم المتظاهرون مع القوات الاسرائيلية في كل انحاء الضفة الغربية وغزة، لكن القانون والنظام في قباطية أفسح المجال لاختلال النظام والخروج على القانون. فبدت البلدة بأسرها وقد خرجت الى الشوارع السيئة التعبيد، يوما بعد يوم، وقد تخلى اهلها عن المدارس والعمل والحياة العادية السابقة، ليسيروا في مظاهرات منظمة يطلقون الشعارات لدى مرورهم عن بيت عياد. ولا بدّ انه اعتاد على سماع الهتافات مثل «بأجسادنا ودمائنا سنحطم الخونة ونحرّر ارضنا»، لكن عياد اصيب بالسعار يوم الاربعاء الرابع والعشرين.

كان في الاربعين من العمر، وقد انهار تحت الضغط، مرتين فقط: الاولى عندما اذعن للاسرائيليين ووافق على العمل معهم، والثانية عندما تصرف تصرفا جبانا حيث فتح نيران رشاشه العوزي على بعض الشبان العرب الذين كانوا يحاولون تخريب سيارته، كان ذلك قبل شهور من بدء الانتفاضة، عندما كان عياد يعرف انه يستطيع ان يطلق الرصاص على زملائه الفلسطينيين دون ان يوقع نفسه في خطر قاتل. فالاسرائيليون سيحمونه، وبعد كل ذلك فانهم اعطوه رشاش العوزي، كاشارة حصانة أقوى من أي منصب.

عندما طوق المتظاهرون بيته ورجموه بالحجارة، تناول عياد الرشاش الخفيف الوزن، لوّح به في البداية مهدداً، ثم أطلق زخات من الرصاص من فوق سطح البيت ومن النوافذ. ان كل التوترات التي تراكمت منذ بداية الانتفاضة الفلسطينية قد انطلقت في هذه المجابهة القاتلة غير المتوقعة، وربما أنه لم يلاحظ ان بين الثلاثين مواطنا قباطيا ممن اطلق عليهم الرصاص، اصاب ولداً صغيرا في الرابعة من العمر، وقد مات.

عرف المتظاهرون على الفور، وكان الدم شاهدا يحتاجون اليه لاثبات خيانة عياد، الذي كانوا دائما يشكون فيه. وبدلا من تراجع المتظاهرين امام الرشاش والولد القتيل، فانهم واصلوا قذف الحجارة والزجاجات في هجوم لا يتوقف على بيت الخائن.

وواصل عياد اطلاق النار، واخذ يركض كالفار المحبوس، وطلب من زوجته ان تتصل بالسلطات العسكرية الاسرائيلية في جنين لاستدعاء قوة نجدة.

كان الجيش مشغولا في ذلك اليوم، يحاول السيطرة على الاضطرابات في كل مكان، ولم يصل الجنود الى قباطية في الوقت المناسب، وعلى اية حال فمن هو هذا الفلسطيني الذي يطلب النجدة؟

كان مخبرا، واحدا من كثيرين يبيعون عيونهم واذانهم للشين بيت في مجتمع صغير استطاع الاسرائيليون ان يحتلوه لكنهم لم يستطيعوا ان يتغلغلوا فيه دون مساعدة المتواطئين العرب لكن هؤلاء عندما يحتاجون الى مساعدة، فان الشين بيت لا تستطيع ان تحميهم.

كان وقتا عصيبا بالنسبة لوكالة المخابرات الداخلية، فقد كانت الشين بيت تكافح من أجل معرفة منظمي الثورة؛ لكن حتى بعد اعتقال مئات ثم آلاف الفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة، فقد استمرت المنشورات السرية في الانتشار وواصلت جماهير المحتجين قذف الحجارة وترديد شعارات غاضبة.

كان رئيس الشين بيت، يوسف هارملين يستعد لترك منصبه في نهاية آذار ١٩٨٨، ومع انه لم يمض عليه في المنصب سوى سنة ونصف السنة، فقد كان في السابق هو الذي ادار الوكالة، وقد جيء به من التقاعد ليكون مديرا مؤقتا بعد فضيحة القتل والتغطية التي مزقت الشين بيت. وقد حاول محققو الجهاز السري الذين قتلوا خاطفي الباص في عام ١٩٨٤ أن يتجنبوا تحمل المسؤولية بلوم الضباط العسكريين، ولم يكن الجيش بعد ذلك مديناً للشين بيت بأي شيء وعندما بدأت الانتفاضة، انهمك كبار الضباط العسكريين في انتقادات خاصة، لكن قاسية، للجهاز الامني.

من المؤكد ان المنافسات الاسرائيلية الداخلية لم تساعد عياد، وقبل ان يصل اي اسرائيلي لانقاذه، نفذت رصاصات المخبر، فاقتحمت الجماهير الغاضبة بيته والقوه على الارض، واستخدم عدة شبان غاضبين سلكا لشنقه، وسمحوا لزوجته بالهرب واضرموا النار في البيت.

في ذلك الوقت، وصل الجيش، مع عدة عملاء من الشين بيت في سيارة بلا علامة، ووجدوا عياد معروضا للملأ: جسداً عليه آثار الضرب القاسي، يتدلى من عمود كهرباء قرب محطة الباصات في قباطية. وفوق الاسلاك تدلى العلم الفلسطيني وقد غطى الجسد.

كان جسد عياد رمزا صارخا للثورة، ورسالة للشين بيت بانهيار سيطرة اسرائيل على الاراضي المحتلة لمدة عشرين سنة، وكان عياد الفلسطيني الخامس والستين الذي يموت في الانتفاضة. وكان الولد الذي قتله الرابع والستين.

في الشهور الثمانية عشرة من عمر الانتفاضة، قتل اكثر من سبعين عربيا من المتواطئين مع

الشين بيت، على يد زملائهم الفلسطينيين، وقتل مئة آخرون في السنة التالية. واصبح المتواطئون هدفا رئيسيا للانتفاضة، لكن العنف أخذ يفلت من السيطرة عليه حيث تمت تسوية النزاعات الشخصية بالسكين والرصاص، كما تم قتل بائعي المخدرات والمجرمين والمومسات على يد مجموعات أقسمت على «تطهير فلسطين»، وكانت المنشورات السرية للقيادة الوطنية الموحدة تحاول اعادة توجيه الناس الى الكفاح من أجل الاستقلال عن اسرائيل - تحثّ ابناء الضفة الغربية وقطاع غزة على عدم قتل جيرانهم إلا اذا حكمت «محاكم الانتفاضة» باعدامهم.

أحدثت الانتفاضة تغييرات اجتماعية يمكن وصفها بالثورة العامة، فلم تكن مجرد احتجاج على استمرار الاحتلال الاسرائيلي، بل كانت حملة طويلة وعنيدة ترمي الى هزّ الحكم العسكري الاسرائيلي. وهذا بالضبط ما تعنيه كلمة الانتفاضة بالعربية «الهزّة»، وكان المحتجون يريدون ان يخلقوا نظام حكم بديلا يديره السكان العرب، فأخذوا يشكلون البنية الاساسية للدولة الفلسطينية المستقبلية.

كانت الانتفاضة هي التي ارادت الشين بيت ان تمنعها وكان على شبكة مخبري الوكالة ان يخبروا الاسرائيليين بأية محاولات كبيرة لتنظيم السخط، فقد انتشر عدة آلاف من المخبرين في المجتمع الفلسطيني، من عمال المصانع الى المثقفين، وكان على المخبرين ان يعلموا الاسرائيليين بالنشطاء الذين قد يحاولون تحويل المنظمات المهنية والاجتماعية الى مراكز قوة سياسية.

إلا ان الشين بيت ركزت على المجال الذي ابدعت فيه: منع الارهاب العربي، فقد كان المخبرون يتلقون مبالغ جيدة ثمن معلومات عن الجماعات العنيفة، وكانت الاعمال الارهابية المعزولة، مثل طعن مستوطن يهودي في الضفة الغربية، تحلّ بسرعة كبيرة على يد الشين بيت، والفضل في ذلك للمعلومات التي يقدمها العملاء المدسوسون داخل خلايا الثوار، حيث يتم شراؤها من المخبرين في الشارع او عن طريق الاكراه النفسي او الجسدي، لعشرات المشبوهين الذين كانوا يعتقلون في عمليات تنظيف للمنطقة المحيطة بمسرح الهجوم.

لم يكن هنالك أي تهديد ارهابي حقيقي في الاراضي المحتلة، فقد أنهى نظام المخابرات ذلك التهديد في الشهور الاولى بعد حرب الايام الستة، واصبح ذلك النظام راضيا عن الذات، ومتضخما، وبدت الغطرسة على موظفي الشين بيت الذين اتفقوا على ان تتم مخاطبتهم بأسماء عربية اخترعوها، مثل ابو ابراهيم، وكان كثير منهم متغطرسين فعلاً.

كانوا يعرفون انهم مكروهون، في الميدان، وكانوا يعرفون ايضا ان اسوأ ما يمكن ان يفعلوه لنشيط سياسي في مدينة في الضفة الغربية هو أن يتظاهروا بأنهم أصدقاؤه، فقد يزورون بيته بين الحين والآخر ويبتسمون عندما يغادرون او يطلقون التحيات المألوفة من السيارة عندما يمرون عمن يعرفون، فاعتقال شاب متهور يمكن ان يجعل منه بطلا محليا، اما جعله يبدو متواطئا فإن

ذلك يحطمه.

كانت الشين بيت تزود المتواطئين الحقيقيين بهويات خاصة مما يسهّل عليهم ان يمرّوا عن نقاط التفتيش العسكرية الاسرائيلية دون التعرّض للاستجواب أو التفتيش.

في مقرها في ضاحية شمالي تل ابيب، كانت الشين بيت تركّز على جمع المعلومات اكثر من اعداد تحليلات مطلعة، فالتقارير عن الاضطرابات المتخمّرة هنا أو هناك يمكن ان تؤدي الى عمليات احتجاز واستجواب والى المزيد من التقارير التي تورد اسماء اشخاص وقرى ومخيمات لاجئين للتحقيق، لكن الصورة الكبيرة كانت مفقودة.

لم يكن احد في مجتمع المخابرات او اي مكان آخر في اسرائيل ليرغب في ان يصدق ان الفلسطينيين سيثورون في ثورة شاملة، ومع أن هذا الخوف كان قائما في الشهور الاولى من الاحتلال عام ١٩٦٧، إلا ان المناطق طوال العقدين التاليين كانت تدار سلميا. وكان معظم سكانها متعاونين، معظم الوقت، مع السلطات الاسرائيلية حتى يواصلوا حياتهم الطبيعية بأقل قدر من الزعزعة.

قبل بضعة شهور من بدء الانتفاضة، نقل عن المسؤول الاسرائيلي عن مراقبة شؤون الضفة الغربية وغزة، نفيه لاحتمال وقوع اي اضطراب من هذا القبيل، لكن «منسق» النشاطات الحكومية في الاراضي المحتلة، شمويل غورين، سئل: اذن متى ستبدأ الثورة في المناطق؟

لقد كانت بداية عدوانية تقليدية بعض الشيء، لكن الاسرائيليين معروف عنهم انهم يعتمدون على الشكليات المؤدبة وقد جاء السؤال من رجل عسكري، وقد بدأ ان غورين فوجىء فردّ بسرعة: لا ثورة! لن تحدث ابدا.

وأصرّ الضابط قائلا: هل انت متأكد مما تقول؟

وأنهى غورين الحديث بالقول: هل تريد ان تراهن؟

كان غورين موظفا كبيرا في الموساد حتى عام ١٩٨٤، وكان لا بدّ انه يعرف كل ما تعرفه المخابرات، ومن المفارقات ان حديثه الحماسي جاء في حفلة تعجّ بضباط المخابرات الاسرائيلية، كانت حفلة استقبال على شرف سمادار، ابنة رجل امان المخضرم، يعقوب نمرودي، بمناسبة زفافها، كانت حفلة السنة في اسرائيل، لكن لم تكن حدث عام ١٩٨٧ الشرق اوسطي، فقد كان الحدث الانتفاضة التي زعم غورين انها لن تحدث ابدا.

بدأت الانتفاضة على شكل أحداث غير مترابطة، اخذت فيما بعد يتم تنسيقها بواسطة القيادة الوطنية الموحدة من خلال منشوراتها، والاذاعة السرية من سوريا، والتوجيهات الشفوية.

بدأت في التاسع من كانون الأول، بعد اسبوع من تجاهل الزعماء العرب في قمتهم التي عقدوها في عمان، للفلسطينيين، بالتركيز فقط على الحرب العراقية ـ الايرانية، بينما كان الرئيس الاميركي رونالد ريغان والزعيم السوفياتي ميخائيل غورباتشوف يجتمعان في نفس الوقت في واشنطن، لكنهما لم يكلّفا نفسيهما عناء مناقشة المشكلة الفلسطينية.

لماذا بدأت الانتفاضة عندما بدأت؟ لقد اندلعت الشرارة الاولى في غزة، يوم الثلاثاء، ٨ كانون الاول، عندما فقد سائق شاحنة اسرائيلي السيطرة علي عربته على الطريق الرئيسي عبر المدينة، فصدمت الشاحنة الضخمة جمهورا من الفلسطينيين، وقتلت اربعة وجرحت سبعة فيما وصفته الشرطة فيما بعد بأنه حادث! الا ان الأمر بدا في اعين الغزّيين القشة الأخيرة، النقطة الفاصلة، الاشارة لانفجار الغضب الذي كان يتراكم طوال اكثر من عشرين سنة، فاندفع الناس الى الشوارع في صباح اليوم التالي، وانتشرت الحركة الاحتجاجية في الضفة الغربية واخذت تستمر..

كان اعضاء مجتمع المخابرات، خاصة رؤساء الشين بيت، يلعبون دائما دور المهدىء في صياغة سياسات اسرائيل الدفاعية، وكانوا يترددون في استخدام القوة اكثر من تردد كثير من السياسيين الذين يسعدهم الضغط على الزناد، وكانوا يعارضون العقاب الجماعي معتقدين ان الموت سيدفع المقاتلين الفلسطينيين الى القتال بصلابة وظهورهم الى الجدران، فيوقعون خسائر اكبر بين الاسرائيليين، وكان قتل الشين بيت لخاطفي الباص استثناء وليس سياسة، لذلك لقي ردة فعل قاسية بالمفهوم الاسرائيلي.

ولعدم اعدام الارهابيين المأسورين، امتلأت سجون اسرائيل بهم، وكان يتم بين الحين والآخر اطلاق سراح الكثيرين منهم في عمليات تبادل اسرى، رغم المعارضة اللفظية الحازمة للتعامل مع الارهابيين. وكانت نتيجة عملية تبادل مع الجبهة الشعبية، القيادة العامة التي يتزعمها احمد جبريل في عام ١٩٨٥ وجود ستماية مقاتل فلسطيني متصلب ونشيط سياسي في الضفة الغربية، وكان الفلسطينيون الخارجون من السجن، وما يزالون يؤمنون بالكفاح المسلح، يتجولون في الشوارع، كان لهم صفوف منظمة، تتراوح بين الماركسية واساليب مقاومة الاستجواب، يتعلمون كيف يواجهون الشين بيت أمام مرأى الوكالة وعلى مسمعها!

ان مثل هذه التفسيرات فنية جدا ولا تكمل اللغز التاريخي الكبير، فمن الصعب تفسير التوقيت الفعلي لنشوب احداث كبيرة مثل الثورة الفرنسية أو التغيرات في اوروبا الشرقية، وليس هنالك أي تفسير مقنع لسبب بدء الانتفاضة في كانون اول عام ١٩٨٧ وليس قبل ذلك، إلا ان من الواضح ان الانتفاضة بدأت لأن الفلسطينيين سئموا من الاحتلال الاسرائيلي واصيبوا بالقرف منه!

لقد فشلت الشين بيت والحكام العسكريون في الاراضي المحتلة في ان يروا الفلسطينيين كشعب سياسي ، وكان هدفهم الرئيسي السيطرة على المناطق بمزيج من الحوافز والتهديدات، التي تعرف بالمصطلح الاستعماري التقليدي بسياسة العصا والجزرة. كانت قوات الامن مغالية في ثقتها بالحفاظ على النظام ، بينما كان عشرات الآلاف من العرب يكسبون معيشتهم من السفر يوميا للعمل في اسرائيل قبل ١٩٦٧ ، وكانت هذه الثقة المفرطة قد أعمت عيون الاسرائيليين عن خطوط التأثير داخل غزة والضفة الغربية.

كان من بين الفئات التي يصعب التغلغل فيها، المتعصبون الدينيون، كانوا مسلمين سنّيين ، وهم غير الشيعة المتعصبين الذين يحكمون ايران، إلا ان المؤمنين الغزّيين استوحوا من آية الله روح الله الخميني وثورييه في ايران البعيدة. والمفارقة ان الشين بيت قامت في وقت من الاوقات بتشجيع الجماعات الاصولية، معتقدة انها يمكن ان تكون بديلا مفيدا عن التوجه العام المؤيد لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وكان هذا التصرف طريقة كلاسيكية اخرى للاستعمار، فرّق تسد ، التي اثبتت فشلها. فقد تحولت نفس تلك المساجد ضد الشين بيت الى دعوة المتواطئين الى التوبة بينما ظهرت مجموعة دينية راديكالية اسمها حماس والتي حظرها الاسرائيليون فيما بعد.

أدت المصادمات بين الجيش الاسرائيلي والمتظاهرين الفلسطينيين الذين لم يكن سلاحهم سوى الحجارة والزجاجات ، الى مقتل اكثر من ثلاثماية عربي في عام ١٩٨٨ ، وهي السنة الكاملة الاولى من عمر الانتفاضة ، ووقع نفس العدد من القتلى في عام ١٩٨٩ ، وانفتحت صفحة جديدة في تاريخ الصراع العربي الاسرائيلي واصبحت حركة الثوار غير قابلة للسحق، وفي السنوات الاولى للانتفاضة اعتقل الاسرائيليون اكثر من عشرين الف عربي فكانت السجون الاسرائيلية تؤوي ستة آلاف فلسطيني في وقت واحد، لكن كان هنالك اناس آخرون يشاركون في المسيرات الاحتجاجية ، يوميا بل في كل ساعة!

عندما بدأت الانتفاضة في كانون الاول ١٩٨٧ ، لم يعلّق كبار المسؤولين في الجيش والمخابرات الاسرائيلية أهمية كبيرة على الاحداث، يقطع وزير الدفاع اسحق رابين زيارته لواشنطن ، كما ان رئيس الوزراء اسحق شامير ورئيس هيئة الاركان الجنرال دان شمرون وصفا الاضطرابات في الاراضي المحتلة بأنها غير مهمة ، وكررا وعدهما للوزراء الخمسة والعشرين بأن القلاقل سيتم قمعها بسهولة.

* * *

لقد احتاج رؤساء المخابرات الاسرائيلية الذين كانوا يجتمعون اسبوعيا تحت اسم لجنة فاراش، الى شهرين ليتوصلوا الى ان الشين بيت والجيش اخفقا في وقف الانتفاضة.

وكان على هارملين، رئيس الشين بيت ان يقول بأن شبكة الوكالة من المخبرين تتهاوى، ولم يكن هنالك اي تفسير للاخفاق في التنبؤ بالانتفاضة سوى وجهات نظر بعض رجال الشين بيت التي أعربوا عنها فيما بينهم بأن مهامهم الرسمية الكثيرة لم تكن تشمل التنبؤ. وقالوا ان وكالتهم لم تكن تملك الادوات لتقدير الثورة الواسعة النطاق بشكل مسبق.

لقد تم تكليف الشين بيت بمنع التهديدات لدولة اسرائيل، وقد أجادت في ذلك المجال، وشعر هارملين ان رجاله ينبغي الا يصبحوا اكباش الفداء لاخفاق السياسيين الاسرائيليين في التوصل الى حل بعيد المدى في المنطقة، ولم يشكل دائرة جديدة في الشين بيت، تتولى مهمة مراقبة وتحليل الاتجاهات السياسية في المجتمع الفلسطيني.

كان اعضاء لجنة فاراش يعرفون ان اسوأ فشل على المدى القصير هو العجز عن التكهن بأن الفلسطينيين سيغيرون اساليبهم، فقد تحولوا عن الهجمات الارهابية المعزولة التي يشارك فيها عدد صغير من الافراد، الى عمل اقل عنفا، لكن اكثر انتشارا، يتفوق على القوة العسكرية الضخمة لاسرائيل. فالمارد المسلح، حتى بنظم اسلحته المتطورة، بدا قزما لا يستطيع على الردّ بشكل مناسب.

كان رئيس الشين بيت يقول ان عملاءه يكثفون جهودهم لقطع النقاط المضطربة بعضها عن بعض، وعن التحريض الخارجي. وكانت المخابرات الاسرائيلية تعرف ان الانتفاضة يثيرها اناس محليون في الاراضي المحتلة، لكن كانت هنالك مؤشرات بان زعماء منظمة التحرير الفلسطينية خارج المناطق يتحركون بسرعة لركوب العربة، وكشف رئيس الموساد ناحوم ادموني ان واحدا من اول أعمال التضامن، للتحريض والاغراض الدعائية، سيكون رحلة بحرية.

انفقت منظمة التحرير الفلسطينية حوالي ٧٥٠ الف دولار في شباط ١٩٨٨ لشراء سفينة يونانية لشحن السيارات تسمى (سول فراين)، وقد اطلق عليها اسم «العودة» وكان من المقرر أن تحمل ١٣١ مبعدا فلسطينيا الى شواطىء اسرائيل لاضفاء الاثارة على مطلبهم بوطن.

وكانت صدفة ان «سول فراين» نفسها قد صنعت في عام ١٩٤٧ وكانت تبحر بين الجزر اليونانية، وتخصصت في نقل الحجاج المسيحيين من اليونان الى اسرائيل، وفي عام ١٩٨٢ كانت واحدة من السفن الكثيرة التي نقلت المقاتلين الفلسطينيين من بيروت، بعد غزو اسرائيل للبنان.

كانت منظمة التحرير الفلسطينية تخطط لاستخدام السفينة لمضايقة اسرائيل، فالمجابهة الوشيكة في البحر يمكن ان تسيء لصورة اسرائيل، والتي تلطخت بسبب تدابير الجيش القاسية في محاولة قمع الانتفاضة.

كان التهديد الذي يمثله انقلاب دعائي لمنظمة التحرير الفلسطينية موضوعا رئيسيا في اجتماع لجنة فاراش في تل ابيب، في اواسط شباط. وكان رئيس الموساد، ادموني، رئيس اللجنة، كالمعتاد، يقول بان عملاءه في اليونان يراقبون منظمة التحرير الفلسطينية وهي تنظم «رحلة العودة». وتم تجميع الركاب في اثينا، وتم القول علانية ان سفينة تقف في ميناء بيرايوس القريب سيتم استئجارها للرحلة.

نقل العملاء الاسرائيليون الخبر بين دوائر الملاحة المحلية بان على اي شخص يوفر سفينة لمنظمة التحرير الفلسطينية ان يتوقع فقدان تلك السفينة. وسأل الاسرائيليون في تلك المنطقة فوجدوا ان سول فراين قد بيعت للفلسطينيين، وكانت ترسو في ميناء ليماسول، قبرص.

جمع رجال ونساء الموساد قوائم باسماء الفلسطينيين الذين يخططون للابحار نحو اسرائيل، وكان من بينهم رجال من منظمة التحرير الفلسطينية ذوو ماضي عنيف. وكان من المقرر ايضا ان تحمل السفينة عشرات الصحفيين والتلفزيونيين، وعضواً يساريا من الكنيست الاسرائيلي. وكان هؤلاء وثيقة التأمين لمنظمة التحرير الفلسطينية، والضمانة بان البحرية الاسرائيلية التي كان متوقعا منها ان تحاول منع سفينة العودة من الرسّو، لن تقوم باغراق السفينة.

كان لدى ادموني فكرة رائعة، ودرست لجنة المخابرات المشتركة موضوع نسف السفينة قبل ان يصعد اليها أي مسافر، وقد قال رئيس الموساد أنه كان عليهم ان يتصرفوا بسرعة لان الناطق الرسمي الفلسطيني بسام ابو شريف كان يقول في المؤتمرات الصحفية اليومية أن الرحلة «ستبدأ في اية ساعة، في اي وقت من الان».

استطاع ابو شريف النجاة من انفجار رزمة من المتفجرات زرعتها الموساد في تموز ١٩٧٢، في منزله في بيروت وقد فقد عينا وعدة اصابع. ولم يكن ابو شريف مرتبطا باي عنف ارهابي طوال سنوات، وكانت الموساد في عام ١٩٨٨ لا تريده، بل كانت تريد ان تغرق مشروعه الدعائي.

حمل رئيس الموساد خطة نسف سفينة منظمة التحرير الفلسطينية بينما تكون فارغة، الى رئيس الوزراء شامير، واستنادا الى خبرة شامير في عمليات الموساد في اوروبا، رأى المنطق الكبير لمنع الرحلة قبل ان تبدأ، ولم يسأل عن تفاصيل معينة للخطة العملياتية، لكنه كان يعرف انه سيتم استخدام المتفجرات، وقد قيل لرئيس الوزراء ان الهدف هو تجنب خسارة الأرواح، وفي ضوء هذه الرغبة فان المهمة ستعتبر فاشلة اذا قتل ركاب ابرياء.

وطلب من شامير ايضا الموافقة على عملية قتل، فقد اراد رؤساء المخابرات ان يمضوا قدماً نحو اغتيال شخصية كبيرة من منظمة التحرير الفلسطينية، وصفته تحليلات المخابرات الاسرائيلية بانه «خطر واضح وكبير ومستمر». فقد كان عملاء الموساد يراقبون محمد باسم سلطان

التميمي ، وهو ضابط كبير في الجيش شبه الرسمي لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وافاد العملاء انه نشيط في حركة فتح وهو رجل عمليات اكثر منه سياسيا ، كان في الخامسة والثلاثين ، وكان معروفا اكثر باسمه الحركي حمدي ، وكان يعمل في دائرة الوطن المحتل التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية .

وقد خطط لعشرات من الهجمات الارهابية داخل الاراضي المحتلة بينما كان ينظم فرع «الجهاد الاسلامي» التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية .

كان الاسرائيليون مصممين على قتل حمدي . وقد وافق رئيس الوزراء شامير على كلتا الخطتين : الاغتيال ونسف السفينة الفلسطينية ، في تصريح شفوي لمدير الموساد . فقد توجب عدم طبع «النتيجة الاستخبارية» أو توقيعها أو حفظها في الملفات ، وعدم اخبار اية لجنة برلمانية بالعملية السرية ، فقد كانت حرباً ، بل ان شامير وصف خطة منظمة التحرير الفلسطينية بارسال سفينة الى اسرائيل بانها اعلان حرب .

كان لا بد من ان يكون للموساد عميل قريب جدا من التميمي / حمدي ، ومما لا شك فيه ان منظمة التحرير الفلسطينية ودائرة الوطن المحتل قد تسرّب اليهما المخبرون ، وعرف الاسرائيليون ان الضابط الفلسطيني سيطير من اثينا الى قبرص يوم ١٣ شباط ١٩٨٨ ، وكانوا يعرفون ان الجزيرة مقسمة الى قطاعين ، يوناني وقبرصي ، ولا تبعد عن اسرائيل ولبنان اكثر من ١٥٠ ميلا ولا تستطيع الشرطة كشف الجرائم السياسية ، فقد كانت تقع حوادث كثيرة وكان لدى السلطات القبرصية مشكلاتها التي تغنيها عن معاداة الاسرائيليين والعرب .

كانت الصعوبة الوحيدة المحتملة تتمثل في ان التميمي /حمدي كان متواجداً عند السفينة سول فراين ، في انتظار ركابها ، وسواء توقفت الرحلة أو لم تتوقف ، فان وهج التغطية الاعلامية العالمية سيكون في الجزيرة ، وقد لا يكون المكان المناسب لعملية قتل سياسي ، ودرس ادموني الموضوع مع شامير ليتأكد من أن رئيس الوزراء لا يرى اية مشكلة في تقارب الحالتين مكانيا ، وتم تاكيد الموافقة .

في يوم الاحد ١٤ شباط ، تحرك الاسرائيليون للعمل ، فقد تلقوا معلومة ممتازة : سيقوم حمدي بجولة في السيارة في قبرص مع مروان كيالي ، وهو ضابط من منظمة التحرير الفلسطينية مركزه في ليماسول ، وكانت مهمة كيالي شحن امدادات الى الفلسطينيين الذين تبقوا في لبنان ، باستخدام علاقاته الممتازة في ليماسول ، كما كان يشارك في تنظيم رحلة سول فراين .

من وجهة نظر الموساد ، اجتمعت المهمتان بشكل رائع ، ولم يواجه العملاء الاسرائيليون مشكلة في زرع قنبلة قوية في سيارة كيالي ، الفوكس واغن ، ويمكن تفجير القنبلة عن بعد ، وكان العملاء الذين يحملون جهاز البث اللاسلكي يراقبون السيارة وهي تقترب من بيت كيالي في بناية شقفية في ليماسول .

ان وجود رجل ثالث في السيارة جعل الاسرائيليين يترددون لكنهم استطاعوا ان يميـزوه ويعرفوا انه محمد حسن بحيص، المعروف ايضا باسم ابو حسن، وهو نشط في دائرة الوطن المحتل التـابعة لمنـظمة التحـرير الفلسـطينية، وقـد اعتبره الاسـرائيليون هـدفا ايضـا، وضغط احد الاسرائيليين على الزّر، ودمّر الانفجـار سيارة الفـوكس فاغن الخضـراء، ومات الفلسـطينيون الثلاثة.

في صباح اليوم التالي، اهتزت ليماسول بانفجار آخر، وثقب قاع السفينة سول فراين، وجعلها غير صالحة لرحلة العودة، وحمّل الفلسطينيون المسؤولية على اسرائيل لكن كل ما قاله وزير الدفاع اسحق رابين: «قررت اسرائيل أنها مضطرة لعدم السماح لهم بتحقيق هدفهم، وسوف تفعل ذلك بأية طرق تبدو مناسبة».

لم يتضرر أحد من انفجار الاثنين، وقد قالت الشرطة القبرصية ان لغما لاصقا، وهو سلاح بسيط لكنه فعال استخدمه رجال الضفادع في الحرب العالمية الثانية، قد ربط بقاع السفينة سول فراين في البحر الابيض المتوسط، وقد كان عملاً مرتبا حيث دمر الانفجار كل دليل يمكن ان يدل على أثر اصول اللغم، ولم تكن هنالك اية فرصة للقبض على المهاجمين.

وكان لا بد ان موظفي محطة الموساد في نيقوسيا، عاصمة قبرص، كانوا مشغولين، فقد كانوا منهمكين في عمليات مراقبة وقد استضافوا خبراء القنابل الاسرائيليين ورجال الضفادع من سلاح البحرية الاسرائيلية الذي جاءوا الى الجزيرة لانجاز مهمتي التفجير.

وقد قال الناطق الرسمي لمنظمة التحرير الفلسطينية في اثينا ان سفينة أخرى سيتم ترتيبها، لكن المسافرين المعنيين، الذين تعبوا من الانتظار، غادروا اليونان، وفقدت الصحافة العـالمية الاهتمام، وتم اصلاح السفنية سول فراين، لكن لم يقترح أحد استخدام السفينة.

أعدت منظمة التحرير الفلسطينية ردّا عنيفا، ليكون عملية ثأرية شخصية، من قبل خليل الوزير، المعروف باسم ابو جهاد الذي كان الذراع اليمنى لياسر عرفات، وكان الوزير يعمل بشكل وثيق مع دائرة الوطن المحتل، يخطط الاستراتيجية لاستثمار الانتفاضة، وكان ثلاثة من رجاله قد قتلوا على يد الموساد في قبرص وكان ابو جهاد يريد الثأر.

ارسل ثلاثة مقاتلين، في بداية اذار ١٩٨٨، الى مصر حيث سلّحوا أنفسهم من مستودع خفي لمنظمة التحرير الفلسطينية وتوجهوا الى صحراء سيناء، التي كان الاسرائيليون قد اعادوها لمصر في عام ١٩٨٢، وفق اتفاقيات كامب دافيد لعام ١٩٧٨ ومعاهدة السلام التي أعقبتها. لم تواجه المجموعة التي تنتمي لفتح مشاكل في اجتياز الحدود يوم ١٧ اذار، من صحراء سيناء الى النقب، سيرا على الاقدام، وخلال ساعات استطاعوا ان يهزوا مؤسسة الدفاع الاسرائيلية.

ربما لم يكونوا يعرفون ماذا كانوا يفعلون بالتحديد، فقد اختطف المسلحون باص ركاب في الصحراء في ذلك اليوم، وقد صدف ان كان الباص الذي ينقل الموظفين بتصاريحهم الامنية المهمة من مدينة بئر السبع في صحراء النقب الى مفاعل ديمونا الذري البالغ السرية. وقد كان هجوماً غير مباشر على أهم مرفق في اسرائيل.

تم ايقاف الباص عند حاجز طرق، وبعد التظاهر بالتفاوض، قامت وحدة من الشرطة الاسرائيلية، لمكافحة الارهاب بشن هجوم خاطف، وقتل الخاطفون الثلاثة كما مات ثلاثة من العمال الذرين الاسرائيليين، واعلنت منظمة التحرير الفلسطينية ان الغارة انتصار. وقال ياسر عرفات ان القتلى مرتبطون بمصنع القنابل الذرية السري في اسرائيل. وكان هجوم منظمة التحرير الفلسطينية مساهمة من المقاتلين خارج فلسطين في الانتفاضة التي يقوم بها اخوانهم الذين يعيشون في ظل الاحتلال.

كان ذلك يوم اثنين، وغضب وزير الدفاع رابين وأصرّ على ضرب السبب الجذري للعنف الارهابي، وكانت الانتفاضة متماسكة بحيث كان التغلغل اليها صعبا، وطلب رابين من رئيس الموساد ادموني ان يدرس امكانية قتل ابو جهاد.

وفي يوم الخميس، ١٠ آذار، قال ادموني لزميليه رئيسي المخابرات، هارملين من الشين بيت، ومدير امان، الجنرال امنون لبكنغ شاحاك، انه خلال ثلاثين يوما من الاعداد، يستطيع الموساد والجيش معا ان يقوما بمهمة اغتيال دقيقة، ووافقت لجنة فاراش على وجوب البدء في التخطيط.

قام ليبكين شاحاك بشرح الخطة، دون تفاصيل عملياتية محددة امام مجلس الوزراء المصغر، وهم العشرة وزراء الكبار من المجلس الكبير المكون من خمسة وعشرين عضوا مشاكسين. قال رئيس الوزراء للمجموعة الداخلية المكونة من الحزبين انه ينبغي ارسال رسالة واضحة الى منظمة التحرير الفلسطينية بان جانبها «العسكري» لا يمكن ان يسمح له باحراز اية مكاسب من الاضطرابات في الاراضي المحتلة وان تصفية المساعد الكبير لعرفات يمكن ان تثير الخوف في قلب الزعيم الفلسطيني في الوقت الذي قد يعتقد فيه ان الاسرائيليين يرتعدون من الانتفاضة.

أيقن بعض الوزراء ان هنالك دافعا آخر يكمن وراء التفسير الرسمي. حيث يمكن ان يكون الاغتيال عملية «استعراضية» لرفع معنويات الشعب الاسرائيلي، الذي يعاني من عدم القدرة على قمع الانتفاضة الفلسطينية.

وافق معظم الوزراء الذين اجتمعوا بسرعة وغضب من اختطاف الباص، لكن بيريز، الذي كان نائب رئيس الوزراء هو الذي اثار الاعتراضات، فقد كان حزب العمل قلقا من ان

الهجوم على القيادة العليا لمنظمة التحرير الفلسطينية ـ لاول مرة خلال تسع سنوات ـ يمكن ان يدمر الجهود الدبلوماسية الرامية الى تحقيق حل دبلوماسي عن طريق المفاوضات مع مصر والاردن.

كان الجانب العمالي في حكومة اسرائيل الائتلافية يؤمن في الانسحاب من كثير من الاراضي المحتلة مقابل معاهدات سلمية، لكن شامير وكتلة الليكود لم تر ذلك. وكان بيريز يشك دائما في ان شامير مستعد لسحق اية بادرة سلام. كما كان يعترض على خطة الاغتيال وزيران عماليان رئيس اركان سلاح الجو السابق عا زر وايزمن، ورئيس اسرائيل السابق اسحق نافون.

فيما يتعلق بالخبرة العسكرية اتفق الوزيران من الجانب العمالي اللذان كانا يملكان الخبرة الاكثر عملياتية، مع رئيس الوزراء ازاء هذه القضية. فقد كان وزير الدفاع رابين ووزير الشرطة حاييم بارليف رئيسين سابقين لهيئة اركان الجيش، وكانا يؤمنان بان على جيش اسرائيل ومخابراتها ان ترسلا لمنظمة التحرير الفلسطينية تحذيرا شديدا، فالموافقة على غارة جوية على هدف عسكري امر اسهل وغير شخصي، لكن ابو جهاد نفسه هدف عسكري كان لا بد من مهاجمته بمنتهى الدقة.

قال شامير لكبار وزرائه ان الموساد ستحتاج الى مشاركة وحدات من خيرة الجنود. وسوف يتم قتل القائد العسكري لمنظمة التحرير الفلسطينية في تونس، على بعد حوالي ١٥٠٠ ميل من تل ابيب، ومع ان الغارة لم يتم بعد تخطيطها بالتفصيل، فمن المحتمل ان تمثل هجوم افيف ناعوريم على بيروت في نيسان ١٩٧٣، عندما ساعدت الموساد رجال الكوماندو في الهبوط في العاصمة اللبنانية وقتل خمسة عشر من قادة الفدائيين في منازلهم ـ بمن فيهم سلف ابو جهاد كقائد عسكري لمنظمة التحرير الفلسطينية، محمد النجار.

طلب مجلس الوزراء المصغر من الموساد والجيش ان يمضيا بتخطيطها، وكان المسؤول رئيس هيئة الاركان شومرون ونائبه الجنرال ايهود باراك. وكان باراك ذا خبرة طويلة في المخابرات وعمل الكوماندو، وشارك في الغارة على بيروت قبل خمس عشرة سنة. وكان عليه الآن ان يعمل مع رجال المخابرات مرة اخرى، وكانت مهمتهم ان يكرروا نجاح ١٩٧٣، مع ان المسافة التي سيتم قطعها هذه المرة تبلغ خمسة عشر ضعفاً.

حصل الجنرال باراك على تعاون كبير من المخابرات العسكرية وكان قائد امان، شاحاك، نفسه مع قوات الكوماندو في افيف ناعوريم، وفي عام ١٩٧٣ كان شاحاك يعرف باسم امنون ليبكين، وعند اختيار اسم عبري بدلاً من اسم اسرته اليهودي الاوروبي، كان شاحاك او «يسحق» اختيارا قويا، وقد لاقى تحدي مهمة تونس قبولا لديه.

ان التخطيط المعقد للهجوم على ابو جهاد يمكن ان يبدو لأي استراتيجي عسكري شيئا هائلا حافلا بالمتاعب من اجل قتل رجل واحد. لكن تخيلوا ماذا كان الاميركيون او البريطانيون ليفعلوا في الحرب العالمية الثانية للتخلص من جنرال الماني او ياباني كبير. وألم يكن الالمان ليشعروا بانهم حطموا معنويات الحلفاء لو انهم اغتالوا الجنرال دوايت ايزنهاور؟

ان ازاحة قائد كبير من صفوف العدو لن تسوي الصراع العربي الاسرائيلي، لكن الاسرائيليين كانوا في أمّس الحاجة الى نوع من الانتصار بعد اربعة شهور من قيام الانتفاضة، وعلاوة على ذلك، علّمت خبرة السبعينات الموساد ان اغتيال كبار الزعماء الارهابيين قد سبب زعزعة منظمة التحرير الفلسطينية والجماعات المنشقة عنها، وقد جعلهم ذلك يخافون من الاسرائيليين، ويترددون في تخطيط عملياتهم العنيفة واجبرتهم على ارتكاب الاخطاء. وعلاوة على النصر الذي كان الاسرائيليون يحتاجون اليه فقد كانوا يعتقدون ان حركة المقاومة الفلسطينية تستحق نكسة.

لقد دأبت الموساد والشين بيت، وامان بين الحين والآخر، على مراقبة ابوجهاد منذ سنوات وكان العملاء والمخبرون في الاقطار العربية وداخل منظمة التحرير نفسها يبلغون تل ابيب عن تحركاته، بين الحين والآخر وبشكل كامل. وقد طلبت الموساد في عام ١٩٨٣ من خبير الخطوط الاسرائيلي، اريه نافتالي، ان يقوم بتحليل نفسي يستند الى عينة من الخط العربي، ولم يعرف الا فيما بعد ان التقرير الذي أعدّه كان من خليل الوزير الذي وصفه بانه رجل ذكي جدا، وقادر على التنظيم الجيد، ذو عقلية محددة وتحليلية، وذو طاقات كبيرة.

كما اشارت الملفات الاسرائيلية الرسمية ان الوزير، من بين سياسيي منظمة التحرير الفلسطينية، رجل توفيقي، فقد ساعد في ابقاء المنظمة مترابطة، لان ياسر عرفات ومنافسيه العنيفين يصغون لأبو جهاد.

إلا انه مؤمن قوي بتحقيق الانتصار عن طريق «الكفاح المسلح»، فعندما كان في سن التاسعة عشرة، في عام ١٩٥٤، اعتقله الجيش المصري لزرع الغام في قطاع غزة، فقد كان الوزير يعيش في غزة التي كانت مصر تحكمها، بعد ان خرج والد خليل من وطن اسرته الاصلي عند قيام دولة اسرائيل في عام ١٩٤٨. وفي عام ١٩٥٥، انطلق الوزير كرجل حرب عصابات بمهاجمة مرفق مائي على الجانب الاسرائيلي من الحدود. وبعد بضع سنوات، التقى مع عرفات وخريجي جامعات فلسطينيين آخرين، وفي الكويت، شكلوا في عام ١٩٥٥ حركة فتح وهي تنظيم صغير استطاع ان يتولى امور منظمة التحرير الفلسطينية، وظل الوزير الى جانب عرفات يسعى الى الدعم في السنوات الاولى بالتجول في كل الاقطار العربية والشيوعية، وحمل اسم ابو جهاد، وحيثما وجدت منظمة التحرير الفلسطينية وطنا مؤقتا كان يوجه حرب العصابات بينما كان عرفات يرسم

صورته كدبلوماسي.

في مقر الموساد في تل ابيب، درس ادموني ومخططو عملياته ملفاتهم حول الغارة على بيروت، وباستعراض كيفية تسلل العملاء الاسرائيليين في السابق في قطر عربي، بدا التسلل في تونس سهلا في عام ١٩٨٨ مثلما كان الحال في لبنان عام ١٩٧٣، فقد طار ستة عملاء موساد، بجوازات سفر بريطانية وبلجيكية مزورة كسواح ورجال اعمال، الى بيروت ليتعرفوا على المباني التي ستتم مهاجمتها واستئجار ست سيارات واسعة.

لن يكون في تونس سوى هدف واحد، ولن تحتاج الموساد الا الى ثلاثة عملاء، ليستأجروا ثلاث سيارات. وفي هذه المرة استخدموا جوازات سفر لبنانية وكانوا يتحدثون العربية بلهجة لبنانية جيدة، طار الرجلان مع امرأة كسياح، وسافروا كلّا على حدة، وبدوا مرتاحين مثل المليوني سائح الآخرين الذين يزورون تونس سنويا.

وكما هو الحال مع الغارة على بيروت قامت البحرية الاسرائيلية ـ بقيادة شايتيت ١٣، خيرة رجال الضفادع ـ بنقل رجال الكوماندو الى الشاطىء قرب الهدف. وكان من المقرر ان يتوجه زورق صواريخ في نفس الوقت الذي يصل فيه عملاء الموساد الى تونس يوم ١٢ نيسان، وكان الزورق عندها في وضع لانزال ثلاثين جنديا على الساحل الشمال افريقي ليلة الجمعة ١٥ نيسان، وكان هؤلاء من سايارت ماتكال، وحدة الاستطلاع من هيئة الاركان، وهم خيرة الكوماندو الذين خدموا رئيس هيئة اركان الجيش والمخابرات العامة.

تقليداً لخطة بيروت، هبطت القوات على شاطىء سياحي، قرب تونس على قوارب مطاطية في عتمة الليل، وكما حدث في عام ١٩٧٣ كان عملاء الموساد ينتظرون على الشاطىء. وكانوا قد استأجروا باصين صغيرين من نوع فولكس فاغن ومقطورة بيجو، كانت المسافة قصيرة من الشاطىء في الرواد، الى ضاحية سيدي بوسعيد حيث كان ابو جهاد يعيش مع زوجته، وهي ايضا عضو نشط في منظمة التحرير الفلسطينية، واثنين من ابنائه: ابنة، ١٤ سنة وابن في الثانية من العمر. وكان له ولدان وابنة يدرسان في الولايات المتحدة.

استفاد الاسرائيليون من تطورين تكنولوجيين وفرا لرجال الكوماندو أمنا اكثر مما توفر لنظرائهم في بيروت عام ١٩٧٣، وكان التطور الاول استخدام طائرة بوينغ ٧٠٧ اسرائيلية، مزودة باجهزة اتصالات عسكرية، تطير فوق البحر الابيض المتوسط على بعد ثلاثين ميلا شمالي تونس، ولأنها بقيت ضمن خط طيران مدني يعرف بـ «بلو ٢١» جنوبي صقلية كان على الطيارين الاسرائيليين ان يظهروا وكانهم يقودون طائرة العال تجارية، عندما تتصل لاسلكيا مع مراقبي الطيران الايطاليين. كان امرا غير مألوف بعض الشيء، لكن مراقبي الطيران لا يجدون الوقت او الميل ليسألوا عن كل رحلة اضافية بين اسرائيل واوروبا.

ان وجود طائرة البوينغ فوق المهمة السرية جعلها تبدو ان الجنرالين باراك وشـاحاك في الموقع، وكان بامكانهما ان يتخذا قرارات عملياتية دون اي تأخير لانهما كانا على متن الطائرة على اتصال سهل مع رجال الكوماندو عبر جهاز الاتصال الثنائي الاتجاه.

كان التطور الفني الآخر جهازا مكّن الفريق الاسرائيلي على الارض من التشـويش على هواتف ضاحية سيدي بوسعيد قرب فيلا ابو جهاد، وعند حوالي الواحدة من صباح ١٦ نيسان توقف احد الباصين الصغيرين والمقطورة عند دخلة بعيدة عن البيت. وركّبوا جهازهم، الذي سبب دائرة قصيرة فورية، في علبة هواتف، كان احد عملاء الموساد قد وضعه في وقت سابق، وكانت العربتان مليئتين بالجنود في لباس مدني، يضعون رشاشات عوزي، والمسدسات، بين ارجلهم، وكانواينتظرون. . أما في بيروت اضطر نظراؤهم الى مقاتلة وحدات منظمة التحرير الفلسطينية والشرطة اللبنانية لحماية افراد مهمتهم الرئيسيين، وفي هذه المرة، يمكن ان يقاتلوا قوات الامن الفلسطينية او الجيش التونسي ان لزم الامر.

توقف ثمانية رجال كوماندو، بباص الفولكس فاغن الصغير الذي كانت تقوده امرأة، امام بيت الوزير، وانقسموا الى فريقين وهاجموا البيت بسرعة وكانوا قد تدربوا على المهمة في فيلا مماثلة في اسرائيل.

كان أحد الفريقين مسؤولا عن الأمن فقتل سائق الوزير الذي كان يجلس في زيارة الزعيم الفلسطيني بعد ان اعاده الى بيته قبل حوالي تسعين دقيقة، في منتصف الليل. وقام الاسرائيليون، باستخدام مسدسات كاتمة للصوت، بقتل حارس فلسطيني في دور النـوبة في البيت، وكـانت مهمتهم قتل اي واحد يمكن ان يحول بينهم وبين مهمتهم.

اما الفريق الثاني المخصص للهدف نفسه، فقد حطم الباب الامامي وبدأ البحث عن أبو جهاد، واستخدموا مسدساتهم الكاتمة للصوت في قتل حارس تونسي، ثم رأوا خليل الوزير على رأس الدرج.

كان بيد ابو جهاد مسدس صغير، التقطه عندما سمع الاصوات غير العادية في الخارج وتحت الدرج، فقد كـان في الدور العلوي في أواخـر تلك الليلة يراقب شـريط فيديـو يغطي الانتفاضة التي كان مشغولا في محاولة التنسيق معها من الخارج، ولم يجد أية فرصة لتصـويب سلاحه او استخدامه، فقد رشق الاسرائيليون الاربعة سبعين رصاصة في جسده بسرعة مذهلة، فبعد أن قطعوا كل هذه المسافة الكبيرة من اسرائيل لم يكونوا يريدون ان يتركوا الفرصة للوزير ليظل على قيد الحياة. وقد بدت يده اليمنى التي كانت تمسك بالمسدس وكانها قطعت، ومات ابو جهاد في الثانية والخمسين.

لم يكن هنالك أية حاجة لمزيد من القتل. وقد قالت زوجته، ام جهاد، فيما بعد أنها كانت تتوقع ان يقتلوها. بل انها استدارت الى الحائط تستعد ليمزقها الرصاص. وبدلا من ذلك قال احد الاسرائيليين لابنتها باللغة العربية: اهتمي بوالدتك.

وركض رجال الكوماندو الى الباص الصغير وانطلق بهم بسرعة كبيرة. لم تكن ام جهاد وابنتها متأكدتين لكنهما اعتقدتا أنها رأتا امرأة بين المهاجمين، لم تكن تحمل سلاحا بل الة تصوير فيديو لتسجل الاغتيال.

كان كل ما استطاعت السلطات التونسية ان تجده: السيارات الثلاث المستأجرة وآثار الاقدام على الشاطىء على بعد عشرة اميال من بيت الوزير.

وحملت منظمة التحرير الفلسطينية المسؤولية على اسرائيل، لكن الاسرائيليين استطاعوا ان يبقوا الموضوع بأسره سرّا، لكن الابقاء على السرّ لن يؤدي الى النتيجة الرادعة المطلوبة لذلك قامت مصادر اسرائيلية رسمية بتزويد مؤسستين اخباريتين اميركيتين، شبكة ان بي سي التلفزيونية والواشنطن بوست، بروايات كاملة مما فعلته الموساد والجيش. اما عايزر وايزمن، الوزير الذي عارض الاغتيال، فقد هزّ رأسه وقال للمراسلين: ان هذا لا يساهم في الحرب ضد الارهاب بل يبعد المسيرة السلمية وسوف يؤدي الى احقاد اكبر، كما سيجعلنا اكثر ضعفا في كل انحاء العالم.

شعر مجتمع المخابرات بأنه لم يفعل شيئا يخجل منه كما نقل عن رئيس امان، شاحاك قوله في عدد ذلك الاسبوع من مجلة الجيش الرسمية، با ـ ماشانيه ـ «في المعسكر». ومن مقتطفات من مقابلة أجريت معه قبل قتل ابو جهاد قال: ان اي شخص يوجه الارهاب هدف مناسب للقضاء عليه.

كان شاحاك يعلن عن جانب مما شكل جدلا طويلا وساخنا خلف الابواب المغلقة لمجتمع المخابرات. هل عمليات اغتيال القادة الفلسطينيين جديرة بالاهتمام والمغامرة؟ واذا كان الامر كذلك فهل يجب ان تكون الاهداف من كبار القادة؟ في السبعينات واوائل الثمانينات كانت تلك هي العقيدة السائدة، وقد قتل الاسرائيليون أو حاولوا قتل رؤساء منظمة التحرير الفلسطينية وقد جرت عدة محاولات ضد ياسر عرفات بما فيها رسائل ملغومة، وعمليات قصف جوي، وسيارات ملغومة في بيروت، عندما فرضت اسرائيل الحصار على المدينة في عام ١٩٨٢.

واخيرا بدا ان الحجة المضادة هي التي انتصرت؛ من الافضل مواجهة الشيطان الذي تعرفه اسرائيل بدلا من زعماء منظمة التحرير الفلسطينية غير المعروفين، الذين يمكن ان يتولوا الامور اذا ما غاب عرفات، ويمكن ان يكون هنالك جيل جديد من قادة المقاتلين الذين قد يكونون اكثر

راديكالية وتعطشا للدماء ويصعب التنبؤ حولهم.

إن الحلّ الوسط الذي تم التوصل اليه بين النظريتين المتضاربتين قد عبّر عنه الجنرال جدعون ماشانايمي، نائب مستشار رئيس الوزراء حول مكافحة الارهاب، الذي وضع في عام ١٩٨٥ الفلسفة القائلة بأن زعماء الجماعات الارهابية الصغيرة فقط هم الاهداف المناسبة. ويمكن ان يكون صبري البنا، ابو نضال مثالا رئيسيا، حيث كان مسؤولا عن مئتين من اكثر الهجمات دموية ضد الاهداف المدنية الاسرائيلية واليهودية والبريطانية والاميركية في اكثر من عشرين بلدا. وقد تبنى الجنرال ماشانايمي ذلك الموقف في حالات منظمات صغيرة، يسيطر عليها رجل واحد فعندما يتم القضاء على زعيم المنظمة فانها تنتهي من الوجود، وعندئذ يحقق الاغتيال شيئا.

وكان نفس التحليل وراء محاولة اسرائيل بعد سنة، للقبض على طائرة محملة بالارهابيين الفلسطينيين، باعتراض طائرة نفاثة ليبية في طريقها الى دمشق، وقد علمت المخابرات الاسرائيلية ان عددا من قادة الجماعات المتطرفة، اكثر راديكالية من عرفات، قد اجتمعوا في قمة ارهابية في طرابلس، ليبيا يوم ٤ شباط ١٩٨٦، وكان من بينهم جورج حبش ونايف حواتمة واحمد جبريل وحتى ابو نضال، وبدعم من العقيد الليبي القذافي، خططوا ضد سياسات عرفات المعتدلة نسبيا وتعهدوا بتكثيف النضال ضد مؤامرات الصهيونية والاستعمار الاميركي.

عرفت الموساد وامان مكان وجود رؤساء المنظمات، وتلقوا اخبارية بدت دقيقة، من مخبرين، عن الطائرة التي سيستقلونها في طريق عودتهم الى سوريا. وعندما كانت الطائرة تمر مقابل السواحل الاسرائيلية، قامت اربع طائرات اف ١٦ باجبار الطائرة التابعة للخطوط الخليجية بالهبوط في مطار عسكري شمال اسرائيل، لكن عندما اقتيد الركاب خارج الطائرة وهم يرفعون ايديهم اكتشف رجال المخابرات الاسرائيلية انه لم يكن بينهم اي مطلوب: بل كانوا مسؤولين سوريين بمن فيهم مسؤول كبير في حزب البعث من المقربين للرئيس حافظ الاسد. وقد أفرجت اسرائيل عن الطائرة وجميع ركابها.

بعد شهرين سعى السوريون الى الانتقام عن طريق خطة كبيرة لنسف طائرة اسرائيلية، فقد قام أحد الجنرالات، العاملين في مخابرات سلاح الجو بتجنيد ارهابي فلسطيني غير مرتبط بأية منظمة اسمه نزار الهنداوي، وامره بأن يجد شخصا مغفلا ليحمل قنبلة قوية على متن احدى طائرات العال، فالتقى نزار بامرأة ايرلندية ساذجة في لندن، ووعدها بالزواج، بل أصبحت حاملا منه ثم اركبها كقنبلة بشرية على طائرة متوجهة الى تل ابيب. وكشف جهاز امن الطائرة قنبلة متطورة مخبأة داخل حقيبتها اليدوية، واعتقلت السلطات البريطانية الهنداوي وحكمت عليه بالسجن خمسا واربعين سنة.

هل كان يمكن تحقيق اي كسب دائم في عام ١٩٨٨ من قتل ابو جهاد؟ لقد كان معظم

الاسرائيليين مشوشين ومحبطين من الانتفاضة بشكل لم يكونوا معه قادرين على التفكير. لكن لقي مجتمع المخابرات والجنود الاسرائيليون الثناء والتقدير بشكل عام فقد تم ادراك ان الجيش والشين بيت قد تركا للتصدي للعنف اليومي للانتفاضة، فموت ابو جهاد لم يغيّر شيئا.

فالحقيقة ان الاحتجاجات ومحاولات الجنود لقمعها كانت بشعة خاصة بينما كان يجري دفن ابو جهاد في دمشق. فقد استغل الفلسطينيون المناسبة باحتجاجات ضخمة في الضفة الغربية وغزة وقتل الجنود الاسرائيليون خمسة آخرين برصاصهم في ذلك اليوم.

* * *

صدرت اسماء القتلى والجرحى في قوائم كشهداء وابطال في منشورات القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة، التي دعت الى اضرابات عامة واحتجاجات اخرى، واضافة الى العصي والحجارة، كانت هذه الكلمات مثار جنون رجال الشين بيت الذين لم يسبق لهم ان سمعوا مثل هذه اللغة، تستخدم في الحياة اليومية في الضفة الغربية وغزة.

وكانت تسمع رسائل مماثلة من اذاعة القدس التي لا يعرف من اين تبثّ اذاعتها، وقد اظهرت معدات كشف الاتجاه، التابعة لأمان ان المحطة موجودة في جنوب سوريا، وانها تدار، بموافقة جلية من دمشق، من قبل منظمة راديكالية منشقة عن منظمة التحرير الفلسطينية. وكان اللغز يتمثل في كيف يستطيع المذيعون ان يروا المنشورات بسرعة ويستشهدوا بها، اذا لم تكن هذه المنشورات صيغت في سوريا او الاردن وترسل عن طريق الفاكس أو التهريب الى الضفة الغربية بواسطة المسافرين الفلسطينيين الذين يجتازون الجسرين على نهر الاردن.

لقد عكست تدابير الشين المضادة حالة الاحباط التي تدفع الناس الى اتخاذ خطوات مثيرة، فقامت المخابرات الاسرائيلية بنشر منشوراتها المزورة الموقعة من قبل «القيادة الوطنية الموحدة» تدعو الى استمرار الثورة، لكن تغيّر تفاصيل الاضرابات التجارية التي ترمي الى اغلاق الدكاكين والمصانع. وكان الاسرائيليون - أملاً في محاربة المضايقات بالمضايقات - يبذرون الارتباك فيما يتعلق بموقع واوقات التوقف عن العمل في محاولة لخلق التوتر بين القيادة السرية والسكان.

كان في شوارع القرى الفلسطينية مجموعتان من المنشورات: التعليمات الحقيقية للانتفاضة، والادوات الخادعة للتشويش والتي توزعها الشين بيت، وقد دعت احدى هذه المنشورات في اوائل تموز ١٩٨٨ الى اضراب مستمر لاسبوع كامل، وهو اغلاق احتجاجي اطول من اي اغلاق سابق، وتبيّن ان ذلك خدعة، وكان الاسرائيليون يأملون في ان العرب غير الراغبين في التخلي عن سبيل معيشتهم طوال اسبوع سيفقدون الايمان في منظمي الانتفاضة.

لقد حاول العملاء الامنيون ان يقضوا على المنشورات، عن طريق مراقبة كل المطابع في

الضفة الغربية وغزة، وقد تم استجواب اثنين من الفلسطينيين اللذين وجد في شاحنتهما آلاف من المنشورات الدعائية.

وفي عملية دعائية منتصرة قامت الشين بيت بارسال الجيش ليغير على شركة الارز للطباعة في الضواحي العربية شرقي القدس، وتم القبض على المطبعة واربعة فلسطينيين، تم ابعاد ثلاثة منهم على الفور الى لبنان، وقام رؤساء الامن، بمشاعر الانتصار، بتسريب القصة للمراسلين الصحفيين الاسرائيليين، الذين قالوا في تلك الليلة انه تم توجيه ضربة قاسية للانتفاضة.

شعر بعض الاسرائيليين بأن من السخافة مراقبة واحد من اكثر جيوش العالم تطورا في العالم وهو يحشد قواته مع مجتمع المخابرات ذي الصيت العالي، ثم يحتفل بمجرد القبض على مطبعة قديمة!

وليس ذلك فقط، فقد استمرت المنشورات في الظهور، توجه مختلف مراحل الحملة المتزايدة للمقاومة، ففي تشرين الثاني ١٩٨٨ دعت الفلسطينيين للتدفق الى الشوارع للاحتفال باعلان دولة فلسطين ـ بقرار من المجلس الوطني الفلسطيني في الجزائر.

وقد أمل القادة الفلسطينيون بأنهم، بقرارهم، يستطيعون ان يقلدوا انفجار الفرح من جانب اليهود قبل واحد واربعين عاما، عندما قررت الامم المتحدة انشاء دولة اسرائيل، وكان العرب ايضا يريدون الرقص في الشوارع.

وقرر رؤساء الامن في اسرائيل منع اية احتفالات عامة، ووضعوا اولوية كبيرة لمنع الانفجارات الوطنية، فلجأت اسرائيل الى خطوات مثل قطع التيار الكهربائي عن كل الضفة الغربية وقطاع غزة. ولم يكن هذا عقوبة جماعية لمنع السكان المحليين من الحصول على ماء ساخن وطعام مطبوخ وملابس مكوية وضوء للقراءة. بل كان الهدف ببساطة لمنعهم من مشاهدة التلفزيون حتى لا يستطيعوا الاستمتاع بمشاهدة عرفات وسياسيين في منظمة التحرير الفلسطينية وهم يعلنون تشكيل دولتهم في الضفة الغربية وغزة.

فرض منع التجول في تلك الليلة، ووجد الجنود الاسرائيليون انفسهم يصطدمون مع الاطفال الذين كانوا يلوحون بالاعلام الفلسطينية، والذين كانوا يقذفون المفرقعات في الهواء، والذين حاولوا الرقص والغناء الى ان جاء الجنود لتفريق المبتهجين.

* * *

ان المنشورات التي وجهت كل هذه النشاطات كانت توزع، دون أية متاعب، مرة في الاسبوع تقريبا. وكانت مكتوبة على نحو جيد وتحمل بصمات دعم منظم للانتفاضة، وكانت النصوص توزع في اغلب الاحيان بواسطة اجهزة الفاكس حيث كان مقر منظمة التحرير

الفلسطينية في تونس يستخدم الهواتف والتكنولوجيا في القيام بدور كامل في ثورة الفاكس.

طوال اكثر من عقدين مضيا على الاحتلال، حاولت اسرائيل ان تشجع الفلسطينيين على تشكيل قيادتهم كبديل لمنظمة التحرير الفلسطينية المكروهة، وجرّب الاسرائيليون اساليب كثيرة، بما فيها خلق تنظيمات خائنة لوطنها تسمى «روابط القرى». وقد اخفق هؤلاء الزعماء في الضفة الغربية في القيادة وبعدئذ زعمت اسرائيل أن ليس هنالك من تتفاوض معه حول السلام.

خلق الفلسطينيون في الانتفاضة قيادتهم الوطنية الموحدة للثورة، مع ان سرّيتها جعلت من المستحيل الحكم عليها فيما اذا كانت تمثل كل السكان. وقد نجحت في البقاء سرية لكن بدا ان لها هيكلا تنظيميا يقوم على اللجان المحلية في مختلف المدن والقرى في الضفة الغربية وغزة. وكان هدفها ترسيخ رغبة الفلسطينيين تحت الاحتلال في تطوير مؤسسات بديلة لتلك التي يفرضها الاسرائيليون.

وحددت اللجان مهام معينة تشمل تنظيف الشوارع ومُحاربة الدعارة، ومكافحة المخدرات، بل قتل المتواطئين وواجهت الشين بيت المهمة الملحة المتمثلة في التسلل الى اللجان والقيادة الوطنية الموحدة، لكن الاسرائيليين لم يستطيعوا قمع الانتفاضة.

وفي محاولة لاصلاح الاضرار وتحقيق بعض التقدم، ابتكر مجتمع المخابرات أساليب جديدة بما فيها استخدام الوحدات العسكرية السرية فقام الجيش بتشكيل وحدات خاصة تضم جنودا يتحدثون العربية ويرتدون لباسا مدنيا، وارسلتهم الى الضفة الغربية وقطاع غزة ليمتزجوا بالفلسطينيين المحليين، تحت اسم «شمشون وشيري».

كان هذا تكرارا لمحاولات الجيش في اوائل السبعينات لمواجهة بادرة عنف في غزة، فذات يوم من صيف عام ١٩٧٠ وصل قارب صيد صغير يرفع علم لبنان الى شاطىء غزة، ونزل ستة اشخاص على الشاطىء واختفوا. ووجد الغزّيون المحليون على القارب صحفاً لبنانية وسجاير ومعلبات، فقام الجيش الاسرائيلي على الفور بارسال مجموعات من الجنود وطائرات هليكوبتر لمسح المنطقة، فيما بدت عملية بحث جدي ودقيق عن العرب الذين تسللوا من البحر، واستمرت الاتصالات وعمليات البحث الاسرائيلية طوال ثلاثة ايام، وبعد ذلك، وفي اجتماع ليلي سري مع قادة الثوار المحليين، اخرج الوافدون الجدد الستة بنادقهم وقتلوا الغزيين، ولم يكن القتلة الا من رجال الكوماندو الاسرائيليين في مهمة خاصة.

ان الاساليب التي استخدمت سابقا في غزة للتصدي للارهاب جعلت الصحفيين في عام ١٩٨٨ يعتقدون ان وحدات شمشون وشيري تحمل نفس التعليمات، وبناء على أقوال الفلسطينيين فقد ذكر المراسلون الاجانب في اسرائيل ان الجنود باللباس المدني كانوا يقتلون نشطاء الانتفاضة بدم بارد، لكن السلطات الاسرائيلية نفت تلك القصص.

مهما كانت الحقيقة حول وحدات شمشون وشيري، فما من شك في ان وحدات الجيش الخاصة كانت تنسق مع المخابرات الاسرائيلية واستخدمت اساليب غير مألوفة، فقد اتهمت شبكة ايه بي سي نيوز الشين بيت* بارسال عملاء انتحلوا طاقم تصوير للشبكة التلفزيونية للقبض على مشبوه فلسطيني اسمه نزار دادوق، وكانت الشين بيت تخشى من ان يهرب اذا شوهدت السلطات العسكرية المعروفة تدخل بلدة سلفيت في الضفة الغربية، على بعد عشرين ميلا شمالي القدس. وكان دادوق مطلوبا بتهمة القاء قنابل حارقة.

وحسبما روى شهود عيان فان اثنين من الاسرائيليين ادعيا انهما من شبكة ايه بي سي واقتربا من الشاب وقالا انهما يريدان مقابلته. فركب في سيارتهما التي كان عليها اشارة مكتوب عليها ايه بي سي نيوز، وفيما بعد تم اعلام اسرة دادوق انه معتقل. وكعقاب لجريمته المزعومة قام الجيش بهدم بيته بالجرافات.

ارسل مسؤول من موظفي الشبكة الاميركية تلكس الى رئيس الوزراء شامير قال فيه: لقد علمت ان قوات الامن في اسرائيل انتحلت صفة موظفي شبكة ايه بي سي نيوز من اجل اعتقال فلسطيني، ان شبكة ايه بي سي نيوز منزعجة جدا وتصرّ على اجراء تحقيق فوري للتأكد من الذي اجاز القيام بمثل هذا العمل.

كان الاسرائيليون السريون يقومون من حين الى آخر بمراقبة الاحداث، وهم يقودون سيارات عليها اشارة «صحافة اجنبية»، فقد كان المراسلون الاجانب يتمتعون بحرية الوصول الى القرى العربية في الضفة الغربية وغزة، خاصة ممثلي الاعلام الاميركي، الذين كان الاسرائيليون والفلسطينيون يتوددون اليهم. فقد كان كل طرف يريد الدعم والتعاطف من الولايات المتحدة.

في آب ١٩٨٩ تنكّر الجنود بصفة سياح، وكانوا يحملون آلات تصوير وحقائب نزهات مدنية، وفتحوا النار على مجموعة من الفلسطينيين كانوا يقذفون الحجارة في بيت لحم، وقتل عربي واحد.

وفي ايلول تنكر الجنود كنشطاء عرب في الانتفاضة يرتدون الكوفيات التي يضعها مؤيدو منظمة التحرير الفلسطينية، واقتحموا بيت رجل مطلوب في طولكرم، كان سبعة جنود يحملون فؤوسا وسكاكين حسبما ذكر شهود عيان، وعندما ايقن الفلسطيني المقصود انهم اسرائيليون قفز من شباك في الدور الثالث ليهرب، لكنه اصيب بكسور متعددة وبغيبوبة، وهو رهن الاعتقال.

خرج الجيش بأساليب جديدة لكنه واجه صعوبة في استبدال شبكة المخبرين التي تفسخت، فقد قتل كثير من هم على يد جيرانهم الذين كانوا يتجسسون عليهم. فلم يقبل سوى عدد ضئيل من الفلسطينيين بحمل بطاقة تعودات ميشاتيف بعولا: أي «بطاقة متعاون» وهي

بطاقة تسمح لحاملها باقتناء اسلحة وسيارات سريعة وجهاز اتصال لاسلكي ثنائي الاتجاه، لكن هذه البطاقة يمكن ان تكون تفويض موته.

استطاعت الشين بيت في السنوات الاولى بعد حرب ١٩٦٧ ان تقنع السكان المحليين بأن المخبرين الاسرائيليين في كل مكان. لكن في عام ١٩٩٠ بدا ان الاسرائيليين ليسوا في أي مكان.

لقد اجتذبت الانتفاضة اهتماما كبيرا ومتجددا بالقضية الفلسطينية، واكتشفت اسرائيل ان اجهزتها الامنية تتعرض لمراقبة عالمية، وحيث ان الثورة حملت مزايا ملمح دائم لسياسات الشرق الاوسط فقد اخذت تظهر كثير من الحقائق الخفية عن مجتمع المخابرات الاسرائيلية، حيث ان سنوات النجاحات الجلية وحكايات المجد التي كان يتم تسريبها عن عمد، قد اتصفت بفجوات من عدم النضج والغطرسة والوحشية والرضى الخادع عن النفس والاستراتيجية الخاطئة والتنافسات بين الوكالات. وقد ظهرت هذه الفجوات في الثمانينات بشكل غزير.

ان الشعب الاسرائيلي، واليهود في كل انحاء العالم، والمهتمين بأمن اسرائيل، اخذوا يتساءلون عن كفاءة مجتمع المخابرات وكانت تظهر حقائق مزعجة، مع فشل الرقابة الرسمية في اخفاء الجانب السلبي من القصة.

الفصل التاسع عشر

عالم بلا ثقة

كان مؤلفا هذا الكتاب في مقر الموساد في تل ابيب، ولم تتناول زيارتنا لذلك الجزء من المبنى الذي يضم واحدة من أهم وكالات المخابرات في العالم. فقد كنا في الجزء المجاور.

كنا نستطيع معرفة العنوان، ووصف المباني التي لم يكن عليها اية علامة، وكنا نستطيع، من خبرتنا، ان نعرف فيها اذا كان الموظفون وصلوا بواسطة المصعد او عن طريق صعود الدرج. بل كان بمقدورنا ان نقول ان معظم ضباط الموساد قد انتقلوا في عام ١٩٨٩ الى موقع خارج المدينة الساحلية، لكن إعطاء كثير من التفاصيل يمكن ان يكون تجاوزا للخط مما يؤدي الى احتمال الوقوع في انتهاكات للقانون الاسرائيلي.

لم يكن احد متأكدا تماما ازاء الخطر، مع ان الصحفيين في اسرائيل عادة ما يعرفون متى يجتازون المنطقة الرمادية الى نشاطات غير قانونية، والخدعة التي اكتشفها المراسلون الاجانب والمراسلون الاسرائيليون هي السير بمحاذاة المنطقة الرمادية دون تجاوز الجانب الاخر.

في حالتنا، نعلن بصدق ان المؤلف الذي يعيش خارج اسرائيل يعرف عناوين الموساد ومقر الشين بيت واسماء الرؤساء الحاليين من مصادر في واشنطن العاصمة، ويفترض بشكل عام ان اجهزة المخابرات في الاتحاد السوفياتي ومعظم الاقطار العربية تمتلك نفس المعلومات ـ مع اننا لم نخبرها.

ان كثيرا من الاسرائيليين المطلعين، وعلى الاخص السياسيين والصحفيين، يعرفون ايضا الاسماء السرية، وقد اصبحت نوعا من اللعبة، في الحفلات الانيقة، الدخول في احاديث مثل «قال لي رئيس الشين بيت امس. . او التقيت برئيس الموساد وقال لي. . » والذين لا يعرفون الهويات ليسوا من «المطلعين». .

احد الصحفيين الاسرائيليين، وقد رغب في التأثير على الصفوة بين مستمعيه بالقول بأنه يعرف ما تعرفه الشين بيت، لعب لعبة القطة والفأر مع اسم الرئيس الجديد للوكالة عام ١٩٨٨، الذي عيّن في نفس اليوم الذي أدين فيه موردخاي فعنونو. كانت النكتة الداخلية في العنوان الرئيسي حول مقالة عن رجل مباحث تلفزيوني اميركي، هو بيري ماسون: «ماذا سيلاحق بيري؟» وفي ضوء المجازفة بذكر اسم مدير الشين بيت فان التلويح اكثر وضوحا باللغة العبرية: اخري ما يعقوب بيري؟

مال الذي حققه الكاتب؟ لقد كان يلمح الى اسم يفترض انه سري ، لكنه كان يسير على الخط المأمون لسرية اسرائيل دون ان يعطي الرقيب سلاحا لضربه . وربما كان رئيس الشين بيت محظوظا لان العنوان الذكي ظهر في صحيفة قليلة التوزيع ، لكن ذلك لم يمنع اتصاله في اليوم التالي برئيسة التحرير ليسألها : لماذا فعلتم هذا بي؟

لقد اتصل رئيس المخابرات ، المجهول رسميا ، بالمحررة مباشرة لانه كان يعرف انه يستطيع ان يثق بها . فمحررو الصحف يعرفون الشخصيات المهمة حتى وان كانوا لا يستطيعون اخبار قرائهم بذلك .

لقد بدت الضجة سخيفة عندما احتفل مدير الشين بيت الذي لم يرد اسمه ، في شباط ١٩٨٩ بعيد ميلاده الخامس والاربعين ، وسط تعميم مضحك ، فقد اخبرت الصحف الاسرائيلية الشعب والعالم ان الرجل منفصل عن زوجته ، وان خليلته عضو بارز في المجتمع أقامت حفلة كبيرة مدهشة له بحضور سكرتيرات الشين بيت وموظفين آخرين .

اقيمت الاحتفالات في مقصف المتحف الاسرائيلي في القدس ، وكان من بين المااية وخمسين ضيفاً ، وزراء واعضاء كنيست وسيدات ورجال من الصحافة . وذكرت الصحف فيما بعد ان موظفي الشين بيت سكروا ، كما ان رئيسها المجهول عزف على بوقه معزوفة «وقت الصيف» ومقطوعات جاز اخرى ، وامتدت حفلته حتى الثالثة صباحا .

لم يحضر رئيس الوزراء شامير ، عميل الموساد السابق المتشدد ، لكن لونه تغيّر عندما سمع بالاحتفال الذي بولغ في التعميم عنه فقد كان شامير يعرف ان الروايات الصحفية منجم ذهب لوكالات المخابرات المعادية التي تسعى الى تجميع ملف عن رئيس الشين بيت . فاستدعاه رئيس الوزراء ثم سمح بتسريب تقارير عن توبيخه الى الصحافة .

لقد كان الحدث الذي بدا تافها مستنقعاً ، في العقود الاربعة من عمر وكالة الامن الداخلي . فقد انكشفت النشاطات الاخوية التي كانت فيما مضى سرية - من التعذيب الى التحامل الى الحفلات التي تمتد الى وقت متأخر من الليل . فقد كان يقال بلغة شبه مازحة انه في مواجهة جمهور من المحتفلين الذين يصرخون «مفاجأة» ، فان رؤساء الشين بيت يمكنهم ان يتصرفوا بشكل مختلف جداً : فقد كان يمكن ان يقوم أيسر هاريل بارسال رسائل ملغومة لهم . وكان يمكن ليوسف هارملين ان يصاب بصدمة ويخلد الى صمت مطبق . وكان يمكن ان يقوم افراهام اشيتوف بطردهم جميعا ، وكان يمكن ان يأمر افراهام شالوم بضربهم حتى الموت .

لقد كان لدعوة الصحفيين الى الوليمة نتائجها ، فاي صحفي له علاقة دافئة مع السلطات السرية في بلدة يمكن ان يطلب منه ذات يوم ان يقدم خدمة او اثنتين . فعملاء المخابرات يقومون ،

في المناسبات، بالاتصال بالصحفيين بشكل مباشر لحثهم على عدم متابعة امور قد تهدّد أمن اسرائيل. وعلى المراسل ان يقرر كيف يستجيب، لكن من الواضح ان من الافضل ان تكون هنالك علاقات مع المصادر العسكرية والمخابراتية في بلد صغير. فاذا فشلت التوسلات الشخصية فان المسؤولين يملكون قوة تنفيذية في شخص الرقيب.

ان الصحفيين والمحررين يتصرفون، في اغلب الاحيان، وفق القوانين، وهم يتلقون معلومات من رؤساء الوزراء، ووزراء الدفاع، وحتى من رؤساء الاجهزة السرية، فالسلطات تريد من الصحافة ان تفهم الحقائق الكامنة وراء القرارات الرسمية، لكنها تثق بانه لن يتم نشر حقائق معينة تتعلق بالامن الوطني. وهو نظام فريد وضع في عام ١٩٤٩.

كان يمكن لأول رئيس وزراء، دافيد بن غوريون، ان يبقي على انظمة الطوارىء التي كانت قائمة ايام الانتداب البريطاني لكبح الصحافة والحريات الاخرى، لكنه فضل لعب دور الديمقراطي، مع استخدام سلطات ما يسمى بالطوارىء عندما كان يشعر بان ذلك ضروري. وقد وجد بن غوريون ان محرري الصحف شركاء جيدون، يرغبون في الرقابة الذاتية، وقد وقعوا اتفاقية رسمية ـ ليست ذات قوة قانونية وانما سلطة بقاء قوية.

وفق اتفاقية ١٩٤٩، يعين رئيس هيئة الاركان ووزير الدفاع ضابطا عسكريا ذا خلفية مخابراتية في منصب كبير المراقبين، وهو برتبة قائد لواء، ويتبع للمكتب، الذي يعتبر رسميا جزءا من أمان، طاقم من سبعين ضابطا عسكريا وموظفا مدنيا يعملون في «قاعدتين» في تل ابيب والقدس.

وتنص الاتفاقية ايضا على ان تقوم الصحف والاذاعة والتلفزيون الاسرائيلية والمراسلون الاجانب في اسرائيل بالالتزام شرفياً بتقديم موادهم ومقالاتهم للرقيب، وهنا يقول قائد اللواء اسحق شاني، رئيس الرقابة منذ عام ١٩٧٧: ان واجب كل مراسل ان يقدم مادته للرقيب ومن لا يفعل ذلك يعتبر مجرماً.

ان الرجل الذي يشرف على النظام يعرف انه ملمح فريد بين الاقطار الديمقراطية. حيث ان اسرائيل هي الوحيدة التي لديها رقابة عسكرية مستمرة، وهو يتمتع بصلاحيات مماثلة للتي كان يتمتع بها سلفه البريطاني «صاحب المقص» في أيام الانتداب البريطاني، لكن هنالك اليوم تعاونا اكبر واكثر طواعية.

اذا كانت صحفهم ومحطاتهم الاذاعية اعضاء في «لجنة المحررين» فان من ينتهكون تعليمات الرقابة يمثلون امام لجنة خاصة يكون القضاة فيها صحفيين ومراقبين. ويمكن ان تفرض اللجنة غرامات او تصرّ على احتجاب الصحيفة او المجلة عن الصدور لفترة تأديبية.

ويستطيع الرقيب وموظفوه ان يأمروا باغلاق المطبوعة. وقد فعلوا ذلك مع صحف عبرية في عام ١٩٥٢، وفي فضيحة الشين بيت في عام ١٩٨٤، وتصدر اوامر الاغلاق بشكل اكثر تكرارا مع الصحف العربية في القدس والاراضي المحتلة وقد ازدادت منذ بدء الانتفاضة في عام ١٩٨٧.

هنالك لجنة استئناف، تتكون من ضابط كبير في الجيش، وصحفي، ومحام او سياسي بارز. وعلاوة على ذلك يمكن رفع الالتماسات الى المحكمة العليا في اسرائيل.

لم تتساءل المحاكم عن صلاحية الرقيب في مراقبة هواتف الصحفيين، خاصة المكالمات الخارجية التي يجريها المراسلون الاجانب، كما يستطيع المراقبون ان يقرأوا فحوى التلكسات لدى طباعتها لارسالها الى العالم الخارجي. ومع ان اتصالات الكمبيوتر المباشرة واجهزة الفاكس سببت مشاكل للمراقبين لبعض الوقت، الا انه تم تطوير طرق لاعتراض احدث الاشارات.

ان نطاق صلاحيات المراقب يتجاوز الاسرار العسكرية، التي تشمل مواصفات الوحدات العسكرية والرموز واسماء ضباط المخابرات وتحركات القوات ومواضيع حساسة مثل الاسلحة النووية. كما يمكن ان تشمل المواضيع التي تخضع للرقابة الهجرة الى اسرائيل، انشاء الطرق الجديدة، المستوطنات اليهودية في الاراضي المحتلة، امدادات الطاقة ومرافق تخزين النفط، والعلاقات التجارية والسياسية مع الاقطار التي لا تقيم علاقات دبلوماسية مع اسرائيل، وبكلمات اخرى: أي شيء يمكن ان يفسّر بانه تحصين الدولة بمفهومه الاوسع.

لقد تم تعديل اتفاقية عام ١٩٤٩ في ثلاث مناسبات، ضيقت كل مرة قائمة المواضيع الخاضعة للرقابة، لكن القائمة تظل طويلة وتشمل تسعة وستين موضوعا.

ماذا تأخذ الصحافة مقابل ذلك؟ المعقولية. فالمحررون والمراسلون يستطيعون التفاوض مع الرقيب، واعادة فقرات مثيرة للجدل اذا صيغت بشكل مختلف. فالمراقب يتصرف عادة بشكل معقول، لا يتجاوز سلطاته وعندما لا يتعرض لضغط سياسي كبير، فانه يغضّ الطرف عن امور عسكرية حقيقية. لكنه في بعض الاحيان يتعرض للضغط حتى لا يدسّ أنفه في قضايا أخرى، كمراقب سياسي، فقد وجد السياسيون المتقاعدون أن مذكراتهم قد حذف منها، ربما لتجنب مضايقة الحكومة والمسؤولين العسكريين.

وقد تم العثور على معبر عبر حقل الالغام هذا، وفي أغلب الاحيان يعرف المشاركون في اللعبة اين يقفون، فهنالك اتفاق ضمني على ان مقالات عن انشاء طريق خارجي واسع وعن الاقتصاد لا يتوجب تقديمها الى الرقيب بشكل مسبق الا اذا مسّت امورا حساسة مثل مجتمع المخابرات.

واذا اراد مراسل اسرائيلي او اجنبي ان يسمّي رؤساء الاجهزة السرية او ايراد عناوينهم في رسالة صحفية فان من المفترض انه يعرف ان النسخة تذهب اولا الى الرقيب العسكري. وعندئذ يتم حذف الحقائق العسكرية. اذن لماذا يكتبها في المقام الاول؟ ان تهديد الرقابة يصبح في اغلب الاحيان رقابة ذاتية.

وبنفس المقولة، عندما يشعر المراسلون والمحررون انهم يستطيعون ان ينفدوا بانتهاك فني للرقابة، فانهم قد يجازفون، ومثال ذلك، فان صحفيا اسرائيليا يعمل لصحيفة اميركية، كشف ان رئيس الشين بيت كان في ذلك الوقت افراهام اشيتوف، وكان هدف الصحفي اخبار العالم ان رئيس الجهاز السري قد اصطدم مع رئيس الوزراء بيغن حول السياسة الامنية المتعلقة بمستوطني الضفة الغربية وتورطهم في عمليات زرع القنابل ضد الفلسطينيين. واوصى كبير المراقبين بتقديم المراسل الى المحاكمة، لكن المدعي العام قرر عدم ملاحقة المتهم.

وفعل الرقيب ما هو أقل من ذلك في ظروف مماثلة في عام ١٩٨٦، عندما كشفت شبكة تلفزيون اميركية ان افراهام شالوم، كرئيس للشين بيت، يخضع للتحقيق حول مقتل خاطفي الباص الفلسطينيين.

ان النظام الاسرائيلي يصل بين الحين والاخر الى درجة السخافة عندما يمنع الصحفيين المحليين من نشر حقائق معينة حتى وان كانت الصحافة الاجنبية التي لا تطالها يد الرقيب تنشر القصة الكاملة. وكانت فضائح المخابرات في الثمانينات امثلة صارخة، عندما لم يسمح للصحف الاسرائيلية إلا بالاستشهاد بقصص نشرت في المطبوعات الاجنبية، بينما كانت المعلومات قد صدرت في الاصل من مصادر اسرائيلية كان يفترض بالرقيب ان يلجم ألسنتها.

لقد تنبأت الصحف في اميركا، في الاسابيع التي سبقت تقاعد ناحوم ادموني من منصب رئيس الموساد في اذار ١٩٨٩، بانه سيتم استبداله بعد حوالي سبع سنوات كرئيس للوكالة وخدمة ثمان وعشرين سنة في جهاز الموساد وعلى المدى القصير على الاقل فان حقيقة استبدال ادموني بنائبه - واسم الرئيس الجديد للموساد - قد ظلت سرّاً.

ان مؤلفي هذا الكتاب لن يخرقا الحظر الكلي للرقيب كما فعل بعض الاسرائيليين عندما سرّبوا هوية ادموني للصانداي تايمز البريطانية خلال ايام من ترقيته في ايلول ١٩٨٢، وعلى الاقل، فان شخصا «سابقا» في المخابرات، لم يتفق مع اختيار رئيس الوزراء بيغن، قد ذكر اسم الرئيس الجديد على الهاتف مع لندن. وقد كان مجرّد حظ ان الصحفي لم يستطع سماع الحروف بوضوح ونشر الاسم ناحوم ادنوني.

ان الاستشهاد، بل واعادة نشر صفحات كاملة عن الصحف الناطقة بالانجليزية او الفرنسية او اللغات الاجنبية الاخرى قد حدث على نطاق كبير حتى ان احد المحررين قال انه ربما يستطيع ان يطرد كل مراسليه ويستبدلهم بمترجمين.

يبدو ان الرقيب والسلطات الاسرائيلية الاخرى تشعر ان صحف اسرائيل نوع من الناطق الرسمي، وكأنها اذا صدر أي شيء في مطبوعة اسرائيلية فانه سيعتبر في الخارج ذا صفة رسمية اكثر، لذلك فان الصحف الاسرائيلية تستطيع ان تسبب ضررا أكبر.

يشك الرقيب في ان الصحف الاسرائيلية تعتبر مستقلة تماما، وحتى اذا ارتكبت الصحف المحلية اغلاطا وطبعت تقارير غير دقيقة فان السلطات تخشى من ان تعتبر الاخطاء او الاستشهادات الخاطئة على انها حقائق، واذا كان الامر ذا علاقة بالجيش او المخابرات فان من الافضل ان تتحدث وسائل الاعلام بالشيء القليل او لا تتحدث ابدا.

يصرّ الجنرال شاني على انه لا يتدخل الا اذا تم كشف الاسرار، وهو يقول: مع مرور الزمن، وفي ضوء الحقائق، فان اسرائيل اخذت تخفف قبضة رقابتها الصارمة، فقد اضحت الرقابة اكثر منطقية ومعقولية، تتعامل مع القضايا التي تؤثر فقط على امن الدولة بشكل مباشر.

ويضيف «عندما لا يكون الصحفيون دقيقين، او حين يبالغون او حين يصلون في سياق ما يسمونه بالتحليل او التعليق الى نتائج قد تسلط الاضواء فانني لا اقبل هذا، لكن ليس من مهمتي ان أتدخل.»

ان النظام كله مثير للجدل، في بلد يتباهى بانه الديمقراطية الوحيدة في الشرق الاوسط، ويتم تقديم سببين رئيسيين للحفاظ على السرية التي تتمشى يدا بيد مع الرقابة الاسرائيلية، واحدهما غامض اما الآخر فهو عملي.

في عادة اخذت من البريطانيين، الذين لم ينشروا الاسماء الصحيحة للوكالتين السريتين المعروفتين بالرموز ام آي ٥، وام آي ٦، او هويات رؤساء الاجهزة الامنية، فان الاسرائيليين يبسطون ستارا من الغموض المماثل حول مجتمع مخابراتهم، فمجتمع المخابرات يعتقد ان الناس في اسرائيل يرتاحون في نومهم في الليل وهم يعرفون انهم «محميّون» وليس لانهم يعرفون من يحميهم وكيف.

انها عادة متأصلة في عالم التجسس ـ تستند الى الملاءمة والتقليد ـ عدم قول اي شيء، عندما يمكن الحفاظ على الصمت، وهنا يقول مخضرم الجهاز السري، رافي ايتان: ان افضل م يستطيع رجل المخابرات ان يفعله هو ان يظل بعيدا عن وسائل الاعلام .

إلا ان ايتان، عندما وجد ان وسائل الاعلام تخدم مصالحه في فضيحة لاكام وبولارد فقد اجرى مقابلات واخذ يعطي المعلومات بلا تمييز.

وفيما يتعلق بالسبب العلمي فان المسؤولين العسكريين يقولون ان كثيرا من الجماعات الارهابية الصغيرة ـ سواء فلسطينية او ماركسية او مجرد فوضوية ـ يمكن ان تستفيد من التفاصيل التي قد تبدو لا قيمة لها، فاذا استطاع مثل هؤلاء الارهابيين انْ يحصلوا ببساطة على اسماء وعناوين عملاء ووكالات المخابرات، فانهم سيصبحون اهدافاً محتملة للهجوم، ويعترف المسؤولون بأن السوريين والروس وربما منظمة التحرير الفلسطينية يعرفون كل شيء يريدون معرفته عن رئيس الموساد ومقرّها، لكن ليس هنالك ما يدعو الى ان يعرف كل مشاغب في العالم.

ان الحجة الغامضة ـ الصمت من اجل الصمت ـ تلقى معارضة، ففي روح الانفتاح الحكومي ما بعد ووترغيت والتي انتشرت من الولايات المتحدة الى ديمقراطيات غربية اخرى، تلاشى الايمان الاعمى الذي كان يحمله المواطنون ازاء حكوماتهم ومؤسساتهم الدفاعية. فهنالك مطالب متزايدة بان يكون السياسيون والموظفون المدنيون والعسكريون ووكالات المخابرات مسؤولين امام الشعب.

لكن اسرائيل تختلف عن الولايات المتحدة في شكل حكمها، حيث ان كل السلطة التنفيذية تقع بين يدي مجلس الوزراء الذي يشكله رئيس الوزراء، الذي تستند سلطته الى الاغلبية التي يتمتع بها في البرلمان. الامر الذي يعكس النتيجة الحزبية المتعددة للانتخابات الاخيرة. وهنا تتم الرقابة والتوازنات بشكل يختلف عمّا هو الحال في واشنطن.

من منطلق الحسد للجلسات المنتظمة التي تعقدها لجان الكونغرس الاميركي حول مواضيع تتراوح من ميزانية الدفاع الى مؤامرات الاغتيالات التي تحيكها السي آي ايه، فان الديمقراطيين المتحمسين في الكنيست الاسرائيلي يتمنون ان تكون لهم القوة لتثبيت او الاعتراض على المرشحين لادارة الموساد والشين بيت.

انهم غير راضين عن حقيقة ان لجنة الدفاع والشؤون الخارجية التابعة للكنيست لها لجنة فرعية من ستة اعضاء تعرف باسم «لجنة الخدمات»، والتي يفترض فيها انها تشرف على الوكالات الامنية. ومع ان رؤساء الوكالات او نوابهم يظهرون امام هذه اللجنة الصغيرة فان التوجهات التحقيقية لاعضائها تتلاشى عادة عندما يستمعون الى التفاصيل المثيرة للعمليات السرية كما ان اللجنة قد تلقت «رشوة» بالاثارة التي تسببها «المعلومات الداخلية». ان اللجنة الفرعية لا تملك اية صلاحيات، فيما عدا استخدام آذانها للاستماع، وقد شكا بعض الاعضاء من أن وكالات المخابرات التي يفترض ان تعطيهم معلومات، تتجاوزهم وتسرّب القصص للصحفيين الاجانب حين يعتقد اسيادها ان ذلك يفيد صورة اسرائيل.

ما الاذى الذي يمكن ان يلحق باسرائيل لو كان مسؤولو المخابرات مسؤولين امام البرلمان؟ يرد مؤيدو الترتيب الحالي بالقول ان اعضاء الكنيست يسربون المعلومات ليـل نهار، ولا يمكن مشاركة اية لجنة كبيرة من الكنيست بالاسرار، كما يقول مؤيدو الوضع القائم ان رئيس الوزراء، في نظام برلماني، مسؤول عن وزارته باسرها، وعليه ان يتحمل المسؤولية اذا ارتكبت الموساد او الشين بيت عملاً غير مقبول وعلى رئيس الوزراء ان يستقيل اذا دعت الضرورة.

لكن تطورت في اسرائيل عادة جديرة بالذكر بين الوزراء: عدم تحمل المسؤولية.

ان آلية الرقابة الوحيدة المتبقية هي موظف مدني بلا حول ولا قوة ـ مراقب الدولة، وهو في العادة قـاض حكيم ومسن ومتقاعد ـ مسؤول عن الاشراف على وكالات المخابرات، وعن كل المكاتب الحكومية. لكنها تشترك في شيء واحد: تتجاهل تقاريره المليئة باللغة والاحصائيـات المكثفة التي تطوق الحقائق الصعبة عن تبديد الموارد وسرقة المواد والفساد حيثما وجدت.

وعند النظر الى نشاطات وكالات المخابرات يستطيع مراقب الدولة ان يصل الى حسابات الانفاق وميزانيات الموساد والشين بيت، لكن دون ان يعـرف العمليات السـرية التي أوجبت النفقات. فهو لا يستطيع ان ينتقد اي شيء، وليس أمامه خيار كبير سوى قبول التفسيرات التي يقدمها رؤساء الاجهزة السرية.

حتى عندما تحتاج الوكالات الى عدة ملايين من الدولارات زيادة على المبالغ المخصصة فانها تستطيع ان تتصل بلجنة الميزانية التابعة للكنيست بتفسير لا يزيد عن «انها من أجل مهمة حيوية» ويتم منح الاموال الاضافية دائما.

ان اسرائيل في حالة حرب دائمة تقريبا، وهي كذلك منذ مولدها في عام ١٩٤٨، فهي محاطة بدول معادية وتهديد ارهابي مستمر، لذلك لا بدّ من ان تختلف قواعد الدفاع والمخابرات عن تلك المطبقة في اميركا او في اقطار أخرى. فمن الافضل الحفاظ على اسرار كثيرة لان اي خطأ او فجوة امنية يمكن ان تكلف ارواحا في اسرائيل.

ان الرقابة امر مفهوم عندما تتعلق بالمعارك خلال نشوبها ومهمات مكافحة الارهاب حين تكون القوات في حالة عمل، وتفاصيل الوسائل الامنية بما فيها اسماء عملاء المخابرات والمخبرين الذين يمكن ان تتعرض حياتهم للخطر. لكن هذه الحجج لا تصمد الا عندما لا تتابع الى درجة مبالغ بها.

يبدو أمرا مضحكا ان اسرائيل لا تثّبت شيئا سوى اجهزة مخابراتها، مع ان هنالك ما يمكن ان تفاخر به، فقد احتاج المؤلفان عدة ايام حتى يحصلا على اجابة دقيقة من مكتب رئيس الوزراء لدى السؤال عن اسم الموساد الكامل والمحدد.

كنا نريد الاسم الحقيقي، كما يستخدم من قبل الموساد في مراسلاته باللغة الانجليزية، ومع اننا نعّرف ان الوكالة غير معتادة على كتابة رسائل رسمية بشكل كبير، الا انه في ضوء علاقاتها مع وكالات التجسس الاجنبية، فلا بد ان للموساد اسماً تضعه على رأس اوراقها المروسة والذي تشير به الى نفسها.

ردّ المسؤولون على استفسارنا باسماء مختلفة، وقد تلقينا نصيحة بان نطلع على التقرير السنوي لمراقب الدولة، لكن لا يتم نشر اية تفاصيل عن ميزانيات المخابرات، وعلى أية حال فان التقرير باللغة العبرية ويمكن ان يكون لاسماء الوكالات ترجمات مختلفة.

واخيرا عاد الناطق الصحفي باسم رئيس الوزراء باجابة وتفسير: لقد احتجت الى وقت طويل لمعرفته، وقد تحدثت مع رئيس الموساد، الذي كان متشككا جدا ولم يفهم لماذا كنت اطالب بمعرفته، لكنني حصلت عليه، وهذا هو الاسم .

وهمس قائلا: «جهاز المخابرات السرية الاسرائيلية، «اي اس اي اس» وحروف اي اس اي اس هي الظل الشاحب على النمط البريطاني ـ للاجانب الرسميين فقط ـ للاسم الاسطوري للموساد او مركز المخابرات والمهمات الخاصة.

ان السؤال عن المدير الحالي للموساد أسهل بعض الشيء لان الناطق الرسمي باسم رئيس الوزراء سيقول ببساطة: انت تعرف انني لا استطيع ان اخبرك بذلك».

قد يبدو هذا أمرا مضحكا عندما يعرف رؤساء الاجهزة السرية الاجنبية الاسم، وعندما يعتقد كثير من موظفي الموساد والشين بيت السابقين ان ليس هنالك اي ضرر من كشف رؤساء الوكالات وعندما يكون مسموحا بنشر اسم قائد اهم وكالة لدفاع اسرائيل ـ امان.

ان الفريق الاكثر اهتماما والذي يظل جاهلاً، هو الشعب الاسرائيلي، دافعو الضرائب الذين يسددون الفواتير، وقد اقترح بعض المخضرمين اقامة مكتب صحفي، على الاقل بالنسبة للشين بيت، لأنها أقرب ما تكون الى مكتب شرطة، مع شيء من السرية.

عندما يسأل الصحفيون فيما اذا كانت الموساد مسؤولة عن بعض المغامرات او العمليات في اماكن أخرى من العالم، فقد تختلف الردود الرسمية ويكون الردّ عادة على شكل «لا تعليق»، لكن المتحدثون الرسميون سيقولون في اغلب الاحيان: «لاهام دام» والتي تعني: لم تحدث مثل هذه الامور ابدا.

لقد أظهرت التجربة الطويلة ان هذه الاجابات لم يكن لها اية قيمة، فاذا تحدثنا بصراحة نقول بان المسؤولين الاسرائيليين يكذبون في اغلب الاحيان، ومن الصعب ان نصدق اي شيء في

الشرق الاوسط، وهو عالم بلا ثقة، وحين يتعلق الامر بالحياة والموت والسياسات المهمـة فان المسؤولين يدافعون عن حقهم في الكذب. كما ان الصحفيين يشيرون الى التزامهم بمواصلة طرح الاسئلة.

تبـرز المشكلات عنـدما يسيء المسؤولـون استغلال صـلاحياتهم ويتجـاهلون الرقيب، لتسريب تفسير مقبول عن احداث مزعجة.

وعندما اراد القادة الاسرائيليون ان يعطوا رؤيتهم لفضيحة جوناثان بولارد التجسسية، لتهدئة الشعب الاميركي الغاضب والمتألم فقد كشفوا القصة باكملها بطريقة غير مباشرة ـ أو جزءا منها ـ لصحيفة اميركية كبيرة في تشرين الثاني ١٩٨٥، بل قالوا للمراسل، من خلال مساعديهم، انه غير مضطر لتقديم مقالته للرقابة، فكل شيء يمكن نشره.

بعد ان تم تهريب الخائن الذري موردخاي فعنونو من انجلترا، قام المسؤولون في تشرين الاول بتسريب عدة روايات ترمي الى التاكيد على انه لم يختطف من الاراضي البريطانية، لكن التفاصيل الحقيقية لعملية الموساد التي جـاءت بفعنونـو الى المحاكمـة في اسرائيـل ظلت غامضة، فقد كانت قضية كشف بوصة واحدة من أصل ياردة، أما الرقيب الذي كان يعـرف رغبات سادته السياسيين فلم يتخذ اي اجراء رغم هذه الانتهاكات الواضحة للانظمة.

لقد غضب المراقب جدا وعاقب المراسلين الاجانب الذين تلقوا في نيسان ١٩٨٨ رواية مسرّبة عن قتل ابو جهاد في تونس، وقد تظاهر مسؤولون مثل رئيس الوزراء بيغن، الذي زعم لزملائه بانه سمع بالخبر من الاذاعة، بالجهل. لكن آخرين في السلطة الذين كانوا يعرفون ان واحدا من اهداف القتل هو تخويف العدو الفلسـطيني، اختاروا وسـائلهم: مراسلين لشبكـة تلفزيونية اميركية وصحيفة اميركية بارزة، فنشروا القصة كما يجب، ثم فوجئوا عندما جردهم المكتب الصحفي الحكومي من اوراق اعتماده كمراسلين اجانب.

يبدو ان احد اذرع الحكومة جاهل بما يفعله الاخرون، وعلى الصحفيين في اسرائيل ان يتعايشوا مع عدم معرفة متى وماذا يستطيعون ان ينشروا. وينطبق الشيء ذاته على مجال المذكرات الشخصية، فالطبيعة المحفوفة بالمخاطر للسرية والرقابة تفرز قواعد مختلفة لحالات مختلفة واناس مختلفين.

ان على مخضرمي الاجهزة السرية ان يتعايشوا مع اختلافات حكم الرقيب، وان يخّمنوا متى يكون الجو مناسبا لكشف المعلومات. وقد ضيع عدد منهم وقته في كتابة الكتب التي رفض المراقب بعدها ان يجيز نشرها، لكن الميمونه السابق ايسر هاريل مؤلف كثير الانتاج، ويبدو انه يعرف، دون أن يسأل، كم يستطيع ان يكشف عن عمليات المخابرات مثل خطف ايخمان.

وحتى يتجاوز بعض المخضرمين سلطات الرقابة، فانهم يحولون معرفتهم الفعلية الى خيال مفرط، فاندفاعهم الى الكتابة ينتج الروايات، ومع ان هذه تكون تدوينا لسيرة ذاتية في بعض الاحيان فان نشر حقائق غير محددة يعني عدم وجود اية مشكلة مع الرقيب، وعدم انتهاك للتعهد بالحفاظ على السرية مدى الحياة، والذي يوقعه كل موظف مخابرات.

ان اسرائيليين اخرين، ممن تركوا الوكالات السرية او الوحدات العسكرية الخاصة يكشفون اسرارا دون نشر كلمة، ويمكن العثور عليهم في كل انحاء العالم، يشاركون اجانب، يدفعون لهم ثمن خبراتهم في الدفاع والامن في اسرائيل. فالمستشارون حصلوا على معارفهم خلال العمل للحكومة الاسرائيلية، وهم بواسطة العمل او تعليم الاخرين كيف يعملون، يكشفون من الاسرار قدر ما يكشفه شخص اخر من خلال الكلمة المكتوبة.

ان نظام الرقابة لا يستهدف الا الكلمة المطبوعة او المذاعة، لكن اعداء اسرائيل ـ اجهزة المخابرات العربية والاخرى ـ تتابع عن كثب المصادر العلنية والسرية والشخصية، ومع ان قدرا كبيرا من المعلومات في عالم التجسس الحديث يجيء من مادة متاحة بشكل علني، إلا أن المعلومات التي يتم الحصول عليها سرّا او بطريقة غير مباشرة مهمة أيضا وينبغي جعلها هدفا، ويبدو عمل الرقيب الاسرائيلي مبنيا على الفكرة القائلة بان شخصا يفقد قطعة عملة في زقاق مظلم لن يفتش إلا حيث يسطع نور الشارع.

تحاول اسرائيل ان توقف تدفق المواد الاخبارية في وسائل الاعلام، بينما تغض الطرف عن سيل المعلومات الذي يصدر من موظفين سابقين، واذا كانت اسرائيل حريصة على وقف تسرب المعلومات المهمة فلماذا لا يهتم الرقيب الا بالمطبوعات؟ وماذا عن نشاطات المرتزقة والخبراء العاملين لحسابهم، والناس الاخرين الذين يملكون الاسرار.

ربما تكون القضية قضية ملاءمة، فمن الاسهل تعقب وسائل الاعلام العلنية من التجسس على ما يفعله الجواسيس السابقون، وعليك ايضا ان تفكر في ان الناس المعنيين هم اعضاء سابقون في «اسرة» الدفاع والامن، وبالتحديد فان هنالك نفس النوع من «الاولاد القدامى» الذين ما يزالون يتخذون القرارات، وفي الحقيقة، فان الفريق الموجود الان في الحكم قد يتوقع ان يكون في المستقبل من الخبراء.

لقد وقع اسوأ الضرر من قبل المسؤولين الذين كانوا ما يزالون يخدمون في الحكومة، حيث ان تصريح وزير الخارجية موشي دايان في عام ١٩٧٨ الذي أكّد العلاقة السرية مع اثيوبيا قد ألحق ضرراً اكبر من الذي الحقه جبل الحبر والجمل البسيطة التي الغاها الجيش الصغير من العاملين الذين تستخدمهم الرقابة العسكرية، وعندما كشف مسؤول في الوكالة اليهودية الهجرة السرية لليهود الاثيوبيين في عام ١٩٨٥ فانه حطم ارواحا اكثر مما حطم اي صحفي في تاريخ اسرائيل.

ان المراسلين الاخباريين أقل خطرا، لكنهم اكثر قابلية للمحاسبة فقد تتم معاقبة رجال الاعلام ونسائه بعدد من العقوبات بما فيها السجن، بينما السياسيون والمسؤولون الاخرون ينفدون بهفواتهم اللفظية.

وفي سياق القضاء فان السلطات الاسرائيلية تحتفظ بحقها في اختيار الامور التي تطالب فيها بالسرية المطلقة او السماح بكشف المعلومات، فمحاكمات التجسس التي تشمل اسرائيليين او اجانب ممن تجسسوا على اسرائيل تجري بسرية مطلقة تقريبا، بل ان اسم المتهم يحظر نشره، فقد وقف اكثر من «السيدس» أمام المحكمة في القدس أو تل ابيب.

لقد تمت محاكمة موردخاي كيدار، وآفري ال ـ آد، وزيف افني وماركوس كلينبرغ في سرية كاملة وتم الحكم عليهم بالسجن تحت اسماء مجهولة. اما في حالتي موردخاي فعنونو وشابتاي كالمانوفيش فقد تم الاعلان رسميا انهما متهمان بجرائم خطرة لكن لم يسمح لأحد بحضور محاكمتهما.

انه نظام احتكاري تستطيع السلطات فيه ان تستخدم صلاحياتها، وليس بالضرورة لحماية الاسرار المتعلقة بالدفاع الوطني بل لابقاء الاخفاقات المزعجة مخفية. وكان ذلك هو الدافع وراء اختفاء الجواسيس والسجناء الاخرين مثلما حدث مع بيتر بوهلمان.

كان بوهلمان يهوديا المانيا، مهندساً جنده «مكتب الاعلام المركزي» في المانيا الشرقية حيث تزوج فتاة اسرائيلية وانتقلا الى تل ابيب. وفي تشرين الثاني ١٩٧١، وظفته «صناعة الطائرات الاسرائيلية» ليعمل في مجال الديناميكا الهوائية، حيث أظهر مهارة واحترافا الى ان اعتقلته الشين بيت بعد بضعة شهور بتهمة التجسس.

كجاسوس الماني شرقي، تسلل بوهلمان الى واحدة من أهم الصناعات الدفاعية في اسرائيل، وقد حوكم بسرية بالغة ثم حكم عليه بالسجن خمس عشرة سنة، ولم يتم نشر اي شيء عن اعتقاله او التهم الموجهة ضده، او محاكمته او مصيره. وافرج عنه في عام ١٩٨٢ حيث نشرت وكالة انباء اسرائيلية خبرا صغيرا عنه.

كيف يمكن لديمقراطية ذات صحافة حرة وحقوق مدنية كاملة، ان تعيش مع مثل هذه السرية والصمت؟ ان وكالات المخابرات، والرقيب العسكري والحكومة والنظام القضائي، تسير على حبل مشدود بين حماية الامن الوطني والحفاظ على سيادة القانون، لكن المخاطر الكافية كبيرة: اذا اختفى الناس، مواطنون اسرائيليون او أجانب، دون اعلام اسرهم في بعض الاحيان فان هنالك امكانية لانتهاك حقوق الناس من مختلف الاتجاهات.

هنالك مؤشرات على ان الوكالات الحكومية تطالب بصلاحيات اوسع وتحاول ان تنتقص

من الحقوق المدنية، وقد وافق القانون على قانون التصنت السري، في عام ١٩٧٩ وعدّله عدة مرات ليقيم اول نظام تصنت من قبل الوكالات الحكومية. وقد أعطي التصريح للشرطة والشين بيت وأمان لزرع سماعات واعتراض المكالمات الهاتفية كما تستدعي الحاجة.

تستخدم الشرطة مثل هذه الادوات للقبض على المعتدين وحلّ الجرائم، بأمر من قاض كبير. ولا يستطيع سوى واحد من كبار قادة الشرطة ان يطلب هذا الأمر.

وتجد السلطات الامنية الامور أسهل، حيث يطلب منها تأمين موافقة الوزير المسؤول عنها، فرئيس الوزراء في حالة الشين بيت، او وزير الدفاع بالنسبة لأمان، يستطيع ان يعطي تصريحا مكتوبا. لكن القانون يضيف انه اذا احتاجت الوكالة السرية التصنت بلا تأخير، فان رئيس الشين بيت نفسه يستطيع ان يوافق على تصنت لمدة ثمان واربعين ساعة دون موافقة عليا.

لقد طلبت الموساد صلاحيات مماثلة لكن اللجنة التشريعية رفضت لأن الوكالة لا يفترض فيها ان تعمل على صعيد داخلي.

لقد اصبح الخط الفاصل بين المتطلبات الامنية والقيم المحلية غامضا في اواخر عام ١٩٨٩، فقد اتهم رئيس الوزراء شامير في كانون الاول وزير العلوم عازر وايزمن بالتعامل سرّا مع منظمة التحرير الفلسطينية فلم يقم فقط بانتهاك سياسة الحكومة والقوانين بل خان اسرائيل وذهل وايزمن الذي كان قائدا سابقا لسلاح الجو ووزيرا للدفاع، خاصة عندما دعم شامير اتهاماته بمعلومات سرية.

فقد تم اعلام رئيس الوزراء، من خلال سلطته على الشين بيت والموساد، بان احد وزرائه على اتصال مع مسؤولين من منظمة التحرير الفلسطينية، ويبدو انهم زودوا شامير بنصوص عن اجتماع عقده وايزمن في جنيف في تموز مع دبلوماسي فلسطيني، ومحادثات هاتفية بين بيت الوزير ومقر منظمة التحرير الفلسطينية في تونس، وقد دافع وايزمن عن المفاوضات مع الفلسطينيين وكان ينصح منظمة التحرير الفلسطينية بقبول الوساطة الاميركية.

راقبت المخابرات الاسرائيلية المكالمة الهاتفية الواردة من قطر عربي، خاصة من مقرّ عرفات، ولم يكن هذا مدهشا او نصرا تكنولوجيا بسيطا، لكن هاتف وزير كان معينا لذلك كان الامر حساسا.

والأهم من ذلك ان جواسيس اسرائيل وضعوا ايديهم على تسجيل كلمة كلمة لما كان يفعله واحد من كبار مسؤولي منظمة التحرير الفلسطينية في اوروبا، ومن الواضح انه كان للمخابرات الاسرائيلية مصدر قيّم قرب أعلى الرتب في منظمة التحرير الفلسطينية.

هل كان لا بدّ لشامير ان يعلن عن المادة التي وفرها له رؤساء وكالات التجسس؟ حتى يبرز

رفضه القاطع للتعامل مع منظمة التحرير الفلسطينية ولدعم اتهاماته، اعلن رئيس الوزراء ان لديه أدّلة من الوكالات الامنية، ولمصلحة اهدافه السياسية خرق شامير محظوراً تقليديا وعرض طرق جمع المعلومات للخطر.

وبقراءة الصحف الاسرائيلية ادرك رجال امن منظمة التحرير الفلسطينية ان المنظمة قد اخترقت، مثلما ان رئيس وزراء اسرائيل قد جرّ الشين بيت، للمرة الاولى منذ ايام بن غوريون، الى الموقف المزعج الذي استخدمت من خلاله في معركة سياسية.

لقد قوت قضية وايزمن الانطباع بان النظام يحتاج الى اصلاح للحيلولة دون استغلال مجتمع المخابرات لغايات حزبية.

كيف يستطيع الشعب ان يشعر بالثقة بان السياسيين والجنرالات والعملاء السريين خاصة بعد كشف بعضهم وقد كذبوا أمام رؤسائهم وحكومتهم، سوف يتمسكون بتفسير صارم للقانون حول التصنت؟ ان الجواب هو انه لن يكون مثل هذه الثقة، فهنالك حاجة الى تنظيم افضل، دون مناطق غامضة حول هوامش الشرعية، فالاعتماد على النوايا الطيبة يترك الباب مفتوحا أمام النوايا السيئة.

وشبيها بذلك فان الديمقراطية لا تستطيع ان تعتمد على رقابة طوعية تقوم على اساس الاتفاقيات القديمة التي ابرمت قبل ايام الكمبيوتر واجهزة الفاكس واتصالات الاقمار الصناعية. ويمكن استخدام الرقابة في حالة الحرب فقط.

وأخيرا فان مسؤولية مجتمع المخابرات امام الشعب ـ الممثل في البرلمان ـ ينبغي ان تزداد، فقد أظهرت فضائح الثمانينات بانه بينما يمكن تحقيق مهمات فردية بنجاح كبير، فان الوكالات تفشل عندما تظهر سوء التقدير وسوء استعمال الصلاحيات.

ينبغي الا يكون هنالك تناقض بين انفتاح المجتمع الديمقراطي ودفاعه بوسائل سرية، فاشعاع الحياة في بلد حرّ لا يحتاج الى محو على يد جهاز أمني مظلم، طالما يتضح من المسؤول: الشعب من خلال الحكومة المنتخبة في وضح النهار.

ان مهمة المخابرات أخطر من ان تترك لوكالات المخابرات وفي ايدي حفنة من السياسيين وحدهم.

الفصل العشرون

الى المستقبل

دخلت اسرائيل عصر الفضاء يوم ١٩ ايلول ١٩٨٨، فقد انفجر صاروخ في السماء من موقع اطلاق قرب ساحل البحر الابيض المتوسط جنوبي تل ابيب، على بعد قصير من مفاعل البحوث الذرية في ناحال سوريك.

لقد كان الظهور العلني لـ «شافيت»، صاروخ الاطلاق المستند الى صاروخ اريحا الذي طور كمركبة اطلاق ممكنة لقنبلة اسرائيل الذرية السرية. كان شافيت يحمل قمرا اصطناعياً اسمه اوفيك (الافق)، وقد قذفه في مدار في الفضاء، وقد صدف ان كان رئيس وكالة الفضاء التي كانت تحتفل باول عملية اطلاق ناجحة هو ساحر امان التكنولوجي المخضرم، يوفال نيمان، وقد أخبر المراسلين ان اوفيك مركبة تجريبية وقد دارت حول الارض اربعة شهور.

انطلقت تصريحات متباهية من نيمان، رئيس الوزراء شامير واسرائيليين آخرين، لتعكس الشعور بان الدولة اليهودية قد حققت اختراقا مهما، فبعد الانضمام الى النادي الذري بسرية مطلقة، كانت اسرائيل تعلن عن نفسها الدولة الثامنة على الارض، التي تملك صواريخ قادرة على اطلاق الاقمار الصناعية.

بعد وضع اوفيك في مداره المقصود الذي يتراوح من ١٥٥ ميلا الى ٦٢٠ ميلا فوق الارض، اثبت صاروخ اريحا/ شافيت الذي انتجته اسرائيل محليا، قدرته على اصابة هدف محدد، في الفضاء على ارتفاع عال او ارتفاع منخفض. ولم يعد هنالك أي لُبس حول البلد الذي يقود السباق لصنع صواريخ باليستية في الشرق الاوسط. وبدون المجازفة بحياة طياري سلاح الجو، تستطيع اسرائيل ان تضرب او تنتقم من اعدائها القريبين والبعدين على حد سواء.

والاهم من ذلك هو الامكانيات المستقبلية للتجسس من الفضاء، فقد خططت اسرائيل سلسلة من الاقمار الصناعية بعد اول قمر اوفيك، ويمكن ان يحتوي الجيل المقبل على آلات تصوير واتصالات متطورة. كما يمكن ان تقدر على البقاء في المدار، تمرّ فوق الشرق الاوسط كل تسعين دقيقة، لمدة تزيد على اربعة شهور. وقد تم اطلاق افق ٢ بنجاح في الثالث من نيسان ١٩٩٠.

في الوقت الذي تقوم فيه اسرائيل بتطوير نظام دائم من العيون في السماء، فانها سيكون لديها معلومات اكثر من أي وقت مضى لتعّد نفسها للحرب مع جيرانها العرب. وسوف تتم رؤية تحركات القوات والاستعدادات العسكرية الاخرى عبر الحدود في وقت ابكر مما هو متوفر حاليا.

وكما هو الحال في مجالات التكنولوجيا الاخرى، فان اسرائيل تريد ان تتخلص من أي اعتماد على احسان الاجانب: التوسل للولايات المتحدة لتقديم صور الاقمار الصناعية، او ارسال العملاء، مثل جوناثان بولارد، لسرقتها. وقد قال رئيس الموساد السابق مائير اميت: «اذا تغذّيت من فضلات الآخرين حسب نزواتهم فان هذا امر غير ملائم وصعب جدا. اما اذا كانت لديك قدراتك المستقلة فانك تتسلق مستوى أعلى».

لقد كان لدى الاسرائيليين ما يجعلهم يبقون عيونهم البشرية والالكترونية مفتوحة، فسوريا تكدس غاز الخردل والمواد السامة الاخرى التي يمكن تركيبها على صواريخ وفرها السوفيات لهم، كما بدأت ليبيا في تصنيع الاسلحة الكيماوية وقد اشترى سلاح القذافي الجوي معدات المانية غربية لتزويد الطائرات بالوقود وهي تطير على مدى بعيد.

ويجيء الخطر المتزايد بشكل اسرع من صدام حسين، الذي يسعى الى جعل العراق القوة العظمى في الشرق الاوسط فقد استخدم الاسلحة الكيماوية والصواريخ البعيدة المدى في حرب الخليج ضد ايران وهدد باطلاقها لتدمير «نصف اسرائيل». كما تم ضبط مهرّبي الاسلحة العراقيين وهم ينقلون التكنولوجيا الذرية، بينما كشفت بغداد عن صواريخ خطرة، بما فيها الصاروخ الذي يستطيع اطلاق قمر صناعي، وقد كشف عنه في عام ١٩٨٩. واستنتجت المخابرات الاسرائيلية ان صدام حسين يمكن أن يصبح لديه رأس حربي نووي في التسعينات.

لم يكن لدى مخططي اسرائيل الاستراتيجيين من خيار سوى ردّ ذي شقين: فقد ضاعفت المخابرات جهودها لتكشف كل شيء ممكن عن البرامج الذرية والكيماوية والبيولوجية والصاروخية في العراق. لكن المرافق في العراق موزعة ومحمية حماية قوية، فأية محاولة لشنّ غارة جوية على غرار عام ١٩٨١ ستكون اكثر صعوبة.

أما الجزء الثاني من الاستراتيجية السرية فهو القدرة على توجيه ضربة ثانية ـ الصمود امام هجوم عربي على ديمونا والمطارات الاسرائيلية. ويعتقد ان الاسرائيليين حققوا تقدما كبيرا في العمل، كما كشفت السي آي ايه ذلك في الستينات، على تطوير اسلحة ذرية تطلق من الغواصات: صواريخ كروز تنطلق على ارتفاع متدن يمكن اطلاقها من أنابيب طوربيدات معيارية وتستطيع ان تقطع الستماية ميل الى بغداد.

ان غواصات اسرائيل الثلاثة، التي حصلت عليها في عام ١٩٧٧ من بريطانيا، تقترب من الوضع الذي تصبح فيه عتيقة غير صالحة للاستعمال، لكن في صفقة لم تنكشف، عقدت في عام ١٩٩٠ رتبت اسرائيل لشراء غواصتين من المانيا الغربية، ثمنها نصف بليون دولار، تدفعه الولايات المتحدة كجزء من مساعداتها العسكرية لاسرائيل. ويمكن ان يصبح الرادع الذري القابل للنجاة، في عرض البحر، حقيقة واقعة في وقت قريب.

ومع ان اسرائيل وصلت الى ذروتها التكنولوجية، فان مجتمع مخابراتها لم يكن بمثل هذا التقدم، فالنظر الى المستقبل كان انصرافا مقبولاً عن استعراض الماضي، ففي نهاية الثمانينات كانت الاجهزة السرية تواجه مشكلات كثيرة، وقد تنظر اسرائيل الى الوراء بغضب، فالمجتمع لم يستطع ان يتخلى عن ذكريات وواقع الاخفاقات والنكسات التي جاءت في تتابع سريع :

- احكام الموساد الخاطئة في لبنان، .
- عمليات القتل والتغطية التي قامت بها الشين بيت،
- استخدام بولارد في التجسس على افضل اصدقاء اسرائيل في اميركا،
- اعتراض طائرة ليبية ظناً بانها كانت تقل ارهابيين فلسطينيين،
- التشويش الذي احدثته العلاقة الايرانية الاميركية السرية،
- فقدان السيطرة على العاملين لحسابهم و «المسؤولين السابقين» في كل انحاء العالم،
- السماح بتسرب الاسرار النووية،
- ضبط وطرد موظفي المخابرات لتحريكهم عملاء مزدوجين في بريطانيا،
- تشغيل نظام رقابة غير مناسب عفا عليه الزمن،
- تضليل الحكومة حول مستقبل الاراضي المحتلة، عندما كانت الانتفاضة الفلسطينية في بدايتها.

***

ان سيل العيوب في عقد ممقوت عبارة عن اعراض الامراض المتفشية بين الوكالات السرية للاقطار الاخرى: منافسات داخلية، افتقار السياسيين للسيطرة، رغبة في التوسع بما يتجاوز الحدود المعقولة، تنسيق سيء بين الوكالات، تجاوز الواجبات، وازدواجية الجهود.

لقد عانى مجتمع المخابرات الاسرائيلية من هذه العيوب في اوائل الخمسينات واوائل الستينات، كامراض طفولة، لكنه تغلب عليها. وفي الثمانينات عادت العيوب وظهرت على السطح، حيث ان الشروخ العميقة مزقت غموض المخابرات الاسرائيلية التي كانت تتصف بالدقة والاحتراف والمناعة.

ان الصورة مهمة جدا بالنسبة لوكالات سرية غير ظاهرة، كما ان معنويات العملاء الاسرائيليين مرتبطة بصورتهم لدى الاصدقاء والاعداء. وعلاوة على مشاعر عملاء اسرائيل انفسهم، هنالك اثر على استعداد الاقطار الاخرى للتعاون مع مجتمع المخابرات الاسرائيلية.

لقد كان الاجانب والاسرائيليون معجبين بقدرة وكالات المخابرات الاسرائيلية، على القبض على ايخمان في الارجنتين وانقاذ الرهائن في عنتيبي. كما ان الخبراء في الخارج اعتبروا اسرائيل الزعيم الواضح في الحرب المخابراتية الوقائية والحرب العامة ضد الارهاب الدولي.

وسعياً وراء الظهور بمظهر جيد، كان السياسيون الاسرائيليون يسرّبون بعض التفاصيل عن عمل الموساد الفذّ في اقناع الطيار العراقي منير ردفه بالهروب الى اسرائيل بطائرته الميغ ٢١، وانهمرت الدموع بغزارة عندما اصبحت المخابرات الاسرائيلية مخابرات يهودية لاحضار اليهود الاثيوبيين الى ارض الميعاد، وهذا ما حصل مع يهود العراق والمغرب واقطار اخرى.

لقد كانت اسرائيل حكيمة في الحفاظ على الصمت المطبق، حول معظم نشاطاتها السرية، وقد يكون الكشف عن عمل فذّ ذا قيمة في بعض الاحيان، لكن الكشف عن كيفية قيام اسرائيل بتقوية نفسها امر لا يهم احدا.

لقد ساعدت لاكام في بناء دفاعات اسرائيل بالحصول على اسرار علمية وصناعية من الخارج، ولم يكن هنالك اية نية للكشف عن وجود الوكالة الى حين اعتقال بولارد في عام ١٩٨٥، الامر الذي لم يترك اي خيار، وتواصل المخابرات الاسرائيلية متابعة نفس الاهداف، وان يكن باشكال مختلفة ودون استخدام مواطنين اميركيين بصورة مباشرة.

ان الخيار المؤلم في بعض الاحيان، بين السرية المطلقة لحماية المصادر وطرق تنفيذ العملية، وبين كشف الاسرار من اجل تحقيق نقاط في مجال العلاقات العامة، قد برز في اعقاب نسف طائرة مدنية اميركية، فعندما دمرت طائرة تي دابليو ايه ١٠٣ فوق لوكربي، في اسكتلندا، في نهاية عام ١٩٨٨ لم تكن اسرائيل واثقة ازاء من تستطيع ان تعلنه على الملأ، فقد كانت هنالك عدم رغبة في الارتباط بما كان اخفاقا مخابراتيا، لكن اسرائيل ارادت ان تتأكد من أن العالم سيحمل الفلسطينيين مسؤولية موت ٢٥٩ راكباً وبحاراً و ١١ شخصاً اسكتلنديا على الارض، وقد قامت اسرائيل باخبار مراسلين صحفيين مختارين بان يفكروا في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ القيادة العامة كمشبوه محتمل.

وحتى لو لم تقدم اسرائيل التلميحات القليلة، فان المحققين في اسكتلندا والمانيا الغربية ـ حيث اقلعت الطائرة ١٠٣ ـ كان يمكن ان يتصرفوا وفق الادلة الظرفية المتاحة لربط الجريمة الجوية بالقيادة العامة، والاهم من ذلك ان خلية من هذه المنظمة قد ضبطت متلبّسة في المانيا الغربية وهي تحمل قنبلة مصنوعة من متفجرات بلاستيكية وساعات توقيت تعتمد على البارومتر، مخبأة في مسجل توشيبا، وكانت قنبلة مماثلة قد دمرت الطائرة الاميركية.

كانت المخابرات الاسرائيلية، خاصة امان، تعرف بعض الشيء عن زعيم الخلية الذي اعتقل في المانيا، فقد كان حافظ قاسم دلقموني سجينا في سجن عسقلان، لمدة عشر سنوات، بعد اجتياز نهر الاردن في عام ١٩٦٩ ومحاولة نسف عمود كهرباء. وكان كل ما استطاع الدلقموني ان يفعله هو قطع ساقه، وبعد ان حكم عليه بالسجن مدى الحياة اصبح السجين مسلما متدينا لكنه كان ايضا زعيماً لمناهضة الصهيونية بين زملائه السجناء.

أفرج عن الدلقموني في عام ١٩٧٩، وهو في الثالثة والثلاثين، كجزء من تبادل اسرى مع القيادة العامة، وكان كثير من رجال المخابرات قد عارضوا ـ مثلما فعلوا عملية تبادل اسرى اكبر في عام ١٩٨٥ ـ الافراج عن رجال يعتبرون خطرين جدا. لكن السياسيين والقادة العسكريين الاسرائيليين يمكن ان يفعلوا كل شيء لضمان الافراج عن الجنود الاسرى لدى الفلسطينيين، فقد كان ذلك تقليدا مخابراتيا وعسكريا اسرائيليا.

لقد وصف ايغال كارمون، مستشار رئيس الوزراء اسحق شامير لشؤون مكافحة الارهاب، وصف الدلقموني قائلا: انه نسخة مكررة عن سيده احمد جبريل.

كانت نشاطات الدلقموني تتعرض للمراقبة عندما عاد الى القيادة العامة، وقد اسماه احد تقارير المخابرات الاسرائيلية «بقائد القطاع الغربي، وهو جهاز ارهابي دولي». كان يستخدم قواعد التدريب في سوريا ولبنان لكن عملياته في اوروبا كانت تستند الى عدة بيوت مامونة في المانيا الغربية.

يبدو ان الاسرائيليين قد زرعوا عميلا او اكثر في شبكة الدلقموني الالمانية لان ضابط ارتباط الموساد في بون استطاع ان يحذر المخابرات الالمانية الغربية من هجوم وشيك في تشرين الاول ١٩٨٨، وكان من المعتقد ان الهدف سيكون فريق كرة يد اسرائيليا يجوب اوروبا.

قامت مخابرات المانيا الغربية بعملية استطلاع وتصنت على خلية القيادة العامة وهواتفها، واتصلت الخلية، باستخدام الرموز، مع سوريا والاردن لتقول ان «الدواء» قد اصبح «اقوى من ذي قبل»، وفي الثالث والعشرين من تشرين الاول «الأمور جاهزة»، وتشاور الالمان مع ضابط ارتباط الموساد ثم بدأوا العملية.

تم اعتقال ستة عشر مشبوها في ٢٦ تشرين الاول، وضبطت القنبلة وترسانة اسلحة، ووجدت الشرطة وثائق تشير إلى ان القنبلة المتطورة كانت ستستخدم في اسقاط طائرة اسبانية متوجهة من مدريد الى تل ابيب: الطائرة الايبيرية رقم ٨٨٨، يوم ٢٩ تشرين اول. الا ان السلطات الالمانية الغربية اطلقت، خلال خمسة عشر يوما، اربعة عشر مشبوها من القيادة العامة.

بعد حوالي ستة اسابيع من كشف خلية الدلقموني، نسفت الطائرة الاميركية رقم ١٠٣ ولم يبق في السجن سوى الدلقموني وشريك له، واستنتجت وسائل الاعلام ان الالمان قد ارتكبوا غلطة كبيرة، فانتشرت قصص متناقضة حول عملاء مزدوجين مزعومين، وخونة، وتحذيرات يفترض انها وصلت لكنها لقيت تجاهلاً.

كانت كل القصص تضليلا، فقد كانت اجهزة المخابرات المحترفة جدا، في اسرائيل والولايات المتحدة والمانيا الغربية وبريطانيا العظمى والدول الاخرى المعنية تعمل بضرورة واحدة ملحة: حماية المصادر.

كانت كارثة الطائرة الاميركية مثالا للتعقيد الذي يكتنف محاولة الوكالات الامنية للتصدي لشبكة فريدة وصغيرةمن المخبرين : ارهابيين يعملون لحسابهم لا يوثق بهم .

بعد وقوع المأساة التي اودت بحياة ٢٧٠ ضحية، كان الهدف الملح لوكالات المخابرات العثور على الجناة دون التفريط بطرق جمع المعلومات ووتيرة العمليـة . وكان واضحـا ان خلية الدلقموني قد اخترقت، من قبل اجهزة الامن الاسرائيلية والاخرى، وقد تم الافراج عن معظم رجال الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ القيادة العامة من اجل حماية هويات المخبرين المزروعين فيها .

الا ان هنالك حقيقة مؤلمة تتمثل في ان الجيش الاسرائيلي قد ارسل رجال كوماندو في مهمة نادرة للاغارة على «مقر العمليات» التابع للجبهة الشعبية ـ القيادة العامة في الناعمـة، جنوب بيروت، قبل عشرة ايام من كارثة الطائرة الاميركية، والعادة ان سلاح الجـو الاسرائيـلي يقوم بقصف القاعدة من ارتفاع عال ومامون، وفي يوم ١١ كانون الاول، واستنادا الى معلومات من المخابرات، شعر الاسرائيليون ان هنالك جدوى من وضع جنودهم في خطر فادح للعثور على شيء في قاعدة الناعمة .

ربما كانت تلك محاولة لالقاء القبض على أحمد جبريل نفسه، لكن العملية أصبحت شائكة عندما قاتل رجال منظمة جبريل بضراوة، وكجزء من المعركة بعث الاسرائيليون بكلاب محملة بالمتفجرات لتفجيرها في اجزاء مزدحمة من القاعدة الفلسطينية، وقد قتل ضابط اسـرائيلي وتم اجلاء عشرات الجنود بسرعة، بطائرة هليكوبتر، ومع هذا فان اسرائيل تصف غارة الناعمة بانها نجاح كبير، مما يؤدي الى التكهن بان اسرائيل علمت شيئا مهما عن عمليات الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة ـ ربما خطط خلية الدلقموني في المانيا الغربية .

بينما كان لدى الاسرائيليين معلومات داخلية ـ من عميلهم أو عملائهم المدسوسـين في الجبهة الشعبية ـ القيادة العامة أو من الهجوم على الناعمة ـ فقد كانت المعلومات واضحة بشكل جعل الموساد تطلق تحذيرا يتعلق بالطائرة الاميركية ١٠٣، يوم ٢١ كـانون الاول، لكن حتى افضل المخابرات في العالم يمكن ان تخفق في الحيلولة دون وقوع كل جريمة ارهابية .

إلا أن التسللات الاسرائيلية داخل صفوف العدو شيء قيم جدا، غير انها، كما جاء في تقييم سري وضعته السي اي ايه في عام ١٩٧٦ : «ان ضبـاط المخابـرات العسكريـة (امان) يواجهون مشكلات في التعامل مع العملاء العرب، الذين يميلون الى المبالغة ويحجمون في اغلب الاحيان عن ايراد التفاصيل الدقيقة، لذلك فان ضباط المخابرات العسكرية يشجعون عملاءهم العرب على توفير الصور والخرائط والوثائق التدعيمية الاخرى كما ان ضباط المخابرات العسكرية

يقومون بعمليات تأكد مزدوجة من التقارير، يستخدمون في اغلب الاحيان عملاء آخرين في نفس المنطقة.

رغم التحذيرات الاسرائيلية خلال التدريب، فان العملاء العرب يميلون الى اخبار جميع افراد اسرتهم حول ارتباطهم بالمخابرات العسكرية. وقد يقوم عميل عربي بتجنيد كل افراد عائلته المباشرين كعملاء فرعيين، ويحاولون جعل ضابط الحالة ان يدفع لهؤلاء الاقارب رواتب، ويشير الاسرائيليون الى العملاء الفرعيين من الاسرة بانهم «غيز فعالين» وقد يقوم هؤلاء العملاء الفرعيون في بعض الاحيان بافساد عملية بأكملها نتيجة التفاخر بنشاطاتهم».

ان كاتبي تقرير السي اي ايه لم يعرفوا كيف ان تقريرهم عكس سلوك اسرة بعينها، آل شاهين في مصر، فرغم تردد مجتمع المخابرات والرقابة الاسرائيلية، فان الصحف الاسرائيلية كشفت في تشرين الثاني ١٩٨٩ كيف قامت امان بتجنيد ابراهيم وانشراح شاهين، وهما فلسطينيان يعيشان في القاهرة، وكانت عملية تجنيد مثالية من قبل المخابرات الاسرائيلية. وتم العثور على الشخصين في بلدة العريش في سيناء، بعد حرب ١٩٦٧، وبعد الانتقال الى العاصمة المصرية، بدأ تقديم المعلومات الأهم لآمان. بل كانا يبعثان بمعلومات جيدة عن استعدادات مصر لحرب ١٩٧٣، لكن تم تجاهل مؤشرات الحرب نتيجة الرضى الاسرائيلي عن الذات في تلك الفترة. أصيب الشاهينان بأسوا مرض يمكن ان يصيب جاسوسا: الاهمال، من جانبهما ومن جانب من يحركهما، واعتقل المصريون ابراهيم شاهين في عام ١٩٧٤ وأعدم بعد ثلاث سنوات، أما زوجته وابناؤها الثلاثة فقد سجنوا.

بعد مفاوضات السلام بين الرئيس المصري انور السادات ورئيس الوزراء الاسرائيلي مناحيم بيغن، تم الافراج عن الاسرة بهدوء واستطاعوا الدخول عبر الحدود الاسرائيلية وقد ساعدهم مجتمع المخابرات في التحول الى اليهودية وبدء حياة جديدة، لكنهم عانوا من اكتئاب ما بعد فترة التجسس وشكوا من أنهم لم يتلقوا التعويض المناسب وانهم عوملوا معاملة مشينة.

تثير قضية آل شاهين جدالا حادا داخل السي اي ايه حول قدرة اسرائيل على ادارة العملاء في الاقطار العربية، حيث يقول بعض رجال السي اي ايه ان اسرائيل تواجه العوائق نتيجة عدم وجود سفارات لها في الاقطار العربية فيما عدا مصر، مما يجعل من المستحيل وجود جواسيس يعملون تحت غطاء دبلوماسي. كما يقول الاميركيون ان الموساد «ضعيفة في الحصول على اشخاص في وظائف عالية في الأجهزة العربية»، بيما في ذلك اولئك الذين يسمون بالمتطوعين مثلما فعل بولارد، لأسباب ايديولوجية، ويقول آخرون من السي آي ايه ان عدم وجود السفارات أجبر جواسيس اسرائيل على شحذ مهاراتهم وتطوير وسائل سرية للتغلغل في المجتمع العربي.

واخيرا كان المتطوع طيارا، فقد أصبح محمد بسام عادل أول منشق من سوريا، أشد أعداء اسرائيل، يوم ١١ تشرين الاول ١٩٨٩ وكان عادل برتبة رائد في سلاح الجو السوري وقد لقي ترحيبا خاصا لأنه أحضر طائرته السوفياتية الصنع من طراز ميغ ٢٣، وكان أعزب في الرابعة والثلاثين، وقد خاطر باسقاطه من قبل زملائه السوريين والاسرائيليين عندما طار بطيارته الى مطار صغير في شمال اسرائيل.

ذهب وزير الدفاع رابين وكبار ضباط مخابراته العسكرية الى المطار على الفور لبدء استجواب عادل، وزعم السوري فيما بعد، في مؤتمر صحفي عقدته أمان، بانه تصرف بمحض اختياره «لانني اريد ان اعيش في بلد ديمقراطي حيث يستطيع الناس ان يعبروا عن وجهات نظرهم بحرية»، وانه لم يتصل باي اسرائيلي قبل رحلته المثيرة.

قال المسؤولون السوريون ان عادل كان جاسوسا للموساد منذ أربع سنوات وانه سرق الطائرة النفاثة، وقد تصرفت اسرائيل كما لو أنها فوجئت بوصوله وانها تضايقت لان الدفاعات المضادة للطائرات لم تستطع ان تمنع طائرة ميغ واحدة من اجتياز الحدود.

يبدو ان الحقيقة اكثر تعقيدا، وهو أمر مناف للعقل أن يجازف طيار سوري باسقاطه على يد الدفاعات الجوية المشهورة لعدو بلاده، من أجل الحرية، فقد كان يمكنه ان يطير الى تركيا أو قبرص، فيبهج حلف الناتو بتقديم طيارته كهدية، ومن المحتمل ان عادل قد تم تجنيده في سوريا على يد جاسوس اسرائيلي، مثلما تم اغراء منير ردفه للهروب من العراق في عام ١٩٦٦، وتلقى عادل هوية جديدة والمساعدة على بدء حياة جديدة.

فيما يتعلق باعلان سلاح الجو الاسرائيلي بان فشل نظام الدفاع الجوي سيتم التحقيق فيه، لعدم كشف الميغ ٢٣ المتسللة، حيث يبدو ان النقطة المقتربة على شاشة الرادار قد أسيء تفسيرها، وكانت المخابرات الاسرائيلية تعرف ان الرائد عادل سينشق لكن لم تكن تعرف متى، واذا كان أعطى اشارة مرتين بشكل مسبق فانها لم تصل، فيكون ذلك اخفاقا فنيا من قبل الدفاع الجوي، وكان يمكن ان يكون الامر مفجعا اكثر لو ان الاسرائيليين قاموا باسقاط عادل بالخطأ، والثروة الاستخبارية التي كان يطير بها.

إلا أنهم حصلوا على الجائزة الثمينة وانشغل خبراء أمان في فحص كل قطعة من الميغ ٢٣، وكان الروس قد بدأوا تزويد سوريا بهذا النموذج من الطائرات في عام ١٩٧٣، لكن كانت طائرة المنشق تحتوي على بعض الاضافات الالكترونية المثيرة، التي أفادت الاسرائيليين كثيراً عن قدرات الطائرة السوفياتية في القصف والمعارك بين الطائرات.

وقامت امان والموساد بتقديم المعلومات ـ مع اتاحة الفرصة للتفتيش ـ لسلاح الجو

الاميركي والسي آي ايه، أملاً في ان هذا سيؤدي الى مزيد من اصلاح بعض الاضرار التي الحقتها فضيحة بولارد بالتعاون الاستراتيجي.

ان تبادل المخابرات هو العمود الفقري السري وراء الصداقة الحميمة التي تربط اسرائيل بالولايات المتحدة، وهذا شيء حيوي للدولة اليهودية، ومنذ فضيحتي بولارد وايران غيت تقوم الموساد بحراسة دورها القيادي في علاقاتها السرية مع الاميركيين.

لقد نشبت معارك مطردة بين الوكالات الاسرائيلية، وقد تطورت منافسة مباشرة عندما أعطت الموساد بنها لمايك هاراري، ومناطق أخرى لمخضرمي المخابرات، في ترتيبات سرية. وقد بدأت وزارة الخارجية تظهر عضلاتها عندما شعرت بان الموساد تجاوزتها، وقد أجبرت وكالة التجسس على التسوية في اواسط الثمانينات حيث أصبحت مسؤولية تجديد العلاقات الدبلوماسية مع كينيا مهمة وزارة الخارجية، بينا ظلت نيجيريا منطقة تابعة للموساد.

في بابوا نيو غينيا، في جنوب الباسيفيك النائي، ادى طلب للمساعدات الاسرائيلية في عام ١٩٨٧ الى إثارة جولة جديدة من التنافس، فقد طلب زعماء ذلك البلد الصغير مساعدة الموساد على اقامة جهاز أمني خاص ببلدهم، لمراقبة التوسع الاندونيسي، وزعمت الموساد أنها تفتقر الى القوة البشرية، فطلبت إحالة بابوا نيو غينيا الى واحد من «العملاء السابقين» كاقطاعية جديدة، لكن وزارة الخارجية منعت الخطة.

وفي تصرفها على نطاق واسع كجهاز دبلوماسي بديل، فتحت الموساد الأبواب وابقت على العلاقات مع عشرات الاقطار التي تفضل ابقاء هذه العلاقات سرّا، لكن النبش تحت السطح يكشف سؤالاً اساسيا: ما هو الشيء المثير الذي تقوم به وكالة مخابرات وتقوم به وزارة الخارجية عادة؟

يمكن القول أنه لا يوجد اي قيمة من الحفاظ على علاقات سرية مع أقطار لا تظهر الكرم أو النية الطيبة ليكون لها علاقات دبلوماسية علنية مع اسرائيل، فالموساد تعطي الاقطار الاخرى مخرجا سهلاً - تلقيّ المشورة العسكرية والطبية والزراعية من الاسرائيليين المتحمسين جدا دون المجازفة بمقاطعة اقتصادية أو سياسية من قبل العالم العربي.

وفي الحقيقة فان الدبلوماسيين - الجواسيس والدبلوماسيين الرسميين لاسرائيل يصعقون عندما لا يوافق بلد أجنبي على اقامة علاقات مكشوفة مع الدولة اليهودية وقد كان قرار اثيوبيا، باستئناف العلاقات الرسمية مع اسرائيل في تشرين الثاني ١٩٨٩ ثمرة سنوات من العمل السري الذي قام به مبعوثو الموساد وحققوا عدة فوائد كبيرة، احتمال رحيل الاف اليهود الاثيوبيين، الـذين ظلوا بعد أن واجهت الهجـرة السريـة مصاعب، الى اسـرائيل، واقـامة مـركز تصنت

استخباراتي اسرائيلي على ساحل البحر الاحمر، يواجه السعودية ويراقب الحركة البحرية واللاسلكية الى ومن الاردن والسودان ومصر، واعادة فتح سفارة اسرائيل في اديس ابابا كمحطة مناسبة للموساد. ومقابل ذلك قام الخبراء الاسرائيليون في الزراعة وحرب رجال العصابات بتوفير التدريب للحكومة التي كانت تعاني من المجاعة والثورات الاقليمية.

إلا أن اسرائيل كان عليها في معظم الحالات ان تعيش مع الواقع المتمثل في أن كثيرا من الدول الاجنبية تصرّ على عمل ذلك بطريقة سرية، فخوفا من تسرب المعلومات للصحافة، ترفض ان تتعامل مع وزارة الخارجية الاسرائيلية، ومع هذا فانها تستفيد من علاقة ثنائية وقد أصبح لها ثقة كاملة في قدرة الموساد على أن تكون الحارس الكبير للسرية، وكان من بين الاقطار المعنية الصين واندونيسيا والمغرب.

لم تتغير حاجات اسرائيل الدفاعية، طوال اكثر من اربعة عقود، فما تزال الدولة محاطة باقطار معادية، تزداد رغبتها في القبول بحقيقة وجود اسرائيل لكنها تواصل التآمر والكفاح لاضعافها، وحتى عندما بدأ عرفات ومنظمة التحرير الفلسطينية نهجا دبلوماسيا جديدا، فان اسرائيل ما تزال تواجه ارهابيين فلسطينيين متطرفين، عليها أن تتصدى لهم.

ان الاحصائيات السكانية التي تحوم حول اسرائيل ما تزال تستدعي الهجرة اليهودية اليها، حتى لا يتفوق العرب داخل الاراضي الاسرائيلية عليها من حيث العدد، وسوف يستدعي هذا الامر مخابرات يهودية، وعلاوة على ذلك فان اسرائيل ستحتاج الى بحث وتطوير مزاياها التكنولوجية والصناعية، تستخدم الابداعية بالاضافة الى ذلك النوع من التجسس الذي كان تخصص لاكام، لتظل متقدمة على العرب.

لقد كانت اسرائيل دائما قوية فيما يتعلق بالافكار والحقائق، ومجتمع المخابرات ناجح جدا في الحصول عليها، كما انه من بين افضل مجتمعات المخابرات في العالم ازاء تنفيذ المهمات المحددة مثل هجوم ضد اهداف بعيدة عن حدود اسرائيل.

إلا أنّ المخابرات الاسرائيلية ليست جيدة في معالجة وتحليل وتقييم المعلومات التي تحصل عليها، حيث تظل مشكلات التنسيق متمثلة في نشر البيانات الى «الزبائن» المتعددين في الدوائر الاسرائيلية الرسمية، وقد سبب ذلك الامر الفشل في رؤية حرب ١٩٧٣ تلوح في الافق.

لم يدرك محللو المخابرات، في عام ١٩٦٧ ان احتلالا طويل الامد للضفة الغربية وقطاع غزة يمكن ان يكون مؤذيا لاسرائيل. ولم يتنبأوا بالمبادرة السلمية التي طرحها الرئيس المصري انور السادات بعد عشر سنوات، ولم يقيموا، بشكل صحيح، الوضع في لبنان عندما خططوا الغزو الاسرائيلي في عام ١٩٨٢، ولم يتكهنوا بالحرب بين ايران والعراق عام ١٩٨٠، ولا نهاية الصراع

في ١٩٨٨. ولم يكشفوا ان السعودية، نتيجة لحرب الخليج، كانت تشتري الصواريخ الصينية متوسطة المدى التي يمكنها ان تصل اسرائيل.

لقد أصبح أمرا تقليديا في اسرائيل، في خروج حادّ عن الثناء الآلي الـذي كانت تلقـاه وكالات المخابرات فيما مضى، أن يوجه اليها اللوم على احداث تأخذ مسارات غير متوقعة أو غير مرغوب فيها.

ان جواسيس اسرائيل، الذين كانوا يكرّمون ذات يوم كالامراء يوصفون الان بانهم انانيون ومرتبكون، ومع ان الشرق الاوسط يتحدّى التوقعات البسيطة فان الاسرائيليـين، من خلال الروح الجديدة الناقدة، يعربون عن خيبة الامل عندما لا تستطيع أجهزتهم السرية ان تحرّك عصا سحرية وتحلّ جميع المشكلات المعلقة.

عندما انتهت الثمانينات، لم تكن اسرائيل متأكدة من شعورها ازاء مجتمع مخابراتها، فقد قيل للشعب، باختصار ودون تفصيل، ان للشين بيت مديـرا جديـدا منذ عـام ١٩٨٨، وان للموساد رئيسا جديدا في عام ١٩٨٩، ولم يكن بمقدور الاسرائيليين الا ان ياملوا في أن يتصرف الرجلان الجديدان بشكل افضل. ربما كانت التـوقعات في المـاضي مرتفعـة جدا، كـما كانت اخفاقات البصيرة مبالغا فيها في اغلب الاحيان. وما يجب على المواطنين الاسرائيليين ان يدركوه هو ان المخابرات امتداد لسياسات بلدهم، فاذا كانت السياسات خاطئة فان افضل المخابرات في العالم لا تستطيع ان تصلحها.

من المشكوك فيه ان غولدا مائير وموشي دايان كان يمكن ان يبدآ الحرب في ١٩٧٣ حتى وان حصلا على التحذيرات المناسبة من امان والموساد، فقد كانا أسيري «المفهوم» بان العرب غير قادرين على هزيمة اسرائيل. كما ان زعماء الحكومة في عام ١٩٨٢ او على الاقل مناحيم بيغن واريل شارون، كانوا مصممين على اخراج منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان وما كان ليمنعهم اي شيء تقوله الموساد.

لقد بدا ان رئيس الوزراء شامير كان يعطي أهمية ضئيلة لتقييم استخباري قدمته أمان في عام ١٩٧٩، حين حذرت بان اسرائيل ليس امامها من بدائل سوى التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية. فقد قال شامير في البداية انه لا يوجد مثل هذا التقرير، ثم شجب كل من سرّبه من مجلس الوزراء بغض النظر عمن يكون، وفي سياق آخر، كشف شامير اعجابه بالسرية: «ان الاحداث تعرف عادة من قبل الذين يجب ان يعرفوا، والذي لا يعرف ينبغي ان يظل لا يعرف».

يقال أن مساعدا كبيرا لرئيس الوزراء انتقد تقييم امان في رسالة الى رئيس الوكالة، الجنرال امنون شاحاك، مضيفا انه اذا تم نشر التقرير فانه سوف يستخدم من قبـل الولايـات المتحدة لممارسة الضغط على اسرائيل لاجراء محادثات مع منظمة التحرير الفلسطينية.

ان الخطر المتمثل في ان يُصبح مجتمع المخابرات مُسيّساً يتزايد، حيث ان القضية الفلسطينية المعلقة والخلاف حول الاتصالات مع منظمة التحرير الفلسطينية يجزىء المجتمع الاسرائيلي. وطالما استمرت المشكلة ولم يحدث اي اجماع، فان رؤساء المخابرات يجدون صعوبة في العمل في بيئة مهنية تطغى عليها المصالح السياسية. فاذا كان نصف اسرائيل يرفض رفضا قاطعا ان ينظر في التعامل مع منظمة التحرير الفلسطينية، كما ظهر في قضية وايزمن عام ١٩٨٩، فان مهمة مجتمع المخابرات المتمثلة في توفير تقييمات موضوعية خالية من العواطف لواحدة من اكبر القضايا التي تواجه اسرائيل، يصبح أمراً شبه مستحيل.

وحتى اذا أخذ السياسيون بالنصيحة والتحليلات والحكمة المقدمة من رؤساء مخابراتهم، فهل يساعد هذا في عملية اتخاذ القرارات؟ هل ان الطاقات والموارد الضخمة التي توضع في الاجهزة السرية ضرورية تماما لاسرائيل؟

لقد اخفقت المخابرات الاسرائيلية في التكهن بالهجوم المفاجىء الذي شنته مصر وسوريا في عام ١٩٧٣، وكما هو الحال في مفاجآت غزو هتلر لروسيا والهجوم الياباني على بيرل هاربر في عام ١٩٤١، فان الحقائق الفردية التي كان يمكن ان تشكل صورة مربكة للعدوان الذي يلوح في الافق كانت متوفرة. لكنها لم تجمع معاً، ككل متماسك ومقنع، كما أن زعماء البلدين المستهدفين تجاهلوا الاشارات التحذيرية.

ان هذه اخفاقات مخابرات ذات طبيعة استراتيجية ـ التعامي عن قضايا الحرب والسلام، وقد أظهر التاريخ الحديث ان مجتمعات المخابرات لا يكون لها راي كبير في صياغة السياسات، لكن لها دورا في متابعة اهداف محدودة ومحددة يضعها سادتها السياسيون، وليس هنالك اي شك في ان المخابرات يمكن ان تكون مفيدة على صعيد تكتيكي.

في الاعداد لحرب، وخوضها، تشكل المعلومات المسبقة عن وضع قوات العدو وقوته النارية عنصرا رئيسيا في تحقيق النصر ـ طالما يتم تحليل المعلومات وتوزيعها بالشكل السليم. وشبيها بذلك، فان المخابرات الوقائية تستطيع ان تنقذ الارواح بتوفير كلمة مسبقة عن هجوم ارهابي متوقع، كما ان العملاء السريين هم الخيار المثالي لتنفيذ المهمات المحددة التي تستدعي في اغلب الاحيان دقة كاملة.

لقد فعلت المخابرات الاسرائيلية كل ذلك، لكنها اختبرت دورا أعمق واوسع في دفاع اسرائيل. فبالركون المفرط على التخطيط الممتاز والطموحات المفرطة، فان الوكالات السرية خرجت على طبيعتها الحقيقية، وينبغي معرفة الحدود الخارجية لما يمكن انجازه. ينبغي على اسرائيل الا تتوقع من مجتمع مخابراتها اكثر مما يجب: مثالاً رائعا لما يستطيع بلد صغير بثروات ضئيلة ان يفعله باستخدامها الى الحد الاقصى. وقد أظهر تاريخ مجتمع المخابرات الحدود التي لا مفرّ منها والانجازات القصوى للمخابرات.

الفهـــرس

أمراء الموساد

يسرد هذا الكتاب التاريخ الشامل لنشاطات اجهزة الاستخبارات الاسرائيلية بفروعها المتعددة وعلى رأسها جهاز الموساد الذي يتولى العمليات الخارجية، وجهاز آمان وهو الذراع المخابراتي للاجهزة العسكرية، والشين بيت وهو الجهاز المسؤول عن الأمن الداخلي وهو يماثل جهاز التحقيقات الفدرالية الامريكي (FBI).

وهذا الكتاب «امراء الموساد» يكشف وربما لأول مرة عن وجود اجهزة اخرى للتجسس الى جانب الاجهزة السابقة الذكر وكذلك يكشف عن تطوير اسرائيل وانظمة تسلح جديدة. كذلك يتناول الكتاب مسألة التهديدات المستقبلية لاستخدام الاسلحة الكيميائية والبيولوجية والنووية في الشرق الاوسط. ويسلط الكتاب اضواء جديدة على العمليات الشهيرة للموساد ومنها عملية عنتيبي، وعملية ضرب المفاعل النووي العراقي عام ١٩٨١، كذلك قضية الجاسوس الامريكي بولارد بتشعباتها السياسية المعقدة، وكذلك القمع الوحشي للانتفاضة الفلسطينية في الضفة الغربية وغزة. وحين نختار اي كتاب صادر عن اسرائيلي او موال لاسرائيل فان اختيارنا يجيء من ايماننا بضرورة الاطلاع على ما يكتبون وكيف يعيدون رواية الاحداث التي جرت حتى نعرف كيف نتصرف وكيف ننظر الى اسرائيل من خلال ما يقوله رجالها والمطبلون لها ولانجازاتها وبطولاتها التي يحاول الاسرائيليون بها ان يزرعوا في قلوبنا الخوف من قدرتهم على التسلل الى كل مكان في العالم.

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، ساقية الجنزير، بناية
برج الكارلتون، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي، هـ ١/ ٨٠٧٩٠٠
تلكس: LE/DIRKAY ٤٠٠٦٧

الغلاف: زهير أبو شايب